

السكرانير السابع و الأخير

نشوء و انهيار

الإمبراطورية الشيوعية

لورين



1914

1991

ستالين



1929

1953

كروتشيف



1953

1964

بريجهف



1953

1962

شوراليف



1962

1982

سنداي



1982

1991

لورين



1989

1991



لتحميل أنواع الكتب راجع: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

براي دائلود كتابهای مختلف مراجعه: (منتدی اقرا الثقافی)

بۆدابه زانندی جوهرها کتیب: سەردانی: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

www.iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتيب (کوردی , عربي , فارسي)

ميشال هيلر

السكرتير السابع والأخير

غورباتشيف من العظمة إلى البؤس
نشؤ وانحيار الأمبراطورية الشيوعية

ترجمة

الدكتور حسن الضيقة

الدكتور نظير جاهل

شركة المطبوعات



للتوزيع والنشر

بناية الوهاد - شارع جان - دارك

ص.ب. ٨٣٧٥

بيروت - لبنان

هاتف: ٢٤٤٢٣٦ - ٢٤٥٤٦٠ / ٢ - ٢٥٠٧٢١

فاكس: ٥٢٢١٠٧ - ٩ - ٣٥٧ / ٦٠٢٠٢٩ - ٩٦١١

تلكس: ٢٢٦٦٦

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

تہید

ينطلق هذا الكتاب من نظرة جديدة إلى ما يحدث اليوم من تغييرات كبرى في الاتحاد السوفيتي. فبعكس معظم من كتب في هذا الموضوع، يرى ميشال هيلر أن الخطأ الذي يتبعه غورباتشيف لا يشذ من حيث منطلقاته العامة عن الأصول الشيوعية، بما هي سياسة سلطوية عملية، بدأت تترسخ مع لينين إثر انقلاب أكتوبر عام ١٩١٧.

وهو يدلل على مقولته هذه بأسلوب بديع يجمع بشكل رائع بين السيرة والتحليل التاريخي، متخبطاً التسلسل الحدتي حيناً، مكثفاً الزمان أحياناً، متنقلاً في الفترة نفسها بين عهود الحكم السوفيتي، داخلاً بين صور الزعماء السوفيت المتعاقبين، حتى ليظهر غورباتشيف بشارب ستالين، ويتكلم بالدق الخطابى الذي يتميز به لينين...

من هو غورباتشيف؟؟ وراء فرادة الشخص وأبهته يخفي بؤس النظام السوفيتي. والمبدأ الذي لم تشذ عنه أية مرحلة من مراحل: السلطة قبل أي شيء وفوق أي شيء، من برست لينين إلى تنازلات غورباتشيف، يظهر الحزب منفصلاً عن المجتمع، وكأنه دائم الإستعداد للمقامرة به - المجتمع - حفاظاً على موقفه.

إننا نشهد هنا قراءة موضوعية داخلية لتاريخ الاتحاد السوفياتي بوصفه حقبة من تاريخ روسيا العظيم. قراءة نقدية قاسية تركز على مساوئ سلطة الحزب، أو حتى على الشرور التي لا تخلو منها فكرة الحزب بحد ذاتها.

الحزب/ الجهاز السلطوي الذي أتلّف نسيج المجتمع، ودُمّر الريف محدثاً مذابح فلاحية لا مثيل لها، فاصلاً الفلاح عن أرضه وحيواناته الأليفة، ليجعل منه عبداً جديداً في الكولخوز... الكولخوز، ما هو هذا الكائن الجديد؟ كيف يعمل؟

إن قراءة فصول هذا الكتاب حول اقتصاد الريف تعطي انطباعاً بأن علم الاقتصاد الإشتراكي ينكشف هنا في سياق، إيقاعات الحياة الريفية التي تبرز في ثنايا النص، وكأنه حجاباً يتمزق أمامنا.

الحزب/ الجهاز الذي يمنع الكلام الحي من خلال الدعوة - الغلاسنوست إلى الحديث عن الحقيقة، حقيقة تُقال بأمر السلطة... ليست الغلاسنوست جديدة، إنها تقنين دائم لكلام الناس الذين عليهم أن يتكلموا بحرية.

إن الكلام عن الحزب الشيوعي هو هنا، في هذا الكتاب، كلام عن كنه أي حزب/ جهاز سلطوي بما هو شرٌّ يتعارض مع حرية الإنسان فرد ومجتمع... شرٌّ يفسّر البلاء الذي منيت به الشعوب في التاريخ السياسي الحديث.

إنه الكتاب الذي يفسر نشوء وانحيار آخر الأباطوريات في القرن العشرين، بحيث يظهر فيه غورباتشوف لا كصاحب خط جديد (إيديولوجياً، سياسياً، اجتماعياً) بل كمحاول لإلباس زي جديد لإيديولوجيا ظهرت أوائل هذا القرن، وكأنها لم تزل صالحة لأواخر هذا القرن...

إن هذا الكتاب يُرينا كيف أطلق غورباتشوف «عجلة» البريسترويكا والغلاسنوست لتحديث الحزب/ الجهاز، وكيف خرجت هذه العجلة عن السكّة... فكان السقوط العظيم للفكرة/ الإيديولوجيا... وللرجل.

الناشر

الجزء الأول

رسول القدر

«وأتى رسول القدر»

اسكندر يوسكين

الفصل الأول

الموتى الثلاثة

«الأخ الأكبر يأبى أن يموت»

جورج أورويل

واحد تلو الآخر، اختفى ثلاثة أمناء عامين: بريجنيف في تشرين الثاني ١٩٨٢، أندروبوف في شباط ١٩٨٤ وتشيرينيكو في آذار ١٩٨٥. فهل من شهادة أفصح وأجلى عن الأزمة العميقة التي يمر بها النظام؟ لقد أصبح ملحاً وحيوياً إيجاد مرشد جديد يتمكن من إثبات أن هؤلاء العُجَز الذين يبدون بوجوههم الشمعية على شفير الموت والذين يزيتون منابر المؤتمرات وشاشات التلفزيون ليسوا إلا امارات تدل على أفول الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، أو على سقوط آخر الامبراطوريات في عصرنا. ويفسر ثقل الانتظار وكثافته - الانتظار الذي بدأ مع الوفاة الأولى - الاستقبال الذي حُصَّ به يوري أندروبوف. وبصورة أخرى كيف نفهم أن يثير مجيء رجلٍ لى الحكم في الاتحاد السوفياتي، كان طوال خمس عشرة سنة رئيس أقوى استخبارات عرفها التاريخ، رجل قام بتنظيم حملة قمع لا تعرف الرحمة وكان دون شك وراء إنشاء الاممية الارهابية، أن يثير موجة من الحماس العام خاصة في الغرب؟ فالأصوات النادرة التي ارتفعت آنذاك لتحذر أو تنتقد، خنقت سريعاً تحت وطأة جوقات المديح.

ولكن أندروبوف لم يتأخر عن مغادرة المسرح، إلا أن الأمل لم يتبدد برحيله. فقد بقي ما تركه من مشاعر قوياً واستمر محرك الدعاوة في جهوزية عالية بانتظار أية إشارة، لا بد من أن يأتي غلص. وقد أتى.

الكتابة الأولى عن سيرة ميخائيل غورباتشوف نُشرت في نيويورك في اليوم نفسه الذي انتخب لى منصب الأمين العام. وقد توالى كتابات أخرى بوتيرة متسارعة.

ونجد بين معدّي هذه السّير صحافيين (ألمان، هنود، فرنسيين) وعالم بيولوجيا، وعالم اجتماع... وهي قد نشرت تحت عنوان ثابت «غورباتشيوف»، في هامبورغ ولندن وباريس ودلهي وفي جميع أنحاء العالم. وحده ألكسندر زينوفيف شدّد عن القاعدة متقياً، بعد تفكير بهذه الظاهرة، عنواناً لمؤلفه «الغورباتشيوفية أو سلطان الوهم».

أما مؤلفو السّير فلم تتيسر لهم سوى مصادر شحيحة وظلت معلوماتهم هي نفسها محدودة جداً دون أي تنوع، إضافة إلى أن النغمة العامة التي بدت متعاطفة، كانت تتلاءم تماماً مع سيرة المخلص «المقدسة».

ويمكن تفسير الفعالية المدهشة لهذه السّير من خلال ما تلجأ إليه من منهج صحافي: يحرص مؤلفو «النسخات الغورباتشيوفية» المختلفة على إبراز «الجديد المستحدث»: شباب الأمين العام الذي يستتبع مباشرة نظرتة الجديدة إلى العالم. الاجراءات الأولى من نوعها التي تحمل آمالاً كبرى، حس متطور جداً بأهمية التبادل والتواصل... وسوف يطبع هذا الاتجاه الصحافي المقالات والتعليقات التي لا تخصي والمخصصة لغورباتشيوف. وكونهم اختصاصيون في السبق الصحفي، لم يهتم الصحافيون إلا باللحظة الراهنة دون الالتفاف إلى الماضي الذي غالباً ما كان كفيلاً بتغيير دلالة الأحداث وما تحمله من معانٍ.

غير أن مقارنة مختلفة لظاهرة غورباتشيوف تبدو ممكنة، وهي المقاربة التاريخية. حيث تسمح من خلال تبديل زاوية الرؤية بالتبصر بهذه السنوات الخمس الأخيرة في إطار السنوات السبعين من تاريخ الاتحاد السوفياتي. فلم تمض ثلاث سنوات على تولي غورباتشيوف السلطة حتى نشر عنه اثنا عشر كتاباً. كانت النسخة الأولى عن سيرة ستالين قد ظهرت عام ١٩٣١ أي بعد تسع سنوات على انتخابه إلى منصب الامانة العامة.

غير أن الاختلاف هنا لا يعني أن حياة وإنجازات «الجيورجي»، كما كان يقول لينين، كانت أقل أهمية أو شأناً من تلك التي ميّزت الطالب السابق في كلية الحقوق في جامعة موسكو. إذ أن الأمر يعود ببساطة إلى أن الشغف بالاتحاد السوفياتي لم يكن قد وصل إلى ما وصل إليه عام ١٩٨٥.

إن لميخائيل غورباتشيوف أهمية بذاته، إلا أن دوره هو الذي يحمل قبل أي شيء

دلالة مميزة. وذلك لأنه السكربتير السابع. رغم أن هذا العدد قد يكون موضع تشكيك وإن من موقع متكلف، ذلك أن لينين لم يكن في أي وقت سكربتيراً، إذ كان داخل الحزب مجرد عضو في اللجنة المركزية حيث يضطلع الأمناء بوظائف إدارية، فلينين بصفته مؤسساً للحزب لم يكن بحاجة إلى أي صفة رسمية. أما شرف تحويل هذه الوظيفة التي حددها لينين بمراقبة نشاط الأمناء الآخرين إلى مرادف لمهمة مرشد الحزب والدولة، فيعود لستالين الذي انتخب إلى منصب الأمين العام المستحدث آنذاك.

ولحظ كارل رادك، وقد كان سليط اللسان، أن تاريخ البشرية الذي كان يُقسَّم حتى الآن إلى مرحلتين بات الآن يتميز بثلاث: أمومية، أبوية، سكربتيرية.

وهكذا ولد علم «السكربتيريولوجيا». ولئن لم يكن اسمه لا تقياً، فمن المؤكد أنه سيجد لنفسه اسماً آخر، أما فتوته فتفسر بسهولة: لم يعرف الاتحاد السوفياتي طوال خمس وستين سنة أي من تشرين الأول ١٩١٧ حتى تشرين الثاني ١٩٨٢ إلا أربعة أمناء عامين. وهذا يعني أن المادة المتوفرة للباحثين قليلة جداً. وفجأة تتسارع الأمور وفي ستين ونصف يتعاقب ثلاثة رجال على كرسي الأمانة. ثم يستحوذ السابع على السلطة.

وفي أي حال فإن فترة لا تتجاوز الخمس سنوات تعتبر قصيرة جداً لحل جميع المسائل التي يواجهها مهندسي «البيروسترويك» أي التفكير الجديد وفي الواقع لم يمضِ إلا القليل من الوقت ليصبح الحكم على نجاح أو فشل غورباتشوف ممكناً. حتى أن المعارضات المتوفرة تبدو غير كافية لكتابة سيرة حقيقية. فحياة غورباتشوف قبل دخوله المسرح العالمي تبقى مجهولة أكثر بكثير مما كانت عليه سيرة لينين الذي ولد عام ١٨٧٠. فهل سيرته الخاطفة، التي ظهرت في الغرب لا تصل إلا إلى شفافية خادعة؟.

وبالمقابل فإن خمس سنوات تكفي لإظهار النقاط المشتركة في سلوك جميع الأمناء القابضين على السلطة العليا في الاتحاد السوفياتي، ولتحديد أوجه التماثل والاختلاف في مقاربتهم للأزمة التي واجهها كل منهم دون استثناء، إثر انتخابه. وتكمن الخطيئة الأصلية التي لا تنفك عن الآلة السياسية السوفياتية منذ أن بناها لينين. في التعريف المعطى للسلطة العليا والذي أريد له أن يظل غامضاً فضفاضاً. فالدستور السوفياتي الأول (١٩١٨) أشار في آن معاً إلى مؤتمر السوفيات لجميع روسيا وإلى السوفياتات

المحلية وإلى ديكتاتورية البروليتاريا. ويوصفه المفكر الرئيسي للدستور، أشار لينين إلى ضرورة ديكتاتورية الحزب وواحدة السلطة: «لا بد بطريقة أو بأخرى من الطاعة غير المشروطة لإرادة أوحدية...» (١).

أما تحديد هذه الإرادة التي على البلاد أن تخضع لها، فلا يثير أي تساؤل بالنسبة لقائد الثورة الذي أناط بنفسه مباشرة منصب رئاسة مجلس مفوضي الشعب وتولى رئاسة الحكومة، وقد تولى أيضاً وبصورة شرعية تماماً، قيادة الحزب: ألم يكن هو الذي خلقه على صورته ومثاله؟ أنه لا يحتاج إذن، لى إشغال منصب محدد داخل هرم مراتبه. فهو عضو في اللجنة المركزية ثم ابتداء من ١٩١٩ في المكتب السياسي. ليس للينين أخصام. وعندما بدأ ستالين «صعوده» بعد أن انتخب عام ١٩٢٢ أميناً عاماً بناءً على اقتراح لينين الذي رفض ترشيح سميرنوف، احتاج لبعض الوقت كي يمسك بجميع مقادير السلطة التي يعطيه إياها هذا الموقع.

وقد أصبح «تشريع» سلطة الأمين العام، وترسيخها ضمن المعايير الدستورية، المآل الشكلي الذي يصبو إليه الصعود نحو القمة. حيث ان سيرة الأمناء السبعة تظهر ان مهمهم الأساسي يتمثل بالاستيلاء على السلطة.

وقد أشار ماكيافلي إلى أن الأنبياء المسلمين وحدهم نجحوا بتحقيق أفكارهم. ويرر الأمناء العامون سعيهم إلى السلطان بضرورة الحصول على أداة لإجراء الإصلاحات. ويقدر ما تكون هذه الإصلاحات مهمة يحتاجون إلى المزيد من السلطة. وللقيام «بثورة من فوق» كما فعل ستالين في أواسط الثلاثينات أو غورباتشوف في النصف الثاني من الثمانينات كان لا بد من سلطة مطلقة. وهكذا أصبحت الإصلاحات تبريراً للتسلط ووسيلة للاستيلاء على السلطة. وها أننا نشهد تشكل بنية متكاملة: السلطة ضرورية لانجاز الإصلاحات ولا بد من الإصلاحات لتفعيل السلطة.

في ١١ آذار ١٩٨٥ انتخب ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً. وهكذا أصبح السكرتير السابع على عتبة السلطة.

الفصل الثاني لماذا هو؟

إليكم هذا القياس : «أنا إنساني إذن أنا محبوب ، وإذا كنت محبوباً ،
فلأن الناس تسلفني ثقتها» ف . دوستوفسكي ، قصة محزنة .

هناك احتمال ضئيل جداً أن تكون «المحبة» قد دخلت في عداد المعايير التي أخذها
بالحسبان أعضاء المكتب السياسي بوصفهم «كبار الناحيين» ، عندما اختاروا في ١١
آذار ١٩٨٥ خليفة لتشيرينينكو غير أن الأمر مختلف دون شك ، بالنسبة «لسلفة الثقة» .
ولكن يبقى سؤالاً : من يثق بمن ؟ عندما ضبط لينين آلتة السياسية التي كانت من «نمط
جديد» لم يضمنها أوالية لانتقال السلطة . إذ ربما كان مقتنعاً بخلوده . وقد كان له حين
حصول انقلاب تشرين الأول ، ٤٧ سنة من العمر ولم تكن مسألة خلفائه مطروحة .
وهي لم تبرز إلا في ١٩٢٢ حين أصابته شدة المرض . حينها نص رسالته لل مؤتمر الثاني
عشر للحزب . التي عرفت باسم «الوصية» . مستعرضاً واحداً تلو الآخر ، ستة من بين
أبرز قيادات الحزب . أصدر لينين على كل منهم حكماً سلبياً مركزاً على هذه النقطة :
ليس فيهم من يستطيع أن يحل بمفرده مكان الأب المؤسس . وكما يشير خروتشوف ،
عرف ستالين كيف يستفيد من ذلك ليمسك بزمام المناورة . وقد ردد مرات عديدة «لقد
أفسد لينين حين كتب وصيته كل شيء بيننا وشؤشنا جميعاً» (١) .

بعد وفاة ستالين جرى انتخاب الأمين العام على مستوى المكتب السياسي . وكلمة
انتخاب هنا يجب فهمها بدلالاتها السوفياتية . فليس ها هنا اقتراع حقيقي ، إذ يتوافق
الناخبون على اختيار مرشح من بين هؤلاء الذين يحملون في المئونة السوفياتية لقب
«سكرتير أول» أي أمناء اللجنة المركزية الذين هم في الوقت نفسه أعضاء في المكتب
السياسي .

وبعد وفاة تشيرنينكو فقد جرت الانتخابات بسرعة البرق، حتى قبل أن يكون جثمان السكرتير المتوفي قد برد.

أما بعد وفاة أندروبوف، فقد دامت المشاورات ثلاثة أيام. ومعلوم أن اختيار أندروبوف قد تم ضد إرادة بريجنيف، الذي كان قد عيّن، قبل موته، تشيرنينكو خليفة له. وفي عام ١٩٨٨ نشرت الصحافة السوفياتية رسائل من القراء تحمل السؤال الآتي: كيف أمكن تسمية رجل مثل تشيرنينكو سكرتيراً عاماً؟ سؤال بليغ، دون شك، ولكنه لم يلقَ من يجيب عليه. ذلك أن الجواب سلم به: وهو عدم صلاحية النظام الانتخابي. فهذا النظام جُرب للمرة الأولى عام ١٩٢٤. وقد كان المرشحون بعد موت لينين كثيراً: إنهم الأعضاء الستة الذين تلحظهم الوصية، وهم الكوادر المجربة في الحزب الذين صنعوا الثورة وانتصروا في الحرب الأهلية، وباشروا بعملية إعادة بناء البلاد «البريسترويكا»^(٢) (هكذا أطلق عليها في ذلك العصر). أما التجربة الثانية فجرت عام ١٩٥٣.

أما المرشحون إلى عرش ستالين فكانوا رفاقه الأوفياء في السلاح. وهم قد أداروا معاً التأميم والتصنيع وقادوا الحرب ضد ألمانيا وأعدموا خلال عملية بناء الاشتراكية عشرات الملايين من الأشخاص. وبعضهم بدأ بخدمة الحزب إبان مرحلة لينين (مولوتوف، ميكويان) فيما تولى البعض الآخر الحكم مع ستالين (مالنكوف، بيريا، خروتشوف، بولغانين). أما «حرب الخلافة» الثالثة فتميز عن سابقتها بانخفاض فقط في مستوى المرشحين وارتفاع فقط هو الآخر في أعمارهم.

لم يكن لينين في ١٩١٧ قد بلغ الخمسين. وقد انتخب ستالين أيضاً أميناً عاماً في الواحدة والأربعين، فيما بلغ خروتشوف هذا المنصب في التاسعة والخمسين وبريجنيف في الثامنة والخمسين. ثم تدهورت الأمور: فأندروبوف لم يحظَ بالسلطة إلا في الثامنة والستين وتشيرنينكو في الثالثة والسبعين.

أما في ١١ آذار ١٩٨٥ فكان عدد المرشحين ضئيلاً وإذا أخذنا بالاعتبار المبدأ الذي يوجب انتخاب الأمين العام من بين «الأمناء الأول» فإن مرشحين فقط كانا ممكنين: ميخائيل غورباتشوف وغريغوري رومانوف. ورومانوف الذي استدعي إلى موسكو من قبل أندروبوف كان سيء السمعة: ففي ليننغراد حيث كان يحتل منصب السكرتير الأول

لم يكن مشهوراً فقط بقساوته ودوغمائيته بل أيضاً بعريدته . وإن شائعات الفساد كانت لا تفارقه أبداً . وقد أتى به أندريوف ، بطل الدسائس السياسية في الاتحاد السوفياتي ، الى موسكو ، ولكن دون السماح له بأن يختار ، كما جرت العادة شخصاً ينوب عنه في ليننغراد ، وهو امتياز أتاح «للمعلم» الحقول دون نبش الجثث وانكشاف الفضائح بعد رحيله . والواقع أن أرشيف اللجنة الحزبية لمنطقة ليننغراد كان يحتوي على عدد من الوثائق الكفيلة دون أدنى شك بإحراج السكرتير الأول ، الذي لم يفسح له المجال لفرزها . وقد ذهب غورباتشوف الى ليننغراد لانتخاب خلف لرومانوف واقترح اسم ليف زايكوف ، الذي كان يشكل المرتبة الثانية في مدونة المدينة . انتخب زايكوف . وسوف لن يخرج بعد ذلك في إدااته لمهمته عن فلك غورباتشوف .

وفي أجواء التطهير التي فرضها أندريوف والتي ظلت مطروحة حتى بعد أن خرج تشيرنينكو عنها ، لم يكن لرومانوف الذي تفح منه رائحة الفساد أي حظ في النجاح . وكان هناك أيضاً مرشح ثالث : فيكتور غريشين السكرتير الأول للجنة الحزب في مدينة موسكو . وهو لم يكن عضواً في اللجنة المركزية ، غير أنه كان يدير تنظيم الحزب في موسكو منذ ١٩٧١ . ولد غريشين سنة ١٩١٤ . وكان انتخابه يؤمن استمرار خط بريجنيف - تشيرنينكو ، ويؤمن أيضاً احتفالاً جنائزياً قريباً في الساحة الحمراء . وكان ذاك إبان انتشار هذه المزحة في موسكو : «هل حضرت الجنائز في الساحة الحمراء؟» نعم لدي «اشترك» .

ورغم أن انتخاب غورباتشوف بدأ مضموناً - ولم يبق أحد غيره - لم تكن الأمور بديهية الى هذه الدرجة . فصغر سن المرشح كان عقبة أساسية . إذ أن متوسط الأعمار الخاص بأعضاء المكتب السياسي يبلغ سبع وستين سنة وعند الأمناء أعضاء اللجنة المركزية سبعين . فالقانون الفيزيائي الأعظم الذي يُسَيِّر نظام الحزب الواحد كان يعمل بكل طاقته : بغياب الحوافز الخارجية والداخلية (الحروب ، الثورات) يستمر القادة في السلطة حتى موتهم البيولوجي . وهو موت يؤجله العلم باستمرار . وهكذا في عام ١٩٨٥ بدت قيادة البلدان الاشتراكية بوصفها الأكثر هرماء في العالم . ومن المؤكد أن أندريوف كان يرى بغورباتشوف مرشحاً مستقبلياً للأمانة العامة غير أنه كان يأمل ، باعتباره لم ينضج بعد ، أن يشرف على تنشأته خمس أو عشر سنوات إضافية .

إلا أن انتخاب غورباتشوف من قبل المكتب السياسي كان سريعاً . وهذا ما يفسر

جزئياً بغياب ثلاثة أعضاء مهمين: السكرتير الأول الأوكراني فلاديمير شتشريتسكي وكان في بعثة إلى سان فرانسيسكو والسكرتير الأول عن كازاخستان ديموخامد كوناييف الذي لم يتسنَّ له المجيء من «ألما - آتا» وذلك لضيق الوقت، وفيتالي فورتنيكوف الذي كان اثناءها في يوغوسلافيا. غير أن الاعلان عن ترشيح الأمين العام الجديد لم يكن يخلو من نباهة لم تحفَّ على العارفين بشؤون الكرملين. وقد روى أندريه غروميكو في مذكراته أنه «... مباشرة (بعيد وفاة تشيرنينكو) طرحت مسألة انتخاب السكرتير العام الجديد للجنة المركزية. وكان المكتب السياسي أول المدعويين الى قول كلمته بهذا الشأن. وقد قالها: قبل ترشيح غورباتشوف بالاجماع^(٣). وهو إجماع أدهش الخبراء. ذلك أن البيان الرسمي حول انتخاب أندرويوف وتشيرنينكو (صدقت اللجنة المركزية بصورة آلية على قرار المكتب السياسي) قد تكلم هو أيضاً عن الاجماع غير أنه استخدم عبارة «edinoglasno»^(٤) أما إثر انتخاب غورباتشوف فإن العبارة المستخدمة كانت «edinodouchno»^(٥). وهذا يعني أن المنتخبين قد دعموا المرشح الشاب «من كل قلبهم وروحهم».

بعد موت تشيرنينكو لم يعد المكتب السياسي يضم أكثر من عشرة أعضاء. ثلاثة منهم كانوا، كما رأينا، غائبين. فبقي سبعة. وكما كانت هي الحال في «عشرة عبيد صغار» لاغاتا كريستي فمن لا يؤيد غورباتشوف يخنفي. وفي آذار ١٩٨٧ صرح الكاتب المسرحي ميخائيل شاتروف، وهو قد ألف سبع مسرحيات حول لينين ويعتبر من أبرز أبطال البريسترويكا، للصحيفة الفنلندية سيومين كووالياهتي أن الأصوات كانت في البداية متعادلة بين غريشين وغورباتشوف. ومن الصعب أن يتخيل المرء كيف يمكن أن تقسم ٧ أصوات قسمة متعادلة. ومهما يكن، فإن غروميكو ودائماً حسب شاتروف جثَّ في نهاية المطاف صوته لصالح غورباتشوف، ماثلاً بذلك كفة الميزان الى جانبه. أما الصحافي الهندي ديف موراكا، المراسل منذ زمن طويل، في موسكو، وجوريس ميدفيديف عالم البيولوجيا والمؤرخ الذي يقيم في لندن، فيؤكد أن من جانبها أن الصوت الحاسم كان ذاك الذي أدلى به رئيس الـكا. جي. بي فيكتور تشيريكوف. ولكن هذا الأخير بوصفه عضواً احتياطياً في المكتب السياسي لا يحق له أن «يصوت» ولكن بإمكانه أن «يسمع صوته». و «صوته» هذا قد كشف عدة وقائع أطاحت نهائياً بغريشين.

إذ تتواتر أقوال مؤلفي السيرتين على أن تشيريكوف كشف لأعضاء المكتب السياسي عن زواج ابن غريشين (بعد أن أقدم على الطلاق) من ابنة بيريا غير الشرعية .

وفي الأول من تموز ١٩٨٨ وأثناء المؤتمر التاسع عشر للحزب سوف يعطي ليغاتشيف بعض الدقائق الإضافية : «لا بد من الاعتراف بالحقيقة : كانت أيام صعبة (إشارة إلى المرحلة التي أعقبت وفاة تشيرينكو) . . . فقد كان ممكناً أن تتخذ قرارات مختلفة تماماً . ولا بد لي من الإشارة إلى أن الحل الصحيح لم يعتمد إلا بفضل الموقف الصلب الذي اتخذته بعض أعضاء المكتب السياسي وهم الرفاق تشيريكوف ، سولومانتييف ، غروميكو ومجموعة مهمة من الأمناء الأول للجان الإقليمية في الجلسة المكتملة للجنة المركزية ، » وكما سبقت الإشارة ، فإن تشيريكوف لم يكن حينها من أعضاء المكتب السياسي . ركّز ليغاتشيف على كونه قد دعم غورباتشيف ، وقد أكد على أن غروميكو وسولومانتييف قد أعطيا صوتهما للمرشح الشاب . وليغاتشيف لم يلقِ خطابه هذا ليقول ما يعرفه الجميع . بل أنه ، ببساطة رأى من الضروري أن يذكر غورباتشيف بأن العرفان بالجميل فضيلة . فبالأمس القريب أي في ٣٠ حزيران ، كان ميلنيكوف المندوب إلى المؤتمر يصر «على استجواب هؤلاء الذين ساهموا بنشاط بسياسة الركود . . . » وبناء على طلب ملح من غورباتشيف ، الذي أقدم حتى على مقاطعته وهو يقوم بمدخلته سُمّي «في المقام الأول» سولومانتييف ثم غروميكو ، ورئيس تحرير البرافدا أفاناسييف ومدير معهد الولايات المتحدة آرباتوف .

وفي خريف ١٩٨٩ لم يبق أحد من هؤلاء ، في موقعه باستثناء آرباتوف . وهكذا اتبع غورباتشيف قاعدة الطغاة الذهبية : وهي أن لا يشرك المرء بالحكم أولئك الذين أعانوه للاستيلاء على السلطة . وقد حرص ليغاتشيف على تحذيره من مغبة مثل هذا التصرف .

بناء على دعوة عاجلة عقدت اللجنة المركزية جلسة بكامل أعضائها وصادقت على «توصية» المكتب السياسي . وهذا ما يشير إليه غروميكو في مذكراته «أثناء جلسة اللجنة المركزية التي انعقدت مكتملة ، في آذار (١٩٨٥) : أخذت الكلام بناء على طلب من المكتب كي أقترح انتخاب ميخائيل سرغيفيتش غورباتشيف لمنصب الأمانة العامة ولتعليل هذا الاختيار . وقد نشرت الصحافة مداخلتني هذه . . . »^(٦) . غير أن خطاب

غروميكو وبعكس العادة الجارية . لم ينشر في أي جريدة يومية . وكان لا بد من انتظار أسبوعين لقراءته بنسخته «المنقحة» في مجلة كومونيست ثم في كراس خاص . لقد قام غروميكو، كما يشير هو نفسه، بتعليل انتخاب غورباتشوف . وهنا أيضاً وخلافاً لجميع الأعراف لم يمتدح الخطيب إنجازات المرشح المقترح والواقع أنه لم يكن ها هنا ما يُمتدح : فالزراعة التي كان غورباتشوف يديرها بين ١٩٧٨ و ١٩٨٣ ، بوصفه أميناً في اللجنة المركزية ، عرفت خلال هذه الفترة أزمة عميقة لم يشابهها شيء سوى كارثة التأميم . ولم يكن من الممكن، هذه المرة، درء المجاعة إلا من خلال استيراد كثيف للحنطة من الخارج . قدّم غروميكو مرشحه بوصفه «رجلاً عملياً مميّزاً» وأعلن عن «إعجابه الشديد بقدراته» ، ولم يوفر غروميكو ثناءه على الرجل نفسه : فالمرشح لمنصب الأمين العام، كان لامعاً بإظهار مواهبه حين تولى رئاسة جلسات المكتب السياسي بغياب تشيرنينكو، وهو لا يضاهيه أحد في إيجاد الحلول الأشدّ تلاءماً مع خط الحزب . وهو أيضاً يعرض بوضوح وجهة نظره بصراحة تليق بلينين . وهو ذو ثقافة رفيعة جداً، ولديه ملكة مقارنة المسائل بطريقة تحليلية، مما يسمح له بدراسة مختلف العناصر قبل أن يصل إلى أي استنتاج^(٧) . إلا أن أبرز إطرء وجهه غروميكو لغورباتشوف لم يرد في نص خطابه المنشور . ولكن جميع كاتبي سيرة الأمين العام قد أشاروا إليه إضافة إلى ذبوعه في أرجاء موسكو يوم الانتخاب نفسه . «رفيق الابتسامة ولكن أنيابه من حديد» هذا ما قاله غروميكو . وكما يقول الطليان : إن لم يكن قولاً صحيحاً ، فإنه اختلاف حسن .

ويورد أشهر الديبلوماسيين في القرن العشرين ، في مذكراته تفصيلاً طريفاً . قبل وفاته بثلاثة أيام اتصل به تشيرنينكو هاتفياً «أندريه أندريفيتش ، حالتني سيئة وأتساءل إن لم يكن من الأفضل أن أطلب إحالتي إلى التقاعد . . . أريد رأيك . . . » كان جوابي مقتضياً ولكن واضح : هل أن هذا لا يدفع بالأحداث في وجهة مناقضة للحالة الموضوعية؟ فعلى حد علمي أن الأطباء ليسوا على هذه الدرجة من التشاؤم؟ . . . إذن بنظرك الأمر ليس . . . مستعجلاً؟ - كلا الحالة ليست مستعجلة ، والتسرع غير مبرر . . .^(٨) كان غروميكو حريصاً على ألاّ يتسرع تشيرنينكو إذ لم تكن جميع الأمور التي تسمح بانتخاب غورباتشوف قد نضجت بعد .

وفيا بعد سوف ينقض خليفة غروميكو أدوار شيفرنادزه ، الذي كان يوم انتخاب غورباتشوف عضواً احتياطياً في المكتب السياسي ، الرأي القائل «بأنه كان لا بد ، في

آذار ١٩٨٥ ، من اتخاذ قرارات مختلفة تماماً». كان شيفرنادزة حاسماً: «ببساطة، لم يكن من خيار بديل ، وكان ذلك خيار الحزب برمته»^(٩).

الجواب على السؤال «لماذا هو؟» بديهي جداً: لأنه شاب ، موهوب وفي لخط الحزب متعاون مع الآخرين . . .

بُعِيد طرد غريشين من المكتب السيامي بدأ الكلام علناً عن فساد الجهاز الحزبي في موسكو. وبدأ حينها أن هناك أسباباً جدية (عدا علاقته الغامضة بالفقيد بيريا) تحول دون إيصاله الى كرسي الأمانة العامة. وقد كشفت انتخابات ١٩٨٥ ، حيث كان اثنان من المرشحين الثلاثة متورطين بقضايا غامضة تتصل بفساد النظام وانحلاله. وهذا الفساد ليس وليد البارحة بل أنه قد بدأ مع استيلاء البلاشفة على السلطة. فعلى العشرينات أشار كريستيان راكوفسكي الى «مرض الحریم والسيارة» الذي أصاب أبرز القادة السوفييات. أما بشأن بريجنيف فقد شاع الحديث حتى في حياته عن إجرام بطانته.

أما غورباتشوف فيبدو على هذا الصعيد نظيف الكف. غير أن مجرد الاضطراب للإشارة الى نزاهة المرشح الى موقع الأمانة العامة يكشف بوضوح ما آلت إليه أوضاع الدولة التي ولدت من ثورة أكتوبر.

الفصل الثالث

نشأة البطل : الطفولة والشباب

تميزت سيرة السكرتير العام الجديد التي بثت لى الشعب السوفياتي بإيجاز لا يصدق: ولد في ٢ آذار ١٩٣١ في ستانيسا دي برفولنوي، إقليم ستافروبول، ذهب لمتابعة دراسته في موسكو عام ١٩٥٠، وبعد أن نال شهادة في الحقوق عاد الى ستافروبول حيث اضطلع ببعض المهام في إطار الشيبة الشيوعية والحزب، حيث شغل بين ١٩٧٠ و ١٩٧٨ منصب السكرتير الأول في لجنة المنطقة، ثم استدعي لى موسكو وانتخب سكرتيراً للجنة المركزية، ليصبح بعد ذلك (بعد انقضاء سنة واحدة) عضواً احتياطياً في المكتب السياسي وبعد سنة أخرى عضواً أصيلاً.

إن البساطة والاستقامة اللتين تميزان حياة ميخائيل غورباتشيف هما بوضوح الشمس، وكذلك صممت كتاب السيرة الرسميين وإخفائهم لبعض التفاصيل التي تسمح بإلقاء الضوء على طباع الرجل الذي يركز في قبضته سلطة هائلة.

وعندما التقى الرئيسان ريغان وغورباتشيف في ٨ كانون الأول ١٩٨٧ في واشنطن إستشهد الأول بقول لإيمرسون: «في الواقع التاريخ غير موجود، ليس لدينا إلا السير». وهنا يشدد رئيس الولايات المتحدة بصورة واضحة على دور الفرد في التاريخ. غير أننا لا نجد في الاتحاد السوفياتي، رغم أن عبارة السكرتير العام تصل حد التأليه، أي سيرة تتناول حتى هؤلاء الذين تكرر شعائر العبادة لهم. لا توجد سيرة حول لينين أو ستالين (الذي طلب خروتشوف أو بريجنيف . . . والواقع، كيف يمكننا أن نتوقع خلاف ذلك في بلد حيث جرى رسمياً إلغاء وجود التاريخ (ألغيت الامتحانات في هذه المادة التي كانت تجري في نهاية المرحلة الثانوية)^(١).

نلاحظ في حياة ميخائيل غورباتشيف - قبل المنصب الأعلى - عدة أحداث تساعد على تحديد مزاجه. وذلك ابتداء من تاريخ ومكان ولادته.

ولد ميخائيل غورياتشيوف في ٢ آذار ١٩٣١ في قرية بريفلونوي التي كانت في تلك الأونة تابعة إدارياً لمنطقة القفقاز الشمالية . وتعيش في هذا الاقليم الشاسع المترامي بين الفولغا وبحر آزوف والبحر الكاريبي وكنف جبال القفقاز، شعوب أوكرانية وروسية، والكوزاك من الدون والكوبان، والترک والتشيشين والأدغين والايغوش والكاباردين والشركس وشعوب قفقازية أخرى . وكانت قد تميزت من حيث شدتها المقاومة ضد التأميم التي انطلقت من هذا المنطقة .

كما أن ذكرى الحرب الأهلية التي وضعت قسماً كبيراً من الكوزاك في صراع ضد الحمر ما تزال حية . وكما أن شعوب القفقاز ما تزال تتذكر الغزو الروسي الذي استمر في القرن التاسع عشر لعدة عشرات من السنين .

وقد تم إنشاء الكولخوزات في هذا الاقليم بمساعدة الجيش النظامي . إذ أرسلت كتيبتان من المشاة الى شمال القفقاز منذ ١٩٢٩ وذلك لدعم الميليشيا^(٢) . وفي ربيع ١٩٣١ ٩٠٪ بالمئة من الفلاحين ضمو الى مزارع جماعية ، وقد نظم جد غورياتشيوف كولخوزاً في قريته . وهكذا يمكننا القول أن «ميشا الصغير» ولد في عائلة كولخوزية، وهو يروي أن «جدي أبو أمي كان أحد منظمي «رفاقية» العمل الزراعي الجماعي ثم للكلخوز. . . فيما عمل أبي طوال أربعين عاماً كميكانيكي . . .»^(٣) وقد أظهر أول خريف كولخوزي الأهمية الكبيرة لتجمع الفلاحين: إذ يصبح من السهل أن تأخذ الدولة محصولهم من القمح . وحينها انطلقت المقاومة في شمال القفقاز . وقد تم قمعها بقسوة لا مثيل لها . وقد قاد حملة القمح هذه السكرتير الأول في لجنة المنطقة بوريس شلبولدايف . وباعتبار أنه غير راض عما يحصل من إرهاب غير كافٍ، أرسل ستالين لجنة خاصة بقيادة كانانوفيتش .

وقد عين في كل منطقة مسؤولاً عن التصدي للأعداء، وأعطى صلاحيات كاملة . وجرت مصادرة كل ما هو موجود من حنطة: وهكذا خطط للمجاعة بشكل منتظم ومنظم .

وإننا نجد اليوم عدة كتابات تصف هذه المجاعة التي كانت، دون شك، أهم ما شهده التاريخ من حيث عدد ضحاياها، والتي يقيّمها فاسيلي غروسمان على النحو الآتي: «كان شبح المجاعة والموت يجوب القرية . في البداية مات الأطفال ثم الشيوخ

وأخيراً الكهول . وفي المرحلة الأولى دفنت الجثث ثم عدل الناس عن الأمر . كان الأموات يرقدون في الشوارع والساحات ثم تركت ممددة في البيوت الخشبية (الإسبة) . وخيّم الصمت . لقد ماتت الأرياف . ولا أعلم من كان آخر الأموات . فلقد كنا من الذين قادتهم الإدارة الى المدينة . وقد أطلقت السلطة على ذلك اسم «مقبرة المدرسة القاسية»^(٤) .

في ١٩٣٠ كان شمال القفقاز يعد ما يقارب التسعة ملايين نسمة^(٥) . ولقد مات مليون من الجوع بين ١٩٣٢ و ١٩٣٣^(٦) . وهذا ما لم تصل إليه كلفة أي حرب في عصرنا .

لم يشهد ميخائيل غورباتشوف الشاب عملية التأميم و «الارهاب - المجاعة» ، كما أسماها روبرت كونكست . غير أنه سمع أهله يتحدثون عنها . وبطلة القصة التي كتبها غروسمان ، وهي ترمز الى الريف الميت . لا تشدد صدفه على كون الناس قد قضوا جميعاً إلا «القادة» . وجميع الشهود يتفقون على هذه النقطة : إن العاملين في الكولخوزات حصلوا على دعم من الدولة ، على الخبز وظلوا أحياء . وقد أشرنا الى أن جد غورباتشوف كان منظم الكولخوز وأول رئيس له . ووالده كان ميكانيكي يعمل على جرافة . أي أنهما من الأعيان الجدد في الريف . إنهم من النخبة خاصة ، إن الميكانيكيين لم يتسبوا الى كولخوزات حتى حين كانوا يعيشون في القرية . إنهم ملحقون بمحطات الآليات والجرافات (M.T.S) ، التي ترتبط بدورها بأجهزة الدولة ، وقد أنشئت لضبط إنتاج الكولخوزات . وتعتبر أقسام الـ M.T.S السياسية بمثابة أجهزة تابعة فعلياً للبوليس السياسي . إنها تضبط أنفاس الكولخوزيين وروحهم . إذن لقد ولد ميخائيل غورباتشوف في عائلة من الأعيان السوفييات .

كان سكرتير المستقبل في الحادية عشرة والنصف عندما اخترق الجيش الألماني ، خلال صيف ١٩٤٢ الجبهة وخط الدفاع السوفياتي ليتدفق ويتشر في القفقاز . وقد انسحبت الفرق السوفياتية من روستوف - سور - لو - دون Rostov-Sur-Le-Don خلال تموز ومن ستافروبول في ٥ آب . أما الاحتلال فدام خمسة أشهر . ولما كان من المتعثر على الألمان أن ينشروا وحداتهم في كل النقاط التي تشهد كثافة سكانية ، فالمرجح أن أهالي بريفلونوي لم يشاهدوا فرقاً ألمانية إلا نادراً .

ومما لا شك فيه أن حادثة الحرب قد لعبت دوراً مميزاً في حياة غورباتشيف، فمن المؤكد أن والده كان على الجبهة، ذلك أن العائلة كانت شديدة الولاء للسلطة السوفياتية. غير أنه كان على ميشا الشاب أن يجيب في كل التحقيقات، التي كان عليه أن يخضع لها في بداية كل مرحلة جديدة من حياته، على هذا السؤال المخيف: هل تواجدت في المنطقة المحتلة؟ ذلك أن القول بأن لشمال القفقاز سمعة سيئة يظل دون الواقع. فمباشرة بعد تحرير الإقليم من قبل الجيش الأحمر بدأت موجة نفي نحو سيبيريا وكازاخستان وآسيا الوسطى طالت شعباً بأكملها، ونجد في عداد هذه الشعوب «المعاقبة»، لنستخدم عبارة ألكسندر نكريتش^(٧)، شعب منطقة الكاراتشايس - الشركس المستقلة التي تشكل جزءاً من إقليم ستافروبول (المفصول عن شمال القفقاز). إلا أنه من المؤكد أن غورباتشيف الشاب لم يشهد عملية نفي الكاراتشايس. وهي لم تستثن أحداً: الأطفال والشيوخ والرجال والنساء، لقد جرى شحن جميع الناس. ولكنه شاهد بالمقابل دون أدنى شك عودتهم في ١٩٥٨ - ١٩٥٩. وكان قد أنهى حينها دراسته في موسكو وأصبح زعيماً للشبيبة الشيوعية في ستافروبول.

لقد أبطأ الاحتلال الألماني الوتيرة العادية للحياة الدراسية. فقد أنهى ميخائيل دراسته الثانوية في ستافروبول عام ١٩٥٠. وتبقى طفولته ومراهقته مجهولتين إلى حد ما. فما من زميل له في الدراسة كتب مذكرات حول طيشهما الطفولي أو نزاهتهما أو صيدهما بالصنارة... ولكن بفضل مجلة تايم التي تحظى برعاية غورباتشيف، حصلنا على صورة لميشا وهو في التاسعة عشرة من عمره: وجه مستدير، شفتان مشدودتان بقوة، وطاقية منخفضة بفخر لتغطي الأذن وتتجاوز الذؤابة الكوزاكية العادية. أما المجلة الإيطالية جانت Gente فقد نشرت في تشرين الثاني ١٩٨٩ صوراً أخذت من «ألبوم» غورباتشيف العائلي، ثلاث منها تظهره في أدوار مسرحية. فميخائيل المراهق كان شغوقاً بمسرح الهواة.

وهكذا خلّده المصور في دور الأمير زفزديتش (حفلة ليرمونتوف للرقص التنكري) ودور ليل LeL (في سنيغوروتشكا Snegourochka لاوستروفسكي). وتشهد مجموعة مسرحياته على موهبة مبكرة في مجال التمثيل.

ونذكر هنا أن ستالين قام هو الآخر وبعد أن أصبح أكبر عبقرى عرفته الأزمنة

والشعوب بعرض صورته وهو شاب، حيث ظهر مرتدياً جبة الطلبة الأكليركيين محدقاً بالناس بشيء من الريبة: مثل هذه الصور لا يتم اختيارها صدفة. وإننا نقرأ في النبذة المقتضبة عن حياة غورباتشيف التي أعدت بعيد إنتخابه كعضو إحتياطي في المكتب السياسي عام ١٩٧٩ فقرة ملفتة: «كان بين ١٩٤٦ و ١٩٥٠ مساعد سائق لحصادة دارسة في «Mts» في منطقة ستافروبول»^(٨) ومعلوم أن ميخائيل كان خلال هذه الفترة في المدرسة ولكنه شعر ببساطة أنه بحاجة لى إبراز ماضيه كعامل. ويروي الأمين العام في خطاب الفاء في حزيران ١٩٨٨، أمام مؤتمر الحزب مشيراً لى المحاولة الأولى بعد ستالين لاصلاح الزراعة: «لقد كنت حينها ميكانيكي في الـ «M.T.S» غير أن غورباتشيف كان بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ يتابع دراسته في جامعة موسكو. وهو يحدد في «صفحات من سيرة ذاتية»: «لقد عملت أجمالاً خمس سنوات في الـ «M.T.S» جامعاً بين الدراسة وأعمال الحقل»^(٩).

إن السكرتير العام لا يتوخى الكذب في سيرته الذاتية. إنه فقط يبذل مواضع الدلالات وأوزانها. والواقع أنه قد عمل أثناء سني دراسته في المدرسة والجامعة، ولكن خلال العطلة حيث كان يساعد والده سائق الحصادة الدارسة. ولما كان الحصاد عملاً شاقاً في شُهب ستافروبول فيحق عندها لغورباتشيف أن يتفاخر به. خاصة أنه قد حظي في الريف «بحصة الأسد». ففي ١٩٤٩، نال مع مجموعة من نخبة العمال الزراعيين وسام العلم الأحمر للعمل. ولا يكفي لكى يصل المرء لى مثل هذه الأوسمة الرفيعة أن يكون «ستاخانوفيتس»، ذلك أن لوائح الشرف تُعد من قبل اللجنة الحزبية في المنطقة. التي تختار الأشخاص الموثوق بهم بدون قيد أو شرط. وفي ١٩٨٨، وأثناء سفره لى سيبيريا، عاد غورباتشيف ليتحدث «عن لقمة العيش الصعبة سنة ٤٨»، مستحضراً الأيام حيث كان يساعد والده على الحصادة. وقد تشكّل فريقان عائليان: والدان وإبنان «وقد تم حصاد ٨٨٨٨ رطلاً وهو رقم لا يصعب حفظه، وقد نال الوالدان وسام لينين والإبنان وسام العلم الأحمر»^(١٠) وإننا نلاحظ في تنظيم العمل لمسات معلمي الدعاوة من رجال اللجنة المركزية للمقاطعة.

ويعتبر وسام العلم الأحمر بطاقة مرور جيدة، وهذا ما سمح لميخائيل بالدخول لى جامعة موسكو، والمؤسسات التعليمية الأكثر هية في البلاد. والواقع أن امتحان الدخول لا يترك لاتنقائته المفرطة أي أمل بالنجاح لطالب آتٍ من مدرسة ثانوية في

ستافروبول . وكما يتبين من شهادة غورباتشيوف الثانوية (التي نشرت مجلة جانت Gente صورة عنها) فإن علامات ميخائيل كانت ممتازة جداً في كل المواد ما عدا اللغة الأجنبية حيث لم ينل إلا ٤ (١١). وقد ختم دراسته الثانوية بميدالية فضية، وليس بالميدالية الذهبية التي كانت لتعطيه حظاً أكبر كونها تعفي حاملها من امتحان الدخول إلى مؤسسات التعليم العالي. فإذا لم يتمكن ميخائيل رغم التنويه به أن يتزعم ميدالية ذهبية فإننا لا نفهم جيداً كيف استطاع الحصول على معدل كافٍ للدخول إلى الجامعة. لا بد إذن من الاستنتاج أن أحداً قد ساعده. غير أننا لا نعلم من تحديداً. بعض الكتاب يتحدثون عن توصية من لجنة المقاطعة للشبيبة الشيوعية التي كان ينتمي إليها منذ سن الرابعة عشر، وآخرون عن توصية من الـ «M.T.S»، وربما كان هاتين التوصيتين. غير أننا نعلم بالمقابل، ومنه هو بالذات، أن هذا «الستافروبولي» الحديث النعمة (ذا الغنى المشبوه) حاول الدخول إلى كلية الفيزياء: «أنا مثلاً دخلت إلى كلية الحقوق، كما صرح لجريدة أونيتا Unita الإيطالية، ولكنني في البداية كنت أطمح إلى كلية الفيزياء» (١٢). كانت الفيزياء في السنوات التي تلت مباشرة الحرب مطابقة للدرجة: فقد كانت بداية ظهور الطاقة النووية: وكان الالمام بأسرار القوة النووية يعتبر إمتيازاً عظيماً. وفي هذه الفترة كتب بوريس سلوتسكي قصيدته الشهيرة بعنوان الفيزيائيون والشعراء وهي تبدأ بهذا البيت: «العز للفيزيائيين والبؤس للشعراء». ويمكننا أن نفترض أن غورباتشيوف بعد أن فشل في الدخول إلى كلية الفيزياء تدبر أمره لمتابعة دراسته القانونية.

في إحدى السّير الأولى عن غورباتشيوف يفترض جوريس ميدفيدف في معرض سؤاله عن الدوافع التي وجهت سكرتير المستقبل إلى الاهتمام بالحقوق، إن العامل الحاسم ربما كان القمع الرهيب الذي سببته سياسة التأميم، والذي وصلت أخباره إلى مسامع الطفل عبر أهله (١٣). وربما وجد القارئ الانكليزي الذي يتوجه إليه كتاب ميدفيدف أنه من الطبيعي جداً أن ينشأ لدى طفل حساس مثل هذه الرغبة بالعدالة وأن يكرّس لها حياته. غير أن المشكلة تكمن في أن غورباتشيوف التحق بكلية الحقوق في بلد حيث لمفهوم العدالة طابع خاص جداً. إضافة إلى أن الشاب قبل دخوله الجامعة، ولم يبلغ الثامنة عشرة بعد، كان قد قدم طلب انتسابه إلى الحزب، حيث قبل سريعاً بصفته عضواً احتياطياً.

وربما كانت كلية الحقوق في تلك الآونة الأقل وهماً في جامعة موسكو. فهي بداية

أصغر الكليات سنًا، ذلك أن الجامعة لم تكن قبل الحرب تخرج حقوقيين. أما المدعون العامون وقضاة التحقيق والقضاة السوفييات فكانوا يتابعون دروساً لمدة أربع سنوات في معاهد قانونية خاصة. أما في الجامعة فتدوم الدورة الدراسية خمس سنوات. ولم يقرر ستالين إلا بعد الحرب أن يزود العدالة في الاتحاد السوفيياتي برجال قانون من ذوي الثقافة الجامعية. ولرغبته بإعلاء شأن «القانون» أدخل إلى إدارات العدل اللباس الموحد والرتب. (والواقع أن هذا التدبير شمل معظم الوزارات). إلا أن عدد طلبات الانتساب إلى هذه الكلية ظل رغم ذلك أدنى من الكليات الأخرى. فلا بد إذن من الاعتقاد بأن البلاد ليست بحاجة، في نهاية المطاف إلى الحقوقيين. ففي الخمسينات لم يصل عدد طلاب كليات الحقوق إلا إلى خمسة وأربعين ألفاً وهي نسبة ضئيلة جداً إذا ما علمنا أن عدد الطلاب الجامعيين السوفييات بلغ في تلك الآونة مليون ومئتي ألف.

إن سنوات الدراسة التي أمضاها غورباتشوف تظل غير معلومة جيداً. فشهادات الناس الذين عرفوه في هذه الفترة تظل نادرة. والواقع أن هؤلاء الشهود يعيشون في الغرب. ولم يحن الوقت بعد للجوء إلى مذكرات السوفييات: إذ ما يزال الأمين العام على سكة السلطة العليا. غير أن ما يلفت، رغم ذلك، في هذه الفترة من حياة ميخائيل غورباتشوف هو أنه لم يولِ دراسته سوى أهمية ثانوية. فما إن وصل إلى الجامعة حتى سعى إلى الانخراط في الشيبة الشيوعية. وقد انتخب مسؤولاً لتنظيم جماعة من الطلاب طوال سنة بأكملها. لذلك احتاج إلى توصية من الشيبة الشيوعية في الجامعة، وخاصة إلى إرادة تتيح له تكريس وقته للنشاطات الاجتماعية وإلى مزاج يخوله تولي المهام القيادية. في ١٩٥٢ وبعد أن أصبح عضواً أصيلاً في الحزب، انتخب ميخائيل غورباتشوف مسؤولاً عن الشيبة الشيوعية في كلية الحقوق. وكان لا بد له هذه المرة من توصية من لجنة الحزب في الجامعة.

ويتذكر فريدريش نيزنانسكي الذي تابع دراسته مع غورباتشوف وعمل لاحقاً في مفوضية منطقة ستافروبول أن ميشا حصل على أول موقع له في الشيبة الشيوعية بعد أن أسكر خلفه واتهمه بالادمان على الكحول. وقد رسخت في ذهن نيزنانسكي الذي يعيش اليوم في الغرب، صورة عن زميله القديم تظهر طموحه القائم على الانتهازية.

أما ليف ايودوفيش الذي غادر هو الآخر الاتحاد السوفيياتي فقد أنهى دراسته في

الحقوق قبل غورباتشيوف بستين، فيرى في غورباتشيوف منظماً نشيطاً جداً للشيوعية الشيوعية قام بين أشياء أخرى بالمساهمة بحماس في حملة ١٩٥٢ المعادية للسامية. وتكشف شهادات نيزانسكي وايدوفيتش أن سكرتير المستقبل لم يكن يتميز عن سائر العاملين الناشطين إلا ربما بوصولية متطورة بامتياز.

غير أن زدينيك ميلنار المبعوث من تشيكوسلوفاكيا لمتابعة دراسته في موسكو يصور غورباتشيوف بصورة مختلفة جداً. وما من سيرة لغورباتشيوف إلا وتستشهد بذكرات ميلنار عن أيام دراسته في كلية الحقوق في موسكو. وهذا الأمر كفيلاً لوحده بشد الانتباه إلى ما يقول. غير أن المهم يكمن في مكان آخر. فبعد أن عاد إلى تشيكوسلوفاكيا أخذ ميلنار موقعاً داخل الحزب، فيما وجد زميله غورباتشيوف موقعاً حزبياً له في الاتحاد السوفياتي. ومن الواضح أن ميلنار كان أسرع من غورباتشيوف، وذلك بغض النظر عن كونه مكث في عاصمة بلاده بعكس ميخائيل الذي عاد إلى ستافروبول أي إلى أقاصي الريف. عام ١٩٦٨ شارك ميلنار بحماس «بربيع براغ». وقد أُنْتُخِبَ عضواً في المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكي. غير أن نهاية «الربيع» العنيفة واحتلال البلد أنها احتراقه. وفي عام ١٩٧٠ طرد ميلنار من الحزب، ثم هاجر في ١٩٧٧.

كل منا يتذكر قصة «تطويب» يوري أندريوف، فما أن أصبح سكرتيراً عاماً، هذا الذي تحكم لسنوات طويلة بمصير الكا. جي. بي، والذي كان تبعاً لذلك قائداً مشرفاً على آلة بوليسية جبارة، حتى قدمته وسائل الاعلام كرجل يحب رقص التريفان والويسكي والأميركيين البولار والمنشقين، الذين يمضي معهم السهرات أمام الموقد يناقش حول وجود الروح والاصلاحات الليبرالية. إثنان من عملاء الكا. جي. بي، من الذين اختاروا الحرية ويعيشون الآن في الغرب، هما مصدر هذه المعلومات الموثوقة، إذ في اللحظة المطلوبة استعداداً من خلال الغوص في الذاكرة كل ما يشوق الغرب إلى معرفته حول زعيمهما.

يستعيد زدينيك ميلنار صداقته مع غورباتشيوف زمن الدراسة، في مقالة نشرتها بداية الأونيتا الإيطالية، ثم نقلها عدد هائل من المجلات والماغازين بجميع لغات البشر.

ويروي ميلنار خاصة إنه كان بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ في كلية الحقوق في موسكو، وأنه أصبح الصديق المقرب لسكرتير المستقبل الذي كان هو أيضاً يتابع دراسته فيها، وإنه تقاسم وإياه غرفة واحدة في بيت الطلبة (السترومينكا). أي أنه بكلمة كان أول أجنبي التقى الشاب الذي ترعرع في بريفولنوي.

وتبدو مذكرات ميلنار حول صديقه إيجابية دون قيد أو شرط: «لم يكن الطالب غورباتشيف مقتدراً فقط بل أيضاً رجلاً متفتحاً ذكياً وغير معتد بنفسه يعرف كيف يستمع للآخرين ويسعى إلى ذلك»^(١٤). هذا الرجل أقدم لظروف شتى على البوح إلى صديقه التشيكي بأمور عدة. فهكذا أسرّه ميشا، عندما كان يدرس «قانون الكولخوزات»، أنه ليس للقانون أي معنى في إطار هذه الكولخوزات حيث لا يفصح إلا الوازع القومي. وعندما شاهد الصديقان معاً الفيلم، الشعبي جداً، «كوزاك الكوبان» حيث تعرض الوفرة في الكولخوزات من خلال الموائد التي تنوّ من كثرة الأطعمة والمشروبات. فضح ميشا، الذي يعرف الحقيقة، كذب الفيلم مبيّناً له أن فلاحي الكولخوز يعيشون حياة الكفاف. وكذلك يروي ميلنار أن غورباتشيف حين كان يدرس الفلسفة وجد عند هيغل عبارة كان يحب أن يرددها: «الحقيقة هي دائماً عيانية»، وبخلاف معظم الطلاب السوفييات، لم يكن غورباتشيف يعتبر الماركسية كمجموعة من القواعد التي لا بد من حفظها غيباً. في هذا اللحظ يبدو أن غورباتشيف كان يقتفي أثر ستالين الذي كان يؤكد «أن الماركسية ليست عقيدة جامدة بل مرشداً للعمل». يبدو ميلنار حاسماً: كان غورباتشيف وهو طالب يفهم ما لم يستطع أو لم يرد الآخرون فهمه. فهكذا شكك في هذه الفترة بعصمة ستالين. وأشهر القصص التي يرويها ميلنار تتعلق بحديث أخذه عنه جميع كتاب سيرة السكرتير العام دون استثناء. فقد قال غورباتشيف أثر درس تناول أعداء الحزب الذين صُفوا وشطبوا من التاريخ «ليس لي هذه الدرجة، فلننزل لم يأمر بالقبض على مارتوف لقد سمح له بالهجرة». قيل هذا الكلام في ١٩٥٢. وقد علق ملينار: «اليوم، مثل هذا التصريح لا يبدو هرطقة حتى داخل الاتحاد السوفياتي. ولكنه سنة ١٩٥٢ كان يعني أن غورباتشيف قد تساءل إذا كان الناس ينقسمون فعلاً إلى مناصرين لخط الحزب أو مجرمين. وقد أدرك أنه من الممكن أن يوجد معارضون ومتقعدون ومصلحون دون أن يكونوا مجرمين، وإن هذا ينطبق أيضاً على الاشتراكيين والشيوعيين»^(١٥).

من الطبيعي أن يتذكر المرء باطراء صديقاً أصبح ذائع الشهرة إلا أنه من جهة أخرى، من العسير أن يجد المرء العيب الكامن في مذكرات كاتب يستعيد حواراً جرى دون أي شهود وقبل ثلاثة وثلاثين عاماً. ولكنه حوار جوهري، ذلك لأن كلام غورباتشوف حول لينين الشجاع الذي ترك صديقه القديم وخصمه السياسي يغادر الى الخارج، يثبت أن بذرة الاصلاحات التي ستحصل مستقبلاً، كانت كامنة في خلال السنوات الستالينية الأولى.

غير أن هذا الكلام، وهو حجر الزاوية في أسطورة «غورباتشوف المصلح» منذ ريعان شبابه (دون أن ييوح بذلك إلا لصديقه التشيكي) يثير بعض الشكوك الحقيقية وذلك لأسباب عدة. الأول وهو أن قصة ترحيل مارتوف الى الخارج عام ١٩٢٠، تدخل في عداد «اللطخات البيضاء» الشهيرة الخاصة بالتاريخ السوفياتي والتي ستردد الحديث عنها بكثرة في إطار «الفلاسفست». وكان لا بد للمرء ليعثر على أثر لهذه القصة أن يتمكن من الوصول الى الصحف القديمة المحفوظة في صناديق خاصة في الأرشيف والتي تتطلب مطالعتها إذناً خاصاً. وإذا كان بإمكاننا أن نتصور - رغم أن الأمر يبدو مستحيلاً عام ١٩٥٢ - أن مؤرخاً متمكناً يعمل على فضح الأخصام المناشيفيك استطاع الحصول على مثل هذا الاذن فهل يمكننا بالمقابل أن نصدق أن طالباً عادياً في كلية الحقوق اسمه غورباتشوف قد تمكن من ذلك؟ لم تكن «قضية مارتوف» من اختراع ميلنار، بل أنه ببساطة لجأ الى تعديل في التواريخ، وهكذا تبدل كل شيء.

- في ٢٠ نيسان ١٩٦٢ نشرت الازيفستيا عن كزاكيفيتش تحت عنوان الأعداء. وقد أثارت اهتماماً كبيراً وعرضت فيما بعد على الشاشة. لأنها مرحلة «إزالة الجليد» وإزالة «اللطخات البيضاء» عن التاريخ. ويروي كزاكيفيتش أن لينين قرر في ربيع ١٩٢٠ مساعدة الزعيم المنشفي مارتوف للذهاب الى الخارج. فقد بعث برسالة الى مارتوف الذي كان يختبئ من «الفيتشيك». يحدد له فيها المسار الذي عليه أن يتبعه للهرب من الجمهورية السوفياتية. وقد نبه لينين حامل الرسالة أن عليه أن لا يدع أحداً - دون استثناء - يعلم بمخبا مارتوف حتى مجلس مفوضي الشعب، لأن بينهم في تلك الآونة، كما يلحظ لينين بشيء من التهكم، من هو لينين أكثر من لينين.

ويمكننا الافتراض أن ميلنار علم بهذه القصة في ١٩٦٢. وكان آنذاك قد عاد الى

تشيكوسلوفاكيا، ولم يلق غورباتشيف إلا مرة واحدة، وأخيرة، عام ١٩٦٧. فهل تحدثنا عن لينين ومارتوف بمناسبة عرض الفيلم؟ من يعلم؟ ولكننا نعلم بالمقابل أن القصة التي رواها كازاكيفيتش مليئة بالنزوات والموهومات. إذ يروي رفائيل ابراموفيتش في رسالة إلى نيويورك تايم، وهو أيضاً قائد منشفي غادر الجمهورية السوفياتية بالتزامن مع مارتوف، وذلك خلال صيف ١٩٢٠ (وهو لم يزل على قيد الحياة)، إن مارتوف لم يكن مخفياً في تلك السنة وإن عملاء الفيتشكا غالباً ما كانوا يزورونه. وقد أعطي الاثنان إذناً بالهجرة بعد أن بُعثا للإشتراك في المؤتمر الحادي عشر للكومينترن الذي انعقد وقتئذٍ في موسكو - ثم ما لبث لينين أن أعطي موافقته معللة بهذه الحجة: ماذا نجني من استشهاد مارتوف في سجن بوتيركا؟ الأفضل أن ندعه يذهب (١٦).

لنصف أن رواية كزاكيفيتش حيث يبدو لينين رجلاً شهياً لا يقضي على أعدائه، نشرت في الصحافة السوفياتية عقب المؤتمر الثاني والعشرين للحزب (تشرين الأول ١٩٦١) حيث أقدم خروتشوف أثنائه على تدمير أخصامه دون شفقة أو رحمة. غير أنه كان من المستحيل سواء على غورباتشيف أو ميلنار أن يعرفا ما سوف يتدعه كزاكيفيتش عام ١٩٦٢ (١٧).

ولا تخلو مذكرات زيدنيك ميلنار من فائدة إضافية، وذلك بالمقارنة مع «رياح الكرملين الباردة» التي كتبت بداية الثمانينات. وقد يبدو غريباً أن لا يكون أي من كتاب سيرة غورباتشيف قد اهتم بها، رغم أنهم يصفون بصورة حية جداً كلية الحقوق حيث درس زيدنيك وميخائيل معاً.

وهذا ما يعود، دون شك، إلى أن ميلنار لا يذكر في مؤلفه الأول رفيقه غورباتشيف. ويمكننا أن نميز الفروقات بدقة. فقد كتب ميلنار في ١٩٨٥ أنه قد تقاسم الغرفة مع غورباتشيف فيما ورد في الصيغة الأولى أنه كان يعيش مع «سنة من قدماء المحاربين على الجبهة» (١٨). إذن لم يكن غورباتشيف في عداد هؤلاء. عام ١٩٨٥ أشار ميلنار إلى الحوارات الجريئة والخطيرة التي تبادلها مع غورباتشيف حول بعض الموضوعات السياسية. أما في الصيغة الأولى فهو يعترف أنه كان. في هذه الفترة «ستالينياً صادقاً وراسخاً» (١٩) وهذا ما كان يشدد عليه في جلساته العامة. فكيف يمكننا أن نتصور والحال هذه أن يفتح طالب سوفياتي قلبه لزميل ليس أجنبياً فقط بل

ستالينياً أيضاً. فمن نافل القول إن العلاقات مع الأجانب لم تغب أبداً عن أعين «الأجهزة» التي كانت تفرض تزويدها بتقارير منتظمة. ويروي أندريه سينيافسكي تفاصيل ذلك في قصته «تصبحون على خير يا أولاد» بأسلوب حي ولاذع. هذا إضافة إلى أن ميلنار لو علم (وهو كان يعلم دون شك) أن رفيقه كان يبعث بتقارير عن حواراتها إلى الجهات المختصة لكان وجد في ذلك أمراً طبيعياً جداً. فهو ما أن وصل إلى موسكو حتى بعث بكتاب - وشاية حول قادة الحزب الذين أوقفوا في تشيكوسلوفاكيا (٢٠).

إذن تبدو الصيغة الأولى لمذكرات ميلنار ثمينة جداً، وذلك لأنها تستعيد بدقة أجواء كلية الحقوق في جامعة موسكو بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ «لم يكن للدروس التي كانت تعطى فيها أي علاقة بدراسة القانون أو بدوره في المجتمع. فالعلم الستاليني للقانون - وهو ما يزال سائداً حتى اليوم - لا يعترف مثلاً إلا بمعيار قانوني واحد: فالعدالة هي ما تعتبره الدولة (أو بدقة أكثر أجهزة الدولة) كذلك» (٢١) ثم يتابع ميلنار «إن كليات الحقوق في الجامعات السوفياتية لا تعلم طلابها التفكير على أساس المقولات القانونية. إنها تعد اخصائيين بأحكام القضاء، تلقنهم كيف يتقيدون بما تقرره السلطة في هذه الحالة أو تلك وكيف يتصرفون أمام هذه الواقعة أو تلك ويمتنعون عن المحظورات» (٢٢).

عام ١٩٥٥، أنهى غورباتشوف دراسته ونال شهادته الجامعية. ومعلوم أن طلاب الحقوق يختارون بعد ثلاث سنوات اختصاصاً، ويتابعون على هذا الأساس أعداداً خاصاً يؤهلهم لكي يصبحوا، كل حسب رغبته، قضاة أو مدعين عامين أو محامين، وهو الخيار الذي يلقي الاقبال الأضعف، واستناداً إلى ميلنار الذي اختار أن يصبح مدعياً عاماً، وإلى كون غورباتشوف كان في مجموعته نفسها، يمكننا أن نفترض أن سكرتير المستقبل قد اختار الاختصاص نفسه. وهذا ما كان يتطلب منه نظرياً أن يتابع تدرجه في مفوضية موسكو، غير أنه ظل، كما يشهد فريدريش نيزنانسكي، في الكلية حيث كانت تظهر مواهبه وحيث كان غالباً «ما يرتفع صوت سكرتير الشيوعية الشيوعية الفولاذي، منزلاً عقوبة الطرد لأخطاء طفيفة، ابتداء من إثارة مسألة سياسية في غير محلها أو حتى حركة تحريرية ضد العمل الاجباري في الكولخوزات» (٢٣).

تعتبر نهاية الدراسة بداية للانخراط في الحياة العملية. وهنا لم يكن لغورباتشوف

أي خيار، مثله في هذا المجال مثل جميع الطلاب السوفييات . الامكانيات المفتوحة كانت التالية : إعداد أطروحة، ثم العمل في البحث أو التدريس، أو أن يتعين في موسكو العاصمة مع كل ما تمثله من سحر وإغراءات. أو أن يتعين في الريف، وهو خيار ملتبس إذ أن الاتحاد السوفياتي شاسع والمواقع المؤثرة المعدة للمتخرجين الغضين كثيرة جداً.

لقد عُيِّن غورباتشوف في ستافروبول، المدينة التي أتى منها الى موسكو. ويبدو أن كتاب سيرته يجهلون أسباب هذه العودة الى الجذور. الواقع أنه لم تكن لديه الحماية أو القدرات الكافية لاعداد أطروحة. وربما لم يكن راغباً في ذلك. فتقدمه بلا كلل في صفوف الشبيبة الشيوعية يجعلنا نمل الى الاعتقاد بأنه كان راغباً البقاء في موسكو للعمل من أجلها ومن أجل الحزب. والاختصاصيون بالمؤامرات التي لا تنتهي داخل الجهاز الحزبي يفترضون أن غورباتشوف قد أزعج أحدهم وخسر بذلك موقعه في موسكو، فعاد الى بلده، وقد حصل معارف متنوعة في ميدان القانون السوفياتي، والماركسية اللينينية وتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي. وهو درس اللاتينية خلال فصل جامعي. كما اكتسب أيضاً مبادئ الخطابة الضرورية لأي وكيل في النيابة. ويعتبر رواية سيرته الأميركيون: «أنه، بعد لينين، الخطيب الأكثر تأثيراً بين القادة السوفييات» (٢٤) كما يعتبر جوريس ميدفيدف أنه أفضل خطباء الحزب «بعد تروتسكي» (٢٥).

في موسكو عام ١٩٥٤ تأهل غورباتشوف من رايسا تيتورينكو، طالبة فلسفة مختصة بالماركسية - اللينينية، وهو يروي: «بعد أن أنهت دراستها الثانوية... التحقت رايسا ماكسيموفنا وهي تحمل ميدالياتها الذهبية بكلية الفلسفة في جامعة موسكو... حيث تابعت تدريباً في التربية في مؤسسة للتعليم العالي، وناقشت أطروحة حول فلاحى الكولخوزات وأصبحت أستاذة في الجامعة. وقد درّست الفلسفة لأكثر من عشرين عاماً...» (٢٦).

الفصل الرابع

توقف في ستافروبول

«كان لتلك السنين أهمية كبرى في حياتنا»

ميخائيل غورياتشوف.

خلال صيف ١٩٥٥ وصل ميخائيل ورايسا غورياتشوف الى ستافروبول. بعد واحد وثلاثين عاماً سيتذكر السكرتير العام بسرور شبابه ورحلته من ستافروبول الى موسكو: «شاهدت البلاد مدمرة. ولكن لا بد لي من القول إن منظمة الشباب الشيوعي كانت مقاتلة وكانت تعرف في ذلك العصر كيف تبرز انباها. لقد أنجزت الشيء الكثير. . . وكذلك كانت اجتماعات الشبيبة الشيوعية بطاشة هي أيضاً. . .»^(١).

وقد تقصد غورياتشوف التذكير بظالم العصر الستاليني الرهيبة، أي باجتماعات الشبيبة الشيوعية «المقاتلة البطاشة، حيث كان يكشف الغطاء عن «الكوسموبوليتيين»، و «المجرمين ذوي القمصان البيضاء»، وعملاء السي. أي. أي، والعديد من الاعداء من كل الاصناف. اذن لا يبدو ان رحلة العودة من موسكو الى ستافروبول قد ايقظت الذكريات الطيبة لدى السكرتير العام. وعليه فإنه لم يعلن عن ذلك حتى الآن. لقد عاد مزوداً بشهادة جامعية ويصطحب امرأة شابة جميلة، ولكن الى مدينة صغيرة في الريف. وهو قد غادر في خضم المرحلة الستالينية وعاد في بدايات العصر ما بعد الستاليني أي العصر الخروتشوفي.

وها هنا علامة دقيقة في سيرة ميخائيل غورياتشوف تبدو لافتة جداً وهي ذات أهمية اكيدة: فهو لم يعمل ولو ليوم واحد، خلال حياته كرجل راشد، الا للحزب.

وكل شيء يجعلنا نعتقد انه كان مقدراً له ان يؤمن احترافه عبر الحزب فالبكاد بلغ الرابعة عشرة، وهو السن الأدنى المقبول، حتى انتسب الى الشبيبة الشيوعية، غير ان ذلك لا يدهش ابداً: ففي المدرسة يتم الدخول الى الشبيبة الشيوعية بصورة شبه آلية.

وما ان بلغ الثامنة عشرة حتى اصبح عضواً احتياطياً في الحزب. وهو امر اشد ندرة، اذ جرت العادة ان يتم الانتظار لفترة اطول، اضافة الى ان الامر يتطلب عدة توصيات وموافقة الحزب الذي يتسبب المرء اليه. وهكذا اندفع ميخائيل في الجامعة الى النضال وسط الشبيبة الشيوعية، قاطعاً هكذا الخطوة الاولى من احترافه في نادي الاعيان «النومانكلاتورا».

ان كتاب سيرة غورباتشوف والاعلاميين السوفييات يمتنون النفس ومعهم الشعب السوفياتي لوجود رجل قانون للمرة الاولى بعد لينين على رأس الدولة. ومعلوم ان لينين كان طوال اربعين عاماً (١٨٩١-١٨٩٥) مساعد محام محلف. حتى انه تولى الدفاع لعدة مرات امام القوس، رغم أن «فلاديمير ايليتش لم يهتم الا قليلاً بالممارسة القانونية، اذ لم يكن يجلبه الا العمل الثوري»^(٢) اما ميخائيل غورباتشوف فلم يهتم من جهته ولو لدقيقة واحدة بمثل هذه الممارسة. وهو يبقى، في اي حال، غائباً جداً بالنسبة لهذا الموضوع: «جرت الامور على نحو لم يجعلني أمارس أي عمل ضمن اختصاصي. وقد كلفت باكرًا بالعمل في إطار الشبيبة الشيوعية»^(٣) وبهذا الصدد نلاحظ في سيرته الرسمية واقعة مميزة: «بين ١٩٤٦ و ١٩٥٠ عمل مساعد سائق على حصادة دراسة في ال "mts" التابعة لمنطقة ستافروبول. وابتداء من ١٩٥٥ بدأ يعمل في إطار الشبيبة الشيوعية والحزب»^(٤).

ان كل طالب يتخرج من مؤسسة تعليمية عالية يعطي وظيفة في اختصاصه. وهو يلين بالعمل ثلاث سنوات للدولة التي سمحت له باتمام دراسته.

وقد نجح غورباتشوف بصورة واضحة بان يتعين في اللجنة البلدية للشبيبة الشيوعية في ستافروبول. وقد بدأ كرئيس قسم. وهي وظيفة غير مهمة، خاصة بالنسبة لخريج من جامعة موسكو. وقد أختير من قبل سكرتير اللجنة البلدية للشبيبة الشيوعية في عهد فزيفولود موراخوفسكي. وبعد فترة عندما سيتخطى غورباتشوف معلمه الاول لن ينسأه. اذ سيصبح موراخوفسكي نائب - رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

لقد بلغ غورباتشوف الرابعة والعشرين . وبدأ صعوده باصرار وإن ببطء . بداية ؛ في اطار الشيبة الشيوعية . ثم اصبحت عام ١٩٥٦ السكرتير الاول في اللجنة البلدية . وفي ١٩٥٨ مسؤولاً عن قسم الدعاية ، ثم سكرتيراً ثانياً في لجنة المنطقة للشيبة الشيوعية ، وحينها وصل السكرتير الاول فيودور كولاكوف الى موسكو ، الذي سترتبط به مهمة غورباتشوف طوال ثماني عشرة سنة . تستعيد بنية السلطة السوفياتية بصورة كاملة النظام الاقطاعي في القرون الوسطى ، فالقطاعي بحاجة الى ائتمان وهم بدورهم بحاجة عائلية اليه . وقد ارسيت هذه البنية منذ السنوات الاولى للثورة . ويمكننا تفسير الطابع المكثف للارهاب طوال الثلاثينات تخصيصاً بسيادة هذا النسق . فبعد القبض على الاقطاعي بدأ الائتمان يتساقطون الواحد تلو الآخر من اعلى السلم الى اسفله . ومع بريجنيف اكتسبت البنية بعض الميزات الجديدة : فقد انعقدت علاقات ، على كل المستويات مع عالم الجريمة والمافيا .

وتوصف الآن مرحلة بريجنيف رسمياً «بمرحلة الركود» . وواضح ان هذا الركود لم يطل السياسة الخارجية . فخلال السبعينات تحول الاتحاد السوفياتي الى امبراطورية . ولم يكن على هذه الدرجة من السكينة التي يقدمها البعض اليوم للقباضين على السلطة العليا . فعندما امسك بريجنيف بزمام الامور اجري تطهيراً في المناصب العليا لا يقل اهمية عن ذلك الذي قام به خروتشيف ، فمع سقوط اعضاء المكتب السياسي او امناء اللجنة المركزية المغضوب عليهم تساقط جمع من اتباعهم (الذين اما ارسلوا كسفراء الى بلاد بعيدة واما احيلوا الى التقاعد) . وبالمقابل فان المسؤولين الذين رضي عنهم بريجنيف لسبب او لآخر رفع عنهم العقاب كلياً ، ولم يتأخروا عن التحول الى بذاحين من الصنف الرديء . وكذلك قام بريجنيف ، كما يروي فلاديمير سيميتشاستني رئيس ال.كا.جي.بي ، بين ١٩٦١-١٩٦٧ «بتكنيس» الشباب جميعاً من المنصب الاعلى للسلطة : شيليين ، بوليانسكي ، فورونوف . فقد كان من عادته ان يتقي الاشخاص الطيعين ، الذين يعرفون كيف يتملقونه ، ويلبون اصغر طلباته ورغباته^(٥) .

وقد لاحظ مراقب مرفف بصورة نادرة « ان البيروقراطية الروسية كانت تعوم نموذجين اساسيين من الرجال : الذين يبرزون الى السطح لانهم يعرفون السباحة والذين يسبحون في الفراغ»^(٦) .

اما البيروقراطية السوفياتية من جانبها ، فتطلب من السباح مواصفات أخرى ،

ومزاج آخر ومركب مختلف. غير ان القدرة على السباحة والتفكر يظلان من شروط النجاح الاساسية. إن ميخائيل غورباتشيف ينتمي دون أدنى شك الى فئة السباحين النادرين.

يعتبر عام ١٩٦٠ تاريخاً مفتاحاً في سيرة غورباتشيف لقد بلغ التاسعة والعشرين من العمر واصبح سكرتير لجنة الشبيبة الشيوعية في منطقة ستافروبول. وهو يحتل المرتبة السادسة في لائحة أعيان الحزب المحلية.

إن سكرتير المستقبل يقف على مفترق طرق: فمتابعة احترافه في الشبيبة الشيوعية تسمح له بالعودة الى موسكو، ولكن أمامه أيضاً إمكانية أخرى، وهي أن يترك عمله في الشبيبة ويلتحق بالـ... كا. جي. بي.

هذا الجهاز الذي قرر خروتشيف خلال تصفيته لتنظيمات الجهازية الستالينية ان يجدده باستدعائه «للشباب». وهكذا أخذت الشبيبة الشيوعية بناصية ال. كا. جي. بي.، من خلال شخص الأمين الأول للجنة المركزية الكسندر شيليين الذي عُيِّن لاحقاً رئيساً لها. وكان أيضاً أمام غورباتشيف احتمال ثالث يدو انه كان يرأوده بشكل خاص وهو ان ينتقل الى جهاز الحزب. وقد وجد فرصة لذلك في عام ١٩٦٢.

ففي هذه السنة وخلال الاجتماع المكتمل للجنة المركزية، اطلق خروتشيف خطة جديدة تهدف الى حل مشكلات التمويل في الاتحاد السوفياتي. وقد قرر، بهدف زيادة الانتاج الزراعي إعادة بناء نظام الادارة في قطاع الزراعة. وخروتشيف الذي نجح منذ آذار ١٩٥٣ صراعاً ضارياً على السلطة، يسمح له بإجراء الاصلاحات الضرورية، لم يتوقف عن توجيه الضربات التي كانت تهز الاجهزة (السياسية والاقتصادية)، آملاً تدعيم نفوذه من خلال آلية إعادة البناء هذه، (البيريستريكا). وقد اقترح خروتشيف هذه المرة (وقد قبل اقتراح السكرتير الاول للجنة المركزية مباشرة) إنشاء إدارات للكولخوز والسوفخوز في الارياف، تشمل مساحة عدة مقاطعات.

وقد فكر في ان يضع على رأسها مفتشين خاصين يمثلون الحزب ويتمتعون بصلاحيات هائلة. وهكذا يمكنه اضعاف المناطق الحزبية، ملغياً علة وجودهم نفسها: ادارة الزراعة. وقد تبين أن مجمل هذه الترسيمة التي اطلقها خروتشيف اضافة

الى مشاريع اعادة التنظيم الاخرى لا تعدو كونها عبثية . ذلك أنها بعيداً عن تقليص الالة البيروقراطية ساهمت على العكس من ذلك بتضخيمها، وازادت الى نظام الادارة تعقيدات جديدة . واننا لا نورد هذه المسألة الا لان غورباتشوف قد عين مفتشاً في احدى ادارات منطقة ستافروبول، وحصل بذلك على وظيفة داخل جهاز الحزب . وفي كانون الاول ١٩٦٢ قام السكرتير الاول للجنة المنطقة كولاكوف بنقله من هذا المنصب الذي لا يعد بمستقبل هام، وتعيينه مسؤولاً عن الكوادر في اللجنة الحزبية للمنطقة . وهكذا اصبح يتحكم بكل التعيينات في المواقع التابعة للجنة المنطقة . ويتصرفه على هذا النحو لم يتح السكرتير الاول لغورباتشوف ان يتسلق درجة اضافية، بل انه أعرب أيضاً عن ثقته به .

لقد وجد غورباتشوف سيده الاقطاعي، اي امن الشرط الاساسي لنجاحه في حال تكلفت جهود السيد نفسه بالنجاح .

في حزيران ١٩٦٠، جاء فيودور كولاكوف الى موسكو ليحتل مواقع الامين الاول في لجنة المنطقة الحزبية . وبالنسبة لهذا الرجل الذي ناهز الثانية والخمسين تبدو ستافروبول مصيبة او منفى . وفي ١٩٥٩ اصبح وزيراً للمتوجات من الخنطة . غير انه بعد عام اقدم خروتشوف، غير راض عن حالة الزراعة على طرد الوزراء المعنيين ومن بينهم كولاكوف . وبصفته مهندساً زراعياً كان كولاكوف يضطلع منذ ١٩٤٣ «بمسؤوليات على مستوى الحزب والسوفييات والاقتصاد»^(٧) . وقد قال فيه جوريس ميد فيديف الذي استمع الى بعض مداخلاته في الاكاديمية الزراعية (تيميريازيف) «انه النموذج المثالي للزعيم الحزبي، الشديد البأس، الذي يفرض هيئته وسلطته» . وازداد «لا حد لظموحه»^(٨) .

وهو يقيمه هكذا من خلال نظرة غير متساعمة، وذلك دون شك، لان كولاكوف سيشارك بدافع الحق في المؤامرة ضد خروتشوف . وانطلاقاً من شهادة روي ميدفيديف سوف يجتمع في ستافروبول خلال ايلول ١٩٦٤، عدة اعضاء في مجلس رئاسة اللجنة المركزية، بدعوة رسمية من كولاكوف الى رحلة صيد . وقد طرح مسألة إقصاء خروتشوف^(٩) . ومن غير المستبعد ان غورباتشوف كان في اجواء اسرار الالهة . والشيء الاكيد : انه كان يتفاهم بصورة رائعة مع كولاكوف .

في تشرين الاول ١٩٦٤ عزل خروتشيوف وتوجه كولاكوف مباشرة الى موسكو .
ووجود سيد في موسكو يعتبر نقطة انطلاق رائعة لاحتراف متألق . وقد عين في
ستافروبول في موقع السكرتيرية الاولى للجنة المنطقة ليونيد افريموف ، وهو موظف
عنك من الحزب جاء من موسكو وكان قد أدار لجان محلية في كويبيشيف وكورسك
وغوركي . ولحظة سقوط خروتشيوف كان افريموف عضوا احتياطيا في بريزديوم
(مجلس رئاسة) اللجنة المركزية (استعاد في ١٩٦٦ تسميته بالمكتب السياسي) وسكرتيراً
ثانياً في اللجنة للمركزية rsfsr (السكرتير الاول كان خروتشيوف نفسه) . الا ان
افريموف لم يستطع بعد انتخاب بريجنيف الحفاظ على وضعه في موسكو فطرد الى
الارياف . واصبح غورباتشيوف تابعا لقائد جديد . وقد رأى جوريس ميدفيديف في
ليونيد افريموف «رجلاً مثقفاً ، ليبرالياً» «اشد ذكاء وخبرة من كولاكوف» . اضافة الى انه
في معهد المكتنة الزراعية في فوروينج» (١٠) .

ومن جهته يشير ميشال تاتو ان ما علق في ذاكرة الناس في ستافروبول هو ان
افريموف رجل «مثقف» (١١) .

لما كانت شخصية افريموف وصفاته الانسانية لتهمنا بصورة خاصة لو لم يكن
الرجل طوال سنة ونصف رئيساً مباشراً لغورباتشيوف . وما من شك ان الرجلين قد
اعتادا سريعا على العمل معا . فغورباتشيوف الذي اعجب كولاكوف عرف ايضا كيف
يُحظى ايضا برضى افريموف . ونشير هنا الى أن سير غورباتشيوف تدع جانباً النقاش
«السريع جداً من جهة والاستثنائي بالمقابل» ؟ والتعبير هنا للاعلامي يوري تشير
نيتشكو) حول سبل تطوير الزراعة السوفياتية . هذا النقاش حصل في ١٩٦٧ ، بين
الاقتصادي والاعلامي غينادي ليسيتشكين من جهة ولونيد افريموف من جهة أخرى
 . وقد وصف ليسيتشكين في احد مقالاته الحالة كما تمكن من معاينتها في شمال
القفقاز ، او بكلمة أخرى في مقاطعة كانت خاضعة لسلطة افريموف «ففي هذه الناحية
(التي توازي بلداً من بلدان اوربا الغربية) حيث تسطع الشمس على تربة سوداء
وحيث الرطوبة كافية تماماً كان مربحا بالنسبة للكلخوز الاهتمام بزراعة القمح . . .
وليس بتربية الاغنام والبقر الحلوب ، اما من ناحية المراعي الطبيعية الجميلة فكانت
الوضعية مختلفة : كان من المربح الاهتمام بتربية الماشية وليس زراعة القمح . خاصة ان
سعر الخبز كان مرتفعاً .

والواقع انه حيث كان القمح مربحا اعطيت تعليمات للكوخوزات بتطوير مكثف لتربية المواشي وتطوير زراعة الحنطة الى أقصى حدود حيث كانت مردودية تربية المواشي مرتفعة. . . ولم يكن ذلك ضرباً من الحماقة بل، وكما يشرح الاعلامي «مبدأ تخطيط»، وقد اقترح غينادي ليسيتشكين تغيير «اوالية الزراعة» وتطوير تبادل السلع والشراء الحر. اما ليونيد افريموف فرفض ذلك رفضاً قاطعاً، متقدماً بعنف «فيتيشية العلاقات القائمة على المال ورواج السلع» (١٢).

والواقع انه لم يكن بامكان غورباتشيف ان يدعم الرأي المناقض لرأي رئيسه. ولكن هل موقفه الفعلي غير ذلك؟ هو وحده الذي يملك جواباً عن هذا الامر. اما المؤرخ فلا بد له ان يكتفي بتسجيل ان افريموف استمر في دعمه لغورباتشيف. وفي هذه المرحلة اصبح ميخائيل، على عرار رئيسه، خبيراً بالشؤون الزراعية. فقد اخذ دروساً بالمراسلة من المعهد الزراعي في ستافروبول. وهكذا خضع غورباتشيف هنا للدرجة الجديدة. فالارستقراطية العليا في الحزب كانت تركض وراء الشهادات. وكان امنا لجان الجمهوريات والمناطق واعضاء اللجنة المركزية يتابعون دراساتهم العليا بالمراسلة. وقد سمح لهم ذلك اجمالاً بان يزينوا سيرة حياتهم بشهادات التعليم التقني العالي، وغورباتشيف الذي كان يعمل في الحقل الزراعي في اطار منطقة ستافروبول اختار الزراعة.

وغيدار آلييف الذي يتولى رئاسة ال.كا.جي.بي. في اذربيجان اصبح مؤرخاً متخرجاً. ويمكننا ان نتصور العلامات التي نالها غورباتشيف الذي شارك في الامتحانات بصفته السكرتير الاول في اللجنة الحزبية للمدينة.

اعطى ليونيد افريموف دفعا قوياً لغورباتشيف: في ايلول ١٩٦٦ اصبح سكرتيراً اولاً للجنة المدنية، وفي آب ١٩٦٨ سكرتيراً ثانياً للجنة المنطقة التي سيصبح سكرتيرها الاول في حزيران ١٩٧٠. وقد استدعي افريموف الى موسكو واقترح تعيين غورباتشيف مكانه. غير ان توصية السكرتير الاول السابق لم تكن كافية، اذ كان لابد من موافقة موسكو، ذلك ان التعيين في هذه الوظيفة يعود لاعيان المكتب السياسي.

تعتبر منطقة كُراج اهم الاقسام الادارية من R.S.F.S.R وهي تتألف من اراض شاسعة تقع على تخوم اتحاد روسيا (ومن هنا اسمها). وهناك ست مناطق: آلتاي،

كرانودار، كراسنويارسك، الساحل (بريمورسكي) خاباروفسك وستافروبول. ويتمتع امين لجنة منطقة RSFSR بنفس حقوق اماناء مناطق الاتحاد الاخرى (اوبلاست oblast، الوحدة الادارية الاساس في الاتحاد السوفياتي)، غير ان المساحة التي يمارس عليها سلطته هي اكبر بكثير. وتكمن خاصية هذا القسم الاداري في أنه يضم مناطق مستقلة ذاتياً، ولكنها لا تحتوي الا على عدد قليل جداً من الاقوام لا يسمح لها ان تشكل كجمهوريات مستقلة. فهكذا تضم منطقة ستافروبول المنطقة المستقلة كاراشايس - شركس وهو اسم الشعبين اللذين يشكلان القسم الاعظم من سكانها. (وتعطي وظيفة السكرتارية الاولى للجنة منطقة RSFSR موقعا في اعلى هرم السلطة. فالسكرتير الاول للجنة المنطقة ينتخب تلقائياً كعضو في اللجنة المركزية، ويصبح نائباً في السوفيات الاعلى لـ RSFSR وللإتحاد السوفياتي. والاهم هو انه يتمتع بسلطة هائلة. تغطي منطقة ستافروبول مساحة تبلغ أكثر من ثمانين الف كيلومتر مربع (اي مايعادل مساحة بلجيكا، وسويسرا و٣ اضعاف اللوكسبورغ. وتعد (احصاء الاول من كانون الثاني ١٩٨٢) ٦٤٢,٠٠٠ نسمة.

راغباً في ايجاد تمثيل ما بين النظام السوفياتي والغرب، يقارن الاختصاصي الاميركي بالشؤون السوفياتية جري هووغ jerry hough اماناء المناطق (في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والـ RSFSR بالمفتشين^(١٤)). ويدعم ميشال تاتو هذه المقارنة قائلاً «دام نشاط المفتش غورباتشيف في ستافروبول ثنائي سنوات»^(١٥) ويلحظ محررو التايم في سيرتهم عن السكرتير العام «ان تسمية غورباتشيف كأمين أول لمنطقة ستافروبول جعلته عملياً حاكماً على هذه الناحية، الا ان السلطة التي يملكها تضاهي تلك التي يمارسها حاكم ولاية أمريكية»^(١٦)

مفتش، حاكم، نائب الملك، مرزبان، كل هذه التمثيلات قد تعطي فكرة عن وظيفة السكرتير الاول ولكنها تحول في الوقت نفسه دون التقاط خصوصيتها.

إن «مزجة» المرحلة «السكرتيرية» التي تعقب المرحلتين الامومية والابوية تكشف الى حد بعيد هيكلية النظام السوفياتي التي تتشكل من الامين العام وامناء الحزب الاول في اربع عشرة جمهورية^(١٧) الامناء الاول لمئات اللجان الاقليمية (اوبلاست وكراج) واخيراً الامناء الاول لآلاف لجان المقاطعات.

أما ممثلو الحزب الذين يمسون بمجمال السلطة فف البلاء فهم أسفاء مطلقون على إقطاعاتهم .

وتبدو بنية أي لجنة محلية نسخة تستعيد بنية اللجنة المركزية . اما اللجان الاكثر اهمية (لجان الجمهورية او المنطقة) فهي نسخة طبق الاصل عنها . وتنقسم اللجان الى الاقسام نفسها : الاجهزة الادارية ، الزراعة ، البناء ، الثقافة ، النقل ، الدعاية والتعبئة ، العمل داخل الحزب . . .

ويتم السكرتير الاول بجميع المسائل وتعود له كلمة الفصل بها يتعلق بالحلول المقترحة . وفي هذا اللحاف لا تكتسب ثقافة الامين العام التقنية وطبيعة تخصصه اهمية خاصة . وحده ليونادر دي فانشي كان مختصا بكل شيء . ويقال في اللغة السوفياتية إنه الامين الاول متخصص بالمسائل العامة .

وميخائيل غورباتشوف كان امينا اولاً لمنطقة معينة ، وفي جيبه شهادتان جامعتان ، وهما تعطيان شيتاً من الهية الا انها لا تبدوان كافيتين لحل المشاكل لو لم يكن يملك النفوذ والسلطة . وليس صدفة ان يطلق على السكرتير الاول لقب «المعلم» وهو لقب استخدام باستمرار وما يزال حتى اليوم اضافة الى كونه ممسكاً بالسلطة الايديولوجية ، وذلك لأن الحزب «متسلحاً بتعاليم الماركسية اللينينية» ، يضفي على نضال الشعب السوفياتي من اجل الشيوعية^(١٨) «طابع ما هو مخطط له ومرتسخ علمياً» . يملك الامين الاول ايضاً السلطة الادارية . ولكي نستعيد عبارة ستالين ، فهو ضمن «عقاره» الاب والسيد في آن معا . تتحكم موسكو عن بعد بنشاط السكرتير الاول واذا لم تقع في نطاقه كارثة ملفتة فانه يحكم وفقاً لأهوائه وقدراته او بكلمة يفعل ما يشاء .

ميخائيل غورباتشوف هو الاول بين سبعة قادة سوفيات الذي انخرط في تجربة طويلة - ما يقارب الثماني سنوات - في السلطة وذلك من خلال مواقع الامانة العامة لمنطقة من الحجم المتوسط . فليين قد انتقل مباشرة من ادارة اللجان الصغيرة الى أعلى موقع في السلطة . وستالين الذي نعم بسلطة غير محدودة بصفته مفوضاً اثناء الحرب الاهلية تتحكم فيما بعد «بالمعلمين» من خلال الجهاز . وبريجنيف وخروتشوف شغلا قبل أن يصلا الى قمة الهرم منصب الامانة العامة على مستوى الجمهوريات . اما اندروبوف وتشيرينكو فلم يديرا قبل وصولهما الى القمة أي لجنة حزبية . فالجدة في سيرة

غورباتشيوف تكمن في أنه حكم طويلا ما يقارب ثلاثة ملايين نسمة . غير أنه ليس لذلك أية علاقة بالمتين والثمانين مليون نسمة الذين يحكمهم الآن فسلطته اليوم تبدو مجردة فيما بالامس كانت عيانية وملموسة الى أبعد الحدود . فمتجولا في منطقته كان الامين الاول قادرا على التعرف الى مجمل مرؤوسيه تقريبا . اي انه كان بإمكانه ان يلتقي شخصا عددا كبيرا منهم . وكانت حياتهم رهنا به في مجالات عديدة . وكان قادرا على اقامة علاقات مباشرة معهم كما كانوا قادرين على إقامة هذه العلاقات معه . لقد كان معلما حقيقيا او المعلم الكلي القدرة بلحمه وعظمه . ان تجربة ستافروبول توضح الى اقصى درجة معنى «اصلاح نظامنا السياسي»^(١٩) الذي اضطلع به غورباتشيوف . وهو كان يعرف جيدا ما يتكلم عنه عندما اقترح فجأة في المؤتمر التاسع عشر ان يجمع مهام السكرتير الاول الى تلك العائدة لرئيس سوفيات نواب الشعب . فقد اضيفت الخطوة الاصلاحية نوعا من الشرعية على جبروت السكرتير الاول الذي تحول رسميا الى تعبير عن الدولة وليس عن الحزب فحسب . وهكذا اعطت تجربة ستافروبول للامين الاول السابق للمنطقة الاطمئنان الذي لا يتوفر الا «للمعلم» وقناعة بان على الحاكم القوي ان يقود الجماهير وراءه وانه قادر على ذلك .

في نيسان ١٩٧٠ ، وبعد ان بلغ الثالثة والثلاثين أصبح ميخائيل غورباتشيوف سكرتيرا اوليا في لجنة منطقة ستافروبول . ولن يغادرها في تشرين الثاني ١٩٧٨ الا «ليصعد» الى موسكو . وهنا خصوصية لا يلحظها غورباتشيوف في هذه الفترة التي تمتد ثمانين سنوات ونصف . فجيانه ومنافسوه ، الامناء الاول في منطقة كراسدونار (سيرغي ميدونوف) وروستوف (ايفان بوندارينكو) لا يتوقفان عن الكلام في المؤتمرات ، ويتباهيان علنا بنجاحهما . وشائع ان يحب امناء المناطق وهم الاسياد على ارضهم ان يتميزوا بأية طريقة : فهذا يرفعى الفنون (طبعاً في اطار الواقعية الاشتراكية) وذاك يدعم المسرح وثالث يحتضن حفنة من الكتاب . اما في منطقة ستافروبول فلا شيء متميز يثبت ذوق السكرتير الاول ، اذ انه اثناء وجوده كسكرتير اول في اللجنة البلدية لستافروبول لم يقم غورباتشيوف الا بتنظيم سيرك في مدينته . وكان ذلك فقط ما تركه من بصمات .

إن منطقة ستافروبول هي في الاساس زراعية . فتجاح او فشل السكرتير الاول فيها مرهونان ، اذن ، بغلال الحصاد . وقد اولى غورباتشيوف جل اهتمامه لهذا القطاع .

فكان يطوف على الكولخوزات والسوفخوزات، مشجعاً اعتماد اشكال جديدة لتنظيم العمل: فريق عمال مستقل، نظام يحاول الجمع بين الانتاجية والأجر، ترسيخ الالفة بين الكولخوزي وارضه، وتحضيره للعمل غير ان هذه الطرق ظلت على مستوى الجراحة التجميلية، ودون اي اثر على الغلال التي تتفاوت بعنف من عام الى آخر. وبدءاً من ١٩٧٠ ادار فيودور كولاكوف الزراعة بصفته سكرتيراً للجنة المركزية. وقد عزا الى نفسه المواسم الجيدة (١٩٧٣، ١٩٧٦) وفسر حصول الرديئة منها (مثلا المحصول الكارثة عام ١٩٧٥) برداء وزير الزراعة. وسمح انتخاب كولاكوف (بعد بعض النتائج الجيدة) الى المكتب السياسي بدخوله نادي المرشحين الى السكرتيرية العامة. وقد بحث عن أي وسيلة للحصول على نتائج ايجابية ثابتة، وهو ما يزيد من حظوظه في صراعه ضد اخصامه في المكتب السياسي. وقد وجد «الطريقة»: إن جميع الوصفات الهادفة الى تثبيت وتنظيف الزراعة السوفياتية من امراضها القاتلة التي اصابتها منذ التأميم، استطاعت تأمين شفاء عاجلا وطويلا ولكن دون تغيير النظام. فكل واحدة منها كانت بمثابة جرعة سحرية. فقد اقترح ليسينكو ترياقه، ثم اتى حزام ستالين الحرجي الذي كان يندأ من الرياح ويؤمن محاصيل جيدة، ثم دزة خروتشيوف، وبعدها أسمدة بريمينيف الكيميائية. . . ومن هنا تأتي طريقة كولاكوف كعلاج سحري جديد. ملاحظاً مثل الجميع ان ٢٠ و ٣٠ بالمائة من الانتاج تهدر اثناء الحصاد نفسه (والحال ما تزال سائلة حتى اليوم)، امر كولاكوف العلماء بان يجدوا اسلوباً يؤمن حصداً سريعاً. وقد اعد معهد مكنتة وكهربة الزراعة في روستوف مشروعاً بهذا الصدد. واقترح انشاء مفرزات خاصة تتألف من ١٥ حصادة دارسة و ١٥ شاحنة تؤمن فرق خاصة تزويدها بالنفط ومهمتها الحصاد، وجمع التبن، والتحضير المسبق للحقول. . . ويحق لكل مفرزة ان تستعين في سبيل تماسكها الايديولوجي بمحرضين من لجنة الحزب وثمانية متفرغين جزئياً واربعة مثقفين سياسيين وبقارىء. وللى جانب ذلك أنشئت «منظمات حزبية متحركة» و«جماعات متحركة من الشبيبة الشيوعية»، مهمتها التنقل مع الآلات (٢٠).

ورغم ان الوصفة كانت من ابتكار معهد روستوف، عهد كولاكوف اختبارها عملياً الى السكرتير الاول لمنظمة ستافروبول. وقع الاختيار للقيام بالتجربة الاولى، على مقاطعة ايباتوفكا: سهل منبسط مثل الكف مزروع بالقمح الشتوي والمحصول واحد.

ونجحت التجربة . وظهر اسم غورباتشيوف للمرة الاولى ، في البرافدا : وفي ١٦ تموز ١٩٧٧ نشرت الصحيفة مقابلة معه ، وفي الوقت نفسه قرأراً من اللجنة المركزية يدعو الى تطبيق «طريقة ايباتوفكا في جميع انحاء البلاد . وقد نال غورباتشيوف الى جانب بعض «المبدعين في حقل الزراعة» وساماً رفيعاً : وسام ثورة اكتوبر . الا انه إتضح سريعاً ، فيما بعد وقد كشفت المسألة بصورة علنية عام ١٩٨٤ ان «طريقة إيباتوفكا» ليست الا خدعة إضافية وذلك لكونها باهظة الكلفة ودون نتائج تذكر .

إن نجاح الزراعة في المنطقة هو الشرط الضروري ولكن غير الكافي للاحتراق الجيد . غير ان حلم تشيخوف الجميل الذي يراود أخواته الثلاث : هو «موسكوا» . هذا الحلم يدغدغ سراً جميع الامناء الاول ، غير انهم بالمثلث . فما هي الوسيلة اذن للبروز ولفت الانتباه ؟ الجواب بديهي : بتحقيق النجاحات ، وإنجاز الاعمال الباهرة وتخطي الخطة الموضوعية ، ولكن هناك ايضاً وسائل اخرى . فمنطقة ستافروبول تضم ينابيع شهيرة للمياه المعدنية ومنتجات للعلاج : كيسلو فودسك ، جيليز نوفودسك . وبعض القادة السوفييات يأتون اليها للعلاج بصورة منتظمة . «ومعلم» المنطقة السكرتير الاول يلتقي بهم بطبيعة الحال . والقرم والبحر الاسود هما ايضاً من مناطق الاصطياف . والواقع ان هذه الناحية اُسِّميت «بسانا تورويوم الاتحاد» ، وهي تقع في محيط مقاطعة كراسنودار . وفي خلال السبعينات زارها كل من سوسلوف وكوسيجين واندريوف وكولاكوف للاستفادة من العلاج في كيسلو فودسك . فيما بريجنيف كان يفضل القفقاز . وكان من أقرب «محاسبيه» السكرتير الاول للجنة الاقليمية لكراسنودار سرغي ميدونوف . ويسمح مقر الاصطياف اضافة الى الاذواق والامراض والمزاج بقسمة القادة السوفييات الى مجموعتين : الاولى تفضل المناخ شبه الاستوائي وما يتيح من تذوق للنيذ ، والثانية منطقة ستافروبول ومياهاها . وهذا ما لا يخلو من التذكير باول لقب اعطي لغورباتشيوف بعيد إنتخابه للمنصب الاعلى : «السكرتير المعدني» . في ١٧ تموز ١٩٧٨ مات فيودور كولاكوف فجأة . وهكذا غادر أصغر اعضاء المكتب السياسي «٦٠ عاماً» العالم بصورة فظة . وهو كان يأمل للخريف المقبل بحصاد لم ير من قبل (التوقعات الاميركية لتموز اعطت رقم ٢٤٠ مليون طن ؛ الرقم القياسي سنة ١٩٧٢ بلغ ٢٢٣,٨ مليون) ، ولم يسبق له ان عرف المرض ابداً . وقد أعلن في بلاغ مقتضب موقع من قبل طبيب بريجنيف الشخصي ، الاكاديمي تشازوف ، الذي يشغل اليوم منصب

وزير الصحة «ان قلب كولاكوف توقف عن الخفقان». وقد تم دفنه في مأتم كبير. الا ان بريجنيف وكوسيجين وسوسلوف لم يشاركوا في الجنازة. وتولى غنائيل غورباتشوف تلاوة الكلمة التأيينية في الساحة الحمراء: لأول مرة (دون شك) يشاهد الشعب السوفياتي قائده المقبل.

(اما أسباب وفاة كولاكوف (انتحار، اغتيال) فتبقى «لطخة بيضاء» في التاريخ السوفياتي. وقد فتح غياب معلم غورباتشوف وحاميه فضلاً جديداً في حياته. وفي آب - ايلول ١٩٧٨ جاء سوسلوف وكوسيجين واندرويوف الى منطقة ستافروبول للاستشفاء بالمياه المعدنية. وفي ايلول وفيما كان بريجنيف وتشيرنيكو في طريقهما الى باكو توقفا في كراسنودار. وخلال مرورهما السريع في مينيرالني فودي أجريا محادثات مع غورباتشوف. وهذا ما لم تتأخر احدى الصحف عن نشره (وكذلك اللقاء مع ميدونوف). وفي تشرين الاول وصل الى ستافروبول اندري كيريلينكو عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية والذي يعتبر بمثابة الرجل الثاني.

في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ سجلت الجلسة المكتملة للجنة المركزية تغييرات في المكتب السياسي. بريجنيف وضع تشيرنينكو في هذا المكتب، وكذلك انتخب تيخونوف رئيس الوزراء المقبل الذي يبلغ ٧٣ عاماً كعضو احتياطي، واخيراً اصبح ميخائيل غورباتشوف سكرتيراً للجنة المركزية مكان كولاكوف. ويمكننا ان نفترض بسهولة ان بريجنيف كان يفضل سيرغي ميدونوف. الا ان ترشيحه ألغى نظراً لبروز وثائق مشبوهة، سوف تكشف للرأي العام بعد بضع سنوات، مما اجبر ميدونوف على الرد على تهمة الافساد الموجهة اليه. (وصل غورباتشوف اذن الى موسكو. وانتهت بذلك مرحلة ستافروبول التي امتدت مايقارب ربع قرن. عاد الى العاصمة، بعد ان قفز درجات عدة على سلم الشهرة.

الفصل الخامس

عودة الى موسكو

السؤال الاول الذي يتبادر الى الذهن: لماذا هو؟ . في قصته «كيف كانت تجري الامور في اوديسا» يطلب اسحاق بابل من الحكيم آريه - ليبب كيف تمكن بينيا كريك في الصراع الذي دار بين اشرار اوديسا من احتلال المركز الاول، معددا مآثر المتنافسين الرهيبيين. سأل بابل: «لماذا كان بينيا كريك وحده الذي بلغ قمة سلم الحبل فيما بقي الآخرون معلقين في الاسفل على درجاته المترنحة؟» السؤال نفسه يطال ميخائيل غورباتشوف. (يروي ميشال تاتو انه شاهد في ستافروبول صورة فوتوغرافية لغورباتشوف يبدو فيها محاطاً بالجماهير. كان ذاك عام ١٩٧٠، أي، والامر واضح هنا، بعد انتخاب ميخائيل سيرغيفيتش اميناً أولاً للمنطقة: «لم أميزه الا بصعوبة، لقد كان سميناً أكثر بكثير من اليوم، وقد بدا منذ تلك الفترة نصف اصلع، كان يرتدي طقم رديء التفصيل، من القماش السميك، ولم يكن يبدو شاباً على الاطلاق وكان يشبه رجل الجهاز القروي النموذجي»^(١)).

هل انه فعلاً رجل جهاز قروي نموذجي؟ أم انه مصلحاً سرياً يختفي متلبساً دور رجل الجهاز؟ بهذه الدقة ولهذه المدة الطويلة؟ هذا ما اكده بعض كتاب سيرة غورباتشوف وفي مقدمهم زدينيك ميلنار: كان غورباتشوف يدرك كل شيء الا انه كان يحتفظ بذلك لنفسه ويتنظر الساعة.

وتحضرنا هنا قصيدة ميكيويكزكونراد فالنبرود الدرامية، حيث يتحل البطل، وهو شاب بولوني هوية رجل ألماني ويتسبب الى أخوية الفرسان التوتونيني (نسبة الى جنس جرمانى) ويصبح معلمها الأكبر وذلك ليتمكن من تدميرها بشكل أفضل بهدف تحرير بلده. يعيد علماء السياسة السوفيات الى الذاكرة اليوم أن ستالين كان يرى الحزب شبيهاً

«بأخوية بورت - غليف»^(٢) في قلب الدولة . غير أنه لا يمكننا هنا أن ننسخ بطل ميكويوز الرومانسي .

فليس لأحد أن يصل الى أحلام أمين ستافروبول الاول وأن يدرك مشاريعه وأمانيه إلا إذا أفصح عنها هو نفسه في مذكرات لاحقة . وتبعاً لذلك لا بد للمؤرخ من الاكتفاء بمعاينة الاحداث .

وبدءاً من اواخر عام ١٩٧٨ ، باشر ميخائيل غورباتشيوف بعد إنتخابه سكرتيراً للجنة المركزية بادارة الزراعة . وشكلت محاصيل عام ١٩٧٩ كارثة كبرى . كان لابد من استيراد ٣١ مليون طن من الحنطة ، وهو رقم قياسي في تاريخ الاتحاد السوفياتي .

الا ان هذا الفشل لم يؤذ غورباتشيوف ، وهذا ما يحصل إجمالاً بالنسبة للقادة السوفيات ، حتى انه كان على العكس من ذلك عاملاً مساعداً : ففي تشرين الثاني ١٩٧٩ انتخب عضوا احتياطيا في المكتب السياسي . وفي ١٩٨٠ استمرت المحاصيل سيئة وقد جرى استيراد ٣٥ مليون طن من القمح . الا ان غورباتشيوف اصبح في اواخر شهر تشرين الاول من العام نفسه ، اي بعد اعداد ميزانية الانتاج الزراعي ، عضوا اصيلا في المكتب السياسي . لم تعرف البلاد مثل هذه النتائج الرديئة منذ عهد التأميم ، ولكن رغم ذلك ما من مسؤول عن الزراعة عرف مثل هذا الاحتراف اللامع . ففي خلال ستين عبر رجل الجهاز السابق القروي الصغير الى قدس الاقداس ، دخل هذا النادي الضيق المقصور على قادة الحزب والدولة واصبح امينا رئيسيا داجما بين مهامه كعضو في المكتب السياسي وموقعه كسكرتير للجنة المركزية .

هذا الرجل الذي كان بالامس القريب سكرتيرا اولاً لمنطقة ستافروبول اصبح مرشحا محتملا لمواقع الامانة العامة . انه الاكثر فتوة بين القادة . فسوسلوف من مواليد ١٩٠٢ وبريجنيف وكيريلينكو ١٩٠٦ ، وتشيرينيكو ١٩١١ ، فيما ولد غورباتشيوف في ١٩٣١ .

يمكننا ان نتخيل بسهولة كيف كان غورباتشيوف يبرر فشله في ميدان الزراعة بنقص في صلاحياته . فلادارة الزراعة التي تضم ثلاث عشرة وزارة ولجنة دولة تتولى شؤون فروعها المختلفة لابد واقعا من سلطة هائلة . وقد حصل غورباتشيوف على ما كان يتمناه : لم يعد فوقه الا الامين العام . الا ان محصول ١٩٨١ كان هو بدوره كارثة

كبرى جديدة . (تشير الارقام الاميركية الى ١٥٥ مليون طن). وتلاحظ الخطة الخمسية التي تبدأ تحديدًا تلك السنة بالذات محصولًا سنويًا وسطيًا يتراوح بين ٢٣٨ و ٢٤٣ مليون طن . وهذا يعني ان الاستيراد ارتفع الى ٤٦ مليون طن من الحبوب . وتبعًا لذلك اتخذ قرار - لم يكن غورباتشيف ، بالطبع ، آخر من يعلم في هذا المجال - بعدم نشر الاحصاءات الخاصة بالانتاج الزراعي .

اوائل الثمانينات اقدمت قيادة الحزب ، مرة أخرى على صياغة حل نهائي للمسألة الزراعية . وقد شارك ميخائيل غورباتشيف بهذه الصياغة بنشاط وفعالية . وذلك من موقعه كمسؤول عن الزراعة . وكما كتب اعلامي سوفياتي : «إن برنامج التغذية في الاتحاد السوفياتي فريد من نوعه ، اذ لم يطبق بلدنا أو أي بلد في العالم مثيلا له من قبل . والواقع ان احدا في المجتمع الرأسمالي لم يشترط مثل هذه المعايير العقلانية التي يتطلبها العلم ونموذج التغذية ، مع ما تؤدي اليه من مفارقات لا مفر منها في مجال انتاج السلع المادية بما في ذلك التموين^(٣) .

ويتوقع البرنامج ان تلبي «الخطة الخمسية الراهنة» (أي بين ١٩٨١ و ١٩٨٦) ، حاجات السكان من منتجات الخبز والمعجنات ، ومن البطاطا والسكر والسميد والحلويات والمارجرين والبيض والسمك . اما اللحوم والحليب والزيت والخضار والفاكهة فقد ارجئت الى الخطة القادمة (١٩٨٦ - ١٩٩٠) ، ويقترح البرنامج كل هذه المشكلة «الفريدة من نوعها» - تموين السكان - سلسلة من التغييرات في نظام ادارة الزراعة .

اهمها انشاء مجمع زراعي صناعي Apk («الاغروبروم» كما يسمى) وهو كناية عن آلة بيروقراطية معقدة بشكل مرعب ، تضم اضافة الى الزراعة جميع الصناعات التي تنفرع عنها ومهما كانت درجة قربها منها : صناعة الجرافات والآلات الزراعية ، معدات تربية الدواجن وصناعة العلف ، الصناعات الخفيفة والغذائية ، شق الطرقات واصلاح الاراضي ، صناعة الاسمدة المعدنية . . . وجميع الفروع المتعلقة بتحضير ونقل ، وحفظ وتحويل المنتجات الزراعية اضافة الى تصريفها . . . دون ذكر المواصلات والتوقعات والميزانيات واجهزة الطب البيطري . . . ومن الاسهل تعداد ما لا يشمل الاغروبروم مما يقع في دائرة صلاحياته .

ما يزال البعض اليوم يستشهد بالبرنامج الغذائي ، رغم ان ما من احد الا ويعترف بفشله المطلق. اما الفائدة منه فلا تكمن الا في كونه نموذجا من الحلول للمشاكل الزراعية بالطرق التقليدية وكوثيقة تحمل طابع افكار غورباتشيف ابان «البريجنيفية المتوهجة».

إن ربيع قرن او ما يقارب من العمل في الريف لحساب الحزب زود غورباتشيف بتجربة ثمينة في العمل السياسي ولكن على مستوى المراتب المتوسطة. فقد تألف بوصفه امينا اولاً للمنطقة وعضواً في اللجنة المركزية مع قمة هرم السلطة. الا انه لم يتدرب على دهاء ودقة الصراع السياسي داخل الكرملين الا بعد ان اصبح سكرتير اللجنة المركزية، ثم عضواً في المكتب السياسي. وقد كتبت تاتيانا زاسلافسكايا انه «من السذاجة ان نعتقد ان الصراع على السلطة (بما في ذلك الصراع الشخصي) الذي طبع بمجمل تاريخ الانسانية فقد جذوره في ظل الاشتراكية ولم يعد موجوداً»^(٤).

لقد وصل غورباتشيف الى موسكو في فترة حيث دخل هذا الصراع المستمر مرحلة جديدة. الامين العام يتآكل أكثر فأكثر تحت وطأة المرض. وقد بدأت مشادة لا هوادة فيها، نوع من الصراع حتى الموت على كرسيه. وتذكر هذه الوضعية بتلك التي كانت سائدة في بداية العشرينات: لينين مصاب بمرض قاتل ، وقد دخل «الداتشا» حيث يرقد بين الحياة والموت مشلولاً، وورثته يناورون كل من موقعه ليقفز ويملاً الكرسي. ولا يختلف ورثه الثمانينات عن ورثة العشرينات من حيث قدراتهم ونطاق مناوئتهم ابداً، وإن كان يسود ميك اليوم الى تضخيم مآثر منظمي الثورة ومنشئي الدولة السوفياتية. اذا، الاختلاف الحقيقي بين الوضعيتين يعود الى تفاوت حجم الارث: ففي العشرينات كان الارث كفاية عن دولة دمرتها الحروب والثورة. اما في الثمانينات فيشمل قوة نووية عظمى.

محلة تراتبية المجتمع السوفياتي عاينت تاتيانا زاسلافسكايا احدى عشرة جماعة. وتضم الاخيرة أي الحادية عشرة القادة السياسيين. وقد كتبت، وهي عضو في الاكاديمية، «لأنكمن الميزة الكبرى لهذه الجماعة في ارتفاع مستوى الاستهلاك بل في مدى اتساع سلطاتهم بشكل مذهل ليشمل مختلف مدارات الحياة الاجتماعية، وهو سلطان بحكم الوقت لا حدود له بالنسبة للتمتع بخيرات المجتمع وحق التقرير بشأن

الملايين من البشر»^(٥). وفي ١٩١٨ كان لينين يفكر بهذا الامر عندما شرح: «ان المفهوم العلمي للديكتاتورية لا يعني شيئا آخر سوى سلطة لا يحدّها اي قانون او قاعدة وقائمة مباشرة على الوازع القهري»^(٦).

ابتداء من سنة ١٩١٨، بدأ لينين ببناء هذه السلطة غير المحدودة. اما في الثمانينات فإن «كامل الصلاحيات» في التمتع بالخيرات الوطنية وتقرير مصير ملايين الناس هما واقعا حقيقياً. ولهذا فهو موضع صراع عنيف.

في ٢٠ تموز ١٩٧٨، نشرت البرافدا على صفحتها الاولى صورة فوتوغرافية: القادة السوفييات وهم مجتمعون على منصة الضريح لالقاء النظرة الاخيرة على فيودور كولاكوف. انها الصورة الاولى لغورياتشيف على ضريح الزعماء. ويحتل المكان الاخير، الخامس الى يسار الشخصية المحورية، الممتثلة باندريه كيريلينكو عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية. وفي تشرين الثاني حل غورياتشيف مكان كولاكوف في موسكو. اما الان فهو مدعو فقط لالقاء كلمة التأبين. وكان رابع المتكلمين اي قبل الاخير وكان شبيهاً بالآخرين سوى انه اصغرهم سناً.

وفي قلب عقدة التيه هذه حيث تشابك مصالح الجماعات المتصارعة نجح غورياتشيف بكسب ود الامين العام (وهو لم يكن دون ذلك ليصل الى الاحتراف بهذه السرعة)، وبالمحافظة في الوقت نفسه على دعم حماته من «المعدنيين» سوسلوف واندريوف. فال فشل من جديد في ميدان الزراعة والمحصول الرديء مجدداً في ١٩٨٢، اي بعد اعتماد البرنامج الغذائي الذي قدم بمثابة الترياق، كانا من الممكن ان يجعلنا من غورياتشيف، كما جرت العادة دائماً بالنسبة للعديد من مسؤولي هذا القطاع وكبش محرقة. اضافة الى ان عام ١٩٨٢ قد شهد موت سوسلوف في ٢٥ كانون الثاني، وهي خسارة جرى تعويضها بنقل أندريوف من الكا. جي. بي. لي الامانة. وهكذا فتح باب الحظ امام الرجل المقرب منه: في ١٠ تشرين الثاني توقف قلب ليونيد ايليتش بريجنيف عن الخفقان. في ١٢، خلفه يوري أندريوف. فما كان من غورياتشيف الا ان تسلق درجة. فلقد ترك الزراعة ليدخل القطاع الاهم وذا المردودية الاعلى: الايديولوجية. اذ بدونها لا وجود للنظام السوفياتي. وهذه المردودية لا تقاس بالمعدلات المثوية ولا بالاطنان او بالامطار بل تدار على ذمة من يديرها واستنادا الى ما يقول.

وتعتبر الايديولوجيا مدرسة ممتازة للمرشد كونها تكسبه شهرة المنظر في الماركسية اللينينية .

وقد أتم غورباتشوف «صفوفه» بأشراف «الاستاذ» اندروپوف . ثم شارك في عملية تطهير الكوادر، التي تمت اثر انتخاب الرئيس السابق للـ.كا. جي. بي. الى منصب الامانة العامة . وقد اكتشف الوضعية الواقعية السائدة في البلاد وعمق الازمة التي تتخبط فيها . وعندما نرجع الى ما أعلنه غورباتشوف، خاصة في المؤتمر التاسع عشر للحزب، أنه كان يجهل اشياء كثيرة في هذا المضمار، لا بد لنا من تصديقه . فمنذ العهد الستاليني تبدو المهام داخل المكتب السياسي محددة بدقة صارمة . أي أنه يمكن لاعضاء هذا الجهاز الاعلى في هرم السلطة أن يطلعوا على الخطوط الرئيسية للمشاكل التي لا تعنيهم مباشرة ولكنهم يجهلون تفاصيلها (وغالباً أهمها) وهم لا يصرون على معرفتها . وهذا من باب عدم التدخل بشؤون الزملاء . اذ وحده الامين العام له الحق بمعرفة كل شيء .

قام غورباتشوف بوصفه مسؤولاً عن الايديولوجيا بعقد علاقات مع عالم العلم والثقافة، وهو ما سوف يرد عليه لاحقاً فائدة كبرى . وقد أولى إهتماماً شديداً بالاقتصاد وبافكار دعاة الاصلاح في هذا الميدان :

زاسلافسكايا، واغانبيغيان .

في ٩ شباط ١٩٨٤ ، مات يوري اندروپوف . «الغرفة رقم ١» أو «نادي الأبوات» تضم ثلاثة مرشحين : غورباتشوف ٥٢ عاماً غريغوري رومانوف ٦١ ، قسطنطين تشيرنينكو ٧٣ . هذا الاخير انتخب غير أن غورباتشوف لم يفقد اياً من امتيازاته . واكثر من ذلك، بدا مسؤول الايديولوجية السوفياتية بالمقارنة مع هذا القائد الرازح تحت الشيوخوخة والمرض شاباً ودينامياً بصورة خاصة .

تستدعي عادة اللعبة السياسية المعقدة التي تتمثل بايجاد المزيد من الحلفاء وتحييد الخصام في السباق الى الكرسي معركة خفية . وهنا الابطال معروفون سلفاً وكذلك اهدافهم . ويبقى التكهن باتجاه الضربات ومصدرها وبالعودة . . . يمكننا بكل ارتياح ان نفترض ان الصراع على السلطة يجري دائماً بالاساليب نفسها والوسائل نفسها التي

تستخدم في المعركة على الوظيفة الاولى في الحزب والدولة . إن غورباتشوف لم يجدد الا في نقطة واحدة : لقد جذب الغرب الى موقعه .

قام غورباتشوف برحلته الاولى الى الخارج ابان وجوده في ستافروبول . عام ١٩٦٦ زار المانيا الشرقية ثم فرنسا في السنة نفسها^(٧) . وفي ١٩٦٩ ذهب الى تشيكوسلوفاكيا بعد «تطبيعها» .

وسنة ١٩٧٢ نجده في بروكسيل ثم ١٩٧٥ في المانيا الغربية و١٩٧٦ مجدداً في باريس . ولم تعرف سفراته هذه الا بعد إنتخابه الى موقع الامانة العامة . وهذا ما يمكن تفهمه جيداً : فقد تنقل غورباتشوف بصفته عضواً في بعثات ، وهو يرى ما يراه الجميع ويبقى رجل جهاز سوفياتي غير معروف .

في ربيع ١٩٨٣ سوف يتغير كل شيء . سيذهب غورباتشوف الى كندا من ضمن بعثة من مجلس السوفيات الاعلى وقد بدا بوصفه عضواً في المكتب السياسي الشخصية الابرز في المجموعة . اضافة الى انه لفت الانظار لحسن تصرفه : انه يهتم بشغف بما يعرض امامه ، يدافع بحزم عن آرائه الشيوعية ، ولكنه رغم ذلك يستمع الى محاوريه . وهو قد اكتشف جهله بالقضايا المحلية . وهكذا مثلاً عندما زار مزرعة لتربية الدواجن ، طلب الالتقاء بالعمال ودهش عندما علم ان جميع المهام يقوم بها المزارع مع عائلته . وقد نقل عنه مرافقوه تعليقه في هذه اللحظة : «عندنا ، هذا لن يحدث قبل خمسين عاماً»^(٨) .

في حزيران ١٩٨٤ ، وبعد ان انتخب رئيساً للجنة الشؤون الخارجية في السوفيات الاعلى ، ذهب غورباتشوف الى ايطاليا للمشاركة بمراسم دفن انريكو بيرلينغوير . وقد ادهش محاوريه باعترافه العلني ببعض الشوائب في الاتحاد السوفياتي . وقد اعلن رئيس قسم الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الايطالي ، انطونيو روي ، وكان يتكلم الروسية ، انه لأول مرة في حياته يلتقي قائدا سوفياتياً يسمح لنفسه بان يوجه ملاحظات نقدية تطال بلده .

وقد اثبت غورباتشوف موهبته كمحاور في كانون الاول ١٩٨٤ اثناء زيارة قام بها الى بريطانيا . فالصحافة الانكليزية التي كانت تنتظر رجل جهاز عادياً اصيبت بصدمة وقد كتب مدونو السيرة الاميريكون ، عندما خرج غورباتشوف ورايسا سوريا من الطائرة

هو يشوبه الانيق، بابتسامته القريبة من القلب وهي متألفة وتقف فعليا الى جانبه، ذهل الناس في فليت ستريت وحدقت الاعين حتى نهاية الزيارة. (٩) وفي حين لم يكن لخطب غورباتشيوف اي تأثير على البرلمانين الانكليز الذين ظلوا يرون فيه «نموذجا للموظف السوفياتي وإن اكثر اناقة واشد جاذبية»، بادرت مارغريت تاشر الى تلميع سمعته معلنة: «السيد غورباتشيوف يروق لي. يمكننا القيام ببعض المشاريع سويا» (١٠).

وما لفت محاورو الامين العام المقبل، تمثل بتلك الصورة البدائية التي يكونها عن الولايات المتحدة. فقد تحدث اليهم عن «المجمعات العسكرية الصناعية» وكان مقتنعا ان رئيس الولايات المتحدة يتلقى التعليمات مباشرة من صانعي الاسلحة.

وقد صرح بهذه الفكرة نفسها في كندا. ويشير رواية سيرة غورباتشيوف الى اهمية لقائه في اوتاوا بالسفير السوفياتي الكسندر اياكوفليف. والواقع ان غورباتشيوف ما ان احتل موقع الامانة العامة حتى استدعى الكسندر اياكوفليف واوكل اليه ادارة الايديولوجيا.

شكل وجود زوجة غورباتشيوف الشرعية الى جانبه عنصرا مهما آخر في زيارته الى بريطانيا العظمى وقد وصفتها المجلة الالمانية الغربية دير شبيغل التي خصصت لها صفحتها الاولى. «بسلح الكرملين السري» (١١). ومن ذلك الحين ترافق رايسا الامين العام في كل رحلاته الى الخارج وحتى داخل الاتحاد السوفياتي. وربما كان ما يثيره وجودها من حماس في الغرب تعويضا لتأثيرها السيء على رصيد غورباتشيوف في الاتحاد السوفياتي حيث كان يؤخذ عليها إفراطها في الظهور. والواقع ان ذلك لم يكن مألوفا، وربما كان ذلك ما يعطي للسكرتير السابع طابعه المميز. إن ناديجدا كروبسكايا كانت الى جانب لينين، بوصفها بولشيفية عريقة بقدر ما هي زوجته، اما القادة الآخرون لم يكونوا يصطحبون زوجاتهم في المناسبات العامة. إن مرافقة رايسا الدائمة لزوجها اثناء تنقله في ارجاء الاتحاد السوفياتي تدل على الدور الذي تلعبه في حياته، وبها ينحصر به على ارادة القطع مع التقاليد السوفياتية.

عندما وصلت رايسا غورباتشيوف الى موسكو، بعد ستافروبول حصلت على موقع في الجامعة، حيث بدأت بتعليم الفلسفة. وهي يحق لها ان تطمح الى هذا المنصب كونها

ناقشت اطروحة عام ١٩٦٧ في المهد التربوي في موسكو. وقد كتبها في ستافروبول حيث كان ميخائيل سكرتيرا أولا في لجنة المدنية. وقد انكبت عليها طوال اربع سنوات، وعنوان اطروحتها: «ظهور خصائص جديدة في الحياة اليومية الخاصة بفلاحي الكولخوزات : ويستدل من مناقشة اطروحتها في المعهد التربوي وليس في جامعة موسكو ان مستواها كان وسطا. إلا أن الكاتب الالماني لسيرة غورباتشيوف الذي اطلع على «ملخص» للاطروحة^(١٢) أثنى عليها ثناء عظيماً. وقد كان حاسماً: ان مستوى الاطروحة أعلى بكثير من الوسط ويكشف الذهنية المستنيرة التي تتمتع بها المؤلفة، اضافة الى ذهنية زوجها الذي عرف كيف يشجع زوجته لتنجز عملها»^(١٣). غير ان الباحث الاميركي ويليام شين الذي قرأ المؤلف الذي طبع منه ١٥٠٠ نسخة في ستافروبول اعتبر «ان اسلوب رايسا ماكسيوفنا دوغماي وتلقيني الى حد مخيف. وهي تسعى الى تبيان ان مستوى معيشة الفلاحين الروس لم ين يرتفع منذ ١٩١٧»^(١٤). وبما لاشك فيه ان اطروحة رايسا غورباتشيوف تحفظ الآن مثل العديد من الاطروحات والمؤلفات التي تناولت الحياة والتاريخ في الاتحاد السوفياتي في خزائن المكتبات حيث سيبحث عنها المؤرخون المقبلون في سياق تفتيشهم عن الوثائق. وحاليا ليس لجودة هذه الاطروحة اية اهمية. اذ ما يهم هو كون المؤلفة قريبة من السكرتير العام ولها بعض التأثير عليه. وتثير نكتة سوفياتية هذا التقارب المدهش والمعبر بين الزوجين: ففيما كان يتجول بسيارته في موسكو، رأي غورباتشيوف سكيما في الشارع. طلب من سائقه ان يتوقف. هز السكير وبدأ يكلمه عن البيريسترويكا. مغتازا لكون هذا الاخير لم يتكرم ولو بنظرة اليه، صرخ غورباتشيوف بوجهه: «الا تعرف من يقف أمامك؟» إستفاق السكير عندها وقال «لاتؤاخذي ميشا بدون زوجتك لم اتعرف اليك!».

يلحظ موظف في وزارة الخارجية الكندية رافق غورباتشيوف خلال زيارته، ان ضيفه السوفياتي يتعاطى بسهولة مع النساء والاطفال^(١٥) إننا لا نملك معلومات خاصة بالنسبة للاولاد، ولكن هنا فيض من الشهادات فيما يتعلق بسطوته على النساء وحسن طالعهم معهن. فمنذ اللقاء الاول اعجبت مارغريت تاتشر بالسكرتير العام اعجابا مطلقاً. وفي مقابلة مع مجلة تايم، روت زاسلافسكايا (عضو الاكاديمية) مشيرة الى لقاءاتها بغورباتشيوف في بعض اللجان: «حصل ان جلست الى جانبه. ولا يمكن ان يتخيل الانسان مدى القوة والطاقة اللتين تنبثان منه. انه يتمتع بحيوية استثنائية.

ورغم ان توتره الدائم يبقى ملموساً، يبدو مستمعا جيدا ويتنظر بان ينتهي محدثه من الكلام. (١٦) كما ان احدى الفرنسيات التي تتولى مهمة في موسكو اعلنت لمجلة سوفياتية «إن نساءنا لا يكتن الاحترام له بوصفه فقط رجلا سياسيا» (١٧). اما دينيس هيلي فيستخدم من جانبه عبارات شاعرية ليصف محاوره. «انه رجل يتمتع بسحر لا مثيل له، صاحب نكتة ، غالباً تطاله هو نفسه . وتمر المشاعر في تعابير وجهه وكأنها ريح صيفية على صفحة خليج . وقد بدا خلال المناقشة مفتحا ولينا يحافظ على برودة اعصابه التي تدل على قوة هائلة في سريره» (١٨). عندما قدم غروميكو، امام اللجنة المركزية، ترشيح غورباتشوف الى الامانة العامة، شدد على الميزة المهمة الاتية: قدرته على ايجاد لغة مشتركة مع الناس «وهذا ما لا يملكه جميع الناس كما اشار هذا الذي شغل لسنوات مديدة منصب وزير خارجية الاتحاد السوفياتي. وربما كان الامر مبالغا به. فهو ايضا يتمتع بهذه الصفة» (١٩). وفي ١١ آذار ١٩٨٥، انتخب ميخائيل غورباتشوف امينا عاما للجنة المركزية. متحملا «هذه المسؤولية الصعبة»، تعهد السكرتير السابع بان يعمل المستحيل لكي يخدم باخلاص الحزب والشعب والقضية الكبرى التي ناضل لينين من اجلها (٢٠).

إنها بداية عصر جديد. في حزيران ١٩٢٦، عندما كان يتكلم ستالين امام عمال سكك الحديد في تيفليس روى سيرة حياته. فهنا في تيفليس كان قد ادار عام ١٨٩٨ نادي للعمال. «هنا... اصبحت تلميذ الثورة» وبين ١٩٠٧ و ١٩٠٩ في باكو وعلى رأس الجماهير العمالية العريضة «اصبح متدرجا في الثورة» ثم اخيرا عام ١٩١٧ «في روسيا وتحت قيادة لينين» اصبحت «واحداً من معلمي الثورة» (٢١). وهكذا بتواضعه رسم الرجل الذي لم يسبقه احد رسميا على لقب الامين العام السبيل الذي اتبعه: تلميذ في تيفليس، متدرج في باكو، معلم في لينينغراد. اما السكرتير العام الحالي فقد إتبع سبيلا آخر للوصول الى القمة: فالنظام السوفياتي يتيح نوعين من الاحتراف. الاول يتقيد بخط مستقيم: انه يسمع للفرد بالتسلسل دون ان يغير ميدان نشاطه. اما الثاني فمتعرج.

فقد يبدأ الاحتراف مثلا داخل الحزب، ثم يستكمل في المدار الاداري او الاقتصادي، او في الدبلوماسية... إن احتراف اندروبوف مثلا يدخل في النموذج الثاني، حزب، شيئية، دبلوماسية، كا. جي. بي..، عودة الى الحزب. اما احتراف غورباتشوف فمثال عن المسار المستقيم.

مشير الى «تجربة غورباتشيف الضخمة» في العمل الحزبي عدد غروميكو: «بداية على صعيد المنطقة ثم هنا في اللجنة المركزية كسكرتير في بداية الامر، ثم كعضو في المكتب السياسي»^(٢٢). على التوالي اميناً في اللجنة البلدية عن الشبيبة الشيوعية، اميناً للجنة المدنية في الحزب، اميناً للجنة الاقليمية واخيراً اميناً عاماً، وصل هذا التتبع المثالي الصادر عن آلة الحزب التي ابتدعها لينين وطورها ستالين. الى سدة السلطة في آذار ١٩٨٥، اي ٦٨ عاماً بعد الثورة.

الجزء الثاني

الأزمة

«اتنا نواجه أزمة داخلية كبرى

من روسيا السوفياتية وربما كانت الأكبر دون شك»

لينين، ١٩٢١

«إن فساد الوضع الداخلي قد يؤدي، ولنقل ذلك بوضوح، إلى
انفجار أزمة عميقة تطل للمستوى الاجتماعي والاقتصادي
والسياسي».

غورباتشوف، ١٩٨٧

عرض لينين في المؤتمر العاشر اعمق ازمة مر بها النظام السوفياتي مبيناً ضرورة اعتماد سياسة اقتصادية جديدة، اما غورباتشوف فيبرز البريسترويكا بخطر الازمة الداهم. والواقع انه لا يشير الى هذا «الخطر» الا في كتاب مخصص للخارج.^(١) الا انه في الخطاب الذي القاه بعد انتخابه تحدث ايضاً عن «الوضعية التي تسبق الازمة». وبعد ذلك سوف يتحدث هو ومعه العديد من الاعلاميين عن ازمة فعلية عميقة ومفجعة.

الازمة والتاريخ السوفياتي مترادفان فالازمة هي حالة النظام المزمنة ، لا لأن هذا الاخير يبدو عاجزاً عن حل المسائل الحيوية فقط ، بل ايضاً لان «حالة الحصار» هي الشكل الوجودي الوحيد لنظام الحزب الواحد. ان الارادة القسرية (الارادية) تتناسب تماماً مع الازمات، والمرض الزمن الذي يعاني منه النظام السوفياتي يشرب عند كل تغيير للامين العام. فالازمة ضرورية للمرشد ليثبت سلطته: عندما بدت الوضعية في البلاد سوية في منتصف العشرينات افتعل ستالين كارثة باجرائه «ثورة من فوق». كانت تلك وسيلته الوحيدة ليصل الى السلطان المطلق.

وتتصف كل من الازمات الداخلية التي تمر بها البلاد (عدا الحرب مع المانيا) بميزات مخصوصة: ١٩٢١، شهدت حرب الفلاحين وقد اضطر الحزب الى التراجع امام غالبية السكان؛ ١٩٢٩-١٩٣٣، شهدت مذبحه الفلاحين اي تصفية آخر الطبقات التي لا يمكن استبعادها بصورة كاملة للدولة، واستكمال استبعاد المجتمع. ١٩٥٣-١٩٥٦ تميزت بالبحث عن وسيلة للحفاظ على النظام الستاليني بدون ستالين. ١٩٨٥-؟ تشهد محاولة اعادة تشغيل الآلة التي تعطلت. غير ان كل ازمة هي سعي الى تحقيق المهدف الاسمي: تدعيم سلطة الحزب.

وتتميز الازمة التي تؤول الى ميخائيل غورباتشوف بانها جاءت نتيجة لمرحلة كانت الاهدأ في التاريخ السوفياتي. فخلال ثمانى عشرة سنة لم يعرف الاتحاد السوفياتي اي صراع داخلي وقد تمكن من التطور بهدوء نحو القرن الواحد والعشرين. وبالمقابل تميزت هذه المرحلة على الصعيد الخارجي بنزعة توسعية نشيطة جداً. فقد تكونت خلال بضع خمس عشرة سنة «امبراطورية ثالثة» حقيقية. ولم يكن قد تبين قبل هذه المرحلة، حيث

إنتشت القيادة بانتصاراتها وظنت أن بإمكانها الدخول الى افغانستان، أن هذا التوسع باهظ للغاية. فحتى ذلك الحين لم يكن قد كلف اي حياة بشرية.

شاكراً للجنة المركزية على اختيارها له، حيا غورباتشوف تشيرنينكو «اللينيني المخلص، العضو البارز في الحزب الشيوعي السوفييتي والشخصية المهمة في الدولة والحركة الشيوعية العالمية، الرجل ذو الروح الحساسة والمنظم الماهر. وقطع وعداً على نفسه بان يتابع السياسة نفسها: «لقد ظل الخط الاستراتيجي الذي حدد خلال المؤتمر التاسع عشر اثناء الجلسات المكتملة التي تلت ظل وسيظل دون أي تعديل»^(٢).

وبعد اسابيع في الجلسة المكتملة التي عقدتها اللجنة المركزية تكلم الامين العام عن ضرورة تخطي الازمة. مما لا شك فيه انه من المستحيل عقد الجلسة قبل شهر نيسان. غير أن هذا التاريخ جاء ولا احسن: اذ لن تتأخر المقارنة بين برنامج نيسان المقدم من غورباتشوف واطروحات نيسان العائدة للينين والواقع ان لينين صرح بعد عودته الى روسيا في ٤ نيسان ١٩١٧ انه لا بد من الثورة في ظل قيادته. وقد انتظر غورباتشوف بعض الوقت ثم وصف برنامجه بالثورة.

في ٢٣ نيسان ١٩٨٥ أخذنا للمرة الاولى الكلام في الجلسة المكتملة للجنة المركزية بصفته اميناً عاماً انتهز غورباتشوف المناسبة لاطهار مواهبه السياسية، وقد عرض الخطوط الكبرى لاستراتيجيته. وقد أعاد أسلوب التقرير الذي قدمه الى الذاكرة بصورة عجيبة خطب «ستالين الشاب». وكان بوخارين في العشرينات قد لقب السكرتير العام المعين حديثاً «الموازن الاكبر». فما من احد كان يعرف كيف يوازن بين التهيب والترغيب مثلما كان يفعل ستالين في سعيه الى السلطة المطلقة. وغورباتشوف يقتفي هنا اثره بامانة. فهو يرمي كلمات رهيبة حول ضرورة «ان تتحلى كوادرننا القيادية بمزيد من الدينامية» ولكنه ما يلبث ان يضيف «ان المكتب السياسي يعتبر انه من الضروري لابل من الجوهري الاستمرار بضمان ثبات قيادة الحزب والدمج بشكل متناسق بين المناضلين الشباب والعمال من ذوي الخبرة».

وقد اعرب عن تصميمه على تطوير مبدأ المركزة متمنياً المضي قدماً وبجرأة نحو توسيع نطاق حقوق المؤسسات وطلب التركيز على المبادرة الخاصة غير انه خاف مباشرة «يجب ان لا يخرج اي تنظيم او أي مناضل في الحزب عن دائرة الضبط والمراقبة»^(٣).

من الممكن ان يلخص القادة السوفييات البرنامج السياسي الداخلي الذي قدمه غورباتشيف على النمو الاتي : ١٠ بالمائة تخويف و ٩٠ بالمائة تهدئة وتسكين .

وقد اجرى السكرتير العام جردة حساب مدهشة حول مرحلة بريجنيف ، مستخلصاً انها فتحاً تاريخياً : لقد تمكنت الدول الاشتراكية الشقيقة من اقامة توازن عسكري إستراتيجي مع الدول الاعضاء في كتلة الحلف الاطلسي المعادية . وقد القى المسؤولية الكاملة عن التوتر في العالم على «الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة» وعلى الامبريالية التي لجأت هذه السنوات الاخيرة الى تكثيف عملها التخريبي وقامت بتنسيق الجهود ضد الدول الاشتراكية . « وفي الوقت نفسه اتبع غورباتشيف سياسة اليد الممدودة معلناً » ان المجابهة بين الدولتين «اي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي» ليست قدراً مطلقاً .

اما بالنسبة للشعب ، فقد قطع غورباتشيف هذا العهد على نفسه : «من المهم ان يشعر السوفييات بالتحسن في المستقبل القريب» كما انه اطلق ايضاً اولى شعارات العصر الجديد . وقد نشرت الصحف تقديره تحت عنوان : مبادرة ، تنظيم ، فعالية . وتظهر في النص بعض النماذج المنمطة التي تكشف طموحاً شخصياً عالياً : اعادة البناء (بريسترويكا) العامل البشري ، التسريع . . . وتعليقاً على ذلك نذكر ان السكرتير العام المساعد الاسبق للامم المتحدة اركادي شفتشنيكو الذي اختار الحرية في الولايات المتحدة كتب يوماً في مذكراته : «القطيعة مع موسكو» ، انه لو كان ماكيا فيلي يعيش اليوم وسط النخبة السوفياتية لكان تلميذاً وليس استاذاً^(٤) . والواقع ان للسكرتير العام الجديد جميع مزايا المعلم .

وتدرجاً قام غورباتشيف ، متدبراً امره دائماً ليكون وراء الاعلاميين والخبراء ، بالكشف عن عمق الازمة واتساعها الهائل . ملقياً كلمة في ايار ، أمام الحفل المجتمع بمناسبة الذكرى الاربعين للانتصار على المانيا ، صرح غورباتشيف انه ما يزال راضياً عن انجازات الشعب السوفياتي . وقد اورد بعض الارقام التي سيسخر منها الصحفيون بعد بضعة اشهر : «إن دخل الفرد ارتفع ستة اضعاف عما كان عليه قبل الحرب . وكذلك اتسعت شبكة المستشفيات والعيادات المتعددة الاختصاصات ودور الحضانة وحدائق الاطفال . اضافة الى كل ما يتعلق بالخدمات العامة . . . فالمجتمع السوفياتي

اليوم مجتمع ديمقراطي اصيل يقوم على الحفاظ على كرامة المواطن واحترام حقوقه...^(٥) وفي الخطاب نفسه قام غورباتشوف بالثناء على مآثر ستالين ومقدراته العظيمة في خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا ما قبض ثمنه مباشرة عاصفة من التصنيف من قبل شخصيات الكرملين.

بدت «الظواهر السلبية»، وهذا ما اطلق على الازمة في بداية الامر ، واضحة بالنسبة لجميع السكان في الاتحاد السوفياتي. ولكن لما كان الكلام المسموح به يقتصر على الانجازات، صورت الازمة بشكل منتظم بمثابة ظاهرة محلية محصورة، ولم يتضح اتساعها الا بعد ان رفعت التحريبات عما ساعد على وضع الاصبع على جرح النظام العميق. وكانت «السوفيتولوجيا» الغربية احدى الضحايا غير المتوقعة لهذا النقد المكشوف الذي يتناول «النواقص» فنادرة هي الكتب التي اعدت عن الاتحاد السوفياتي من قبل اختصاصيين غربيين التي تصمد امام اختبار الغلاسنوست. فحتى الآن كان تقرير خروتشوف «السري» الى المؤتمر العشرين قد نجح بالقيام بما لم يستطع العديد من الشهود التوصل اليه: الاقتناع بانه توجد في الاتحاد السوفياتي معسكرات، وامبراطورية تركز السلطة وان ستالين (فقط ابتداء من ١٩٣٤ بناء على كلام لخروتشوف) اقترف العدد من الجرائم وادى تدفق الوقائع والارقام والشهادات التي بدأت منذ صيف ١٩٨٥ تملأ صفحات الجرائد والمجلات السوفياتية الى تسفيه اعمال الاقتصاديين الغربيين المرتكزة الى ارقام رسمية خاطئة. واقدام بعض علماء السياسة على رفض مفهوم «التوتاليتارية» الذي يستخدمه اليوم الباحثون السوفيات مفضلين مفهوم «المجتمع الاشتراكي التعددي» وأشار علماء الاجتماع الى حسنات الطباعة المجانية والمكتسبات الاجتماعية الاخرى. كما اعتمد بعض علماء الجغرافيا الخرائط السوفياتي^(٦)... ويمكننا ان نضاعف الامثلة. ويصف المؤرخ الاميركي آدم اولام الوضعية بصورة رائعة: «لكل منا نحن الذين ندرس الاتحاد السوفياتي هيكل عظمي مخبأ بين بطاقاته. ولتعريف هذا الهيكل لا بد من ان نتصور شخصين ولا يسعيان الى مزيد من المعرفة حول الاتحاد السوفياتي، اما X فلا يقرأ حول فترة ١٩٣٠ و ١٩٥٠ الا لمؤلفين محترمين غير شيوعيين. فهو يدرس، بالطبع، تفصيلا اعمال الزوجين ويبب webb وجون ماينارد كينز john maynard keynes. ومتوجهاً نحو الباحثين الاميركيين ينكب على المؤلفات حول القانون في الاتحاد السوفياتي، القانون الجزائي ومختلف اوجه المجتمع السوفياتي،

والمعدة من قبل اساتذة جامعات شيكاغو، هارفارد كولومبيا، وليامس. وهو يكمل هذه الادبيات الكالحة بقراءة للخبراء بالشؤون الروسية، الاكثر موضوعية من خارج الجامعيين اضافة الى تحقيقات لصحافيين موضوعيين خاصة هؤلاء الذين عاشوا طويلا في الاتحاد السوفياتي. اما زميله Y فهو يشعر برغبة عمائلة للثقافة والعلم غير ان ذوقه مختلف، فهو اقرب الى الميلودرامامنه الى العلم، لذلك فإنه يبحث غير مبال بالموضوعية عن مفاتيح السياسة السوفياتية في نصوص الاعداء المعلنين للنظام، من امثال المانشيفيك القدماء. وهكذا يلتهم بفرح شهادات كوستلر او فيكتور سيرج بما لها من اسلوب روائي، وسابراً اكثر بواطن الامور فإنه يقرأ ايضاً القصص المثيرة البخسة الثمن مثل «كنت ضحية الارهاب الاحمر». وهكذا يخرج عن روعه، مدعياً انه من السهل التقاط بعض ابعاد السياسة السوفياتية من خلال دراسة النزاع بين آل كابوني ودان توريو وهي انجح من التعمق في الصراع الذي دار بين لينين ومارتوف او النقاشات حول «الاشتراكية في بلد واحد». ايها من هذين الشخصي المفترضين يحتل الموقع الافضل لفهم السياسة السوفياتية ابان حكم ستالين(٧)؟ إن ادم اولام يصف وضعية قديمة. غير ان معاينة المؤرخ الاميركي تبدو اليوم اقرب الى الحقيقة مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً. فمهما بدا الامر مفارقاً، فمن بين هذه الاكداص من الكتب التي تتناول الاقتصاد السوفياتي في العشر سنوات الاخيرة وحده (اويكاد) كتاب آلان بيزانسون صمد اما اختبار الارقام السوفياتية، وذلك لان هذا المؤلف الذي لم يكن عالم اقتصاد اقدم على نقض الاحصاءات السوفياتية(السابقة على عملية كشف الارقام) بوصفها كاذبة وغير عملانية. فهكذا بدا ان خطباء المؤتمر التاسع عشر يستشهدون ببيزانسون عندما تساءلوا مرعوبين: اذا كنا (احصائياً) نملك كل شيء لماذا (واقعاً) لا نملك اي شيء؟.

سوف نعود فيما بعد الى الاسباب التي دفعت غورباتشيف للجوء الى «الغلاسنوست»، هذه الكلمة المفتاح بما يتعلق بالاصلاحات الكبرى التي اجراها القيصر اسكندر الثاني. هاهنا شيء اكيد: ان ما نتج قبل اي شيء عن الغلاسنوست كان الافصاح عن الازمة. فهكذا ظهرت هذه الازمة فجأة وتم الاعتراف بوجودها - في كل مجالات الحياة الحاضرة والآتية. ولكن قبل اي شيء في مجال الميدان الاقتصادي.

الفصل الفصل السادس

ماذا نفعل بالاقتصاد؟

«... الا في حال حصول تغيرات جذرية، فان اقتصادنا سينهار في اواسط التسعينات، مع كل النتائج التي ستترتب عن ذلك سواء على الصعيد الاجتماعي او العسكري او على صعيد السياسة الخارجية»

فاسيلي سيليونين^(١)

بعد موت ستالين، كان انبعاث الادب الدليل الابرز على تحرر النفوس الذي انطلق مع الاذابة الاولى للجليد. وهي ما تزال تغذي عملية الاذابة الثانية في مرحلة الغلاسنوست، غير ان رمز هذه المحاولة التحريرية الجديدة هو من صنع الاعلاميين وقبل اي شيء صنعة علماء الاقتصاد. إن الصحفيين والباحثين والجامعيين يدفقون الارقام والوقائع والتحليلات على الشعب السوفياتي، ثم تظهر تدريجاً لوحة تبرز كارثة لا سابقة لها وما يذهل اكثر هو ان الازمة تطل بعمق مجمل ميادين الحياة وانها تأتي اثر اربعين عاما لم تشهد اي حرب ولم تكن الازمة التي كشفها ميخائيل غورباتشوف من حيث اتساعها وعمقها اقل هولا من تلك التي برزت في ١٩٢١ كنتيجة للثورة والحرب الاهلية والسياسة التي اتبعها لينين الذي أراد «بقفزة كبرى» قذف روسيا الى الشيوعية، وتبدو الازمة الحالية من جوانب عدة اخطر من الوضعية التي مر بها الاتحاد السوفياتي بعد انتصار هيتلر وحيث كانت البلاد مدمرة بعد حرب سببت خسائر بشرية هائلة.

اذن اعترف السكرتير العام الجديد ميخائيل غورباتشوف بالازمة تقريبا بعد

انتخابه مباشرة، وهكذا فتح بعد ان اعطى الضوء الاخضر لاثارة الاوضاع السائدة في البلاد، الباب امام سيل من الارقام والوقائع والافكار. غير انه بدأ برسم الحدود، معينا التاريخ حيث بدأت الامور بالانهار. ولم تكن هذه المسألة واضحة امامه، والواقع ان حكمه ظل تقريباً جداً. «الكل يعلم، صرح الامين العام ستة اسابيع على انتخابه، انه في موازاة التقدم في مجال التنمية الاقتصادية في بلادنا، تفاقمت الاتجاهات المعيقة خلال هذه السنوات الاخيرة...»^(٢) لم يكن غورباتشوف قد تجرأ بعد على القدح بسلفه. ولكن بعد فترة وجيزة بدأ التاريخ يتوضح: «منذ اوائل السبعينات اصبحت الصعوبات ملموسة اكثر في مجال التنمية الاقتصادية»^(٣) ثم استخدمت العبارة الآتية: «على المفصلة بين السبعينات والثمانينات»^(٤). وبعد ذلك مستخلصاً الجردة حول سبعين عاماً من الحكم السوفياتي، شعر السكرتير العام نفسه مخولاً باتهام سلفه بانه مصدر جميع السيئات: «في السنوات الاخيرة من حياة بريجنيف ونشاطه... شهدنا تعمق الهوة بين الكلام والافعال وتزايد الآليات السلبية في الاقتصاد التي ولدت وضعية تنذر حقيقة بالازمة»^(٥). ولقد استهل غورباتشوف كتابه «بيرسترويكا» بنفي ان تكون البريسترويكا قد اتت نتيجة «للكارثة التي وصلت اليها حالة الاقتصاد السوفياتي... او لخبية الامل بالاشتراكية او لازمة الافكار التي تدعو اليها»^(٦). غير انه اعترف بعد ذلك بان البلاد وجدت حوالي الثمانينات في «وضعية لم تكن بسيطة»^(٧) وان وتائر النمو بدأت في النصف الثاني من السبعينات تضعف بصورة جدية، وفيما كان الاقتصاد يقترب اكثر فاكثر من التيار الذي يشده الى الهاوية كانت المصاعب تزداد عدداً وحدة اضافة الى المشاكل غير المحلولة التي لم تتكاثر^(٨). وبعد عام صرح غورباتشوف منوهاً بضرورة «اعادة بناء تطل اسس العلاقات الاقتصادية في الارياض»: «انا نعاني هنا من تأخر يصل الى عدة عشرات من السنين»^(٩).

إن تاريخ بداية الازمة هو الشرط الضروري لوعي اسبابها والوسيلة الوحيدة لحل «المشاكل العالقة». لقد اختار غورباتشوف بداية الحل الأسهل، الحل التقليدي بالنسبة لجميع الامناء العامين: تحميل مسؤولية كل شيء للامين العام السابق. في الوضعية الحالية يبدو هذا الحل جذاباً خصوصاً انه يطال جانباً من الحقيقة. فمن السهل على المرء انتقاد سياسة بريجنيف، ان يحاكمها ويتنكر لها، خاصة ان هذا الامر لا يتجاوز اطار التقنية السائدة. فستالين رفاق لينين بخيانة المعلم. وخروتشوف

اخذ على ستالين كونه ارسى «عبادة الفرد» ، فيما نال بريجنيف من خروتشوف متهماً إياه بالارادوية . وبدوره بريجنيف هو الآن موضع الاتهام ، لسياسته التي ادت الى «الركود» ولا يسمح اتهام السلف بتحميله جميع المشاكل المزمنة التي تنخر البلاد فقط ، بل باقحام رفاقه ايضاً باعتبارهم لم ينجزوا عملهم كما يجب أولم يكونوا على مستوى المسؤولية . ويشكل ذلك بالنسبة للخلف سلاحاً فعالاً ، او أداة «للتطهير» ولاستبدال كل هؤلاء الذين اصبحوا بلا رأس ، «بأصدقاء موثوقين» . ولهذا النظام شائبة واحدة . وهي أن السكرتير العام الجديد كان لزمّن طويل خادماً أميناً للسكرتير السابق الذي يتعرض الآن للاهانات . فهكذا عمل خروتشيف مثلاً لعشرات السنين مع ستالين وبريجنيف مع خروتشيف وغورباتشيف مع بريجنيف . غير ان هذه الشائبة تبقى على المستوى الاخلاقي ، ويسهل لذلك تجاوزها . لقد انتقد غورباتشيف ، مثلاً ، بجرأة عالية «العلاقات الاقتصادية في الارياف» متناسياً هكذا انه بين ١٩٧٨ و١٩٨٥ كان مسؤولاً بصفته امينا للجنة المركزية ، عن الزراعة ، وانه كان راضياً تماماً عن هذه «العلاقات» .

لقد اعطى خروتشيف تفسيراً مقنعاً جداً عن اخلاصه لستالين عازياً إياه الى الخوف . فأقل كلمة تنال من سياسة ستالين - هذا ناهيك عن الاتيان بأية حركة - كان ثمنها المحتوم المعتقل او الموت اما غورباتشيف من جانبه فلم يشرح ابداً سبب اخلاصه لسياسة بريجنيف . وقد تطرأ بوريس يلتسن ، «الرجل الجديد» لغورباتشيف الذي اتى به هذا الاخير من سفردلوفسك الى موسكو ، الى هذه المسألة في مؤتمر الحزب السابع والعشرين ، فمتقدداً دون رحمة الوضع السائد في البلاد والحزب - نتيجة ادارة بريجنيف . وقد اشار بحق الى أن «المندوبين ربما سيسألون لماذا لم أقل كل هذه الامور اثناء المؤتمر السادس والعشرين للحزب؟» وقد اجاب عن ذلك «بصدق» (وقد شدد على هذه الصفة) «بصراحة لم تكن لدي الجرأة . . .»^(١٠) والواقع ان هذا الجواب صادق دون اي شك . فقد كان مثل غورباتشيف يخاف بريجنيف . لا لأن توجيه النقد الى سياسته كان ليجلب لها النفى او الموت ، بل لانه كان ليؤدي حتماً الى خسارة موقعها ، اي الى نهاية احترافهما . إن تاريخ بداية الازمة يظل عنصراً مهما لفهمها ، ولكنه لا يكفي . فالنقطة الاساسية الاخرى تكمن في تعيين ماذا حصل تحديداً . لقد عدد غورباتشيف مؤشرات الازمة ، علائم هذه الوضعية التي ، ولنستخدم هنا تعابيرها ، «قد

تؤدي الى انفجار ازمة عميقة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي^(١١). وقد أشار الى بروز «ظواهر ركود»، و«آلية كبح للعنصر الاجتماعي - الاقتصادي» واعترف بأنه «قد حصل شيء شديد الابهام لا يمكن تفسيره من النظرة الاولى»^(١٢) الا ان التفسير الذي يعطيه بعد «نظرة ثانية» اي بعد تفكر ناضج يبقى بدوره ملغزاً. كنا نعتقد اننا ندير الوضع بينما الذي حصل في الواقع هو ما كان لينين قد حذرنا منه: فالآلة لا تتجه الى حيث يتصور من يقودها^(١٣). ويبدو الرجوع الى لينين في هذا الاطار ذا اهمية استثنائية. فغورباتشوف لا يورد قوله بدقة. وقد كان من السهل ايجاد عبارة لينين رغم ان احدا لم يشر اليها منذ عشرات السنين. لقد اكتشف لينين فجأة بعد عام تماماً على اعتماد السياسة الاقتصادية الجديدة {N.E.P.}، في المؤتمر الحادي عشر للحزب، ان آلة الدولة السوفياتية لا تسير بالاتجاه الصحيح «الآلة تنفلت منا. فكما أن رجلاً يقودها وهي لا تسير بالاتجاه الذين يريد. إن شيئاً ما يسيرها بطريقة مشروعة او غير مشروعة، شيء ما لا نعرف من اين اتى... الآلة لا تسير تماماً كما يجب، واحياناً بصورة مختلفة كلياً عما يتصوره من يمسك بالمقود»^(١٤). ويأخذ هذا الاعتراف اهمية اكبر عندما نعلم ان صورة هذه الآلة المجنونة، التي تسير الله اعلم الى اين وبمشيئته ارادة عجيبة، او يد غير شرعية، تبادرت الى ذهن مرشد الثورة خلال قراءته لمقالة بعنوان «وضعية مأساوية» نشرت عام ١٩١٥. وقد كان لهذه المقالة اثر عميق وقد ذكرت مرات عديدة. اذن فان يتذكرها لينين بعد سبع سنوات لا يعتبر امراً مدهشاً. اما مؤلفها فاسيلي ماكلاكوف وهو محامي شهير واحد قادة الحزب الدستوري - الديموقراطي فقد كتب: «تجري في سيارة على طريق ضيقة متعرجة، انحراف واحد... وهي النهاية... وفجأة تكتشف ان سائقك لم يعد قادراً على القيادة اما لانه لم يتحكم بالسيارة او لان التعب قد اضناه الى درجة انه بات لا يدرك افعاله وفي الحالين فهو يقودك الى الهلاك، واذا استمر على هذا النحو فإن الموت يصبح محتملاً»^(١٥).

هكذا في خضم الحرب، في زمن اكبر الهزائم التي عرفها الجيش الروسي كان فاسيلي ماكلاكوف يتساءل عن كيفية السلوك في ظل «وضعية مأساوية»: هل من المفروض ان يؤخذ المقود من يد السائق. بعد ان اصبح عاجزاً عن التحكم بالسيارة؟ لقد تذكر لينين هذ الصورة عندما كان هو نفسه على المقود ولم يفهم لماذا ترفض الآلة اطاعته وتخضع ليد عجيبة «غير شرعية». ونحن نعلم انه استخلص وجوب استبدال هذه اليد الخفية بيد

ظاهرة شرعية. في الجلسة المكتملة التي تلت المؤتمر الحادي عشر انتخب جوزيف ستالين امينا عاماً. وبعد ستين سنة سيفتح امين عام جديد عينه ليرى ان الآلة التي ما تزال بقيادة الحزب ما تزال ايضا على شفير الهاوية .

واذا كان ما كلاكوف ولينين قد تصورا «الوضعية المأساوية» على هيئة «سيارة فلتانة» فان لغورياتشيوف رؤية اخرى . «ان لوحة غربية جدا بدأت ترسم ، كتب عام ١٩٨٧ في «بيرسترويكا» ، ان الدولار الضخم يدور في الآلة الجبارة غير ان «ناقل الحركة» يتزحلق، او ان الاحزمة ضعيفة جداً»^(١٦) . إن صورة «الدولاب» و«الاطار» اللذين يؤمنان الاشتغال المنتظم للمجموع تلاحق ميخائيل غورياتشيوف . ففي تشرين الاول ١٩٨٥ ، واثناء زيارته لمسرح الفن قطع السكرتير العام المنتخب لتوه وعداً للمخرج اوليغ افريموف قائلاً: «انتظروا قليلا ساطلق العجلة وحينها . . .» وفي تموز ١٩٨٦ ، وخلال دردشة مع سكان منطقة ساحل بريمورسكي قال غورياتشيوف شارحاً: «على كل منا من موقعه ان ينمي روح المسؤولية والانضباط والابداع والانتاجية . حينها يمكننا تحرير عجلة المحرك السوفيائي»^(١٧) وفي خريف ١٩٨٧ ، بادر الامين العام الى تشجيع سكان مورمانسك: «اننا نعتز بصدق بان الامور ستكون صعبة لبعض الوقت . ولكن اذا استطعنا ان نحرر الآلية ، حينها ، واقولها لكم ، سوف يعود ذلك على بلادنا بفوائد عديدة»^(١٨) . وفي نفس الحقبة تقريباً ، كتب غورياتشيوف تعبير بيرسترويكا حيث كان عنوان أحد الفصول «عجلة البريسترويكا تتسارع»^(١٩) وفي اواخر ١٩٨٧ ، بدأت العجلة تدور في البريسترويكا . وفي ربيع ١٩٨٨ وبمناسبة الذكرى الثالثة لتسلمه السلطة سيجري غورياتشيوف جردة حساب حول انجازاته في خلال حديثه مع بعض عمال موسكو: «لقد مر ما يقارب الثلاث سنوات منذ جلسة نيسان . كانت الاوضاع قاسية . ولكن عندما سيتحرر الدولار سوف ينطلق كل من جديد . . .»^(٢٠) .

هذه العجلة الواسواس التي تبرز وكأنها لازمة في خطب غورياتشيوف ، نجعلنا نفكر بان السكرتير يتخذ في مواجهة «الوضعية المأسوية» موقفاً مختلفاً عن موقف ليتين سنة ١٩٢٢ فمرشد الثورة صعد من جراء ما اقدمت عليه السيارة التي يقودها من تصرفات عجيبة ، وهو لم يكن يفهم لماذا كانت تعطي اوامره . وحينها اي قبل اشهر على تحكم المرض نهائيا به ، بدأ لينين يشكك بالسائق نفسه . اما غورياتشيوف فمقتنع انه سائق جيد . وهو يتسأل فقط لماذا يجري نقل الحركة ببطء في «الآلة الجبارة» . فهو لا

يضع اذن قوة الآلة او امكانياتها غير المحدودة، على بساط البحث . اذ يكفي ان تحرر الآلية كما يقول، اي المسألة تحل «بالدفع» و«التسريع» . كان لينين يشكك بنفسه، اما غورباتشوف فمقتنع ان الذنب يقع على الآخرين .

غير ان شيئاً يبقى واضحاً بالنسبة له وهو ان «الوضعية مأساوية» . وقد اثرت هذه المسألة مباشرة بعد موت بريجنيف . لقد كان اندروبوف اول من تكلم عن «المشاكل العالقة» التي لا تحصى، والتي تراكمت في ظل ادارة سلفه . اما غورباتشوف فيذهب الى ابعد من ذلك .

هذا الرجل الذي تميّز بصغر سنه كان يحدث احد الصحفيين عن «الصدمة» التي اصيب بها جيله عندما اعلن ستالين في ١٩٣٦ ان الاشتراكية «قد انجزت بخطوطها العريضة في بلادنا» وقد كشف الرجل قائلاً: «حتى انا، ورغم اني لست حساساً، انفجرت بالدموع» .. من الفرح؟ سأل الصحفي - من الفرح! قالها الرجل مستنكراً . كنت عائداً من الريف . مررت بمنطقة فياتكا، وهي قرية منسية في عمق الغابات دون طريق، قرية مقطوعة عن العالم . في الاسبة (البيوت الخشبية) كان الوسخ ملكاً، و«الصراصير» تسرح وتمرح، ولقد كان النفط كان لا بد من العودة الى مشغل النشارة . والواقع اني لم اعر ذلك اي انتباه اذ كانت امامي منارة وهي هذا المستقبل المشرق الذي نبنيه بايدينا . ولا بأس اذا كان علينا ان نعمل من كل قوانا لخمس او عشر سنوات: سوف نصل الى اهدافنا! وفجأة قيل لي ان كل ما يحيط بي هو الاشتراكية طبعا التي ما تزال في مستوى «الخطوط العريضة» لم اشعر ابداً في حياتي سواء قبل ذلك او فيما بعد بمثل هذه الحيرة، وهذا الاسى الذي اصابني» (٢١) .

لقد مضى نصف قرن . وقد بنيت الاشتراكية بصورة نهائية . وقد اصبحت، انطلاقاً من تحديدات خبراء الماركسية اللينينية، «متطورة»، «ناضجة»، في تموز ١٩٨٨ لاحظ غورباتشوف ان التغير في الريف لم يشمل الا اشياء قليلة . «الواقع هو اننا نحتاج الى برنامج وطني لبناء المساكن والمدارس والمستشفيات والطرق والخدمات البلدية واليومية في الارياف وهي التي لا يمكن للانسان الحديث ان يعيش بدونها او ان يعمل بصورة طبيعية» (٢٢) . والمشكلة هي ان الوضع في المدينة لا يقل سوءاً . ويأخذ تعدد التغيرات والسيئات، والنواقص، وقلة المواد . وفقدان السلع، في خطب

غورباتشوف ابتداء من الخطاب الاول الذي القاه بصفته امينا عاما حيزا يتسع بشكل متزايد. وهو يحاول ان «يوزن» الامور، مستحضرا النجاحات الحقيقية (التعادل الاستراتيجي العسكري مع الولايات المتحدة او الموهومة ازدياد استهلاك اللحوم). غير ان ضرورة البريسترويكا التي يشر بها ويجعل منها محورا لسياسته، تبطل اية محاولة لتيان نوع من التعادل بين المنافع والمضار. ويلخص المؤرخ يوري افاناسييف الوضعية على النحو الآتي: «ليست قضية سهلة ان نصل الى استنتاج يقول إنه لا بد لنا بعد ٧٠ عاماً من البناء، من اعادة بناء تبدأ من الاساسات» (٢٣).

تبدولائحة السيئات التي ذكرها الامين العام وكأنها لا نهاية لها، فهي تطال فعليا جميع ابعاد الحياة والانشطة السوفياتية. تبدو البنية الانتاجية بالية: «معلوم مثلاً اننا اهم منتج الصلب غير اننا نعاني من نقص مزمن في المعادن... كما ان حصة الانتاج من المواد البلاستيكية والسيراميك والمواد الحديثة الاخرى غير المعدنية ليست كبيرة جداً...» (٢٤).

والانتاج الفعلي لا يبدو صالحاً، إنه من نوعية رديئة جداً: «فاننا نعاني من تأخر فعلي من ناحية الصلاحية خاصة فيما يتعلق بما يسمى اجمالاً بالنوعية...» (٢٥) وكذلك فإن التجهيزات «لا تتناسب مع المتطلبات الحديثة للتقدم» (٢٦). في ١٩٨٨ أدلى غورباتشوف بتصريح جاء فيه: «أخذين بالاعتبار الدخل القومي، يمكننا القول إن بلادنا ما تزال اليوم تسرف في استهلاك المحروقات والطاقة الكهربائية والمعادن» (٢٧) وقد شدد على «ما تزال اليوم» كونه بدأ باثارة هذه المسألة منذ خطبة الاولى. وهكذا فإن غورباتشوف لم يتوقف عن تكرار لائحة المساوئ التي تصيب البلاد متنقلاً من الاقتصاد حيث الامور سيئة، الى حياة العمال حيث تبدو اسوأ: «لم نستطع تحقيق الطاقة الكامنة في الاشتراكية سواء في مجال تحسين اوضاع السكن والتموين وتنظيم النقل والعناية والتعليم او بالنسبة لحل المسائل الحيوية الاخرى». وهذه «المسائل الحيوية الاخرى» (٢٨). نجدها منفصلة في خطب اخرى: تمييز في تطبيق القوانين، إفساد، إدمان على الكحول، «الظلمة الاجتماعية» التي تقضي الى إزدياد البؤس وتعميق الهوة بين الاغنياء والفقراء.

وضمن هذه الاجواء كان علماء الاقتصاد يتزاحمون على ابواب الامين العام المفتوحة على مصراعها، يأتون مزودين بالتفاصيل لتقديم وصف جذاب عن الاقتصاد

السوفيياتي. وتبدو ارقامهم الشديدة البلاغة مرعبة الى درجة ان السي.اي، اي، التي تؤسس تحليلاتها وتوقعاتها على الاحصاءات الرسمية لم تجد فيها اية مصداقيه متينة. ويستند تقريرها في هذا المجال على حكم آبل اغانيغيان - احد مستشاري الامين العام بان الاقتصاد السوفياتي لم يعرف اي نمو في خلال ١٩٨٠-١٩٨٥، مبالغ فيه ويأخذ التقرير على الارقام التي يقدمها اغانيغيان كونها ذات «صبغة سياسية»، وهي وليدة رغبة «بالتشديد على غورباتشيف مقارنة مع اسلافه»^(٢٩) ولكن لما كان لكل شيء في الاتحاد السوفياتي صبغة سياسية فإن الاشارة الى هذه الناحية لا تأتي بجديد. بل ربما كان بإمكاننا هنا ان نتكلم عن الصبغة السياسية التي تلون احكام السي.اي.اي. CIA. ذلك أن ابل اغانيغيان بدأ بالاشارة الى تأخر الاقتصاد السوفياتي منذ ١٩٦٥، الا ان آراءه لم تكن متداولة الا ضمن حلقة ضيقة من ذوي الاختصاص^(٣٠). وفي ظل غورباتشيف لم يطرأ على الوضعية اي تحسن: عام ١٩٨٧ بلغ نمو الدخل القومي ٣,٢٪ مقابل ١,٤ في السنة السابقة^(٣١). اما في الفصل الاول من ١٩٨٩ فيبدو انها تجاوزت ب ٥٪ ما كانت عليه في الفصل نفسه من ١٩٨٨، وب ١,٢ للفصل الثاني وبصفر بالمائة للثالث. وقد علقت الايكونوميست اللندنية على هذه الارقام الرسمية مشيرة الى وجوب الاخذ في الحسبان المبالغة التقليدية في التقدير، والتي تتراوح بالنسبة للاحصاءات السوفيائية، التي تأخذ في الاعتبار التضخم الخفي، بين ٢,٣ بالمائة^(٣٢).

وخلال صيف ١٩٨٩ ابدت البرافدا الملاحظة الآتية: «البريسترويكا الاقتصادية في بلادنا منذ خمسين شهرا. وهي فترة يفترض ان تكون كافية لاستنهاض بلد دمرته الحرب، وللتغلب على الازمات الكبرى ولانتشال نظام التسليفات من غرق عميت. الا ان نظامنا المالي والازمة الاقتصادية في بلادنا يتعايشان مع الكارثة»^(٣٣). وفي خريف العام نفسه اقر نائب رئيس الوزراء، المسؤول عن الاصلاح الاقتصادي ليونيد ابالكين بأن: «الوضع الاقتصادي (في بلادنا) لم يزل يتفاقم شهرا بعد شهرا»^(٣٤). واليوم يتحدث علماء الاقتصاد عن الوضعية الواقعية السائدة في البلاد. يلحظ مثلا نيكولاي شميليوف «ان الاقتصاد السوفياتي لم يتقبل بعد التقدم العلمي والتقني. فالصناعة ما تزال تلفظ ٨٠٪ من القرارات والابتكارات التقنية المعتمدة»^(٣٥). ويروي احد اكبر علماء الفيزياء السوفييات الاكاديمي فيتالي غينزبورغ قصة تشبه قصص الجن وهي انه

خلال إحدى زيارته للولايات المتحدة رأى في سيارة أحد اساتذة شيكاغو التي كانت تقله هاتفاً يؤمن الاتصال بأي نقطة من أوروبا أو الولايات المتحدة. «رأيت بأب العين»، قالها الاكاديمي مؤكداً انطلاقاً من سلطته العلمية حدوث الاعجوبة^(٣٦) ربما كان المواطنون السوفييات يجهلون الأرقام التي تبين تناقص انتاج المواد الاستهلاكية، الا انهم كانوا يعيشونها كل يوم على حساب رفاهيتهم. اما الآن فتوفر لهم الاحصاءات: في ١٩٢٨، كان نصيب المواد الاستهلاكية من الانتاج الاجمالي ٦٠,٥٪ اما في ١٩٤٠، فتدنت الى ٣٩٪ وفي ١٩٨٠ الى ٢٦,٢٪ وهي ما تزال في تدن مستمر^(٣٧).

الا ان الصناعة السوفياتية يمكنها، رغم مرضها الخطير، ان تتباهى ببعض النتائج: مثلاً بنجاحاتها الباهرة في مجال الفضاء، رغم الاكلاف الهائلة التي تتطلبها هذا المجال والتي تبقى طبي الكتمان، لا يشير اليها حتى اشد الاعلاميين جرأة. او بانها اكبر منتج للأحذية في العالم، حتى وان «لم يكن»، كما يلحظ أحد علماء الاقتصاد، شيء في المخازن يمكن شراءه^(٣٨). اما الزراعة السوفياتية المصابة بمرض مميت فليس لها ما تتفاخر به. ورغم ذلك، وبمناسبة الذكرى الستين للثورة، لم يمتنع ميخائيل غورباتشوف عن الاعلان عن رضاه: «لقد نجحنا في حصاد اكثر من ٢١٠ مليون طن من الحبوب. انها نتاج الجهود الهائلة التي بذلها شعبنا، هذه الجهود التي عرف حزينا كيف يوظفها بأسلوب جديد»^(٣٩) الا اننا حين نتذكر ان البرنامج الغذائي في الاتحاد السوفياتي الذي أقر في ١٩٨٢ يقضي برفع المحصول السنوي، خلال الخطة الخمسية الحادية عشرة الى ٢٣٨ - ٢٤٣ مليون طن وإلى ٢٥٠ - ٢٥٥ مليون^(٤٠) خلال الخطة الثانية عشرة (١٩٨٦ - ١٩٩٠)، نكتشف ان ما حققته «جهود» الشعب والحزب الهائلة، يبدو نسبياً متواضعاً، خاصة اذا اخذنا في الاعتبار، انطلاقاً من كلام السكرتير العام نفسه، الخسائر الناتجة عن نقل وتخزين وتحويل المحاصيل والتي تصل الى ٢٠ أو ٣٠ بالمئة^(٤١). والواقع أن رغيماً من اثنين يستهلكان في الاتحاد السوفياتي - هذا البلد الذي يتصرف باكثر مساحة من الأرض الصالحة للزراعة في العالم والذي ينتج ١٦ ضعفاً من الحاصلات - الدراسة اكثر مما تنتجه الولايات المتحدة - «تأتي من الخارج»^(٤٢) في حزيران ١٩٨٩، اعلن الوزير الأول ريجكوف في مؤتمر منتدى الشعب، ان الاتحاد السوفياتي سينفق ٨ مليارات دولار لشراء ٤٤ مليون طن من الحبوب، و ٢٥ بالمائة من حاجة البلاد الى الزيوت النباتية.

الجزء الثالث

وضع ثوري

« لن يكون هناك ثورة، لأن ثورتنا كانت الأخيرة » .
ايمني زمياتين، نحن الآخرون .

عندما كان بطل الحكايات الروسية الشهير إيفا نوفيتش الغبي يجد نفسه في مواجهة وضعية صعبة، قد تدفعه الى السقوط، كان يأتيه أحد الحكماء ليمد إليه يد المساعدة، قائلاً له: إن تعاستك ليست إلا نصف تعاسة. فالوضع المأساوي للاقتصاد السوفياتي، الذي جعله متخلفاً عن ركب القرن الحادي والعشرين، ليس إلا «نصف تعاسة»، أي مجرد مظهر خارجي لأزمة بنيوية عميقة.

ففي صيف عام ١٩٨٦، شبّه غورباتشوف، مدفوعاً بضغوط الظروف التي تزداد تعقيداً، «البريسترويكا» بالثورة: «أضح علامّة تعادل بين كلمتي بريسترويكا وثورة، هذا ما أعلنه في كاباروفسك»^(١) فخلال نصف قرن، لم تكن كلمة ثورة ترد في القاموس السياسي السوفياتي إلا للتدليل على انقلاب قام به الحزب الشيوعي في بلد رأسمالي. أما بالنسبة للنظام السوفياتي، فإن الكلمة استخدمت آخر مرة من قبل ستالين، للإشارة إلى «المنعطف الكبير» الذي تمثل في عملية التأميم باعتبارها «ثورة من فوق». أما غورباتشوف، فقد تكلم عن «ثورة حقيقية في نظام العلاقات الاجتماعية، في العقول والقلوب، في سيكولوجية وفهم طبيعة المرحلة الراهنة، وقبل كل شيء، طبيعة المشاكل الناجمة عن التطور العلمي والتقني»^(٢). إن التحديد الذي أعطاه للتغيرات الآتية بقي غائماً وي طرح كمية من الأسئلة. فمن الواضح، أن السكترير العام لا يدرك حقيقة ما هو عليه. فبعد كاباروفسك، يبدو أنه قد تراجع، مكتفياً بالحديث عن «التحولات النوعية العميقة الجارية في مجتمعتنا»^(٣)، ويمكننا القول الثورية أي إننا نستطيع استخدام هذه الصفة، كما نستطيع استخدام صفة أخرى. وبالرغم من ذلك، تصدح في كل مداخلة للأمين العام «موسيقى الثورة». ولا يكف عن ترداد: «إن البريسترويكا، هي ثورة دون طلقة نار، ولكنها عميقة، وجديّة»^(٤)؛ يلزمنا «تحولات ثورية»^(٥)؛ «أملنا في التطهير الثوري والنهضة»^(٦). وهو يعلن مناشداً «جميع البلدان والعالم»: «إن البريسترويكا هي الثورة»^(٧). ويطمئن الجمهور قائلاً: «إنها الأكثر سلماً والأكثر ديمقراطية»^(٨)، ولكنها ثورة.

يدرك الأمين العام أن تعبير الثورة يرعب المواطنين السوفيات، الذين اعتادوا منذ

زمن طويل على أن فكرة حدوث ثورة في الاتحاد السوفياتي غير ممكنة، لأن الثورة الأخيرة والناجحة قد حدثت. كذلك فإن كلمة إصلاح تثير الخوف: فتعبير «التيار الاصلاحي» من التعابير الأشد مقتاً في القاموس السياسي؟ فمئذ عشرين عاماً، حدد موجز القاموس السياسي التيار الاصلاحي باعتباره «تياراً في الحركة العمالية، انتهازياً، اشتراكياً يمينياً، معادياً للماركسية اللينينية وللمصالح الأساسية للبروليتاريا...»^(٩). ولسته أعوام خلت، بقي التيار الاصلاحي عبارة عن «اتجاه داخل الطبقة العاملة، يرفض ضرورة الصراع الطبقي... ويهدف إلى تمويل الرأسمالية إلى مجتمع، الرفاه المصمم»^(١٠). وفي عام ١٩٨٧، اكتشف غورباتشوف أن لينين لم يكن يخاف من استخدام هذه الكلمة، بل أوصى بها البلاشفة، «عندما تشرط تطورات القضية الثورية ذلك في ظروف جديدة»^(١١).

إذاً الثورة دون طلقة، هي عمل جاد. والأسباب الموجبة متوفرة لقيامها. فالثورة تتلازم مع حدوث أزمة اجتماعية عميقة. ففي عام ١٩٨٤، وبعد انتخاب ك. تشيرنينكو إلى منصب الأمين العام، نشرت مجلة فوبروسي ايستوري (قضايا تاريخية) مقالة حلل فيها إ. امباركزوموف أسباب الأزمة في البلدان الاشتراكية، كذلك الوضع في الاتحاد السوفياتي. فقد رأى الكاتب أن السبب الرئيسي من بين هذه الأسباب (منذ عام ١٩٢١، حيث وجد لينين مخرجاً في سياسة NEP) يكمن في أزمة السلطة التي ترتكب الأخطاء أو تمارس عن وعي سياسة معادية لمصالح العمال^(١٢). رداً على هذه المقالة، أدان العضو المنظر في اللجنة المركزية للحزب بشدة، «أخطاء» امباركزوموف، واعتبر كافة الأزمات في البلدان الاشتراكية (بدءاً من أزمة ١٩٢١) مجرد نتيجة لأعمال «عناصر يمينية إنتهازية»، مدعومة عادة من قبل «الرأسمالية العالمية». حتى إن مجلة كومونست رفضت تعبير «أزمة في ظل الاشتراكية»، معتبرة «أن لا وجود لأزمة اشتراكية» بيا هي «نظام اجتماعي مكتمل»^(١٣)، في الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٢١، وفي هنغاريا منذ عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا منذ عام ١٩٦٨، وفي بولونيا منذ عام ١٩٨٠، لقد كانت الحجج المعروضة مقنعة إلى حد أن مجلة فوبروسي ايستوري اعترفت بصحة النقد وبالتالي بأخطائها^(١٤). وبعد ثلاث سنوات، قبل غورباتشوف بأن «المجتمع الاشتراكي عرضة، هو أيضاً، لظهور وتراكم عناصر ركود، أو لأزمة اجتماعية سياسية عميقة»^(١٥).

لقد أضحت الثورة التي أطلقها غورباتشوف ضرورية، على حد تعبيره، من أجل تجاوز الأزمة. مقتنعاً بقدرته على حل جميع المشاكل، ما أن يباشر بتنظيم «ثورة من فوق»^(١٦) وتضمنت المقالات التي كتبها نيكولاي شمليوف أفكاراً عديدة، استعادها غورباتشوف وطورها لاحقاً، وهي ترسم وضعية الاتحاد السوفياتي في بداية العام ١٩٨٨، وفق صورة مقلقة: «أن وضعاً ثورياً قد اكتملت عناصره في البلد. و «القمة» لم تعد تستطيع أن تحكم، و «القاعدة» لا تريد أن تستمر بالعيش وفق ما كان سابقاً»^(١٧).

يحتل تعبير «وضع ثوري» مكانة رئيسة في القاموس السياسي للينين. فهو يشير إلى مجموعة الشروط الموضوعية، الضرورية لأحداث ثورة اجتماعية. فقد ميّز لينين بين ثلاثة مؤشرات دالة على «وضع ثوري»: «القاعدة لا تريد» و «القمة لا تستطيع» العيش كما في السابق؛ وبذلك نشهد فجأة تفاقم بؤس وفقر الطبقات المغلوبة؛ والجماهير، المدفوعة للعمل، إما بسبب ظروف الأزمة أو من قبل «القمة»، تجد نفسها في حالة حركة فعلية. ولكن لينين يضيف، معتبراً أن «الوضع الثوري» لا يؤدي إلى حدوث الثورة بشكل آلي. فهناك الشروط الذاتية، وقبل كل شيء، قدرة «القاعدة» على القيام بالأعمال الثورية المناسبة من أجل تحطيم آلة الدولة القديمة^(١٨). ولا بد بالمحصلة، وعلى ضوء الوضع، من استباق الثورة: لتتجز «من فوق»، قبل أن تبادر «القاعدة» إلى إطلاقها. فعندما وصل ألكسندر الثاني إلى العرش في عام ١٨٥٥، برر ضرورة تحرير الفلاحين وإجراء الإصلاحات بالرغبة في تجنب ثورة «من تحت». ونجد أن غورباتشوف قد استعاد الحجة ذاتها، ففي مقابلة أجراها معه المؤرخ الأميركي جايمس بلنغتون في حزيران ١٩٨٨، أشار إلى بطرس الأول وألكسندر الثاني، معتبراً أن ما قاما به من إصلاحات يشكل نموذجاً ممكناً لبرنامجنا الخاص^(١٩).

الفصل السابع

«القمة لم تعد تستطيع» .

شكّل الوضع الراهن لـ «القمة» المؤشر الأول لوضع ثوري، كما صاغه لينين: عجز الطبقات القائدة عن الحفاظ على سلطتها، أزمة في «القمة» تأخذ أشكالاً مختلفة، أزمة السياسة التي تمارسها الطبقة القائدة.. . وسواء استعملنا تعبير «طبقة» أو «نومانكلاتورا»، كما يفعل اليوم الناشدون السوفييات، فإن ذلك لا يمس صحة الصيغة: فالمجموعة الحاكمة في الاتحاد السوفياتي لم تعد قادرة على «الحفاظ على سلطتها». فمسألة السلطة، التي بدت منذ زمن طويل وكأنها قد وجدت حلاً نهائياً لها في الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، حيث تنص المادة السادسة من الدستور على اعتبار الحزب الشيوعي السوفياتي «القوة القائدة»، و «نواة النظام السياسي» التي توجّه وتشرف على كل شيء، قد أصبحت فجأة مطروحة على بساط البحث.

تكمن خصوصية الأزمة في استمرار الحزب بامتلاك اليد العليا في البلد. ففي عام ١٩٨٥، لم يكن هناك من وجود لمن يطرح «الدور القائد» للحزب للنقاش؛ ذلك أنه يمثل «نواة النظام السياسي». ان انتخاب تشرنينكو المريض، لمنصب الأمين العام، ثم انتخابه سريعاً كرئيس لمجلس السوفييات الأعلى، وأقول نجمه بطريقة عين، أدى الى نوع من استفاقة وعي. فجأة تم اكتشاف أن الحزب الكلي القدرة، تقوده ومنذ عشر سنوات مجموعة من المسنين المرضى والشائخين. وخلال سنوات كان التلفاز السوفياتي، بإظهاره قائد المرحلة يبرز دون أن يدري، إحدى ركائز صنعة لينين: «القمة لم تعد تستطيع». نظرياً، فإن بريجنيف، وأندروبوف، وتشيرينكو، يستطيعون القيام بكل شيء؛ ولكن في الواقع، كانت امكانياتهم جد متواضعة. فهم يستطيعون قيادة القاطرة السوفياتية المتوقفة، ولكن دون أي تعديل في النموذج الاقتصادي الستاليني؛ أضف الى

ذلك أن غياب أية مقاومة، سمح لهم بتوسيع حدود تملكهم - الفعلي أو المتخيل - في كافة القارات. بالمقابل، لم يكن باستطاعتهم منع تحول القوى السوفياتية العظمى إلى دولة عالمائية مزودة بالصواريخ.

لم يتوقف غورباتشوف عن ترداد الأمر التالي: إن حزبنا هو «القوة القائدة». وهذه النقطة ليست موضع شك. في حين أن علماء السياسة السوفيات، الذين سمح لهم مجدداً بالكلام، يصفون النظام - قبل غورباتشوف - بالـ «توتاليتارية»، ويعتبرون ذلك من البديهيات. هذا التعديد، المرفوض من قبل المختصين الغربيين بدراسة الاتحاد السوفياتي، يفضلون عليه، منذ موت ستالين أو مع مجيء بريجنيف للسلطة، تعبير «ما بعد توتاليتاري» الذي أصبح جزءاً من القاموس السياسي الخاص بأنصار «البريسترويكا». كذلك فإنهم يلجأون أحياناً إلى تعبيرات شبيهة: «اشتراكية دولة»^(١)، و «اشتراكية سلطوية بيروقراطية»^(٢)، أو «اشتراكية الشكنة»^(٣). وتحدث تاتيانا زاسلافسكايا، عن مجموعة من القياديين السياسيين الذين يستحوذون على «قدر كبير من السلطة في مختلف دوائر الحياة الاجتماعية، يتيح لهم التصرف الواسع بالملكات الوطنية والتحكم بمصير ملايين الأشخاص»^(٤). كما يشير أحد الكوادر العليا للحزب إلى هذا التعريف الأقل تعقيداً: «لقد تكوّن عندنا، وفي ظل ستالين، نظام سياسي تحكيمي، لم نشهد له مثيلاً حتى في ظل نظام الملكية المطلقة»^(٥). ويكتب المدير العام المساعد لوكالة تاس، مقارناً، فيقول: «لقد تم قيام نظام في الاتحاد السوفياتي، أعدم من الشيوعيين أكثر مما أعدم منهم هتلر، وموسوليني، وفرانكو، وسالزار مجتمعين في بلدانهم»^(٦). . . . وشيئاً فشيئاً، بدأنا نشهد استخدام صيغ أكثر مباشرة: الإشارة إلى «الوظيفة الشاملة للحزب»^(٧) أو «السيادة الشاملة للبيروقراطية»^(٨). مع التنبيه إلى أن هذه التعابير تختص بـ «مرحلة الجمود»، وبمعنى آخر بالماضي السوفياتي القريب، أي بعصر بريجنيف، الذي يعتبر في الغرب «ما بعد توتاليتاري» وترى فيه موسكو اليوم التجسيد الكامل «لمشروع يهدف إلى فرض وحدانية فكرية كاملة في روسيا»، كان قد أشار إليها الكاتب الروسي الساخر كوزما بروتوكوف في ستينات القرن التاسع عشر^(٩).

يكتب المؤلفون السوفيات قائلين بأن «النظام السياسي المعمول به يتميز بقابليته لتقليد الديمقراطية»^(١٠).

وكما يقول إيوري أفناسيف : «نطلق تعبير الديمقراطية على التوتاليتارية»^(١١) هذا التعبير ولج القاموس السياسي عندما حاول أ. غوروف، اختصاصي «الجريمة المنظمة» - التسمية الرسمية للمافيا السوفياتية - ، تحليل طبيعة هذه المافيا، معيداً نشأتها إلى سنوات الخمسينات، معتبراً «أن الدولة التوتاليتارية لم تكن لتسامح معها»، أي أن ستالين لم يكن يسمح بها. ومن أجل توضيح فكرته. يضيف اختصاصي الجريمة قائلاً: «من المعلوم أن هتلر أو موسوليني قد أقدما على تصفية الجريمة المنظمة في بلديهما»^(١٢). أي أننا نستطيع راهناً، ونحن بصدد نشوء المافيا السوفياتية مناقشة الأمر أخذاً بعين الاعتبار لوجود الجريمة المنظمة في ألمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية. المهم هنا، أن مقدماً في الميليشيا، يرى من الطبيعي مقارنة ستالين بهتلر أو موسوليني. أي أن السمة التوتاليتارية لنظام ستالين ليست موضع شك. وعلى هذا الأساس، يرى أن ظهور المافيا هو بمثابة مؤشر لتحول النظام، إذ أن ظهورها ملازم لدخول النظام في طور الفساد: «أن مجتمعاً إجرامياً لا يتحول إلى مافيا إلا في ظل الفساد: إذ أنها بحاجة إلى علاقات وثيقة مع ممثلين جهاز الدولة، الذين يضعون أنفسهم في خدمة المجرمين»^(١٣).

ينظر الاعلاميون السوفيات، الذين يحللون طبيعة النظام إنطلاقاً من ضرورة تطويره، إلى الحقبة الستالينية بإعتبارها ذات طابع توتاليتاري أكيد؛ البعض يرى أن هذه التوتاليتارية استمرت مع بريجنيف. ولكن مع توسع النقاش حول طبيعة النظام والوعي المتزايد بسقوط البريسترويكا، فإن مقولة التوتاليتارية تمتد لتغطي مرحلة ما بعد بريجنيف. ففي حفل تشييع الأكاديمي زخاروف، أشار غافريل بويوف إلى ميزة الفقيه الذي استطاع أن «يرى، وقبل الجميع بمدة طويلة، ضرورة تحقيق المهمة الكبرى في زماننا: تصفية الاشتراكية التوتاليتارية»^(١٤).

تكمن إحدى معضلات «الفكر السياسي الجديد» في استخدام تعبير «التوتاليتارية» أو مرادفاته دون المساس بمبدأ «الحزب الواحد» القائد. وهذا ما يوضحه رئيس تحرير البرافدا في معرض حديثه عن: المذهب: «علنا، الحزب هو القائد، ويجب على كل شيء: الاقتصاد، النظام السياسي، الحياة الاجتماعية، حياتنا الروحية، العمل التربوي»^(١٥). لقد تم استبدال رئيس تحرير وسيلة الإعلام المركزية للحزب الشيوعي في عام ١٩٨٩، ولكن غورباتشيف استمر يؤكد: نحن الحزب القائد.

ي مارس الحزب، الذي يستطيع الاجابة على كل شيء، سلطة توتاليتارية على البلد. فالمنظرات الغربية حول التوتاليتارية تستند، في الواقع، الى تعريف للظاهرة يعود الى سنوات الأربعينات والخمسينات أي الى فترة شبابه الدامي. ومن الأنسب اليوم التحدث عن «التوتاليتارية الناضجة»^(١٦)، بدل الحديث عن «ما بعد التوتاليتارية» ويُعتبر المؤرخ الايطالي فيتوريو سترادا من الباحثين النادرين الذين نبهوا الى القيمة النظرية لمفهوم «التوتاليتارية»، عندما تناول «نظام الحزب الواحد والايدولوجية الواحدة، الهادفين الى استيعاب كافة أشكال الحياة المدنية ضمن مبنى السلطة، والساعي أيضاً الى اخضاعها لخطط التحول الجذري للمجتمع، وما يتطلبه ذلك من تعبئة كثيفة ودائمة»^(١٧).

إن مقولة «الحزب يجب على كل شيء» ليست صيغة بلاغية، مدونة في الدستور. فالمسؤولية - بتعبير آخر السلطة المباشرة - تنهض بها أجهزة الحزب، بشكل ثابت وشامل. فبمناسبة عيدين وطنيين - الأول من أيار والسابع من تشرين الثاني - تصدر اللجنة المركزية للحزب - «أوامرها للبلد وللعالم. وهذا ما درجت عليه منذ سبعين عاماً. وإذا كان مضمون «الأوامر» عرضة للتغير، إلا أن دلالة العملية تبقى هي نفسها: تأكيد الوجود الكلي القدرة للحزب.

تتصف أوامر اللجنة المركزية بالتجريد. وهي تشبه من أحد أوجهها صوت سينا: «أيها المواطنون السوفييات! ليكن همكم اليومي الحفاظ على البيئة! إستخدموا الثروات الطبيعية بعقلانية». كذلك فإن التوجيه العملي تتولاه أيضاً اللجنة المركزية، «باعتبارها البرلمان الكبير للحزب، وانطلاقاً من الدور القائد لهذا الأخير، فإن البرلمان الكبير يقرر كل شيء»^(١٨). ان الحلول التي تقرها الحكومة تحمل توقيعين بشكل منتظم: توقيع اللجنة المركزية، توقيع مجلس الوزراء. وقبل كل دورة «برلمان مكتملة»، لمجلس السوفييات الأعلى للاتحاد السوفيياتي تجتمع اللجنة المركزية وتتخذ القرارات التي تصبح أساس النقاش بالنسبة لمجلس السوفييات.

ان المعلومات التي تنشر في الصحف تحت عنوان: «جلسة اللجنة المركزية» أو «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيياتي»، تظهر بأن هذا «البرلمان الكبير»، يقرر في الواقع جميع الأمور ويغطي كل الميادين. فبالنسبة لكل المسائل، تعطي هذه اللجنة

التعليات المناسبة، والتوجهات، والحلول الأنسب. أما إبان الفترات الفاصلة بين الجلسات العامة للجنة المركزية، يُؤمّن العمل من قبل سكرتاريا الحزب والمكتب السياسي وهو مصدر السلطة العليا، التي تتجسد بكبار القادة، هؤلاء الذين يتجلون من خلال صورهم من على منبر مجلس السوفيات الأعلى. إنها القمة، حيث كل صورة تمثل رمزاً جامداً، انه نظام رموز، لا يملك مفتاحه سوى علماء الكرملين: ثلاثة صفوف من المقاعد في القاعة الكبرى، خمسة مقاعد من كل جانب على طول الممر الذي يحدد إطار المشهد. عشرة مقاعد في كل صف. كلها في مقابل «صف» القائد. إن أقل تعديل في توزيع المقاعد يعطي للخبراء الغربيين الفرصة لتشغيل المخيلة الى ما لا نهاية.

يوري أندروبوف الذي يؤمن الصلة مع التقليد المتبع بغية إعلان بلاغ رسمي حول اجتماعات المكتب السياسي - البلاغ يكون جاهزاً ينتظر التوقيع - يهتم بكل شيء، ويراقب كل شيء، ويوجه كل شيء. وبذلك يستطيع المواطنون السوفيات أن يستعلموا كل نهار جمعة، عن طبيعة مشاكلهم وطريقة حلها. وحتى بعد الاصلاح الذي صدق عليه في الجلسة المكتملة التي عقدت في أيلول ١٩٨٨، بقيت بنية اللجنة المركزية تعكس الطابع التوتاليتاري للسلطة التي يمارسها الحزب. فقد تم تجميع الشعب العديدة التي تدير كافة جوانب الحياة في البلد، ضمن سبع لجان: قانونية، وايدولوجية، ودولية، وزراعية، وصناعية، واجتماعية، يضاف إليها لجتان مختصتان بأنشطة الحزب والصناعة العسكرية. ويتفرع عن كل لجنة منطقة خمس شعب (هنا أيضاً، نشهد تجميع الشعب على شكل لجان): شعب تنظيم، ودعاية وتعبئة، وصناعة ونقل، واقتصاد ومال، وشعبة عامة. وتدير لجنة المقاطعة، وفقاً لمستواها المتدني - كافة الشؤون المتصلة بالمقاطعة، كما أن سكرتيرها الأول هو سيد المقاطعة. ان لجان المناطق، والمدن، والمقاطعات وصولاً الى اللجان القاعدية للحزب تجعل من هذا الأخير «نظام سلطة شديد التحكم».

تكون السلطة الشاملة، مضافاً إليها الخوف من ضياعها، نواة مآلها انعدام القوة. ففي كل وقت، نجد أنفسنا أمام الثنائية نفسها: الرغبة في امتلاك السلطة المطلقة والعجز عن تحقيق ذلك. ووجد لينين الدواء في الخوف. الذي وجد تجسيدا له في البوليس السياسي الذي أنشأه الزعيم الثوري والمتمثل باللجنة فوق العادة لعموم روسيا (فيتشيك)، جرياً على ذلك، تم توكيل لجان فوق العادة مهمة معالجة المشاكل

المطروحة. أن التسمية تبدو وكأنها تأكيداً لضمانة الوصول الى الحلول المناسبة. فمن أجل النهوض بإقتصاد البلاد إبان سياسة (NEP)، تمت تسمية رئيس الفيتشيك أي دزرجنسكي، رئيساً لسوفيئات الاقتصاد. وهو التكتيك الذي لم يكن ستالين ليجهله. فعندما واجه البلد مشاكل نقل حادة إبان الحرب، أقدم مسؤول النقل العسكرية على تقديم تصور في إحدى جلسات المكتب السياسي، يقضي بضرورة إنشاء «لجنة نقلات كاملة الصلاحيات» تتركز بيدها كافة الوسائل التي تمتلكها البلاد. وعندما استمع ستالين لهذا التصور، بادر قائلاً: «كاملة الصلاحيات كما يقول كوفاليوف. كيف نفهم ذلك؟ من جهتي لا أرى. إلا فهماً واحداً: أقتراح انتخاب الرفيق ستالين رئيساً للجنة النقلات»^(١٩). ان اسم ستالين يضمن الصلاحية المطلقة.

شكل غياب ستالين، وتراجع حالة الخوف، منذ أن تم التخلي عن سياسة الارهاب المعمم، التي لم تعد ذات نفع في ظروف التوتاليتارية المتحققة، سبباً لتراخي العلاقات بين صاحب الأمر والمنفذ. ومع ذلك، بقيت حقول معينة تنفذ فيها الأوامر دون نقاش، خاصة في ميدان السياسة الخارجية. فقد قرر خروتشوف شخصياً إرسال الصواريخ الى كوبا. كما أقدم المكتب السياسي الذي يرأسه بريجنيف، على إرسال الجيش السوفياتي الى أفغانستان. ان الصعوبات لا تطل برأسها إلا عندما تسود إرادة التحكم بكل شيء. فخلال ندوة حول «طاولة مستديرة» نظمتها جريدة البرافدا، أعلن الليتواني كوريليلوس بمرارة: الى متى بإمكان إيفانوفيتش أن يقرر، من مكتبه - رقم ٤٢١ - إن كان هناك مثلاً من ضرورة لانشاء حمامات عامة في إحدى المدن الليتوانية التي لم يستطع الاعلان عن اسمها^(٢٠).

ان الصراع بين المبدأ والممارسة، بين الأمر والتنفيذ، وبين المركز والطرف، تفاقم عن طريق نقيضة أصلية للنظام السوفياتي: فالسلطة الشاملة للحزب لا تتحقق مباشرة عبر أجهزة الحزب، بل عبر الادارة - وزارات وسوفيئات محلية. حيث يسعى كل مركز تنفيذي الى توسيع رقعة سلطته، مصطدماً هكذا بالقوة الرئيسة في البلد المتمثلة بسلطة الحزب. وعندما تسلم غورباتشيف رأس السلطة أدرك فجأة، بأن الوزارات المركزية، وأحزاب الجمهوريات - التي تسعى الى أضعاف علاقتها بالمركز - تشكل قوى منافسة فعالة. لقد وجد بريجنيف حله الخاص لهذه المشكلة، مكتفياً بضرورة تطبيق توجيهاته الأساسية، ذات الطابع الحيوي، تاركاً بعد ذلك للوزارات والجمهوريات حرية

التصرف . لقد كان بريجنيف يدرك أن ما أطلق لاحقاً على مرحلة حكمة أي «الجمود» كان بمثابة الضمانة لاعادة إنتاج النظام، دون هزات أو صراعات تضع النظام موضع الجدل . فالوزارات كانت تقف حجر عثرى أمام أية محاولة للتغيير . أما في الجمهوريات، فإن مسؤولي الحزب المحليين كانوا يجهدون لتدعيم استقلالهم عن موسكو، ولكن فقط فيما يتعلق بسلطتهم الشخصية، فالسكرتير الأول للحزب في أوزبكستان شرف رشيدوف، الذي استطاع خلال ربع قرن، أن ينجح في تحويل جمهوريته الى عقار خاص ليصبح «عرب» مافيا قوية، لم يثر أبداً حفيظة موسكو . فقد تجنب مواجهة سياسة المركز التي رمت الى تحويل أوزبكستان الى حقل ضخم لانتاج القطن . فقد كانت المدفوعات المتوجبة تدفع بالقطن يضاف إليها هنا وهناك (وبشكل شخصي) بعض الهدايا للسكرتير العام ولحاشيته، الأمر الذي سمح لرشيدوف بتأمين سيطرته المطلقة في حقله . هذا النموذج يعتبر المثل الأكثر سطوعاً للنمط الجديد من العلاقات التي ظهرت مع نضوج النظام التوتاليتاري .

لقد بلغ التمرکز حده الأعلى، بحيث أصبح من الآن فصاعداً غير محدود . حتى في ألمانيا الشرقية، الشديدة التمرکز، تشير البرافدا، الى أن ما نسبته ٣٥٪ من المؤسسات بقي تحت اشراف محلي، مقابل ٥٪ في الاتحاد السوفياتي (٢١) . بمعنى آخر، فإن ما نسبته ٩٥٪ من مؤسسات الاتحاد السوفياتي كان يخضع للتمرکز، أي مرتبط بهذه الادارة أو تلك، ومنطقياً بهذا المستوى أو ذاك من مستويات الحزب، لقد بدأت السلطة المركزية تخسر من قوتها، لأنها إستهدفت التحكم بكل شيء . الأمر الذي يتجاوز إمكانياتها، معلناً توقف جريان الدم في العروق .

يرى أحد أشد أنصار «البريسترويكا» مستنداً الى فكرة «ثبات النظام السوفياتي واستمراره»، بما هو نظام الحزب الواحد، أن غياب «القيادة الفعلية للحزب» سبب «للمأزق المأساوي الذي تتخبط فيه البلاد . ويضيف موضحاً فكرته: «أن الحزب الشيوعي السوفياتي ليس في السلطة» . وبالمحصلة، ان النظام السوفياتي عاجز عن الاستمرار في ظل الأوضاع القائمة (٢٢) .

ان السوفيات الذي يحللون الأزمة التي يمر بها النظام، والوضع الثوري، يتفقون الى حد بعيد مع التطور الغورباتشيوفي حول «المقود الجامد» . وبالإمكان القول بأن

غورباتشوف قد استعار من الاقتصاديين وعلماء السياسة المقربين فكرة آلية القيادة العاجزة، أو «الآلة» السوفياتية التي كانت تعمل في ظل ظروف النمو التوسعي، إبان المراحل الأولى من بناء الاشتراكية، ولكنها غدت غير فعالة في مرحلة الانتقال إلى النمو الكثيف. والنتيجة، تتمثل بضرورة إصلاح الآلة، وتحسينها وتحرير المقود من أجل الحصول على النتيجة المطلوبة: إعادة تشغيل الآلة وتسريع إيقافها.

ولكن مع ذلك يبقى هناك سؤال: لماذا استطاعت الآلة التوتاليتارية أن تعمل بشكل دقيق في سني الشباب، أي سنوات الستالينية؟ ولماذا توقف «طيران السنوات الشابة» كما تقول أغنية في ذلك العصر، ولماذا خسر النظام حرارته مع موت القائد الكبير؟ أن الأسباب المفسرة لذلك متعددة الأوجه. بداية، هناك غياب القائد الملهم، بما هو عنصر أساسي في النظام التوتاليتاري: وهناك أيضاً نضوب حالة الاندفاع التي ولدتها الثورة. كذلك فإن من بين الأسباب الرئيسية، نلاحظ التطورات السريعة، وغير المتوقعة، لضرورة تكوّن «الانسان الجديد».

فالبريسترويكا، ومشاريع الإصلاح التي وضعت من أجل تجاوز الأزمة، اكتشفت الكلفة المترتبة من جراء ظهور هذا «الانسان الجديد». لقد تبين بسرعة، وبالرغم من تجنب إعلاميو «البريسترويكا» الإشارة إلى ذلك، أن العدو رقم واحد للـ «بريسترويكا» لا يتمثل في «البيروقراطية»، و «المحافظين»، والأعداء الآخرين للأمين العام. فالعدو الأكبر هو الانسان السوفياتي الذي يرفض، لأسباب عديدة، التغييرات التي يفرضها الخط العام للحزب. يرد إسم هذا العدو ضمن قاموس غورباتشوف تحت عنوان «العامل الانساني». وفي السنوات الأولى من عمر الثورة، كان الحديث عن «المادة الانسانية»؛ وقد استخدم هرن، تعبير «لحم الرفاه العام»، و «لحم للتحرير»، بتعبير آخر: لحم بشري والمطلوب تحريره.

تنطوي صيغة هوزن على عنصرين: فمن جهة، هناك اللحم والمطلوب تحريره، أي الشعب، أو «القاعدة»، وبالمقابل هناك اللحم الذي يحرر، أي القيادة، أو «القمة»، أي الكوادر. أما بعد الثورة، فقد برز الحزب البلشفي، باعتباره المحرر الأكبر، الذي وضع يده على السلطة بهدف تحرير الطبقة العاملة، ان لم يكن «القاعدة» ككل. هذه الطبقة الأخيرة التي ظهرت على مسرح التاريخ من أجل وضع حد

للتاريخ، وورثة ماضي الانسانية. لقد تحول الحزب، خلال سبعين عاماً. وبدأ برسم خط فاصل ودقيق بين الكوادر والجمهور. فمن المؤشرات البارزة والدالة على الأزمة العميقة الراهنة، أو الوضع الثوري الذي يمر به الاتحاد السوفياتي، إنما السؤال الفجائي الذي يطرحه الاعلاميون السوفييات: من يمثل الحزب، وما هي «حقيقة رسالته في المجتمع الاشتراكي»^(٢٣)؟ كيف نحفظ له سمته الطبقية، وإلى أين يتجه؟ والاشخاص الذين يطرحون هذه الأسئلة، لا يساورهم الشك حول ضرورة بقاء الحزب بمثابة القوة القائدة الوحيدة؛ ولكنهم يعرفون أن قيادة الحزب تمر بأزمة عميقة.

يعتبر كل بالغ من أصل عشرة، وكل مواطن نشط من أصل تسعة، وكل مهندس أو تقني من أصل خمسة، وكل اختصاصي زراعي من أصل أربعة، وقرابة مدرس أو طبيب من أصل ستة، ونصف الكتاب تقريباً، وثلاث الموسيقيين والسينمائيين، وثلاثي الصحافيين أعضاء في الحزب الشيوعي. كما يمكن إحصاء ما نسبته ٧١٪ من دكاترة العلوم وقرابة ٥٢٪ من الجامعيين الذين ناقشوا رسالة حلقة ثالثة، من أعضاء الحزب. كذلك فإن العالية العظمى من موظفي جهاز الادارة هم أعضاء في الحزب^(٢٤). أي إننا بصدد، جيش حقيقي، يقوده الكوادر، الذين تطلق عليهم راهناً أسماء مختلفة: القلة مثلاً^(٢٥)؛ كذلك فإن تعبير «نومانكلاتورا» دارج الاستعمال. هذا التعبير الذي ولد في سنوات العشرين وكان يشير إلى لائحة الوظائف المتصلة بمراتب الحزب - من المكتب السياسي وصولاً إلى لجان المقاطعات -، حمل في السبعينات، معنى آخر في الغرب، إذ أصبح يشير إلى المجموعة التي تقود الاتحاد السوفياتي. وحلّ بذلك مكان التعبير الذي صاغه ملوفان دوجيلاس حول «الطبقة الجديدة». أما اليوم، فإن الاعلاميين السوفييات، يستخدمون تعبير الـ «نومانكلاتورا» بمعناه الغربي. وتحدث عالمة الاجتماع الأولى في الاتحاد السوفياتي تاتيانا زاسلافسكايا، عن «مجموعة من المسؤولين السياسيين»، الذين يكونون «النواة الحقيقية التي تقود الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»^(٢٦). في حين يفضل غورباتشيف استخدام تعبير «جسم كوادر الحزب»^(٢٧). أما ستالين وقبل خمسين عاماً، فقد تحدث عن «كوادر قيادة الحزب»، مقسماً.. إياهم إلى «جنرالات حزينا»، و «ضباط حزينا»، و «صفوف ضباط الحزب»^(٢٨).

ردّ غورباتشيف، في تقرير خاص حول «البريسترويكا وسياسة كوادر الحزب»،

أسباب «الوضع الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي» الذي ظهر في مفصل سنوات السبعينات والثمانينات - بتعبير آخر الأزمة المتوجب تجاوزها - إلى «حالة الحزب وجسم كوادره» (٢٩). وتمثل المقارنة بين تقريرين - الأول أعلنه ستالين في ٣ آذار ١٩٣٧ والثاني أعلنه غورباتشوف في ٢٨ شباط ١٩٨٧ - عملاً كبير الفائدة. فقد واجه الأمينان العامان أزمة وضعت الحزب والدولة في حالة خطر. وكلاهما حاول تحليل ما وصل إليه وضع قيادتهما. وكلاهما استنتج عدم قابلية هذا الجسم للحياة. ومن غير المفيد أن نشير إلى اختلاف الظروف، فالمهم أن نوضح تماثل التكتيكات واستعادة الصيغ عينها.

يحمل التقريران، في الواقع، العنوان نفسه: فتقرير ستالين يشير إلى «عدم كفاية عمل الحزب»، في حين يشير غورباتشوف «سياسة الكوادر». والاثنان يظهران عدم قدرة «القمة» على الخروج من أي وضعية إستثنائية. يكشف الأمين العام في الحالة الأولى، التهديد الذي لم يسبق له مثيل، والذي يواجهه الدولة السوفياتية: اختراق «عملاء القوى الأجنبية»، بمن فيهم التروتسكيون، لـ «تنظيماتنا الاقتصادية والإدارية والحزب». وبما يضاعف الخطر أن هؤلاء «المخربين، والمضللين، والعملاء، والمجرمين الآخرين» قد نجحوا في إحتلال «مراكز مسؤولية» (٣٠). يتحدث الأمين العام في الحالة الثانية، عن «عناصر الجمود وعن الغرباء عن الاشتراكية»، الذين لهم «تأثير هام على الاقتصاد والحقول الاجتماعي والروحي». وبما يزيد الأمر خطورة، حسب تعبیر ستالين، «أن رفاقنا المسؤولين... يتصرفون بسذاجة لا تصدق وعمى حاد...»، وحسب تعبیر غورباتشوف، «... أن اللجنة المركزية للحزب، وقيادة البلاد... لم يستطيعوا أن يحددوا في الوقت المناسب ضرورة التغيير إضافة إلى الخطورة المتعاظمة لظواهر الأزمة في المجتمع».

يطرح الأمينان العامان السؤال حول الأسباب. ويجب ستالين: «أن كل هذه الأخطاء، إضافة إلى العمى، والاهمال، والتساهل» تشكل الوجه السيء، أو الجانب الخفي للنجاحات الاقتصادية. لقد أشار ستالين في كتاباته، عام ١٩٣٠، إلى «نشوة الانتصار». وبعد سبع سنوات، أشار إلى إنجازات جديدة أحدثت «دواراً في الرأس» بالنسبة لكوادر قيادة الحزب. كذلك يؤكد غورباتشوف النجاحات قائلاً: «بنى الشعب السوفياتي، تحت قيادة الحزب، الاشتراكية وحقق النصر على الفاشية إبان الحرب الوطنية الكبرى، وأعاد بناء الاقتصاد وتدعيمه وحول الوطن إلى قوة جبارة»

ويضيف: لقد برزت لاحقاً «عوامل ذاتية»، منعت بروز الوعي بضرورة التغيير.

يتكلم ستالين عن «العمى، والاهمال، والتساهل» ويحيب غورباتشوف متحدثاً عن «انعدام المسؤولية الذي يؤدي الى الاجرام، والانحلال». وهما ما تم السعي لاختفائه في جميع الحالات «عن طريق خلق جو من الاعتداد. المقعم بالنشوة، والتبجيل، والاستعراضات، والمجاملات المتبادلة»، حسب ستالين، «وعن طريق الاحتمالات، وتنظيم المظاهرات الانتصارية، وإحياء اليوبيلات العديدة، في المركز أو على المستوى المحلي»، إذاً حسب غورباتشوف.

يقع الخطأ على القيادة، وينسبة أقل طبعاً، على الأمين العام. فستالين يظهر «عمى وسذاجة» رفاقنا المسؤولين. وغورباتشوف يعلن: «أن أعضاء قيادة الحزب والدولة، يتحملون مسؤولية ما يحصل». من هنا ضرورة الاستعجال في اتخاذ الاجراءات المناسبة. ويؤكد ستالين في معرض تحديده «للمهمات التي تقع على عاتقنا»، على ضرورة «رفع العمل السياسي للحزب الى المستوى المطلوب»، وقبل كل شيء رفع «المستوى الايديولوجي والبنية السياسية لكوادر القيادة». ويلتقط غورباتشوف أهمية هذه الوصفة بشكل كامل فيقول: «علينا أن لا نسمح بإهمال التكوين السياسي والنظري، والبنية الايديولوجية والاخلاقية للكوادر».

ولكن «بنية» الكوادر لا تكفي. وهذا ما يعيه الأمينان العامان. فيرى ستالين ضرورة بث «قوى حية»، داخل كادر القيادة، عن طريق الترفيع، الأمر الذي يتيح توسع مجال الكوادر القيادية، وتلك هي مهمتنا. ويحيب غورباتشوف بعد خمسين سنة، وكأنه الصدى: «من الضروري معالجة المشكلة الموجهة للكوادر داخل اللجنة المركزية للحزب، ولمكتبه السياسي، عن طريق تجديد القيادة، وبث القوى الحية...»، مع الإشارة الى اختلاف المزاج بينهما. فقد فرض ستالين على كافة مسؤولي الحزب اختيار مساعدين لكل منهم. بينما اكتفى غورباتشوف بهذه العبارة: «... إن ثبات الكوادر يفرض نفسه. ولكن يجب ألا ندفع بذلك الى الحدود القصوى، أو إذا أردتم، الى حدود العبث».

يخلص غورباتشوف في تقريره الى تأكيد قناعته، التي يتقبلها حتى أكثرهم شكاً: «نعم، البلاشفة قادرون على كل شيء». بالمقابل يؤكد ستالين، المتفائل الكبير، هذه

القناعة من خلال جملته الشهيرة: «لا وجود لقلعة تقف في وجه البلاشفة». إن مفتاح النصر هو الحزب. ومفتاح الحزب، هم كوادر القيادة. إن التماثل المدهش بين الطرق المختارة والقاموس الذي استخدمه التقريران، لا يتأتى فقط عن كون كاتبي مداخلة غورباتشوف قد قرأوا بإمعان النص الذي حضّر لستالين. فالهدف، والمهمة المطروحة متماثلتان. فمع وصول كل منهما إلى رئاسة الحزب، كانت تبرز الحاجة إلى جهاز مطيع، وجسم قيادي مخلص. أي أن الهدف الأول والدائم هو خلق حزب مخلص لشخص الأمين العام، كإحتياط في مواجهة الجهاز. إلا أن هذا الهدف ينطوي على صعوبات لم تغب عن منشيء الحزب ومؤسسه: لينين. وخصوماته التي لا حدود لها، وطريقته في إبعاد من يطرحون الشروط، سمحت بخلق «حزب لينين». ويعطي تقرير ستالين، في آذار ١٩٣٧، الإشارة للبدء بالتصفية النهائية لما تبقى من حزب لينين، كشرط لخلق «حزب ستالين» وبقي خروتشوف حتى يوم إبعاده يقاتل الحزب الذي ورثه، ولا يتردد بإتخاذ أي إجراء صارم، بإستثناء التصفية الجسدية لخصومه المهزومين.

أما بريجنيف فقد وجد أسلوبه الخاص من أجل خلق حزبه: رشو الجهاز. فقد اشترى إخلاص الجهاز، عبر إباحته للنهب وضمانة الوضع الثابت. ولكن عدة حالات موت غير عادية على مستوى «القمة» زرعت بزور الشك حول طيبة قلب بريجنيف. فقد أشار العديد من كتاب المذكرات، ممن كانوا من قدامى رفاق السلاح الذين أراحهم بريجنيف (أعضاء المكتب السياسي ك. مازوروف و ب. شيليست، والرئيس السابق للكي. جي. بي. ف. شاستني، وآخرون)، إلى القساوة الشديدة التي عامل بها الأمين العام من اعتبرهم مصدر خطر. أيأ يكن الأمر، فلقد كان الثبات العملة التي يتعامل بها على مستوى الكوادر. هذا الوضع ترافق مع نجاحات ملحوظة على صعيد السياسة الخارجية، مما أثار لدى «الكوادر» موجة من التفاؤل الجامح، ويذكر السكرتير الأول لإحدى لجان مقاطعة في إقليم فولوكدا ما سمعه من موظف حزبي كبير من قوله: «أيها الرفاق، في العام ٢٠٠٠، ستعم الشيوعية العالم بأسره! ويجب أن تكونوا مستعدين لتبوء مراكز قيادية في أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، وأميركا!»^(٣١).

اصطدم غورباتشوف: كما اصطدم سائر الأمناء العامين من قبله، بمقاومة الجهاز. طبعاً ليس الجهاز بأكمله، إذ بدونه لن يكون للحزب (والدولة السوفياتية) أي وجود، بل بالكوادر القيادية التابعة لسلفه، الذين يعلمون أنهم قد خسروا الرهان وأن

«قوى حية» تنتظر الحلول مكانهم. يذكر غورباتشوف في تقريره حول سياسة الكوادر هذه الكلمات للينين: «جهاز في خدمة السياسة... وليس سياسة في خدمة الجهاز». إن الأمين العام الجديد بحاجة «لجسم قيادية» جديد؛ وبواسطته يستطيع تحويل الحزب، وبالتالي تأهيله للقيادة من جديد. عندما يؤكد سياسي سوفياتي أنه «في ظل الظروف الراهنة، لا يمكن للنظام السوفياتي أن يستمر»، فإنه يكرر التعريف الذي أعطاه لينين للوضع الثوري: إن الطبقات القائدة أضحت عاجزة عن الحفاظ على سلطتها.

في ضوء ما تقدم، فإن استنتاجاً سياسياً يفرض نفسه: أن «تغيير الظروف الراهنة»، يفترض في المقام الأول تغيير جسم الكوادر. إذ هنا تكمن، في نظر الأمين العام، علة الأزمة الأولى التي تعني أن «القمة لم تعد قادرة...» إلا أن التحليل التاريخي لأزمة «القمة» يتيح الوصول إلى استنتاج مغاير.

فالنظام التوتاليتاري هو صنعة الثائرين الذين يعتنقون مشاريع ذات طابع طوباوي؛ إنها طوبى يجهلون طبيعتها، في الوقت الذي تسودهم القناعة بمعرفتها. فالنظام الذي عملوا على وضعه موضع التنفيذ، استهدفت بناء الإنسان الجديد. وقد ترسخت القناعة لديهم بأن هذا الإنسان هو ما يحتاج إليه النظام التوتاليتاري. ولقد نجحوا في بلوغ هذا الهدف إلى حد بعيد. تكمن معضلة التوتاليتارية إذاً، في أن الأفراد الذين صنعوها، وفي طليعتهم «الكوادر» و«القمة»، قد فقدوا الدينامية والحماس الذين وسعوا البناء الأوائل، وبالتالي لم يعد بإمكانهم تأمين شروط استمرار حياة النظام الذي إحتضنهم. فالآلية التكوينية للتوتاليتارية، تحرك لدى الإنسان، قوى هي في أساس الظواهر التي يرى فيها غورباتشوف «تآكل المجتمع».

يعتبر بطل ألكسندر بيك في روايته: «التصنع الجديد، والمكتوبة في الستينات، والمنشورة في الاتحاد السوفياتي في عصر «الفلاسنوست»، النموذج المثالي لداعية التوتاليتارية. فالعملة التي يتداولها هي: «لا نقاش!»^(٣٢) وقاعدته الذهبية: «نعطي أمراً ويكفي»^(٣٣). فهو يعتبر نفسه جندياً عند ستالين. ووزير النضاعة الثقيلة، ينفذ بلا تدمير، وكجندي، كافة أوامر القائد: «إن سلوك ستالين بالنسبة له، يعتبر نوعاً من القانون الأعلى القاطع»؛ و«فوق كل انضباط، هناك الاخلاص لستالين، ولأي من كلماته، وتوجيهاته»^(٣٤).

إن بطل بيك «قد دخل النظام من الخارج» (بتعبير آخر، تلقى تربية ثورية)، ويعلق ج. بويوف بأنه «طالما أن النظام عرف كيف يحافظ على هذه الكوادر (مع ما يحملون من قواعد أخلاقية)، فإن ذلك سمح له بالعمل»^(٣٥). إن أخلاقية «دعاة التوتاليتارية» حفظت نوعاً آخر من الأخلاقية تتمثل «بالديانة القديمة»، وإنبتت على الأيمان بالعقيدة الجديدة. ويأسم هذه العقيدة، فإن «الدعاة» لا يجاملون أنفسهم ولا الآخرين، بل أنهم يتفنون فقط أوامر حامل العقيدة: الزعيم. ولا يوازي قساوتهم إلا إخلاصهم للزعيم. وهم لا يتورعون عن الضرب بلا هوادة حتى أكثر الناس قرباً منهم، وذلك بهدف بناء العالم الجديد، وتحقيق العقيدة التي يؤمنون بها من أجل الأجيال القادمة.

إن ستالين وقبل أن يقدم على تصفية الدعاة، باعتبار أن النظام الذي بنوه لم يعد بحاجة إلى إيمانهم، سعى إلى إيجاد البدائل. ولكن البحث الآن لا يتم عن أصحاب العقيدة، بل عن المنفذين. فالدعاة تساورهم الشكوك عندما تصطدم المعايير «الأخلاقية القديمة» مع الأوامر المعطاة. هذه الشكوك يتجاوزها الأتباع بكبرياء. فالدعاة يتصفون بالزهد والتعصب. في حين أن من حل مكانهم عرف كيف يتمتع جيداً بامتيازاته. يعلن نيكيتا خروتشوف بدء مرحلة جديدة من التوتاليتارية، مستخدماً اللغة التصويرية التي اشتهر بها فيقول: «إن أفكار ماركس جيدة، ولكن إذا دهنت بالسمن تصبح أفضل»^(٣٦) هنا يتصدى خروتشوف لمسألة تطوير مستوى حياة الشعب؛ غير أن «القمة» كانت مشغولة على الدوام بترتيب أوضاعها قبل وقت طويل من التفكير بترتيب أوضاع الشعب. لقد ذاعت نكتة لاذعة تتصل بهذا الوضع وتقول: «إن الطبقة العاملة تشرب الشمبانيا بقم قيادتها». لقد ترك الدعاة الشعب يموت من الجوع، مستغنين هم أنفسهم عن الدهن. في حين وعد الأتباع الشعب بالدهن، وهم متخمون. إن الاعتراف بضرورة مسح العقيدة بشيء من الدهن أو، على الأقل، تمني ذلك، كان مؤشراً لدخول التوتاليتارية في مرحلة جديدة. لقد تم تشريع حالة الالتباس، كنتيجة لا مفر منها لاصطدام الواقع بالعقيدة - لأن الواقع يستمر داخل جنبات الطوبى المتجسدة - . يكتب أحد الفلاسفة السوفييات قائلاً: «يتعاش في وعينا عالمان، عالم الوقائع اليومية وما يفرضه من توجهات عملية؛ وعالم موهومات الرفاهية وما تطرحه من آمال بحياة أكثر كرامة في المستقبل... إن تداخل هذين

العالمين يؤدي الى تقوية التفكير المزدوج» (٣٧).

لقد تم كشف ظاهرة «التفكير المزدوج»، على يد بعض المفكرين الثاقبي النظرية، ففي عام ١٩٢٠، أشار إ. زيباتين الى ظاهرة «اللغة المزدوجة». كما أعيد تحليل الظاهرة لاحقاً من قبل أوردويل ومتبعي سير الشيوعية الأكثر جرأة واستقلالية. أما اليوم، فإن الاعتراف الصريح بهذا «لتفكير المزدوج»، بما هو جزء لا يتجزأ من «الفكر الدوغمائي»، أو بتعبير آخر من الايديولوجية السوفياتية، يعتبر علامة هامة تدل على أزمة «القمة». وإن وجود وعي نهاري ويلي منع إمكانية اشتغال التوتاليتارية وفق صورتها الصافية: أمر/تنفيذ. وقد كتب أ. بيك، أن في وعي بطله تضطرم عدة «صددمات»: دافعان يتصارعان داخل عقله، فمن جهة هناك أمر الزعيم، وبالمقابل هناك سلطة «القاعدة الأخلاقية». أما في وعي خلفاء «جنود ستالين»، فإن التنافر، وفق تعبير خروتشوف، يقع بين العقيدة والدهن. فالمصالح الشخصية تلعب دوراً متعاضداً في سلوك ممثلي «القمة».

يتمتع تعبير «الاغتراب» اليوم، وهو الصيغة المشهورة لماركس، بشعبية متزايدة. فالاعلاميون يتكلمون عن الماضي بإعتباره الزمن الذي كان فيه الفلاحون يعيشون حالة «الاغتراب» تجاه الأرض والعمال، والانتاج. دون أن ينسوا حالة «الاغتراب» التي يعيشها جهاز الحزب تجاه جمهور الأعضاء. وترتفع عدة أصوات، في معرض الحديث عن أزمة «القمة»، من أجل إعادة طرح السؤال حول ضرورة الـ «نومانكلاتورا»: هل هي ضرورية في ظل البريسترويكا؟ يجيب ج. ك. كريوتشكوف مساعد مسؤول شعبة تنظيم العمل في الحزب داخل اللجنة المركزية قائلاً: «إن المفهوم السياسي للنومانكلاتورا يعني أن أعضاء الحزب يجب أن يحتفظوا ضمن حقل رؤيتهم ببعض الوظائف الأساسية في المجتمع. والحقيقة، هي أن الحزب يجب أن لا يتخلى، بل لا يستطيع أن يتخلى عن مسؤوليته في توجيه هذه العملية. ثم هل يوجد في عالم التنظيمات السياسية من يستبعد من ترسانته، سياسة الكوادر، بما هي رافعة تسمح بتطبيق الخط السياسي الذي تم إختياره» (٣٨) ٤.

والنتيجة واضحة. فالكوادر هم بمثابة وصفة للخروج من الأزمة. غير أن موت بريجنيف وضع حداً لذلك. فخلفاؤه ورثوا نظاماً مريضاً؛ حيث يصدر دماغ الجسم

أوامر معينة، تعمل العضلات على تنفيذها وفقاً لمزاجها وأهوائها. لقد شرع غورباتشوف بال «بريسترويكا»، وثورة الكوادر، مستهدفاً تبديل سلسلة الاتصال التي تنقل بأمانة الأوامر الصادرة عن «الرأس» أو تشوهها الصعوبة الكبرى التي واجهها في «ثورته» متأية من إفتقاره «للوازم» ما خلا بديلاً واحداً، ذلك من أجل استبدال الكوادر القديمة: فالكوادر الجديدة تم انتاجها من «لوازم القاعة التوتاليتارية» عينها. وإن دراسة التغيرات الحاصلة في المناصب الوزارية تؤكد ذلك. ففي أقل من ثلاث سنوات، تم استبدال ستين مسؤولاً وزارياً وإدارياً، أي ما نسبته ٧٠٪ من هؤلاء. ولقد أمضى كل منهم ما متوسطه ثمانية عشر عاماً في وظائف من هذه الدرجة. لقد رحلوا الآن، ولكن من حل مكانهم؟ إن نسبة ٥٠٪ من الخلفاء هم من مساعدي الوزراء السابقين، فيما كان ٢٥٪ من الوزراء المعينين يشغلون مناصب قيادية في أجهزة الحزب (٣٩). وهكذا نجد الجهاز المركزي - وفي هذه الحالة الخاصة، الجهاز الاقتصادي، كذلك الأمر بالنسبة للجهاز الرئيسي، أي الحزب - يعيد إنتاج نفسه.

تعتبر أزمة «القمة» عن أزمة نظام السلطة الذي بدا فجأة غير قادر على تولي مسؤوليات يعتبرها في نطاق اختصاصه ويرى أحد علماء السياسة في «الصعوبات» الراهنة، برهاناً على أن «مؤسسي الماركسية قد أولوا القليل من الاهتمام للمشاكل المترتبة على تكون آليات السلطة السياسية في المجتمع الاشتراكي بعد الثورة» (٤٠). ويكتب أحد المؤرخين قائلاً: «إن مسألة الوسيلة الديمقراطية والعملية لبناء السلطة ما زالت مطروحة على جدول أعمال الاشتراكية» (٤١). يؤكد أحد قياديي الحزب بأن تقوية «الدور الطليعي الذي ينهض به الحزب الشيوعي السوفياتي» يضمن «إعادة تجديد المجتمع» (٤٢). ولكن عملية التقوية هذه لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق تقوية سلطة رئيس الحزب. بهذه الوسيلة يتم السعي لتجاوز أزمة «القمة»، إننا أمام طرق جديدة تستخدم من أجل تشغيل آلة قديمة.

أولاً بأول، وكمحصلة «لبريسترويكا»، فإن الأزمة تتجه للتفاقم في شتى الميادين، وتغدو التشققات وحدة الحزب أكثر بروزاً. لذا لا يستطيع الجهاز إلا أن يظهر امتعاضه من الإصلاحات، التي لا ينتج عنها إلا المزيد من القوضى وخسارة سلطة الحزب. ولم تؤد زيادة رواتب مستخدمي الجهاز في خريف ١٩٨٨، إلى تحسن إداء العمل «التربوي للحزب»، وبالتالي لم تضيف شيئاً إلى هبة الحزب الشيوعي السوفياتي. وكان من المنتظر

أن تشخذ، انتخابات عام ١٩٨٨ الخاصة بمجلس السوفيات الأعلى، حماس الجماهير وتفسح في المجال أمام الكوادر الجديدة، بما يسمح بـ «تطهير» ديمقراطي للجهاز القديم. إلا أن الذي حصل هو أن سلطة الحزب قد منيت بضربة إضافية. إن انهيار الأحزاب الشيوعية في بلدان «الكتلة الشرقية» سوف يؤدي من جهة، إلى إطلاق ردات فعل دفاعية عند الجهاز، وبالمقابل فإن التفكير سينصب على مصير الحزب في الاتحاد السوفياتي. ففي مؤتمر نواب الشعب، دعا أندريه زخاروف إلى ضرورة إلغاء المادة رقم ستة من الدستور، التي تنص على الدور القيادي للحزب في البلاد، وقد أثارت هذه الدعوة الاستنكار ولكنها ما لبثت أن أضحت شعاراً شعبياً دفع غورباتشوف إلى التخلي نهائياً عن الصيغة القديمة. طبعاً، إن إلغاء هذه المادة، لا يغير شيئاً بحد ذاته. وقد أشار ميخائيل غورباتشوف إلى أن دستوري الاتحاد السوفياتي (١٩٢٤، ١٩٣٦)، لم يشر إلى الحزب. غير أن دوره، حسب تعبيرات لينين، كان مضمراً، وإن التخلي من قبل الحزب الشيوعي عن احتكاره لسلطة البلاد، سمح بإنعاش النقاش السياسي وإفساح المجال أمام ظهور العديد من الأحزاب التي رغم صغرها غالباً ما تحدث ضجيجاً، من الاتحاد الفوضوي - النقابي وصولاً إلى الحزب الملكي الدستوري الأرثوذكسي. كذلك كان بالإمكان رؤية تظاهرات الشيوعيين الاصلاحيين؛ وإن الأمور قد وصلت ببعض منهم إلى ترك الحزب غير أن المؤتمر الثامن والعشرين رفض أية صيغة تمس طبيعة الحزب وعلى الخصوص المبدأ اللينيني المتعلق بالمركزية الديمقراطية، وأعاد انتخاب غورباتشوف في منصب الأمين العام.

تشكل أزمة «القمة»، و «القمة لم تعد قادرة»، أحد عناصر الوضعية الثورية. أما العنصر الثاني فتلخصه الصيغة التالية: «القاعدة لم تعد تريد».

الفصل الثامن

القاعدة لم تعد تريد

«... تفور داخل أزمة الطبقة المسيطرة نقمة وسخط الطبقات
المخضعة». لينين.

إن التاريخ السوفياتي لا تنقصه الشواهد التي تسمح بالتأكد من صحة الملاحظة التي أبداه لينين: فبداية تظهر أزمة «القمة»، ثم يليها سخط «القاعدة». وبالإمكان الوصول إلى النتيجة عينها بالرجوع إلى مادة تاريخية مختلفة. فقد أظهر تاريخ المعسكر الاشتراكي في مناسبات عدة وجود هذه الظاهرة ضمن حيز من الوقت، القصير نسبياً. فكل من «إزمات القيادة»، التي كانت مرتبطة حتى الآن بتغيير الفريق الحاكم في الكرملين، ترافقت مع السماح بإثارة النواقص. هذا الوضع أدى في مرات عديدة إلى تفجير موجات من السخط اتخذت أشكالاً مختلفة: بدءاً من انتفاضات الأرياف مع موت ستالين وصولاً إلى إضراب نوفوتشير كاسك، الذي قمع بقسوة من قبل السلطات عام ١٩٦٢؛ وبعدها من الاضطرابات العمالية عام ١٩٥٣ في برلين الشرقية وصولاً إلى ربيع براغ عام ١٩٦٨ و«تضامن» بولونيا عام ١٩٨٠.

إن نقمة وسخط «القاعدة» في الاتحاد السوفياتي، نادراً ما اتخذ شكل احتجاجات مفتوحة. ففوق جهاز القمع البوليسي وذكرى الرعب الستاليني تفرض النظر بإمعان واحتراس. ففي مقابلة أجرتها ليدي أستور مع ستالين ذات يوم، سأله وبصراحة الأميركيين المعهودة: «متى تتوقعون عن قتل الناس؟». أجاب ستالين وبشكل اعتيادي: «عندما لا يكون هناك ضرورة لذلك». يصعب الجزم فيما إذا كان الأمين العام يدرك أنه يقتله للملايين المواطنين السوفيات، يترك للورثة سلاحاً غريباً، هو الخوف الذي

سيضمن لعشرات السنين إستقرار النظام . يقول بطل أ . أفينوغيونوف في مسرحيته وتحت عنوان (الخوف) في عام ١٩٣١ ما يلي : «نحن نعيش زمن الخوف الكبير» وفي عام ١٩٨٨ ، يستعين بطل روايته بعض ذكرياته قائلا : «لقد ضربت عدة مرات : والكثيرون من عائلتي ، ولأجيال تعاقبت ، ضربوا ايضا . ان ضرب الرأس بهراوات الحديد... يصعب النجاة منه . لقد رسخ ذلك فينا ولأجيال ... الخوف الاجتماعي . إنني مصعوق بالخوف الاجتماعي»^(١).

يوجد سكان مملكة الخوف طرقا خاصة للتعبير عن نغماتهم وسخطهم . فهم يتوقفون عن العمل . لقد طور الاشتراكيون في القرن التاسع عشر اسلوب «الاضراب العام» ، كسلح فعال في مواجهة الرأسمالية : فتشابه أيدي العمال يجبر الرأسماليين على تقديم التنازلات . إن حلم «الاضراب العام» تحقق لأول مرة بشكل كامل في الدولة الاشتراكية الاولى في العالم . «فالشعب فقد ايمانه ، الشعب توقف عن العمل» ، هذا ما عبر عنه احد مندوبي المؤتمر التاسع عشر للحزب ، ف . ستارو دوبيتسيف في معرض تشخيصه للموضع^(٢) . الشعب توقف عن العمل ! وهذا ما لم يجرؤ إشتراكيو القرن التاسع عشر على الحلم به . تذكر مقالات عديدة في الصحف والمجلات امثلة مذهلة ولكنها لا تثير الدهشة باعتبارها امرا عاديا تظهر ان الجميع ، في كل مكان ، يعملون بقله اكثرا شديدة . فإنفجار تشيرنوبيل ، و منازل سبيتال التي بنيت على الرمال ، وليس على الاسمنت ، والتي انهارت كقصور من الورق ليست الا شواهد معبرة .

يعلن احد مندوبي مؤتمر الحزب أن «الشعب توقف عن العمل» . ولكن من هو هذا الشعب ؟ بمن تتكون هذه «القاعدة» التي «لم تعد تريد» وتعبر عن موقفها هذا برفضها للعمل ؟ تعرض تاتيانا زاسلافسكايا «استراتيجية تسير اجتماعي للبريسترويكا» ، تركز الى تحليل دقيق لبنية المجتمع السوفيياتي . وتميز بين احدى عشرة فئة اجتماعية . تمثل «القوى الكبرى للبريسترويكا» : ١ - الشريحة «المتنورة» أخذوا بالاعتبار التأهيل المهني وعلى المستوى الاجتماعي والسياسي للطبقة العاملة ؛ ٢ - الشريحة القاعدية ، الاكثر عددا ، من العمال المتوسطي الكفاءة ؛ ٣ - شريحة العمال المفسدين بمدخيل يحصلون عليها منذ مدة طويلة ولا يستحقونها ويقدمون للمجتمع اقل مما يأخذون منه ؛ ٤ - فلاحو الكوخرزات ؛ ٥ - الانتلجنسيا العلمية والتقنية (اختصاصيو الاقتصاد ، باحثو علوم وتقنيات) ؛ ٦ - المسؤولون الاقتصاديون عن انتاج السلع

المادية؛ ٧- العمال المسؤولون عن التجارة والخدمات المخصصة للشعب؛ ٨- صغارة
المقاولين الاشتراكيين؛ ٩- الانتلجنسيا الاجتماعية والانسانية (مربين، اطباء،
صحافيين، كتاب، فنانين، باحثو علوم اجتماعية وانسانية)؛ ١٠- العمال المسؤولون
عن جهاز الادارة السياسي، بتعبير آخر الاجهزة الاجتماعية والدولة؛ ١١- القادة
السياسيون للمجتمع. وتضيف عالمة الاجتماع الى هذه اللائحة، محاولة عدم نسيان اي
قوة، «فئات الجريمة المنظمة، والتي تضم موظفين فاسدين في جهاز الادارة، اصحاب
اعمال في اقتصاد الظل، عمال مسؤولون عن التجارة والخدمات، وفئة من العمال
والمستخدمين الذين خرجوا عن الطريق المستقيم»^(٣).

باستثناء «مجموعات الجريمة المنظمة»، او المافيا كما درجت العادة على تسميتهم
في الاتحاد السوفياتي، فإن كافة الفئات الاجتماعية التي ذكرت تعتبر ساخطة، وغالبيتهم
الكبيرة تعمل بشكل سيء. إرتكز التفاؤل التاريخي الذي إتسمت به الايديولوجية
السوفياتية ولسنوات خلّت الى الشعار اللينيني المشهور: «ان الانتاجية، هي في التحليل
الاخير، العامل الاكثر اهمية، بل أساس انتصار النظام الاجتماعي... وبالامكان
الانتصار على الرأسمالية كمحصلة، لأن الاشتراكية تخلق انتاجية جديدة اكثر
إرتفاعاً...»^(٤) يكتب أحد مفكري الاستراتيجية الاقتصادية للبريسترويكا، في صيف
١٩٨٦، أيل أغنيغيان قائلاً: «ان مستوى الانتاجية عندنا، هو أقل من نصف مثيله
في الولايات المتحدة»^(٥). ووفقا لبعض المصادر الاكثر جدة: فإنه الانتاجية السوفياتية
تمثل قرابة ثلث المردودية الاميركية، وفي المجال الزراعي لا تتجاوز نسبة ١٥٪^(٦).

ان الانتاجية متدنية الى حد كبير. كذلك الامر بالنسبة لنوعية المتوجات الرديئة الى
حد ان السوفيات رفعوا هذا الشعار الغريب: «النضال من أجل النوعية». «ما قيمة
السلعة دون نوعية جيدة؟» يشير الكاتب الهزلي ميخائيل جفانتسكي. «وما هي هذه
الجنة الرديئة النوعية؟ أليس هناك جنة؟ أم إنه لم توجد جنة بعد؟» كما نشرت جريدة
البرافدا إفتتاحية تحت عنوان: «تجربة في المواصلات. الهدف: سلموا البضاعة المطلوبة
في الوقت المحدد ودون خسائر»^(٧). هذا الهدف الذي كان في اساس انشاء السكك
الحديدية منذ مائة عام، أضحي موضع تجربة في بلد الاشتراكية الناضجة. وتكتب
الجريدة ذاتها وهي وسيلة الاعلام المركزية للحزب، «وتشكل نوعية اجهزة التلفزيون
الملون نقطة ضعفها». وهي تتجنب الإشارة الى مميزات هذه الاجهزة، ولكنها تعلن ان

وزير صناعة وسائل الاتصال، المسؤول عن انتاج اجهزة التلفزة، بمضاعفة متانتها ٣٠٠٪ في علم ١٩٨٥، ولكنه لم يتحقق من وعده الا ما نسبته ١,٣ مرة^(٨). وفي عام ١٩٨٩، تم عرض مجموعة من السلع الرديئة في معرض إنجازات الاقتصاد السوفياتي الذي دشنته ستالين ووضع فوقه تحت حماية العامل والكولخوزية، منحوتة العامل الشهير لفيروموخينا لم يثر ذلك دهشة الزائرين، لانه ما وجدوه في المعرض هو ما يرونه يوميا في المحلات. الشيء الوحيد الذي اعطى بعض الدينامية للجمهور، تمثل في اكتشاف فأرة في إحدى زجاجات المياه المعدنية؛ وهذا ما يصلح لانه يكون شعار المعرض.

تنطبق مقولة «النوعية الرديئة» على نشاط كافة الفئات الاجتماعية: العمال، الكولخوز، الموظفون، الاطباء، المعلمون، الكتاب، البحاثة، الذين يعملون ببطء ويشكل ميء. يكتب قارئ لصحيفة ازفستيا قائلا: سحقت المانيا تحت الدبابات، ودمرت اليابان بالقنابل الذرية، ونحن، بلد النظام الاجتماعي المتقدم، الذي يملك موارد طبيعية وانسانية ضخمة، البلد المتصغر، نعيش وضعاً أدنى من الآخرين^(٩).

يعيش الشعب السوفياتي بشكل سيء. هذا التأكيد، سمح، المختصون الغربيون حديثا به لأنفسهم دون الخوف من إتهامهم «بمعاودة السوفيات»، و«بمعاودة التقدمية»، وتخريب «التعاش». فقد أدى السماح بذكر بعض الارقام الحقيقية عن وضع المواطنين السوفيات، بعد اعلان «الغلاسنوست»، بدفع عدد كبير من كتابات الخبراء الى هامش المكتبات. على سبيل المثال، كتب في عام ١٩٨٠ سوران بيبالير، وهو من أبرز المختصين الاميركيين بالاتحاد السوفياتي، مقبلا عصر بريجنيف قائلا: «انني أرى في سنوات الستينات والسبعينات مرحلة مميزة في التاريخ السوفياتي. ومن المرجح ان يعتبرها المؤرخون في المستقبل من افضل المراحل التي مر بها البلد وأكثرها اشراقاً. اذ انها المرة الاولى التي استطاع فيها هذا المجتمع ان يتتج المدافع والزبدة، ويرفع مستوى المعيشة وان بشكل محدودة ويبلغ مرتبة التوازن العسكري مع الغرب. واذا كان صحيحاً ان هذا البلد يواجه جملة من المشاكل، غير ان أي منها لم يؤد الى توليد أزمة مع النظام. بالاجمال، انها مرحلة مميزة في تاريخه، وغير قصيرة. فقد استمر بريجنيف في مركزه لفترة اطول من تلك التي امضاها روزفلت، إنها عصر بكامله^(١٠).

لقد أصاب المختص الاميركي بشؤون السوفيات جانب الحقيقة في تأكيد لبلوغ

الاتحاد السوفياتي مرحلة التوازن العسكري مع الولايات المتحدة، خلال حكم بريجنيف. وكان باستطاعته ان يضيف بان في هذا «العصر» حقق الاتحاد السوفياتي «إمبراطوريته الثالثة»، في آسيا، وأفريقيا وأميركا اللاتينية. اما فيما يخص باقي ادعاءاته فانها مجرد تصورات غذتها الاحصاءات السوفياتية المرفوضة بدورها، من قبل احصائي الاتحاد السوفياتي انفسهم. خاصة ذلك الادعاء الاشد غرابة والذي يشير الى حل الاشكالية الابدية «الزبدة والمدفع».

في عام ١٩٢٨، طلب بطل رواية (المتحر) نيكولاي إردمان من السلطة السوفياتية السماح له بالقول: «إننا نعيش بصعوبة». ويضيف مؤكدا بان «الحديث عن حياتنا الصعبة يجعل سبل العيش اكثر سهولة» وان هذا الالتباس لم يسمع الى بعد ستين سنة. فإمكانية التحدث عن الصعوبات فتحت الباب أمام الانتقادات: ففي أعمدة الجرائد والمجلات، والراديو، والتلفزيون، ويطرح فيض من الوقائع، والارقام، والشواهد حول الحياة في الاتحاد السوفياتي. وكل منها يرمي الى تعرية كافة التأكيدات الرسمية السابقة، فكل كلمة سبق ان تفوه بها سوفارين عام ١٩٣٨، وجدت ما يؤكد لها بعد نصف قرن: ان الخطط الخمسية، والاحصاءات، والحسابات، الختامية، ما هي الا اكاذيب. كذلك الارقام والبيانات، والسلف، والاكتابات، حتى الصور هي اكاذيب. اما بالنسبة للشهود والشهادات فإننا امام شهود غير صادقين يدلون بشهادات زائفة...» (١١).

من الوهم أن نعتقد اليوم، في عصر «الغلاسنوست»، بأن ما يقال هو الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. لقد تم ترتيب كل شيء بهدف عرقلة سيل المعلومات الصحيحة، ومزجها بالباطل، وتكييفها مع متطلبات اللحظة. فمن الوسائل الفعالية للحد من «النقاش» الدائر حول المصاعب اليومية، تبرز وسيلة السماح بمنشورات معينة في الصحف والمجلات، والنشريات الظرفية، ومنع ظهور الاعمال المنفصلة. كذلك فإن المكتب غالباً ما تلقى مصير النشرة الاحصائية المعنوية: السكان ١٩٨٧. ف لأول مرة منذ ستين عاماً، يتم السماح بنشر مؤلف يعنى، بجدية كبيرة، بمعالجة المشاكل الديموغرافية في الاتحاد السوفياتي ويقدم مجموعة من المعلومات حول نسب الولادات، والوفيات، والسكان، الخ. غير ان المعدلات السكانية جرى احتسابها على قاعدة الاحصاء السكاني الذي تم في عهد ستالين، عام ١٩٣٩، هذا الاحصاء الذي

نعلم انه مزور. على ضوء ذلك فإن كافة المعطيات المرقمة تفقد معناها. كما يسجل فقدان الارقام المتعلقة بالاعوام: ١٩٢٥، و ١٩٢٧-١٩٣٨، و ١٩٤١-١٩٤٩.

بالرغم من التعقيدات الحاصلة، فإن سبل المعلومات المعلنة، وإن كان لا يضيف شيئاً بالنسبة لما هو معروف في الغرب، فإنه يؤكد وجود الأزمة. «بعد كل حساب، يؤكد أحد الاقتصاديين، من غير الممكن القبول بهذه الوضعية، حيث البلد الأكثر غنى في العالم بموارده الطبيعية يعيش في ظل ظروف من الندرة الدورية ويتصف بإحدى أدنى مستويات المعيشة في أوروبا» (١٢).

لا يعتبر مستوى المعيشة في الاتحاد السوفياتي من أدنى المستويات في أوروبا وحدها، بل في العالم كله. فعلى قاعدة حجم المواد الغذائية والخدمات الموضوعة بتصرف المستهلك، فإن بلد «الاشتراكية الناضجة يحتل المرتبة الخمسين أو الستين (وذلك وفقاً للعناصر المعتمدة كنقاط مقارنة)» (١٣). ويبدو أن قاعدة الاقتصاد السياسي الاشتراكي المعتمدة في كافة بلدان المعسكر الاشتراكي قد صيغت في نفس الوقت: يتظاهرون بالدفع لنا ونحن نعطي الإيحاء بأننا نعمل. إن صوابية الشق الأول يؤكداه أحد الاقتصاديين السوفيات، عندما يشير إلى حصة حجم الاجور من الناتج الوطني في البلدية المتطورة. ففي الولايات المتحدة، بلغت ما نسبته ٦٥٪ عام ١٨٧٠ و ٦٤٪ عام ١٩٨٠. أما في روسيا فقد بلغت قرابة ٨,٥٤٪ عام ١٩٠٨ و ٥٨,١٪ عام ١٩٢٨ السنة الأخيرة من سياسة الـ NEP، ثم تراجعت عام ١٩٨٥ لتتقارب ما نسبته ٦,٣٦٪ (١٤). ويبرر وزير المال في الاتحاد السوفياتي بوريس غوستيف، معارضته للتعاونيات، حيث يمكن كسب قرابة الالف روبل في الشهر بواقعه: «إن العامل الذي يشتغل لمدة عشر ساعات في اليوم لا يتجاوز أجره الشهري مائتي روبل» (١٥). يبالغ الوزير قليلاً بالنسبة للساعات العشر ولكنه يقول الحقيقة بالنسبة للأجر. فمتوسط الأجر مع الاتحاد السوفياتي كان بحدود ٢٠٥ روبل عام ١٩٨٨؛ وفي صيف ١٩٨٩، إرتفع إلى ٢٣٦ روبل. في الفترة نفسها إرتفع دخل أجراء الكولخوز من ١٥٣ روبل إلى ١٦٦ روبل في الشهر. ويبدو، والحالة هذه، أن لوحة الأوراق المالية تعمل بوتيرة متسارعة.

وبإمكاننا أن نفهم شكل أفضل ما يمثله متوسط الأجر السوفياتي، إذا عرفنا أن

عتبة الفقر في الثمانينات، أو «الرفاه الضعيف» وفق اللغة السوفياتية، كان بحدود ٧٠-٨٠ روبل حسب الخطة وبأنه سيبلغ ١٠٠ روبل في الشهر وللشخص الواحد في المدى القريب. وتشير الأرقام الأكثر جدة إلى وجود «عشرات الملايين من الأشخاص» (لا وجود لرقم دقيق) الذين يحصلون على دخل أقل من ٧٥ روبل في الشهر^(١٦). وتضم البلاد ٨٥ مليون متقاعد. وينال العامل المتقاعد أو المستخدم ٨٤ روبل في الشهر، أما في حالة الكوخوز فإن الدخل يبط إلى ٥٣ روبل. جميع هؤلاء يعيشون دون حافة الفقر، أو في أحسن الأحوال على حدودها. في الأول من تشرين الأول عام ١٩٨٩، ارتفع المعاش التقاعدي من ٤٥ إلى ٦٠ روبل، ووفقاً للمعطيات الرسمية. فإنه ما نسبته ٤١ مليون شخص، في عام ١٩٨٩، من سكان الاتحاد السوفياتي ينالون أجوراً شهرية أقل من الحد الأدنى الضروري (٧٨ روبل)^(١٧). بالمقابل وفي الولايات المتحدة، حيث تبلغ عتبة الفقر السنوية ١١٦١٢ دولاراً لعائلة مؤلفة من أربعة أفراد فإن عدد الأشخاص الذين تشملهم هذه الوضعية بلغ عام ١٩٨٧، ما مجموعه ٣٢,٥ مليون شخص^(١٨).

تخفي المتوسطات الرقمية أكثر مما تظهره من الوقائع فهناك عائلات سوفياتية لا يتجاوز مدخول الشخص فيها، شهرياً، الـ ٤٠ و ٣٠ واحياناً الـ ٢٠ روبل^(١٩).

مضى وقت، كان فيه السوفيات يضحكون من هذا التعبير: في الاتحاد السوفياتي، لا يوجد شيء ولكنه لا شيء غالي الثمن؛ وفي الغرب، يوجد كل شيء، ولكن ثمنه يساوي العينين. وتظهر الاحصاءات الراهنة، ان لا وجود لشيء، ولكن هذا اللا شيء يساوي ثروة. يظهر احد الاقتصاديين السوفيات، ان العائلة الاميركية تصرف ما نسبته ١٥٪ من ميزانيتها ثمن غذاء، أما العائلة الفرنسية فتصرف ٢٥٪، فيما تصرف العائلة السوفياتية ما نسبته ٧١٪ من دخلها ثمن الغذاء^(٢٠). في مناسبة الذكرى المثوية الثانية للثورة الفرنسية، تم الدخول الملوي لكلمة «عجز» إلى القاموس السوفياتي. إذا كانت ملكة فرنسا ومنذ مائتي عام تستحق لقب السيدة عجز، الا يستحق اليوم الامين العام لقب الرفيق عجز. تطاول الندرة في البداية، السلع الغذائية. بالاضافة إلى ذلك، وبشكل غامض، يلحظ ان أزمة التموين تزداد تفاقم منذ خمسة اعوام. والدليل الابرز توفر في خريف ١٩٨٨، عندما كان غورباتشوف في زيارة إلى سيبيريا، حيث استقبل من المواطنين المطالين بالتناقض. وفي الأزمنة القربية، لا يتوقف غورباتشوف مرتباً

عن ترداد ما يلي : «لماذا إحتفظنا في ذاكرتنا بصورة الوفرة في المخازن، في حين اننا اليوم لا نرى الا نقص المواد الغذائية في كل مكان؟ في تلك المرحلة (٢١)، كنت الامين الثاني للجنة الحزب في منطقة ستافروبول، وبتعبير أدق مسؤول الصناعة الخفيفة والغذائية. ويتذكر السوفييات المشاكل التي كنا نواجهها على الجبهة الاقتصادية : لم نكن نعرف ماذا نصنع بالزبدة . . . في ضوء ما تقدم أسألکم ايها الرفاق! ماذا جرى؟» (٢٢). ونستطيع ان نرد له السؤال : بعد كل هذا، فإنه هو الذي كان يشرف لسنوات خلت على الزراعة السوفياتية، وهو الذي يتولى مقاليد البلاد منذ خمسة اعوام. ولكن الأمين العام يطرح السؤال على «الرفاق». وبدورهم يجيئون بأشكال مختلفة. خلص المعهد الوطني للعرض والحال الاقتصادية، في دراسة أجراها حول اوضاع الصنف الاول من عام ١٩٨٨، الى الاتي: انه المستوى الحقيقي لاستهلاك المنتجات الغذائية أقل بكثير مما هو مطلوب ومتخلف كثيراً بالنسبة للبلدان المتطورة. . . ومتوسط سعر الخبز بالمفرق، واللحم، والفواكه والخضار يتجه نحو التصاعد. . . كما ان نقص المواد الغذائية والفروقات في كمية الاستهلاك (حسب المنطقة والفئات الاجتماعية) يتصف بالسلبية بشكل متزايد. . . وتصيب حالات الندرة الحادة في المواد الغذائية المدن الصغيرة التي تشكل ٧٥٪ من اماكن السكن في البلاد. اما حالات الندرة الاقل فتصيب المدن الكبرى (اكثر من ١٠٠ الف مواطن)، اي ما نسبته ١٣٪ من اماكن. السكن فقط» (٢٣).

ويلاحظ المواطنون ان المواد الغذائية الاساسية لحم، زبدة، سكر- يستمر بيعها، بعد اربعين سنة من الحرب، بواسطة بطاقات التموين. هذه البطاقات تغطي ثلث مناطق جمهورية روسيا بالنسبة للحوم، وحيث لا تستعمل، فإن ذلك يعني انعدام وجود اللحوم. وفي مدينة موسكو نفسها اعطيت بطاقات للحصول على السكر (٢٤).

تصوغ «ألقة» رداً على سؤال غورباتشوف، اجوبة عادية. ففي مقابلة اجرتها الكسندرا بيريوكوف، أمينة اللجنة المركزية المكلفة بشؤون التموين، مع مراسل البرافدا تؤكد: ان اللجنة المركزية للحزب والمكتب السياسي لديها النية الاكيدة في تأمين احتياجات السكان. وتضيف: «اننا نعالج المشكلة بيد قوية» (٢٥). بعض الاحصائيين يؤكدون ان سبب الندرة مرده الى غياب «البنية التحتية: المخازن، والباعة، ولهذا السبب، نلاحظ طواير الانتظار الكبيرة. وتظهر بعض المعطيات الحديثة ان المواطنين السوفييات يخسرون في هذا السباق ما مجموعه ٦٥ مليار ساعة في السنة» (٢٦).

ويعرض البعض ومنهم غورياتشوف ان السوفيات يأكلون كثيرا، الامر الذي يؤدي الى حدوث الندرة. ويرى الامين العام ان في أساس الازدياد المفاجيء للاستهلاك، نمو القدرة الشرائية وميل «الملايين من الاشخاص راهنا، نحو استهلاك سلع ذات نوعية عالية (لحوم، حليب، زبدة)، كانت فيما مضى محجوبة عنهم». والارقام الدالة على ذلك هي: يستهلك الفرد في عام ١٩٨٧، قرابة ٦٤ كلغ من اللحم، و ٣٤١ ليتر من الحليب، ١٨ كلغ من السمك و ٢٧٢ بيضة (٢٧). يكشف ان أندريه أورلوف، مدير معهد الطلب والحالة الاقتصادية، زيف هذه «المتوسطات الرقمية» بإظهاره للفوارق الكبيرة بين استهلاك «الأغنياء» (دخل أعلى من ٢٠٠ روبل للشخص) و«الفقراء» (أقل من ٥٠ روبل)، ويضيف قائلا: «يوجد عندنا ١٠ ملايين شخص، لا يستهلكون إلا ٢٠٠ غرام زبدة في الشهر، ١,٧ كلغ من اللحوم، و ٣٠٠ غرام من السمك، و ٥ ليتر من الحليب» (٢٨).

تتسم هذه التفسيرات بالعقلانية الى حد ما: و «البنية التحتية» هي في الواقع ضعيفة، وآلية التحضير سمحت لسكان المدن الجدد اكتشاف وإختيار منتجات غير معروفة في الارياض. غير ان هذه «العوامل الموضوعية» لا تفسر تدهور الاوضاع منذ عدة سنوات واتجاهها للتفاقم يوما بعد يوم، ففي مطلع السنة الجديدة ١٩٩٠، كتبت الصحف: لا وجود للسكر، أولمقاتق، ولا للبطاطا، أما الصابون ومسحوق الغسيل فقد إختفى من السوق، كذلك الامر بالنسبة لـ «المبات» الكهربائية ومعجون الأسنان . . .

في ضوء الأسباب العديدة التي أدت الى تفاقم مشاكل التموين، لننظر في الاجراءات التي اتخذت من أجل المعالجة. لم تؤد الاوامر المعطاة بشكل غير مدروس الا الى مزيد من الفوضى المعروفة في الادارة السوفياتية. وليس مصادفة ان يكون التعريف الأكثر دقة للجهاز السوفياتي، مع زمن البريسترويكا، هو بيت عام يندلع فيه الحريق في أيام الفيضان. فالاصلاحات يتم التحضير لها وتطبيقها دون يقين. فلا يتم الاقتراض بان النتائج قد تكون سلبية. وعندما يحصل ذلك تتضاعف الشكوك حول فائدة الاصلاحات. طبعاً، يدرك الاقتصاديون ان لا مناحة من احداث اصلاح جذري للأسعار من أجل مواجهة التغييرات الضرورية، ولكنهم يخافون ان يؤدي ذلك الى انهيار مريع لمستوى المعيشة عند شرائح «الرفاه الضعيف» من السكان. تعتبر العصا والجزرة

الوسيلتين الأساسيتين لدفع الانسان نحو العمل. لقد تخلت البريسترويكا عن العصا، ولكن الجزرة لم تزرع بعد.

يشكل تدهور الوضع الغذائي العلامة الأكثر وضوحاً الدالة الى مقاومة النظام للبريسترويكا. ويشخص الفيلسوف فياتشيسلاف كاريفوف المسألة قائلاً: «تعتبر الندرة بكافة اشكالها، ضرورة لمجتمع راكد، لأنها تمنع الوعي المتحرر من ضعضة القاعدة»^(٢٩). هذه الملاحظة لا تحمل الا خطأ واحداً خاصاً بمرحلة بريجنيف. ولكن تاريخ الاتحاد السوفياتي يبرهن ان الندرة هي معطى ملازم للاقتصاد السوفياتي وللايديولوجيا ايضاً، بإستثناء بعض سنوات الـ NEP. لنستعيد العبارة التي قالها الفيلسوف البولوني ليسيك كولا كوروسكي: «ان البؤس هو الروح القاتلة للشيوعية» فمقاومة اقتصاد البؤس المراقب، أو اقتصاد الندرة كما يقال اليوم، لاصلاحات غورباتشوف، لا تعود الى كون هذه الاصلاحات جذرية بل لكونها سطحية ولا تمس بنى النظام. فضعف الاصلاحات هو القوة المتحركة للمقاومة. كما ان رفض الندرة يعني تأكيد ارادة التغيير الشامل. غير ان «القمة» لا تريد تغيير نظام يسمح لها بالبقاء في «القمة». ولا ترغب ايضاً في اجراء اصلاح جزئي، لأن نظام القيادة قد ضعف. بالمقابل، تقاوم «القاعدة» التغيير، لخوفها من ازدياد الوضع تدهوراً. وفي دراسة اجرتها زاسلافسكايا حول موقف الفئات الاجتماعية الاحدى عشرة من «البريسترويكا»، إستنتجت ان القاعدة الاجتماعية لـ «البريسترويكا» محدودة جداً. والطبقة العاملة، كما ترى عالمة الاجتماع تمثل «الفئة القائدة الأكثر عدداً في مجتمعا»^(٣٠). و «البريسترويكا» تستجيب بشكل اجمالي لمصالحها. ولكن الواجهة السلبية للتغيير والمتمثلة بارتفاع الاسعار، ونقص الاستخدام الناجم عن الغاء مراكز وظيفية غير مربحة أو غير مفيدة، يؤدي الى تقلص إنصار البريسترويكا الى حدود الشرعية «المتنوعة» من الطبقة العاملة: فالتحولات الجارية تؤذي بشكل محدود «العمال المؤهلين، والمتجنيين، القادرين على اطلاق المبادرات والنشيطين سياسياً». في حين ان الشريحة الأكثر عدداً بين العمال، من ذوي التأهيل المتوسط أو «مستخدمي المؤسسات والادارات صاحبة الامتيازات» (خاصة الصناعة العسكرية)، الذين يحتلون وظائف غير مربحة، ويماكنهم الحصول على مداخيل غير شرعية، او انهم قد إعتادوا على العمل غير الجاد، فإنهم ضد «البريسترويكا»، لما تسببه من خطر على إستقرار حياتهم وتدهور في

أوضاعهم^(٣١). تشير زاسلافسكايا الى ان فلاحى الكولخوزات، يجنون مكاسب هامة في ظل «البريسترويكا». وبالرغم من ذلك فإن «البريسترويكا» تثير مخاوف جدية لدى البعض منهم». فالتقارير الاقتصادية الراهنة لا تساوي شيئاً، لأنها لا تعطي لفلاحى الكولخوزات أية حقوق. بالمقابل، فإنهم يتمتعون ببعض الضمانات الاجتماعية، على محدوديتها، فهم ليسوا مسؤولين عن نتائج عملهم وبالتالي مجهلون المخاطر الاقتصادية^(٣٢). أما بالنسبة للانتلجنسيا العلمية والتقنية، أهل «التقنوقراط»، الذي يعلق عليهم الجزء الغريبون الكثير من الامال، فإنهم وفق ت. زاسلافسكايا يحصلون على مكاسب هامة في ظل «البريسترويكا». غير ان الوعي الاجتماعي لهذه الفئة «شديد الشكوك»، فالعديد من الاختصاصيين «لا يعتقدون بأن من الممكن كسر آلية الكبح»^(٣٣). فجزء لا يستهان به من الانتلجنسيا العلمية والتقنية «إعتادت على الجلوس في أماكن دافئة وان كانت صغيرة، والحصول على مداخيل ثابتة، وعدم تحمل المسؤولية عما تقدمه من عمل».

اما فيما يخص موقف فئة المسؤولين الاقتصاديين، اي مدراء المؤسسات، وتجمعات الانتاج، وتنظيمات البناء والنقل، والسوفخوزات، والكولخوزات، وبإختصار، كافة المشرفين مباشرة على تسيير الحياة الاقتصادية للبلاد، فهم بغالبيتهم ضد «البريسترويكا». وتفرض زاسلافسكايا نتائج إستطلاع رأي حول السؤال: الى اي حد يمكننا الاقتناع بإمكانية الوصول الى نتائج ايجابية من خلال الاصلاح الاقتصادي؟ فقط ٩٪ من الاشخاص الذين طرح عليهم السؤال، اجابوا «مقتنع الى حد بعيد» و ٤٩٪ اجابوا بانهم مقتنعون «جزئياً»، و ٢١٪ اجابوا «بلا» و ٢١٪ ايضا لم يعطوا رأياً. كما ان ما نسبته ٨٢٪ من ممثلي هذه الفئة يعتبرون ان مشاريع الاصلاح على مستوى المؤسسات تم تحضيرها بشكل سيء أو أنها لا تنطوي الا على خطوط عامة^(٣٤). بموازاة ذلك، فإن المسؤولين الاقتصاديين ينالون اليوم رواتب جيدة ويتمتعون بمروحة واسعة من الامتيازات. في حين أن الاصلاحات تعني ضرورة تغيير عاداتهم، وان يظهروا مبادرة أكبر، ويتحملوا المخاطر وتزداد المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

يظهر العمال المسؤولون عن التجارة، والتموين الاجتماعي والخدمات، عدائية صريحة ضد البريسترويكا، فهذه الفئة، هي التي تقود، في الممارسة، سياسة الندرة وتستعيد بشكل واسع لمن الامكانيات التي يوفرها البؤس المراقب من يراقبونه، اما

فئة «صغار اصحاب الاعمال الاشتراكيون» فهم ثمرة «البريسترويكا»، التي أجازت «النشاط الفردي والعائلي»، او التعاوفي. لذا نجد فيهم حلفاء «البريسترويكا». كما تؤكد ت. زاسلافسكايا. مع تمييزها داخل هذه الفئة «جنح يطمح الى الفن السريع، والذي غالبا ما يكون على حساب القانون والاخلاق» (٣٥).

بالانتقال الى دراسة موقف الانتلجنسيا الانسانية والاجتماعية (مربين، اطباء، عاملين في حقل الفن والثقافة، بحاث في العلوم الانسانية والاجتماعية) نجد انفسنا امام فئة من المفترض ان تشكل دعامة قوية للبريسترويكا. الا أن ت. زاسلافسكايا تستنتج ان لهذه الفئة عدة نقاط ارتباط مع «الزمن السابق للإصلاح». فالشيء الذي لم تتم الالتفاتة اليه، هو ان عمل الاطباء والمدرسين كان من نتيجة في «مرحلة الركود»، بروز ظاهرة الفساد: فالخدمات المقدمة لا تتم دون مقابل كما لو أنها عمل خاص. الامر الذي سهل نشوء «نسق منظم للابتزاز، يقضي بفرض رسوم للاستشفاء، والامتحانات، والعمليات الجراحية، الخ...» (٣٦) وغدت الطبابة السوفياتية المجانية بشكل علني - وان كان غير رسمي - مدفوعة الثمن. هذا «النسق المنظم للابتزاز» نجده في المدرسة ايضا. بالمحصلة، لا تنسى هذه الانتلجنسيا انها مسؤولة جزئيا عما آلت اليه «الوضعية الراهنة للمجتمع»، كما ان قسماً منها لا يريد ان يغير شيئاً. اما بالنسبة لـ «البحاث في علم الاجتماع واولئك الذين يعملون في المجالات الايديولوجية، فإنهم مشدودين الى تصرفات وكتابات سابقة. وهذا ما ييني، كما ترى ت. زاسلافسكايا «احد العوامل الاساسية المفسرة لنزعة المحافظة التي تبديها شريحة هامة من الانتلجنسيا الانسانية والعلمية» (٣٧).

تحيا فئة العمال المسؤولين من الادارة والجهاز، أي من جرت العادة على تسميتهم بالـ «نومانكلاتورا»، «بطريقة أفضل من غالبية السكان»، وتتمتع بـ «امتيازات مادية، واجتماعية، وثقافية هامة». فضلاً عن ذلك، «فإن رجال الجهاز كانوا ابان مرحلة الركود يستحوذون على سلطة سياسية كبيرة». أخيراً، فإن العمال المسؤولين عن الجهاز هم بلا شك «المدافعين الأشداء عن الافكار التي كانت مهيمنة في مرحلة الجمود» (٣٨). فالجهاز لا يستطيع إلا ان يعارض الـ «بريسترويكا»، التي تهدده بانتزاع جزء من إمتيازاته. ناهيك عن طمأنينته، هذا دون الكلام عن خطر رجال المعلم الجديد الساعين الى احتلال مراكز شغلها آخرون لمدة طويلة.

تنتقل ت. زاسلافسكايا، بعد استنتاجها بأن غالبية الفئات المكونة للمجتمع السوفيياتي لا تريد التغيير، الى تحليل موقف الفئة الاخيرة (الاولى؟)، والمتمثلة بالمسؤولين السياسيين وممثلي السلطة العليا وقادة الحياة السياسية. وتتميز عالمة الاجتماع بين المجموعات التالية: الاعضاء الاصليين والاحتياطيين للجنة المركزية، نواب مجلس السوفييات الأعلى في الاتحاد السوفيياتي، والوزراء، الجنرالات، طبقة الدبلوماسيين - العليا، مسؤولي الحزب والسوفيئات في مختلف الجمهوريات، والمناطق والمدن الكبرى. ويكلمة مختصرة تضم هذه الفئة كافة المواقع (نومانكلاتورا) التابعة للجنة المركزية والمكتب السياسي الى هؤلاء تعود سلطة قيادة البلاد.

هل يطمح هؤلاء للتغيير؟ وهل لهم حاجة «لبريسترويكا» التي اطلقتها «القمة»؟ تكشف ت. زاسلافسكايا وجهي سلوك اعضاء المجموعة القائدة: المتغير الاجتماعي والمتغير الشخصي. فالمصلحة الاجتماعية تقضي بضرورة «اخراج المجتمع السوفيياتي من الركود، وتسريع نموه الاجتماعي والاقتصادي، ومضاعفة قوته وتأمين قدرته على الدفاع». في حين ان المتغير الشخصي يدفع باتجاه «الحفاظ على مراكزهم وسلطتهم والعمل على تقويتها» (٣٩).

من المنطقي والحالة هذه ان يحصل التعارض بين من يضعون المصلحة الاجتماعية مع المرتبة الاولى وبين من يدافعون عن مراكزهم. وبتعبير آخر، بين الثوريين والمحافظين. الامر الذي يعني فتح باب الصراع من اجل السلطة. هذا الواقع أوحى لزاسلافسكايا باكتشاف: ان الصراع من اجل السلطة (بما في ذلك بين الاشخاص)، الذي يخترق تاريخ الانسانية، لا يتوقف مع بلوغ مرحلة الاشتراكية، وفي هذا الصراع نجد ان المصالح الاجتماعية يحملها «م. غورباتشوف، ومستشاروه الاقربون، وبعض القادة الآخرون». وهم يمتلكون، بإعتراف الشعب نفسه، صفقات مميزة: «إحاطة معرفية عالية في الميادين السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وشجاعة مدنية كبيرة، وإرادة حازمة وقناعة راسخة بان «البريسترويكا» هي ضرورة تاريخية» (٤٠).

كتب لينين، في بداية القرن قائلًا: ان دائرة الثوريين ضيقة جدا. ويستخلص من تحليل ت. زاسلافسكايا، ان دائرة الثوريين الذين اطلقوا البريسترويكا هم اليوم قليلو العدد. انهم قمة «القمة». وبين الصفات التي يملكونها او التي يملكها (لانه الوحيد

الممكن تسميته)، نتذكر المعارف العليا، والشجاعة الكبيرة، والقناعة الراسخة، والارادة الحازمة. وتطرح الصفة الاخيرة. فائدة أكيدة، لانها من الصفات الاساسية لامين عام سابق. فقد أعلن غوركي ، في آب ١٩٣٤ ، إبان انعقاد المؤتمر الاول لاتحاد الكتاب ما يلي: «نأخذ الكلام في بلد . . . حيث تعمل، صانعة المعجزات التي لا تكل : الارادة الحديدية لجوزيف ستالين».

واذا كان «م. غورباتشوف، ومستشاروه الاقربون، وبعض القادة الآخرون» يشكلون قمة الهرم السوفياتي ، فإن المنطق السليم يفترض ان كافة المجموعات الاخرى، تحتل المراتب الادنى وتمثل «قاعدة» الهرم. واذا ما قلبنا راهناً الهرم، فإن القمة تصبح هي القاعدة، اي اساس البريسترويكا، كما يشهد تحليل زاسلافسكايا في الواقع، لا يمكننا الاقتناع بهذه اللوحة، فمن المبالغة، التأكيد بأن جزءاً اساسياً «من النواة القائدة للحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»^(٤١)، تعي ضرورة تغيير اساليب الحكم وما اصاب السلطة المركزية من ضعف. اي ان الخلافات لا تتجاوز حدود إيقاع التغييرات، التي يفرضها الصراع من اجل السلطة قبل اي شيء آخر.

بالمحصلة: يسود الإستياء المجتمع ككل. هذا ما أعلنه غورباتشوف في بداية عام ١٩٨٨ قائلا: «يجب البعض البريسترويكا خاصتنا. فهم يضعون امامها العراقيل. ويجهدون لزرع بذور الشك في الضمائر: هل بنا حاجة لهذه «البريسترويكا؟» فنحن نفرض على الطبقة العاملة التمويل الذاتي وتحمل المسؤولية تجاه الدولة. ونقنن مبيع «الفودكا». ونسيء للانتلجنسيا باخضاعنا العلم للتمويل الذاتي. ونقلص جهاز الادارة»^(٤٢). الجميع مستاء، و«القاعدة لم تعد تريد».

نرى في العودة الى الصيغة المشهورة لجورج أورويل، الوسيلة الفضلى لتحديد «القاعدة» في الاتحاد السوفياتي، مع شيء من التصرف: جميع الناس، في الاتحاد السوفياتي في القعر، ولكن رغم ذلك هناك تفاوت بين البعض والبعض الآخر. ويندر ان نجد بلداً في العالم تظهر الفروقات الاجتماعية فيه بهذا الجلاء، ولا تتوقف «عن التجوف»^(٤٣). اشار غورباتشوف في إحدى خطبه الاولى الى «ضرورة رسم سياسة متماسكة بهدف تعميق العدالة الاجتماعية»^(٤٤)، اثر ذلك بدأ الاعلاميون السوفيات بالحديث عن «غياب العدالة الاجتماعية» التي تجد تعبيراً عنها في المروحة الواسعة

للأجور. فقد سقط متوسط الأجر، عام ١٩٨٨، دون الحد الذي يشكل حافزاً للعمل، كما ان الامتيازات المرتبطة بالوظيفة المشغولة في السلم الاجتماعي تلعب دوراً هاماً. والحالة هذه، ليست «القاعدة» الحقيقية الا ذلك الجزء من السكان (الغالبية العظمى) الذي لا يحصل فقط على اجر متوسط وغالباً دون المتوسط، بل يجد نفسه مجبراً على الركض وراء الطبابة المجانية، والسكن في الشقق الشعبية، واستخدام النقل المشترك، وشراء حاجياته من مخازن الدولة.

شكلت الطبابة المجانية، ولعشرات السنين الماضية، إحدى المؤشرات الأكثر اقناعاً بالنسبة للأسئلة التي نملكها من وضع الإنسان في الاتحاد السوفياتي، وميزة الاشتراكية الكبرى على الرأسمالية. كشفت الهزة الارضية التي وقعت في ارمينيا الواقع الفعلي للطبابة في الاتحاد السوفياتي امام العالم تظهر الارقام، والوقائع، وبيانات وزير الصحة، والتقارير، والادبيات أن الوضع في ارمينيا لا يخرج عن المعيار السائد في الاتحاد السوفياتي، واذا كان ما هو أساسي معروفاً (كما في باقي الميادين)، فإن العبرة تبقى في التفاصيل كما كانت تقول كاترين الثانية، هذه التفاصيل التي تثير الفزع. في نيسان ١٩٨٧، تسلم الاكاديمي تشازوف، والذي تولى لعدة سنوات مهمة طبيب القلب الشخصي لبريجنيف، مهام وزير الصحة. اعطى عدة مقابلات لصحافيين البرافدا، ونوفال دي موسكو، وليراتورنايا غازيت ولمجلات وصحف أخرى، أعاد فيها بشكل اجمالي الخطاب نفسه حول الطبابة السوفياتية. في المستشفى، لا تتجاوز الميزانية المخصصة للمريض ٦٠ كوبيك وروبل واحد لمريض الجراحة^(٤٥). والمساحة المقررة لكل سرير ٤,٢ متر مربع كمتوسط، في حين ان المقياس العام يبلغ ٧ أمتار مربعة^(٤٦). ومع آسيا الوسطى على سبيل المثال، لا يمتلك العديد من المستشفيات الماء الساخن أو نظام إمدادات أولي. لا يذكر الوزير اوضاع آسيا الوسطى الا على سبيل المثال: فالوضع مشابه في الجمهوريات الاخرى. كما ان النقص لا يشمل فقط «الوسائل التقنية المعقدة»، «فعلى اطباء الجراحة ان يشحنوا الموضع بعد اجرائهم عمليتين، وقبل الشروع في اجراء الثالثة». وهناك نقص في الادوية: فالسكان لا يستطيعون الحصول الا على نسبة ٨٥٪ من حاجتهم و٤٠٪ الى ٦٠٪ بالنسبة لادوية القلب والشرابين والمضادات الحيوية^(٤٧). يرى الاكاديمي تشازوف، ان الطبابة في الاتحاد السوفياتي كانت تفتخر، حتى لزمان قريب، بالعدد الوفير من الاطباء: النسبة

المثوية الأكثر إرتفاعاً في العالم. اما اليوم، وكما يلحظ الوزير، فإن المستوى المهني للأطباء السوفييات أصبح متدنياً: «اذ غالباً ما يعجزون عن اجراء عملية ولادة، أو عمليات أخرى بسيطة، ويرتبطون امام مخطط قلب كهربائي»^(٤٨). هذه الوقائع لا تشير الى الاسوأ، لأن الأطباء، حتى اكثرهم كفاءة. مجبرون على الالتزام بتنفيذ البرنامج، والحديث هنا عن برنامج المعالجة الطبية: على الطبيب ان يعاين ٨ حالات في الساعة، اي ٥، ٧ دقائق لكل حالة، منها لملء الاستمارة^(٤٩). واذا علمنا ان العديد من الاطباء يتجاوزون البرنامج الموضوع، فبإمكاننا التأكيد على ان الطبابة السوفياتية هي الاسرع في العالم.

مهما كانت الارقام صريحة فإنها لا تستطيع ان تنافس الكلمة الادبية. يروي الكسندر بيلكين، في قصته القصيرة «حامل الجرحى»، ببساطة ودون تكلف أحداث يوم في حياة طبيب إسعاف في موسكو، حيث يعطينا صورة مخيفة عن وضع المريض السوفياتي. مع العلم ان الرواية لا تتجاوز حدود الوضع الطبي في موسكو العاصمة. فلا وجود للأدوية، ولا للوسائل التقنية الأولية، كذلك يلحظ النقص في عدد الاطباء والسيارات. ويلجأ الأطباء الى حقن المرضى بكميات وافية من الادوية بغرض تسكين آلامهم بسرعة. وذلك إما لأنهم مرهقون أو قليلو الاكتراث. اما المرضى المعالجون فلا يبدون أية مقاومة، إذ لا خيار امامهم. «فمن يتولى الدفاع عن المسنين المسالمين؟» يسأل بطل القصة «ومن يحميهم من الفظاظ والكلام القاسي، وإنعدام - الضمير المهني؟»^(٥٠). ولا يجد المؤلف أجوبة على ذلك، فهو لا يعرف. واذا كان من الصعب ان تكون بصحة جيدة في الاتحاد السوفياتي، فإن من الاصعب ان تكون مريضاً.

يجد وزير الصحة في غياب الوسائل السبب في كل ما تحمله الطبابة السوفياتية من شوائب وأخطاء. يخصص اليوم في الاتحاد السوفياتي للصحة، ما نسبته ٤٪ من الدخل الوطني، ويضيف تشازوف، بأن هذه النسبة «تميل للانخفاض»^(٥١). وهذا يعني، في ضوء المعطيات المطلقة المعطيات السوفياتية. ان الاتحاد السوفياتي قد خصص للصحة ٢٢ مليار روبل في أواسط الثمانينات، مقابل ٨، ١٧٤ مليار دولار في الولايات المتحدة. في ظل هذه الظروف، ليس من المفاجأة بشيء، ان يشهد الجراحون مباحثهم بأيديهم. كما لا نفاجىء عندما نعلم ان الاتحاد السوفياتي يخطط لانتاج الحقنة «السيرانك» التي ترمى بعد استخدامها في عام ٢٠٠٠. حتى وقت قريب، لم يكن هذا

الوضع يطرح مشكلة . بسبب تعقيم الأبر . ولكن عندما نعلم ان الماء لا يغلى بشكل كافٍ ، أو إن الممرضات مستعجلات ، فإن النتائج تصبح غير محسوبة .

في المحصلة ، فإن نسبة ١٣٪ من سكان مولدافيا (قراية ٢,٥ مليون نسمة) مصابون باحد أمراض الكبد . وتضيف صحيفة «سوفتسكايا مولدافيا» التي اوردت الرقم ، بأن العدد الاجمالي لمرض الاتحاد السوفياتي هو بحدود ٨,٣٪ من عدد السكان (قراية ١٠ مليون شخص) ^(٥٢) . كما ان اثاره معضلة الحقنة «السيرانك» التي ترمى ، لا تعود لى امراض الكبد ، بل لى اكتشاف مرض السيدا في الاتحاد السوفياتي . هذا المرض الذي أقلق الاطباء السوفيات أكثر من مرض «البرقان» الشعبي .

في عام ١٩٧٨ ، نشرت صحيفة «وال ستريت جورنال» مقالة موقعة من قبل الاقتصادي البريطاني كرستوفر ديفيس وعالم السكان الاميركي موراي فيشباش . كشفوا فيها معدل وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي ، حيث تم التوقف عن تقديم أرقام رسمية حول هذا الموضوع منذ عام ١٩٧٢ . استنتج المؤلفان ان معدل وفيات ، الاطفال الذي بلغ ٩,٢٢ بالألف بالنسبة للمواليد عام ١٩٧١ ، ارتفع الى ١,٣١ بالألف عام ١٩٧٦ . هذه الأرقام اثارت امتعاض العديد من الخبراء الغربيين ، الذين عبروا عن موقفهم هذا في عدة مقالات ، حملت العناوين التالية : «وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي : النزعة المعادية للسوفيات في الولايات المتحدة» ، او «استخدام معلومات مشوهة بهدف استعادة الحرب الباردة : الصحة في الاتحاد السوفياتي» . يعلن كرستوفر ديفيس حديثاً ، بأنه كان «دائماً يتهم بمعاداة السوفيات» ^(٥٣) ويأمل التوقف عن لصق هذه التهمة به ، بعد نشر المجموعة الاحصائية السوفياتية «سكان الاتحاد السوفياتي ١٩٨٧» . إذ تشير الأرقام الرسمية لى ان نسبة وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي بلغت عام ١٩٧٦ ، ٤,٣١ بالألف ، أي أكثر من الرقم الذي حدده «المعاديان للسوفيات» ، وهو ١,٣١ بالألف ^(٥٤) . تعترف السلطات اليوم ، بأن الاتحاد السوفياتي يحتل في هذا المضمار الدرجة الخمسين اي بعد جزيرة موريس وبارباد ، كما يحتل المرتبة الثانية والثلاثين بالنسبة لتوسط مدى العمر . عام ١٩٧٩ ، تم احصاء ٤,١٠٢ حالة اجهاض لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الانجاب . اما الأرقام الموازنة بالنسبة لألمانيا فهي بحدود ٩,٥ ، و ٤,١١ في بريطانيا ، و ٥,٢٧ في الولايات المتحدة ^(٥٥) . وتظهر المجموعة الاحصائية ان العام ١٩٧٩ لا يمثل القمة : ففي ١٩٧٦ تم إحصاء ٤,١٠٧

حالة إجهاض لكل امرأة. وفي ١٩٨٦ تراجع عدد حالات الاجهاض الى ١٠١,٢ حالة^(٥٦).

يدرس علماء الاجتماع اليوم، البنية الاجتماعية للاتحاد السوفياتي، مستعينين بأفضل المناهج العلمية المعاصرة. فمن السهل التمييز بين «القاعدة» و«القمة»، أقله بالنسبة للوضع الغذائي كل منهما. يذكر بوريس يلتسين بأنه بعد طرده من «قمة القمة»، درج على تناول النقانق العادية، ولكن «مغمضاً عينيه»^(٥٧)، لأن منظرها (المقانيق المسلوقة والمعدة للبيع في موسكو لها لون أزرق) يثير الاستمزاز. مع العلم، ان بوريس يلتسين يبقى رغم كل شيء في المرتبة العليا من الهرم، فهو احد اعضاء اللجنة المركزية ووزير سابق. بالامكان ايضاً، استخدام «النقل»، من اجل دراسة التراتب الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي. اذ يدرك كل من أقام في الاتحاد السوفياتي، مدى الصعوبة للركوب في الحافلات الكهربائية، و«الميترو»، والسيارات الكبيرة. كما تجدر الإشارة الى ان كلفة صيانة ٦٥٠ الف سيارة في الخدمة، تصل الى ٤ اضعاف ميزانية النقل العام، أي ما يقارب ٤,٥ مليار روبل. أخيراً، تشكل الخدمات الطبية مؤشراً يسمح بالتمييز بين وضع «القاعدة» ووضع «القمة». ويلحظ وزير الصحة وجود ١٧ إدارة معينة بهذه الخدمات. غير ان الادارة الرابعة، وتسمى عادة «خاص بالكرملين»، تستهلك بمفردها ٥٠٪ من الميزانية المخصصة^(٥٨). ويستطيع تشازوف، بوصفه مديراً سابقاً للادارة الرابعة، وفي معرض كلامه عن صغر حجم ميزانية وزارته، ان يوضح ما يلي: ٥٠٪ من الميزانية «القمة» والـ ٥٠ المتبقية لـ «القاعدة». لقد تم افتتاح «الصيدلية الدولية» في موسكو أواخر عام ١٩٨٨: حيث باستطاعة الرعايا الاجانب. مقابل الدفع بالعملية الصعبة، الحصول على الادوية التي لا توجد في الصيدليات العادية (باستثناء صيدلية الكرملين). سأل احد الصحفيين رئيس هذه الصيدلية التعاونية: «لنفترض ان احد المواطنين السوفيات احتاج لدواء نادر، لا يجده الا في صيدليتك؟» على هذا السؤال أجاب المسؤول: «بكل أسف، في هذه الحالة، نحن عاجزون»^(٥٩).

في ٢٢ تشرين الاول ١٩٨٨، تم في باريس توقيع اتفاقية من أجل انشاء شركة مساهمة فرنسية سوفياتية تهدف الى بناء مجمع استشفائي في موسكو، في صيف ١٩٩٠. والمتوقع استقبال ٤ آلاف مريض أجنبي^(٦٠) في السنة.

من المستبعد ان نجد بلداً آخر في العالم، يؤمن للأجانب («ما فوق القمة؟»)

خدمات طبية لا يستطيع المواطنون الحصول عليها . والمقارنة الوحيدة التي تحضرنا ترجع الى القرن السابع عشر، حيث كانت تخصص موسكو للمدعوين الأجانب حياً خاصاً، مثال «حي الألمان» (٦١).

إذاً أجور منخفضة، نقص حاد في السلع الغذائية، أزمة سكن، خدمات طبية سيئة. أضف الى ذلك عشرات السنين من التخطيط الاشتراكي المركزي الذي وجه ضربة قاسية للبيئة، نجم عنها إحدى أشد الأزمات وطأة في الاتحاد السوفياتي. ويعطي وزير الصحة تشازوف تعريفاً جلياً لها: «ان تركز مواد التلوث في ١٠٤ مدن من البلاد يصل على الاقل الى ١٠ اضعاف المعايير الصحية المعتمدة» (٦٢).

وعندما يتم التحدث عن نسبة ١٠ اضعاف على الاقل، فإنه هذا يعني ان التنفس مميت والمياه ملوثة، والمنتجات الغذائية فاسدة في ١٠٤ مدن. ولكن الوزير لم يحدد المدن التي عنها. فإذا كان الاتحاد السوفياتي يضم عام ١٩٨٧، ٢٦٢ مدينة (٥٠ ١٠٠ يوردها تشازوف تشهد على كارثة حقيقية. مع العلم أن التلوث لا يصيب المدن فقط. فالصحافة السوفياتية مليئة بالرسائل والتقارير الحسية والمقالات العلمية التي تتحدث عن التدمير الكامل للأنهر والبحيرات والبحار الداخلية والغابات، ناهيك عن دمار التربة في آسيا الوسطى، ومناطق البلطيق، وسييريا، وروسيا الوسطى. تحدثت «اغنية الوطن» الشهيرة قائلة: «واسعة مواطن ولادتي»، «عديدة هي الغابات والحقول والأنهر». أما اليوم فيمكننا ان نضيف: «كل شيء في بلدي قد تلوث، الغابات، الحقول والأنهر». يعتبر استخدام الـ «بوتيفوس» في اوزبكستان من الامثلة الصارخة الدالة على هذا التدمير المنظم للطبيعة وعلى حساب الحياة الانسانية. لقد أدى استخدام الجيش الاميركي لمواد كيميائية - بكميات محدودة - في فيتنام الى إدانته من قبل العالم المتحضر بأكمله. وتشبه مادته «بوتيفوس» مثيلتها الاميركية الـ «فولكس» او «DEF» «مادة فوسفورية - عضوية مسممة» - منذ ١٩٦٤، نشهد طائرات سوفياتية ترش المادة على نباتات القطن، كي يبدأ الحصاد، ما ان تتساقط الاوراق. واذا كان عذر الاميركيين انهم في حالة حرب. فإن القادة السوفيات هم ايضاً بحاجة للقطن. ويدرك العلماء الآثار الناجمة عن استخدام هذه المادة: «التي ينجم عن ملامستها للكائن العضوي، اتلاف الجهاز العصبي المركزي، والقلب، والكبد، والكلى، كما ان لها آثار سلبية على المناعة (عند الاطفال خاصة) . . . كما تؤثر على خصوبة المرأة، وتضاعف أمراض

الحمل والولادة»^(٦٤). وليس مصادفة ان تتم الاشارة الى النساء والاطفال ، فالنساء هم الذين يقومون بقطف القطن ، وفي اثناء العطل الصيفية ، يمد الأطفال يد المساعدة . واذا لم تساقط الاوراق كاملة بعد البدء بالحصاد ، فمن الممكن اللجوء مرة أخرى الى مادة الـ «بوتيفوس» لرش النباتات . لقد منع وزير الصحة ، في آذار ١٩٨٧ ، استخدام هذه المادة . ولكن في غياب مستحضر بديل ، فإن الشكوك تبقى قائمة حول فعالية هذا المنع .

واعلن بوريس يلتسين : «اننا نواجه الأزمة وبعدها نصل الى الهاوية»^(٦٥) ، والأزمة ، تعبير عن استياء «القاعدة» التي «لم تعد تريد» . أما «الوضع الثوري» لسنوات الثمانينات في الاتحاد السوفياتي ، فتكمن خصوصيته ، في اننا اذا عرفنا لماذا «القمة لم تعد تستطيع» ، فإن من الصعب معرفة لماذا «القاعدة لم تعد تريد» . من العلوم ، ان الناس يفضلون العيش ضمن شروط أكثر إنسانية . ولكن في العقد الاخير من القرن العشرين ، لا نجد دائماً البرنامج الذي يسمح بتحول الاتحاد السوفياتي الى بلدٍ سويّ - وهذا عائد الى تعدد الشرائح المكونة للـ «قاعدة» ، «بدءاً من المتقاعدين التعماء الذين ينالون ٢٠ روبلاً في الشهر» وصولاً لفئة الـ «بيروقراط» التي ترتجف خوفاً على مراكزها . ان الاستياء الحاد الذي أثارته الأجور المتدنية ، وظروف العمل القاسية ، وصعوبات التمويل وكل ما يتصل بالحياة اليومية السوفياتية ، التي أضحت تحملها أصعب من الرعب لكونها بدت وكأنها راسية الى الأبد ، كل هذا وجد امكانية التعبير عن نفسه في السنوات الاولى للـ «بيرسترويكا» ، في الشكاوى التي أغرقت أجهزة الصحافة ، وفي المنشورات التي أبرزت النواقص بصراحة نادرة ، وفي النقاشات المفتوحة أو المداخلات العامة خلال الاجتماعات والندوات .

يجد الاستياء العام تعبيراً له في لغة «القوميات» (وهذه المسألة لنا عودة إليها) ، وفي لغة البيئة ، فإنتصار المدافعين عن «بايكال» (انتصار غير مكتمل) والمقاومين لسياسة تحويل انهر الشمال الى آسيا الوسطى يذكرون هذا الاستياء . كذلك فإن كارثة تشيرنوبيل تلعب دوراً هاماً في ولادة «الوعي البيئي» .

ان في تعليق ساخر لمارك توين : ان الانسان لم يخلق من اجل ان يعمل ؛ ودليل ذلك ، يكمن في ان العمل يتعبه ، ان الموقف من العمل في الاتحاد السوفياتي ، هو من

المسائل التي يمتاز بها، ولا نجد وجه شبيه لذلك مع أي بلد نام، على الأقل مع المجتمعات الحرة.

وتمثل ظاهرة الغياب عن العمل حالة نادرة. فقد أحصى الاقتصادي ف. سيليونين غياب ٤ ملايين شخص يومياً عن العمل، مقابل ١,٤ مليون شخص في الولايات المتحدة^(٦٦). مع العلم انه لا صلة لذلك بالاضرابات. وتستتج صحيفة البرافدا بأن الصناعة خسرت عام ١٩٨٧، قرابة الـ ٦,٢ مليون ساعة عمل، في حين بلغت الخسارة عام ١٩٨٦، ٢٢ مليون ساعة^(٦٧). ولم يتوقف هذا الرقم عن الارتفاع من السنوات اللاحقة. وعندما لا يتغيب السوفييات عن العمل فإنهم يمارسونه ببطء، وتبعاً لذلك فإن الانتاجية لا تتجاوز ثلث مثلتها مع الولايات المتحدة، وفي الزراعة لا تتخطى حدود الـ ١٥ ٪ من المردودية الاميركية^(٦٨). هذه الارقام تكتسب أهمية فائقة ما قورنت مع تلك التي تغطي عام ١٩٢٩. ففي السنة الأولى من الخطة الخمسية، كانت مردودية العامل السوفياتي والعامل الاميركي كالآتي: الفحم: ٢٤٠ و ٩٢٩ طن؛ الترابية: ١٤٠ و ٨٣٤ طن؛ الورق ١٣ و ٨٥,٧ طن، الأحذية: ٢٤٠ و ١٧٣٧ زوج^(٦٩). وفي ١٩٣٦، تحسنت الوضعية وان كان بشكل غير كاف: «تشتكي إحدى الصحف، من ان الانتاجية في الولايات المتحدة تبلغ ضعف ما هي عندنا»^(٧٠) هذا يعني ان الانتاجية مع الاتحاد السوفياتي، لخمسين سنة خلت، كانت بحدود الـ ٥٠ ٪ من مثلتها في الولايات المتحدة. أما اليوم فإنها لا تتجاوز حدود ٣٣ ٪. ويجب ان نضيف بأن المصانع والفبارك كانت تستخدم في السنوات الأولى من الخطط الخمسية، العديد من الفلاحين الذين لا يجيدون العمل الا في ظل ضربات العصي واعقاب البنادق. أما اليوم، فإن العامل السوفياتي، حسب التصريحات الرسمية، يعتبر من اكثر عمال المعامل تأهيلاً.

لا يذهب السوفييات الى العمل. وعندما يحضرون، فإنهم يعملون ببطء وبشكل سيء، ونستطيع اليوم ان نكون مكتبة كاملة من رسائل القراء، وتقارير الصحفيين، وتحليلات الاعلاميين حول النوعية الرديئة للانتاج السوفياتي. اما شعار الأمس: «شيء رائع ان تكون سوفياتياً»، فإنه يثير اليوم عند مواطني الاتحاد السوفياتي مشاعر مزوجة من الضحك، والاشمزاز، والقرق، والشفقة على انفسهم. لسنوات خلت، يؤكد البولونيون وبسخرية على ضرورة إضافة عنصر رابع على أفعال التفضيل الثلاثة التي

تملكها اللغة الروسية وهو: السوفيائي! أما اليوم، وخلال «دائرة مستديرة» نظمتها «ليتراتورنايا غازيتا»، فقد أعلن المهندس يوري بروفكو على ضوء الأرقام المعروفة ما يلي: «ان التسبب وانعدام المسؤولية، والسرقات، والنوعية الرديئة للانتاج مع ما يترتب عليها من نتائج مختلفة» قد كلفت البلاد في عام ١٩٨٦ خسائر توازي تلك التي حصلت في السنوات الاربع من الحرب العالمية الثانية. والامر الملفت ان هذه الأرقام لم تدهش المشاركين. فقد إكتفى محرر الشؤون الاقتصادية في الصحيفة المذكورة، فلا ديمير سولوكوف بالسؤال: هل نحتاج الى سنة أو إثنين أو «ثلاثة كي توازي الخسائر تلك الناجمة عن سنوات الحرب؟ لقد بدا له وللأشخاص المشاركين (بينهم نائب رئيس لجنة الدولة للأسعار ونائب رئيس لجنة الدولة للأحصاء) ان حجم الخسائر في الحالتين متقارب (٧١).

تكمن وراء موقف السوفيات تجاه العمل أسباب تحديده. ففي الخطوة الأولى هناك «ادلجة» العمل، والقناعة التي ترسخت لدى الانسان السوفيائي بأن أي مسار يضعه، أو كلغ من الفحم يستخرجه، وقل ورقة يوقعها ما يسهم في تحقيق خطوة الى الامام نحو تحقيق الهدف الكبير (٧٢). أما اليوم، فإن الاقتصاديين السوفيات يركزون على عاملين. الاول يتصل بموضوع الاجور المتدنية: «... لقد سقط المستوى الحقيقي للأجور... دون الحد الذي يؤدي تجاوزه الى إبطال الوظائف الاقتصادية الكبرى للأجور: تشكيل حافز لنوعية العمل ومضاعفة الانتاجية؛ تأمين قاعدة يبنى على أساسها تمايز المداخليل؛ توفير احد الأسس التي تقوم عليها أخلاقية العمل» (٧٣). أما فيما يتصل بالحافز الايديولوجي، ففقد الكثير من قوته، لأن الهدف أو الأفق يزداد بعداً كلما اقتربنا منه. كذلك فإن الحافز الاقتصادي قد إختفى، وتوقف عن ملء وظائفه، خاصة تلك المتصلة بتماسك اخلاقية العمل، والرضى عن العمل المنجز بشكل جيد، فسواء حسن العمل أو تدنت نوعيته فإن العائد هو نفسه، ويبقى سيئاً في كل الاحوال. ترى ت. زاسلافسكايا في إحدى مداخلاتها الأولى الموجهة للجمهور حول «استراتيجية البريسترويكا»، في «الامكانية الحقيقية في انجاز عمل رديء دون العيش بنفس المستوى من الرداءة» (٧٤)، سبباً هاماً يفسر ضعف المردودية.

شكل الاتجاه «التسويي»، واعطاء عوائد متعادلة (تقريباً) للعمل، الفني وغير الفني، ذي النوعية الجيدة او الرديئة، إحدى المعضلات الكبرى التي واجهها أنصار

«البريسترويكا». من زاسلافسكايا الى غورباتشوف، ومن الكتاب الى الاقتصاديين، الجميع يتحدث عن ضرورة التخلص من هذه السياسة «التسوية». الامر الذي يعكس إحدى مشكلات النموذج الاقتصادي السوفيياتي: «التأكيد على الطابع الايديولوجي للعمل، والوعد بالمساواة، والعجز عن تحقيقها، من قبل الثورة؛ كل ذلك جرى استبداله بمساواة كاذبة تحت عنوان الاجور المتعادلة. لقد كان ستالين، بما عهد عنه من جرأة، أول من نعت شعار المساواة الذي رفعته الثورة، بأنه لغة برجوازية صغيرة، وبأن مضمونه الحقيقي والصحيح، هو الاتجاه «التسويي». ان وطأة هذا التعبير تجعله ممقوتاً، وتظهر اننا أمام ظاهرة ضارة. الجهاز الاقتصادي والاداري، نضالاً ضارياً ضد الاتجاه «التسويي». الامر الذي أدى الى ولادة نظام مكافآت خاضع كلياً لارادة السلطة. بعد تبني «الدستور الستاليني»، كتب مؤلف «اغنية الوطن» التي غدت نشيداً غير رسمي، مضيفاً مقطعاً الى هذه الأغنية: «لكل مكانة على الطاولة، وكل واحد يكافأ وفق من يستحق». لقد غنى السوفييات بفرح هذه الكلمات في عام ١٩٣٦، في الوقت الذي كانت تجري فيه عملية تعميم الرعب؛ ورغم ان ما كتب بين السطور، يصعب التقاط ما يشكله من خطر. فإن بالامكان ان نفهم بأن كل شيء ملك الدولة التي تكافئ او تقتص وفقاً لمشيئتها. فقانون الحياة الكبير لم يعد العمل، بل السعي من اجل تنفيذ خطة الدولة، الذي لا يجد ترجمة له على شكل زيادة أجور، بل «مكافآت» خاصة بأنصار ستاخانوف. ويمتدح بوخارين «الثواب الوطنية» «المؤتمرات» انصار ستاخانوف التي عقدتها اللجنة المركزية، قائلاً: «إن الانتخابات في هذه المؤتمرات، هي شيء مميز بل فارق: انها تشهد وبوضوح عمل إستثنائي. فالطن، والقطعة المصنعة هما اللذان ينتخبان مندوبيهما...» ويضيف بوخارين قائلاً: «لأول مرة في التاريخ، تبنى ديمقراطية حقيقية، لاصلة لها بتلك التي تصنعها البرجوازية»^(٧٥). لقد بتنا نعرف اليوم وبشكل رسمي، ما كان يحصل منذ نصف قرن: لقد جرى استخدام أبطال العمل وفق اخراج مدروس، وملفّق بالكامل. «فالأبطال» جرى إنتقاءهم بدقة، وبموافقة اللجنة المركزية على اختيارهم.

قادت الديمقراطية «الصریحة»، وافساد العمل، الشغيلة السوفييات نحو «الاضرات العام». وأضحى التخريب المعيار الأول، وتبدو المفارقة واضحة من خلال اجراء المقارنة، ذلك اننا نلاحظ وجود نقاط مشتركة بين تدمير الاقتصاد السوفيياتي عام

١٩١٨ ، وما جرى سبعين سنة بعد ذلك التاريخ . «في الواقع ، اننا نواجه راهناً عملية تخريب واسعة ، ينظمها ملايين الاشخاص ، وهذا ما استتجه ألكسندر غاستيف في المؤتمر الأول للسوفخوز (المستشارون الاقتصاديون) ، في آيار ١٩١٨ . أنني اضحك ، عندما اسمع الحديث عن عملية تخريب برجوازية . . . لأننا في الواقع أمام عملية تخريب وطنية ، وشعبية ، وبروليتارية» (٧٦) . في عام ١٩١٨ كما في عام ١٩٩٠ ، يعود رفض العمل ، الى كون النقود قد فقدت وظيفتها كحافز مادي ، وذلك الى زمن جد بعيد . لقد كانت الحجة في عام ١٩١٨ ، تلصق بالتضخم ، وبإرادة السلطة السياسية التي تريد القطع مع المال ، نقيصة الرأسمالية . أما في عام ١٩٩٠ ، فإن الأصابع تومي الى الندرة ، اي استحالة الحصول على السلع الضرورية حتى لو توفر المال ، وهناك أيضاً نظام الامتيازات الذي قوّض «سلطة النقود» . يكتب أناتولي سترلياني ! « . . . اذا كان أحدهم يستطيع بهاله ان يشتري هذا الشيء او ذاك ، واذا كان الآخر لا يستطيع ذلك ، بكمية المال نفسها ، فهذا يعني اننا لانكافيء فقط العمل ، وانما نكافيء أيضاً أمراً آخر» . ويستنتج الاعلامي : «عندما لا يحمل الروبل القيمة نفسها بالنسبة للجميع ، فإن ذلك يسبب انعدام الرغبة بالعمل» (٧٧) . وفي النهاية ، يقال : «من الأفضل ان تربح ١٥٠ روبل دون ان تعمل ، من أن تعمل وتربح ألف (روبل)» (٧٨) . أو ولنستعيد احد تعابير شاعر مشهور ، يكشف باختصار غير خاف سيكولوجية الانسان السوفياتي وهو يقارن بين الرأسمالية والاشتراكية : «لا أحب الحقائق الجاهزة . فأنا أحب الحصول على أجر يعادل ما عندهم ، دون القيام بأي عمل هو جارٍ عندنا !» (٧٩) .

تكشف عملية «التخريب» العامة ، ان «القاعدة» ترفض الواقع الاشتراكي ، وفي الوقت نفسه ، تستطيع التكيف مع الحياة في ظل «الاشتراكية الناضجة» . هي لا تريد ما هو موجود ، ولكنها تعارض «الثورة من فوق» . انها تواصل عملية التخريب . لأنها لا ترى أية امكانية لتحسين وضعها ، بل لديها قناعة راسخة بأن ما يحصل قد يؤدي الى تدهور أوضاعها . وتظهر الطبيعة الخاصة للعلاقات بين «القمة» و«القاعدة» ، من بين أشياء أخرى ، في الاتفاق الضمني الدائم المشروعية ، والمتصل بالموقف من إمتيازات الـ«نومانكلاتورا» . فالاستياء المحدودة الذي تثيره هذه الامتيازات ، والذي أدانه بوريس يلتسين (فيكونت نواي السوفياتية) (٨٠) بضجيج ، لا يمكن مقارنته بمثيله الذي تطلقه المداخل العالية لمسؤولي التعاونيات . فقد استيقظت الرغبة في المساواة الراقدة في

نفس كل سوفياتي، ويحده غير متوقعة. عندما أبيع إنشاء التعاونيات، لقد برر بوريس غوستيف، وزير المال (جرى استبداله لاحقاً)، ضرورة فرض ضرائب عالية (٧٠٪ أو أكثر من الدخل، انطلاقاً من ١٠٠٠ روبل وما فوق)، بالرغبة في تحقيق العدالة الاشتراكية والمساواة: «ان شريحة صغيرة من الاغنياء آخذة في التشكل في المجتمع، الأمر الذي قد يقود الى حدود إنقسامات إجتماعية، وبالتالي نتائج مدمرة». ويستحضر الوزير فزاعة الثورة قائلاً: «لا يستطيع ان أضمن عدم نزول العمال الى الشارع...»^(٨١). متوقعاً بذلك حدوث اضطرابات، عائدة الى ظهور شريحة من «الاثرياء»، من خارج النومانكلتورا. ان شدة الاستياء الذي يثيره «الاثرياء الجدد»، يثبت صحة موقف الوزير، كما ان التجربة التاريخية تضيف تأكيداً آخر. ففي سنوات العشرين، إبان زمن سيا الـ NEP، كان بإمكان أصحاب المؤسسات الخاصة، ان يثروا، ولكن كانت تلصق بهم شارة مهينة (عناصر معادية للاشتراكية)، ويرسلون بتصميم الى «محكمة الشعب» ليلقوا عقابهم. ان النقابات السوفياتية، تجد انه من العبث الدفاع عن مصالح عمال الدولة العمالية، لذا تصرف إلتباهاً للاهتمام بوضعها داخل المؤسسات الخاصة، منظمة الاضرابات، عندما لا تتم الاستجابة لمطالب البروليتاريا.

إتسم صيف ١٩٨٩ بالانفجار المفاجيء للتحركات الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي: فقد قام عمال المناجم في غربي سيبيريا، وفوركوتا، ودونباس، بإضرابات حاشدة. كما ان المطالب إتحذت عناوين متعددة، من المطالب الاقتصادية (خاصة، تحسين نوعية الصابون الموزع عليهم) وصولاً الى المطالب السياسية. ولكنهم كانوا يطالبون قبل أي شيء بإغلاق التعاونيات «النهائية». وشكلوا لجان الاضراب، وفقاً للنموذج البولوني في عصر «التضامن».

في تشرين الأول ١٩٨٩، وبعد حدوث موجة ثانية من الاضرابات في الخريف إثر اقتناع عمال المناجم بأن بعض وعود الصيف التي قطعت لهم لم تنفذ. أقدم مجلس السوفيات الأعلى على إعادة فرض النظام، عن طريق اصدار قانون يتطلب الاذن المسبق لنقاشات العمل الجماعية. ولا يستثني هذا القانون الاضرابات في حال لم تتم تسوية الصراعات سلمياً؛ كما يحظر على بعض فئات العمال والمستخدمين اللجوء الى الاضراب، خاصة الاضرابات التي تتم «من اجل دوافع ومطالب تهدف الى قلب نظام الدولة والمجتمع السوفياتي...». ان هذا التحديد يشمل كل اضراب ترفع فيه شعارات

سياسية. كما يحظر هذا القانون انشاء لجان الاضراب، التي تحولت في المناطق المنجمية الى لجان عمالية.

رأى فاسيلي سليونين، بعد زيارة له الى كوزياس (سيريا الغربية)، في تجربة هذه اللجان نموذجاً للسلطة البديلة في البلد بأكمله^(٨٢). ويشاركه هذا الرأي أناتولي سترلياني، الذي زار المناطق البعيدة من المتروبول: «ان الجبهات الشعبية في البلطيق، و«كاراباخ» أرمينيا، وحاضراً لجان الاضراب كل ذلك يكون جهازاً جديداً قادراً على العمل لأنه يشعر انه ضمن اطار حقوقه، ولانه يعي سلطته»^(٨٣). هكذا يجري استخدام الحركة العمالية، ذات الطابع الجنيني الآخذة بالنمو، كلما كان ذلك ممكناً، في مواجهة أية محاولة لاصلاح النموذج الاقتصادي السوفيياتي. فالجبهة الموحدة للعمال التي تأسست في ليننغراد أخذت على نفسها النضال ضد «توجهات الملكية الخاصة، والربح، والسوق، التي قد تقود الى الانقسام الاجتماعي...»^(٨٤). فبرنامج الجبهة هو «الدفاع عن مصالح العمال». يورد أناتولي سترلياني، وجهة نظر ممثلي «القاعدة» الذين إلتقاهم إبّان زيارته لهم في صيف ١٩٨٩، «الارجح انه صيف السلم الأخير»، والجميع متفقون على ضرورة: «تصفية مضارب التعاونيات»، من أجل ان يستقيم الوضع؛ و«نحن لا نريد الرأسمالية»^(٨٥).

ان الدعوة التي اطلقها اندرية زخاروف، للقيام باضراب تحذيري لمدة ساعتين، وذلك عشية المؤتمر الثاني بنواب الشعب (كانون الاول ١٩٨٩)، من أجل دفع النواب الى الغاء المادة السادسة من الدستور، لم تلق أي صدى^(٨٦). ولكن في صيف ١٩٩٠، أعلن عمال المناجم اضراباً سياسياً في عدة مناطق من البلد، وذلك عشية المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي السوفيياتي، طالبوا فيه برحيل حكومة ريچكوف. ان فكرة الاضراب السياسي لم تعد تثير الخوف، فقد جمعت اضرابات صيف ١٩٨٩ ٥٠٠ الف عامل منجم تقريباً. وفي بداية عام ١٩٩٠، بذلت اللجان جهوداً جبارة من أجل توحيد صفوفها. ان الحركة العمالية الوليدة لم تتوصل بعد الى صياغة في برنامج محدد ودقيق. كما ان بعض المطالب لها طابع محافظ، وتستخدم من قبل جهاز الحزب. ولكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً: لقد بدأت الطبقة العاملة ترمي نفسها كقوة سياسية وتناضل من اجل حقوقها.

الجزء الرابع

ما العمل؟

«على السؤال «ما العمل» اعطى العالم القديم ٢٨٨

جواب»

التدريس أوغسطين

ما يزال السؤال «ما العمل؟» يحفر في الفئة المثقفة الروسية منذ ولادتها. هكذا عنون نيقولاي تشرنيسفسكي الرواية التي ألفها عام ١٨٦٣ في قلعة بطرس وبولس. والمثقفون الروس، وهم معلمو الفكر، ديموقراطيون ثوريون، لم يعطوا، جيلاً بعد جيل، إلا جواباً واحداً عن هذا السؤال الكبير: لا بد من القيام بالثورة. وفي ١٩٠٢ كتب لينين بدوره «ما العمل» الخاص به، إلا أنه أعطى جوابين: انشاء حزب من الثوريين المحترفين ثم التقدم على رأسه للقيام بالثورة. أما غورباتشيف فبعد أن أشار إلى أن وضعية البلاد قد أصبحت في بداية الثمانينات مقلقة، فقد دفع بمن حوله إلى الإجابة (قبل جلسة نيسان المكتملة ١٩٨٥ حيث تم اعتماد برنامج غورباتشيف) عن السؤال المضني نفسه. وقبل انعقاد اللجنة المركزية المكتملة هذه، «صيفت مئة وعشر وثائق»^(١). ١١٠ اقتراحات واستنتاجات من قبل أكاديميين، كتاب، واختصاصيين من الدرجة الأولى، ومسؤولين سياسيين، ١١٠ اجوبة على سؤال: «ما العمل؟» وقد استخدمت النتائج التي توصلت إليها هذه التحليلات، كما يشرح غورباتشيف، كقاعدة ارتكزت عليها البريسترويكا بوصفه نقطة إنطلاق «الثورة من فوق».

محاولة فهم ظهور غورباتشوف، إتخذت الفئة المثقفة السوفياتية من اصلاحات الستينات في القرن التاسع عشر، مرجعاً لها، مكتشفة نوعاً من التقابل بين «الركود» في روسيا في ظل نيقولا الأول و«الركود» في الاتحاد السوفياتي أبان حكم بريجنيف. أما مقارنة «النظام القديم» في روسيا (الذي كان في منتصف القرن التاسع عشر يحمل تاريخاً من ٢٥٠ سنة، خاصة تاريخ سلالة الرومانوف) والنظام السوفياتي الذي أصبح بالياً تماماً بعد مضي ستين عاماً فقط على الثورة، هي فكرة بالغة الدلالة. فإيجاد نوع من التمثيل بين هذين النظامين الألفين يبقى مفيداً، وذلك لأن هيرزن وباكونين كانا يتصوران في القرن التاسع أن روسيا أمام خيار بين قيصر جيد وثورة راديكالية يقوم بها بعض الضباط وانتفاضة فلاحية، أي بمعنى آخر بين رومانوف وبيستل وبوغاتشيف.

وتبدو صيغة هيرزن - باكونين وإن روسية بالشكل، عالية من حيث المضمون: فدائماً عندما يستنزف النظام امكانياته ينتهي بالانهيار اثر ثورة يقوم بها المضطهدون أو

تحت وطأة إنقلاب عسكري في حال لم تتحقق «من فوق» الاصلاحيات الضرورية. الا انه لم يكن في خزانة التاريخ السوفياتي بعد الحرب الاهلية ما يشبه «بيستل» او «بوغاتشيف»، واننا نجد فيها بالمقابل نماذج من «رومانوف». في ١٩٢١ أقدم لينين على الانعطاف الكبير الـ N.E.P وفي السنوات بين ١٩٢٩-١٩٣٣ بادر ستالين الى انعطاف آخر لا يقل اهمية، كما يمكننا ايضا أن نقارب عهد بريجنيف من زاوية «الثورة من فوق»: ففي زمن «الركود» سخرت وسائل مدهشة - في الواقع كل ما تملكه البلاد - للصناعة «الدفاعية». إنها المرحلة التي شهدت تنظيم قوات عسكرية هائلة، اضافة الى اندفاع توسعية لا مثيل لها. وما لا شك فيه ان المؤرخين سيلحظون كون الامبراطورية السوفياتية بلغت خلال «الركود» حدودها القصوى التي لا يمكن الا ان تقلص فيما بعد. وفيما بلغ التوسع حده الاقصى اكتشف القادة السوفيات الازمة. والواقع ان نقاط الضعف في النظام السوفياتي برزت مباشرة بعد موت ستالين. اما اصلاحات خروتشوف فاعطت بعض النتائج التي سمحت لبريجنيف، في كل الاحوال، بان يقود «زحف الشيوعية المظفرة» في أرجاء المعمورة. ففي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تولى السلطة أتباع «الاشتراكية العلمية»، مقيمين أنظمة تعتمد حكم النظام الواحد على الطريقة السوفياتية، والواقع ان غياب المقاومة قد شجع موسكو: إن نفوذها يتشرب في كل مكان وكأنه بقعة زيت. انه السباق بين التوسع السوفياتي وبقطة العالم الغربي. ولا بد من بعض الوقت لادراك العنصر الذي لعب دورا حاسما في هذه الوضعية: انه صدمة فيتنام التي لم يخرج منها الاميريكون الا ببطء، مقاومة المجاهدين الافغان، اتفاق اورويما الغربية حول الصواريخ العابرة القارات. انهيار «تضامن» الذي اعتبر من قبل موسكو بمثابة تحذير. افهل ان عيوب النظام السوفياتي الداخلية تفاقمت وتعمقت تحت تأثير التوتر التوسعي؟ مما لا شك فيه هو انه كان لمجمل هذه الاسباب دورا حاسما.

لند حاول خروتشوف حل المسألة الكبرى التي وجد نفسه في مواجهتها: كيف يمكن تشغيل النظام الستاليني بدون ستالين؟ «متعطشا الى التغيير»، برأي راوي سيرته^(٢)، سعى خروتشوف الى هدفين: تحقيق جميع الامكانيات التي يوفرها له منصبه كأمين عام، اثارة حماس الشعب الذي لا يمكن الاستغناء عنه لردم الهوة الناتجة عن التأخر الاقتصادي الذي اصبح جليا ابتداء من النصف الثاني للخمسينات. اما الاول

فلن يتحقق الا جزئياً. فبعد ان نجح خروتشوف بانتزاع الموقع الاول بين القادة بدأ باقامة طقس لعبادة شخصيته هو، حتى فصل من السلطة : لقد اخطأ بتقدير قوة اخصامه . فقد كان من السهل كما يقول سيرغي خروتشوف احباط المؤامرات المدبرة ضده لما كان يعوزها من دقة ومهارة . اضافة الى انه اعلم بها في الوقت المناسب ، غير انه لم يقتنع بان الخطر فعلي^(٣) . وسوف تكون تجربة غورباتشوف عبء لخلفائه في محاولتهم فرض «عبادة شخصهم» دون اللجوء الى الاساليب الستالينية . تحضهم على الحذر من مؤامرات الاصدقاء ورفاق النضال . اما الهدف الثاني فسوف يحققه خروتشوف بصورة افضل تماما . فالبرنامج الجديد للحزب ، الذي اقره المؤتمر الثاني والعشرون (١٩٦١) يعد باستكمال بناء الشيوعية في خلال عشرين عاما تحديدا . ويؤكد برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي ، الذي يركز الى تعاليم ماركس ولينين - وهي وحدها علمية لانها وحدها مظفرة ، وهي وحدها مظفرة لأنها وحدها علمية - ان الاتحاد السوفياتي سوف يلحق عام ١٩٨٠ بالولايات المتحدة في مجال التنمية الاقتصادية ورفاهية السكان او انه سوف يتخطاها . ومهما بدا ذلك غريبا اليوم فان الجميع يعتقد به . غير ان الدورة كانت قد وصلت الى قلب الثمرة . إن الادارة المجنونة التي تسعى لتسرع للوصول الى الشيوعية والخطة التي تنمى وتحض كل مسؤول لما يجلبه تنفيذها من مكافآت ولدنا شبكة «المصالح والاعمال» الاولى . وقبل عشرين عاما على انهيار خطة القطن في اوزباكستان كانت خطة اللحوم في ريزان قد لاقت المصير نفسه . ذلك ان سكرتير اللجنة الاقليمية لريازان اليكسيس لاريونوف ، ويهدف تخطي خطة انتاج اللحوم والتغلب على «الاميركان» امر باتلاف القطعان المحلية^(٤) .

اما ليونيد بريجنيف فاخترع نسخة جديدة من «النظام الستاليني بدون ستالين» ، غير ان الهدف يبقى نفسه : تحقيق القدرة الكامنة التي يمتلكها السكرتير العام . ولقد اثمر درس خروتشوف حسنا لدى بريجنيف جعله يتصرف بلا شفقة او رحمة تجاه اخصامه ، رغم اسلوبه الاقل ضجيجا من سلفه . اما هدف خروتشوف الثاني - اثارة حماس الجماهير - فقد لقي بعض التعديلات . فبعد محاولة غائمة وفاشلة لاصلاح الاقتصاد تركزت الجهود على مهمتين : التوسع ، في ميدان السياسة الخارجية من جهة ، بوضعه عاملا يظهر قوة وحيوية الاتحاد السوفياتي واللجوء من جهة أخرى الى استخدام «وسائل الاتصال والدعاية الجماهير» (smip كما تسمى في الاتحاد السوفياتي) ، على نطاق

لا مثيل له من قبل : صحف، مجلات، اذاعات، تلفزيون، سينما، احتكاك مباشر بالناس، وذلك من اجل اختلاف «صورة» تظهر التقدم والنجاح. الا انه لم يسبق دون شك ان كانت المسافة بين عالم الموهومات والواقع على هذا القدر. وكما قال احد علماء الاجتماع: «لقد استخدمت جميع المؤهلات لدفع المجتمع الى الاعتقاد بحقيقة ما هو موهوماً كلياً ومن صنع الخيال»⁽⁵⁾. هذه المسافة هي اكبر مما كان عليه في ظل ستالين حيث العديد من الناس كان يؤمن «الاختلاقات». وتفسر سهاكة الكذبة وشمولها اضافة الى عمق الهوة بين الكلام والفعل الى حد كبير، النجاح الذي احرزه شعار «الغلاسنوست» والفرح والغبطة اللتين اثارهما هذا السماح المفاجيء باقامة جسر بين الكذبة والحقيقة. إن سياسة «الغلاسنوست» هي جواب اول على السؤال «ما العمل؟». جواب تقليدي: «في البدء كانت الكلمة...» فالمطروح اذن ضبط الكلمة، بهدف تحويلها الى سلاح فقال بيد السكرتير العام الجديد.

الفصل التاسع

«غلاسنوست»

حجران من الصوان موضوعان الواحد الى جانب الآخر.

إنها هنا جامدان أبكمان، ولا يجري شيء أمامنا.

ثم يأتي رجل حاذق. يأخذ الحجرين ثم الآخر يتفحصهما
بتنبيه، يحك الاثنين فتندلع شرارة. ميخائيل سالتيكوف -
ششيدرين.

من الحسنات أو المزايا الأكيدة التي تُتميّز عصر غورباتشيوف هو أنه أغنى مختلف
لغات العالم بمفردات جديدة، أهمها «البريسترويكا» و «الغلاسنوست». وترجمة هاتين
الكلمتين إلى اللغات الرئيسية مؤمنة من قبل وكالة نوفوستي.

أما وسائل الاعلام الغربية فتحاول استخدامها مناقشة أحياناً معناها إلا أنها متفقة
على أن الغلاسنوست جيدة، وإنها من نتاج غورباتشيوف والدلالة الأقوى على حدوث
تغيرات جذرية في الاتحاد السوفياتي.

إن جذور كلمة «غلاسنوست» هو «غلاس» glas، غولوس golos، الصوت.
ويعطي القاموس المعلن للغة الروسية لمؤلفه فلاديمير داهل، الذي ظهرت الطبعة الأولى
منه في ١٨٦٣ - ١٨٦٦، لهذه الكلمة التعريف الآتي: «ما هو معروف، شائع، عام»
وقد نشر قاموس داهل إبان الاصلاحات التي قام بها ألكسندر II، وهو يحمل كلمة
غلاسنوست دلالة سياسية. والكلمة تعبر انطلاقة من مفردة «رأي»، عن الرغبة
بالصراحة، المساهمة بنشاط البلاد، عن المداولات والنقاشات المفتوحة، العامة،

(بالروسية : غلاسني). فبعد الاصلاح الاداري وُصف أعضاء «الدوما» (الحكم الذاتي في المدن) الذين استفادوا من حق التصويت بغلاسني : شخصيات «عامة» ، يمكنها التعبير عن نفسها بشكل «مفتوح». وقد حاول الكاتب الهجائي ساتيكوف - شتشرين. تعيين حدود الغلاسنوست - هذه الحرية المقبولة - : وهي لا تركز إلا الى «حداقة الرجل القادر على المباغته» ، «قدرته على المعاينة» و «فطنته واحتراسه» «وإن لم يكن الرجل فطناً؟ يسأل الكاتب . إذا كان أحقاً وضرب الصوان برعونة؟ أو إذا صدف في الجوار وجود كومة من الزبل أو مواد أخرى ملتهبة فحينها سوف يُكتشف الحريق!» .

في ١٩٨١ لم يعطِ القاموس النموذجي للغة الروسية تعريفاً للاسم غلاسنوست مكتفياً بإحالة القارئ على الصفة المشتقة غلاسني التي تعني : «ما يمكن أن يعرف ويناقش علناً» وأهم ما في هذا التعريف بدايته : «ما يمكن أن» وهي عبارة تبطن أن شخصاً ما يجعل المسألة ممكنة ، سهلة المثال ، أو يعطي إذناً أو رخصة بها . أما مختصر القاموس السياسي الصادر ١٩٨٧ فيعطي شرحاً كاملاً شاملاً حول هذه الكلمة التي تعتبر مفتاحاً «للفكر السياسي» «الغورباتشيوفي». وهي لم تكن واردة في الطبعات الثلاث السابقة من «القاموس السياسي». ففي طبعة ١٩٨٣ حيث استبدلت أقوال بريجنيف بأقوال أندروبوف كانت كلمة «فرضية» (بالروسية جيبوتيزا) متبوعة مباشرة بالصفة «شاملة» (بالروسية غلوبالني). أما في «القاموس» بالنصيغة الغورباتشيوفية فقد أدرجت كلمة غلاسنوست بين الاليتين .

«الغلاسنوست» ، يقول لنا «القاموس السياسي» هي أحد المبادئ الديمقراطية الكبرى . أنها تؤمن شفافية عمل الادارات الحكومية ، وتسمح للناس بمعرفة ما تقوم به هذه الادارات من نشاط». ثم ان القاموس يكشف عن غائية الكلمة - الشعب الجديدة : «تمثل الغلاسنوست الشكل الأفضل لضبط أجهزة السلطة المحلية . خاصة ، من جانب الجماهير ، وانشكل الأفضل للصراع ضد البيروقراطية». ويظهر الطابع الأداتي لهذه الحرية «البديل عن ضائع» بجلاء خاصة عندما يتضح أن الضعف الجماهيري للسلطة لا يطال أساساً إلا أجهزة السلطة المحلية . والواقع أن الماداة المخصصة في القاموس هذه الكلمة ترسم حدوداً لإتساعها : «لا تدخل في نطاق الغلاسنوست المعلومات التي تطل أسرار الدول والأسرار العسكرية ، والعلمية والتقنية والانتاجية والحقوقية والطبية» ويحيل هنا استفزاز بين قوسين القارئ الى مادة : «التب

الثوري». ولم تكن هذه المادة ترد في الطبعات السابقة من «القاموس السياسي»، التي نشرت بعد ١٩٦٩. أما طبعة ١٩٦٩ فكانت تحتوي إحد عشر سطراً لا تدع أي لبس حول صلابة الايمان المطلوب: إن «التنبه الثوري بوصفه بصيرة ثورية وملكمة قادرة على كشف العدو الطبقي وإحباطه، هو إحدى الخصائص التي لا تنفك عن الشيوعيين. وهو ضروري خاصة في حالات الصراع الايديولوجي الحاد بين الاشتراكية والرأسمالية. ويعتبر «التنبه الثوري» واجباً وطنياً ومدنياً، على كل مواطن سوفياتي أن يلتزم به. وهو يساهم بتدعيم قوة أول دولة اشتراكية في العالم إضافة الى جميع دول «التحالف الاشتراكي»، إنه وسيلة فعالة للدفاع عن السلام العالمي». وفي ١٩٨٧ عالج «القاموس» هذا المفهوم من جديد في مادة أطول بثلاثة أضعاف (٣٧ سطراً). وبالمقارنة لا تتضمن مادة غلاسنوست سوى ٢١ سطراً. ويبقى «التنبه الثوري» شعوراً وطنياً وواجباً مدنياً. وهو ما يزال يهدف الى محاربة القوى المعادية للاشتراكية، التي تمنع «توطيد النظام الاجتماعي الطبيعي»، إلا أن هذا «التنبه الثوري» في صيغته الجديدة هذه، يتكيف مع متطلبات المرحلة التاريخية الجديدة، حيث «تدرك أشرس القوى انه من المستحيل تسوية الخلاف التاريخي بين الاشتراكية والرأسمالية بالوسائل العسكرية». والآن تلجأ الدوائر الرجعية الغربية الى إضعاف الاشتراكية بالعمل على «تآكلها من الداخل». وهي تلجأ لهذا الغرض الى «المخابرات وأساليب «الحرب النفسية»، فتشن حملات إيديولوجية، ساعية الى زعزعة الثقة بالنظام الاشتراكي، مقبحة نمط الحياة الاشتراكية، مفككة المشاعر الوطنية...». ويبدو من خلال قراءة المادتين أن ضرورة «التنبه الثوري» قد أصبحت أشد إلحاحاً عام ١٩٨٧ عما كانت عليه عام ١٩٦٩. ويشدد المؤلفون على أن غياب خطر العدوان الخارجي على الاتحاد السوفياتي زاد الى حد كبير احتمالات تُعرض الاشتراكية «للتآكل الداخلي» تحت تأثير الايديولوجيا المعادية. إذاً يبقى «التنبه الثوري» رفيق الغلاسنوست الذي لا ينفصل عنها، إنه حارسها الأمين. ومن المفيد القيام بقراءة مقارنة للواحد وعشرين سطراً من مادة غلاسنوست وللسبعة وثلاثين من مادة «التنبه الثوري»، حينها تظهر للعيان إمكانية تحقق الغلاسنوست أو استمالتها، أهدافها وحدودها، ويتضح تماماً ما يجعلها مختلفة جوهرياً عن «حرية الكلمة».

يستحضر جاك سيغالا وهو خبير في الاعلام قاعدة في الاتصال لا تخلو من

مفارقة: «إن طريق الجماهير يمر بالنخبة». وهو يلحظ أن غورباتشيف يحاول منذ توليه السلطة أن يفتن النخبة^(١) لا يمكن للأمن العام أن يدعي الحجة، ذلك أن تقنية أغواء أسياذ الثقافة وفي مقدمهم الكتاب والسينائيين، كانت قد أعدت تفصيلاً من قبل ستالين. من موقع السلطة كان لينين يمارس تأثيره بواسطة أجهزة الحزب والبوليس. وقد أقدم في ١٩٢٢ على طرد مجموعة من الفلاسفة والكتاب والعلماء، معتبراً أنهم ينقلون إلى الشعب فيروس المثالية. وقبل ذلك كان قد أجبر، في خريف ١٩٢١، ماكسيم غوركي على الرحيل، كونه قد انتقد بعض جوانب السياسة البلشفية. أما في النصف الثاني من العشرينات فقد أولى ستالين، الذي بدأ صعوده نحو السلطة، اهتماماً متواصلاً بأصحاب القلم. وهو بذل جهوداً عديدة لاقناع غوركي بالعودة إلى الاتحاد السوفياتي. وقد شكلت إقامة الكاتب الروسي الشهير الأولى في ١٩٢٨، بعد ما يمكننا تسميته هجرة إجبارية بحكم الأمر الواقع (وإن لم تكن بالقانون)، انتصاراً لغوركي ولستالين في آن معاً، ذلك أن منزل وفيلاً غوركي قد تحولاً إلى مكان للقاء الكتاب بستالين الذي كان يقوم بزيارات لمؤلف «الأم». وعندما أتم الأدب في السنوات ١٩٣٢ - ١٩٣٤ وأنشئ اتحاد الكتاب واعتبرت الواقعية الاشتراكية بمثابة الطريقة الوحيدة الصالحة للابداع، قام ستالين شخصياً بإدارة هذه العملية. وأصبح سكرتيه السابق ألكسندر شتشرباكوف سكرتيراً للاتحاد، حيث أصبح عين الأمن العام ويده. وقد كتب غوركي في هذه المرحلة في رسالة إلى رئيس الغوزيسدات (منشورات الدولة)، أخالاتوف: «إنها لمواهب رائعة تلك التي يتصف بها ستالين!»^(٢). ولم يتوقف ستالين عن الاهتمام بالأدب والسينما حتى آخر أيامه. أما الجوائز التي كانت تحمل اسمه والتي كانت تمنح وفقاً لاختياره وإرادته، فكانت تحدد السلم القيمي الستاليني - وهو وحده الصحيح. فالقمع الرهيب الذي كان مسلطاً على الناس وفي الوقت نفسه على الكتاب والسينائيين والموسيقيين كان الأسلوب الذي انتهجه ستالين في إدارته للثقافة. وفي الواقع لم يبن المسؤولين عن الثقافة عن تبخيره، وعن التعبير تجاهه عن محبتهم غير المحدودة: إنه الثمن الذي لا بد لهم من أن يدفعوه مقابل السلطة الهائلة التي منحهم إيها. فباسم السكرتير العام وباسم الحزب يتحكمون بأرواح الناس.

تلعب اللقاءات الشخصية (مع سيرغي ايزنشتين مثلاً) والمكالمات الهاتفية

(باسترناك، بولغاكوف...) دوراً مهماً، في الترسانة الستالينية. وفي هذا المجال بادر الصحافي الأمريكي، لثقة غربية بالنفس مردها جهل مطبق، الى اعطاء نصيحة لريغان بالاعتداء بنموذج غورباتشيف: «من العجيب أن نلاحظ في إطار الثقافة والتاريخ في الاتحاد السوفياتي، إن غورباتشيف قد اتصل شخصياً (بالهاتف) بساخاروف بمنطقة غوركي ليبشره باطلاق سراحه. فمنذ متى كنا نرى أن موظفاً سوفياتياً كبيراً يقدم على الاتصال بمنشقي زائع الصيت؟»^(٣) إلا أن فاسيلي غروسمان في روايته «الانسان والقدر» لا يجيب فقط عن سؤال الصحافي الأمريكي - وهو ليس بليغاً الى الحد الذي يتصوره - بل أنه يصف أيضاً مخابرة هاتفية أجراها ستالين مع أحد المنشقين.

وقد أعد غروسمان سيناريو مفصلاً عن هذه المكالمات التي سيستعيدنا غورباتشيف، بعد ربع قرن، بصورة تكاد تكون حرفية. ولا يلجأ غروسمان الى الاختلاف بل أنه يعيد تجميع عدة اتصالات هاتفية أو إشاعات عن مثل هذه الاتصالات التي أجراها القائد المرشد. إن أحد الشخصيات الأساسية. في الرواية، العالم الذري الكبير ستروم يفقد خطوته ويصبح من المغضوب عليهم. فزملاؤه الذين يفتقدون الى أي جدارة قد اعتبروا أن نظريته «مثالية». وفوق كل شيء يتضح أنه يهودي. لقد طرد من المعهد بعد أن حوكم من قبل زملائه وبات ينتظر أن يعتقل بين لحظة وأخرى. إننا في سنة ١٩٤٤. وفجأة يرن جرس الهاتف. ولم يتأخر الأكاديمي ستروم عن معرفة مكلّمه. ثم ان عبقرى جميع الأزمان والشعوب يبادر الفيزيائي: «يبدو لي أنك تعمل بالاتجاه المطلوب» وكل شيء يتبدّل كما يحصل في قصص الجن. وقبل أن يُعلم ستروم أي شخص بما حصل له تصله الدعوة للعودة الى المعهد، أما زملاؤه فسيستقبلونه بالتصفيق، ويحصل على كل ما يلزمه لتجهيز مختبره. وقد كتب غروسمان: «لقد كان كافياً أن يلقى أي إنسان ابتسامة عطف ليتغير مصيره برمته: أنه ينتقل من الظلمات، حيث كان مرمياً، الى قمة المجد والشرف والسؤدد. فعشرات الشخصيات المرموقة قد بادرت الى القاء التحية على هذا السعيد المصطفى: ألم يضحك ستالين له؟ ألم يمازحه ويخابره هاتفياً؟»^(٤).

من هنا فالمخابرة «التحريرية» التي أجراها غورباتشيف مع ساخاروف لم تكن إلا محاكاة «لستالين رغم أنها اعتبرت نموذجاً عن «الغلاسنوست». وقد عادت عليه بفائدة سياسية عظيمة. أنها تعبير عن طيبة الزعيم الشخصية، ولكننا لا نعلم أبداً لماذا نفى

ساخاروف الى غوركي دون أية محاكمة؟ ولماذا لم يتطلب بالمقابل إخلاء سبيله سوى مكالمات هاتفية بسيطة؟. كان تحرير ساخاروف هدية من الأمين العام الى الشعب أو بالأحرى الى النخبة والغرب .

ويمكننا حتى أن نجد تماثلاً بالنسبة لانتقاء اللحظة من قبل السكرتير العام لاجراء «مكالماته الهاتفية». ففي ١٨ نيسان ١٩٣٠ اتصل ستالين بميخائيل بوخالوف، التي منعت جميع مسرحياته ويات دون أي مصدر عيش . وقد عبّر القائد المرشد عن عطفه على الكاتب وأنقذ حياته . عشية ذلك اليوم كانت قد تمت مراسم دفن ماياكوفسكي الذي انتحر قبل ثلاثة أيام . وقد دفع موت ماياكوفسكي ستالين الى السماح لافغيني زامياتين بالرحيل نهائياً الى الغرب . في ١٩ كانون الأول ١٩٨٦ أعلنت لاريسا بوغوراز زوجة أناتولي مارتشنكو المدافع الشهير عن حقوق الانسان الذي زار معتقلات خروتشيف وبريجنيف، تلغرافياً بموت زوجها في سجن تشيستوبول . في ٢٣ كانون الأول غادر أندريه ساخاروف منفاه في غوركي أثر مكالمات هاتفية من غورباتشوف . كان ستالين يخشى أن يزود ماياكوفسكي بولغاكوف وزامياتين ببعض أفكاره . أما غورباتشوف فكان يخشى من جهته أن لا تتحمل صحة الأكاديمي ساخاروف منفي في غوركي .

متناولاً بنظرة ثاقبة «طيبة» ستالين، يبيّن فاسيلي غروسمان أن المكالمات الهاتفية التي منحت متلقيها «المجد والشرف والسودد» دمرت في الوقت نفسه روحه . إن ستروس الذي كان مهدداً بالتوقيف والموت، ورافضاً القيام بنقد ذاتي، ارتكب بعد المكالمات الهاتفية ودون أن يدرك، عملاً مشيناً، تلبيةً للذين كانوا في العشية جلاديه . إذن، يبدو غروسمان سباقاً لاكتشاف النتيجة الكبرى التي تؤمنها المكالمات الهاتفية : إنها تقيم علاقة بين الجلاد والضحية وتثير لدى هذه الأخيرة شعوراً بالوداعة تجاه الجلاد . ولقد سمى علماء النفس الغربيون الذين درسوا الانفعالات النفسية لدى الرهائن المحررة «تناذر ستوكهولم» ويمكننا بهذه الطريقة نفسها، الحديث عن «تناذر ستروم» بشأن مكالمات الأمناء العامين .

لقد نظّمت «الغلاسنوست» وكأنها حملة إضافية مفروضة من فوق بإرادة من المراجع العليا . ويشبه ذلك ما قام به نقولا الثاني، بعد الهزيمة في حرب اليابان والحركات

الثورية بين ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، عندما لجأ إلى برنامج إصلاحى واسع ، إذ أعطى لرعاياه حقوقاً مدنية شملت حرية التعبير ثم أخضعها لأحكام خاصة . إن حرية الكلمة أصبحت قانوناً حكومياً . أي أن القانون حل مكان الرقابة .

إن الرقابة ما تزال موجودة في الاتحاد السوفياتى . غير أن رئيس التحرير هو الذي يُسأل الآن عن التوجه الأساسى لجهازه الاعلامى (وهذا ما ينطبق على جميع وسائل الاعلام الجماهيرية ووسائل الدعاية) . وهكذا يروي لابتيف رئيس تحرير الايزفستيا أن غورباتشوف أثر عميقاً عام ١٩٨٦ في مديري أجهزة الاعلام عندما أعلن في أحد اجتماعاتهم قائلاً : «حضرات الرفاق رؤساء التحرير أنكم منذ الآن من يناط بهم حق المنع وإعطاء الاذن . . .»^(٥) . تبدأ آلية التنظيم التي تعتمدها «الغلاسنوست» بانتقاء «منارات» الحملة : أجهزة الاعلام النموذجية ومحرريها . ويظهر الطابع المصطنع لهذه العملية بجلاء ، عندما نكتشف أن الأسبوعيات الرائدة هي أخبار موسكو وأوغونيك . إذ يمكننا أن نلاحظ أنه ليس لأي منهما تقاليد تقدمية ، هذا علماً أننا حين نقول جهاز إعلامى سوفياتى وتقاليد تقدمية نتكلم أصلاً عن شيئين ينفي أحدهما الآخر . ولدت أخبار موسكو في ٥ تشرين الأول ١٩٣٠ ، باللغة الانكليزية وباسم موسكو نيوز . أما مهمتها فنشر أفكار ستالين وسط الانسانية التقدمية . وكان يعمل فيها إلى جانب الصحفيين السوفيات ، شيوعيون أجنب . وخلال سنوات مديدة عرفت هذه الأسبوعية ، كرئيس للتحرير (ابتداء من ١٩٣٢) ميخائيل بورودين وهو ممثل الكومينترن لدى سان يات - سن ، الذي كان ، في العشرينات يسوق السياسة السوفياتية في الصين . ثم حتى عام ١٩٤٩ لم تجذب أخبار موسكو إلا قراء رديئين ، تروي لهم قصصاً عن «الاشتراكية الناضجة» تجعل المرء ينام وهو واقفاً . في عام ١٩٥٦ أصبحت هذه الأسبوعية مجلة لوكالة أخبارية جديدة كل الجدة وكالة نوفوستي ، التي شكلت من حيث ارتباطها بالـ . كا . جي . بي بديلاً لوكالة تاس الرسمية . وفي ١٩٨٧ أعطى رئيس تحرير أخبار موسكو التوضيح الآتي : «لقد صممت مجلتنا لتكون بمثابة جريدة مستقلة على حدة ، موجهة خصيصاً إلى البلدان الغربية ، وكنا نبدو هناك كصحيفة معارضة ، أما الآن فهم يروننا بصورة مختلفة أي «كموصل لحركة السياسة الغورباتشوفية»^(٦) .

تأسست أوغونيك عام ١٩٢٣ ، وأصبحت منذ نهاية العشرينات المجلة المصورة

الوحيدة الواسعة الانتشار. وقد أديرت منذ ١٩٥٣ وحتى بداية الغلاسنوست من قبل الشاعر والمسرحي أناتولي سافرونوف، الذي يعتبر شخصية رجعية حتى في أوساط رؤوساء التحرير السوفييات.

وكان يكفي، لتحويل أخبار موسكو وأوغونيك الى «عندليب» ينشد الغلاسنوست والبريسترويكا والتحول الى الديمقراطية، تبديل خط الحزب وتعيين رؤساء تحرير جدد. وهكذا سُلمت أوغونيك الى الشاعر والصحافي الاوكراني فيتالي كوروتيتش، وأخبار موسكو الى المؤرخ ايغور اياكوفليف الذي أمضى سنوات طويلة في متن جهاز اللجنة المركزية. ولم يكن كوروتيتش أو اياكوفليف معروفين بخلافهما مع خط الحزب في عهد بريجنيف. أو أنها كانا يخفيان ذلك جيداً. وبالمقابل فإن ملاحظات كوروتيتش حول إحدى رحلاته الى الولايات المتحدة معروفة جداً وقد نشرت تحت عنوان: الوجه الخاقد. ويعمل الكاتب، في هذه الملاحظات، على وضع اليد على جروح الامبريالية الاميركية بلذة سادية، وهو لا يدع للقارئ مجالاً لأي شك حول تفضيل الاشتراكية وكونها هي العليا. في أواخر ١٩٨٨ أوضح كوروتيتش أن العديد من فقرات كتابه كتبت رغماً عنه من قبل محررين «بريجنيفيين». وقد عُيّن أيضاً بعض رؤساء التحرير الجدد في المجلات الشهرية الأدبية والسياسية وهكذا تكتمل اللعبة: ها أن طليعة الغلاسنوست قد ولدت. إن انشاء نظام التمويل الذاتي بالنسبة للأجهزة الاعلامية دفع بالمحررين الى محاولة اصطياد القراء، وهكذا بدأت تنشر مقالات مثيرة حول أسرار الماضي السوفياتي وأخرى تكشف عاهات النظام. وفي أواخر ١٩٨٨ جرت محاولات للحد من تأثير «منارات الغلاسنوست» وذلك بالحد من الاشتراكات، إلا أن زخم الاعتراضات حال دون ذلك. واستمرت أوغونيك وأخبار موسكو ونوفي مير وزناميا (الراية) باحتلال المركز الأول في الصحافة السوفياتية وذلك من حيث عدد المشتركين. وبالمقابل فأنا نشهد هنا عطوبة الغلاسنوست وهشاشة إمكانيات السلطة. يتم تغيير رؤوساء التحرير في خمس أو ست صحف وتحديد الاشتراك إلا أن «حجري الصوان» اللذين أشار إليهما سالتيكوف - شيتشدرين يظنان الواحد الى جانب الآخر، والشرارة لا تندلع. ما تزال الغلاسنوست تدهش السوفييات والعالم أجمع وقد أصبحت مرادفة «للربيع الغورباتشيفي». أما أسس هذا التكتيك السياسي فكانت قد وضعت من قبل ستالين. ففي ١٣ أيار ١٩٤٧، وخلال حوار مع الكاتين فادييف

وسيمونوف عرض ستالين نظرة كان قد بدأ العمل بها أصلاً، وهو ما يشير إليه سيمونوف نفسه. فقد اقترح الأمين العام الذي كان يرأس أيضاً مجلس الوزراء، تأثير «الليتراتورنايا غازيتا»، التي كانت تطبع خمسين ألف نسخة كل أسبوع. أراد ستالين أن يزيد أعدادها عشرة أضعاف وتحويلها الى نصف شهرية، وقد طلب خاصة بأن لا تحصر اهتمامها بالمادة الأدبية. كان يريد صحيفة «سياسية واسعة الانتشار، جماهيرية». كل جرائدنا، أوضح ستالين «هي بمعنى ما رسمية. أما الليتراتورنايا غازيتا فهي جريدة اتحاد الكتاب، ومن هنا يمكنها أن تطرح بعض المسائل التي لا يمكننا أن نطرحها رسمياً أو لا نريد أن نطرحها. فبوصفها جريدة غير رسمية تستطيع الليتراتورنايا في تناوُلها لبعض الموضوعات أن تكون أكثر جرأة منا وأقرب الى المواقف اليسارية. كما يمكنها من حيث قوة موضوعاتها أن تتميز عن وجهات النظر الرسمية، وربما دفعنا هذا الأمر الى انتقادها أحياناً، ولكن عليها أن لا تخاف، بل أن تكمل مهمتها مهما كانت الانتقادات». أما سيمونوف الذي ينقل هذا الحديث فيضيف «أتذكر تماماً أن ستالين أعقب كلماته هذه بضحكة صغيرة»، ثم أنه (ستالين) تابع قائلاً: «عليكم أن تدركوا أنه لا يمكننا دائماً أن نقول على المستوى الرسمي ما نتمنى قوله. هذا ما قد يحصل في السياسة، وهذا بالضبط ما على الليتراتورنايا أن تساعدنا بشأنه، وليس عليها بشكل عام أن تخاف أو أن تنظر الى ما حولها بحذر شديد، أو أن تنقيد برأي وزارة الخارجية فيما يتعلق بمقالاتها التي تتناول موضوعات دولية. وليس على وزارة الخارجية أن تطلع على مقالاتها. عليها أن تهتم بشؤونها، كما على الليتراتورنايا أن تهتم بشؤونها هي الأخرى». وفي الختام أعلن ستالين أنه في حال نجاح الليتراتورنايا غازيتا الجديدة «فإننا ربما سنقترح عليكم إنشاء وكالة أنباء غير رسمية لتمكنوا من تلقي ونشر معلومات غير رسمية»^(٧).

وهكذا غدت الليتراتورنايا غازيتا نزولاً عند رغبة ستالين تعبيراً عن وجهات النظر الستالينية «غير الرسمية»، أو ولنستخدم عبارة الرجل الذي شغل فيها منصب رئيس التحرير لسنوات مديدة، ألكسندر تشاكوفسكي «الهايد بارك السوفياتي». وقد أنشئت الوكالة الصحافية غير الرسمية نوفوستي بعد وفاة ستالين، غير أنها كانت، كما أشرنا، تحت رعاية الـ كا. جي. بي إلا أن الهدف بقي نفسه: تلقي ونشر «معلومات غير رسمية».

تحقق الغلاسنوست دون أي شك مشروع ستالين: إنشاء صحافة «غير رسمية»، إلى جانب الصحافة «الرسمية»، تعبر بشكل مختلف عن سياسة الأمين العام. ليس هنا إلا بعداً واحداً، إذ يتمثل الثاني باستخدامها كأداة سلطة أو وسيلة لضبط الحلقات الوسيطة والدنيا في الجهاز، وذلك من خلال «تنظيم» «غضب الجماهير». في العشرينات وخاصة الثلاثينات، كان للغلاسنوست اسم آخر: النقد والنقد الذاتي. في ١٩٢٩ نبه ماكسيم غوركي من مقره في كوبري ستالين إذ كتب إليه أن «إضاعة الواقع السوفيياتي من قبل الصحافة المهاجرة والبورجوازية عامة تستند كلياً أو يكاد على وقائع ذات طابع سلبي تنشرها صحافتنا متوخية أهدافاً تعليمية وتعبوية - فهكذا في سبيل أهداف النقد الذاتي... نزود الأعداء بمادة هائلة... تطل مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا بنفسه»^(٨). وقد أجاب ستالين على هذا العالم الانساني الكبير والمدافع عن الديكتاتورية موضحاً له ألف باء سياسة «الغلاسنوست»: «لا يمكننا الاستغناء عن النقد الذاتي... بدونها يصبح ركود واهترأ الجهاز ونمو البيروقراطية من الأمور التي لا يمكن تلافيها، والتي تؤدي إلى القضاء على مبادرة الطبقة العاملة الخلاقة... نعم، النقد الذاتي يؤمن مادة للأعداء. هنا أنت على حق تماماً. غير أنه يعطينا أيضاً المادة والاندفاع أيضاً لكي نتقدم. فهكذا يحجب السلبي وتعاود تغطيته بالإيجابي»^(٩). وبعد ما يقارب ستين عاماً أوضح مرشح إلى انتخابات نواب الشعب لمتخيه إلى أي حد يعتبر مهماً اليوم القيام بنقد ذاتي دون شفقة أو رحمة. فوحده النقد الذاتي يعطي للحزب الحق المعنوي للتقدم على رأس البريسترويكا^(١٠).

تقنين استياء الجماهير تجاه الأجهزة الإدارية تكمم هي إحدى طرق الإدارة الكبرى في الأنظمة التوتاليتارية. فعندما يقدم القائد هو نفسه على استثارة غضب الشعب لضبطه فيما بعد، فإنه يستخدمه لتوطيد سلطته الشخصية ولإبراز الصلة الوثيقة التي لا تنفصم والتي تشده إلى العمال. يصعب فهم مرحلة «الارهاب العظيم» (١٩٣٥ - ١٩٣٨) دون الأخذ بالاعتبار أنها كانت لحد بعيد مرحلة غلاسنوست شاملة جرى التعبير عنها من خلال التشهير - في العلن والسر - في إطار الاجتماعات أو بواسطة الرسائل إلى الصحف. أما الارهاب الذي طاول مجمل طبقات المجتمع فكان يوصف من قبل الدعاية بالحرب على «القادة»، التي يقودها أبو الشعب للدفاع عن الشعب. وكذلك فإن «الثورة الثقافية» التي دعا إليها ماو وأظهرت كضربة موجهة ضد «الأركان

العامة»، كانت نسخة لنموذج الحكم الستاليني. والواقع أن خبراء الشؤون الصينية يتساءلون إذا ما جرت ترجمة التعبير الذي استخدمه ماو لتسمية عملياته هذه، الى اللغات الأخرى بصورة صحيحة. ويبدو لي في أي حال، أن المهم هو أن «الغلاسنوست» الستالينية الأولى في السنوات ١٩٢٨ - ١٩٣١ أسمى «ثورة».

ويغدو الطابع المخصوص بالغلانسنوست الحالية، كأداة للسلطة، جلياً تماماً عندما نقارنها بالمراحل الماثلة في الماضي. ففي ١٨٥٥ أدى سقوط سياستوبول وموت نقولا الأول، بعبارة أحد المعاصرين، الى استفاقة روسيا من سباتها العميق. إذ عندها طفت الى السطح نتانة نظام الحكم، وكل نتائج حالة الاختناق^(١١). ولدت الغلانسنوست، وكانت مرحلة من الكشف و«السخط اللاذع والتهكم»^(١٢) وقد أنشئت مجلات هجائية ونشرت الصحافة مقالات اتهامية. في ١٨٥٦ ظهرت «صور من الريف» لصاحبها سالتيكوف - شتيدرين، وهي مرآة تكتشف روسيا فيها نفسها وسط الرعب والضحك. إلا أن الصحافة «الاتهامية» لا تنشط إلا في إطار الرقابة. وهي مرخص لها من قبل هذه الرقابة. وهناك أيضاً بالمقابل نقد رسمي وهو، بالطبع، غير راضٍ: «لقد أخذ أدبنا النقدي» المتهم على عاتقه أن يعرض لتهكم العامة جميع الاسمال القابعة في كهف أصغر دائرة، أو في أقصى زاوية قذرة، أو في طرف بيت موظف بائس»^(١٣). لا ثمر الأدبيات الاتهامية إلا بقدر ما تعاملها الرقابة بتسامح. إلا أن الرقابة تكتفي بالمنع، أي أنها لا تحدد للاهجية أين توجه نظرها، وأي موضوعات تتناول. إذن، كان ناشرو المجلات اللاذعة ومؤلفو المقالات الاتهامية يتصرفون خلال ستينات التاسع عشر بشكل مستقر وإن ضمن إطار الرقابة.

أما موجة الغلانسنوست الثانية فقد ذهبت أبعد من الأولى بكثير. ففي ١٩٠٥ أقرت الأحكام التي ترعى الصحافة، ثم استكملت عام ١٩٠٦. فحقوق وواجبات الصحافة باتت محددة من قبل القانون. لقد ألغيت الرقابة المسبقة تخصيصاً. وقد أصبح لكل جهاز حزبي - وكانت الأحزاب كثيرة في روسيا - صحيفة أما حرية الكلمة فقد بدت، رغم محدوديتها بالمقارنة مع انكلترا أو فرنسا خارقة حتى بالنسبة للتقاليد الليبرالية السائدة في المرحلة الغورباتشيفية.

لقد بدأت «إزالة الجليد» في كانون الأول ١٩٥٣ انطلاقاً من مقالة لفلاديمير

بومرانتسيف، بعنوان «الصدق في الأدب»، نشرت في مجلة نوفى مير، إضافة الى قصة لايلىا اهرنبورغ بعنوان «ذوبان الجليد» ظهرت لاحقاً في نيسان ١٩٥٤. ويتحدث بومرانتسيف (مستخدماً كلمة رائجة جداً اليوم) عن «النقص» في إظهار الحقيقة في مجال الأدب والحياة. «الصدق، هذا ما تحتاج إليه برأى بعض الكتب والمسرحيات»، ثم ان إهرنبورغ يقدم على كسر تابو آخر: إنه يتكلم عن الحب والأمراض وحتى عن الموت في زمن كان يكفي لأي رواية سوفياتية أن تتحدث عن رداءة الزمن ليعتبر مؤلفها منشقاً كريهاً. ولكن سرعان ما تم تمزيق مقالة بومرانتسيف ورواية اهرنبورغ من قبل أجهزة النقد الرسمية بعد أن أثارنا استنكار السلطة الايديولوجية.

غير أن «إزالة الجليد» وهي الآداة التي استخدمها ورثة ستالين في صراعهم من أجل السلطة بدأت تنشر الدفء تدريجياً على الأرض المجلدة. وأخذت حدوده بالاتساع حتى بات من الممكن طرح الاسئلة. وقد أعطى الأمين العام للجنة المركزية خروتشوف إذناً بهذا الصدد كما أن خروتشوف قد حدد في تقريره «السري» للمؤتمر العشرين، وهو فعلياً واسع الانتشار في البلاد، وخلال الاجتماعات «المفتوحة» أو «المغلقة»، لائحة بالمسائل التي على الشعب أن يهتم بها. وهذه اللائحة غاية في الاتساع: تاريخ الثورة ثورة أكتوبر والدور الذي لعبه ستالين، الاخطاء التي ارتكبت ابان التأميم، الارهاب والحرب العالمية الثانية. إذن في ١٩٥٦، جرى تعداد «اللطخات البيضاء» وهو الاسم الذي أطلق بعد ثلاثين عاماً على الأكاذيب حول الماضي السوفياتي. وسوف تكمل السنوات الخمس الأولى من الغلاسنوست اللائحة بشكل مستفيض، غير أن هذه الاضافة كانت منذ فترة في طورها لتدخل في دائرة المسموحات. بعد تقاعده قرأ خروتشوف «الدكتور جيفاغو» وقد وجد رواية باسترناك مضجرة، إلا أنه ندم مع ذلك لكونه لم ينشره: «فلما كان ليحدث أي شيء» ولكن «رقيب الباطن» كان، كما يشهد الكسيس ادجوباي، قد بدأ منذ ١٩٦٣ يضايق خروتشوف: «ألم نبالغ باطلاق العنان؟ ألم نصل الى زمن الفيضانات الكبرى^(١٤)؟ أو كما كتب في مذكراته «كنا نكبج بطريقة ما هذا الذوبان للجليد، حتى لا يتحول الى سيول وفيضان»^(١٥).

يلجأ الأدب الى تبخير الغلاسنوست كما سبق أن فعل بالنسبة «لازالة الجليد». ففي صيف ١٩٨٥، صدرت رواية لغالانتين راسبوتين «الحريق»^(١٦)، وفي كانون الثاني ١٩٨٦، رواية أخرى ليفيكتور آستافيف «اليولار البائس»^(١٧).

وتبقى قيمة هاتين الروايتين الأدبية موضع نقاش . إلا أن ها هنا شيئاً أكيداً، وهو أن الأدب السوفياتي الرسمي لم يعرف أبداً من قبل مثل هذه الصرخة المعبرة عن الألم والخوف واليأس . وقد تناول راسبوتين ، في أدبه الريف وأستافيف مدينة ريفية صغيرة . والمشهد هو نفسه أينما كان : تدمير الطبيعة ، وانحطاط الانسان . ويتلمس الكتاب السوفيات المغزى : الخير يُهزم ليتتصر الشر . وقد حملت المجلات التي نشرت هاتين الروايتين بصمات الرقابة . ويمكننا الاستنتاج من كل ذلك أنه قد أذن للسوفيات بالصراخ والبكاء من الألم .

وفي أجواء «ذوبان الجليد» اخضوضرت فجأة شجرة الأدب السوفياتي من جديد - وبشكل لم يكن متوقفاً خاصة بعد الشتاء الستاليني الرهيب : انفجار الشعر، بروز مجموعة هامة من المؤلفين الشباب، أسماء جديدة ومن بينها اسم ألكسندر سولجينستين، وقد شهد «الساميزدات» الذي كان يوجه إليه قسم مهم مما كتب حينها، وما تم منعه من قبل الرقابة، على وفرة الحصاد الأدبي . أما السنوات الخمس الأولى من الغلاسنوست فكانت من طبيعة أخرى . وهي لم تشهد إلا بعض الكتب التي أصبحت رمزاً «للحريات» الجديدة . وقد لفتت الأنظار، أساساً، لأن مؤلفيها سمحوا لأنفسهم باقتحام ميادين كانت حتى ذلك الحين من المحرمات . وفي روايته «قضم» يتناول تشانغيز آيتما توف وللمرة الأولى مشكلة المخدرات - من وجهة نظر المستهلك إضافة الى الممّون - التي اعتبرت حتى الآن وقفاً على الغرب وهو في طور الانحلال . وفي «الأثواب البيضاء» يصفّي فلاديمير دودينسف حساباته نهائياً مع ليسينكو والليسانكية . أما في «البيسون» فيرسم لدانيل غرانين صورة عن عالم بارز، تيموفيف - ريسوفسكي وهو مهاجر يعيش في ألمانيا وقد أوقفه السوفيات في برلين عام ١٩٤٥ ، وبعد أن قضى سنوات طويلة في المعتقل أعيد الى دائرة النشاط العلمي إلا أن بعض القيود ظلت تفرض عليه . وفي «أولاد أرباب» Les Enfants d'Arbat يصف أناتولي ريباكوف ستاليناً شيطانياً يحرف المبادئ اللينينية للاشتراكية . وسريعاً ستخرج الغلاسنوست من إطار الأدب حيث تفتقد الى القوة . لتتخرط في «البريسترويكا» . وتجدر الإشارة هنا أنه لم يُرَفَد الأدب بأسماء جديدة وكتاب من الشباب (فجيل الأربعين عاماً هو الذي اضطلع بهذا الدور) . ولم تبرز أية أهمية تضيفي نوعاً من الحيوية الحقيقية على عصر «إزالة الجليد» . وإذا اعتقدنا بما يقوله ماركس من أن البشرية تنفصل عما فيها بقهقهة عالية، لا بد لنا

من تفسير غياب الاهجية بوصفه رفضاً للتخلي عن الماضي . وهناك نقص آخر يظل ملفتاً اليوم . فخلال السنوات الأولى التي أعقبت موت ستالين برز أسلوب أدبي شيق جداً تمثل بالعلم المخيالي ، الذي غدا نوعاً من تمثل للأفكار الجديدة ، والتأمل الفلسفي والتفكير الديني . وفي الوقت نفسه يعبر العلم المخيالي عن التفاؤل التاريخي السائد في الايديولوجيا السوفياتية والواعد - في مستقبل ليس ببعيد - بتحقيق الحلم الأبدي ، بالجنة على الأرض . ومن هنا فإن غياب العلم المخيالي في العصر الغورباتشوفي يدل ، بين أشياء أخرى ، على فقدان الايمان بالمستقبل .

كان الاعلاميون والاقتصاديون سباقين للتحوّل الى طليعة الغلاسنوست . وقد تدفّق على الشعب السوفياتي سيل من الأرقام التي تتسابق على الإثارة . أما الاحصاءات وما تصطنعه الصحافة من وقائع ، والبرافدا ضمناً ، فإنها لا تدع أي شك : الامور من سيء الى أسوأ ، والأزمة إقتصادية واجتماعية وبيئية وأخلاقية في آن معاً . إننا نعيش حياة سيئة على كل الأصعدة ، تلك هي صرخة الاعلاميين . والبريسترويكا هي خشبة الخلاص الوحيدة ، بالطبع وغورباتشيوف . أيضاً والواضح أن الأمين العام يريد إحداث صدمة كهربائية في وعي «سكان الاشتراكية الناضجة» . ولكل شجرة . كما يقول مثل روسي ، فأسها . لقد رأى غورباتشيوف أنه من الضروري إحداث صدمة ليُبين أن برناجه وشخصه يشكلان الحل الوحيد .

وتؤكد أبرز تعبيرات الغلاسنوست طابعها الأداتي . إن تكتيك غورباتشيوف يقضي بتوقيع الرغبات والطلبات . وهو يسعى إلى الظهور وكأنها يقدم عطاءات وهدايا . وقد سمح بنشر الكتب التي كانت ممنوعة من قبل . وقد علت أصوات بعض الكتاب ، هؤلاء الذين احتلوا حديثاً مكانة مرموقة في دائرة الأدب السوفياتي تمكنهم من نشر وإعادة نشر «ما ينامون عليه» من كتابات ، ضد هذا «العطف على الأموات» ، الذي سمح لهؤلاء بالنفاذ الى عالم الأدب وتسميم وعي المواطنين السوفيات بعد أن احتلوا مساحة غير مبررة في المجلات ولوائح دور النشر . أما الكتاب من أنصار غورباتشيوف فقد أبدوا من جانبهم وبحرارة هذه «الفتحة» . والأشد اغتباطاً كانوا القراء الذين اكتشفوا من جديد كتاباً كبيراً (قدماء) ، وعوالم مجهولة . وسادت أثر ذلك عبارة تقول : «أن يقرأ المرء في أيامنا أجل من أن يعيش» وهكذا بتقديمه الأدب ، الذي كان ممنوعاً ،

هدية للناس نجح غورباتشيف بما عجز عن تحقيقه خلال خمس سنوات: تحسين الحياة.

ومن أشد قرارات الغلاسنوست جذرية كان ذاك القاضي بالعدول عن تشويش «الأصوات»، وهي تسمية كانت تطلق على الاذاعات الغربية التي تبث بمختلف لغات الاتحاد السوفياتي. لقد تم التوقف أولاً عن التشويش على «صوت أميركا» والـ بي. بي. سي. «والموجات الألمانية»، ثم الاذاعة التي تطاها حملات التشنيع من قبل السلطة السوفياتية أكثر من أي واحدة سواها: «راديو الحرية». وربما كانت أكلاف التشويش الباهظة من العناصر التي استند إليها هذا القرار. إذ كانت ميزانيتها تتخطى ميزانية موازنة البث الخاصة بجميع «الأصوات» مجتمعة. غير أن الجوهرى بالموضوع يكمن في مكان آخر: لقد أدرك المؤدلجون السوفيات الفائدة التي يجنونها من هذه الخطوة الليبرالية الجريئة. والسوفيات المزودين فقط بالمعلومات الرسمية كانوا «يقبضونها» لعدم توفر غيرها، غير أنهم كانوا يأولونها على سجيتهم.

أما المعلومات التي تبثها «الأصوات» فكانت تعتبر موثوقة. ومباشرة بعيد انتخابات غورباتشيف، أخذت الاذاعات الغربية دعم البريسترويكا على عاتقها. وعدا بعض الانتقادات التفصيلية، كانت سياسة غورباتشيف إجمالاً موضع تأييد الغرب. وقد تناوب ممثلو الطبقة المثقفة السوفياتية الذين يقيمون في الغرب على الكلام بطيبة خاطر، من إذاعات «راديو الحرية» و «صوت أميركا» والـ بي. بي. سي، إضافة الى أن بعض المهاجرين المعروفين عادوا في زيارة الى الاتحاد السوفياتي وأعطوا بعض المقابلات ثم أثار عودتهم الى الغرب، بعض الأحاديث «للأصوات» مؤكدين عبر هذه الاذاعات الحرة دعمهم لغورباتشيف - وما توفره هذه «الأصوات» من فوائد يصار الى تبيانها كل يوم. فقد نشرت البرافدا مثلاً رسالة من أحد القراء يقول فيها: «هذه الأيام سمعت على «صوت» أن عضواً هاماً في إدارة الحلف الأطلسي كان قد قدم تقريراً سرياً حول التطلعات الاقتصادية السوفياتية خلال العشرين سنة القادمة. وما يحير هو أنه رغم سرية التقرير جرى الكشف عن الأرقام. ماذا يعني ذلك؟ هل يكون نوعاً من «الموتناج» الغربي؟».

أما البرافدا فأجابت بدقة عن هذا السؤال، وهذا ما كان مستحيلاً بالأمس

القريب عندما كان يعتبر الاستماع الى «الأصوات» جريمة. وقد أكد الجهاز المركزي للصحافة في الحزب وجود التقرير الذي أشار إليه المكتب اللاسلكي النروجي، ثم قامت باعلام الملايين من قرائها: أنه وبناء على ماورد عن مساعد الأمين العام للحلف الأطلسي «فإنه تم الغاء مشاريع انمائية هامة من الخطة السوفياتية للسنوات القادمة» وذلك لأسباب تتعلق بالمشاكل السياسية. وقد حملت البرافدا المسؤولية عن صحة هذه التكهّنات لواضعي التقرير، غير أنها لم تتحفظ عن الاعلان أنه «حسب رأي الخبراء الغربيين فإن البشائر الكبرى للنمو الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي تتمثل بوجود ميخائيل غورباتشوف على رأس السلطة، ومتابعة الاصلاحات التي بوشر بتنفيذها وزيادة عائدات التصدير. وغياب الاضطرابات القومية إضافة الى الأحوال الجوية المؤاتية للزراعة»^(١٨). من هنا فإن السؤال المطروح لا يمكن إلا أن يكون مصطنعاً: الى من سيركن القراء والمستمعون، لاعلامهم أم لخبراء الحلف الأطلسي؟ ويتمثل أحد أروع نجاحات الغلاسنوست في أنها حررت المراسلين الأجانب العاملين في الاتحاد السوفياتي من ضرورة التفتيش عن الأخبار. فكل «المستجدات» و «الأخبار المثيرة» تسقط عليهم مصنعة سلفاً من قبل المصادر السوفياتية. وذلك من خلال وكالة تاس ونوفوستي، و «اجتماعات التعليقات» «البريفنك» في الوزارات اثر أحاديث «بالامانات» مع القادة السوفيات. فليس من حاجة بعد الآن لأية مصادر غير رسمية. كل شيء يأتي مباشرة، كما يقول الانكليز، من «فم الحصان». فلم يسبق أبداً، حتى في ظل الرقابة الأكثر تشدداً، ان مورس مثل هذا الضبط الهائل على الصحافة الأجنبية. وتكمن أهم العناصر التي تميز الغلاسنوست أو أهم انتصاراتها الجوهرية، في أنها نجحت باشتراك الغرب في عملية إعادة قولبة الوعي الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي.

فهكذا عندما يراد مثلاً تخفيف التوتر الذي أحدثه الاعلان عن مجزرة تيبليسي في ٩ نيسان ١٩٨٩، يصار الى جمع المراسلين الأجانب في وزارة الخارجية في موسكو. ويعرض أمامهم كاسيت فيديو تبين شيفارنادزه وهو يتحاور مع بعض المثقفين من جيورجيا. وهكذا حصل الصحفيون الغربيون الذين لم يسمح لهم بالذهاب الى جيورجيا على معلومات «من يد معلم». وقد لخص مراسل اللوموند، الذي يعرف عادة عما يتكلم، الأمر على النحو الآتي: «مباشرة بعد نشرها تصبح مقالات المراسلين الأجانب مادة لاستشهادات غزيرة تبثها يومياً الاذاعات الأجنبية الموجهة الى المستمعين

السوفييات. وتصل الرسالة بسرعة أكبر وبصورة أوضح بقدر ما يرفقها الصحفيون الغربيون بتعليقاتهم. وهكذا لا يحتاج مثلاً الكرملين الى الاشارة بنفسه في صحافته الى أن القيادة المدنية أو العسكرية أو الاثنين معاً، قد عملتا بصورة اختيارية حرة ضد غورباتشيف» (١٩).

«هل أن «صوت أميركا» قد غيرت لهجتها؟» سؤال طرحته سوفياتسكايا كولتورا. وقد أجابت الصحيفة موردة كلاماً للمسؤول عن القطاع السوفيياتي في الاذاعة الأميركية يقول فيه «إنه بات بإمكاننا الافتراض أن وسائل الاعلام السوفيياتية لم تعد معادية لصوت أميركا بل أنها دخلت في منافسة معها» وفي الحقيقة فإن هذه الاذاعة ومجموعة هذه الوسائل تشكلان نمطين اعلاميين. ثم ان الصحيفة تصل الى استنتاج «أن المعلومات التي تنشرها «صوت أميركا» باتت شأنها في ذلك شأن مجمل السياسة الاميركانية، وبصورة واضحة أقل عداء للشيوعية» (٢٠).

في ١٩٤٧، وبعد تحقق النصر، وفيما كان الأمل بالتححر الذي برز بعد الحرب قد تبخر، أوضح ستالين لرفاقه في السلاح «كيف يتكون عندنا الرأي العام». وتختصر فكرة ستالين بأنه «رغم استحالة أن ينشأ عندنا حزب معارض، علينا أن لا ننسى أن تكون وجهات نظر وأحكام غير رسمية يظل ممكناً، وهي إن لم تعبر عن نفسها ستظل مضمرة. والواقع أنه من الضروري والمفيد أن تُعرف الحقيقة، خاصة بالنسبة للحزب القائد الذي يعبر، وحده، دون غيره، عن مصالح مجمل الطبقات والجماعات وخاصة إذا أعدنا الى الأذهان نزوع الكوادر الى الكسل والافتراضات الخاطئة والنقص في الحس النقدي،» (٢١). مدركاً الفائدة العملية من السماح لوجهات النظر غير الرسمية بالتعبير عن نفسها، غالباً ما كان ستالين يلجأ الى هذا الاجراء ولكن دائماً لفترات قصيرة، وفي ظروف محددة تتصل بالصراع على السلطة أو بمناسبة بروز «انعطاف» جديد في الخط العام. ويظهر المثل النموذجي عن هذه الاجراءات الليبرالية التكتيكية من خلال الحملة التي نظمها ماو في النصف الثاني من الخمسينات تحت شعار: لتفتح مئة زهرة، لتناقش مئة مدرسة. ولكن عندما لا تعود المدارس ضرورية تغلق فجأة ويُرسل المتناقشون الى المعتقل وتقطع الزهرة من الجذر.

ان غورباتشيف، بعد مرور ثلاثين عاماً، أكثر حكمة من ستالين. فقد توصل

السكرتير السابع الى اكتشاف ملفت: ان أثر أسلافه على تشكّل الانسان السوفياتي والأوضاع الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية التي تغطي على النظام تسمح له بالذهاب بعيداً أكثر بكثير مما كان يتصور، فيما يتعلق بقبول الآراء والأحكام غير الرسمية، وقد أدرك غورباتشيف (وهو لم يكن وحده معنياً غير أنه من الأيسر أن نطلق اسمه على هذه المجموعة من الحكام الذين يشاطرونه الرأي) أنه لم يتم بعد الاستفادة من الامكانيات الواسعة التي توفرها التربية السوفياتية. وقد لاحظ أنه من الممكن منح الانسان السوفياتي ثقة أكبر بكثير من التي تعطى له، ذلك أن هذا الأخير لن يقدم على الخروج من «القفص الاشتراكي»، ذلك العالم الذي يعيش في إطاره ويشكل هو بدوره عالمه الباطني الذي يعيش في سريره.

كان الكتاب الشباب الذين دخلوا ميدان الأدب خلال سنوات «إزالة الجليد» وبعد موت ستالين والذين أدهشوا حماة العقيدة الرسمية بلغتهم ولباسهم وأذواقهم الموسيقية وشخصياتهم، يبررون تصرفهم بأنهم إنما يحاولون تبيان أن باستطاعة شاب «بالجينز» يهوى موسيقى الجاز والتكلم باللغة العامية أن يكون مخلصاً للاشتراكية تماماً كما كان والده واخوته الأكبر منه. قبل ثلاثين عاماً لم يكن لكلام الكتاب الشباب أية مصداقية. إن رسالتهم لم تفهم إلا اليوم.

خلال محادثاته مع غورباتشيف لم ين الرئيس ريغان يردد، رغم انزعاج محاوره الشديد، مثلاً روسياً نال اعجابه بصورة خاصة: «الثقة أخت الحذر»* هذا المثل يتناسب تماماً مع سياسة الغلاسنوست. وضع الثقة بالمواطنين السوفيات يعني أن باستطاعتهم قراءة ما كان بالأمس ممنوعاً، والاستماع الى «أصوات» اعتبرت معادية، والاطلاع على كل المصائب والكوارث التي أصابت الاتحاد السوفياتي في زمن «العبادة» و «الارادوية» و «الركود»، ولكن الحذر يظل ميزان التعامل معهم: إذ لا بد من التنبيه الى ضبط حدود «الغلاسنوست».

يتم اعداد تقنية الغلاسنوست وحساب ما يمكن التساهل به أو التشدد تجاهه في «الورشة» نفسها. أما التجربة السابقة فتؤخذ بالحسبان بصورة دقيقة غير أنه يصار الى تفهّم الأوضاع المستجدة، ويبقى شرط ملزم يحكم أصل مجمل هذا التصور: السلطة هي التي تحدد قواعد اللعبة، إنها المرجع الأعلى الذي يضمن الغلاسنوست، ويضبط

الصحافة وجميع وسائل الاعلام، ولا يتم شيء إلا من خلالها، بما في ذلك الشعارات الأكثر ثورية، والتي تحدد وجهة النقاش والتفكير والامتعاظ الخاصة بالمواطنين السوفيات. وقد كتب رئيس تحرير ريفيراندم وهي مجلة مستقلة تصدر في موسكو: «تلاحظون أنه في كل مرة نتكلم عن الغلاسنوست، نستحضر في ذهننا فعلاً إرادياً: لقد سمح بالنشر سُمح باطلاع الجمهور على...، سمح برفع هذا الجزء من الستارة» (٢٢).

إذن، من المهم جداً بالنسبة للسلطات أن تكون مبادرة، أن تستبق الطلب. أي أن الشعارات الآتية الكبرى تأتي من فوق: إقامة الديمقراطية، غلاسنوست، محاربة الظلم الاجتماعي. ومن فوق أيضاً يشار إلى العدو: البيروقراطية. لقد أرسل قاري، اسمه رودانكو، كتاباً إلى أيفستيا ذكر فيه أن الغلاسنوست الحالية هي بنظره أشبه «بلعبة مخترعة ومستخدمة بشكل أوسع في المؤسسات اليابانية: وبالفعل ففي كل مشغل غرفة، حيث توجد لعب من المطاط هي نسخ طبق الأصل عن الوكلاء ورؤساء الشركة الآخرين. والمبدأ هنا هو التالي: إذا كان الوكيل لا يروق لك فيمكنك أن تذهب وتحطم رأس شبيهه المطاطي. ويستنتج رودانكو من هذه القصة أن الغلاسنوست ليست إلا نسخة باهتة عن هذه التقنية اليابانية: أيها المواطنون: البيروقراطيون الذين قادوا البلاد إلى الهاوية لا يروقون لكم؟ لا شيء يحول دون تأنيبهم ووصفهم كل يوم «بأعداء البريسترويكا» (٢٣).

إن رسالة من هذا النوع تبدو للنظرة الأولى متطاولة ومهينة، غير أنها هي أيضاً لا تخلو من مردودية. إنها دليل على إنفتاح الصحافة، على غياب الممنوعات، على إمكانية التوجه إلى الصحافة بشأن جميع الاشكالات، وهذا ما يجذب قراءً جددًا. إن الصحافة السوفياتية التي فقدت قراءها طوال سنوات وتحولت إلى موضع للسخرية والحذر تستعيد شبابها اليوم مع بروز الغلاسنوست، كما أن أعدادها تزداد بشكل عجيب. وتظهر إلى جانب المجلات والصحف المعروفة من قبل القارئ مطبوعات جديدة. لقد أستعادت أسبوعية «ارغومانتى أي فاكتي» (وقائع وبراهين) أمجادها الماضية من حيث عدد نسخها. فمنذ عشر سنين فقط لم تكن تتجاوز عشرة آلاف نسخة، أما في بداية ١٩٨٩ فبلغت العشرين مليوناً ونصف وتجاوزت في بداية ١٩٩٠ الثلاثين مليوناً.

تتألف المجلة من ثماني صفحات والاشتراك السنوي لا يكلف أكثر من ٣ روبلات، والمقالات قصيرة تترك مكاناً للعديد من رسائل القراء. وقد نشرت «ارغومانتى أي فاكتي» وثائق مثيرة حول ابنة ستالين وعدد ضحايا المرحلة الستالينية، والنقص في المواد الغذائية. كما إن المجلة تنشر دورياً مقالات حول التاريخ السوفياتي، حيث حلت بالنسبة للمدرسين مكان كتب التاريخ التي تبقى غير موجودة أصلاً. وبالكاد تقل أعداد صحيفة اللجنة المركزية للنقابات «ترود» (العمل) عن عشرين مليون نسخة، أي ضعف البرافدا التي لا تشكو من شيء بنسخها التي تبلغ عشرة ملايين. (العدد الدقيق كان أول كانون الثاني ١٩٨٩، ٩ ملايين و٠٠٠,٦٦٤). وكذلك فإن عدد قراء الصحف المركزية التابعة للحزب في تزايد مستمر: ٤ ملايين و٠٠٠,٢٢١ السوفياتسكايا روسيا مليون و٠٠٠,٨٦٢ (الثقيف السياسي) مليون و٠٠٠,٢٣١ الأغيتاتور «المعرض»، و٠٠٠,٩٣٠ الكومونيست و٠٠٠,٨١١ (حياة الحزب).

أما الاهتمام بوسائل الاعلام الأخرى فقد عرف هو أيضاً تزايداً كبيراً. وهذا ما يشكل نجاحاً أكيداً للغلاسنوست: إن المواطنين السوفيات عادوا ليلتحقوا بحقل الواقع تحت تأثير الدعاوة الموجهة. ومعلوم أن السلطة رفضت الترخيص لإنشاء دور نشر خاصة أو لصحف خاصة أيضاً. ويكشف القرار الذي صدّق في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٧، والذي يقضي بمنع تعاونيات النشر مرة أخرى، أن الغلاسنوست هي قبل أي شيء أداة بيد السلطة. وقد ظل هذا القرار سرياً إلى أن أعلن عنه في نشرة مستقلة: «غلاسنوست». ويهدف هذا القرار، وفق ما أوضحه أحد واضعيه الى حماية المجتمع من الخطر الاجتماعي والايديولوجي والأخلاقي الذي تشكله التعاونيات (٢٤).

وقد نشرت الصحافة الغربية نبأ مذهلاً - «فالنسخ المصورة «فوتوكوبي» والمصدّقة وعنوانها شارع غوركي في موسكو» كانت مرفقة بهذا الايضاح: «كنيغا برينت شوب»، الشركة المختلطة السوفياتية - الكندية، المزودة بأحدث المعدات تقوم بكل أعمال النسخ مقابل الدفع بالعملة الصعبة (٢٥).

عام ١٩٨٦، بوشر بصياغة قانون الصحافة والإعلام الذي يرسم تحديداً الاطار القانوني للغلاسنوست. وقد اصطدم هذا القانون بعوائق لا تحصى يطغى عليها التعقيد الشديد. يسعى واضعو المشروع الى تشريع الغلاسنوست محدين قانونياً الدور

المختص الذي تلعبه الصحافة ومحطات التلفزيون . تاركة في الوقت نفسه صلاحيات الدولة في مجال ضبط وسائل الاعلام دون أي تعديل . وفي أواخر ١٩٨٨ إتضحت المبادئ الأساسية التي يستند إليها قانون الصحافة .

وقد قِيم الأكاديمي ساخاروف المشروع معتبراً «أنه غير مرضٍ بأي شكل ، إنه يحد من مهام البريسترويكا كما كانت قد صيغت وأعلنت . إذ لم يعط حق نشر الانتاج المطبوع إلا للمؤسسات العامة المسجلة أي بمعنى آخر للتنظيمات الرسمية . . . ووفق هذا القانون لا يمكن أن تعود وسائل النسخ الى شخصيات ذات صفة خاصة . . . أما لائحة ما تمنع طباعته فواسعة وفضفاضة وتترك مجالاً لتأويلها بشكل أوسع . . . لا يُعطى إذنًا بالنشر لكل ما يمكن أن يكون هادفاً الى تغيير (أشدد: تغيير وليس قلب) النظام الاجتماعي السائد» ، ثم إن أندريه ساخاروف يستنتج : «يمثل قانون المطبوعات خطوة الى الوراء . . . خطوة الى الوراء حتى بالنسبة الى ما كان سائداً بحكم الوقت زمن الركود» (٢٦) . وقد جاء إقرار هذا القانون كتأكيد على صحة الرأي المتشائم الذي أبداه ساخاروف .

قد تبدو الغلاسنوست كآلية لا يمكن كبجها . فهكذا في المعرض الخامس للكتاب في موسكو ، في أيلول ١٩٨٥ ، منع الناشرون الانكليز من عرض «١٩٨٤» لجورج أورويل . في شباط ١٩٨٩ ، بدأت مجلة نوفي مير الموسكوية بنشر رواية أورويل . وفي ١٩٨٥ ، شدد باستوكوف رئيس الغوسكوميزدات (اللجنة الحكومية للنشر) على : «أننا ما نزال نعمل ذاتياً على حماية القارئ السوفيياتي من المؤلفات التي قد تفرض عليه وتعكس مفاهيم إيديولوجية وأخلاقية أو جمالية غريبة عنه . . .» (٢٧) وفي ١٩٨٩ أعلن غورباتشوف عن استيائه حيال «ما يحصل في بعض النقاشات حيث يُعتبر الاطار الاشتراكي ضيق جداً كي يتسع للبريسترويكا . ثم لا تلبث أن تندس تدريجاً فكرة التعددية السياسية وتعدد الأحزاب وحتى الملكية الخاصة» (٢٨) .

ربما أنت الصدمة التي أحدثتها الغلاسنوست ، التي فهمت بوصفها إذنًا بنشر ما كان حتى الآن محظوراً ، وبالتعرض لموضوعات كانت من المحرمات ، من كونها بدت كهدية غير متوقعة . . . في ١٩٦٧ أثار ألكسندر سولجينيسين في رسالة الى مؤتمر الكتاب ضرورة الغلاسنوست التي كانت موضع اهتمام المنشقين . والكل يعلم الى ما

آلت إليه الأمور. وفجأة حدث الانفجار: كلمة واحدة من الزعيم وكل شيء قد تبدل. فما كان يبدو بالأمس القريب مستحيلاً كونه يتعارض كلياً مع الايديولوجيا المهيمنة، قد أصبح اليوم ممكناً، ولم يعد يدهش. ولم يُنشر فقط لبلاتونوف وبولغاكوف وباسترنك بل أيضاً لأرتور كوستلر وجورج أورويل، كما أنه جرى أيضاً إصدار جزء من مقالات بوخارين ولم يعد هناك أي شك في أن نصوص تروتسكي ستبلغ المطبعة في نهاية الأمر. ينصحنا مثل روسي بأن لا ننظر إلى أسنان الحصان الذي يُهدى إلينا. ولكن رغم ذلك لا بد لنا من تفحص أسنان الغلاسنوست هل أنها تساقطت أم ما تزال موجودة؟ وماذا تفعل الرقابة في حال ثباتها؟ وهل أصبحت الغلاسنوست آلية غير قابلة للضبط، قوة لا يكبحها إلا فقدان الورق؟.

منذ أن تفجّرت الغلاسنوست طرح السؤال الآتي: أين ستوقف وهل لها حدود؟ في أوائل ١٩٨٩، توصل ألكسندر بوفين إلى استنتاج وهو «أن كل شيء نسبي. فقياساً على ١٩٨٥ تبدو الغلاسنوست مدهشة، أما بالنسبة إلى ما يتطلبه المجتمع فهي بالكاد نصف - غلاسنوست» (٢٩). وفي مقابلة مع هاندلسبلاد ووتردام اعترف الرقيب فلاديمير سولودين بوجود «مناطق ما تزال حساسة». غورباتشوف هو واحدة منها. بالطبع، قال الرقيب، تناول الزعيم بالنقد يبقى ممكناً ولكن لا بد من رد الفرية. ثم يوضح أن الفرية هي «تحريف متعمد للوقائع. مثلاً إذا ادعى البعض أن غورباتشوف يحاول أن يضع نبذاً قديماً بقبان جديدة وأن البرويسترويكا طريقة تسمح بانقاذ الستالينية من خلال تحديثها فإنهم يندلقون إلى أرض الفرية والنميمة» (٣٠).

تبقى حدود «الغلاسنوست» بديهية بالنسبة للمواطنين السوفيات، أما المراقبون الأجانب فيمكنهم أن يلحظوها هم أيضاً إذا رغبوا في ذلك. ليس للمعجزات الكبرى قعر وهي لا تسبر. وكما كانت الحال قبل الغلاسنوست، فإن جميع قرارات المراجع العليا تتخذ في ظل التكتّم الشديد. وتبقى الآلية التي تقود إلى مثل هذه القرارات مجهولة تماماً. ولقد كتب المؤرخ الأمريكي جوزف فايندر: «نعلم أن المكتب السياسي يجتمع كل خميس ولكننا نجهل في أية ساعة. ويقال لنا أن القرارات تؤخذ بالاجماع غير أننا نجهل ما إذا كان هناك تصويت أصلاً» (٣١).

«ليس سرّاً على أحد، كتبت الكومسومول سكايا برفادا، أنه توجد عندنا رقابة

مسبقة، تتمثل بالادارة الرئيسية المنوط بها حماية أسرار الدولة في حقل الصحافة. (غلافيت الاتحاد السوفياتي). إلا أن نشاطاتها قد تغيرت اليوم الى حد بعيد، وذلك بعد أن جرى الغاء معظم القيود التي كانت مفروضة على الصحافة. غير أننا ما نزال نجد بعض الحالات. خاصة في الصحافة المحلية، حيث يمنع نشر وثائق لا تمت لأسرار الدولة بأية صلة» (٣٢).

وما هنا إحدى خاصيات «الغلاسنوست» التي تحتجب مموهة وراء التفكير والنقاش حول الحدود والمناطق وإمكانية أو عدم إمكانية ولوجها: فنحن إذن أمام آلية يتم ضبطها بأحكام شديد. فالرقابة تستمر في إداء مهامها. يقظة، تحذف من مذكرات فلاديمير ناباكوف، الشواطىء الأخرى، أي إشارة الى لينين والى «النظام اللينيني البغيض» (٣٣) وقد روى روي ميدفيديف: «ما إن بدأت مقالتي تنتشر حتى اكتشفت، مذهولاً، أن المحرر - وليس الرقيب اي كنا ما نزال في مرحلة المحرر شطب الملاحظات النقدية حتى الأكثر تواضعاً منها حول لينين... وهو يردد «لن نمس فلاديمير ايليتش» (٣٤) وكما كان في السابق فإن دلالة الكلمة تحدد من قبل السلطة. وما يضير إذا كان التعريف القديم قد بطل أو إذا لم يعد قادراً على متابعة تعرجات الخط السياسي. في «قاموس الكلمات الأجنبية»، الذي صدر في موسكو عام ١٩٨٨ اعتبرت «التعددية»: «من الأفكار الأساسية التي تعتمد عليها النظريات البرجوازية والاصلاحية الحديثة... التي تتعارض مع تعاليم الماركسية - اللينينية...» (٣٥). ولكن بعيد بضعة أشهر بدأت الكلمة نفسها مقرونة بالصفة «الاشتراكية» تستخدم بالمعنى الإيجابي. ومن الممكن أن يُخصص لها في الطبعة القادمة تعريف جديد. إن القبض على «الكلمة» ما تزال قائمة. وحده أسلوب الضبط قد تغير. وقد تبين تدريجاً أن استبدال الكلام بجناسه يبدو رهيباً (وفعالاً) أكثر من أي منع.

يعرض غورباتشوف نظرتة «الجديدة» في مقابلة أجرتها معه «الاومانيتي» في ١٩٨٦: باستثناء الأسرار العسكرية وأسرار الدولة، وأشكال الدعاية التي يطالها مباشرة قانون العقوبات (الخلاعة والمساس بالمشاعر الوطنية...). فإن مهام الضبط واختيار مواد النشر باتت ترتبط الآن بمحرري وسائل الاعلام ودور النشر. والمزدوجان اللذان يرافقان الصفة «الجديدة» يبدوان ضروريين، ذلك أن مفهوم «الرقابة الذاتية» كان متضمناً في الأحكام الأولى التي نظمت جهاز الرقابة السوفياتية، «هو جهاز أعطي

صيغته الشرعية في ١٩٢٢ : «حينها استثيت من أي رقابة، إلا الرقابة العسكرية، جميع منشورات الكومينترن، جميع الصحف والمجلات الصادرة عن الحزب، أخبار VTSIK^(٣٦)، ونتاج أكاديمية العلوم، الخ...»^(٣٧)

فاذا كان لينين اعتبر عام ١٩٢٢ أن حزبه قد بلغ من القوة ما يسمح له بعدم إخضاع مطبوعاته الخاصة للرقابة، فهل يدهشنا أن يسمح غورباتشوف لنفسه بعد سبعين عاماً بمنح القليل من الثقة لمحزري الحزب؟ فهو يعلم أنه من الممكن الركون إليهم. ففي كتاب موجه الى غورباتشوف بصفته أميناً عاماً للجنة المركزية ورئيساً لمجلس رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي طالب أبرز ممثلي الانتليجنسيا الليبرالية والأكثر تعلقاً بالبريسترويكا التشدد في تطبيق النظام. وقد وقع على الكتاب: - رئيس تحرير مجلة زناميا غريغوري باكلانوف، كاتب المسرح ألكسندر غويلمان، الكاتب دانييل غرانين. رئيس اتحاد السينائيين ايلم كليموف، الأكاديمي روالد ساغديف، رئيس اتحاد الفنانين ميخائيل أوليانوف. مشيرين الى أعداء البريسترويكا ذكر موقعو الكتاب، المرسل إليه أنه بالأمس «كان لا بد من الاجابة بدقة ودون أي تأخر عن أي تهمة بالانحراف عن التدابير المرعية الاجراء» وهم يتقبلون تماماً «أنه من غير المطروح الرجوع الى هذه العادات الماضية» ولكنهم يصرون رغم ذلك على «أن الانضباط الايديولوجي والسياسي أمر ضروري جداً خاصة اليوم، في خلال هذه المرحلة الانتقالية»^(٣٨).

في جميع المراحل - في ظل ستالين وخلال «إزالة الجليد» إبان حكم خروتشوف وكما هو حاصل في إطار البريسترويكا - تبدو الغلاسنوست من العطايا التي تمنح من المراجع العليا، وهي منظمة ومحكمة الضبط بشكل صارم. نجد في «غرفة انتظار اللجنة» لألكسندر زينوفياف الذي صدر عام ١٩٧٩ «لجنة للغلاسنوست» مكلفة بتطبيقها وفقاً للتعليمات الصادرة بحسب أحكام الوقت عن الهيئة الايديولوجية التابعة للجنة المركزية. أما أشكال الضبط التقليدية فهي الآتية: جلسات مكتملة للجنة المركزية حول المسائل الايديولوجية حيث يحدد «الخط العام» لفترة محددة من الوقت؛ مقررات اللجنة المركزية بشأن الأدب والسينما والنقد...، جلسات اللجنة المركزية حيث يعطي المسؤول عن الايديولوجيا (أمين سر اللجنة المركزية للايديولوجيا، رئيس لجنة الايديولوجيا) (منذ ١٩٨٨) التعليمات، مشيراً الى النجاحات وإلى الثغرات في العمل،

ومعيناً موضوعات وتوجهات النشاط الايديولوجي. وتلعب «تقنية الصحافة السوفياتية» في آلية الضبط في إطار الغلاسنوست دوراً مهماً لم يعطَ حتى الآن وزنه، تشير مثلاً الاختصاصية في «وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية» في الاتحاد السوفياتي، نورا بوهكس الى وجود جيش جبار من الصحفيين السوفيات: حوالي مئة ألف، كما أنها تلاحظ تجدداً في مجال التقنية والوسائل الآيلة الى ضبط المعلومات والتلاعب بالعقول بطرق أفضل من السابق. فلقد طرأ تحسن، بصورة خاصة، على نقل الرسالة الايديولوجية. إذ غالباً ما يصار الى «إخراج» هذه الرسالة. من هنا مثلاً وفرة الحوارات: تقارير، ودراسات ومقالات تصاغ بأسلوب حوارى. وهكذا يشعر المستمع والمشهد أنها يشاركان في مناقشة هما فعلياً مبعدين عنها. وتلاحظ نورا بوهكس أنه يجري في مجمل وسائل الاعلام السوفياتي توزيع الأدوار بشكل دقيق جداً. وهكذا تتحول غزارة المعلومات الهائلة الى عنصر مهم يساهم بضبطها^(٣٩).

ويمتلك غورباتشوف سلاحاً آخر يكمل به ترسانته: اللقاءات الشخصية مع هؤلاء الذين يضعون الرأي العام أو باللغة الرسمية «المسؤولين عن وسائل الاعلام والمؤسسات الايديولوجية والاتحادات الابداعية». وستالين كان يجب هو أيضاً الالتقاء مباشرة بالكتاب والسينائيين وغالباً في حلقات ضيقة. أما خروتشوف فاكثفى بلقاءات ثلاثة مع بعض الكتاب والرسمين والفنانين وترك لديهم ذكرى سيئة جداً بقدر ما كان فظاً وتصرف وكأنه «نبيل روسي» وسط خدامه، وقد عهد بريجنيف بهذه اللقاءات التثقيفية الى سوسلوف. أما غورباتشوف من جهته فقد حول هذه الحوارات مع ممثلي وسائل الاعلام الى نوع من المدرسة يعبر في إطارها عن سلطته الشخصية. ويبادر الأمين العام بنفسه الى اطلاع محرري الصحف ورؤساء اتحادات الكتاب والصحافيين والسينائيين... بأي حدث مهم. وهو المصدر الذي تنبعث منه التعليمات والشحنات الدافعة.

في أيلول ١٩٨٨، ذكر غورباتشوف بأنّ على وسائل الاعلام أن تتخذ مواقف واضحة وبأن «التحليلات والأحكام، سواء في الصحافة أو في المجتمع إجمالاً، تبدو أحياناً ملتبسة. فبعض المداخلات أو المنشورات توحي بأن البريسترويكا ربما زادت في تفاقم الحالة الاقتصادية وأدت الى اختلال التوازن المالي وعقدت مشاكل التمويل ومسألة السكن والمشاكل الاجتماعية الأخرى». ثم إن غورباتشوف تابع أمراً: من الأفضل

«عدم تحميل البريسترويكا ما يرتبط فعلياً بالمرحلة السابقة». ودعا إلى «الاقلاع تلقائياً» عن تجميع الوقائع «المخيفة» وتوجيه الانتباه إلى الجوانب الايجابية»^(٤٠). في ١٩٢٨، طلبت اللجنة المركزية، بعد أن أجرت جردة أولى بشأن سياسة النقد الذاتي أن يصار إلى «تسليط الضوء على الجوانب الايجابية من ورشة البناء... وإلى اختيار الموضوعات بتأن، وإعطاء أمثلة عن الأشياء التي تكون جيدة في الأصل»^(٤١) في ٨ كانون الأول ١٩٨٩ وأثناء لقاء مع المسؤولين عن وسائل الاعلام بدأ غورباتشوف ناشفاً ومباشراً «ما من أحد في بلادنا يستطيع الخروج عن آلية الضبط... وهذا ما ينطبق أيضاً على وسائل الاعلام. إن الصحافة السوفياتية ليست دكاناً خاصاً»^(٤٢) ورغم الدعوات إلى توسيع نطاق الحركة التعاونية تبقى لعبارة «دكان خاص» في اللغة السوفياتية دلالة بالغة الاهانة.

وقد أثبت ميخائيل غورباتشوف فعالية هذا النظام التحكيمي الذي يستلزم غلاسنوست، بعد انتخاب نواب الشعب. وكان تصرفه ملفتاً لابل مثيراً. الثلاثاء ٢٨ آذار ١٩٨٩، وما إن ظهرت النتائج الأولى حاملة بعض المفاجآت، وبدل أن يجمع الأمين العام للجنة المركزية أو المكتب السياسي أو أن يتوجه إلى الشعب، قام بدعوة المسؤولين عن وسائل الاعلام إلى اللجنة المركزية وأعطاهم تعليماته بالنسبة للوجهة التي يجب أن تعتمد لالقاء الضوء على الانتخابات. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن المعلومة الأولى تكمن في أن مضمون مداخلته غورباتشوف هذه، أعطاها للمراسلين الأجانب، رئيس تحرير «أوغونيوك»، كوروتشيش الذي حضر الاجتماع. وقد نشرت الصحافة السوفياتية خطاب غورباتشوف في ٣١ آذار وهو يحدد فيه الخط الرسمي.

وإن «الاتحاد السوفياتي» (١٠ نيسان) جمع غورباتشوف من جميع نواب الشعب (١٠ نيسان) المبدعين وأعضاء بعض الهيئات الجديدة. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٨٩، وانطلاقاً من رؤيته خطورة الوضع أعطى السكرتير العام توجيهاته لوسائل الاعلام ثلاث : في كانون الأول : وأذار، ونيسان.

في سترين الأول ١٩٨٩، وأثناء اجتماعه مجدداً برجال الاعلام، وجه الأمين العام انتقادات عنيفة ضد الصحافة لنشرها مقالات «استفزازية» لا تؤدي إلا إلى تفاقم الوضع السياسي. وقد طلق بحفاوة أن اللجنة ارغوماني إي فاكسي نشرت في عددها الأربعين

وثائق مغلوبة . وعندما علم بوجود رئيس تحرير المجلة في القاعة فلاديسلاف ستاركوف وجه له شخصياً كل ما لديه من مآخذ . وعندما اقترب ستاركوف ، بعد الاجتماع ، من الأمين العام وسأله : «مikhail سيرغيفيتش لماذا اتخذت قراراً بمعاقتي ؟ لماذا تريد أن «تصفيني» . لم يستطع أن يميز الجواب بوضوح ، وبعد بضعة أيام استدعي رئيس تحرير ارغومانتى من قبل المؤدج الكبير فاديم ميدفيديف الذي صارحه بأن المجلة تتبع «خطأً مغلوطاً» . ثم طلب من ستاركوف أن يستقيل من منصبه ، فرفض (٤٣) .

لم يخف غورباتشوف السبب الرئيسي لامتعاضه . لقد نشرت ارغومانتى إي فاكتي في عددها الأربعين نتائج استقصاء للرأي يتناول رأي القراء بنواب الشعب . وقد أجاب ما يقارب ١٦٥,٠٠٠ قارئ وتمت معالجة ١٥,٠٠٠ جواب حول عمل ٦٠٠ نائب . ونشرت المجلة ترتيباً لخمسين من بينهم ، وقد جاء في المرتبة الأولى ساخاروف يتبعه بوبوف . يلتسين وافاناسيف . أما غورباتشوف فلم يرد على اللائحة . غير أنه لم يمكنه أن يتجاهل مرتبته التاسعة والتسعين بعد الخمسية (٥٩٩) في الترتيب الكامل أي المرتبة الأخيرة بالضبط قبل نائبه في السوفييات الأعلى لوكيانوف . إذن ، فنشر هذا الاستقصاء هو بمثابة القدح بالذات الملكية .

يعمل نظام الغلاسنوست كافة مستويات آلة الحزب . «كل اثنين صباحاً ، كما يروي رئيس تحرير الصحيفة الجيورجية «كومونست» يجمع الأمين الأول للجنة المركزية في جيورجيا الأمناء المسؤولين عن الأقسام ومحوري صحف الحزب . هنا نحصل على معلومات جديدة» . يضيف أحد مراسلي البرافدا : استناداً لى رسائل بعض الصحفيين «نعلم أنهم يستفيدون من لقاءات دورية مباشرة مع الأمناء الأول للجان منطقتي ريازان وكيميروفو» (٤٤) . ويتلقى محررو صحف المقاطعات «معلوماتهم» من أمناء لجان المقاطعات في الحزب . وهذا ما كان سارياً على الدوام ، مع فارق اليوم وهو أن نظام الغلاسنوست وسّع دائرة الحقوق وزاد في مسؤوليات المحررين . لقد أصبحت تقنيات التحكم بوسائل الاعلام الجماهيري والدعاية أكثر مرونة واتقاناً ، وذلك انطلاقاً من تجربة بدايات العشرينات .

وتتمثل الوسيلة الافضل للضبط والتحكم باحتكار الدولة للورق . في ١٩٨٨ احتل الاتحاد السوفياتي المرتبة الثامنة والستين في العالم بالنسبة للمعدل الفردي من

استهلاك الورق، وهذا يعني أن الانحدار يتساقط ذلك أنه احتل قبل عشر سنوات المرتبة الرابعة والعشرين^(٤٥). وهذا يعني، تبعاً لذلك، أن هناك نقص في الورق شديد ومزمن جداً، ولن نطيل الكلام هنا حول أسباب هذا النقص، بل نكتفي بالإشارة إلى طباعة ملايين النسخ من الأدبيات السياسية، والأوامر والتعليمات - ونحن نتساءل مع الصحافي السوفياني: «ما معنى حرية الكلمة حين يحتكر ورق الجرائد والمجلات؟ ما هو الفارق بين أن يطلب المرء أذنًا بنشر ما يريد (وما لا يكون ممنوعاً من جانب القانون) وأن يطلب تسليمه ورقاً لذلك؟ ما هو الفرق بين الرقابة واحتكار الورق؟»^(٤٦).

تعتبر الغلاسنوست - هدية غورباتشوف إلى الشعب السوفياني وإلى العالم - النجاح الأكبر للبريسترويكا. فإمكانية العودة - بعد ثلاثين عاماً - لاستنكار جرائم ستالين (وما اعتبر من جرائم بريجنيف وأخطائه كمتفرج عنها)، وإمكانية اختراق بعض «أسرار» الماضي وأخيراً إمكانية أن تقوم الصحافة الرسمية بالافترار بأزمة الاقتصاد السوفياني لا تعتبر أشياء غير ذات شأن، لا وزن لها. وقد كتب تسييكو وهو فيلسوف منذ سنوات عدة وموظف في جهاز اللجنة المركزية، أن مجرد الامكانية بأن نعتبر في روسيا رئيس الدولة انساناً مثل بقية الناس، مجرد الامكانية بأن نسمي الجريمة جريمة والعبث عبثاً كان دائماً تقدماً عظيماً^(٤٧). ومن الصعب فعلاً أن لا نوافقه الرأي، إلا أننا نشير رغم ذلك إلى أن صحافة عصر الغلاسنوست بعيدة جداً عما تمتعت به الصحافة الروسية خلال السنوات ١٩٠٥، ١٩١٧. إن تسييكو على حق حين يقول إن تسمية العبث باسمه يُعتبر تقدماً، لا بل وضمن الأوضاع السائدة في النظام السوفياني يبدو ذلك نصراً عظيماً. ومن هذه الزاوية يبقى مهماً على الأخص الحصول على إذن بإثارة الصعوبات المادية والثغرات الاقتصادية في الدولة السوفيانية، والانحراف في السبل المختارة للوصول إلى الهدف الكبير.

وخلال سبعين عاماً عاش الانسان السوفياني حياة ذات بعدين: بعداً واقعي عياني - في البيت الذي يسكنه، في مقر عمله، في بؤسه، وآخر غير واقعي - على الطريق التي تقود إلى المستقبل الزاهر إلى الجنة على الأرض. وكان يجري تعويض فقدان الحد الأدنى للحياة والصعوبات اليومية التي لا تطاق بتلك المسيرة الخيالية نحو الأيام الزاهية. وقد سمحت حالات المترو الرخامية الفخمة بنسيان البيوت البائسة، أي أن عظمة دول الاتحاد السوفياني العظيمة كانت تخفف من آلام المواطن المجرد من أية حقوق. أما

الغلاسنوست فقد مدت «عبارة» فعلية بين اللا واقع والواقع، بين الموهوم والعياني. كان المواطنون السوفييات يعلمون أن عيشتهم سيئة. غير أن وسائل الاعلام الجهايري والدعاية كانت تقنعهم أنهم يعيشون أفضل من أي بلد آخر. كان الواقع يترنح تحت ضربات اللا واقع المستمرة. أما من خلال الغلاسنوست فإن المواطن السوفيائي علم - من المصادر الرسمية - أنه يعيش حياة رديئة. وهكذا أصبح وضعه أشد إيلاماً من ذي قبل.

وما إن رفع الحجاب عن الكذبة التي كانت تحيط بالشعب السوفيائي منذ الثورة حتى انكشف واقع رهيب أربح حتى هؤلاء الذين كانوا دائماً على معرفة به، علماً بأن رفع الحجاب لم يفتح سوى ثغرة صغيرة في الواقع، وهاكم مثلاً الفيلسوف ايغور كليامكين: «منذ ثلاث سنوات أصبحت كلمة «حقيقة» أهم مفرد في لغتنا. ومن السهل أن نعرف لماذا رُفعت هكذا الى المقام الأول. لماذا اتضح أنها رمز التغيير وشعاره: لسبب وحيد وبسيط وهو أننا كنا في السابق نكذب (ويكذب علينا) تقريباً بشأن جميع الأمور». إلا أن كليامكين لا يدهش من كون كلمة «حقيقة» ما تزال تحتل صفحات الجرائد، والاذاعات وأنها ما تزال الشعار الأهم: «إذا كنت شبعاناً لا أذهب للمطالبة بالخبز. إذا كنت متأكداً من أن أحداً لن يخذعني أفكر بدعوة محيطي الى الصدق» (٤٨). ويؤكد الفيلسوف تسييكو ملاحظة كليامكين: مكان الكذبة القديمة التي افتضحت ظاهراً حلت كذبة جديدة. وهو يضيف: «فالتخلي عن بعض الأساطير السياسية السهلة الكشف. يقود الى صياغة أساطير أخرى وأعلى شأنها وهي غالباً ما تكون أقرب الى التصديق وبالتالي أخطر» (٤٩).

ان عجز الغلاسنوست عن ذلك «حصون الكذب» التي تزدهر مجدداً على أرض خيل للبعض أنها سقطت نهائياً» (٥٠). يأتي من كونها لم توجه لمحاربة الكذب، ذلك أنها تهدف بوصفها أداة للصراع على السلطة، الى استبدال طرق ضبط الواقع والمخيل التي أصبحت بالية، غير صالحة للاشتغال بطرق جديدة تماشى مع متطلبات القرن الواحد والعشرين ومعدّة للاستمرار طويلاً إن لم يكن الى الأبد. لقد عتق ايغور كليامكين مقالته بالآتي: «لماذا يبقى قول الحقيقة صعباً» والجملة ليست بصيغة السؤال. ذلك أن الكاتب يعرف الجواب جيداً: من الصعب ان تقال الحقيقة في الاتحاد السوفيائي لأن مصدر الكذب القوي، بقي دون أن يمسه أحد: أنه يكمن في سلطة

الحزب المطلقة . وما لا يقبل أي جدل أن مثل هذا التفكير الذي يعبر عن نفسه في نص من الساميزدات كان بالأمس القريب ليكلف بضع سنين في السجن أو في مصح عقلي . أما اليوم فإنها تنشر في مجلة تطبع ١,٥٦٨,٠٠٠ عدد . وحتى لو قبلنا ، انطلاقاً من وصفة تشرشيل - الذي كان يعتبر أن الحقيقة إبان الحرب ثمينة إلى حد أنه لا بد دائماً من أن تؤمن لها موافقة تحميها من الكذب - التي تقول إن المؤلف لا يفصح أبداً عن أعماق فكرته ، فإن التغيير هنا يظل في غاية الوضوح . إنه بديهي . وبديهي أيضاً ما يقدم عليه مؤدجو البريسترويكا من مخاطرة . إنهم واثقون من قدرتهم على ضبط الغلاسنوست . غير أنه من الممكن أن يكونوا مخدوعين .

لقد قبل غورباتشوف بخطر الغلاسنوست لأن خطر حرية التعبير كان أدهى بما لا يقاس . فالغلاسنوست هي أهون الشرور ، في ظل وضعية ثورية بالنسبة لقائد يعني أنه من المستحيل أن يأوي إلى « حصون الكذب » . لقد قام إذن بفتح ثغرة ، متوقفاً إحباط الخصم عندما سيحاول اجتياح القلعة . وقد سمحت هذه السياسة للأمين العام بتوجيه ضربات قاسية جداً إلى الجهاز الذي بناه سلفه طوال عشرين عاماً . وكأداة للتطهير - تطهير لطيف ، حريري - تحولت الغلاسنوست إلى جسر بين القائد والشعب الذي يطلب الشكر على كل الخيرات التي تمطر عليه . وأخيراً فقد تكون الغلاسنوست أعطت للعالم صورة جديدة عن اتحاد سوفياتي « جديد » ، « ديمقراطي » ، أو على أقل تعديل ، متقدماً بخطى ثابتة بقيادة زعيمه الملهم نحو الديمقراطية وبتأجه عائلة الشعوب المتحضرة ، بتأجه « البيت الأوروبي » .

ومن الخطأ التقليل من خطورة مغامرة الغلاسنوست التي يخوضها غورباتشوف وحزبه . غير أن جرأة غورباتشوف تبقى على صورة أسلافه . فجرأة لينين كانت أعظم عندما قرر توجيه « مقود الدولة » نحو « الاقتصاد السياسي الجديد » ، هذا كي لا نذكر ستالين الذي قرر في ١٩٣٤ تصفية الحزب القديم لينشئ واحداً جديداً . وكذلك فيما يتعلق بخروتشوف ، فإن طاقة اليأس قادته إلى أن يرفع يده في وجه الصنم الذي كان يثير الرعب حتى بعد أن رقد في قبره الضخم . وأخيراً لنذكر بحنكة ماو الخارقة الذي دفع بالشباب ضد جهاز الحزب وأغرق البلاد والعباد طوال عشر سنوات في « الثورة الثقافية » . فتورة ماو هي مثل ساطع عن الوحدة الديمقراطية بين الزعيم والشعب . وإننا ما نزال نجهل عدد ضحاياه (عشرات الملايين) . إن ما يقدم عليه قادة الأحزاب

الشيوعية من أعمال جريئة جسورة تمليه دائماً ضرورات الصراع على السلطة والرغبة بالاحتفاظ بها مهما كان الثمن. تبقى حسنات الغلاسنوست بديهية فيما الوجه الآخر للعملة أقل بداهة.

وقد نشر الكاتب البولوني ويتولد غومبروويكز عام ١٩٥٦ في صحيفته: «إزالة الجليد!...» لنعترف أنه يؤمن لروسيا وبولونيا - بدلاً عن الحرية والحقيقة. ولكن ماذا؟ لو كنت معتقلاً في هذا السجن فأني سأتمسك به بيدي ورجلي. فإذا كان حتى الآن الخروج من الزنزانة ممنوعاً أقلن تحمل الزهرة في الباحة، وتحت نظر الحارس الذي لا يغمض له جفن، سروراً عظيماً؟ من يشك بأن الاقلال من الكذب في الحياة العملية هو أفضل من الاكثار منه؟ إلا أن التحرير المشروط الذي يستلزم الحضور الدوري الى أقرب مكتب للمراقبة لن يمحي السخط الواضح المنقذ الذي يفصل حتى الآن بين «الحرية المستعبدة» والكذب الحر. إننا ندخل في منطقة نصف - الحقيقة، نصف - الحياة منطقة الابداع الناقص حيث يُكتفى بالظاهر فإلى أين المصير؟... (٥١).

تُدرك الغلاسنوست بوصفها نصف - حقيقة، نافذة نصف - مفتوحة - بإرادة من السلطة - على الواقع الحقيقي. وقد بدأ الأنصار الأشد حماساً «البريسترويكا» أنفسهم الحديث، وبعد خمس سنوات من الغلاسنوست عن ضرورة حرية التعبير بحذر، ولكنهم يقولون: «في المرحلة الأولى من عملية نشر الديمقراطية تمثلت «المشكلة - المفتاح» بالنسبة لنا بالغلاسنوست...» ثم أن الخبير الأديب لألشين يتابع: «فبقدر ما تتقدم الاولية الديمقراطية، تبرز على جدول الأعمال الحرية الاشتراكية في ميدان الصحافة، الغاء الرقابة المسبقة وإحلال رقابة بَعْدِيّة مكانها، رقابة هي في الواقع مراقبة تقوم على الضبط وعلى المعاقبة إذا لزم الأمر» (٥٢) أما الصحافي المستقل ليف تيموفيف فقد كان صريحاً حين قال: «لسنا بحاجة الى «سياسة الغلاسنوست» بل الى حرية التعبير. ان وجود الغلاسنوست يظل أفضل من عدم وجودها إطلاقاً. غير أن حرية التعبير أثنى بكثير!... إذ وحدها الحرية لا تنقلب الى عكس اتجاهها» (٥٣).

إن الخوف من انقلاب اتجاه عملية تطبيق الديمقراطية، الخوف من فقدان ما قد تم اعطاؤه والذكرى التي تستعيد سهولة حلول الصقيع مكان «ذوبان الجليد» يطبعان مجمل مرحلة البريسترويكا. ولهذا التخوف أساسه الراسخ. إذ المفارقة الكبرى التي تميز

الغلاسنوست تكمن في أن قانون المطبوعات، أي حدود الغلاسنوست يجري إعداده خارج أي غلاسنوست، في مكاتب هيئات اللجنة المركزية. في مقابلة مع غورباتشيوف في سيبيريا، أثار مراسل تلفزيون موسكو قانون المطبوعات وسأل وكأنها يتوسل: «نود أن لا تكون باتجاه واحد، أن لا تستخدم للضغط على الصحفيين، ولكن ها أنه قد تم اقتراح عقوبات وغرامات...». وما كان من السكرتير العام إلا أن إجابته «جيد، هذا ما هو مطلوب»، مرفقاً كلامه بضحكة مرحة، جواب كان نوعاً من المزاح الصادر عن شخص بارز ما لبث أن استدرك «سنحل هذه المشكلة ديموقراطياً»^(٥٤).

يُفسر الحذر تجاه «الغلاسنوست»، أيضاً، من «ترقب خطر غير متوقع»: أن تصبح «الغلاسنوست بوصفها عنصراً يحمي الركود. أي بمعنى آخر يضاف الى نسق الركود، فيحدثه، ويجعله أشد مرونة، وتبعاً لذلك أرسخ وأخطر»^(٥٥). وقد أثبتت التشريعات التي بدأت عام ١٩٨٨ «تُطعم» الغورباتشيوفي «بالغلاسنوست»، حقيقة ما كان يخشى منه المؤرخ باتكين. تُضمّر منطقة الغلاسنوست، ببطء ولكن بصورة لا مفر منها، أنها تنقلص، تنحصر. فبعد قانون ١٩٨٨ حول الاجتماعات والمظاهرات، الذي يعطي صلاحيات واسعة للوحدات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية، جاء مرسوم ٨ نيسان ١٩٨٩. وقد استبق هذا المرسوم عندما عدّل قانون «المسؤولية الجزائية المتعلقة بجرائم الدولة»، قانون المطبوعات الذي كان طور الاعداد، وذلك بتعيينه من الآن فصاعداً حدوداً له. ويلغي المرسوم مفاعيل المادة ١ - ١٩٠ من قانون العقوبات الذي كان موضع نقد شديد كونه يتعارض مع حقوق الإنسان، وقد كانت تعاقب «الادعاءات التي تجاهر بالكذب» والافتراءات المعادية للاتحاد السوفياتي، وتمكّن بذلك السلطات، التي كانت تستفيد منها الى أقصى الحدود، من ملاحقة كل الذين «لا يفكرون كما يجب». وقد وفرت أيضاً سلاحاً ماضياً في صراع ضد «المنشقين». أما الآن فقد استبدلت المادة ١ - ١٩٠ بالمادة ١ - ١١ وتلحظ هذه الأخيرة عقوبة السجن لمدة أقصاها ثلاث سنوات أو غرامة تصل الى ألفي روبل «لكل شخص يسيء الى الأجهزة الحكومية أو المنظمات الاجتماعية أو يقلل من اعتبارها»^(٥٦).

أما صياغة المادة فقد أذهلت عدداً من رجال القانون السوفيات. ذلك أنها جاءت أقسى من سابقتها، فإذا كان من الممكن، يقول الحقوقيون، في ظل دولة القانون، إثبات في أي دعوى أمام المحكمة أن كتابات أو تصريحات المتهم لا تحتوي على أي

«ادعاءات تجاهر بالكذب» فإن مفهوم «الاقلال من الاعتبار» الذي لا وجود له في القانون السوفياتي يبقى من جهته خاضعاً لمزاج القاضي. وإقلال الاعتبار يطال هنا «أجهزة الدولة والمنظمات الاجتماعية» - وهو تعريف فضفاض يمكن أن يتسع لأي شيء. كما كانت الحال قبلاً فيما يتعلق بالفقرة ١٠ من المادة ٥٨، التي تعاقب التحريض والدعاية المعادين للاتحاد السوفياتي». ومن الأمثال البالغة الدلالة على تطبيق الفقرة ١٠ كان ذلك الراعي الذي حكم لعشر سنوات سجن مع الاشغال الشاقة كونه وصف بالعاهرة بقرة في الكولخوز. وتسمح المادة ١ - ١١ هي أيضاً بمعاقبة الراعي الغاضب وإن، في الحقيقة لفترة أقصر، أما البرفسور نعوموف فقد أشار في مجال تعليقه على المرسوم إلى أنه «بالنسبة للقانوني المحترف لا يطرح هذا الأمر اشكالاً كبيراً». وبالنسبة للقانوني غير المحترف أو الذي يتأثر بالظرف؟ يتوجه الصحفيون بالسؤال إلى القانوني. أما هو فيجيب: «يجب طرح السؤال بهذه الصيغة: هل نظل ضمن إطار الاشتراكية أو أن هناك عملاً معادياً لها؟»^(٥٧) غير أن الأمور ليست بهذه البساطة. في ١٩ كانون الأول ١٩٨٨، وأثناء «اجتماع تعليمات» في حاكمية لينينغراد سأل الصحفيون حاكم المدينة ديمتري فريوفكين: ماذا تعني لك الاشتراكية؟ إنه اليوم مفهوم غائم... بالأمس القريب كانت الاشتراكية تعني التخطيط الموجه، الأسعار المتدنية عن قيمتها، القلة، واحتكار الوزارات، والحال أن كل ذلك يعتبر اليوم من شوائب الستالينية». أما الحاكم فاكفى بالايضاح أن الاشتراكية تعني بالنسبة له «وجود ثروات البلد بين أيدينا... بين أيدي الشعب» وقد استحق هذا الرد: «منذ خمسين سنة يسمى ذلك بين أيدي الشعب، فيما أن كل شيء كان يُدار من قبل طبقة تستغل على المكشوف «الشعب»^(٥٨) بعد صدور المرسوم يمكن تماماً تصنيف هذه المحادثة من النوع الذي «يقلل من اعتبار» السلطة السوفياتية والاشتراكية وحاكم لينينغراد...

ورجال القانون المصنفون الذين إلتفتهم البرافدا لم يخفوا مهمة هذا المرسوم الجديد: «يُظهر إقرار قوانين عقوبات جديدة أن الدولة السوفياتية مصممة على الدفاع عن الديمقراطية، وكذلك عن الغلاسنوست من المظاهرات المتطرفة، وعلى حماية البريسترويكا من الأعمال التخريبية التي قد تقدم عليها عناصر متطرفة... إنهم يستحضرون هكذا الأسباب التي قادت إلى إصدار المرسوم في نيسان ١٩٨٩ تحديداً: «لقد كشفت الأحداث التي وقعت مؤخراً في مناطق متعددة من البلاد عن أن بعض

الأفراد أو حتى المجموعات، أرادوا استخدام عملية التحول الى الديمقراطية وتوسيع نطاق الغلاسنوست لنشر الاباحية الكاملة، واللاشرعية، وتجاهل المبادئ الدستورية المتعلقة بواجبات المواطن أمام المجتمع والقانون». ثم إنَّ البرافدا تدق: «إن التصريحات الوطنية تأخذ أكثر فأكثر طابعاً معادياً للاشتراكية وللمعايير السوفياتية» (٥٩).

ويتبيّن من المرسوم الجديد، وبطريقة مقنّعة، الفرق بين الغلاسنوست وحرية التعبير. إذاً تبقى الغلاسنوست، بوصفها أداة للصراع السياسي، تعطى للشعب في لحظة معيّنة وظروف محددة، عرضة للالغاء بصورة كاملة، للاختزال الى أدنى درجاتها أو للتحول الى نقيضها. لقد حملت مقالة الايزفستيا حول إمكانيات وحدود الغلاسنوست العنوان الآتي: «الفائدة من قول الحقيقة» (٦٠). والفائدة من «الحقيقة المفيدة» قد تضمحل عندما تستهلك جميع إمكانياتها. إن حرية التعبير هي الحق في قول الحقيقة؛ أما الغلاسنوست فليست إلا الاذن بقول «الحقيقة المفيدة».

يُشكل ظهور الصحافة «البديلة»، كما يطلق عليها، والتي لا تخضع للرقابة. ظاهرة جديدة لا بد لمؤدجلي الغلاسنوست من أن يحسبوا لها حساباً. وحتى ١٩٨٧ لم يكن عدد الدوريات غير الرسمية يتجاوز العشر أو العشرين. أما في بدايات ١٩٩٠ فقد أحصى الصحفي المستقل ألكسندر سويتنوف ٧٨٠، فقط بالنسبة للصادرة منها باللغات السلافية. فليتوانيا، مثلاً، تعد لوحدها ما يقارب ٢٠٠ دورية مستقلة، فقط بالنسبة للمنشورات الصادرة باللغة الليتوانية. وقد قدر الصحفي أن الساميزدات تطبع شهرياً ما بين مئة الى مئة وعشرين ألف نسخة (١٠٠,٠٠٠ - ١٢٠,٠٠٠) دون أن نحسب جمهوريات البaltيك وهو ما يعادل الى حد ما ٤٠٠,٠٠٠ قارئ» (٦١).

يعطي فاسيلي سيليونين تعريفاً دقيقاً ومقتضباً للأداة الكبرى الخاصة بالسياسة الغورباتشيفية: «الغلاسنوست موجودة فعلاً، ولكن ليس ها هنا أي صدى». فكل ما يقال هو صوت الشعب الذي يصرخ في صحراء الاشتراكية الموجودة فعلاً في الواقع، صوت يبقى غير مسموع من مهندس البريسترويكا.

الفصل العاشر

قفزة فوق الهاوية :

«الزهد معيار حياتنا»

«لانتجاز الهاوية مرتين»

حكمة أزمئة «البريسترويكا» .

في البدء كانت الكلمة . وكانت الكلمة موضع اجماع الناس . ثم ، وكما يشير الكاتب الهجائي ستانيسلندو جيرزي ليك برز الشعار، وفي بداية البدايات لم يكن هناك شعار واحد بل ثلاثة : غلاسنوست ، بريسترويكا ، التسريع (بالروسية : أوسكوريني) .

والواقع ان اختيار الكلمات - المفتاح الخاصة بالعصر الجديد يبدو بالغ الذكاء . فكل منها غائم ومتضاعف بصورة تمكنه من اطلاق كمية من التداعيات الضرورية بقدر ما هي ايجابية . واذا كانت كلمة غلاسنوست قد استعيرت من معجم الاصلاحات الكبرى في القرن التاسع عشر، فان كلمة «بريسترويكا» تعود الى اوائل الثلاثينات من القرن العشرين أي مرحلة الخطط الخمسية الاولى . وكما تشير القواميس ان بريسترويكا (اعادة البناء) يمكن ان تعني في آن معاً اعادة البناء انطلاقاً من الصفر او القيام بالترميم، اي ببعض التعديلات على النظام القديم . ويعطي قاموس ١٩٥٣ كمثال على ذلك العبارة : «من الضروري اعادة بناء الذات (بريسترويتسيا) لنقوم بصورة افضل بمهام البناء»^(١) اما قاموس ١٩٨٣ فيفضل «اعادة بناء الانتاج واعادة بناء اقتصاد البلاد»^(٢) . وقد حمل القرار الشهير الذي اتخذته اللجنة المركزية في ٢٣ ايار ١٩٣٢

بتأميم الادب وانشاء اتحاد الكتاب السوفيات العنوان الآتي: «في اعادة بناء (بريسترويكا) التنظيمات الادبية والفنية». اما كلمة تسريع فتبدو هي الاخرى شائعة اليفة. وهي تذكر واقعاً، وعلى الأرجح، بالشعار الستاليني لمرحلة التصنيع: «معدلات الانتاج تقرر كل شيء»، غير انها تتناسب تماماً مع الايقاع العادي للحياة السوفياتية، كما تقدمها الشعارات والملصقات: «بكل طاقتنا نحو الاشتراكية!» ويزر مفهوم التسريع شوائب العصر البريجيني الذي يختصر بكلمة واحدة: الركود. فلا بد اذن من الخروج سريعاً وجذرياً من «الركود» وذلك من خلال «التسريع».

في ٧ ايار ١٩٨٥ اقرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي «الاجراءات الكفيلة بالتغلب على السكر والادمان على الكحول». وهذا القرار هو الاجراء الاول الذي اتخذته غورباتشوف وذلك قبل ان يمضي على انتخابه الى موقع الامانة العامة شهران. ويمكننا اعتبار الحملة ضد الادمان التي قام بها غورباتشوف بمثابة نموذج «للبريسترويكا» وتجدر الاشارة بداية، الى ان قرار انقاذ الشعب من هذه الآفة المتمثلة بالادمان قد اتخذ من قبل اللجنة المركزية بصفقتها مرشداً اخلاقياً الى جانب كونها مرشداً سياسياً للمواطنين السوفيات. ثم ان هذا القرار قد اتخذ على عجل دون ان تجرى دراسة فعلية لهذه المشكلة القديمة والمعقدة. واخيراً، ان الوسائل التي تملكها الدعاية قد وضعت بتصرف هذه الحملة المكثفة، التي يؤمل ان تؤدي نتائجها السريعة والحاسمة الى رفع سلطات المرشد الشاب الى المقامات العليا. ولقد وضع القرار الاول الذي اتخذته غورباتشوف موضع التنفيذ فعلياً في ٧ ايار ١٩٨٥ ثم لتوقف مفاعيله في ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٨ بناء على قرار آخر صادر عن اللجنة المركزية.

ما يزال الادمان على الكحول، منذ زمن بعيد، المرض الاشد فتكاً الذي يعاني منه المجتمع السوفياتي، والمختصون الغربيون يعرفون ذلك تمام المعرفة، وهم يبنون الارقام العائدة لاستهلاك الكحول ولنسب الوفيات الناتجة عن الادمان. وقد توصل الاستاذ فلاديمر تريميل وهو باحث اميركي، الى استنتاج ان نسبة استهلاك الكحول القوية للشخص الواحد في الاتحاد السوفياتي تصل الى ضعفي ما هي عليه في الولايات المتحدة والسويد، وذلك في بدايات السبعينات^(٣)، علماً بانها لم تتوقف عن التزايد في السنوات التي تلت. الا ان الارقام المجردة التي تقارن كمية الفودكا المستهلكة بكمية الويسكي مثلاً لن تدل على شيء مهم بحذ ذاتها، الا اذا اخذنا في الحسبان نوعية المشروب

والطعام الذي يؤكل معه . خلال مناورات القوات السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا - والقصة حقيقية - اقدم اربعة جنود على بيع مصفحتهم مقابل صندوق (٢٤ قنينة) من الفودكا . وقد اعترف الشاري التشيكوي ، بعد القاء القبض عليه «انه وحباً بالشعب السوفياتي قد اضاف ، «فوق البيعة» ، ٢ كيلو من كبيس الخيار وكيلو زنكة مدخنة . (٤)

تحولت الحملة ضد الادمان الى أول امتحان تواجهه «الغلاسنوست» : قامت الصحافة بنشر الأرقام والوقائع التي تبين الحجم الهائل الذي تأخذه هذه الظاهرة في البلاد ، وما تسببه من ضرر ودمار في الصحة والاقتصاد . ورغم ان ما نشر لم يكن جديداً بالنسبة للباحثين الغربيين ، فإن مجرد كشفه امام المواطنين السوفيات كان كفيلاً باحداث صدمة ، وإن هذا ما حصل فعلاً . فقد عرض التلفزيون مثلاً اطفالاً ولدوا مشوهين بفعل ادمان اهلهم . وهكذا نظمت حملة واسعة ومكثفة جداً لمكافحة «التنين الاخضر» . وربما كان للقرار الذي اتخذته اللجنة المركزية ميزة معينة - وهنا نكتشف خاصة مهمة لا تخلو منها «اصلاحات» غورباتشوف العديدة - وهي انه منسوخ كلياً عن الاساليب التي استخدمت خلال الحملة الاولى ضد الادمان التي عرفتھا البلاد في العشرينات وفي بدايات الثلاثينات . كانت جمهورية السوفيات قد ورثت «القانون الجاف» الذي فرضه نقولا الثاني عام ١٩١٤ ، في بداية الحرب . ولم تنته النقاشات بين القادة البولشيفيك حول مدى الضرر والفائدة من ادارة حصر الفودكا الا في كانون الثاني ١٩٢٣ ، أي عندما سيطرت الدولة السوفياتية على هذه الادارة . وفي ١٩٢٧ عرض ستالين المشكلة على النحو الآتي : «ما هو الافضل سِخْرُ الرأسمال الاجنبي او ادخال الفودكا؟ . . . طبعي اننا اخترنا الفودكا ، آخذين في الاعتبار وفي اية حال ما تزال حتى اليوم - انه اذا كان لا بد من اجل انتصار البروليتاريا والفلاحين ان نوسخ ايدينا قليلاً ، فإننا ومن أجل القضية ، سنقدم على هذا الامر» (٥) . في هذه الفترة اواخر العشرينات اتخذت السلطات اجراءات للحد من الادمان المتزايد خاصة بعدما تبين انه يهدد تنفيذ الخطة بصورة جديدة . وفي ٢٩ كانون الثاني ١٩٢٩ تم التوقيع على قرار ، سوف تبرز مواده الاساسية من جديد في مقررات ١٩٨٥ : الحد التعسفي من انتاج المشروبات الروحية وزيادة انتاج المشروبات غير الروحية (عصير الفاكهة . . .) منع بيع الكحول في الاماكن القريبة من المؤسسات والمدارس والمستشفيات ، اقتراح باستخدام «الادب والفن» للدعاية المضادة للكحول . حتى ان الشعارات الاكثر شعبية اليوم كانت قد

صيغت في سياق هذه الحملة: «الزهد معيار حياتنا» وهو شعار ظريف خاصة عندما يوضع الى جانب هذا الاعلان: «القاعدة؛ قنيتان من الفودكا للشخص الواحد». الا انه مع ذلك هناك امر مستجد في حملة ١٩٨٥-١٩٨٨ ضد الادمان: امكانية اتهام القوى المعادية بالعمل على إسكار الشعب الروسي. مؤيداً علناً «القانون الجاف» اكد البروفسور فيودو او غلوف أن «اعداء الزهد... هم اناس لا يدركون القوانين الاقتصادية في مجتمعنا او انهم غرباء عنا وعن نظامنا، إنهم اشخاص خطرون»^(٦). وفي رواية فاسيلي بيلوف «مستقبلنا اماننا»، وهي من أكثر الكتب رواجاً من التي صدرت في هذه السنوات الاخيرة، ومن اشدها غرابة، يعلم القارئ، «ان الرئيس كينيدي كان يمنع الصحفيين من الحديث عن السكر في الاتحاد السوفياتي . لماذا الاسهام في إيقافه؟ كما كان يقول، ليشربوا فسوف يكون إنبيارهم اسرع . سوف يتقرضون دون حاجة الى حرب نووية...»^(٧) وتبعاً لذلك كان إحجام الامبريالية الاميركية عن مناهضة الادمان على الكحول في المعسكر الاشتراكي لسبب هام لازدياده.

لقد بدأت الحملة ضد الادمان، «مطنطنة»، بسيل من التصريحات التي توضح ان المقصود ليس حملة مؤقتة ظرفية بل سياسة حاسمة ومصممة على ايجاد حل لهذه المشكلة المهمة . وقد اكدت البرافدا على ان «الحزب لن يتراجع ، بل انه سيعمل كل ما في وسعه لينجز هذه المهمة الاساسية على اكمل وجه»^(٨). غير انه سرعان ما اتضح ان توكيل الفرسان محاربة هذا الداء المستحكم، هذا المرض الخطير لم يكن نصيبه الا الفشل . فقد ادى تقليص ساعات بيع الكحول في المتاجر، بصورة فظة الى ظهور طوابير انتظار هائلة، وكذلك فان رفع اسعار الكحول بطريقة لا تقل فظاظة لم يؤد ، من جهة الى تدني عديد هواة «افيون الشعوب»، هذا - وعلى كل حال ليس في المتاجر شيء آخر يمكن شراؤه - ومن جهة اخرى فانه لم لا يعوض عن الخسائر المالية الناجمة عن انخفاض المبيعات .

كان قرار اللجنة المركزية في ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٨ بمثابة الاعتراف بهذه الهزيمة . اما المصطلحات المستخدمة في نص القرار فتذكر، بصورة عجيبة، بتلك الواردة في مقالة لستالين بعنوان: «نشوة النصر» نشرت في البرافدا في ٢ آذار ١٩٣٠ . غير ان هاهنا حديثان مختلفين تماماً، لا تصح المقارنة بينهما: الاول ويتمثل بالتأميم مع ما أدى اليه من ملايين الضحايا وهو من اشد فصول التاريخ السوفياتي هولاً وفظاعة، فيما يتمثل الثاني

بإحدى فصول الإصلاحات الغورباتشوفية. غير أننا بالمقابل يمكننا المقارنة بين وضعها موضع التنفيذ وآلية اتخاذ القرار والاعلان عن الفشل.

يبدأ مقال ستالين ونص القرار كلاهما من إثبات النجاح ببلوغ الهدف. إلا أنه نجاح يتحول في الحالين ومن خلال عبارة «الآن» إلى فشل. «إلا أننا، يقول القرار، لم نتوصل بعد إلى الحصول على التغيير الجذري». وهذا ما يمكننا تفسيره بما فرض من حظر ومنع، وبما اعتمد من طرق إرادية، وحماس مفرط والهروب إلى الامام. فقد أعلنت «مناطق زهد»، أقاليم بأكملها ومدن، دون الأخذ في الاعتبار آراء الناس...». وكان ستالين يبرر بالطريقة نفسها الصعوبات المعيقة للتأميم: «عدم التجاوب مع مبدأ التطوع» والهروب إلى الامام، و«قرارات الموظفين»^(٩).

هكذا بدأ سريعاً القرار «الإرادي»، الذي اتخذ غورباتشوف لتحرير الإنسان السوفيياتي من آفة الادمان على الكحول، كخطأ اقتصادي واجتماعي ونفسي وفي آخر المطاف سياسي. وقد اطلق الارتفاع الحاد والمفاجيء للأسعار وصعوبة التزود بالكحول من مخازن الدولة المبادرات الشعبية. فقد بدأ السوفييات بانتاج كحولهم البيتية. داحضين احكام المختصين بالشؤون السوفياتية حول سلبيتهم ونقص مبادراتهم، وتحول المواطنون السوفييات إلى مستقظري كحول. وفي اوائل الثلاثينات عندما التقى بطل رواية العجل المذهب «أوستاب بندر» بعض السائحين الأميركيين الذين يعانون من «تحریم» الكحول في الولايات المتحدة ويفتشون لذلك عن وصفة لصنع الكحول المنزلية، عرض لهم مئة وخمسين طريقة لصنعها: من البطاطا، القمح، الشمس، الشعير التوت، الحنطة السوداء، وحتى من كرسي تافه. أما في الثمانينات فقد اختار السوفييات السكر كمادة اولية. وهذا ما جعله يختفي سريعاً من المخازن، وينضم إلى باقي المواد المفقودة في هذه الحالة من القحط الشامل. وفي ١ ايار ١٩٨٩ انزلت بطاقات تموين خاصة بالسكر. وهكذا وقع الخيار وكأنها بالصدفة على يوم عيد، على يوم مشهود في تاريخ الاتحاد السوفيياتي: في الثاني من ايار ١٩٤٥ كانت جمافل القوات السوفياتية ترفع العلم الأحمر على «الرايخستاك». وبعد اربعة واربعين عاماً انتهى بها الامر إلى اعتماد البطاقات التموينية. وقدر الخبراء أن ١,٤ مليون طن من السكر، أي ما يعادل الاستهلاك السنوي لاورانيا حيث يعيش خمسين مليون شخص، قد خصصت لصناعة الكحول المنزلية. كانت البلاغات الرسمية الاولى تعلن بلهجة انتصارية عن غياب

السكيرين من شوارع المدن السوفياتية وعن تناقص السكر في المؤسسات وانخفاض عدد الجرائم المرتبطة بالادمان. الا انه سرعان ما اتضح ان السكر لم يغادر الطرقات الا ليدخل المنازل: وهكذا لاحظت وزارة الداخلية في ١٩٨٨ «... ان ثلثي الجرائم المهمة، والعائدة للادمان، ارتكبت في الشقق والمنازل...»^(١٠).

فالجريمة لم تكاد تتعاضد غير انها، وبعبارة لليوتنان - كولونيل المسؤول عن الميليشيا لونغفينوف، انتقلت الى اطار الحياة العائلية». وقد اعطى احصاءات بليغة عن عدد «الاحالات الى العدالة بتهمة تصنيع الكحول»: اكثر من ٨٠,٠٠٠ في ١٩٨٥ ومن ١٥٠,٠٠٠ في ١٩٨٦، ٣٩٧,٠٠٠ في ١٩٨٧، ١٢٠,٠٠٠ في خلال اول شهرين من ١٩٨٨^(١١). اما الاكاديمي اغانيغيان فقد قدر ان الخسارة المالية التي تتكبدها الدولة سنوياً من جراء حملتها لمكافحة الادمان تبلغ ١٠ ملايين روبل. وكتيجة ثانوية لزيادة تصنيع الكحول غير الشرعي والذي شكّل مصدراً جديداً للشراء فقد وسعت المافيا اطار نشاطاتها. وقد حذر الخبراء السوفييات المختصون بمكافحة الجريمة المنظمة من عواقب «القانون الجاف» في الاتحاد السوفياتي والتي قد تكون شبيهة بما آلت اليه قوانين «التحريم» عندما أمن للمافيا ثروات طائلة. وقد نتج الخطأ النفسي الذي وقعت فيه «الحملة ضد الادمان» من ان الشعب فهم الصراع الضروري ضد هذه الآفة كتحدٍ من قبل السلطة: لقد حرم غورباتشوف الشعب «معزيتة الكبرى» الفودكا دون أن يؤمن له ما يحل مكانها.

الفصل الحادي عشر الحركة الستاخونوفية

«سوف تعتبر الحركة الستاخونوفية من اكثر الصفحات اشراقاً في تاريخنا» سنالين، ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٥

«لقد دخلت الحركة الستاخونوفية، كصفحة مجيدة، في سيرة بلاد السوفيات».

برافدا، ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٥

ليل ٣٠-٣١ آب ١٩٣٥ انتج عامل المنجم الكسيس ستاخانوف ١٠٢ طن من الفحم الحجري فيما كان المعدل ٧ طن . وفي ١٩ ايلول سجل رقماً قياسياً جديداً: ٢٢٧ طن دفعة واحدة . وهكذا ولدت حركة جديدة تهدف الى زيادة الانتاجية ورفع معدلات الانتاج الى مستويات عالية جداً . في ١٩٨٥ القي ميخائيل غورباتشيف خطاباً تناول فيه «التقاليد التي ما تزال حية والمليئة بالمآثر في ميدان العمل» ، وذلك اثناء لقاء اللجنة المركزية بابطال العمل المحنكين .

لم يكن السكرتير العام قد اصبح ، الا منذ زمن قريب - بضعة اشهر - «القبطان الاكبر» في القناة السوفياتية . ومهما سيقول فيما بعد فإنه لم يكن يعلم تماماً ماذا يفعل ليعبر لجة الازمة السحيقة . انه يبحث عن شعارات ، وأحد تصريحاته الكبرى تبدأ بهذا العنوان: «مبادرة، تنظيم، فعالية» ، ثم إن هذه الثلاثية استبدلت فيما بعد ليصبح الشعار: «غلاسنوست ، بريسترويكا، تسريع» إن السكرتير العام يفتش عن وصفات مجربة ، وقد وجدها بداية عند ستالين . وهكذا يستعيد باسهاب في خطابه حول

«التقاليد التي ما تزال حية». المفردات والحجج التي نجدتها في خطاب ستالين في الجمعية الاولى للستاخانوفيين في عموم روسيا، بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٥. بدأ غورباتشيوف بالثناء على الحركة «التي تجسد بسالة وشرف وبطولة العامل»^(١) كلمات هي نسخة طبق الاصل عن عبارة ستالين الشهيرة: «العمل في الاتحاد السوفياتي هو مسألة شرف وبسالة وبطولة» - وهي عبارة كانت تزين ابواب المعتقلات، التي اعتبرت منذ ولادتها عام ١٩١٨ بمثابة «مدارس عمل». ولقد قال ستالين: «لم تتطور الحركة الستاخانوفية تدريجياً بل انها شبيهة بانفجار يحطم سداً»^(٢) ويشرح غورباتشيوف: «كانت الحركة الستاخانوفية تعكس موقفاً جديداً ازاء العمل، موقفاً وصفه ماكسيم غوركي بانفجار وهاج لطاقة جبارة». وربما كان ماكسيم غوركي هنا لقباً لستالين! اما غورباتشيوف فيلاحظ: «ستاخانوف» «على الطريقة الستاخانوفية» - كلها رموز تدل على المبادرة على الصراع من اجل الافكار الطليعية ضد ما هو بال، ضد ما قضى ايامه. وهذا بالضبط ما كان يروق لستالين في الستاخانوفية: «هذه الحركة تكسر المفاهيم التقنية القديمة، المعايير البالية التي كانت تطبق على التقنية...».

ويمكننا ان نستمر طويلاً في مقارنة الاستشهادات: فالنسبة لغورباتشيوف يكمن ما هو جوهري في هذه الوصفة الستالينية - الحركة الستاخانوفية - او ما بدا له هكذا في ١٩٨٥ - في قدرتها على إيقاظ روح المبادرة وزيادة الانتاجية زيادة كبيرة، ألم يقل ستالين ان الستاخانوفية تشكل «نموذجاً لهذه الانتاجية المرتفعة التي لا تصل اليها الا الاشتراكية فيما تظل الرأسمالية دونها؟». وأطلقت الحملة، فنشرت الليتراتورنايا غازيتا هذه الايات «لايكاتيرينا شيفيليفا»: «لقد دقت الساعة يا عمال الستاخانوفية...» غير ان العملية خنقت في المهد. اذ بدا واضحاً ان العصر قد تغير. فقد ذكر غورباتشيوف «بان الحركة الستاخانوفية المأخوذة بالحماس ولدت في عصر لن يغيب عن الذاكرة. كانت الدولة السوفياتية الفتية تنجز بناء صناعاتها متخطية الزمن بايقاعات مجنونة». وقد مرت سنوات عديدة قبل ان يدخل غورباتشيوف بعض التعديلات على رؤيته لهذا «العصر الذي لا يغيب عن الذاكرة» وليعترف على مضدد ان «الإقاعات المجنونة» تسببت بوقوع العديد من الضحايا. تبدو الستاخانوفية ظاهرة مرتبطة نموذجياً بمرحلة تشكل الدولة التوتاليتارية الفتية: فهذا الحماس الذي غالباً ما كان صادقاً، لم يطلق الا باعنف اشكال الارهاب ولم يدم الا بها. والواقع ان التزامن بين

«مأثرة» ستاخانوف، في آب وايلول ١٩٣٥ وبدء مرحلة الارهاب الكبير في كانون الثاني ١٩٣٤، لم يكن بفعل الصدفة. وغورباتشيف يعلم، هو ايضاً، ما يجب القيام به «علينا انزال اقسى العقوبات، كما يقال، بهؤلاء الذين يعملون من قفا يدهم، الذين ينتهكون نظام العمل ونظام التقنية، الذين لا يصلح ما ينتجونه الا لرميه في سلة النفايات». وهو يجد انه من الطبيعي «اللجوء الى اجراءات، قانونية مادية، ادارية او الى اي اجراءات، تكون اشد فعالية ضد هؤلاء الذين لا يريدون ان يعملوا بنزاهة ووفق ضميرهم». غير ان الاجراءات من النمط الستاليني لا تدخل ضمن إستراتيجية غورباتشيف. فبالنسبة لستالين الامر كان بسيطاً. فقد اعلن في اجتماع الستاخانوفيين: «لقد اضطررنا، فيما يتعلق بالمناهضين لهذه الحركة، ان نعطي درساً تأديبياً صغيراً لهؤلاء الاشخاص المحترمين...». اما غورباتشيف فلا يصل الى هذا الحد. انه يكتفي باطلاق التحذيرات. والحال انه دون اللجوء الى القمع بوصفه عنصراً جوهرياً من الستاخانوفية، يستحيل تنظيم حركة من هذا النوع.

وهناك عنصر آخر غير متوفر ايضاً. ففي الخطاب الذي وجهه الى اتباع ستاخانوف قال ستالين هذه الكلمات الشهيرة «الحياة غدت افضل، ايها الرفاق، الحياة غدت اكثر مرحاً» و اضاف «وعندما نعيش المرح يسير العمل جيداً». واذا قارنا وضعية الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٥ بما كانت عليه في ١٩١٣ او ١٩٢٨ يتبين لنا انها زادت سوءاً، ولكن بالنسبة لبداية الثلاثينات هناك بعض التحسن: فلقد الغيت بطاقات التموين بالنسبة للخبز وكان الانطباع العام السائد ان الاسوأ قد مر. والامل يرفع الرأس من جديد. لو اننا عشنا البؤس. ولم يكن لحياتنا اية بهجة او فتنة، لما كان، كما اوضح السكرتير العام، قد نشأ عندنا مثل هذه الحركة الستاخانوفية...»^(٣). والواقع ان رؤية ستالين كانت صحيحة: فالحماس لا يولد في جو من اليأس والبؤس المطبقين. ومن المحتمل ان يكون غورباتشيف قد فهم هذا الامر. غير ان هذا لم يحل دون رفض السكرتير السابع تطبيق مثل هذه الوصفة.

في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الذي انعقد في شباط آذار ١٩٨٦، دعا بعض الخطباء الى إحياء الحركة الستاخانوفية، وفي ١٨ تشرين الاول ١٩٨٨ نشرت الكومسومولسكايا برافدا مقالة تضمنت معلومات يعرفها كل الناس منذ زمن بعيد: إن مأثرة ستاخانوف لم تكن الا احتيالاً. فلقد اعد له خصيصاً دهليز منجم ووضع بتصرفه

مساعدين . وقد جهزت العملية مسبقاً من قبل امين المنظمة المحلية للحزب ، الذي استطاع ان يؤمن مستقبلاً مهنيّاً زاهياً^(٤) . وهكذا أزيح صنم جديد من البانتيون السوفيّاتي ، ولقد آن الاوان لصنع أبطال آخرين .

الفصل الثاني عشر

«هذه إرواد» تفضل اقفز!

«نريد استبدال الآلية الاقتصادية القديمة بآلية أخرى تقوم على أسس جديدة، وحيث التطور المخطط (أحدى السنين الأساسية في الاقتصاد الاشتراكي) والمركزية الديمقراطية (المبدأ المركزي في القيادة اللينينية) يجريان بطريقة أخرى واساليب أخرى».

آبل اغانيغيان

كان الجواب على متبجح حكاية ايزوب، الذي كان يتباهى بانه لا يضاهيه في قفزاته على جزيرة ارواد احد: تخيل انك الآن عليها وبيّن مواهبك. او كما كان يقول الرومان بما لديهم من ايجاز: «هيك رودوس هيك سالتا» «هذه إرواد تفضل اقفز». لقد صرح غورباتشيف اثناء الاجتماع المكتمل الاول للجنة المركزية الذي تلا انتخابه قائلاً: علينا ان نقفز. اما آبل اغانيغيان أحد المستشارين الاقتصاديين الرئيسيين للزعيم الجديد في بدايات «البريسترويكا» فقد حدد تماماً: «ما نريده: سكب نبذ جديد في الجرار العتيقة»^(١).

كانت الاقتراحات بتحسين النموذج الستاليني، مع الإبقاء على مبادئه الأساسية، متعددة. واكثر من ذلك، فقد شهدت السنوات الاولى من عصر بريجنيف تجارب بهذا الاتجاه - انه عصر اصلاحات كوسيجين. لقد جرت محاولة لتوسيع نطاق استقلالية بعض المؤسسات ولتحفيز الانتاجية. . . وقد رأى اندروپوف ايضاً، ضرورة القيام ببعض التغييرات في الاقتصاد بغية زيادة مردوديته. وقد لجأ الى تدعيم الاجراءات المجربة (التي

تركت في اي حال، سريعاً)، بالتشديد الالزامي على الانضباط في العمل. اما تقرير الاكاديمية تاتيانا زاسلافسكايا، المعد في خريف ١٩٨٢، والذي تمت مناقشته في خلال حلقة جمعت حوالي خمسين باحثاً ونشر في الواشنطن بوست في آب ١٩٨٣، فقد شكل، من جهته، برنامجاً إصلاحياً حقيقياً. وقد اثارت «وثيقة نوفوسيبيرسك»، كما سميت، اهتماماً عظيماً في الغرب كما انه تم الاعتراف بها في وطن واضعتها من خلال «الاصوات». وتشير هذه الوثيقة الى «أن النسق الحالي لعلاقات الانتاج عرف تأخراً هائلاً بالنسبة لمستوى تطور القوى الانتاجية. فبدل ان تسهل تطورها المتسارع تكبح تقدمها بصورة متطردة»^(٢). انه التعريف الماركسي الكلاسيكي للأزمة، التي تبرز بشكل ثابت في تاريخ البشرية وتفضي - حسب ماركس - الى اندلاع الثورة. اما الطبقة التي تكبح «الهجوم» فانها تزاح عن مسرح التاريخ. فهكذا جرى كنس الواحدة تلو الاخرى، الطبقة الاستعبادية، والاقطاعية، وفي البلدان الاشتراكية، البرجوازية. والبروليتاريا التي وصلت الى السلطة في تشرين الاول ١٩١٧ تشكل حسب ماركس ولينين - الطبقة الاخيرة، إن التاريخ يكتمل، انها اللجنة، وجاءت استنتاجات تاتيانا زاسلافسكايا غير متوقعة، واعتبرت، في تلك الفترة، جريئة رغم انها تعكس وجهات نظر جرى التعبير عنها في اطار مناقشات بين بعض علماء الاقتصاد. وقد استندت زاسلافسكايا الى الحزب: «ان ضرورة الاستعجال باجراء بريسترويكا» في نسق ادارة الدولة للاقتصاد امر بتقبله الحزب منذ زمن بعيد»^(٣). وهكذا ادخلت كلمة «بريسترويكا» الى دائرة التداول. فأى «بريسترويكا» هي التي سيجملها خريف ١٩٨٢؟

مذكراً بمقررات مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفياتي بدءاً من عام ١٩١٧ وبذلك الصادرة عن جلسات اللجنة المركزية المكتملة المتفقدة في تموز ١٩٧٩ وتشرين الثاني ١٩٨٠ وايار ١٩٨٢ تعتبر واضحة «تقرير «نوفوسيبيرسك» انه من الممكن التغلب على الازمة البنيوية (التنافر بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج) من خلال اصلاح نظام الادارة. وتقتراح زاسلافسكايا» ان تترك للعمال، بعد أن يصار الى تنظيم النقاط الاساسية او المفاتيح التي تضبط نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي، منطقة واسعة بما يكفي ليبارسوا استقلاليتهم الذاتية»^(٤). او بتعبير آخر: ان يجري التخلي عن الطرق الادارية في القيادة واللجوء بداية الى «خوافز تأخذ بالحسبان الحاجات الاقتصادية

والاجتماعية للعمال وتسمح بتوجيه مصالحهم بالاتجاه الذي يتطلبه المجتمع»^(٥).

لقد التقط ميخائيل غورباتشوف كلمة «بريسترويكا» وجعل منها مرادفاً لإدارته وحلاً لجميع المشاكل أو الترياق العجائبي. وقد ترجمت «البريسترويكا» بداية بمفردات «التسريع» فالخروج من الازمة، وتحسين الحالة الاقتصادية في البلد، «والقفزة الكبرى» فوق لجة الشر - كل هذه الامور ستتحقق من خلال «التسريع» أو «تكثيف» الانتاج. العمل اكثر، العمل افضل واسرع، ذلكم هو من الآن فصاعداً القانون الأعظم، بعد شهر على انتخابه عدد غورباتشوف المشاكل التي لا بد من حل سريع لها: «اعادة وضع الانتاج على سكة التكثيف، تسريع التطور العالمي والتقني. ادخال تحسينات فعلية على نوعية الانتاج»^(٦). وبعد شهرين عقدت اللجنة المركزية جلسة حول «مشاكل تسريع التطور العلمي والتقني».

وقد صاغ الامين العام الشاب ما يمكن ان نسميه اليوم النسخة الاولى عن استراتيجية «البريسترويكا». والواقع انها تشبه من حيث خطوطها العريضة - الاستراتيجية التي اعتمدت خلال مرحلة التصنيع الستالينية: التسريع (او: «الايقاعات تقرر كل شيء»، «بناء الآلات يرسم الطريق الملكي امام تطورنا»^(٧)) (او: الصناعة الثقيلة هي قاعدة الاقتصاد)، ثم إن غورباتشوف يضيف واثقاً من نفسه متفائلاً: «إن الاتجاه الرئيسي في بريسترويكا الادارة الاقتصادية واضح اجمالاً لدينا. انها تقضي باستخدام اكثف واشمل لميزات الاقتصاد الاشتراكي من جوانبها كافة. لا بد لنا من ان نختار متابعة العمل على تدعيم وتطوير المركزية الديموقراطية». كما ان السكرتير العام يتطرق إلى «التطوير الواسع لمبادرة الجماهير» غير ان ذلك لا يأتي الا في المرتبة الاخيرة، اي بعد زيادة تأثير المبدأ المركز على الادارة والتخطيط»^(٨).

اكتسبت عبارة «انعطاف أثناء المسيرة» في السنة الاولى من العهد الغورباتشوفي شعبية كبيرة. وهي تطمح الى الدلالة على أفضلية الإنعطاف، دون تغيير القواعد او ايقاف التقدم في السبيل المرسوم، الى طريق تؤدي بسرعة اكبر الى الهدف. وقد بدأت الاجراءات الفعلية، والاصلاحات العملية بتنفيذ هذا «التوجه من جديد ودون عوائق»، هذا «الخط العام». وكانت بمثابة الدلائل على التناقضات الداخلية التي يعيشها قائد «البريسترويكا». ونجد من بين القرارات الاولى قرار اللجنة المركزية ومجلس

الوزراء «حول متابعة تحسين ادارة المجمع الزراعي الصناعي»^(٩) وهو ما يجب ان يتيح حلاً نهائياً لمشكلة التمويل. وها انه قد تم اكتشاف دواء سحري: تجميع الوزارات الزراعية الخمس اضافة الى لجنة دولة (زراعية ايضاً) في سوبر - وزارة هائلة: مجمع الدولة الزراعي - الغذائي (آغروبروم). ويكشف تعيين موراخوفسكي على رأس الاغروبروم، وهو نائب اول لرئيس الوزراء، ومقرب من الامين العام منذ أيام ستافروبول، مدى الاهمية التي يعلقها غورباتشوف على «الاصلاح» وبدأت موجة تطهير صارم في جهاز الادارة الاقتصادية^(١٠)، وفي ايار ١٩٨٦ اقر المشروع حول مراقبة الدولة^(١١). فكل منتج يصدر من المصانع والمعامل يمر على مراقبين مستقلين عن المؤسسة. وكان هذا النظام سائداً منذ مدة طويلة في المؤسسات العسكرية، ويعمل، في هذا المجال، على تأمين نوعية الانتاج السوفياتي، ويعتبر قادة «البريسترويكا» انه لا يمكن الحصول على اي تحسين في نوعية الانتاج اجمالاً الا بالقوة. وقد تم التصويت على «القانون حول المؤسسة» الذي يعطي هذه الاخيرة المزيد من الحقوق ويقيم نوعاً من التمويل الذاتي. وهكذا اصبح مديرو المؤسسات والمسؤولون عن المنشآت ينتخبون الى مراكزهم: وتبقى العادة الجارية ان يتم اقتراح مرشحين لتبث اللجنة الحزبية بشأنها. ثم ان عدد المؤسسات حيث ينتخب المسؤول من قبل المجمع بدأ يزداد تدريجاً.

وقد لقيت كل هذه المقررات والقوانين والقرارات ترحيباً من قبل الصحافة التي هللت للاصلاحات الجديدة باعتبارها وسيلة تسمح بدفع «البريسترويكا» الى الامام. ولا بد هنا من الاشارة الى ان غورباتشوف ومستشاريه لم يقترحوا اي طريقة جديدة للخروج من الازمة، فلقد تم اختبار كل شيء، خلال سنوات N.E.P. وفي ظل خروتشوف، وابان ما سمي «بالركود»، وبعده. وقد صرح الاكاديمي أغانيغيان، في مقالة نشرتها البرافدا في آب ١٩٨٤ - اي في خضم مرحلة تشيرنينكو - بعنوان الخبرة والتمويل الذاتي، ان الانتاجية قد زادت اكثر من الضعف خلال النصف الاول من العام، مقارنة مع عام ١٩٨٢. وقد اكد على ان الدينامية التي يتصف بها هذا المؤشر تبث على السور في الزراعة اكثر مما تبث عليه في النقل^(١٢). اذن، الا ان تحافظ على هذه الدينامية. غير ان الامور كانت اشد تعقيداً بصورة لا تدع اي شك.

في حزيران ١٩٨٥، اكد الامين العام الشاب على وضوح التوجه العام «للبريسترويكا»، الا انه، وبعد مضي عام اثناء رحلة الى سيبيريا عاد ليقول: «ما من

احد، ليس فقط في خاباروفسك بل في موسكو ايضاً، في الوزارات والغوسبلان والحكومة والمكتب السياسي يمتلك وصفة جاهزة تؤمن لنا التسريع»^(١٣)، وهنا ايضاً يمكننا ابداء بعض الشكوك. ذلك اننا نكتشف فجأة وفي كل مرة ان اي قرار او قانون جديد يبقى في «الاصل» سيء الاعداد، متناقض وغير فعال ولا يمس بتاتاً بالنموذج القديم.

وضعت «رقابة الدولة» هذا الاجراء المتشدد الجذري، المنتظر ان يؤدي الى تحسين اساسي في نوعية الانتاج، حيز التنفيذ، ابتداء من اول كانون الثاني ١٩٨٧، وشملت ثلث المؤسسات. وتبين في نهاية العام «ان ١٥ الى ١٨ بالمائة من الانتاج الصناعي لم تمر على الرقابة، اي لم تصل الى الدرجة المطلوبة من حيث النوعية. «وقد بلغت الكلفة الاجمالية للسقط وللقطع التي تُطلب إعادة تصنيع ٦ مليارات من الروبلات»^(١٥). وبعد عام رفضت رقابة الدولة ما كلفته ٤, ١ مليار روبل من المتوجات اي ثمانية بالمئة من الحجم الاجمالي، ويمثل السقط في صناعة الآلات ٥, ١٣ بالمائة^(١٦). ولسنا بحاجة الى القول بانه يجري اللجوء الى كل شيء «لكسب رضى» المراقبين اي ان الارقام التي وردت لا تمثل الا الحد الأدنى مما يفترض ان يرفضه المراقبون لردائه نوعيته. وقد صرح ميلنيكوف، امين سر اللجنة الاقليمية للحزب في جمهورية كوميس في الجلسة المكتملة للجنة المركزية في نيسان ١٩٨٩، بأن القانون الذي يرعى رقابة الدولة لا يشغل كما يجب^(١٧). اما كابايدزه، وهو مدير عام لمركز صناعي كبير فقد كان اقرب الى الجزم: «لقد انشئ نسق غير صالح بالمطلق للاستخدام لا بل انه مضر بالنسبة للقوى المنتجة في المجتمع...»^(١٨). وفي تشرين الاول ١٩٨٩ تم الغاء رقابة الدولة.

والامور لم تكن افضل بالنسبة لاصلاح اقتصادي آخر ذي اهمية كبرى: القانون الذي ينظم مؤسسات الدولة. وهو بعد ان وضع موضع التنفيذ الجزئي ولم يشمل الا قسماً من المؤسسات حيث وسع نطاقه ليطل، ابتداء من ١٩٨٩، مجمل القطاع الصناعي.

وقد لحظت لجنة الدولة للاحصاءات بارتياح في النشرة التي تصدرها، واستناداً الى موازنة الفصل الاول لعام ١٩٨٩ الانتقال الى التمويل الذاتي الكامل، الا انها اشارت بالمقابل الى «انه لم تصر بعد الى بلوغ الدينامية والفعالية الضروريتين، في مجال تطور الانتاج الاجتماعي»^(١٩).

في آذار ١٩٨٨ ، صرح غورباتشيف امام عمال مصنع للكريات Roulements billes في موسكو «الآن فقط يمكننا الحديث عن البريسترويكا بوصفها واقعاً فعلياً، وذلك بعد ان دخل القانون الخاص بمؤسسات الدولة حيز التنفيذ»^(٢٠). وبالاتظار جرى تحريف القانون الذي يعطي - كما يقال - المؤسسات حيزاً واسعاً من الاستقلالية ، بسهولة تامة . وهكذا تم تدعيم التبعية المخطط لها التي كانت سائدة بالامس بوصاية الدولة المباشرة . فمجمال انتاج المؤسسات ، أويكاد ، ظل - كما في السابق - خاضعاً لوصاية الوزارات وتحت اشرافها المباشر . وقد إعترف رئيس مجلس الوزراء ريجيكوف «بان الوزارات والادارات كسبت من جديد وصاية الدولة مستعيدة بغلاف جديد الطرق التقليدية للتخطيط الموجه الى شخص أوهيئة (مرسل إليه) محددين»^(٢١) ، مباشرة بعد إصدار القانون الخاص بمؤسسات الدولة (الذي اعد سرياً في الوزارات) ظهرت المقالات والرسائل والتصريحات حول ضرورة اعادة النظر بها . وهذا من علائم زمن «البريسترويكا» ، وطابع يميز جميع قوانينها . وقد بوشر باجراء بعض التعديلات . الا ان الانطباع العام ظل سلبياً . و كشف بونتيش رئيس المجلس العلمي لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي لشؤون التمويل الذاتي وهو خبير كبير في هذا الميدان ، عن ان «النظام المعمول به يعيد انتاج شوائب اساسية»^(٢٢) وقد اكد رئيس سوفيات موسكو . سايكن ما توصل اليه الخبير الاقتصادي : «يتحول التمويل الذاتي الفعلي الذي نتكلم عنه ونعلق عليه الآمال ، في العديد من المؤسسات إلى اجراء شكلي اضافي ولا يعطي النتائج المرجوة»^(٢٣) . وفي ايلول ١٩٨٩ ، وبعد العديد من التعديلات على القانون ، ظل ٨٠٪ من المؤسسات غير راضية عنه معتبرة انه «لا يتيح العمل ضمن شروط التمويل الذاتي»^(٢٤) .

وفي نهاية السنوات الاربع الاولى لم تعطِ انتخابات مسؤولي المؤسسات ، هي ايضاً ، النتائج المتوقعة . فقد كانت قيادة الحزب تأمل ان تدفع اعادة الاعتبار للديموقراطية ، وإن في اطار الاشتراكية ، العمال الى انتخاب مدراء او مسؤولين يفرضون العمل على زيادة الانتاجية وتحسين النوعية . . . غير ان ما حصل كان غالباً العكس تماماً فالسكرتير الاول للجنة الحزبية الاقليمية للينغراد يشكو مثلاً ، بمرارة من الحالة السائدة ، وذلك امام الجمعية المكتملة للجنة المركزية : «كنا نتصور ان المجموعات سوف تأتي ، الى حلقة الانتاج بقيادات كفوءة خلاقة ، صابرة ، وان تمنحها الثقة

والولاء. ولكن ما الذي حصل؟ في الواقع العكس تماماً. حيث فضلت بعض المؤسسات، متجاهلة تعليمات التنظيمات الاجتماعية والحزب، مسؤولين سهلين مرزق وغير متطلبن، والذين بشكل ارادي ام لا يشجعون تفاقم آفة الاستهلاك والجشع والطفيلية^(٢٥). يمكننا بسهولة ان نفهم ما يشعر به سولوفياف من ألم: فهو «معلم» منطقة لينينغراد، والعضو الاحتياطي في المكتب السياسي، والمرشح الاوحد لانتخابات نواب الشعب الذي، لم ينتخب^(٢٦) ويمكننا تلخيص كل هذه الشجون بانه اذا لم يكن كل شيء في السابق على ما يرام، فإن النظام كان على الاقل سائداً، كان الحزب هنا وعينه ساهرة. اما اليوم فكل شيء اصبح سيئاً رغم الابتكارات او تحديداً، حسب سولوفياف «من جرائها». ويؤكد هذه الملاحظات التي ابداهها سكرتير لينينغراد شهود كثر من الصحفيين والعمال، والاقتصاديين: فالانتخابات في المؤسسات لم تعدل الوضعية السائدة، لا بل انها أدت احياناً الى تفاقمها.

إنه أهم الاجراءات التي اعتمدت من اجل «التسريع» كان اصلاح الآلة الادارية الهائلة التي صورت، في جميع خطب غورباتشوف وجميع مقالات الخبراء والاعلاميين ذات الطابع النقدي الحاد المستوحاة من الغلاسنوست، بوصفها العدو رقم واحد «للبريسترويكا». والارقام هنا تحكي ببلاغة، في ١٩٨٧ اثبت غورباتشوف ذلك: «نجد في اطار الادارة حالياً ١٨ مليون موظف، منهم ٢,٥ مليون يشكلون طاقم مختلف أجهزة الادارة والانضباط، و ١,٥ مليون جهاز ادارة الجمعيات والمؤسسات والمنظمات، وهذا ما يمثل ١٥ بالمائة من الموارد المنتجة في البلاد. وهناك مسؤول لكل ١٧ شخصاً... ونفق اكثر من اربعين مليار روبل لصيانة هذا الجهاز، فيما دخلنا القومي لم يزد هذه السنوات الاخيرة، الا بالكاد عشرين مليار روبل»^(٢٧).

ويعطي سيرغي اندرييف المزيد من التفاصيل: «تعد اقسام الادارة (نهاية عام ١٩٨٧) ما مجموعه ١٧,٧١٨,٠٠٠ شخص ١١,٥ مليون منهم يعملون في اطار المؤسسات والتنظيمات وحوالي ٣ ملايين يشكلون جسم المهندسين، فيما يضم جهاز الوزارات والادارات ١,٦٠٤,٠٠٠ شخص»^(٢٨). ومن الواضح انه لا بد من تقليص هذه الاعداد. كان ذلك من الامور البديهية حتى في ١٩١٩، حيث اكتشف لينين فجأة النمو الغزير للبيروقراطية. والوضعية كانت نفسها في الثلاثينات حيث كان الفريق ستالين يقود شخصياً حرباً شعواء ودون هوادة ضد البيروقراط. ويذكر اندرييف بان

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفيما كانت في البلاد عام ١٩٥٦، ٥٢ وزارة وطنية، شددت على ضرورة اتخاذ اجراءات بهدف «تقليص العدد وتبسيط الجهاز الاداري». في ١٩٧٩ بلغ عدد هذه الوزارات ٦٤ وما يزال يزداد.

عند استلام غورباتشيف السلطة وبدء البريسترويكا، افتتحت حملة إستهدفت طرد «البيروقراط». وقد أعلم ميلنيكوف السكرتير الاول للجنة الاقليمية للحزب في كيميروفو، اللجنة المركزية المنعقدة في اجتماع مكتمل انه جرى طرد ٦٠٠,٠٠٠ مدير إداري واستيعاب ٧٠٠,٠٠٠ غيرهم^(٢٩). في رواية ايليا اهرنبرغ «الحياة الصاخبة لللازيك رويتزشواتنز»، يفقد بطل الرواية عمله، وهو شخص حكيم ومضحك يواجه ما يدور في جمهورية السوفيات في العشرينات، ثم يجد سريعاً عملاً آخر. ويعلق الكاتب: «هكذا انقذ لازيك بفضل الجدلية الشهيرة: يطرد شخص من مكان ما ليوضع شخص آخر محله...»^(٣٠). اما أندرييف الذي ربما لم يعرف حياة لازيك الصاخبة فيشهد بعد ستين عاماً «ان الجدلية الشهيرة» ما تزال تعمل على احسن وجه.

وهناك اسباب كثيرة تحول دون القفز فوق اللجة، وهناك تفسيرات عديدة لهذا، القفزات التي تراوح مكانها، وقد تناوها المسؤولون في الحزب والدولة والاقتصاديون والصحافيون. واننا سنعود اليها لاحقاً. اما الآن فلتتوقف عند «تقنية» الاصلاحات. تشدد مقالة في البرافدا في معرض إثارتها لبؤس الاقتصاد السياسي السوفياتي على نقص الافكار التي تساعد في الخروج من الازمة. ويبدو الكاتب جازماً: «لن نتوصل الى الخروج من هذه الدائرة المفرغة ذات الدورات الخمس: نقص الآلية الاقتصادية السائدة، اقتراح حلول لتغييرها وما تثيره فعاليتها من غبطة، الصدمة الناتجة عن حصول عكس ما كان يتوقع، ثم اللجوء الى النقد الشامل من جديد»^(٣١). في نيسان ١٩٨٩ وبعد اربع سنوات على «البريسترويكا»، اقدم غورباتشيف على هذا الاعتراف المدهش: «... لم يكن احد منا (كان يتوجه هنا الى اعضاء اللجنة المركزية، اعلى هيئة في السلطة). على معرفة بالبلد الذي نعيش فيه». ولقد رفض السكرتير العام الفكرة التي كانت «تحول دون اقدمه على الفعل». واكتفى بالقول: «تبين ان كل شيء اشد تعقيداً مما كنا نعتقد او بما بدا للنظرة الاولى»^(٣٢).

«كنا نعتقد» «كان قد بدا» «لقد أخطأنا»، الندم بالنسبة لغورباتشيف هو هنا

الثمن الذي لا بد من دفعه ليحق له القيام بتجارب جديدة . وقد أثير خطأ الاستراتيجية التي اختارها غورباتشوف في حزيران ١٩٨٨ ، اثناء انعقاد المؤتمر التاسع عشر للحزب وكان كلام مدير معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم واضحاً : «من المهم جداً أن تشير بكل وضوح الى انه لم يحصل اي انقلاب جذري في الاقتصاد، والى ان هذا الاقتصاد لم يستطع الخروج من حالة الركود». هذه الملاحظة تأتي بعد ثلاثة اعوام من الاصلاحات . ويذكر الاكاديمي «أبالكين» أن من بين اسباب الفشل ، الرغبة «في حل المشاكل من خلال اجراءات وقرارات ذات طابع تنظيمي صرف، وهذا ما يزيد بخاصة عدد القرارات التي يجب اتخاذها»، الا ان الخطأ يكمن قبل اي شيء في استراتيجية التسريع . فالسعي الى حل مشكلة الندرة («الندرة» سيدة الموقف فهناك نقص بهذه المادة وبمادة أخرى وبثالثة ورابعة») بزيادة حجم الانتاج لا يؤدي الا الى تفاقم المصاعب الاقتصادية^(٣٣). وقد اثارت وجهة نظر الاكاديمي أبالكين، التي تعتبر ان الاجراءات من أجل «إحلال الديمقراطية في الحياة الاجتماعية» لن تغير شيئاً رغم أهميتها في النظام القائم، رداً حاداً من جانب غورباتشوف، طالباً الكلام ثانية، علق الامين العام مشتتاً من مداخلة أبالكين «رائحة الحتمية الاقتصادية او ولنقول كل شيء، تقيماً يسياً الى «البريسترويكا»^(٣٤).

يعطي فاسيلي سيليونين، وهو من اكثر الصحافيين الذي يهتمون بالاقتصاد، كفاءة وجراًة، تفسيراً مضيئاً يتناول حقيقة إستراتيجية التسريع . فهذا المفهوم (التسريع) يتأسس على عملية حسابية نشرت من قبل الاكاديمي اغانبيغيان، وسرعان ما اصبحت شهيرة . إننا نستخدم في السنة الواحدة، من الدخل القومي ما يقارب ٦٠٠ مليار روبل . وتذهب ثلاثة أرباع هذا المبلغ للاستهلاك، وما يتبقى للدخار . واي ارتفاع لهذا الدخل، بمعدل واحد بالمئة، سيبلغ ٦ مليارات روبل وعلينا لكي نحقق تحسناً ملموساً في مستوى الحياة زيادة الدخل العام للبلاد بنسبة ٤ او حتى ٥ بالمائة سنوياً^(٣٥). ويبين سيليونين الاخطاء الكامنة في هذه الاستراتيجية . انه يقرر بداية بطريقة حسابية انه حتى في حال ارتفاع الدخل بمعدل ٥ بالمائة فان ذلك لن يعطي الا زيادة لا تتعدى روبلاً ونصف في الشهر، تقريباً . غير ان ما هو جوهرى يكمن في مكان آخر: ففي الاقتصاد السوفياتي تتناقص حصة المنتجات الاستهلاكية من مجمل الانتاج بشكل منتظم ومنذ ١٩٢٨ . اذا فان تسريع وتائر الانتاج يستتبع زيادة في الانتاج

المعادن . الجرافات ، والحاصدات - الدارسة والآلات والادوات ، وكلها من النوع الرديء اضافة الى انها تبقى غير مستخدمة . اذا فتسريع الوتائر يقود الى استنقاذ متسارع للموارد بها في ذلك ، الموارد غير القابلة للتجديد مثل النفط .

ويرى سيليونين وجود ارتباط مباشر بين استراتيجية التسريع «وبريسترويكا» البنية الاقتصادية : يفترض ان يحل التسريع مكان الاصلاحات الجذرية : فاما التسريع الذي يفهم بوصفه ارتفاعاً عامودياً لمعدلات الانتاج او بالمقابل بريسترويكا البنية الاقتصادية . وليس ها هنا حل ثالث لا بد إذن من الاختيار^(٣٦) .

مقيماً حصيلة ثلاث سنوات من الاصلاح ، لا يلف سيليونين او يدور : «ليس للاصلاحات اي اثر ، فالآلية الجديدة ليست اسوأ او افضل من القديمة . انها ببساطة نفسها . . .»^(٣٧) اما البروفسور بوبوف عالم الاقتصاد الذي نحت في الاساس عبارة «نظام إداري» فيتفق تماماً مع ما استنتجه سيليونين : «فطبيعة الآلية القديمة - موضع أمرية الوزارة . وحقه في التحديد الإداري لعمر الحلقة الذاتية التمويل - ظلت في الواقع هي نفسها»^(٣٨) .

ما هي الاسباب الكامنة وراء فشل الاصلاح الاقتصادي ، الذي اصبح اشد وضوحاً في ١٩٨٩ ؟ يشير سيليونين ، قبل اي شيء ، الى الخطة ، اي الى الابقاء على النسق القديم للتخطيط . فالمادة ٢ من القانون الشهير حول مؤسسات الدولة الذي وضعه غورباتشوف «بحقيقة البريسترويكا» يحدد : «تعبير خطة الدولة للانماء الاقتصادي والاجتماعي أداة اساسية لتنفيذ السياسة الاقتصادية التي ينتهجها الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»^(٣٩) . اذا كانت الخطة أداة اساسية ، يتساءل سيليونين ، ما هو ، إذن ، دور الطرق الاقتصادية للتأثير على الانتاج ؟ وخاصة دور استبدال الاساليب الادارية بطرق اقتصادية ، وهو الهدف المعلن من الاصلاح ؟ ولكن هذا ليس كل شيء : اذ يدخل التخطيط في تناقض مع السوق وحتى اليوم - وهذا ما يجعل جميع الخطب حول الاصلاح الاقتصادي متهافنة ودون اي مفعول - لم تجد مشكلة الاسعار اي حل لها . «الطريقة الوحيدة المضمونة لتحديد الاسعار هي السوق ، ولم تقترع الانسانية حتى الآن شيئاً أفضل»^(٤٠) . وعام ١٩٨٩ ، وصف عالم الاقتصاد نيكولاي شمليوف ، الذي اشتهر على اثر مقالته «تسليفات وديون»^(٤١) ، والتي اعتبرها غورباتشوف ،

صحيحة من جانبها النقدي وخاطئة من حيث انها برنامج، الوضعية بصيغة الخيار بين بديلين: فاما القوة واما الروبل. وهو يثير في مقالة بهذا العنوان الى النقص الاساسي في النظام: «نحن نعتقد الى ما هو جوهري، اي الى ما لا غنى عنه لأي اقتصاد طبيعي لا ينمو تحت وطأة الخوافز وبضربات العصا بل من تلقاء ذاته: اننا نعتقد الى السوق»^(٤٢). ويرتبط غياب السوق بغياب الروبل القوي القادر على ان يصبح عمله قابلة للصرف، كما كان عليه في زمن الاقتصاد السياسي الجديد N.E.P يوجد اليوم استناداً الى حسابات الخبراء الفا سعر للروبل، وذلك بحسب السلع المطلوبة والشارين. اما شمليوف الذي يرى في هذا التعدد نوعاً من الجنون، يذكر بان السعر الحالي للروبل قد حدد بحرية، عام ١٩٥٠، من قبل ستالين شخصياً. فقد عرضت على ستالين حسابات بعض الخبراء التي تبين ان الدولار الواحد يساوي ١٤ روبلاً في ذلك العصر. فقام المرشد بشطب الرقم بالقلم الازرق وكتب ٤، مضيفاً «هذا اكثر مما يكفيهم»^(٤٣). دون روبل حقيقي لا يمكن ان يوجد سعر حقيقي. او ان توجد اجور فعلية. ولقد اشار سولوفيف امام اللجنة المركزية الملتأمة بكامل اعضائها، ان عمال احد المصانع في لينينغراد سألوه الى متى سوف يقبضون اجرهم ببطاقات الترامواي، او اسوأ من ذلك بالبطاظة المؤرخة سلفاً! الروبل الحقيقي، السوق الحقيقي (السوق دائماً على حق، يؤكد شمليوف) لا يمكن ان يأتي الا كنتيجة لاصلاح الاسعار.

في شباط ١٩٨٩، وبعد ان انجز جردة لسنوات الاصلاح الاربع، بدا آبل آغانبيغيان حاسماً: «... ففي السنوات الثلاث او الاربع القادمة لا بد من ان تغيب مسألة اصلاح اسعار المفرق من جدول الاعمال»^(٤٦). فانطلاقاً من التجربة الماضية يمكننا ان نتحسب، في احسن الاحوال، للخمس او الست سنوات القادمة. اي بعبارة أخرى تأجيل البدء باصلاح اقتصادي جدي الى منتصف التسعينات. وما يدفع للخوف من المس بالاسعار لا يرتبط باعتبارات اقتصادية فقط، بل باعتبارات اجتماعية ايضاً. وقد أجل هذا الاصلاح لمرات ومرات والارجح، ان تظل الحال على هذا المنوال، ذلك انه قد يستتبع حكماً ارتفاعاً للأسعار. والواقع ان مجرد الحديث في الموضوع يثير مخاوف المستهلكين ويؤدي الى استيائهم. ويجد الحذر الشديد من اي سياسة مالية تتجهجها السلطة ارضاً يستند اليها في الذكريات الاليمة التي تبعثها الاصلاحات المالية السابقة ١٩٤٧ و ١٩٦٢، حيث تمت عملية نهب الناس بطريقة مخزية. فكل تغيير

للاسعار ضد ارادة الناس يبدو مثقلاً بالتناجج الوخيمة، وكما يلحظ شمليفوف «فها هنا مثل هانغاريا الایجابي ومثل بولونيا السليبي». فولادة «التضامن» لا تنفك أبداً عن فشل الحكومة البولونية المتكرر في محاولتها تحديد «حقيقة الاسعار». كما ان شمليفوف يعيد ايضاً الى الازهان التجربة الصينية، حيث لم يباشر باصلاح اسعار المفرق الا بعد ثنائي او تسع سنوات، كانت الاوضاع خلالها قد تغيرت رأساً على عقب. وبعد أن أصبحت السوق الاستهلاكية مشبعة، ولكنه رغم ذلك، لم يتحقق لا بساعة او يوم بل جرى تقسيطه على خمس سنين^(٤٧).

وقد وجد الاصلاح المالي، الذي كان ضرورياً نفسه امام عائق جديد وهام، في تشرين الاول ١٩٨٨ اعلن رسمياً، في الاتحاد السوفياتي، عن وجود عجز في الموازنة يصل الى حدود ٥٨ مليار دولار. ويشير عالم الاقتصاد الاميركي جودي شيلتون الى أن الخبراء الروس الذين يزورون واشنطن يسرونه بان الرقم الحقيقي يصل الى ثلاثة اضعاف ما تورده المعلومات الرسمية. في كانون الثاني ١٩٨٩ صحت موسكو إحصاءاتها. ووفق الحسابات الجديدة سيبلغ العجز السوفياتي عام ١٩٩٠، ١٦٢ مليار دولار، اي ما يعادل ١١ بالمائة من الدخل القومي. فيما يقدر ان يصل العجز الى ١٤٠ مليار دولار اي ٤ بالمائة من الدخل القومي^(٤٨)، في الولايات المتحدة، عام ١٩٩٠.

تبدو سنة ١٩٨٧ بعيدة الآن، هذه السنة حيث كانت تاتيانا زاسلافسكايا تشدد على اهمية الزمن بالنسبة للاصلاح: «يجب ان لا تخرج طويلاً ولكن علينا بالمقابل ان لا نسرع الامور». وبخلاف نيكولاي شمليفوف ابرزت الاكاديمية زاسلافسكايا فشل التجربة الهنغارية: «فالتغييرات التي ادخلت (في هنغاريا) على الآلية الاقتصادية لم تستند الى اي نسق وكانت متباعدة جداً في الزمن، وهي لذلك لم تسمح، برأي الخبراء، بالحصول على تحسن ملموس في نظام الادارة الاقتصادية وقد انتفضت من فعالية العملية الاصلاحية بمجملها». وتصر تاتيانا زاسلافسكايا على ضرورة اجراء «تغيير شامل في نظام العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية خلال عام او اثنين او ثلاثة على ابعد حد»^(٤٩). في كانون الثاني ١٩٨٩، وبعد ان لاحظ ان سنة ١٩٨٩ لم تتميز «بريسترويكا» بنوية في مجال الاقتصاد، اطلق فاسيلي سيلينين هذا التحذير: لقد فوتنا علينا اللحظة المناسبة «والعد العكسي هو الآن بالاشهر وليس بالسنين»^(٥٠).

في شباط ١٩٨٩، قدر الاكاديمي ابالكين ان النتائج الايجابية الاولى «للبريسترويكا» لن تصبح ملموسة قبل ١٩٩٥. وهو يضيف: «اما الآن فلسنا هنا بعد»^(٥١). وخلال صيف ١٩٨٩، ثبت ليونيد ابالكين، الذي كان قد وجه له الزعيم في السنة الماضية انتقادات حادة، في منصبه كنائب اول للوزير متولياً مهمة. تنفيذ الاصلاح الاقتصادي. وها هنا مؤشر على التخلي عن الاستراتيجية السابقة، اذ كما ورد عن الاكاديمي في تموز ١٩٨٩ «خلال خمسين شهراً لم نفعل اي شيء».

في نيسان ١٩٨٩ لحظت اللجنة المركزية، في جلسة مكتملة، عقدتها تماماً بعد اربع سنوات على اقرار برنامج غورباتشوف، تحت شعار القفزة الكبرى الى الامام: انه خلال هذه السنوات الاربع لم يقفز الاقتصاد السوفياتي، في احسن الاحوال، الا مراوحاً مكانه على حافة الهاوية. اما «ايعان» الحزب، خاصة هؤلاء الذين هزموا في انتخابات نواب الشعب والذين شعروا انهم وقعوا ضحية «التطهير» الغورباتشوفي فقد اشتكوا من الانهيار المفاجيء والحادث الذي اصاب الوضع المادي للطبقة العاملة. ويعطي بولوزكوف السكرتير الاول للحزب في منطقة كراسنودار، (الجار القديم «لاقطاعة» غورباتشوف في ستافروبول) صورة مثيرة عن الوضعية السائدة في البلاد: أن لا توجد زبدة في المخازن، فإن الناس تفهم ذلك جيداً. ان تحتفي احذية او عربات للاولاد او دراجات، قد يفهم الناس ذلك ايضاً، ولكن ان يفتقد الصابون فهذا مالا يريد الناس سماعه اصلاً»^(٥٢). يجد سكرتير الحزب اذن من الطبيعي ان «يفهم الناس» غياب الزبدة في منطقة كرانودار هذه المنطقة الثرية حيث تجري من تحتها انهار من اللبن والعسل. وهو لا يتعجب ابداً من هذا العجز الذي تعاني منه دولة كبرى قامت بثورتها منذ ٧٢ سنة والذي يحول دون ان تنتج ما يكفي اطفالها من الاحذية والعربات بل انه يشتكي من نقص الصابون، معتبراً انه مورد للاستياء الشعبي!

وفي الجلسة المكتملة وجه امعاء الحزب اصابع الاتهام الى البريسترويكا التي قوضت سلطتهم، وبالنسبة لهم كان الهدف من الاصلاح الاقتصادي، الاعتداء على صلاحياتهم. وقد اعتبر ميلينكوف ان هزيمة رجال الحزب في الكوزباس هي هزيمة «جميع الممثلين العماليين لملايين الاشخاص في الطبقة العاملة»^(٥٣).

إن مقاومة جهاز الحزب للحؤول دون ادخال عناصر السوق في الاقتصاد الاشتراكي

ليست جديدة. ففي منتصف العشرينات تصاعدت المقاومة، المناهضة للستالينية، في مواجهة الاقتصاد السياسي الجديد، وذلك باسم مصالح الطبقة العاملة. قال N.E.P كانت قد افسدت الى حد بعيد وضعية البروليتاريا، «الطبقة ذات السيادة» وهو اللقب الذي اعطي لها رسمياً. فقد أدى، اعتماد التمويل الذاتي والروبل الثابت ومبدأ مردودية الانتاج الى انخفاض مستوى حياة الطبقة العاملة والى ظهور عدد كبير من العاطلين عن العمل. الى ذلك كان التملل العمالي يتغذى من رؤيتهم لتحسن وضع الفلاحين، الذين أعطوا الحق ببيع منتجاتهم في السوق ولولادة جماعة من «حديثي النعمة». «النبان» (رجال الـ N.E.P). واليوم تستعاد حرفياً الحجج التي يقدمها مناهضو اصلاح الاسعار، وهي القاعدة الاساسية لاحداث تغيير جذري في النموذج الاقتصادي، تلك التي كان تستخدمها المعارضة في العشرينات، والواقع ان الخوف من السوق التي لن تحدد فقط القيمة الحقيقية للمنتجات بل ايضاً لعمل المواطنين السوفييات والتي ستحل حرية الاختيار مكان وصاية الدولة لا يؤرق جهاز الحزب فقط. انها تعني كل الذين يبدون غير مقتنعين بحصول تحسن سريع في الاوضاع والذين يصرون على عدم الاستجابة للوعود، بحياة افضل قليلاً بعد خمسة او عشرة او حتى خمسة وعشرين عاماً. لم يصدق الشعب السوفيياتي ان «ارواد هي هنا» وان عليه ان يقفز. اذ كان يطلب منه العمل اكثر وافضل، اليوم، مع وعد بمكافأة بعد - بعد - غد.

لقد اقترحت الاستراتيجية الجديدة للاصلاح الاقتصادي، والتي اقرت في كانون الاول ١٩٨٩، عبور الهوة بفقرات صغيرة، وخلال فترة لا تتعدى الخطة الخمسة. «سوف يبعث ذلك على الاطمئنان، كما قال ليونيد أبالكين، اذا ما توصلنا خلال خمس سنوات الى تحرير انفسنا من عبء المشاكل المتراكمة في الماضي»^(٥٤). ويلحظ برنامج الانتقال نحو «السوق الاشتراكية» خلال خمس سنوات سلسلة من المراحل التي ستشهد تفكيك نسق التخطيط المركز، رغم انه لا بد من تدعيمه في فترة اولى للافتقار الى اي بديل له. ويرد المسؤول عن الاصلاح ما يشهده من بلاء، ومن بين اسباب اخرى، الى مقاومة الرأي العام الذي يعارض بشكل قاطع، الارتفاع في الاسعار، واتساع الهوة بين الشرائح الاجتماعية. وتبعاً لذلك فإن البرنامج الجديد يؤجل خفض دعم الدولة بالنسبة للمواد الضرورية، اي بتعبير آخر اصلاح الاسعار، الى الخطة الخمسية المقبلة.

وهكذا يؤجل ليونيد أبالكين قدوم «المستقبل المشرق» عدة عشرات من السنين.

وهو يعتبر ان الازمة السوفياتية مردها «غياب التربة الاجتماعية» أي بعبارة أخرى غياب ثقافة خاصة بالعمل بالحياة اليومية والعلاقات بين الناس تكون نتاجاً لزمن بأكمله خلال عشرات من السنين، أي غياب ومعرفة ثمينة يتناقلها الناس من جيل الى جيل ثم يلخص الاكاديمي، والنائب الاول للوزير رأيه قائلاً: «ولفقدان مثل هذه التربة العضوية التي تبعث الحياة يتراكم الوحل ويتصلب» (٥٥).

الفصل الثالث عشر حاجز الملكية الخاصة

«الملكية الخاصة هي، كما هو معلوم، أساس استغلال الانسان للانسان، وقد تمت ثورتنا، تحديداً، من أجل تصفيتهما وتحويل كل شيء الى ملكية للشعب».

ميخائيل غورباتشوف

ليس لتعجب السكرتير العام أي حدود. «إن الرفاق في أستونيا احتفظوا لنا بمفاجأة». كان ميخائيل غورباتشوف يثير هنا المقررات التي اتخذها السوفييات الأعلى لأستونيا في أواخر ١٩٨٨ هذه المقررات، يلحظ غورباتشوف في خلال اجتماع لمجلس رئاسة السوفييات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، «تدخل في تناقض مع دستور الاتحاد السوفياتي» وتبعاً لذلك «لا بد من اعتبارها خاطئة ودون أية قيمة قانونية»^(١). لقد حاول السوفييات الأعلى في أستونيا توسيع نطاق الحقوق العائدة لجمهوريته.

وقد وجه السكرتير العام، بصفته رئيس مجلس رئاسة السوفييات الأعلى نقداً شاملاً ضد القرار الاستوني إلا أنه أبدى «قلقاً خاصاً» من إقدام الاستونيين على الاعتراف، من بين أشكال أخرى من الملكية، بالملكية الخاصة.

يشرح القاموس السياسي: «هناك شكلان من الملكية: الملكية الاجتماعية والملكية الخاصة. ويرتبط بالملكية الخاصة انقسام المجتمع الى طبقات متنازعة، وهي تسود في النظام العبودي وفي ظل الاقطاع والرأسمالية. أما الثورة الاشتراكية فقد أقامت الملكية الاجتماعية لأهم وسائل الانتاج»^(٢) وينسب ميخائيل غورباتشوف لنفسه ما ينطق به

القاموس من حكمة: «الملكية الخاصة هي، كما هو معلوم، أساس استغلال الانسان للانسان، وقد تمت ثورتنا، تحديداً، من أجل تصنيفتها وتحويل كل شيء الى ملكية للشعب. فأية محاولة للترميم تعني الرجوع الى الوراء...» (٣).

إنها لحظة الحقيقة. فلقد كشف قائد «البريسترويكا» من خلال هذا التصريح ما يكمن في أعماق الاصلاح الاقتصادي الذي يسعى الى تطبيقه. وهو يعبر دون موارد: تكمن مهمة «بريسترويكا» العلاقات الاقتصادية تحديداً، في الكشف عن الطاقة التي تحتزنها الأشكال المختلفة للملكية الاشتراكية. هنا يقع كل ما يتصف به برنامج غورباتشوف من التباس: انجاز «إعادة البناء» دون المساس بالأسس. أي الاكتفاء بترميم الصرح القديم.

وتظهر صعوبة الخروج من عملية ترييع الدائرة هذه - أي إنجاز الاصلاح الاقتصادي دون المساس باطار «الملكية الاشتراكية» - بوضوح تام عندما نبلغ المنطقة - المفصل بين الملكية الاشتراكية والملكية الخاصة.

إنّ «البريسترويكا» الاقتصادية تستند الى ثلاث نقاط مهمة، الى ثلاثة قوانين أساسية: الأول حول مؤسسات الدولة، والقانون الذي ينظم التعاونيات في الاتحاد السوفياتي الذي أصدر في ٨ حزيران ١٩٨٨ وألحق بالقانون الناظم للعمل الفردي، والصادر في ١٩ تشرين الثاني ١٩٨٦. والأخير حول الاصلاح الزراعي الذي أوردت مبادئه مقررات اللجنة المركزية حول السياسة الزراعية للحزب الشيوعي السوفياتي في ظل الحالة الراهنة، وقد أقر في ١٦ آذار ١٩٨٩ (٤).

لقد أثّرنا بعض الصعوبات التي تصطدم بها «المؤسسة الحكومية» السوفياتية، عندما تحاول تطبيق قوانين، خضعت منذ دخولها حيّز التنفيذ لعملية تخفيف (تجميل) من خلال العديد من التوجيهات والتعميمات والتعليمات الصادرة عن الوزارات أو عن أجهزة التخطيط. ويتفق علماء الاقتصاد ومدراء المؤسسات وقادة جهاز الحزب على القول بأنه من الصعب أن نلمس نتائج التعديلات التي أجريت على نسق إدارة الصناعة. غير أنّ الصعوبات التي واجهت تطبيق التمويل الذاتي تبقى داخلية ولا تنفك عن نطاق «الملكية الاشتراكية». أما بالنسبة للقانونين الآخرين اللذين يتنظر منهما حقن الجسم الاشتراكي المحتضر بدم جديد فوصفهما يبقى مختلفاً.

للملكية الاشتراكية كما هو معلوم (والعبارة غالية على قلب الزعماء السوفيات) شكلان: ملكية الدولة (أو ملكية الشعب بأكمله) والتعاونية الكولخوزية. الأولى هي حصة الشعب بأكمله، إنها الصيغة الأهم للملكية الاشتراكية. أما الثانية فهي تتعلق كما يشير اسمها، بالكولخوزات والمنظمات التعاونية الأخرى. وتعتبر ملكية حصرية للدولة، الأرض، باطن الأرض، المياه، الغابات، الوسائل الرئيسية للإنتاج في الصناعة، والبناء والزراعة، وسائل النقل والاتصال، أموال المؤسسات الحكومية ذات الطابع التجاري العام أو غيره، عقارات السكن في المدن إضافة إلى «كل مال يكون ضرورياً للدولة لتنفيذ المهام المناطة بها».

أما الكولخوزات والتعاونيات فيحق لها أن تمتلك «ما يكون ضرورياً لها للاضطلاع بالمهام التي يفرضها عليها وضعها القانوني». ومن المؤكد أنه لا مجال للمقارنة بين الملكيتين. ولكن رغم ذلك وكما هو شائع منذ ١٩٨٧ «فإننا نشهد تقارباً مستمراً بين الأشكال الحكومية والأشكال التعاونية الكولخوزية من الملكية الاشتراكية»^(٥). وهذا يعني أن الدولة تبتلع ببطء ولكن بخطوات ثابتة كل ما لا تستحوذ عليه حتى الآن.

في ١٩٢١ حسن الظهور السريع للسوق، الحالة الغذائية في البلاد فرغم المجاعة المخيفة التي ضربت مساحات شاسعة، نلاحظ في المناطق التي لم تقع ضحيتها، وخاصة المدن الكبرى، وجود مواد غذائية ومنتجات مصنعة كانت قد اختفت نهائياً منذ بداية «القفزة الكبرى نحو الشيوعية». يأمل اقتصاديو غورباتشوف بحصول المعجزة. فلقد تم إقرار القانون الناظم للعمل الفردي في ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٦. وهي تسمح أو «تقبل» كما ورد في النص، بالنشاطات الفردية في مجال الإنتاج الحرفي والخدمات وبأشكال أخرى من النشاطات التي تقوم حصراً على عمل المواطنين وأفراد عائلتهم. إلا أن اللجنة المركزية كانت قد أقرت قبل ستة أشهر مشروعاً لعنوان: «إجراءات من أجل تدعيم مكافحة المداخل غير المرتبطة بالعمل». وبموازاة ذلك، أقدم مجلس الوزراء على إرغام جميع الأجهزة الحكومية، على اتخاذ إجراءات من هذا النوع، لاحظاً عقوبات أشد صرامة لأي مخالفة لأحكام القوانين والأنظمة الخاصة بالعمل الفردي. وقد دخل القرار حيّز التنفيذ، في أول تموز ١٩٨٦. وعندما بوشر بتنفيذ قانون العمل الفردي، في أول أيار ١٩٨٧ ارتسمت معالم الأجواء الجديدة: إن

التمييز بين «المداخل غير المرتبطة بالعمل» وتلك التي تأتي من «نشاط فردي» مشروع تماماً، يبدو شبه مستحيل.

أشار تاسيت Tacite الى أنه كلما زادت الدولة فساداً زادت قوانينها. ومرحلة «البريسترويكا» تأتي كشاهد على صحة ملاحظة المؤرخ الروماني، ففي أول تموز ١٩٨٨، دخل قانون جديد - حول التعاونيات - حيز التنفيذ في الاتحاد السوفياتي. وهي تنص على تحويل التعاونيات الى «نسق واسع التفرعات، يعاد ربطه عضوياً بالقطاع الحكومي في الاقتصاد، بالعمل الفردي للمواطنين».

متناسمين الاستراتيجية المستجدة والتي تعتمد «التقريب» بين هذين الشكلين من الملكية، أكد المشرعون على «أن قانون التعاونيات في الاتحاد السوفياتي يهدف الى احلال المساواة في الحقوق بين القطاع الحكومي والتعاونيات الكولخوزية في إطار الاقتصاد الاشتراكي (٦)».

ثلاث سنوات من النشاط الفردي، وسنة على وجود التعاونيات، لم تعطِ أي نتيجة من الممكن مقارنتها بمرحلة الـ N.E.P - فالمعجزة - في الوقت الحاضر؟ - لم تحصل. وعلى غرار جميع القوانين الأخرى، أعدت القرارات التي تنص على إضافة جهاز جديد الى جسم الاقتصاد الاشتراكي على عجل، وبشيء من قصر النظر الذي يُميّز الاتحاد السوفياتي. ومرة أخرى تبرهن الوقائع على أن الاشتراكية الناضجة تعيد بناء نفسها على طريقتها التقليدية، مقيمة في البداية أكواخاً خشبية مؤقتة أعدت لتبقى على الدوام. حتى أنه يظهر في هذه الحالة المحددة أن الشوائب التي لا تخلو منها القوانين الناضجة للحركة التعاونية، ربما كانت مقصودة. ذلك أن ما يجري هنا يبدو كمحاولة لتطعيم الجسد بجسم غريب.

كان المغامر التافه أوستاب بندر، يشتكي:

لا يُجنّبي أحد إلا قانون العقوبات الذي لا يُجنّبي هو أيضاً. ها هنا تحديد ولا أدق للموقف تجاه العمل الفردي (عن الخاص) والتعاونيات. «يكفي أن يُثار موضوع المبادرة الفردية، يتحسّر أحد المراقبين، حتى تبرز سريعاً ومن أعماق الوعي الاجتماعي صورة مقلقة كاريكاتورية: صورة الكولاك الجشع، أو حانوتي «أو خوتني رياد» (٧)، أو صاحب الخمارة ذو الوجه السكير المحمر، الخياط الذي يكتر من الانحاءات على

طريقة الخدم، وبكلمة صورة العدو الايديولوجي الذي يدخل في إطار هذه الكيفية التوعية: «خاص»^(٨)!

تأتي الصعوبة في «زرع» الحركة التعاونية، من الضمور الكامل الذي أصاب «المبادرة الفردية». فالتمثيل بالاقتصاد السياسي الجديد (إبان لينين) N.E.P، الذي لا يتوقف أنصار التعاونيات يتحدثون عنه، ليس إلا وهماً. ففي بداية العشرينات أعاد النظام الاشتراكي الجديد، ولم يمض عليه إلا فترة قصيرة، الاعتبار للمبادرة الفردية، أي أنها لم تكن قد خنقت بعد، وقد كانت تعود للظهور في سلوك الناس عند أية مناسبة سانحة. وهو وهم أيضاً، خاصة لأن الثورة العالمية ورغم ما مارسه من اضطهاد للفلاح الفرد لم تصل بعد إلى تصفيته نهائياً، وهذا ما كان يسمح له، ما أن يعطى إذناً بذلك، بإنشاء سوق. فالمشكلة تكمن إذن في أن «الخاص» و «السوق» لا يخفيان المستهلكين فحسب، بل أنها يثيران هذا الخوف نفسه لدى القادة والمشرعين.

إن للقوانين التعاونية، قبل أي شيء، هدفاً «حكومياً»: مراقبة وضبط «الاقتصاد الموازي»، «الأسواق الملوّنة»، كما كانت تسمى، في السبعينات، وجميع القنوات التي تستخدم لرواج البضائع والمال خارج دورة الاقتصاد الموجه. أما تحسين تموين السكان فلم يُلحظ حتى كهدف ثانوي من قبل المشرع. ففوق التعاونيات والنشاط الفردي يبقى قانون مكافحة المداخل غير المرتبطة بالعمل مسلطاً وكأنه سيف داموكليس: وحدها إرادة أجهزة الرقابة الحسنة يمكنها حماية المرء من تهمة «المضاربة».

في التقرير حول «مهام الحزب في البريسترويكا الأساسية لإدارة الاقتصاد»، الذي يحدد برنامج الإصلاح السياسي، أوكل غورباتشوف للتعاونيات مهمة الحلول مكان «اقتصاد الظل»^(٩).

في آذار ١٩٨٨ وقبل ثلاثة أشهر من وضع قانون التعاونيات موضع التنفيذ، صدر قرار يتعلق بتكليف أعضاء التعاونيات بالضريبة تصاعدياً، فوق الألف روبل تصل الضريبة إلى ٧٠ بالمائة، وفوق الألف وخمسمائة إلى ٩٠ بالمائة. وتكشف المقارنة مع فترة الـ N.E.P صرامة القرار.

ففي عام ١٩٢٦ بوشرت سياسة تسعى إلى طرد «الخاص» تدريجياً إلى خارج الاقتصاد الاشتراكي. وبغية تحقيق هذا الهدف تم اللجوء إلى الضريبة التصاعدية. وإذا

كانت حصة التجارة الخاصة قد بلغت ٢٥ بالمائة عام ١٩٢٦ فإنها رغم ذلك كانت الضريبة في ١٩٢٦ أدنى بخمس مرات، مما هي عليه في النظام الذي أقر في ١٩٨٨^(١٠).

ولقد أنجز هذا الأمر بوعي كامل. فبوريس غوستيف الذي كان وزير المال في تلك الآونة، وفي مقابلة لمجلة أغونيوك الأسبوعية، لا يخفي مشاعره: «لست ضد أعضاء التعاونيات» قالها مطمئناً، إلا أنه ما لبث أن أضاف: لا تنسوا أن الناس اندفعوا في هذا المجال، قبل أي شيء، من أجل المال». فما من شك بنظره أن المال التعاوني ليس مالاً حلالاً. ويتساءل أحد الصحفيين «لماذا الحديث دائماً عن أن هذا المال لا يكسب بطرق شريفة؟»

أما الوزير فيجيب بكل بساطة «إن عملاً شريفاً لا يجعلك ثرياً»^(١١) فالمشترعون يعملون، من خلال قناعتهم أن نظام الضرائب سيخلق التعاونيات المولودة حديثاً، ويساعد على تلطيف الضريبة التصاعدية، مانحين حقوقاً هائلة إلى السلطات المحلية، وهم يعرفون جيداً أن العداء تجاه التعاونيات يبقى شديداً جداً في المناطق.

في كانون الأول ١٩٨٨ صدر قرار عن مجلس الوزراء يحذ بصورة تعسفية من حقوق التعاونيات، التي نص عليها القانون. إذن لم تمض ستة أشهر حتى اتخذ الحزب (المكتب السياسي) والحكومة (مجلس الوزراء) إجراءات خاصة، وذلك بدافع الخوف من المبادرة الفردية. فقد اتخذ مجلس الوزراء قراراً أشار فيه «إلى أنه لا يحق للتعاونيات ممارسة النشاطات المبيّنة في الملحق رقم ١، والحال أن هذا الملحق يعود لنشاطات: النشر، والانتاج السينمائي أو الفيديو، ونسخ الأشرطة السينمائية وأشرطة الفيديو، إنشاء مدارس للتعليم العام، تنفيذ عمليات تتطلب ميوالة بالعملية الأجنبية. إضافة إلى أنه يُحظر «وضع معايير صحية للبيئة المحيطة بالنسبة للمواد الكيميائية». وبعبارة أخرى، القيام بنشاط بينوي محدد^(١٢). أما المكتب السياسي من جهته، فاعتمد إجراءات تهدف إلى مراقبة الأسعار في التعاونيات.

والأسعار التي تتداولها التعاونيات هي فعلياً أعلى بكثير من تعريف الدولة. وهذا بالطبع ما يفسر استياء المواطنين الذين إعتادوا وضعية، حيث مثلما تقول المزرحة: «عندنا لا يوجد شيء، ولكن كل شيء رخيص». وهذا ما يثير سخط المراجع الرسمية:

«فهل يجوز أن يكسب هذا الرفيق المغمور ستراديغاريوس، نجار الموبيليا القابع في منطقة منسية أكثر مما يكسبه وزير؟» هذا هو السؤال الذي طرحه مستنكراً عالم الاقتصاد ليسيثشكين^(١٣).

هذه الأسعار المرتفعة، كانت فعلياً قد نظمت بواسطة الخطط الملحوظة في قانون التعاونيات. وبقدر ما تُحرم هذه الأخيرة، رغم تمتعتها نظرياً بنفس حقوق مؤسسات الدولة، من الاستفادة من نظام التوريد بالجملة، فإنها تتوجه الى شبكة البيع بالفرق، وهي تشتري كل ما يمكن الحصول عليه من المخازن: من الرز والسكر وحتى المنسوجات وأدوات البناء. وهذا ما يفاقم الندرة غير المتساوية التي تسود «السوق» السوفياتية. ويمكن للتعاونيات أن تبيع إنتاجها، أو تعرض خدماتها بأي سعر تشاء. ومن المفترض مبدئياً أن تليي التعاونيات، في المقام الأول، أصحاب الأجور المتوسطة، غير أنها في الواقع تتوجه اليوم الى المستهلكين من ذوي الدخل المرتفع.

لقد كشفت التعاونيات فجأة عن وضعية كانت موجودة منذ مدة طويلة غير أنها كانت محتجبة وراء الشعارات: وضعية تتميز بهذه الفوارق المادية الهائلة التي تقسم المجتمع السوفياتي. وحتى ذلك الوقت كان الناس يتقبلون امتيازات النومنكلاتورا - الشرعية الحاكمة - دون حماس خاص ولكن بالمقابل دون نقمة أو سخط. كان الأمر يبدو عادياً. أما التعاونيات فكشفت في الاتحاد السوفياتي الاشتراكي الذي كان يبدو على قاب قوسين من الشيوعية عن وجود أثرياء من أصحاب الملايين. وربما تفسر عبارة ليونيد اباكين - الايديولوجيا تحولت الى سيكولوجيا - الاستياء الشديد الذي يعم أغلبية السكان، وذلك لأن قاعدة الاشتراكية - العدالة المطلقة - قد انتهكت. لقد خلقت «البريسترويكا» طبقة من المضاربين والمحتكرين وذلك من خلال التعاونيات. إنهم «علق» بمصون الدماء، هذا ما كتبه مواطن لينينغراد سيدوروف (٣٦ سنة) في إحدى الصحف. إنهم يفسدون روح الشباب وينزعون من الناس معارفهم في ميادين العمل. إننا أمام نوع من إشتراكية التجار القائمة على غرائز المالك الصغير^(١٤). أما ما يقوله بولوكوف، عامل في تولا، فيتجاوب معه كالصدي: «إذا ظلت الحال على هذا المنوال لن يبقى شيء من الاشتراكية. وهذا ما يسمونه البريسترويكا وإحلال الديمقراطية، إنني ضد ذلك بصورة قاطعة. نعم في ظل ستالين لم يكن يليق بالناس أن يقتنوا شيئاً خاصاً بهم، أما في ظل بريجنيف فكان الناس يفكرون على نحوٍ ويتكلمون خلافه

ويفعلون شيئاً آخر. ولكن على الأقل كانوا يعيشون سواسية دون هؤلاء الكريهين من أصحاب الملايين، وربما كانت هناك أخطاء مردها قلة الانضباط، غير أن ذلك لم يكن يعني أن الخط كان عاطلاً...»^(١٥) ونجد أن بعض الرسائل إلى أقسام التحرير في الصحف كانت أقرب إلى المواقف الجذرية: فأحد السكان في بلدة من منطقة موسكو كالينيتشيف، يروي كيف أنه «عبد» عندما قرأ تقرير المحكمة حيث قرأ قصة العم الثري الذي نهب ابن أخيه. وقد سأل كاتب الرسالة: باسم ماذا كان العم يقتني في شقته أثاثاً قديماً، ولوحات، وما تبقى؟... وهو لا يخفي فرحه من أن ابن الأخ ورفاقه سرقوا قبل السطو على العم سيارة بائعة في كُشك للحم. فمن وجهة نظره لا يخلو هذا النوع من السرقة من «عبرة تربوية»، ذلك أن لا أحد يستطيع متكللاً على أجره أن يشتري سيارة. ومنتقداً كاتبة التقرير تشايكوفسكايا التي تقول: «لا تأخذ ما لا تملك» يقترح كاتب الرسالة أن يصار إلى تخليص جميع الناهبين من غنائمهم: التجار وأعضاء التعاونيات إضافة إلى الأكاديميين والأساتذة والأدباء والشعراء المشهورين والفنانين والمخرجين، والمدراء والقادة. أي بكلمة جميع هؤلاء من ذوي الأجور المسمّنة. إلا أن كالينيتشيف يتقيد بمبدأ وحيد: يجب أن لا نسرق المحتاجين، فهذا غير شرعي^(١٦).

الفكرة عندما تُضبط من قبل الجماهير، تصبح، كما علمنا ماركس، قوة مادية، وقد كان على حق، وذلك كما يتبين من تصرف مسؤولي الحزب في منطقة فولغوغراد، الذين تدفعهم قناعة صريحة، دون أي لبس، إلى نهب الأغنياء. فهكذا شكلوا نوعاً من «البوغروم» ضد سكان منطقتهم من الذين أقاموا بيوتاً زجاجية يزرعون فيها البندورة ثم يبيعونها في السوق^(١٧). أو أيضاً لتأخذ مثل سكان مدينة صغيرة في جوار موسكو، فهم قد أضرموا النار في مزرعة خنازير، ناقلين على «البرجوازيين الجدد و«النبهان» والكولاك الذين أطلوا برؤوسهم من جديد»^(١٨)، ويروي أحد التعاونيين كيف أنه بعد سرقة تعاونيته «للمرة المئة في الليل»، طلب معونة الميليشيا. فما كان من المايجور، كما هم رجال مهنته، إلا أن صده مباشرة قائلاً: «إنه دكانك الخاص، أحبه بنفسك»^(١٩).

في نهاية عام ١٩٨٨ أقدم معهد علم الاجتماع في أكاديمية العلوم على استقصاء رأي الموسكويين: «ما هي أهم المشكلات الاجتماعية التي نعاني منها اليوم؟» كان هذا سؤال علماء الاجتماع. وقد أجابت الغالبية الساحقة من الأشخاص المستجوبين أن «أصل الشر» و«مصدر كل الشرور» و«الداء الذي يعانیه مجتمعنا» يكمن في المداخل

غير المرتبطة بالعمل: «فاذا حلت هذه المشكلة فسوف يؤثر ذلك على كل المشاكل الاخرى»، هذا رأي سكان العاصمة الذين كانوا على قناعة تامة بأنه «يكفي ليزدهر البلد، أن يُطرد جميع اللصوص»^(٢٠).

وقد كتب اندرييف، الذي سبقت الإشارة اليه: «اننا لا نرفض الدفاع عن التعاونيين لأنه قد توجد تعليقات بهذا الشأن» ثم يوضح: «انهم يدفعون ثمن وضعية فريدة من نوعها، حيث بات ممكناً الهجوم صراحة وعلناً على الملكية ودون أية عقوبة. فقانون الارث عندنا لا يتضمن ما يحض على احترام ما يسمّى بالملكية. ولقد احتقرنا هذه الملكية عصراً بأكمله ورمينا بها في مزبلة التاريخ. فهل نفاجأ اليوم إذا ما بدت مزعجة، وأثارت المشاعر الفوضوية الصاخبة؟»^(٢١).

إن تبني السياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P في ١٩٢١ أدى هو أيضاً الى تفجّر «المشاعر الفوضوية»، فبروز «النبنان» و «حديثي النعمة» الذين جرت قبل فترة قصيرة تصفيتهم بمباركة من العقيدة الشيوعية، أغرق الناس بالالتباس واليأس خاصة هؤلاء الذين اعتقدوا بضرورة بناء اللجنة من أجل الانقياء وأسكرتهم «الفكرة». يصوّر أندريه بلاتونوف في روايته تشيفانغور بأسلوب عبقري هذه القفزة الكبرى نحو السعادة، التي تتحول حكماً الى قفز نحو الموت. شهد النصف الأول من العشرينات، عدا الحلقة الخاصة من أتباع الدين الجديد، جماعات ما تزال تدرك ما هي الملكية. فلا بد من أن تمضي عشرات السنين على بناء الاشتراكية لتحل عقلية «المستوى الواحد» أي ليحل نمط عام من التفكير يقوم على مبدأ:

إن كنت لا أملك شيئاً فلا بد أن لا يملك جاري شيئاً هو أيضاً.

معايين من أشدهم إنتباهاً ونباهةً، يلحظ أناتولي ستريلياني: «هل هناك شيء أقوى من العقل؟ الاهواء». ولهذا الاهواء هنا اسم وهو: الحسد. أما أثر هذا الشعور بالحسد على شعبنا فيذكرنا أكثر فأكثر بأواخر العشرينات... فلقد تفنّن ستالين وصحبه بإثارة الشعب ضد التجارة، ولكن كان من الممكن أن يوفروا على أنفسهم هذا العناء، إذ الشعب لا يحتاج الى من يدلّه على عدوه فهو يعرفه عن ظهر قلب: التاجر، البائع، التعاوني. وقد كان على استعداد للانقضاض على الـ N.E.P. وخنقها دون رحمة^(٢٢).

وتسمح البلدان الاشتراكية بدراسة التحولات التي طرأت على الموقف من الملكية الخاصة، ذلك أن التطور في هذه البلدان لم يكن هو نفسه، وهو لم يحصل فيها بشكل متزامن. وهو يرتبط الى حد بعيد باللحظة التي شهدت القبول «بالدين» الجديد. ومن الممكن أيضاً أن نلاحظ هذه الاختلافات داخل الاتحاد السوفياتي نفسه. فجمهوريات البلطيك، التي ألحقت بالقوة بالاتحاد السوفياتي، ما تزال. مثلها، تحتفظ في قانون الموارث بأحكام ومفاهيم إضمحلت في المناطق التي شرعت ببناء العالم منذ ١٩١٧.

وتعاني الآن الايديولوجيا التي بشرت بأفضلية «التنظيم» الاشتراكي على فوضى السوق الرأسمالية، بعض الشيء من الارتداد نحو التعاونيات. أما الاستشهادات المتترعة من بعض مقالات لينين والتي تستعاد دوماً للدفاع عن فكرة التعاونيات فتبدو ملتبسة ككل كتابات الزعيم الثوري وتسمح بتأويلات شديدة التباين. ولحسن حظها استطاعت الايديولوجيا الماركسية أن تستعين ببعض المفكرين الروس من محافظي القرن التاسع عشر الذين كانوا يلعنون الرأسمالية، ويأملون بأن تتمكن روسيا من تلافيها. والذين يدافعون اليوم عن فكرة فريدة روسيا أو طابعها الاستثنائي، يشددون على المعنى الاخلاقي الذي تحمله التعاونيات. وفي هذا المجال يلحظ المؤرخ فلاديمير ديمتريانكو بأسى: أن «الفائدة الوحيدة من التعاونيات، في أيامنا هذه، هي في أنها تسمح بجني الأرباح». وهو يعتبر أن هذا أمر ثانوي، أما الجوهرى فيكمن في مكان آخر أي تحديداً «في هذا التناغم بين المصالح الشخصية ومصالحة الشعب بأكمله»^(٢٣). التناغم - هذه الكلمة - المحببة الى أنصار السلافية في القرن التاسع عشر - غالباً ما ترد على لسان غورباتشوف.

وهي تبدو متضادة مع «الاقتصادية» والسوق، وما تقوم عليه من تسابق على المال يجعلها غير أخلاقية. «المركنتي يدفعون البلاد الى الهاوية»، هذا ما قاله ميخائيل انطونوف المؤلف المهذار صاحب المقالات التي تشتهر «بالاقتصادية» وبأنصارها: ابالكين وشمليوف وآخرون. ثم يضيف انطونوف أن «للمركنتي من المثقفين» وفي مقدمتهم جميع المختصين بالاقتصاد «الفعالية المشؤومة نفسها، وهي أشد تأثيراً، كونهم يملكون سلاح المعرفة». فما يحفز على العمل، لا نجده برأي أنطونوف في المال كطعم جاذب، أو في «فلسفة الملعف البدائية» المفسدة، بل في الحب^(٢٤).

وإضافة الى ذلك ترتبط المصاعب التي تواجهها الحركة التعاونية في هذا الوسط الغريب عنها بالموقف الملتبس الذي تتخذه منها المراجع العليا - الأمين العام - فهذا الأخير لم يتوقف عن الكلام على ضرورة تنمية التعاون ولا يتأخر عن الإشارة الى دورها في تصفية ما يمكن تسميته «بافتصاد الظل»^(٢٥). وهو يردد أنه لا بد من تشجيع مبادرات العمال معتبراً أن ذلك ما يجب أن يكون هدفاً للقرارات التي تتناول العمل الفردي والتعاونيات، غير أنه مع ذلك لا يفوته التحذير من «هؤلاء الذين يرون في التعاونيات والعمل الفردي ما يشبه العودة الى ممارسة الاقتصاد الخاص»^(٢٦) وبمناسبة الذكرى الرابعة للبريسترويكا، اضطر غورياتشوف للاستماع الى اتهامات من العيار الثقيل موجهة ضد الحركة التعاونية: «زيادة المداخل غير المرتبطة بالعمل، والتي باتت تتفلسف من أية رقابة، مضاربة أصبحت شرعية بحكم الوقت . . .» «والأجور في التعاونيات تسلق صعوداً باندفاع أشد مما هي عليه في القطاع العام الحكومي. ولهذا السبب بالذات نرى أن اليد العاملة الماهرة تغادر المؤسسات الصناعية وورش العمل والفروع الأخرى من الاقتصاد الموجه لتتدفق على التعاونيات»^(٢٧).

وعندها اعترف الأمين العام بالأخطاء «التي ارتكبتها» وتعهد: «كان علينا أن ننتبه الى كل توسيع لنطاق الديمقراطية، كل أنسنة للحياة لا بد من أن يترافق مع حرب دون هوادة ضد العناصر المجرمة . . . علينا جدياً أن نصوّب الرماية».

وقد تبين من تجربة العشرينات أن التعاونيات كانت «هدفاً عجيبيّاً للكراهية»، وأنها مشروع دائم لكبش محرقة مثالي، تضحي به السلطة عند الحاجة. وإمكانية تحويل التعاونيات الى قرايين غفران تذبح بين أرجل المستهلكين الساخطين، تبقى واردة من خلال ما يعتمد عليه الحزب والحكومة من أحكام ترعى نشاطها.

تثير التعاونيات حقد المستهلكين عندما تسبب بارتفاع الأسعار، وهي تثيره أكثر عندما تسبب بانخفاضها، وذلك لأنها تصبح والحالة هذه منافسة للدولة. ويستتجح الخبير الاقتصادي غفرائيل بويوف من ذلك، أنه «إذا كانت أسعار التعاونيين أدنى من أسعار الدولة . . . فحينها يتعرض النظام برمته للخطر». إذ الأسعار التعاونية المنخفضة تُبين أن الجهاز الذي يضبط اقتصاد الدولة، عديم الجدوى. ويعتبر بويوف أن الجهاز يقود حرباً دون هوادة ضد أية محاولة من قبل التعاونيين لتثبيت الأسعار المتدنية، وهو

يشجع على «إخفاء» السلع الرخيصة، ويرى في ذلك إحدى المشاكل الأساسية التي تطرحها البريسترويكا»^(٢٩).

إن النتائج الأولى التي توصلت إليها جهود الحزب والدولة لانهاء التعاونيات بقيت مبهورة بالالتباس نفسه. فمن جهة نلاحظ نمواً سريعاً لعدد التعاونيات، الذي زاد بين تموز ١٩٨٧ وتموز ١٩٨٨ عشرة أضعاف: من ٣,٧٠٩ الى ٣٢,٥٦١^(٣٠). وفي ١ تشرين الأول ١٩٨٩، كان عدد إزداد أكثر من ثلاثة أضعاف في سنة واحدة، أما عدد مستخدميها فقد ضرب بخمسة.

أما حصة المداخل (أعمال، خدمات)، من الناتج الوطني غير الصافي فلم تكن في ١٩٨٨، تتخطى واحد بالمائة. أما في ١٩٨٩ فقد بلغت استناداً الى المعطيات الرسمية ٥ الى ٦ بالمائة^(٣١). ومن جهة أخرى، فإنه نمو موهوم، إذ أربعون بالمائة من التعاونيين المسجلين في نهاية ١٩٨٨ لم يكن لهم وجود إلا على الورق. والواقع أن التعاونيات المسجلة كانت بغالبيتها التعاونيات الصغيرة التي تجاوزها الزمن من الناحية التقنية، والتي لا تمتلك أي وسائل مالية أو أية اعتمادات، وهي تعاني من اضطهاد السلطات المحلية والمؤسسات التي ترتبط بها. أما تلك التي تعمل في ميدان التجارة وإعادة البناء فلا تتجاوز ١٩ بالمائة، معظمها في خدمة الدولة^(٣٢). مشيراً الى أحد محاوره، يلخص أناتولي ستريلياني المناقشات حول التعاونيات بالآتي: «أن نقرر، حتى وإن ديموقراطياً وبمشاركة النواب والنقابات ماهية التعاونيات التي نحن بحاجة إليها، هو أشبه بأن نقرر عن زوجين شابين - وبصورة ديموقراطية جداً مع زملاء العمل - حول عدد الأطفال الذين سينجبانهم لنا: جنسهم، مزاجهم، لون عيونهم وشعرهم، ومتى...»^(٣٣).

هناك مأخذ يوجه باستمرار الى التعاونيات لقد أدى ظهورها «الى أشكال جديدة من الجرائم الدنيئة، وهي أشكال لم تكن موجودة عندنا في الفترة السابقة. إنها المافيا والابتزاز والحرائق الاجرامية المفتعلة، والمال «المبيض» <blanchi>^(٣٤).

ومن الواضح بالفعل - ويأتي العديد من المجالات والمقابلات مع الخبراء لتأكيد ذلك - إن التعاونيات قد أعطت للجريمة المنظمة إمكانيات جديدة. غير أن الجرائم كانت موجودة أصلاً قبل انطلاقة الحركة التعاونية. ولكنها لم تتخذ شكل المافيا المنظمة

إلا منذ ثلاثين عاماً. ولقد أدخلت الغلاسنوست الى المعجم السوفياتي مفاهيم لم تكن ترد في السابق إلا في الافلام التي تظهر فساد الرأسمالية وتحللها: مافيا، ابتزاز، عصابات لصوص. وقد لحظ أحد الصحفيين الذين ينكبون على هذا الموضوع الذي أصبح ذا شعبية واسعة: «عندما كنا أطفالاً، عرفنا أن العصابات لا يمكنها أن تتواجد إلا وسط غابة الباطون في شيكاغو. وها اننا علينا القبول - بصعوبة - ان مجتمعنا لا يمتلك مناعة طبيعية ضد المافيا أو أن الأمر قد يكون على العكس من ذلك» هذه الـ «على العكس» تعني أن «مجتمعنا» أي النظام السوفياتي حيث الحزب والإقتصاد لا يتفكان عن بعضهما، وهو يضبطه ويقوده، قابل للفساد بسهولة فائقة وهو يتحول الى مافيا.

إن الجهاز القائد بات على علاقة بالجريمة المنظمة. في أواخر ١٩٨٨ كان يوجد، وفق الاحصاءات الرسمية، «ما يقارب الثلاثين جهازاً لمراقبة التجارة»، وكذلك يوجد عدد أكبر لمراقبة وضبط التعاونيات ومكافحة «المضاربة» و «الجرائم» المتعددة الناتجة عن القحط وعن القوانين السوفياتية. وفي بداية ١٩٨٩ أضافت النقابات حلقة جديدة على «النسق الموحد للتدقيق»: الرقابة العمالية. ويُلحق المراقبون العمال (ما يقارب الأربعة ملايين)^(٣٥) بمجالس النقابات أو المجالس المستقلة في الادارات الرسمية. وهم يتعاونون مع وزارة الداخلية ويتولون السهر على العدالة الاجتماعية، وفي العشرينات كان هذا النوع من الرقابة مؤمناً من قبل «وحدات الخيالة الخفيفة» المؤلفة من أعضاء الشبيبة الشيوعية والتي تعمل بناء لأوامر الحزب.

إن ضرورة تدعيم الرقابة والضبط واضحة جداً. هذا الاكتشاف يعود للينين: «مراقبة الناس وضبطهم والتحقق من التنفيذ - في الواقع - تلکم هي، أيضاً وأيضاً، محور عملنا ومرتکز کل سياستنا». مشيرة الى هذه العبارة، أكدت البرافدا على الضرورة المطلقة للتوفيق بين «الغلاسنوست وفعالية الرقابة - الضبط» أيضاً على «العودة الى مبادئ لينين للمراقبة من قبل الشعب بأكمله»^(٣٦).

الشعب بأكمله يراقب الشعب بأكمله. تلك هي الوصفة الجديدة الشائعة لزيادة مردودية النسق السوفياتي، وصفة اكتشفت بعد خمس سنوات من ممارسة «البريسترويكا».

الفصل الرابع عشر الجدار الزراعي

«لقد دمرنا الفلاحين»

ميخائيل غورباتشوف

تدمير الفلاحين يثير هنا آلية لتمدين البلاد لا تتوافق مع تقدم حضاري، يعترف ميخائيل غورباتشوف بالـ «نحن» وهذه «النحن» تعني الحزب، الحزب الذي قضى على الفلاحين بوصفهم صنف (أهل حرفة) له علاقة خاصة بالأرض، وفهم خاص للطبيعة.

جاء هذا التصريح، وليس بدون مصاعب، بعد سنتين على بدء الاصلاحات. أن تدمير الفلاحين يعني تحويلهم الى كولخوزيين أي الى عمال زراعيين لا علاقة لهم بالفلاحين الغابرين.

غير أن ميخائيل غورباتشوف لم يكف عن اعتبار التأميم كإجراء بالغ الأهمية وذات منافع عظيمة، ثم ان السكرتير العام، بعد أن أقام جردة حساب لسبعين عاماً من عمر السلطة السوفياتية، صرح بأن «نهج الصراع ضد الكولاك صحيح بذاته». غير أن الخطأ الوحيد الذي ارتكب كان في «تأويله من خلال تحميله معنى واسع جداً الى حد جعله يتضمن أيضاً قسماً مهماً من الفلاحين المتوسطين». إلا أنه، رغم ذلك، وبعد تقسيمه «أجلاً دور التأميم في تدعيم الاشتراكية في الريف» رأى غورباتشوف في هذا التأميم «انعطافاً أساسياً». فلقد غيّر التأميم جذرياً نمط حياة الجماهير انطلاقاً من المعايير الاشتراكية. كما أنه أرسى القاعدة الاجتماعية الضرورية لتحديث القطاع الزراعي، الذي وضع من الآن فصاعداً على سكة الاستثمار الحضاري، إضافة الى كونه سمح برفع الانتاجية وتحرير جزء هام من اليد العاملة التي تبدو ضرورية في المداير الأخرى لعملية البناء الاشتراكي^(١)، إلا أن غورباتشوف وبعد سنة على هذا الكلام،

وإقرار الاجراءات الجديدة التي تهدف الى تحسين وضع الزراعة السوفياتية، سيلجأ في الحديث عن التأميم الى لهجة تكاد أن تكون رثائية: «مر زمن حيث كان من الضروري تاريخياً أن «نضغط»، كما يقال، على القرية، أن نستخدم جميع مواردها لخلق طاقة صناعية»^(٢).

ان الثناء على التأميم والرفض الحاسم لادانة، ليس ما ارتكب باسمه من تجاوزات، بل حتى السياسة التي يتتهجها الحزب للقضاء على الفلاحين، كانت تتنازع في وعي الأمين العام، مع ما يجب اتخاذه من اجراءات. في أواخر ١٩٨٧ كان لم يزل بإمكانه أن يصرح بلهجة الرضى: «لقد نجحنا بحصاد أكثر من ٢١٠ مليون طن من الحبوب، تلك هي ثمرة الجهود الهائلة التي بذلها شعبنا وما قام به حزبنا لشميرها بطرق جديدة!»^(٣) ولكل واحد أن يضيف من جانبه: ثمرة القيادة الدينامية الجديدة! ولكن بعد مضي سنة واحدة سوف تنحسر موجة الرضى هذه وتزول: فمحصول ١٩٨٨ قد تدنّى الى ١٩٥ مليون طن.

ونكتشف الدلالة الحقيقية لمفهوم «تدمير الفلاحين» من خلال رأي هذا الأميركي الذي يبيع الحنطة للاتحاد السوفياتي. وهو على اطلاع عجيب على كل ما يتعلق بنظام الكولخوز والسوفخوز. فرداً على السؤال الذي طرحه عليه رئيس أحد الكولخوزات: «هل سنستمر طويلاً بشراء الحبوب من الولايات المتحدة؟» أجاب: «نعم، دائماً!» ثم انه استدرك، حرصاً منه على عدم جرح شعور مكلمه، وشرح له «أنه من مصلحة الروس أن يشتروا ما ينتجون بشكل سيء، ليتخصصوا بما ينجحون في صنعه»^(٤).

إن البلد الذي يتصرف بأكبر مساحة صالحة للزراعة في العالم مضطر الى الأبد لشراء حنطته من الخارج.

وفي آذار ١٩٨٩، أي أربع سنوات على توليه السلطة لحظ غورباتشوف: «هذا هو الواقع: إن إنتاجنا الزراعي غير كافٍ»^(٥).

في الستينات حيث كانت «الاذاعة الارمنية» المعلق الأفضل على ما يدور في البلاد، راج هذا الحوار في الأوساط الشعبية الى أقصى حدود: «هل يوجد مخرج لوضع بلا مخرج؟ - لن نجيب على الأسئلة المتعلقة بالزراعة».

والمشكلة لا تبدو بذاتها معقدة بصورة خاصة . إنها كما يتبين من التاريخ غير قابلة للحل . وبالفعل كيف يمكن التوفيق بين المصالح الجماعية والمصالح الفردية ، كيف يكون الكولخوزي المستعبد قادراً على تغذية الدولة دون أن يموت هو نفسه من الجوع؟ إن تحويل الفلاحين الى أعضاء في الكولخوز حلّ الشق الأول من المشكلة : فالدولة تحصل الآن عيناً على منتجات زراعية هي فعلياً ما تحول إليها من كل ما يمكن أن تنتزعه من أعضاء الكولخوز . وتبقى الاجابة عن الشق الثاني من السؤال : ما هي الكمية التي لا بد من تركها لهم ليبقوا على قيد الحياة؟ .

عام ١٩٣٥ أشار ستالين ، وهو يبشر بالنصر - ٩٠ بالمائة من الفلاحين يعملون في الكولخوزات - الى أنه لا بد من الأخذ في الحسبان «عدا المصالح المشتركة بين أعضاء الكولخوز، المصلحة الفردية . . .»

وكان الرفيق ستالين يشعر بالاستياء إذ البعض يرى أنه لا يجب اعطاؤهم بقرة والبعض الآخر أنه من غير المناسب أن يقتنوا خنزيرة . والواقع أنكم اجمالاً تريدون سحق الكولخوزي . لكن ذلك لن يمر، أنه غير عادل» .

وهكذا دون توجيه صريح صادر عنه . كان يكشف عن مبدأ جوهري في النظام السوفياتي : إن إرادة الزعيم هي التي تحدد السياسة بها فيها السياسة الزراعية . فمنذ سنه الأولى في السلطة لطّف نيكيتا خروتشوف كثيراً حياة الكولخوزيين . إلا أنه عندما تبين له أن ذلك لم يدفعهم أبداً الى زيادة الانتاج ، وهو ما كان يأمله ، إستنتج أن قصع الأرض الفردية هي التي تعيق عمل الكولخوزات . وهكذا أقدم خروتشوف على منع اقتناء البقر والخنازير التي سمح ستالين بها . أما بريجنيف فترجّح بين المنع والترخيص .

ان لكل زعيم وصفته للاجابة على تربيع الدائرة الزراعية . وتسمح التصاريح العديدة التي أدلى بها ميخائيل غورباتشوف بتكوين فكرة عن وجهة نظره بهذا الموضوع . إن رأيه يشير الاهتمام . وذلك ، من ناحية ، لأنه يتولى الآن ، بعد أن أصبح زعيماً ، تحديد السياسة الزراعية ، ومن ناحية أخرى كونه خبيراً في هذا المجال : ألم يتولّى إدارة منطقة زراعية - منطقة ستافروبول - طوال ما يقارب التسع سنوات ، ثم ألم يكن مسؤولاً خلال أكثر من ست سنوات بوصفه أميناً للجنة المركزية عن الزراعة في كل البلاد؟ وأكثر من ذلك ، فهو عندما كتب سيرة حياته متوجّهاً الى قراء الازفستيا لم تفته

الإشارة إلى: «عندما وجدت نفسي مضطراً إلى التعاطي بكثافة بالشؤون الزراعية، تابعت بالمراسلة الدروس التي تعطيها كلية الاقتصاد في المعهد الزراعي، وهذا ما شكل استكمالاً جيداً لدراستي القانونية»^(٦) فما من أحد بين أسلافه كان له مثل هذه المؤهلات لمواجهة وحل المسألة الزراعية في الاتحاد السوفياتي.

ولا تدع النصوص والخطب العائدة لميخائيل غورباتشوف، قبل انتخابه لمنصب الأمين العام أي شك: هذا الخير الكبير في شؤون الزراعة السوفياتية راضٍ تماماً عن الوضع. وقد أعلن في نيسان ١٩٧٨ أن عمال الأرياف راضين: «السياسة الزراعية التي صاغها الحزب خاصة انطلاقاً من اجتماع اللجنة المركزية المكتملة في آذار (١٩٦٥) أثبتت فعاليتها»^(٧). ومرت السنون، وقد دفع الركود، حتى بعد أن أصبح اليوم عرضة للتهزيء، الوضع إلى قاع الهزال؛ غير أن الأمين العام اعتبر رغم ذلك، عام ١٩٨٢، أن الكولخوزات والسوفخوزات تؤمن الشروط الضرورية لاستخدام فعال للأرض ولوسائل الانتاج الأخرى، ويخلق الشروط الملائمة للعمل، وللحياة، وللنمو الروحي لدى عمال الريف^(٨). ثم يشدد: «لقد أثبتت الحياة فعالية السياسة الزراعية التي أنتهجها الحزب»^(٩).

يملك ميخائيل غورباتشوف حجة رائعة للتدليل على ما حققه القطاع الزراعي من انجازات في إطار اقتصاد البلاد: الاحصاءات. ويكفيه أن يقيم بعض المقارنات: «ان معدل نمو الانتاج الزراعي هو أعلى في بلادنا من البلدان الرأسمالية المتطورة، (بالنسبة للسنوات ١٩٦١ - ١٩٦٥ يمكننا اعطاء الأرقام التالية العائدة للسنوات ١٩٧٦ - ١٩٨٠: ١٥٠ بالمائة للاتحاد السوفياتي، ١٣١ بالمائة للولايات المتحدة، ١٢٥ بالمائة لألمانيا الاتحادية، ١٢٧ لانكلترا»^(١٠).

ولا بد هنا من التذكير مرة أخرى، بأن هذا الارتفاع الذي لا مثيل له قد حصل في فترة الركود. والأرقام المشار إليها قدمها غورباتشوف في إطار حلقة دراسية للعمال الايديولوجيين انعقدت في موسكو في نيسان ١٩٨٢. وهو سيعطي، في مقالة نشرتها مجلة (مشكلات السلم والاشتراكية) خصيصاً للرفاق الأجانب، احصاءات أفصح وأبلغ: «خلال السنين الخمس عشرة الأخيرة زادت المحاصيل السنوية الوسطية من الحنطة ٥٧ بالمائة في الاتحاد السوفياتي وتخطى معدل نمو الانتاج الزراعي مرة إلى مرة

ونصف مثيله في بلدان السوق المشتركة والولايات المتحدة» (١١). ففلا عجب إذن من أن يعتبر غورباتشيوف البرنامج الغذائي في الاتحاد السوفياتي كإسهام هام «في حل المشاكل الغذائية في العالم» (١٢).

هكذا استمر غورباتشيوف في نظرتة الوردية الى الزراعة بعد انتخابه الى موقع الأمانة العامة. وقد أوضح في أيلول ١٩٨٥ «أن تفاؤلنا يقوم على ما يحتويه نسق الاقتصاد الاشتراكي من إمكانيات هائلة. هذا النسق يسمح لنا بطريقة موجهة، بحل المشاكل الاقتصادية المطروحة وأن نلعب بمواردنا، أي أن نركزها ونوجهها في خدمة المهام التي تقتضيها اللحظة الراهنة. هكذا نصرف في هذه السنوات الأخيرة عندما نقوم بتطبيق سياستنا الزراعية، وعلينا مستقبلاً أن نستمر في ممارستنا لهذا الخط عملياً» (١٣). هل يبدو هذا التفاؤل الغورباتشيوفي، الذي لا يتزعزع، طبيعياً: ألا يتكلم فعلياً عن نفسه وعن قيادته؟ أنه هو الذي «يلعب»، «يركز»، «يحل». غير أن هذا لا يبدو كافياً. ذلك أن ها هنا يوجد لازمة في تصريحاته حول الزراعة: أنه متيقن تماماً من إمكانيات النسق الاشتراكي، ومن إمكانيات الكوخوز والسوفخوز. وهو لم ين يردد: إن جميع المسائل، جميع المشاكل التي تطرح، من الممكن أن تحل من خلال زيادة الاستشارات الزراعية وتحسين سبل التخطيط على «قاعدة علمية صارمة» ومن خلال تطوير الاستصلاح والسبل الكيميائية. وقد قام غورباتشيوف في مذكرة وجهها الى اللجنة المركزية في أيار ١٩٧٨ - وهي. ربما كانت وراء ترسيخ قناعة بريجنيف بوجود تعيين سكرتير ستافروبول سكرتيراً للجنة المركزية في موسكو - بصياغة برنامج «لبعض الاجراءات لوضع أسس ملائمة لتنفيذ سياسة الحزب الشيوعي الزراعية في الطرف الراهن». وتهدف جميع هذه الاجراءات الى تحسين سياسة الحزب من خلال «تحسين التخطيط الزراعي»، وذلك من خلال استخدام أكثر عقلانية للأرض والماء والتقنيات والأسمدة المعدنية والموارد من اليد العاملة وغيرها... في إطار الكوخوزات والسوفخوزات نفسها» (١٤).

في ١٩٨٠ تكلم غورباتشيوف من على كرسية كمسؤول عن الزراعة في جميع أنحاء البلاد مظهراً رضاه «لما عرفه استخدام الوسائل الكيميائية في الزراعة، من اتساع» إضافة الى التطور الهائل والبالغ الأهمية الذي تميّزت به القوى المنتجة في الزراعة، وإلى «برنامج إستصلاح الأراضي» (١٥). في ١٩٨٥ لم يكن غورباتشيوف قد بدل رأيه: «إننا قطعنا

مسافة لا بأس بها من الطريق عندما طبقنا البرنامج الاستصلاحي العظيم في الميدان الزراعي . وسوف تستمر هذه الأعمال في الاتساع على قاعدة الخطط التي تم تصميمها وإقرارها^(١٦) عام ١٩٨٢ اعتبرت السياسة الزراعية للحزب - بما في ذلك التعديلات التي اقترحها غورباتشيوف وأتى بها - كمرحلة جديدة من تطبيق خطة لينين التعاونية^(١٧) وقد تحول البرنامج الغذائي للاتحاد السوفياتي الذي أعد تحت إشراف غورباتشيوف وأقر في ١٩٨٢ في أحد تصريحاته (نيسان ١٩٨٣) الى «التجسيد الحي لأفكار لينين حول صلابة المخزون الغذائي في البلاد وتقدم الريف على جميع الأصعدة»^(١٨). في شباط - آذار ١٩٨٦، انعقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب، وكان الأول حيث قدم الأمين العام الجديد برنامجه. إن السياسة الزراعية للحزب، التي تمت صياغتها في أيار ١٩٨٢، وعكسها بأمانة البرنامج الزراعي، لا تحتاج لأي تعديل. يكتفي غورباتشيوف، إذن، باقتراح بعض الاجراءات الجديدة التي تهدف الى «حل المسألة الغذائية» ضمن مهل قياسية. وقد قرر المؤتمر بداية انشاء سوبر - وزارة تكون مسؤولة عن الزراعة وتجمع حوالي عشر وزارات، إنها اللجنة الزراعية - الصناعية الشهيرة التي يديرها زميل غورباتشيوف القديم في ستافروبول موراخوفسكي، الذي كان حينها نائب رئيس الوزراء، ومن مهام اللجنة الأولى أن تهتم باستخدام «التقنيات المكثفة»، والتقليل من خسائر الانتاج أثناء عمليات الحصاد، والنقل والتخزين والتحويل» ويقدر أن هذه الخسائر تصل الى ٢٠ أو حتى ٣٠ بالمائة بالنسبة لبعض أنواع الحنطة. ويكمن الجديد، ولنستخدم هنا الصيغة الواردة في تقرير غورباتشيوف، في «تطبيق المفهوم اللينيني للضريبة العينية ضمن الأوضاع الراهنة».

والواقع أن لينين أسس عام ١٩٢١ الـ N.E.P انطلاقة من رفض مصادرة إنتاج الفلاحين مفضلاً فرض ضريبة معينة، وكل ما يتبقى بعد أداء الضريبة كان من الممكن بيعه في السوق الحرة. وتفترض الضريبة العينية الجديدة، كما يعرضها الأمين العام، إعداد خطة صارمة وثابتة لكل عام من الخطة الخمسية لشراء الانتاج. وكانت خطط الشراء توضع قبل هذا القرار الذي اتخذ المؤتمر السابع والعشرون على أساس المواسم التي يتم الحصول عليها: فكلما كانت مهمة في كوخوز معين كانت خطة الشراء مهمة هي أيضاً.

الآن فصاعداً كل شيء بدأ يتغير. أي أن كل ما يفوق ما هو ملحوظ في الخطة

يمكن استخدامه كما يخلو للكولخوز: أي أنه يمكن لهذا الأخير أن يقرر أن يبيع هذا الفائض للدولة أو في السوق أو توزيعه بين الكولخوزيين. وقد أشار موراخوفسكي في مداخلته أثناء المؤتمر إلى دور السوق الاشتراكية في زيادة حجم الانتاج وتحسين نوعيته. وقد طمأن المندوبين: «ليس ها هنا ما نخشاه. فحدود السوق تبقى مرسومة في إطار النظام الاشتراكي والموقع - المفتاح الذي تحتله الدولة في الانتاج والتوزيع» (١٩).

في حزيران ١٩٨٧ استمر ميخائيل غورباتشوف بالتأكيد على: «اننا نمتلك إمكانيات فعلية تسمح لنا بتغيير الوضعية التموينية بصورة جدية في خلال الستين أو الثلاث المقبلة» (٢٠) غير أن تلك الفترة هي التي شهدت بداية البحث عن اجراءات إضافية «لتنظيف» القطاع الزراعي. وهذا ما كان ضرورياً بقدر ما تبين أن المداخيل، إذا ما لحظت عن قرب، ليست غير فعالة فحسب بل مشؤومة، وقد أشار رجال الاعلام إلى الخراب النهائي الذي أصاب التربة من جراء برامج الاستصلاح الضخمة، إضافة إلى الكميات الهائلة من المواد الكيميائية المستخدمة. وعندما نعلم أن الصناعة السوفياتية تنتج عدداً من الحصادات - الدارسة يفوق بست عشرة مرة ما تنتجه الولايات المتحدة منها، و ٦,٤ مرات من الجرافات، فإن الدعوات إلى تكثيف المكننة تصبح ضرباً من العبث (٢١).

تصوّر أسلاف غورباتشوف بدءاً من ستالين، أن الاستثمارات الفردية الملحقة التي يقوم بها الكولخوزيون قد تكون متممةً للانتاج الزراعي. ورغم تقلب مواقف الأمناء العامين من هذه الاستثمارات - فمرة يسمح بالاستثمارات الفردية ثم تمنع مرة ثانية ليمد منها مرة أخرى - فإنها كانت مصدراً لجزء مهم من كميات البطاطا، والخضار ومختلف أنواع الحنطة. أما غورباتشوف فلم يكن ينظر أبداً بعين الرضى إلى هذه الاستثمارات الفردية.

إلا أنه عاد واعترف في عام ١٩٨١ بأنها لا تخلو من «بعض الأهمية» حتى أنه تقبل أن تتعاون الكولخوزات والسوفخوزات معها. «لأنها تستطيع بهذه الطريقة أن توفر بصورة إيجابية بين مصالح الدولة وإنتاج الكولخوز والسوفخوز من جهة والمصالح الفردية للكولخوزيين وللعمال المستخدمين» (٢٢). وإن هذا ما كان يدركه ستالين وهو الذي كان يعلم أن «التوفيق بين مصالح الكولخوزيين الشخصية ومصالح الكولخوزات

الجماعية هو باستمرار المفتاح الذي يسمح بتدعيم الاستثمار الجمعي» (٢٣). أما غورباتشوف فرغم اعترافه بأهمية الاستثمارات الخاصة فإنه يشدد على كونها غير كافية، وهو قد أكد في ١٩٨٣: بديهي أنه لا يمكننا القبول بما يشاع في الغرب من نظريات حول فوائد الاستثمارات الخاصة الملحقة». ثم يضيف: «إن إنتاجيتها لا تتعدى نصف الانتاجية المعهودة في الكولخوز كما أن مؤشراتنا تبقى مرهونة بالاستخدام المجاني للأرض والمياه العائدة للكولخوزات...» (٢٤)

في تشرين الثاني ١٩٨٨ وبعد شهرين على سفره الى سيبيريا حيث أغرقه الناس بشكاويهم المتعلقة بفقدان الحنطة من المخازن، إنتقل غورباتشوف الى أوريل. وقد ظهر في البرنامج التلفزيوني المسائي «فريميا» (الزمن) وهو يردش مع الناس على قارعة الطريق. وقد أكد الشعب للأمين العام أن التمويل قد تحسن. مرتاباً من الأمر، أصرّ غورباتشوف: «حقيقية؟ بشرفكم؟» وتعالّت الأصوات بين الحشد: «كلام شرف، الأمور أصبحت أفضل» يعلم ميخائيل غورباتشوف أن كل ذلك ليس صحيحاً. وهو لم يتمهل في التحضير لجلسة مكتملة حول المسائل الزراعية.

في ١٦ آذار ١٩٨٩ إتخذت اللجنة المركزية في جلستها المكتملة قراراً «حول السياسة الزراعية للحزب الشيوعي السوفياتي في ظل الأوضاع الراهنة» وكان، قبل سبع سنين، قد اعتمد البرنامج الغذائي للاتحاد السوفياتي محدداً الخط العام للحزب في المجال الزراعي. وقبل أربع وعشرين سنة في آذار ١٩٦٥، دخلت السياسة الزراعية ما - بعد - الخروتشوفية حيز التنفيذ. كل هذه البرامج انبثقت عن «الانعطاف الكبير» الذي حدد ستالين بايجاز الهدف منه، في كانون الأول ١٩٢٩: التأميم الشامل وتصفية الكولاك. وقد طبع هذا «المنعطف» «نهاية السياسة الاقتصادية الجديدة» N.E.P، التي أعلنت عام ١٩٢١، والعودة الى السياسة القديمة - «الشيوعية الحربية» التي وضعها لينين وفُرضت ما أن أخذ البلاشفة بزمام السلطة.

إلا أن تعدد السياسات الزراعية العائدة للحزب الشيوعي ليس إلا ظاهرياً. والواقع أن ما هنا سياستين، وقد رفض لينين الأولى، وقام بصياغة الثانية، أما ستالين فقد عاد الى سياسة البدايات. ويتضح أنه لم يكن للتحويلات المختلفة الطارئة على النموذج الزراعي الذي ولد في زمن ستالين إلا طابعاً «جماليّاً» صرفاً، أي أنها لم تكن

تغيرات في العمق، وكذلك هي بالنسبة لاصلاحات خروتشيف وبريجنيف. وفي تقريره حول السياسة الزراعية الجديدة يقوم غورباتشيف، متسائلاً «لماذا لم تؤد جميع الاجراءات التي إتخذناها... إلى النتائج المرجوة أو إلى إحداث التحولات الضرورية في الأرياف»^(٢٥)، باستعادة سريعة لتاريخ مواقف الحزب من «مسألة الفلاحين» وبعد أن حثاً دون موارد «السياسة الاقتصادية الجديدة» للينين، إنتقد الأمين العام، هذه المرة، التأميم الذي رأى فيه عودة إلى «أساليب الوزائع غير الاقتصادية التي كانت سائدة في مرحلة «الشيوعية الحربية». وفي ٢ تشرين الأول ١٩٨٧ اعترف غورباتشيف في التقرير الذي قدمه بمناسبة الذكرى السبعين لثورة أكتوبر بوقوع «تجاوزات خلال النضال ضد الكولاك» وهو «نضال بحق بذاته»، مؤكداً بعد ذلك على أن التأميم قد شكل «منعطفاً أساسياً» ذا «نتائج تاريخية»^(٢٦).

في آذار ١٩٨٩، عدل غورباتشيف نظره بعض الشيء: «نجد أنفسنا عندما نقيم أحداث هذه السنوات الأخيرة مرغمين على استحضار المأساة الانسانية»، إذاً المأساة الانسانية تأتي لتكمل الكارثة الاقتصادية. ودون أن ينكر ضرورة محاربة الكولاك بأسف غورباتشيف «لاستخدام وزائع الضغط والارغام تجاه غالبية جماهير الفلاحين المتوسطين وحتى الفقراء». وهكذا نجد أنه يتم الحفاظ هنا على التمايزات الدقيقة بين الناس - كولاك، فلاحون متوسطون فلاحون فقراء - . وللمرة الأولى يعطي غورباتشيف رقماً تقريبياً: لقد اقتلع ملايين الفلاحين من أرضهم، ومن مسقط رأسهم ووجدوا أنفسهم مجردين من أي شيء وقضوا في المعتقلات أو في المنفى: «^(٢٧) وفي تشرين الثاني ١٩٨٧ كان ما يزال يتكلم عن «الألوف المؤلفة من أعضاء الحزب ومن خارج الحزب» الذين وقعوا ضحية حملات القمع المكثفة. إلا أن غورباتشيف عاد حتى في آذار ١٩٨٩، ورغم تبيان «للمنحى الخاطيء الذي اتخذته تطبيق التأميم»، ليركز على أنه من غير الصواب «أن ننكر ضرورة التحولات الاشتراكية في الريف» وإنه من غير المشروع «أن نستتج عدم فعالية النظام الكولخوزي» ثم إنه شدد قائلاً: «كلا، فالاستثمار الجمعي يحتوي من حيث طبيعته على طاقة هائلة...»

ولما كانت هذه الطاقة قد بقيت دون تفعيل في حياة ستالين، فقد جرت محاولات لتحقيقها ابتداءً من ١٩٥٣. وتبعاً لذلك اتخذت «إجراءات اقتصادية سياسية تنظيمية بالغة الأهمية تهدف إلى تدعيم الزراعة». غير أنها لم تعط أية نتيجة. ثم بوشر «بمحاولة

جديدة لصياغة سياسة زراعية فعالة في الجلسة المكتملة للجنة المركزية في آذار (١٩٦٥) «إلا أن المقررات الصادرة عن هذه الجلسة لم تطبق، كما يشير الأمين العام مريبكاً، هي أيضاً، وقد جرى فيها بعد تشويه الخط الذي حددته».

وحول عام ١٩٨٠ كانت الكولخوزات والسوفخوزات كما يلحظ غورباتشوف تعاني إجمالاً من العجز. وهذا ما كان عليه أجمالاً وضع الزراعة السوفياتية. والحال أن غورباتشوف كان بوصفه أمين اللجنة المركزية، مسؤولاً عن القطاع الزراعي. وهذا ما ساهم بتوطيد البرنامج الغذائي، «وهكذا، كما أعلن غورباتشوف، توصلنا بطريقة ما إلى إيقاف زحف عناصر الأزمة وإلى تحسين الوضع الزراعي». وهكذا يعرف الأمين العام كيف يختار عباراته: «توصلنا بطريقة ما... وهو لا يعرف تحديداً أية طريقة أو أي من توجيهات اللجنة المركزية كانت فعالة إضافة إلى أنه يقر بأن «مقررات الجلسة المكتملة (في أيار ١٩٨٢) حملت بصمات عصرها وكانت ذات طابع خلاسي، هجين».

في آذار ١٩٨٩ قدم ميخائيل غورباتشوف سياسته الزراعية الجديدة. وقد كانت طور الاعداد منذ زمن بعيد. وفي البداية طرحت دعوة اللجنة المركزية (البيلنوم) إلى اجتماع مكتمل في شباط، والواقع أنه تم في ١٥ آذار، أما موضوعه فلم يتغير: «علينا ترسيخ سياسة زراعية، تسمح عندما تنفذ، بالتخفيف من خطورة مشكلة التمويل، وأن نؤمن، من خلال الخطة الخمسية الثالثة عشرة (١٩٩١ - ١٩٩٥) كمية ونوعية من المنتجات الزراعية تكفي للتزود منها بشكل منتظم». لقد أمضت الدولة السوفياتية كل الوقت ومنذ إنشائها، محاولة حل «مشكلة التمويل الخطيرة». وغالباً ما عرفت البلاد المجاعة ولم يفارقها القحط أبداً، إضافة إلى فقدان المواد الفاتكة الضرورية. بعد ستة أشهر من الاستيلاء على السلطة في تموز ١٩١٨، صاغ لينين ما يمكن اعتباره قانون الاشتراكية الأكبر: «طريقتان للنضال ضد الجوع: الطريقة الرأسمالية والطريقة الاشتراكية. أما الأولى فتمثل باعطاء الحرية للتجارة... أما نحن، السلطة العمالية، فلن نسلك هذا السبيل. سيبلنا نحن هو إحتكار القمح»^(٢٩). القانون الأكبر في الاشتراكية ليس اختيار طريقة اليوم، ثم أخرى غداً. إنه يكمن في كوننا «نحن، السلطة العمالية» نطعم الشعب. أي «نحن» الذين نقرر إذا كان جائعاً أم لا، وكذلك كمية الطحين التي يحصل عليها. ومنذ تشرين الأول ١٩١٧ تحولت مشكلة التمويل (وما تزال) إلى مشكلة سياسية، أن الدولة - الحزب تضطلع بتقسيم جميع الخيرات.

وفي هذا المجال لا تتميز السياسة الزراعية الجديدة التي اعتمدها ميخائيل غورباتشوف بشيء عن تلك التي سبقتها. فمرة أخرى يقرر الحزب الاجراءات الضرورية لتلبية حاجات الناس الحيوية، مع فارق دقيق وهو أن الأمين العام يبدو فجأة وكأنها فقد تفاؤله الجميل، ونسي ما رددته حول نجاحات الزراعة السوفياتية التي تتخطى، من حيث وتأثير نموها، الولايات المتحدة وبلدان السوق المشتركة. ولكنه ببساطة لم يعد قادراً على التراجع، لأن «القحط الغذائي بات يولد توتراً اجتماعياً فهو لم يعد يثير فقط الانتقادات بل تملل الناس. والحال أن هذه الوضعية التموينية قائمة منذ عدة سنين» (٣٠).

لقد بدأت السياسة الزراعية الجديدة بالاعتراف بفشل الاجراءات الأولى التي اتخذها غورباتشوف بعد توليه السلطة: ألغيت اللجنة الزراعية - الصناعية التي ترأسها موراخوفسكي؛ وقد استبدلت بلجنة حكومية منبثقة عن مجلس الوزراء، ومكلفة بشؤون التمويل وشراء الحنطة. ولم يكن هذا الاستبدال إلا خطوة أولى. أما مفتاح مشكلة التمويل، أو الخط العام الجديد فيتمثل بالإجازة.

لقد اعتبر غورباتشوف دائماً، عدم فعالية الزراعة السوفياتية كأمر بديهي. وقد بحث، عن وسائل لمعالجة هذا الوضع أو كما يحلو له أن يقول عن «مقاربات»، وذلك سواء بصفته أميناً لمنطقة أو أميناً للجنة المركزية. إلا أن السبل التي اختارها، كانت تقليدية، وقد جربت طوال عشرات السنين، وجميعها تهدف الى زيادة انتاجية الكولخوزات والسوفخوزات، من خلال إتقان الادارة، والاستثمارات الاضافية، وزيادة إنتاج الجرافات والحصادات الدارسة، وتطوير استصلاح الأراضي، والطرق الكيميائية.

وجرت محاولات لاعطاء ما يشبه الاستقلال الذاتي للعمال الزراعيين، وذلك من خلال إقامة فرق مستقلة. إضافة الى أنه سمح بإنشاء مؤسسات.

وفي آذار ١٩٨٣ بدا غورباتشوف حاسماً: «تعتبر المؤسسة الجماعية في متن الفرقة أو الفريق أو المزرعة، الشكل الأكمل للعلاقات الاقتصادية ذات التمويل الذاتي في إطار الاستثمار...» (٣١) في ١٩٨٨ لم يعد الشك يضمنه: لقد اكتشف الترياق: الاجارة. ولقد كانت قبل ذلك موضع تداول ولكن دون ثقة كافية بالنفس.

ففي ١٩٨٧ كان «القاموس السياسي» يشير: «تعتبر الاجارة الفلاحية للأرض نوعاً من بقايا الاقطاع فالأرض تؤجر لسد الحاجات الحيوية لدى الفلاحين الصغار والمتوسطين وعائلاتهم. كل هذا يعطي لعلاقات الاجارة طابع العقد التحكيمي» (٣٢). في ١٢ تشرين الأول ١٩٨٨ ألقى غورباتشوف خطاباً في اللجنة المركزية أمام خبراء الزراعة المختصين بالشؤون النظرية والتطبيقية. وما قاله هنا سيشكل الصيغة الأولية لسياسته الزراعية الجديدة التي سيعلم عنها بعد خمسة أشهر. أما رسالة الأمين العام فهي التالية: تطوير الإجارة، الشروع ببريسترويكا على صعيد العلاقات الاقتصادية في الأرياف، لقد حقق غورباتشوف بعض التقدم منذ ١٩٨٣. في تلك الآونة كان يرى في المؤسسة الشكل الأقرب الى الكمال. أما بعد خمس سنوات فقد بدا له أن المؤسسة هي في الحقيقة «خطوة كبيرة غير أن الإجارة هي أيضاً نوع من المؤسسة العليا، المؤسسة - الإجارة حيث يأخذ الانسان الأرض لفترة من الزمن، إضافة الى وسائل الانتاج، وحيث منذ تلك اللحظة تربطه العلاقات الاقتصادية بالاستثمار وبمن أعطاه الأرض.

هذه المرة الأمر يتعلق بالاصلاح، أي بتغيير العلاقات الاقتصادية في الريف، أو إحلال الروابط الاقتصادية مكان الوظائف الادارية الإلزامية. وهذا ما جعل الاعلاميون السوفييت يعودون بالذاكرة الى ألكسندر الثاني محرر الفلاحين من القنانة، الى بيوتر ستولييين الذي قام سنة ١٩٠٦ بتغيير جذري للعلاقات في الريف الروسي. ويبدو أن الاصلاح الذي قام به ستولييين معطياً الفلاحين حق ترك القرية (أوبشستينا) ليأخذ مزرعة صغيرة (كوتور)، هو الذي أوحى بحركة غورباتشوف الاصلاحية، التي سمحت بتفضيل الاجارة على الكولخوز. ولم يمض وقت طويل حتى أعلن العديد من المعلقين الغربيين عن نهاية النظام الكولخوزي في الاتحاد السوفياتي.

إلا أن الاصلاح الزراعي جاء، على غرار مجمل الاصلاحات الاقتصادية في إطار البريسترويكا، هجيناً وملتبساً.

وكان الاستوني سالدري، الوحيد خلال جلسة اللجنة المركزية في ١٢ تشرين الأول ١٩٨٨، الذي تميّز عن جمهرة الخطباء. فبعد أن قدم للحضور بصفته مؤجراً للكولخوز «كولدره» أعلن سالدري أنه ليس كذلك بل «مزارع عادي جداً بالمعنى السائد للكلمة» (٣٤) وما كان من غورباتشوف إلا أن تدخل ليطمئن الحضور «حسناً،

حسناً، بالأمس كان أميناً لتنظيم الحزب . مزارع جيد . من جماعتنا . ثم ان هذا «المزارع من جماعتنا» لم يتردد عن الايضاح بأنه يتنفع الآن من الأرض بشكل دائم ، وانه يزرعها ويقتني ماشية خاصة به ، وعندما أشار الى أن ذلك لا يعتبر مشروعاً إلا في جمهوريته ، نظراً لأن قانون الاتحاد لا يسمح بالتنازل عن الأرض بشكل دائم رد عليه غورباتشيوف : سوف نشرعه .

غير أن قرار مجلس رئاسة السوفيات الأعلى حول الإجارة وما يتفرع عنها من علاقات ، والذي وقعه غورباتشيوف بعد ستة أشهر ، لم يشرّع التنازلات الدائمة ، بل أنه اكتفى بالسماح بالانتفاع المؤقت الذي يتراوح من خمس سنوات الى خمسين كحد أقصى^(٣٥) . ولكن سواء كان بشكل دائم أو لأجل ، فالمسألة قد لا تكون إلا لعباً على الألفاظ . فرغم كل شيء أعطى القانون حول الأرض ، الذي أقر في ٢٦ تشرين الأول ١٩١٧ ، هذه الأرض للفلاحين لأجل غير مسمى . إلا أنها ما لبثت ان انتزعت منهم بعد اثنتي عشرة سنة عندما ارغموا على الدخول في الكولخوز . وهكذا فإن الديمومة لم تدم !

ولكن رفض الاجارة الدائمة يسمح مضافاً الى عدوانية غورباتشيوف الدائمة تجاه الملكية الفردية بالحديث عن الطابع الملتبس والهجين الذي لا ينفك عن الاصلاح الزراعي .

ويتبين أن نص القرار حول الاجارة هو نوع من التسوية التي تهدف من جهة ، الى إرضاء هؤلاء الذين يريدون تحويل الزراعة السوفياتية بأكملها الى مزارع من النمط الغربي والكولخوزيين الى «مزارعين»^(٣٦) . ومن جهة أخرى ، الى الابقاء على النسق القديم مع بعض التعديلات التفصيلية . وكما عهدناه دائماً يبقى غورباتشيوف في الوسط ، لاعباً على الحبلين . فهو يسعى من جانب الى القضاء على «إغتراب» الفلاحين وإيقاف عملية تدمير الريف وتحويل الكولخوزيين ليعودوا فلاحين حقيقيين وذلك من خلال اعطاءهم «إمكانيات واسعة على صعيد الاستقلال الذاتي وإنشاء المؤسسات واتخاذ المبادرات»^(٣٧) أما الجانب الثاني فهو الارتكاز الى الاجارة «لاظهار ما للكولخوز والسوفخوز من طاقة كامنة»^(٣٨) . وسوف يكرر غورباتشيوف هذه الفكرة بعد خمسة أشهر : فالسبيل الأمثل هو تحويل الكولخوز والسوفخوز الى نظام الإيجارة ، وذلك داخل نطاق الاستثمار^(٣٩) .

ويعتبر أن وجهة النظر القائلة بإلغاء السوفخوز والكولخوز وعطاء ما يعود لها من أراضي ووسائل إنتاج للمؤجرين لا تقوم على أي أساس، سواء من الناحية العلمية أو من الناحية العملية» (٤٠).

إن ميخائيل غورباتشوف رجل منطقي. إنه يدرك أصل الأزمة التي يتخبط فيها القطاع الزراعي. فهذا الأصل لا يكمن في الكولخوزات بذاتها، بل بالعمل السيء الذي يقوم به الكولخوزيون كونه عملاً مضمون الأجر. في تشرين الأول ١٩٨٨ قَدَّر غورباتشوف أن «المسألة الأهم تبقى في عدم الاستمرار بدفع المال الذي لا تكسبه فعلياً الكولخوزات والسوفخوزات». ثم إنه في آذار ١٩٨٩ عاد ليثير المشكلة الناجمة عن «هؤلاء الذين يتدبرون أمرهم لتقاضي مداخيل ثابتة بغض النظر عما يقدمونه بالمقابل». بعد أن انتزعت من الكولخوزيين والسوفخوزيين القدرة على كسب المال بالعمل كيفما اتفق، كان على المبادرة الإصلاحية أن تدعهم يأخذون الأرض بالاجارة دون أن يفصلوا مع ذلك عن الكولخوزات والسوفخوزات. في ١٩٢٩ قام ستالين باستبعاد الفلاحين مرهناً هكذا على إخضاع آخر الطبقات التي تتمتع نسبياً ببعض الاستقلالية والحقاقتها بالدولة، وذلك لتأمين المنتجات الزراعية التي كانت البلاد بحاجة إليها. وبعد مضي ستين عاماً اتضح أن الكولخوزيين قد أعلنوا الاضراب مثل غيرهم من العمال، وأنه يتوجب تبعاً لذلك اكتشاف وزائع قسرية جديدة: الاجارة.

أما البرهان الأسطع على فساد نظام الاجارة كما ينص عليه مرسوم ٧ أيار ١٩٨٩ فيبقى الفتور الذي طبع تقبل المواطنين السوفيات لهذه الهدية من البريسترويكا. «من يحتاج الى أرضكم؟» رد موجيك أصيل عندما اقترحت عليه الاجارة. هكذا رفض الاعلامي إيفان فاسيليف، هذا العامل الشريف الذي يشهد له خبير من أفضل خبراء الريف السوفياتي، الأرض (٤١). ومن بين خمسمائة خبير وطالب ومسجل لمتابعة الدروس التي يعطيها المعهد الزراعي بالمراسلة أجاب عشرة فقط بنعم على السؤال: هل تقبل أنت شخصياً أرضاً بالاجارة؟ فيما ٢٥ بالمائة أجابوا بلا قاطعة. وعلى ١٧٦ من رؤساء الكولخوز الذين استجوبوا في منطقة كورسك ٢٠ بالمائة فقط أجابوا بنعم على السؤال: هل تعتبر أن علاقات الاجارة في الريف تشكل وسيلة حقيقية وصحيحة لتمويل الزراعة؟ (٤٢).

أما أسباب هذا النقص في الحماس فكثيرة. وقد تبين المقارنة، بين هذه السياسة

الزراعية وما أقدم عليه من قبل بيوتر سولييين من إصلاح، نقاط الاختلاف الواضح بينهما. في بداية القرن غادر الفلاح الروسي القرية الى العالم الرأسمالي حيث أصبح عنصراً طبيعياً، عادياً، من عناصره. أما «المزارع» السوفيائي فيرى نفسه وسط العالم الاشتراكي الذي يطوقه كعنصر غريب.

كان الفلاح يشتري الأرض ويصبح مالكا لها. أما الكولخوزي فيتسلمها من الدولة لفترة معينة. ومهما شدد غورباتشوف على «أنه لا بد لنا من فتح الأبواب على مصراعيها أمام أشكال الاستثمار على اختلافها - كولخوز سوفخوز، منشآت زراعية، اتحادات زراعية، استثمارات فلاحية ملحقه وخاصة، مشاغل زراعية في إطار المؤسسات الصناعية منشآت بناء ومنشآت أخرى غير زراعية، إضافة الى أصناف الحرف الملحقه...» (٤٣). إلا أن كل مواطن سوفيائي يعلم جيداً، أن المزارع سيصبح، ضمن الشروط الراهنة، «ساندريون» الزراعة. فبدون تجارة جملة، وبدون سوق، وحصر التصرف بأرض الاجارة، ومحروماً من أية إمكانية للحصول على الآلات الضرورية والأسمدة، سوف يحتاج «الخاص» بصورة دائمة الى دعم من الكولخوزات والسوفخوزات. وهذه ستحملة كما الحبل يحمل المشنوق!

وهناك سبب آخر يتمثل بالريية من السلطة التي تعطي اليوم بيد لتأخذه غداً بالآخرى. أحد الصحفيين مندهشاً من أن القلة القليلة فقط ترغب في جمهوريات البلطيك في المباشرة باستثمار عائلي، فهم سريعاً مرد هذا الأمر: «يحتفظ الفلاحون ليس فقط بتجربة الاستثمار، بل أيضاً بتجربة القضاء على الكولاك؛ فالجروحات القديمة ما تزال تنزف ولم تختم الندبات بعد» (٤٤).

وفي مناطق البلطيق، الجروح ما تزال ندية أكثر، ذلك أن التأميم لا يعود الى الثلاثينات بل الى أواخر الاربعينات وبداية الخمسينات. فحيث تم التأميم بالحديد والدم منذ نصف قرن، ترك أثراً مرعباً. وهذا ما يعتبر من الأسباب الرئيسية التي أدت الى فشل وصفة الإجارة.

ويعترف بوريس موجاييف اليوم - الكاتب «الريفي» المشهور، مؤلف قصة حياة تصور موجيك روسي يسعى الى ترك الكولخوز - بما يلي: «تكمن المشكلة في ما حصل من تبديل للفلاحين. إذ نجد الآن في الكولخوزات والسوفخوزات موظفين وليس

فلاحين . إنهم لا يستجيبون لأي شيء وليس لهم ما للمزارعين من موقف تجاه الأرض والتقنيات والقطيع . . . ولا من أي باب ! كل شيء يبدو غريباً لهم وعنهم لأن كل شيء يعود للدولة»^(٤٥) . والمقصود هنا هو بالضبط هذا التدمير لنسق الفلاحين الذي يثيره غورباتشوف ، والذي أراد أن يعالجه بالاجارة .

ويعلم بوريس موجايف أنه «بدون نهضة الفلاحين - والواقع أنها مستحيلة دون الاجارة وأشكال الاستثمار العائلي - فإننا نقود البلاد الى الهلاك وهو يعلم أيضاً أن الفلاحين لا يريدون اليوم أن «يخلقوا من جديد» مفضلين نيراً يعرفونه على آخر يكون أدهى وأعقد . فالآن ودون أية مسؤولية وهو يؤدي عمله على طريقة الى «حيث أسوك» يقبض الفلاح أجراً مضموناً . أنه لا يريد أن يصبح مزارعاً «لأن أشكال العمل الجديدة . . . ليست جدية تماماً . والمشكلة أن الانسان لا يمكنه أن يفلح في أرضين معاً في الكولخوز وأمام بيته»^(٤٦) ، هذا ما كتبه أحد أعضاء الكولخوز الى الكاتب فاسيلي بيلوف . وكثر هم الذين يضيفون أنهم ليسوا بحاجة الى المال إذ ليس هناك ، في كل الأحوال ، ما يمكن شراؤه .

في ٢٨ شباط ١٩٩٠ صدق السوفييات الأعلى على مشروع قانون جديد بشأن الأرض الزراعية ، معترفاً بذلك بفشل المحاولات السابقة شبه الاصلاحية ، وهذه المرة يلحظ القانون حق المواطنين بحيازة قطعة أرض (أو قطع) يكون له حق الانتفاع منها لمدى الحياة وكذلك حق تركها لورثته . «إلا أن هذه الأرض تبقى غير قابلة للبيع أو للاجارة . إنها تعطى من قبل السوفييات المحلية أو بمعنى آخر فإن كمية ونوعية الأرض التي يستفيد منها الفلاح تبقين مرتبطتين بها .

ها هنا إذن خطوة قسرية إضافية على طريق الاصلاح الزراعي الذي ما يزال في الوقت الحاضر بعيداً وراء الأفق . والمسألة الرئيسية تكمن في أن الأرض التي تمتلكها الدولة لا تحوز عليها أو تمتلكها في واقع الأمر ، فللكولخوز حق الانتفاع منها «على الدوام» وللسوفخوزات أيضاً نوع من السيادة عليها . فهي التي تقرر اعطاء الأرض «للأفراد» أو عدم اعطائها . وهكذا يُرشد الاستمرار بجعل الكولخوزات والسوفييات قاعدة للزراعة ، الاصلاح الجديد للفشل ، مثل كل الاصلاحات التي سبقته . إن بنية العلاقات القائمة بين الدولة وهؤلاء الذين يستخدمون الأرض على جميع الأصعدة -

كولخوز، سوفخوز، مستأجرون مدى الحياة - بقيت ثابتة، ولم يمسه أي تغيير.

وكما أن الطلبات على الاجارة لم تندفق فإن الاصلاح الجديد لم يثر الحماس. وقد بين استقصاء للرأي قامت به الازفستيا أن ١٢ بالمائة فقط من الأشخاص المستجوبين ينوون القبول بأرض «يتفعون منها طوال حياتهم ويورثونها لذريتهم»^(٤٧). وقد أعلن الصحافي ونائب الشعب يوري تشيرنيتشكو، أحد أفضل الخبراء في شؤون الزراعة السوفياتية، أن ٧٠ بالمائة من السكان في الريف كانوا يعتقدون بإمكانية حصول ضربة جديدة ضد «الكولاك» فيما أكثر من ٣٠ بالمائة من المستخدمين في جهاز الحزب والدولة لم يشكوا من العودة الى الاجراءات التي وضعت موضع التنفيذ في الثلاثينات، ويستتج الصحافي النائب في ختام حديثه قائلاً: «هذا يعني أن هذه الوسائل التي يستخدمها قادة الحزب الشيوعي لعموم روسيا (البلشفي) لأكل لحوم البشر لا تنفك تعمل، سواء تكوينياً أو وراثياً من خلال النظام...»^(٤٨).

ويظهر أيضاً الالتباس الكامن في القانون الجديد والرغبة المميزة لدى غورباتشيوف في تأمين الدعاية لنفسه عبر اتخاذ القرارات البراقة، من واقع أن المسألة الكبرى - مسألة أسعار المنتجات الزراعية - قد تركت معلقة بين قوسين. فقد قرر غورباتشيوف، من جانبه، «عدم المساس بالأسعار الحالية»^(٤٩). وإننا نجد أنفسنا من جديد أمام الحلقة المفرغة: فبدون إصلاح للأسعار لا يبدو أي إصلاح اقتصادي ممكناً ناهيك عن الاصلاح الزراعي. وهكذا جرى تأجيل إصلاح الأسعار على أمل أن تحدث معجزة تسوي جميع الأوضاع: يطلب الكولخوزيون حيازة الأرض بالإجارة، أو يطلبون حق الانتفاع منها لمدة الحياة ويورثونها الى ذريتهم، وهكذا سيتحولون الى مزارعين ويبدأون أخيراً بالعمل بكل ما بوسعهم. أما الذين بقوا في الكولخوزات سوف يعملون، راغبين في أن يتخطاهم المزارعون، بأقصى طاقتهم. وهكذا سوف يستطيع الاقتصاد السوفياتي بعد أن يخرج من المأزق، التقدم سريعاً الى الامام...».

الفصل الخامس عشر

المافيا : لقد وثب الأسد

«في موقع السلطة، لم يتحلل الحزب، ولم ينهار. «السلطة تفسد» يدعي المثقف البرجوازي والبرجوازي الصغير. إن هنا عدم فهم عضوي لجوهر سلطتنا السوفياتية».

فورونسكي، كانون الثاني ١٩٢١

«ليست المافيا صورة جميلة، إنها واقع، إنها مرض كنا نفكر منذ عهد قريب وبخفة أنه من غير الممكن أن يهدد مجتمعنا».

«ليتيراتورنايا غازيتا، ٢٠ تموز ١٩٨٩»

كان ذلك منذ سنين، حين قتل رجل المليشيا ألكسندر غوروف وسط موسكو أسداً هارباً من حديقة الحيوان. هذا الحادث الذي برز على الصفحات الأولى للجرائد السوفياتية، أثاره منذ زمن قريب الصحافي يوري شتسكوتشيخين، الذي أجرى مقابلة مع غوروف الذي أصبح رجل قانون وخبيراً بالجريمة المنظمة. «سأل ألكسندر ايفانوفيتش الصحافي: إذا قارنا الأمر بوضع المافيا فهل تعتبر والحال هذه أن الأسد يستعد للوثوب أم قد وثب؟... - الأسد قد وثب»^(١).

«مافيا»، «إبتراز»، «تبييض عملة»، «عصابات» - كلمات لم تكن منذ زمن قصير تنطبق، إلا على العالم الرأسمالي المتحلل. وها أنها في عصر الغلاسنوست قد اكتسبت فعلياً مكانها في المعجم السوفياتي - إن القاموس السياسي المختصر قد أعطى في طبعاته لعام ١٩٦٩، ١٩٧٨ و ١٩٨٣، تعريفاً ثابتاً للمافيا بوصفها «منظمة ارهابية من

الملصوص في جزيرة صقلية (إيطاليا)، وهي فعلياً في خدمة الدوائر البورجوازية وكبار الملوك العقارين...»^(٢) ويضيف القاموس أن المافيا كانت قد أقامت علاقات مع منظمات أخرى في عالم الجريمة، بما في ذلك، منظمات العصابات في الولايات المتحدة. وفي طبعة ١٩٨٧ يكمل «المختصر» تعريفه بهذه الجملة الفصيحة: «لقد تحولت المافيا الى مفهوم شائع يستخدم للدلالة على الضغوطات غير الشرعية الاجرامية التي تمارس على الأفراد أو المنظمات لأغراض سياسية». أما احتمال ظهور المافيا في بلد الاشتراكية فلم يكن بعد قد أثر مباشرة، غير أن الإشارة هنا تبدو واضحة بالنسبة للقارئ السوفياتي.

في عام ١٩٨١، انعقدت في فارصوفيا، هيئة تابعة للجنة المركزية للحزب لإجراء تحقيق حول نشاط السكرتير الأول أدوار جيريك، الذي كان قد فصل منذ تلك الآونة. وقد أوضح جيريك في شهادته ومن بين أشياء أخرى أن «مافيا بأكملها قد تشكلت داخل اللجنة المركزية»^(٣) وقد ترددت هذه الكلمة في تصريحات القادة البولونيين الآخرين الى حد دفع برئيس اللجنة، ولخشيتهم من أن تقع نسخ تقارير الجلسات السرية في يد «التضامن» (وهذا ما حصل في الواقع) إلى إقتراح يستبدل «مافيا» «عصابات لصوص» و «عصابات مجرمين» بعبارة «جماعات لا شكلية (غير مشرعة) داخل المكتب السياسي»^(٤).

ما إن بدأت «البريسترويكا» حتى غزت المافيا اللغة السياسية السوفياتية بوصفها كلمة ومفهوماً وتهمة خطيرة. وسرت إشاعات منذ فترة حول هذا الأمر، غالباً ما كانت مصطنعة ومركبة وتطال بشكل أساسي جمهوريات الجنوب. ومرت فترة حيث جرى الكلام عن الفساد في آذربيجان وجورجيا، حيث استبدل الأمناء الأول. وقد حل مكانهم، في آذربيجان الرئيس السابق لد. كا. جي. بي غيدار علييف، الذي عُيّن في ١٩٦٩، وفي جورجيا، الوزير السابق للدخالية أدوار شيفرنادزه الذي عُيّن في ١٩٧٢. وفي ١٩٨١ فتح تحقيق حول قضية «أوزبيك». ومن طشقند، كانت الخيوط تقود بشكل واضح الى موسكو، الى محيط بريجنيف الذي دخل مرحلة النزاع الأخير. ما من أحد إذن بات يندهش عندما يقدم الصحفيون على إيضاح أن المجازر الدامية في وادي فرغانا (صيف ١٩٨٩) هي من صنع المافيا. كما أنه تبين أيضاً دور هذه الأخيرة في مجازر الأرمن في الكاراباخ العليا، إضافة الى مجازر باكو. وقد باتت الحرب ضد المافيا شعار

الانتخابي لتالمان غدليان، ونيكولاي ايفانوف، وهما قاضيا تحقيق كانا وراء الاعترافات حول مافيا «أوزبيك». وعندما انتقدت أساليبها في التحقيق بوصفها غير شرعية وأحيلا خارج الملاك مع الاستمرار بتقاضى راتبهما. تفجرت فضيحة سياسية كبرى. مما دفع الى تشكيل لجنة دعم لصالح غدليان وايفانوف. وقد عيّن مجلس رئاسة السوفيات الأعلى لجنة خاصة لدراسة القضية^(٥)، كما أن وزير العدل في الاتحاد السوفياتي أعطى بعض الايضاحات من خلال البرافدا^(٦). ثم أن غدليان انتخب مظفراً نائباً للشعب في موسكو، وكذلك أحرز ايفانوف انتصاراً انتخابياً أعظم في ليننغراد، وذلك بعد أن أعلن من على الشاشة الصغيرة، في ١٢ أيار ١٩٨٩ ان ابناء المافيا الذين يمنع الكشف عنهم يقودون حتى القمة، وان بعض أعضاء المكتب السياسي متورطون في هذه القضية مثل سولوماننتسيف ليغاتشيف، والرئيس السابق لمحكمة الاتحاد السوفياتي العليا تيريلوف^(٧). هذا الكلام قاد عمال أكبر المصانع في ليننغراد الى الاقدام، وكأنهم رجل واحد، على الادلاء بأصواتهم لصالح قاضي التحقيق نيكولاي ايفانوف. وتبيّن قضية غدليان - ايفانوف المكانة التي تحتلها المافيا كأسطورة وواقعة في وعي معاصري «البريسترويكا». فلقد جمعت أولغاتشا تشايكوفسكايا الصحافية السوفياتية المشهورة، التي أثارت طوال عشرات السنين (وبقدر ما تيسر لها ذلك) عيوب العدالة السوفياتية - وهو جعل منها اليوم أحد المراجع المعنوية الخلقية النادرة - ملفاً ضخماً يبيّن الطرق غير المشروعة التي كان يستخدمها فريق غدليان - ايفانوف: تعذيب المتهمين وسجنهم احتياطياً طوال عدة سنوات. (أحياناً سبع سنوات) «وقد كتبت أولغا تشايكوفسكايا أن قضاة التحقيق من نمط غدليان، الذين أعدوا أنفسهم، وتركوا لأنفسهم، يشكلون جزءاً من هذا النظام الاداري القيادي الذي يؤكدون على محاربتهم له»^(٨).

وفي نيسان ١٩٩٠، قدمت اللجنة نتائج أعمالها الى السوفيات الأعلى. وقد أثبتت أن غدليان وايفانوف قد انتهكا الشرعية وأقدا على اشكال من الضغط وطرق من التحقيق يمكن اعتبارها ببساطة نوعاً من التعذيب. حتى أن التقرير يُعيّن من بين اشكال الضغط المستخدمة من قبل المتهمين ما يقارب نصف أساليب التحقيق التي أوردها سولجنستين في «أرخبيل الغولاغ». ويتضح من التقرير أيضاً أن هذه الطرق والأساليب تعتبر أمراً عادياً سائداً بالنسبة لقضاة التحقيق، وأن غدليان وايفانوف كانا يحظيان بتغطية رؤوساء على أعلى المستويات. وأخيراً يتبيّن أن المحققين الذين أرسلوا الى

مكافحة المافيا في أوزبيك ، كانوا فعلياً أدوات في الصراع على السلطة الذي كان دائراً في موسكو. فالحكام في أوزبيك كانوا من جماعة بريجنيف ، أي أن ضربهم كان يعني ضرب السكرتير العام .

لقد اقترحت لجنة التحقيق رفع الحصانة البرلمانية عن غدليان وايفانوف وأن يمثل أمام المحكمة لاستجوابهم ، غير أن السوفييات الأعلى رفض هذا الاقتراح . وخلال فترة قياسية تم تحويل «المافيا» الى عدو رقم واحد توجه «نقمة الشعب» ضده . وكان التعطش الى العدالة قد بلغ من القوة ، والوضع الاقتصادي من الرداءة ، ما جعل أي وعد بالتطهير مهما قل شأنه ، خاصة التطهير «من القمة» قادراً على إثارة نوع من الحماس الغريب وسط الجماهير . وقد نقلت أولغا تشايكوفسكايا حديثاً مع امرأة شابة من ليننغراد كانت شككت في إطار لقاء انتخابي بصحة ترشيح ايفانوف «كان الدم يسيل منها شللاً اثر لكمة رهية على وجهها وهي تقف في مواجهة هيجان الحشد الذي كان يصيح : «هذا لا شيء . يجب أن تغرقى بدمك» (١٠) .

لا يخلو تحويل «المافيا» الى عدو رقم واحد من فوائد سياسية أكيدة . إنه سلاح للصراع على السلطة . ولقد نفى إيغور ليغاتشيف عضو المكتب السياسي وأمين اللجنة المركزية ، أمام المدعي العام للاتحاد السوفياتي ، ثم أمام اللجنة المركزية بأن يكون متورطاً بأي شكل من الأشكال «بجريمة الرشاوى في أوزبكستان» (١١) وقد رأى الخبراء الغربيون ولفترة طويلة ، في ليغاتشيف الرجل الثاني ، فيما كان يعتبر في الاتحاد السوفياتي بمثابة زعيم «المحافظين» ولقد سعى ليغاتشيف الى تبرير نفسه رافضاً جميع الاتهامات الموجهة إليه : «ما يحصل هو تحديداً محاولة لزعزعة الثقة بقيادة الحزب الحالية والاستفادة من ذلك للاحتراف السياسي . وكذلك لتلافي الرد على الاتهامات الخطيرة الموجهة ضد ايفانوف من قبل العديد من المواطنين الذين اشتكوا في رسائلهم من طريقته في إدارة التحقيق» (١٢) . وإذا كان القسم الثاني من التقرير لا يستأهل أي تعليق فالأول لا يبدو مقنعاً بأي شكل من الأشكال . فالعبارة «زعزعة الثقة بقيادة الحزب الحالية» تبدو غائمة جداً . ذلك أنها كانت ، قبل أي شيء موجهة ضد ليغاتشيف . وذلك رغم أن ايفانوف قام بتوريط ميخائيل سولومانتسيف وهو أيضاً عضو في المكتب السياسي بهذه القضية . وقد أعلن أحد الخطباء في المؤتمر التاسع عشر للحزب . في حزيران ١٩٨٨ ، أنه لا يمكن «للذين قادوا بفعالية سياسة الركود» أن يعملوا ، في عصر

البريسترويكا، داخل الأجهزة المركزية. ويإيعاز من غورباتشوف، أقدم على اعطاء بعض الأسماء وكان سولومنتسيف على رأس القائمة (١٣). في نيسان ١٩٨٩ وإثر مداخلة ايفانوف طلب سولومانتسيف ومعه ما يقارب المئة من «قادة الركود» الآخرين من تلقاء ذاتهم إحالتهم على التقاعد. وكان سولومانتسيف قد أدين بتهمة إقامة العلاقات مع المافيا.

تكمّن وراء أسطورة المافيا واقعة حقيقية. فبعد أن أجرى تحقيقاً حول «المافيا اللوزبكية» (كثّر هم الذين يعتقدون أن القضية لم تنته فصولاً بعد)، قام القاضي غدليان بتنظيم عرض في موسكو، يمكن الذهاب إليه أو مشاهدته في التلفاز: في قاعة كبيرة امتلأت الطاولات بأكداس من العملة، وبالذهب والجواهر، التي ضبّطت مع المتهمين. إنها الدليل القاطع على وجود «المافيا». غير أن كل شيء، في الواقع هو أروع وأعقد بكثير. ويتبين تعقيد الوضعية من الظهور المفاجيء لكلمة «مافيا» في المعجم السياسي السوفياتي. لا بد من تحليل الأزمة، لا بد من «كبش محرقة» من عدو: وقد جرى تبني الكلمة. وكما لو أن الأمر كان بالصدفة، عرض التلفاز السوفياتي مسلسلاً ايطالياً عن المافيا في صقلية. الكلمة موجودة. ولكن على ماذا تشتمل بالضبط؟ فعالم الجريمة قد وجد دائماً في الاتحاد السوفياتي، ومجرمو الحق العام عاشوا في الدولة الاشتراكية الأولى في العالم تقريباً، في ظل القوانين التي تنطبق على المجرمين في أي بلد من بلدان العالم. غير أن للاتحاد السوفياتي خصوصية معينة وهي أنه يحتوي على شكلين من الملكية: الملكية الاشتراكية أو ملكية الدولة والملكية الخاصة التي تعود للمواطنين أنفسهم. وفي جميع المراحل انزلت العقوبات الأشد بالاعتداءات على الملكية الاشتراكية، لأن المسؤولين عنها كانوا من موظفي الدولة. وهي كانت تعني غالبية السكان العظمى، ذلك أن جميع المواطنين السوفيات يعملون لصالح الدولة. وفي مؤسسات الدولة. أما جرائم القانون العام فكانت تستدعي عقوبات أخف وذلك لأنها لا تطال إلا الملكية الخاصة التي لا تعتبرها الدولة بالقيمة نفسها.

وتفسر خصوصيات القانون الجزائي السوفياتي. الى جانب ما تفسره، عدد الموقوفين، الذي يبدو مرتفعاً في الاتحاد السوفياتي أكثر من أي بلد آخر. والأمر يتعدى ضحايا القمع السياسي من الذين حكم عليهم بموجب المادة ٥٨ من القانون اللينيني - الستاليني أو المادتين ٧٠ و ١٩٠ من قانون العقوبات الساري المفعول. وقد حكم على

ملايين الناس (وهو ما يحصل الآن قبل رميهم في المعتقلات) بناء على المواد الموصوفة «اقتصادية». أي غالباً لأنهم انتهكوا القانون السوفياتي الذي يهدف بصورة كلية إلى حماية الملكية الاشتراكية.

يعتبر الوجود المزمّن في البلاد لملايين المعتقلين والتجربة المباشرة للسجن والمعتقل التي يعانها قسم مهم من السكان كنتيجة للطابع الاجرامي الذي يميز القانون السوفياتي، ولهذا النسق الذي يحتاج دائماً إلى موقوفين ويولّد كمية من المجرمين لم يعرفها التاريخ من قبل كان المثل الروسي، «لا ترفض الفقر، لا ترفض السجن» يعبر عن قبول قدرتي بالمصيبة اما انتصار ثورة أكتوبر فحوّل هذا المثل إلى مبدأ الزامي وقد ولّد هذا القبول بقدرية السجن احتقاراً للقانون لدى المواطنين السوفيات ورفضاً مسبقاً للالتزام به. لقد ميزت الجريمة المنظمة عصر الـ N.E.P. وتبدو اليوم رواية ايلف بيتروف الهجائية «العجل الذهبي»، ذات راهينية لا تصدق، وذلك لأنها تصف وضعية - الأحداث تجري أواخر العشرينات - تسرعى الآن، بشكل مضاعف، انتباه الصحافيين والمحققين ورجال الاعلام. ينطلق بطل الرواية، «أوشاب بندر» رجل المصلحة الذي يميل إلى اللصوصية، من استنتاج منطقي: فإذا كانت الأوراق المالية تروج في البلاد فلا بد من وجود أحد يلمّها. ويكتشف أوستاب أن المليونير كوريكو سبق أن «لمّها» ويقدر ما يعمل كوريكو خارج القانون يجد أوستاب الوسيلة لنهبه دون حساب أو عقاب. ويجمع كوريكو الملايين بشطارة من القحط وما يسمى اليوم «اقتصاد الظل». ويبين مؤلفو «العجل المذهب» بصورة مقنعة أن فساد جهاز الدولة هو أحد العناصر الرئيسية في ثروة كوريكو.

يعيد الكسندر غوروف وهو الذي يعتبر أن «الأسد قد وثب»، ولادة «الجريمة المنظمة» و «المافيا» إلى عصر الركود وهو يقدر، كما رأينا، إن هذه «المافيا» يستحيل وجودها في ظل النظام الستاليني الكلياني، أو في ظل هيتلر أو موسوليني، إلا أن الخبر السوفياتي يرتكب، بالنسبة لألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية خطأ كبيراً، وذلك، دون شك، لأنه لم يهتم أبداً بهذا الموضوع عن قرب. ولكن المدّش فعلاً هو أن يرتكب هذا الخطأ بالنسبة للمرحلة الستالينية. والقانوني غينادي خوخرياكوف يرى أيضاً في هذا النوع من التأكيد «عدم معرفة بالتاريخ». وهو يشير من باب الأمثال، إلى وجود وحدة عسكرية وهمية في نهاية الحرب، وإبان النزاع، وهي حالة تجار الأدوية المفقودة^(١٤).

ويمكننا أن نعدد الأمثلة. فليس هناك أي شك في أن الجريمة المنظمة كانت موجودة إبان حكم ستالين ومتحركة في الاطار الذي يصفه مؤلفو العجل المذهب: قحط - فساد - اقتصاد ظل - أرباح طائلة. وفي هذه الآونة كانت تشن الحرب على الأعداء السياسيين، أما الجرائم «الاقتصادية» فلم تكن رغم العقوبات القاسية التي كانت تستدعيها، تثير إهتمام الاعلام والدعاية. في عام ١٩٣٩ أنشئ قسم لمكافحة نهب الملكية الاشتراكية، ضمن ملاك وزارة الداخلية، وهو معروف جداً لدى المواطنين السوفييات باسم - oBKhss. - وسوف يتحول هذا القسم فيما بعد الى مديرية رئيسية، مضى الآن على اهتمامها بالجريمة المنظمة ما يقارب النصف قرن.

لقد شكلت الجرائم الاقتصادية «جبهة صراع» مهمة في سنوات «إزالة الجليد». ففي ١٩٦١ - ١٩٦٢، صدرت قوانين تهدف الى تشديد العقوبات التي تطالها. وقد نظمت سلسلة من المحاكمات النموذجية التي غالباً ما كانت تنتهي الى إصدار أحكام بالاعدام في حالات الاختلاس الضخمة أو الرشاوي. وتميزت هذه الحملة، فيما تميزت به، بالتشديد على دور اليهود في انتهاك القانون السوفياتي.

تشير المحامية ايفغينيا ايفلسون في مذكراتها، الى أربعمائة دعوى «اقتصادية» تعود الى مرحلة خروتشوف. وتتصل، جميعها، بشكل ما «بالجريمة المنظمة»، ويرتبط معظمها «باقتصاد الظل» وتظهر، بشكل عام، فساد جهاز الدولة والحزب. «لا وجود لاقتصاد رديف مزدهر، كتبت ايفغينيا ايفلسون، إلا بفضل الانتقال غير المشروع لمخزون المواد الأولية والتجهيزات من دائرة الاقتصاد الموجه الى الاقتصاد الرديف وهو انتقال يتم دائماً بشكل سري ومن أجل المال ومقابل رشاوي»^(١٥).

وفي عهد بريجنيف، استمر «اقتصاد الظل» بالتطور والازدهار، وبدورها أيضاً الجرائم الاقتصادية (انتهاكات القانون السوفياتي)، الفساد، والجريمة المنظمة. وبدأت إشاعات تروج في بداية الثمانينات حول ضخامة جرائم الفساد، ولكن الصحافة اكتفت ببعض الحالات المعزولة ولم تتناولها إلا بشيء من الخجل. ولم تتوالّ الفضائح إلا بعد انتخاب ميخائيل غورباتشوف. وقد أعطت البرافدا إشارة البدء عندما نشرت مقالة بعنوان: «كوبرا فوق الذهب» وفي كانون الثاني ١٩٨٨ رميت الكلمة للمرة الأولى رسمياً: «المافيا». «لا تستهين المافيا بأية وسيلة. بما في ذلك الاتفاقات

السرية لتقوية الاسلام...» (١٦) والمقصود هنا المافيا الأوزبكية تحديداً، إلا أن جميع الأبواب تبدو الآن قد فتحت: الجرائد والمجلات تنشر مقالات عن المافيا إضافة إلى الأحاديث الإذاعية والبرامج التلفزيونية. وتتسع جغرافية الوباء. وهذا ما يحصل في الجنوب بالطبع، فهو «الغلونديك» Klondike العائد لنا، كما بات يُسمى، فجميع أعضاء قيادة جمهورية أوزبكستان «منباعين»، بمن فيهم السكرتير الأول للجنة المركزية. والوضع يبدو نفسه في كازاخستان. أما في أوكرانيا فالمدن الأشد إصابة بالوباء هي كييف، ليفوف وأديسا، دونتسك. دنيبروبتروفسك. راسماً خريطة المافيا، يدق غوروف قائلاً: «حالياً إنه من باب الخطوة والنفوذ في عالم الجريمة أن يجري التحكم بالمدن الصغيرة. في منطقة موسكو نجد مثلاً بالاشيخا، ليوبيرتسي، بوشكين، أورينخوفو - زويغفو» (١٧). وتبقى أهمية مدنية ما مفهوماً نسبياً: فكيف تعد أكثر من ٢,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، وأوديسا أكثر من مليون، أورينخوفو - زويغفو ما يقارب ١٥٠,٠٠٠ فيما لا تصل بوشكين إلا إلى حدود ٨٠,٠٠٠. غير أن كييف نفسها ليست مدينة كبرى بالمقارنة مع موسكو. ويروي الصحفي الموسكوفي ميخائيل بولتورائين الذي شغل فترة ستة أشهر موقع رئاسة التحرير في موسكوفسكايا برافدا حين كان بوريس يلتسين سكرتيراً أولاً للجنة الحزب في موسكو. «تسير الأمور في المدينة الآن، لأن الرشوة والفساد يزدهران على كل الأصعدة، إن المافيا في موسكو قد تكون في الأصل متفرعة عن المافيا الصقلية». مثل هذا التصريح قد يكون مرده المرارة: حيث فقد محرر الموسكوفسكايا برافدا موقعه بالتزامن مع يلتسين. ويمكننا أيضاً أن نتصور، أن هناك من جانب الصحفي نوعاً من التفاخر المقلوب: ألم يعتبر من فترة ليست بعيدة إن كل ما هو سوفياتي هو «الأعلى» والأفضل ولكن الأمر يظل على ما هو عليه. فلتמידد الوضعية في موسكو خلال عشرات السنين من حكم غريشين تم اختيار مفرد جديد: «المافيا».

كيف يمكننا أن نفسر هذا الاختيار؟ وما هو التعريف الذي نعطيه لهذا المفرد؟ بأي شيء تتميز المافيا عن الجريمة المنظمة في العصور السابقة؟ الأجوبة الأولى عن هذه الأسئلة قد أعطيت من قبل الصحفيين والمنظرين ورجال القانون. ومن المؤكد أن هذه الأجوبة ما تزال بعيدة عن أن تكون شاملة أو حتى عميقة بما يكفي.

وهناك إجماع على القول إن من الدلائل الكبرى على وجود المافيا «ارساء العلاقات

بين ممثلي السلطة وعنصر الاجرام»^(١٩) وليس هنا أيضاً تباين في الرأي حول أسباب ظهور المافيا: «تضرب جريمتنا المنظمة جذورها في النظام الاداري وفي نظام التحكم الشامل وما لا ينفك عنه من طرق إدارية»^(٢٠).

ولكن إذا كان «النظام الاداري ونظام التحكم الشامل» قد ظهرا استناداً الى ما يقر به القادة السوفييات اليوم، قبل عشرات السنين (لم يحدد التاريخ الرسمي بعد)، فإننا نتساءل لماذا لم تبرز المافيا إلا في ظل بريجنيف وفي عصر «الركود». أما الفساد - وهو شرط لا بد من توفره لولادة المافيا - فليس جديداً هو الآخر. في ١٩٢٧، أبدى رجل قانون سوفيائي الملاحظة الآتية: «منذ ١٩١٨ ولغاية اليوم ما تزال الرشاوى مزدهرة في المؤسسات السوفيائية»^(٢١) وهي مستمرة في ازدهارها طوال عشرات من السنين المقبلة. ويشهد على ذلك العدد الهائل من الدعاوى القائمة في هذا الموضوع، رغم الحرب التي تخاض لمكافحة دون شفقة - وهي حرب لم تزل مستمرة - في ١٩٢٦ وجهت للجنة المركزية دعوة لجميع تنظيمات الحزب: «سنستأصل بالحديد والنار السرقة والابتزاز واللاشرعية والتعسف»^(٢٢) ويبقى اليوم هذا الشعار راهناً.

إن القحط المزمن الذي لا ينفك عن النسق السوفيائي واقتصاد الظل الذي يتفرع عنه يشكلان الأرض الخصبة التي تترعرع عليها الجريمة المنظمة. فالمافيا هي إذن خاصة جديدة لظاهرة طبيعية بالنسبة للدولة. وذلك اثر الأزمة التي أصابت سلطة البلاشفة. في ١٩٢٧ لاحظ رجل قانون أنه «من بين الأشخاص الذين استجوبوا أمام المحاكم وأدينوا بتهمة الاختلاس، في الفترة التي تتراوح بين ١٩١٨ - ١٩٢٥ بها في ذلك الدعاوى الكبرى، ٧٠ بالمائة اخضعوا لتحقيق من الدرجة الأولى أو المتوسطة أو في منزهم. ومن الناحية المهنية يغلب بين الشخصيات البارزة المدعى عليها المهندسون والتقنيون، ومن ناحية الأصل الاجتماعي فالغلبة تبقى للانتليجنسيا البرجوازية»^(٢٣) وقد عرف هذا الأصل الاجتماعي الخاص «بالشخصيات البارزة المدعى عليها» تحسناً كبيراً وكذلك المستوى الثقافي الذي يتمتع به المجرمون. ومن الصعب الاتفاق مع يوري تشوربانوف، نائب وزير الداخلية بالوكالة والذي كان يؤكد أن «معظم المجرمين الخطرين (ويبدو أنه من موقعه على اطلاع تام بما يقول) كانوا من الأشخاص ذوي التفكير البدائي والذكاء المحدود ويميلون الى السكر والطفيلية والتسكع»^(٢٤). إلا أن تشوربانوف قد غير رأيه على الأرجح، عندما وجد نفسه بعد ثماني سنوات، في قفص

الاتهام أمام المحكمة . والواقع أنه تكفي قراءة عناوين الصحف ، ففي مولدافيا القي القبض على السكرتير الثاني للجنة المركزية وعلى نائب - رئيس مجلس وزراء الجمهورية . وفي موسكو مثل أمام المحكمة العمال المسؤولون في وزارة الصناعة الخفيفة في (R.S.F.S.R) الذين ، من (١٩٧٠) إلى (١٩٨٢) ، قدموا رشاًوى الى بروفين سكرتير بريجنيف . وفي الجمهورية التركمانية أُدين وزير صناعة القطن . وأخيراً في أوزبكستان أوقف (بين أشخاص آخرين) ٩٨٪ من مسؤولي الادارات الاقليمية في الداخلية ، إضافة الى معاوني وزير الداخلية والوزير نفسه .

وحده الانتحار أنقذ وزير داخلية الاتحاد السوفياتي شتشولوكوف من المثل أمام المحكمة . الواقع أن المحاكمة «الوحيدة» التي حصلت ، وأثارت العديد من التساؤلات التي ظلت مُربكة : إنها محاكمة شوربانوف . وأخيراً ، حضر في المؤتمر التاسع عشر للحزب أربعة مندوبين متورطين في «قضية أوزبيك» وقد أُلقي القبض عليهم ما إن ختمت الجلسات . ويمكننا أن نعدد الأمثلة . . . أما الآراء بشأن درجة التحقيق القضائي ونمط تفكير «المجرمين الخطرين» الذين أوقفوا وأدينوا فيمكن أن تكون متعارضة . ولكن غالب الظن أن أصلهم الاجتماعي كان يروق كلياً لأقسام الكوادر وإلا لكانوا وأجهوا بعض المصاعب في إنجاز احترافهم .

وهناك ، على أية حال ، شيء أكيد : جميع أعضاء الحزب هؤلاء يتمون - بالمعنى الواسع للكلمة - الى جهاز الحزب أي أن كلهم كانوا من أصحاب «النومانكلاتورا» . ويكاد أن يكون توقيع أحد المفسدين الأربعة في ختام مؤتمر الحزب ، سميرنوف ، وهو مسؤول قطاع في قسم العمل التنظيمي والحزبي التابع للجنة المركزية نموذجاً في نوعه . ويعتبر هذا القسم (الذي سُمي من جديد «لجنة» في إطار «الاصلاح السياسي») دماغ النومانكلاتورا . وهو يتحكم بالتعيينات في جميع المواقع المهمة في البلاد . ويبيّن تاريخ الاجرام في الاتحاد السوفياتي أن القطاع الأشد قابلية للجريمة إنما هو الحزب الشيوعي ، وقبل ذلك جهاز هذا الحزب .

ويسهم موقع الحزب في دورة البلاد الحياتية والدور القيادي الذي يضطلع به والمحدد (حتى ١٩٩٠) في الدستور ، الى حد بعيد ، بتحويل البلاد الى منطقة يسودها التوحش ، وحيث يؤلّد العدد الهائل من القوانين ، الحاجة الى انتهاكها . ولا يرتبط

الطابع الاجرامي الذي يميز الجهاز بمزاج تركيبيته. فمما لا شك فيه أن طريقة الانتقاء «الطبيعي» تؤمن إستمرار حياة الأشد تكيفاً مع النظام. ولقد كان لمرحلة بريجنيف هذه الميزة وهي أن الفساد قد وصل خلالها الى رأس قمة السلطة. لقد كان لينين، ستالين وخروتشوف متعطين الى السلطة غير أنهم لم يسعوا رغم ذلك الى لوازمها الخارجية، إضافة الى أنه كان زمنٌ حيث المتعصبون للفكرة يدعون الى الزهد. أما ليونيد ايليتش بريجنيف، فقد كان دائماً وعلى العكس من ذلك، بحاجة دائمة الى لوازم السلطة والثروة التي تؤمن الجاه لبطانته. وهناك نادرة شاعت بعيد صعود السكرتير الأول الى العرش وهي تصف بدقة روحية العصر الجديد. يصطحب بريجنيف والدته العجوز التي أتت لزيارته في جولة على شققه الفخمة ثم يربها ما يملك من ذهب وأحجار كريمة وأوان صينية وفرو. وما كان من والدته إلا أن قالت له: ولكن ليونيا ماذا لو عاد البلاشفة؟! وهناك العديد من القصص الحقيقية التي رسخت في أذهان الناس، وهي أشبه بالنوادر قصص عن الهدايا خلال رحلاته الى الخارج (يقوم السكرتير العام بجمعها: إنها هوايته) وعن «الرولكس» الذهبية التي رآها في معصم أحد مستشاري كيسنجر فأخذها مقابل ساعة سوفياتية من معدن أقل ثمناً. أي كما يقول اللصوص «لقد عرف كيف ينهب (يلطش)» ولقد غيّر تذوق السكرتير العام المرضي للثروة، الأجواء داخل جهاز الحزب. لم يعط بريجنيف المثل فحسب، أي أنه لم يكتف بأن يجعل من الترف موضحة، بل فرض على رجال الجهاز الاثراء فرضاً. فليس لأحد أن يتخلّى عن «اللعبة» كما أنه لا يمكن لأعضاء العصابة أن يخرجوا دون قصاص عن «هدفها المشترك». وقد أرغم، تأمين الهدايا الثمينة لبريجنيف بمناسبة أعياد ميلاده وأعياد أخرى، أمناء المناطق على فرض إتاحة جديدة في اقطاعاتهم.

وقد روى مسؤولو الحزب، الذين أوقفوا في أوزبكستان لمراسلي البرافدا كيف كانت تجري هذه الأمور عملياً: «كان رشيدوف يحول مع زوجته مرة أو مرتين كل عام في أنحاء الجمهورية، ويقوما، من بين أشياء أخرى، بسحب اتاوة من عندنا، نحن أمناء الأقاليم، وهذا ما كان يبدو من الأمور الطبيعية. وعنون هؤلاء الصحفيون مقالاتهم: وهم يقصدون هذا الرتل من المرتشين الذي يشير إليه أحد الموقوفين: «المهم هو هذه الركيزة في جهاز الحزب والسوفيات فأنا لم أكن أقبل أية رشوة إلا من الأشخاص الموثوقين. وهكذا كان يتصرف أمين اللجنة الاقليمية دون الحديث عن مندوب اللجنة

المركزية. وها إننا نصل الى نقطة جوهرية إنه يمكننا أن نحطم الركيزة إلا أن النظام «سيبقى» (٢٥).

لقد تم في منطقة واحدة، الاوزبكستان توقيف ١٢٢ مسؤول من مختلف الرتب، أدين منهم ١١٥.

كما جرت مصادرة أكثر من خمسة ملايين روبل. ولا يعتبر قاضي التحقيق فلاديمير كالينيتشانكو المكلف عادة بالقضايا الخطيرة من قبل مدعي عام الاتحاد السوفياتي، إن أعمال التوقيف هذه (أو ما يشبهها) تشكل نصراً كبيراً: «ذلك لأنه لا بد أيضاً من توقيف الذين حلوا مكانهم». وبناءً لرأيه فإن العديد من أعمال التوقيف التي طالت بعض القادة سواء في كازاخستان أو في أوزبكستان «لم تدخل أي تعديل على الوضعية الاجرامية» (٢٦) وتدفعنا المحاكمة المهزلة التي جرت ليوري تشوربانوف، صهر بريجنيف ومعاون رجل الميليشيا الأول في البلاد، وأدانتته السخيفة بالارتشاء بمبلغ ٩٠٩٦٠ روبل الى الظن بأن المتهم ربما كان يعرف أكثر مما يجب، حول نوعية الهدايا التي كان الأمين العام المقبل غورباتشوف يقدمها لبريجنيف، يوم كان أمين منطقة ستافروبول وحين كانت السنة السوداء تطلق عليه مازحة لقب: «ميشكا - الظرف الصغير». إذاً، جاء انضمام القائد الى هرم الفساد كتتويج للنظام. فالنزاهة الشخصية لكل «برغي» في الجهاز لم تعد مهمة: فالآلة تقوم بالفرز، قاذفة، ساحقة كل من يقف في طريقها، ويرفض الانصياع. إن الاشتراك في الفساد العام - كل في مستواه - قد أصبح السنة الاخلاقية «الوحيدة». ولجهاز الدولة الكلي القدرة والدائم الحضور، يد في الأرباح غير المشروعة أياً كان مصدرها تجدد الجريمة المنظمة في البلدان الغربية «المهترئة» مصادر تمويلها من خلال تشجيع الرذيلة: التحكم بشبكات تهريب المخدرات، والميسر. . . أما في الاتحاد السوفياتي فإن الجريمة المنظمة تخلق ثروتها محاولة تلبية حاجات المواطنين الأساسية. «فمن المؤكد أن اقتصاد الظل» يجلب المال لمنظمي المنشآت غير الشرعية التي تنتج ما لا يتوفر في الأسواق (منسوجات بأكياس البلاستيك) إلا أنه يُغذي أيضاً جهاز الحزب. فهو مصدر خطير للثروة: يقدر الاقتصاديون رواج البضائع في دورة «اقتصاد الظل» بين ٧٠ و ٩٠ مليار روبل (٢٧).

تعطي السلطة غير المحدودة، إمكانيات غير محدودة للثراء. وقد أكد المحققون

الذين يعملون في أوزبكستان، التي أصبحت واجهة الفساد وذلك من أجل المواطنين السوفييات ولاشباع رغباتهم والسهر على مصلحتهم المعنوية، أن عملية معالجة القطن ونحوه، تكفي لسرقة ١,٥ الى ٣ مليارات روبل. ويعطي طابع الرقم التقريبي فكرة عن مدى اتساع عملية النهب. في كل جمهورية من الجمهوريات يجد «المعلمون» - من مسؤولي الحزب - الوسائل للاثراء وكل بما لديه من وسائل يزيد الى الفساد فساداً. في سنوات الصدمة النفطية، جنى الاتحاد السوفيياتي أرباحاً لا تقل عن ١٧٠ مليار روبل من السوق العالمية. وقد قرر البروفسور فلاديمير شاستيتكو انه لو أديرت هذه الثروة بطريقة جيدة لسمحت بتسوية مشكلة صرف الروبل التي بقيت دون حل (٢٨).

ويروي الصحفي قسطنطين لاغوتين بأية طريقة بربرية لصوصية تم استخراج النفط في سيبيريا الغربية وهو يعطي الأرقام التالية: في ١٩٧٠ في تيومن. بلغ الانتاج ١٠٠,٠٠٠ طن في اليوم. وقد بلغ في ١٩٨٣ المليون. ويضيف الصحفي أن الأرباح التي جنت من نفط تيومن «أدت سريعاً، بعد افساد قمة السلطة الى افساد المراتب الأدنى» (٢٩).

لا يمكن أن توجد الجريمة المنظمة على مستوى بلد معين ما لم نجد أرضاً صالحة لها، أي ما لم تكن جزءاً لا يتجزأ من النسق، وهي لا يمكن أن تعمل عملها إذا ما وضعت الأجهزة القانونية العوائق في وجهها. والحال أن الميليشيا ومفتشيات الشرطة لا تقوم، بمكافحة المجرمين كما يشهد على ذلك العديد من المقالات والمقابلات والمحاكمات، لا بل أنها، وعلى العكس من ذلك، تساعدكم بشكل فعال، مساهمة بنشاط في عملية نهب الملكيات الاشتراكية، والتعاونية والخاصة. فبعد خمس سنوات على «البريسترويكا» فقدت الفضائح حول قابلية الرشوة لدى حماة القانون قدرتها على الإثارة.

كما ان تصريحات وزير داخلية الجمهورية التركمانية (المعين حديثاً) حول «الحرب بلا هوادة» ضد هؤلاء «الخونة» هؤلاء الذين لطحوا ثياب الميليشيا لم تعد تحدث أية ردة فعل، ذلك أنه سبق أن عدت جرائم وزير داخلية الاتحاد الأسبق، ومثل نائبه أمام المحكمة. لقد خصص جهاز يعتبر من أهم الأجهزة القانونية في الاتحاد السوفيياتي أو بمثابة «سيف الثورة ودرعها»، بمكانة متميزة جداً: أنه جهاز (لجنة) أمن الدولة. ومنذ

انشائها في كانون الأول ١٩١٧، كانت الشرطة السياسية التابعة للبتين كلية الوجود واعتبرت نفسها كلية العلم. وهاتان الميزتان تجعلان من <NKVD-KGB> سلاحاً ماضياً في يد الحزب. وتبعاً لذلك تبرز بعض الأسئلة. فإذا كان رجال المافيا قد توصلوا كما تشير البرافدا الى الاستيلاء في عصر بريجنيف على أعلى المراكز في هرم السلطة مؤثرين هكذا ليس على النمو الاقتصادي فقط بل أيضاً على التشريع الذي استطاعوا توجيهه بحسب مصالحهم^(٣١)، فهل كان باستطاعة لجنة أمن الدولة أن تتجاهل مثل هذا الأمر؟ ان قاضي التحقيق المكلف بالقضايا فوق العادة، نيقولايفانوف، الذي رافق غدليان في التحقيق بقضية الاوزبيك، يتذكر الأشياء من بدايتها: «هكذا. في تشرين الثاني ١٩٨٢، مات بريجنيف، وأصبح أندروبوف سكرتيراً عاماً. وعلمنا أن لا ننسى أنه قاد الـ كا. جي. بي، طوال سنوات عدة، أي أنه كان مطلعاً بعمق على وضع البلاد على صعيد السياسة الداخلية، وأنه يستحيل أن يكون غافلاً عن خطورة اللحظة التي يمر بها المجتمع. كان أندروبوف وطنياً مخلصاً ومن الطبيعي أن يتألم لآلام الشعب والدولة. وهذا ما انعكس سريعاً وبشكل ملموس على سياسته». ثم ان نيقولايفانوف يضيف «إنه في السبعينات وبداية الثمانينات كانت القضايا الشديدة الخطورة المتعلقة بعصابات المجرمين المنظمين تثار من قبل لجنة أمن الدولة وأجهزة وزارة الداخلية ولكن ضمن حرصها على عدم الكشف عن الأمور المهمة^(٣٢). وهنا أمر أكيد: لقد تم الاعلان عن «قضية أوزبيك» اثر اكتشاف «مطار» في اوزبكستان من قبل الـ كا. جي. بي.، أضف الى ذلك أن مجموعة غدليان شكلت لمتابعة التحقيق في أيلول ١٩٨٣، أي بعد تولي اندروبوف منصب الأمين العام.

والواقع ان الاعلان عن هذه القضية تم. كما يؤكد المناضلون ضد المافيا بمبادرة منه. وقد كتبت أولغا تشايكوفسكايا من جانبها: «اني أجهل من أمن لغدليان وايفانوف مثل هذا الدعم الهائل على مستوى البلاد...». غير أن هذا السؤال غير مطروح في الواقع فعمليات التحقيق بالقوة، والرغبة في التوصل الى النتائج مهما بلغ الثمن، وعلى حساب القانون اذا اقتضى الأمر، والمهارة في إثارة «غضب الشعب» ضد «اعدائه» لم تكن إلا وسائل تقليدية في «ترسانة» مناضلي «السيف والترس».

إلا أنه لا يمكننا التغاضي، ولنستخدم هنا لغة قاضي التحقيق ايفانوف، عن أن يوري اندروبوف قد أصبح رئيساً للـ كا. جي. بي سنة ١٩٦٧، أي تماماً في اللحظة

التي يعتبرها مدونو سيرة المافيا السوفياتية لحظة بدء تاريخها. كيف نقيم هذا الأمر؟ هل رأى أن الأمر يسير على هذا النحو ولم يفعل شيئاً لمنع؟ أم أنه لم يرَ في البداية شيئاً ولم يفتح عينيه إلا بعد ذلك؟ أو أنه كان على اطلاع تام بالأمر وكان يحضر الملفات التي سيستخدمها فيما بعد؟ أو أنه هو نفسه كان عضواً في المافيا؟ إننا لا نعرف شيئاً عن أندروبوف إلا ما يحلو له أن نعرفه عنه. وهو من الذين يثنى على صدقه وزهده. وفي هذا الدفق من الانكشافات والفضائح بشأن جميع أجهزة السلطة السوفياتية يبقى الكلام نادراً حول حالات الفساد داخل لجنة أمن الدولة. وعندما يحصل ذلك يبدو الصحفيون وكأنهم يعتذرون عن فعلتهم: «كان من المستحيل اكتشاف مصدر المال الذي كان الموظف السابق في الكا. جي. بي في منطقة أوديسا بوبوفسكي... المطرود من أجهزة أمن الدولة، يستخدمه لاقامة الولايم الكبرى. مع الكورنيك والكافيار مباشرة في خليته»^(٣٣) ويشدد الكاتب على «أنه «موظف سابق» مطرود من أجهزة...»

وفي ربيع ١٩٨٨ مبيناً الطابع المحتّم «للبريسترويكا» كخيارٍ وحيد لانقاذ البلاد، أقام أندريه ساخاروف بخاصة، جردة بنشاطات الـ. كا. جي. بي. مشيراً إلى «الدعم الجديد لهذه المنظمة» في السبعينات والثمانينات يبيّن الأكاديمي أن للدور الذي يضطلع به أمن الدولة أوجه عدة: «فهو من جهة يمارس قمعاً رهيباً ضد كل من له تفكير مغاير... لقد أضطهد المنشقون في السبعينات والثمانينات بوحشية وأمضى الكثير منهم سنوات عديدة في السجن أو المعتقل أو المصح العقلي.

ويأتي ساخاروف على ذكر بعض الأسماء الواردة في القائمة الطويلة لضحايا الـ. كا. جي. بي، وهو يتكلم عن علاقات محتملة بين الـ. كا. جي. بي و «الارهاب العالمي». وعن نشاطات هدامة أخرى، مشدداً على أنه في إطار الغلاسنوست لا بد من القاء الضوء على هذه الاتهامات. إلا أن ساخاروف يكتب من جهة مقابلة، أن الـ. كا. جي. بي كانت، بفضل طليعيتها، عملياً القوة الوحيدة التي يطالها الفساد والتي أقدمت تبعاً لذلك على التصدي للمافيا»^(٣٤) وبالطبع فقد تمسكت الكا. جي. بي، بشهادة حسن السلوك هذه المعطاة من جانب سجين سابق على يد أجهزة أمن الدولة وذلك لدعايتها الخاصة. غير أن تصريحات أندريه ساخاروف تبدو موضع شك، وذلك لسببين: فمن جهة ما من أحد بعد أجرى تحقيقاً حول نشاطات الكا. جي. بي، وأنه ما يزال مبكراً جداً البت في مدى نظافة اللجنة، وإن لم تكن قد طالها

الفساد. هذا ناهيك عن أن التجاوزات الهائلة التي ارتكبتها أجهزة السلطة لا تقل قدرة على الافساد عن حب المال والولوع بالذهب. ومن جهة أخرى، من الصعب تحويل الكا. جي. بي الى مناضل أسطوري ضد المافيا بعد أن رأينا أن ظهور الأفعى الرهيبة كان بالضبط في فترة تولي «المعلم» أندروبوف رئاسة اللجنة.

يكشف تبني كلمة مافيا فجأة، وكأنها تم ذلك بناء على اشارة معينة (ما من شك أنه قد أعطيت مثل هذه الاشارة)، ان المسألة في الأساس هي ذات طابع سياسي. من المؤكد أن مشكلة الجريمة، مشكلة الجريمة المنظمة موجودة هي أيضاً، كما وجدت من قبل، طوال عشرات السنين. ولكننا اليوم نملك أدلة كافية تثبت أن ها هنا صلة وثيقة جداً أو نوعاً من التواطؤ، كما يقول الخبراء بن الجريمة المنظمة وجهاز السلطة. «المافيا»، كلمة تم اختيارها بمهارة، فهي لا تتطلب أية ترجمة، وتثير مباشرة عدة تداعيات سينمائية وتلفزيونية، ولا تدل إلا على ما يزيد مطلقاً أن يحملها من دلالة، وهي تتمتع بفعالية عظيمة أكبر بما لا يقاس من تلك التي تحملها عبارة «جريمة منظمة» المغمة. وقد تحول هذا المصطلح الى سلاح جديد للصراع على السلطة، وأخذ مكانه في المعجم السياسي لعصر غورباتشوف الى جانب كلمتي «بريسترويكا» و «غلاسنوست».

«مافيا» - الكلمة قد أطلقت. وتم تعيين العدو باسمه. والقائد الذي حل مكان إدارة «عصر الركود» الفاسدة، يلعب الآن دور المنظف الأكبر لاصطبلات أوجياس البريخينية. والرجل الذي يقاتل المافيا يمكنه أن يعتمد على دعم الشعب. ويعتبر انتخاب غدليان وايفانوف، مثلاً مقنعاً في هذا المجال. وفي سياق اجراءات تثبيت الوزراء في مهامهم، طرح السوفييات الأعلى على فاديم باكاتين المرشح لمنصب وزير الداخلية: لماذا لا تتصدى الميليشيا للمافيا؟ وقد أجاب المرشح مرتاحاً، من على كرسيه الذي ترتج عليها سريعاً، وقد كان، على أي حال، يحتلها من قبل: «إنها تتصدى لها، وقد أنشئت وحدات خاصة ويمكننا تعداد الاوكار التي تمت تصفيتها» (٣٥).

ولم تتأخر عملية إعلام الصحافيين بالنجاحات الأولى: في موسكو سمحت عملية ناجحة تماماً بوضع اليد على ترسنة، إضافة الى بضائع بقيمة ١,٣٠٠,٠٠٠ روبل، (٣٦) شكلت «مكافحة المافيا» وسيلة لدك حصون منظمات السلطة المحلية التي

تم بناؤها طوال عشرات السنين، وذلك بإزالة بعض القطع المعزولة من الآلة - المفسدون من محاسب الادارة القديمة - دون تغيير فعلي في البنى، إضافة الى أنها تقدم برهاناً على فعالية المعركة التي تخاض من أجل «العدالة الاجتماعية». فهكذا عندما افتتح في موسكو معرض الثروات والكنوز التي ضبطها فريق غدليان في أوزبكستان نقل التلفاز الى كل بيت سوفياتي صور الطاولة التي تزرع تحت ثروة تقدر بشمانيه ملايين من الروبلات، فلا يشكّن أحدٌ: إنها مطاردة الأغنياء، انه إحقاق الحق وبسط العدل!

ونفهم في هذا الاطار المغازي التي تحملها ملحمة غدليان وايفانوف المدهشة، بوصفها قاضيين تحقيق استخدموا الطرق السوفياتية التقليدية، إلا أنها عرفا كيف يستفيدان من الوضع ويظهرا بصورة روبن هود الذي ينزل القصاص بأقوياء هذا العالم، ويحلم بتوزيع الثروة على الفقراء. إلا أن مدعي عام الاتحاد السوفياتي اكتشف في أفعالها «مخالفات شنيعة ضد الشرعية الاشتراكية». ولقد صدقت اللجنة الخاصة المنبثقة عن السوفيات الأعلى على هذه الاتهامات. واقترحت رفع الحصانة البرلمانية عن المتهمين وملاحقتهم أمام المحاكم. غير أن السوفيات الأعلى لم يتقيد، كما رأينا سابقاً، بقرار لجنته مفضلاً الاصغاء الى صوت الجماهير التي إحتشدت في الساحة الحمراء في نيسان ١٩٩٠ لتحيي بحماس إنجازات روبين هود.

وقد كتب رئيس تحرير أخبار موسكو (٣٧). «عندما يتعلق الأمر بالمافيا، يقتنع الناس بأي شيء، حتى الاشاعات الأشد غرابة. وهذا عملي جداً: لأن من يصدق أي شيء، يمكنه أن يطلق أي إشاعة. وها هنا اختصاصيون في هذا المجال. وهكذا في سياق وصفها «للبروغروم» (المذبحة) ضد الميشكيت في وادي فرغانا خلال صيف ١٩٨٩، أعادت الكازاخستان سكاي برافدا الى الأذهان عملية ترحيلهم سنة ١٩٤٤: «لقد أعد الاطار النفسي (لعملية الترحيل) بأسلوب يعتمد الخبرة والدقة والتبصر، إذ كان لدى NKVD خبراء في جميع الميادين قادرون على التحدي والاثارة بصورة مركبة تطال عدة مستويات، إضافة الى كونه أسلوباً صلباً على الأقل من خلال الاشاعات التي يثيرها، ويدعم بشيء من الحنكة، ثقة الناس ويستحوذ على قناعاتهم أكثر من أي صيغ رسمية» (٣٨) ولا شيء يسمح لنا بالاعتقاد أن ال. ك. جي. بي قد نسيت تقاليد ال. NKVD. ومهما يكن الأمر تسري الأقاويل كما يحلو لها، ويُشاع أن التعاونيات هي تنظيمات تابعة للمافيا. وأثناء «بريفينغ» (اجتماع التعليقات الصحافية) يهدف الى تقييم

مكافحة الجريمة في موسكو، أعلن الجنرال بوغدانوف أنه يوجد بين موظفي وزارة الداخلية من هم على درجة من «السفالة» تجعله يتعاون مع المجرمين. وقد لجأت الميليشيا الى حملة تنظيف واسعة: ففي الستة أشهر الأولى من عام ١٩٨٩، طرد ٩٨٠ عنصراً. ٦٠٠ منهم على الأقل تم تفرغهم في التعاونيات، وهو رقم يثير قلق الكثيرين»^(٣٩). وهنا الإشارة ولا أوضح: فاسدين مكشوفين يوضبهم حماة النظام في التعاونيات، بوصفها مصدر أغواء وإثراء غير مشروع، وبؤرة للظلم الاجتماعي.

لقد شحذ النظام السوفياتي سلاحه لمحاربة الخطر الداهم قبل أن يشتد عود الحركة التعاونية وقبل أن يتشكل السوق، الذي يرى فيه علماء الاقتصاد الداعمين للإصلاح، أمراً لا مفر منه. وتبعاً لذلك فإن خطر «الجريمة المنظمة» قائم. واقعاً، بذاته. وقد حدد بعض خبراء علم الجريمة بنية هذا النوع من الجرائم ورأوا فيها مستويات ثلاثة^(٤٠). يحكى الآن عن وجود ١٢٠٠ عصابة على الأقل، إضافة الى أنه يخشى أيضاً من أن يأخذ «العربون» حجماً يسمح لهم وإن بعد حين بتعاطي السياسة بفعالية^(٤١). ونفهم أن يكون هذا الأمر مقلقاً. ذلك أن المافيا هي، في الوقت الحاضر، المجموعة غير المشرعة الوحيدة التي تستطيع فعلياً التأثير على الدورة الحياتية في البلاد وقد تخوف الشيوعيون دائماً من التنظيمات السرية أكثر من أي شيء آخر.

والحال أنه حتى هذه اللحظة ورغم ما تبذله الأجهزة العدلية من جهود، لم يصّر بعد الى اكتشاف «معلمي» «الجريمة المنظمة» الحقيقيين. فتشوربانوف أو كبار الموظفين الآخرين الذين ينهبون الدولة ليسوا في أحسن الحالات إلا «خناجر من الصنف الثاني» أي انهم، وإذا ما رجعنا الى هرمية المافيا، لا يحتلون إلا الطابق الأول حيث «مجموعة الحماية» و «مجموعة الأمن». ويقدر الخبراء أن هناك روابط تنعقد بين عصابات المدن المختلفة وربما لينتق عنها تنظيم مركزي. إذن هنا خطر فعلي في أن يبرز حزب - قوي - ثاني. وهذا ما أشار إليه أحد الصحفيين حيث قال: «على أن لا تحل مكان فئة البيروقراط الشائخة فئة رجال العصابات، سلطة اللصوص» ثم أضاف: «وليس ما نقوله فرضية تقترب، كما قد يعتقد البعض، من المحال»^(٤٢). ومن السهل أن نتفق معه. إذ كيف يمكننا، رغم كل شيء، أن نحدد سلطة شخص مثل راشيدوف في أوزبكستان أو مثل كونيف في كازاخستان أو غريشين في موسكو؟ محاولاً تفسير «أحداث فرغانا» هذه المجازر الدامية، التي ذهب ضحيتها الأتراك - الميشكات الذين

يعيشون في كازاخستان، أشار قائد الوحدات الداخلية الى أنه «يوجد في هذه، ودون أدنى شك، مركز تنسيق إضافة الى تنظيم إجرامي قوي وجيد التمويل». أما قائد الادارة المحلية في الكا. جي. بي، فقد أعلن من جهته أن فرغانا شهدت عشية المجزرة قدوم «سلسلة من المجرمين الشديدي الخطورة في RSFSR» وكذلك يلحظ حراس النظام أن «أياً من زعماء العصابات لم يُصب حتى الآن بالارق»^(٤٣). وتوجه ضد المافيا أيضاً تهمة تنظيم المجازر في سومغيت (كراباخ - العليا)، وباكو، ومناطق أخرى في البلاد. وكقاعدة عامة تلتصق هذه الاضطرابات بالقيادة السابقة «الفاسدة» للحزب.

ويكاد يكشف الموقف من المافيا، نموذج «البريسترويكا»: بروز المصطلح، المقالات المثيرة في الصحافة، الفضائح التي غالباً ما تطال الافراد، أي كل ما يلزم من عناصر. ولقد باتت مسألة «المافيا» أساساً، وككل ما عداها من مسائل، بعداً من أبعاد الصراع السياسي. وتكشف طريقة مقارنة هذه المشكلة خاصة مهمة تتميز بها «البريسترويكا» وهي القدرة - كما في الجيوجيتسو - على تحويل الضعف الى قوة. أي على قلب الوضعية من خلال الدعاية. ما هو ملفت حقاً أن يقتصر الأمر على الكلام والاثارة، ونش فضائح الماضي. وهذا ما يؤكد اغور اياكوفليف حين يقول «ما تزال المافيا اليوم تمد أصابعها لتدخل في جميع شؤوننا الحياتية»^(٤٤). وهكذا بتنا اليوم لا نستطيع التفكير بالحياة السوفياتية دون استحضار الجريمة المنظمة كظاهرة لا تنفك عنها. وفي الحقيقة لكل بلد المافيا التي يستحقها. والمافيا السوفياتية تسمّن من خلال تلبيتها الحاجات التي يعجز النظام عن أشباعها.

وختاماً نقول بشيء من السخرية، محرقين قول الشاعر: الحزب والمافيا توأمان - مافيا سوفياتية وحزب شيوعي سوفياتي.

الجزء الخامس

بيضة كريستوف كولبوس حول الاصلاح السياسي

«كان الكسندر الاول ليعطي بإرادته الحرية للعالم أجمع، شرط ان
يقبلوا الخضوع لارادته وحدها».

آدم كزار توريجسكي .

«انتم مدعوون لتجديد حزب بال ومقرف بسبب ركوده»^(١).

فيودور دوستويفسكي (المسحورون)

إذا كان السؤال حول من هو الأول، الدجاجة أم البيضة، قد وجد حلاً له. فإن السؤال حول الخطوات الأولى المفترض إنجازها من أجل اصلاح نظام من النمط السوفييتي، يتوقف على اثاره النقاشات. بما نبدأ؟ فأمام غورباتشيف خيارات عديدة. فهناك عدة نماذج من «البريسترويكا» التي تم إختيارها أمام ناظريه. النموذج الصيني: بدأ دنغ تسيانغ بالاقتصاد، مضيفاً على نفسه صنعة المصلح، الليبرالي، الديموقراطي، محرراً بذلك حماس رجال السياسة ورجال الدولة الغربيين. وحدها بولونيا جييرك فضلت وصفة شعبية في الطب تعود لسنوات العشرين: طعم غدد القرد، التي تعطي للمسنين القوة الجنسية. فقد استبدل جييرك هذا الطعم وببساطة بعملية حقن للاقتصاد البولوني المتزعزع ببضعة مليارات من القروض. اما ورثته فقد اختاروا من أجل ترميم بعض الأسس السياسية: الاتفاق مع «التضامن» وذلك للتمكن من سحقها لاحقاً. أما هنغاريا كادار فقد وضعت كامل رهانها في الاصلاح الاقتصادي. فيما بالنسبة ليوغوسلافيا، صاحبة الباع الطويلة في التجريب: فلقد أنجزت تيتو اصلاحات اقتصادية وسياسية في الوقت نفسه. ثم أخيراً وليس آخراً كما يقول الانكليز، هناك رومانيا. فقد استخدم تشاوشيسكو وصفة المرأة السحرية، التي تظهره أمام الغرب بهيئة رجل الدولة المستقل، والمشغول أساساً بسيادة بلده.

وكان بإستطاعة غورباتشيف أن يرى نتائج هذه التجارب في «المختبر». كتب غوركي في ١٠ كانون الأول ١٩١٧، في «افكار في غير زمنها» قائلاً: «ينظر مفوضو الشعب الى روسيا كما لو انها مادة اختبار، فالشعب الروسي بالنسبة لهم هو ذلك الحصان الذي يلحقه علماء البكتريا بمرض التيفوس بهدف ان ينتج دمه مصل مضاد للتيفوس. هذه هي بالضبط التجربة القاتلة وغير المؤهلة الا للفشل، التي يطبقها المفوضون على الشعب الروسي، دون التفكير بأن هذا الحصان المسكين، المنهك، ويضيف الجائع، يمكن ان يتفق»^(٢). واليوم وبعد سبعين عاماً، فإنه ثلث البشرية لعب دور الحيوان المخبري. ان حقل الرؤية قد اتسع كثيراً.

في كل مكان، كانت النتائج غير مشجعة. فما ان يبدأ الاقتصاد بالحركة، واعطاء

بعض الثمار، حتى يظهر ان العلاقات الاجتماعية مسمومة، وأن «القطار» عند حد معين يتوقف من جديد . وإنه والحالة هذه، لم يبق الا الرجوع الى طريقة «بكين»، أو الاعتراف بضرورة اجراء اصلاح سياسي على الطريقة البولونية أو الهنغارية. كذلك بإمكاننا ان نستنتج انه من الأفضل اجراء اصلاحات، ولكن دون المس بالنموذج الستاليني المثالي، وعلى ضوء وجهة النظر هذه، فإن الصين تقدم درساً رائعاً. فخلال عشر سنوات، كان بنغ حبيب الجميع، لؤلؤة الاصلاحيين، والديموقراطيين، والليبراليين، ولكن عندما وجد ان سلطته مهددة، بعد عشر سنوات من الاصلاحات، أعاد الصين وبضربة واحدة الى زمن ما قبل الاصلاح. ففي المقابلة الاولى التي أجريت مع الصحافة السوفياتية، بعد إعلان حالة الطوارئ في الصين، أعلن أحد مسؤولي فدرالية النقابات الصينية ما يلي: «يرى عمالنا وبوضوح، أولاً، اننا لسنا بحاجة للديموقراطية على الطريقة الغربية، وثانياً، ان الديموقراطية يجب ان يحميها القانون» (٣).

في ضوء ما تقدم، بإستطاعة ميخائيل غورباتشوف، استلهم التجربة السوفياتية التاريخية، فيعرف من احتياطي الصفات الهائل من أجل معالجة الأمراض الدورية التي تصاب بها الدولة السوفياتية، ويبحث عن الأدوية المجربة، والمستخدمة من قبل لينين وستالين في حالات الأزمات الخطيرة. لقد اعتاد، اسلاف السكرتير السابع، اللجوء الى الاجراءات السياسية في المقام الأول. مما لا شك فيه، بالنسبة لغورباتشوف انه لا بد من البدء من الاصلاح السياسي. فمن جهة، يتيح له ذلك الوصول الى ما هو اساسي: الامسك بالسلطة. ومن جهة ثانية، لأنه لا توجد في النظام السوفياتي الا المشاكل السياسية. السياسة هي كل شيء، وكل شيء هو سياسة. وأخيراً، لانه في ذهن الامين العام الجديد ومحازبيه، ان الأزمة الخطيرة التي تمر بها الدولة منذ أواخر السبعينات هي قبل أي شيء أزمة سياسية.

لقد بلغت التوتاليتارية مرحلة النضج. وفي الاتحاد السوفياتي، ما من احد يساوره الشك حول صحة هذا التشخيص: الجميع يعطون، انهم يعيشون في ظل دولة توتاليتارية. وعندما تسنح الظروف، فإن ذلك يعلن بشكل رسمي. يقبل البروفسور ماسلوف، الذي يرأس كرسي تاريخ الحزب في أكاديمية العلوم الاجتماعية، والمقرب من

اللجنة المركزية للحزب، بوجود «نوع من التوازي التاريخي بين الاشتراكية والفاشية حول سلسلة من النقاط».

ويقارن بين ألمانيا هتلر، واتحاد سوفيات ستالين^(٤). ويكتب الأكاديمي زخاروف قائلاً: «إن المغامرة الأفغانية تجسد، بمعنى ما، كل الخطر الناجم عن لا عقلانية المجتمع التوتاليتاري المغلق»^(٥). باختصار، هناك نقطة مشتركة بين الجميع: من ستالين إلى بريجنيف، لقد عرف السوفييات التوتاليتارية.

إن التعريفات الكلاسيكية للتوتاليتارية، والتي صاغها حنا أرندت وكارل فريدريك، وزبغنيو بريجنسكي وآخرون، هي محصلة لدراسة ما يمكن تسميته بـ «شباب» النظام التوتاليتاري. أي السنوات التي تسعى أبانها السلطة إلى بناء «رقابة مطلقة (شاملة) على كافة أوجه الحياة»^(٦)، أو عصر الرعب الشامل، والخوف الشامل، وسطوة القائد الشاملة.

ليست الأزمة إلا محصلة لنجاح النظام التوتاليتاري. تروج في موسكو كلمة «ما فوق التنظيم». وهي تعني التنظيم الذي يقارب العبث. في عام ١٩٨٩، اكتشف بعض أطباء القلب أن القلب الذي ينبض بانتظام كامل، لا يؤثر إلى وضع صحي سليم بالضرورة. فهذه الحالة تشير إلى خطر الموت الفجائي، فأهل العلم يدركون بأن القلب، كباقي الأعضاء والأنظمة الفيزيولوجية، بما في ذلك الدماغ، هي عرضة لبعض الفوضى. وكما نستعيد تعبير آري غولدبرغ: «القلب السليم يرقص، والعضو الذي يموت يكتفي بالمشي»^(٧).

تتموضع المعارضة الرئيسة للشيوعية بين ردة الفعل العفوية والبدائية وردة الفعل الواعية، بين التنظيم والفوضى. وتعطي دائرة المعارف السوفياتية تعريفاً شاملاً: «إن تعبير القوة البدائية والعفوية، في مجال الظواهر الاجتماعية، يدل على الحركة الاجتماعية التي لا تخضع لتوجيه مركز أو لفعل توجيهي من أية نظرية؛ ويقصد من كلمة وعي، الفعل القائد الذي تمارسه نظرية الطبقة على حركة اجتماعية ما (نظرية الماركسية بالنسبة للطبقة العاملة)»^(٨).

تكمن عبقرية لينين في بنائه للحزب، الذي رأى فيه مركزاً موجهاً، «يجعل النضال العفوي للبروليتاريا واعياً». يتمثل ما هو أساسي في عمل لينين قبل الثورة، في محاربته

«للقوى البدائية» لصالح «التنظيم». وانقلاب أكتوبر هو في الوقت نفسه إنتصار التنظيم - حزب البلاشفة والطرف غير المنضبط - إنتفاضة المويك ضد السلطة. ان حذاقة البلاشفة في استخدام القوى الأولية لصالحهم وضبطها، كان من الضمانات الأساسية لأنصارهم عندما واجهوا استحقاق الحرب الأهلية. أما بعد الانتصار، فقد بادر لينين لتأسيس دولة قوية ومركزية. ولكنه لم يتمكن إلا من ارساء قواعد النظام المقبل. ثم تعهدت السنوات الستالينية بإستكمال الدولة، التجسيد الكامل للتنظيم.

يلحظ ميخائيل غورباتشوف، في معرض حديثه عن اصلاحه السياسي الوتيرة المتسارعة منذ بداية الثلاثينات، «لنظام الادارة والضبط» (والمقبول ان التعبيرين يرادفان مجتمعين، التوتاليتارية)؛ ويضيف ان هذا النظام «لم يستطع ان يشل الطاقة الشعبية بشكل كامل»، فهذه الطاقة، وعلى حساب النظام، حولت البلد «الى إحدى دول العالم الأكثر نمواً والأكثر تأثيراً، كما سمحت بالانتصار في الحرب الأكثر ضراوة التي عرفتها البشرية»^(٩). يقبل الامين العام اذاً بوجود «الطاقة الشعبية»، وبتعبير آخر القوة البدائية، هذا من جهة، وبالمقابل هناك النظام، وبتعبير آخر، التنظيم. مستهينة بالتاريخ، استطاعت هذه الطاقة ان تعمل رغماً عن التنظيم. ولكن الأمور في الواقع تبدو مختلفة قليلاً. ففي العهد الستاليني، عرف التنظيم كيف يخضع هذه الطاقة، ويحرك كافة الجهود، دون النظر الى عدد الضحايا، من أجل إنجاز المشاريع الكبرى، ثم من أجل الحرب. فالانتصارات التي حصلت كانت بسبب النظام. وعملية التنظيم إخترت كافة خلايا الدولة والمجتمع، وقادتها وفق مشيئتها، مجبرة إياها على انجاز كل ما تراه ضرورياً لبناء قوة النظام.

ان الاتجاه الطبيعي للنظام الاجتماعي، كما في الفيزياء، يفترض قانون قصور الطاقة، والانتظام المتصاعد. اذ كلما ازداد المجتمع تنظيمياً، كلما إحتاج الى مزيد من الطاقة الاجتماعية من أجل تماسك الانتظام، ومن أجل الحصول على هذه الطاقة الاجتماعية تبرز الحاجة الى مزيد من الانتظام. وفي النظام التوتاليتاري، يرمي كل مكون وكل خلية الى إعادة انتاج النظام بمجمله، أي السلطة الشاملة. ولكن الطاقة الاجتماعية المستخدمة من اجل إحكام الانتظام داخل الخلية، لا تصل الى المركز. ففي سنوات «الركود البريجينيافي»، كانت «الخلايا»، الوزراء، الامناء العامون للجمهوريات، أمناء لجان الأقاليم والمقاطعات، تضاعف من سلطتها. وبموازاة ذلك، كانت تتم

عملية مركزة للقيادة وإنحسار في مراقبة الاقطاعات. لقد استطاع بريجنيف، بقرار منفرد، ان يرسل الجيش السوفييتي الى افغانستان، ولكنه لم يكن يملك من السلطة ما يكفي لإجبار سكرتير محلي او وزير على تطبيق إحدى توجيهات المكتب السياسي. ان التوتاليتارية الناضجة تفضي الى اضعاف السلطة المركزية. فيصبح النظام اشبه بالدينا صور: فإندفاعات المركز يصعب عليها وبشكل متزايد زعزعة أعضاء الوحش القوية. وعت موسكو هذا الميل للـ«دنصرة» (من ديناصور)، منذ وقت قريب. ويمكننا ان نستشف من بعض تصريحات ستالين، أنه قد فهم في آخر حياته، بأنه لم يتوصل الى تنظيم كل شيء. هذا الشعور يفسر دون شك وبشكل جزئي بأنه قد حضر لحظة جديدة من «الرعب الكبير». فهو يعلم بالتجربة أن حمام دم جديد وحده يصلح لاطلاق شعلة من الطاقة الاجتماعية. فهم ورثة ستالين في هذا الوضع، لذا سعوا للبحث عن طريقة لقيادة النظام الستاليني دون ستالين. ويذكر عالم السياسة فيودور بورلاتسكي، ان مالنكوف الذي كان بعد موت ستالين رئيساً للوزراء، قد طالب في إحدى خطبه الأولى، امام اجتماع لموظفي الحزب والدولة، بمضاعفة النضال ضد البيروقراطية حتى بلوغ مرحلة «مقوطةا الكامل». كما اثار مالنكوف، الذي استطاع لوقت قصير ان يكون وريث ستالين، مسألة «اهتراء الحلقات المعزولة في جهاز الدولة»، و«غياب رقابة الحزب لبعض الأجهزة الرسمية»، و«حالة الابتزاز والفساد الاخلاقي الذي أصاب الشيوعيين»^(١٠). كما يسرد بورلاتسكي عدة وقائع تدور حول البحث عن أشكال جديدة للقيادة، تمت في سلسلة من شعب اللجنة المركزية، تحت اشراف بعض المنظرين مثال أوتوكيوسنين ويوري اندرويوف (الذي عمل مع جهاز اللجنة المركزية بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٧). فعلى سبيل المثال، تم الاقرار بأن دكتاتورية البروليتاريا قد لعبت دورها وبأن «دولة الشعب بأكمله» قد ولدت. ويضيف بورلاتسكي قائلاً: «في ذلك العصر كان النقاش دائراً حول مشروع برنامج للحزب، الأمر الذي أثار شكوك (اندرويوف) من أن يتم تبني مبدأ دولة الشعب بأكمله. وعلى الأخص، التوصل الى استنتاجات عملية من أجل تطوير الديمقراطية»^(١١).

في كانون الاول ١٩٦١، أقدم أناتولي غولتسين، عميل K.G.B. المقيم في هلسنكي، على طلب اللجوء الى السفارة الاميركية. ان تاريخ الرجل سوف يلهم كتاب روايات التجسس، ويعتمد كأساس لفيلم أخرجه هيتشكوك تحت عنوان «توباز».

حمل أناتولي غولتسين معه معلومات قيمة حول نشاط عملاء السوفييات السريين في الغرب. وكان من الممكن اعتباره مجرد عميل اضافي فر الى العدو، لو لم يكشف عن وجود خطة إستراتيجية لتشويه المعلومات، وضعت في موسكو في أواخر الخمسينات. وكان قد تم تصورها بشكل سري ضمن اطار اللجنة المركزية والـ K.G.B. في كانون الاول ١٩٥٨، واستهدفت الخطة تغيير صورة الاتحاد السوفياتي في الغرب، عن طريق بعض المظاهر «الليبرالية» المختلفة. على أن يتم تنفيذ الخطة خلال عدة عشرات من السنين.

ان فكرة وجود خطة سرية، أو مؤامرة تستهدف السيطرة على العالم، لازمت الانسانية منذ وقت بعيد، فالكل سمع عن «مؤامرات السحرة»، الذين يعملون بإشراف الشيطان، و«حكماء صهيون»، والماسونيين، واليسوعيين، الخ. . وعندما تكلم غولتسين عن «خطة شيليين»، أثار الانتباه الى النموذج الذي أوحى بهذه الخطة: ان مخطط تشويه المعلومات الاستراتيجي وضع فعلياً عام ١٩٢١. فحتى عام ١٩٢٧، كانت الـ «فتشيكأ أوغيبو» تقود منظمة «معادية للسوفييات» خلقتها هي بنفسها وتحمل الاسم الرمزي «تروست». وخلال سبعة اعوام استطاع البوليس السياسي السوفياتي شرذمة المهاجرين الروس واسدال ستار من الدخان حول الاتحاد السوفياتي، يحجب نظر التجسس الغربي المضاد.

ان كلمة «خطة» من كلمة «تخطيط»، وهما كلمتان مرادفتان للنظام السوفياتي. ولا مبرر للدهشة عندما نعلم ان البرامج السياسية وأعمال التحريض هي ايضاً موضوع «خطة». فقد روت الصحف السوفياتية في أيلول ١٩٨٨، نجاح عملية «بومرنغ»، التي استهدفت محاربة منظمة أوكرانية وطنية خلال عشرين عاماً^(١٢). ان ضمانة الانتصار النهائي تسمح بعدم الارتباط بمواعيد محددة وقصيرة. بل بناء خطط استراتيجية تغطي عشرات السنين. ففائدة المعلومات التي حملها أناتولي غولتسين، لا تكمن في كشفه لـ «خطة شيليين» بل للأفكار التي كانت في أساسها.

في عام ١٩٦٨، كتب غولتسين مؤلفاً لم ينشر الا في عام ١٩٨٤. وفي بعض الفصول الاضافية التي حلل فيها الاحداث التي وقعت لاحقاً (بعد عام ١٩٦٨)، يزداد المؤلف ثقة بأنه يستخدم المنهجية السليمة في دراسته للاستراتيجية الشيوعية. ان اقوال

ضابط الـ K.G.B. القديم حول الأفكار المصطنعة في أواخر الخمسينات تستحضر أقوال بورلاتسكي، الذي كان يشارك في صياغة البرنامج السياسي الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي. هذه الأقوال التي تؤكد العمل على خلق تصور لـ «دولة الشعب بأكمله». ويعلن نيكيتا خروتشوف نهاية التجارب النووية. وتعرض الحكومة السوفياتية في الجمعية العامة للأمم المتحدة مشروع نزع السلاح الشامل، كذلك الدعوة إلى عقد مؤتمر عالمي حول التجارة. وتكتب صحيفة (النجم الأحمر- صحيفة الجيش) بأن الحرب «لم تعد وسيلة إجبارية للنضال الاقتصادي، والسياسي، والايديولوجي» (١٣). كما تم التشريع لجعل الثقافة أكثر ليبرالية، إنه عصر «ذوبان الجليد». كما أن أجهزة الأمن بدأت تولي اهتماماً متزايداً بالعمل التربوي، «موسعة بذلك نشاطها الوقائي» (١٤).

من الواضح أن الرغبة في جعل البنية أكثر مرونة، والتخفيف من تصلب التنظيم، تستهدف جعلها أكثر كفاءة في مواجهة القوى البدائية. كذلك الأمر بالنسبة للتأكيد على ضرورة استبدال الوحدة الجامدة، بنظام ديناميكي يتسع لتعدد وجهات النظر وللمواقف التي لا يجب بالضرورة أن تكون متشابهة حول كل المواضيع المطروحة، بل يكفي فقط أن تستند إلى مبادئ الماركسية اللينينية بشكل كامل.

أن حقيقة الخطط يمكن التأكد منها عند إنجازها، فقد كتب أناتولي غولتسين قبل موت بريجنيف قائلاً: «أن تكثيف السياسة القاسية، التي نرى أمثلة عنها في توقيف زخاروف واحتلال أفغانستان، ما هي إلا تباشير للإعلان عن تحول نحو سياسة «الديمقراطية»، التي من الممكن أن تتبع غياب بريجنيف عن حلبة السياسة... فهكذا سوف تتم ادانة النظام البريجنيفي وأعماله الستالينية الجديدة ضد «المنشقين»، وفي أفغانستان، وكذلك كما حصل في عام ١٩٦٨، مع نظام نوفوتني. كما أن المجال الاقتصادي سيشهد إصلاحات تهدف إلى تقريب الممارسة السوفياتية من النموذج اليوغوسلافي، أو من النماذج الاشتراكية الغربية، كما ستجري تصفية بعض الوزارات الاقتصادية: الرقابة تتجه نحو اللامركزية؛ والعديد من المصانع والفبارك قد يتم تحويلها إلى مشاريع خاصة قائمة على التمويل الذاتي؛ كما سيعطى التكنوقراط مزيداً من الاستقلالية، ويتم انشاء مجالس عمالية ونقابات؛ وأخيراً فإن رقابة الحزب على الاقتصاد سوف تقلص - ظاهرياً» (١٥).

بإمكان غولتسين ان يطلق نبوءته بثقة ، باعتبار ان كافة «الاصلاحات» الاقتصادية التي يذكرها تتركز الى التجربة السوفياتية في سنوات العشرين والتجربة اليوغوسلافية . كما يتنبأ أناتولي غولتسين بالتوجهات الكبرى للـ «إصلاحات» السياسية : فعملية تحقيق الليبرالية سوف تتخذ طابعاً مشهدياً ، مثيراً . وسيصبح بالامكان اعلان التصريحات الشكلية الداعية للحد من دور الحزب ؛ فإحتكاره سوف يتقلص - ظاهرياً ؛ كما سيتم العمل الجاد على فصل السلطات - التشريعية ، التنفيذية ، والقضائية . مما يتيح لمجلس السوفيات الأعلى الحصول على سلطة متزايدة ، فالرئيس والنواب سيتمتعون بإستقلالية كبيرة ولو مشوهة . كما انه سيصبح بالامكان فصل صلاحيات رئيس الاتحاد السوفياتي عن صلاحيات الامين العام . وجهاز الـ K.G.B. سوف يتم «اصلاحه» . والمنشقون في الداخل سيتم العفو عنهم ؛ أما المهاجرين فإستطاعتهم العودة ، أضف الى ذلك ان البعض منهم سيتبوأون مناصب هامة . ومن الممكن ، بشكل او بآخر ربط زخاروف بالسلطة ، أو السماح له بالتعليم في الخارج . كذلك فإن التنظيمات العلمية ، والثقافية ، والإبداعية ، مثال إتحاد الكتاب أو أكاديمية العلوم سوف تحوز على إستقلال واسع ؛ وهذا الوضع ينطبق ايضاً على النقابات . اما من هم «غير حزيين» فيامكانهم تأسيس الجمعيات السياسية . كذلك الامر بالنسبة لكبار المنشقين اذ بإستطاعتهم تأسيس أحزاب بديلة . اما الرقابة فسوف تنحسر ؛ فالكتب ، والمطبوعات ، والافلام ، والاعمال الفنية المعارضة ، سوف يتم نشرها ، أو تمثيلها ، أو عرضها في المعارض وعلى الشاشات . كما أنه سيكون بإمكان العديد من الفنانين السوفيات المقيمين في الغرب ، العودة الى الاتحاد السوفياتي ومتابعة أعمالهم . وسيشهد الدستور بعض التعديلات ، بما يؤمن احترام اتفاقيات هلسنكي . . . وتقديم تسهيلات السفر للمواطنين السوفيات الذين يودون الذهاب الى الخارج . وأخيراً سوف يُدعى مراقبون غربيون ومن الأمم المتحدة ليشهدوا بأنفسهم الاصلاحات الجارية مع الاتحاد السوفياتي»^(١٦) .

لا يتوقف المراقبون الغربيون من رجال دولة ، سياسيون ، معلقون ، عن الترداد : ان اي شخص لم يكن يتوقع سعة الـ «بريسترويكا» الغورباتشيفية ، كما ان أي مختص بشؤون السوفيات لم يكن ليحلم ولو للحظة بإمكانية ما يحصل ، فالجميع لم يكن متأهباً لذلك . ان المشروع الذي أشار إليه غولتسين ، يذكر حتى تفاصيل مشروع

غورباتشيفوف. في العلم ان كتاب أناتولي غولتسين قد نشر في بداية عام ١٩٨٤، وأن ما هو أساسي قد كتب في مرحلة سابقة. وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب يسجل الكاتب انتخاب اندروپوف لمنصب الامين العام ويعلق قائلاً: «لا يمكننا ان نستبعد احتمال ان يلجأ مؤتمر الحزب المقبل، أو حتى قبل ذلك، الى استبدال اندروپوف بقائد شاب يتمتع بصورة أكثر ليبرالية، ويتابع بحماس أكبر، ما يسميه بعملية اللبرلة» (١٧). اما اليوم فإن اسم هذا «القائد الشاب» لم يعد خافياً على أحد.

يدفع أناتولي غولتسين النتائج المنطقية لوجود «خطة» الى حدود تستدعي الرغبة في معارضته. فهو يضمن «الخطة» كافة الاحداث التي جرت خلال السنوات العشر من الماضية، ويفسرها بالعودة الى الخطة. وما يثير الدهشة، قراءة ملخص أرشيف تاريخ نقابة «التضامن»: «بإمكاننا اعتبار تأسيس حركة «التضامن» ومرحلة نشاطها الأول كנקابة، بمثابة المرحلة التجريبية الأولى لـ «تجديد» بولونيا. أما تسمية جاروزلسكي، وعلان حالة الطوارئ، وحل «التضامن»، فإنه يشكل المرحلة الثانية، بهدف التحكم الكامل بالحركة وتثبيت مرحلة من التماسك السياسي. وفي المرحلة الثالثة بإمكاننا ان نتوقع تشكيل حكومة إئتلافية، تضم ممثلين عن الحزب الشيوعي، وحركة «التضامن» بعد إحيائها، والكنيسة» (١٨).

عندما كتب أناتولي غولتسين، عام ١٩٨٣، : «الاستراتيجيون الشيوعيون يخططون لعودة «التضامن» وتشكيل حكومة اشتراكية ديمقراطية في بولونيا» (١٩)، لم يكن بمستطاعه ان يعلم برسالة وجهها الصحافي البولوني جيرزي أوربان، في ٣ كانون الثاني ١٩٨١، الى السكرتير الأول للحزب آنذاك ستانسلاو كانيا. هل كان هذا الصحافي مطلعاً على «خطة شيليين»؟ من الصعب الاجابة على هذا السؤال. اياً يكمن الأمر، اقترح أوربان جواباً على السؤال الذي كان يُنْغَصْ آنذاك الحزب البولوني: ما العمل؟ اذ يكتب أوربان مؤكداً على ضرورة القبول بتشكيل حكومة إئتلافية، تضم عناصر كاثوليكية وقيادات معتدلة من «التضامن». ويشرح جيرزي أوربان معنى هذه الخطوة الجريئة قائلاً: «انني شخصياً شديد العداء للكاثوليك، ولبرنامجهم، وافكارهم. وعقليتهم؛ ولكن، مهما بدا ذلك مفارقاً، فإني أرى في اقامة حكومة ائتلافية الفرصة الافضل لاعادة تأكيد أهمية وقوة الحزب العمالي الالباني، هذا الحزب الذي عليه ان يغير برنامجه ويتبنى أسلوب عمل آخر» (٢٠).

يرى أناتولي غولتسين في «خطة شيليين» برنامجاً لتشويه المعلومات. في حين أن جيرزي أوربان، يعرض خطته، بإعتبارها الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من حالة الفوضى التي غرقت فيها بسبب ضعف الحزب. ويؤكد على المخاطر التي يتضمنها إقتراحه ولكنه يقدر بأنه في حالة المرض القاتل لا بد من اللجوء الى الجراحة، حتى لو كانت فرص النجاح لا تتجاوز نسبة ١٥٪. (٢١). تتقاطع الخطتان اذن، حول نقطة مشتركة: الرغبة في إستخدام قوى «الفوضى»، أو القوى البدائية، من أجل تقوية التنظيم، ويشرح الجنرال أيون باسسيا، الذي أدار لسنين طويلة الأجهزة السرية في رومانيا، بالتفصيل «خطة تشاوشيسكو»، ذات التسمية الجميلة «آفاق حمراء» (٢٢) لقد عرفت «عبقريه الكاربات» باستخدامها الحاذق للهجرة، كيف تعطي للعالم الخارجي صورة من رومانيا - احدى الدول الاشد قمعاً - الفخورة، والمستقلة، والسيدة، والتي يرأسها قائد عاقل ومحبوب شعبياً.

مهما كانت درجة جودة الخطة وجبكتها، فإن ذلك لا يشكل ضماناً كافية لنجاحها. والاقتصاد السوفياتي خير شاهد على ذلك. اذ لا بد من متقد متميز. «ويستتج الماركسي فيودور بورلاتسكي قائلاً: مهما قيل، فإن أية صيرورة تاريخية تفترض بداية وجود شخصية، وإرادة سياسية قوية، والقدرة على ممارسة تأثير حاسم وسط الجماهير. ففي هذه الحالة فقط يصبح النجاح مؤكداً» (٢٣). ويكتب جيرزي أوربان للسكرتير الأول قائلاً: «بكل أسف، نحتاج بولونيا، في الوضع المأساوي الراهن، الى زعيم ملهم، لأننا لا نملك ما يكفي من الثقافة السياسية، ولا من الوقت، كي نتزع عن القيادة القوية الطابع الشخصي، بهدف البناء عبر وسائل أكثر ديمقراطية ونبلاً» (٢٤). يستبدل أوربان تعبير «التأثير السحري» لبورلاتسكي بتعبير يستعيره من ماكس فير، ولكن الاثنان يرميان الى الشيء نفسه: ضرورة الزعيم بالنسبة لبورلاتسكي. كان اندرويوف يجيد المثال، ولكنه يقبل دون صعوبة الامين العام الجديد، لأنه وكما يقول أوربان: بإستطاعة أي أمين عام جديد ان يصبح زعيماً ملهماً، ولكن بشرط واحد: ان يكون المبادر والمحدث لتغير مثير، ومن اجل تحقيق ذلك، عليه ان يتوجه للشعب.

كل هذا، كان مكيا فيلي يدركه كاملاً. بل انه كان أول من صاغ هذه الافكار، وبطريقة ما كان لينين يعرف جيداً الفلورنسي، الذي وصفه بإعتباره «كاتباً فظناً

بقضايا الدولة». كما ان ستالين قد قرأ كتاباته واعاد قراءتها دون توقف . فكتاب الأمير الذي نشر في روسيا عام ١٩٦٨ ، أعيد طبعه في موسكو عام ١٩٣٤ . وأثناء محاكمات ١٩٣٦ ، أقدم وكيل النيابة فيشنسكي على إتهام كامنيف «بالمكافلية» السياسية ، بحجة أن هذا الأخير نشر كتاب الأمير إبان إشرافه على دار النشر.

يرى مكيا فيلي بأن كل شخص يرغب في الحصول على شيء جديد ، يجب ان يسأل نفسه بداية ، ما إذا كان يعتمد على الصلوات أم على القوة . في الحالة الأولى ، ستهي محاولته بالفشل المحتم ، ولن يصل إلى أية نتيجة ، وبالمقابل ، اذا لم يعتمد إلا على نفسه مستخدماً الأسلحة ، فإن احتمال الفشل يتضائل . ويصوغ الفلورنسي الحكمة التالية والتي لا تحتاج اليوم إلى برهان : «الانبياء المسلّحون إستطاعوا دائماً الانتصار ، اما غير المسلّحين فمنيوا دائماً بالهزيمة» (٢٥).

أن اي فرد ملهم ، يطمح إلى السلطة في النظام السوفياتي ، لن يعتبر إختيار الأسلحة مشكلة بالنسبة له . ففي مطلع القرن العشرين ، توصل لينين إلى تحقيق اكتشاف ثقيـل النتائج : أعطوني حزب من الثوريين المتهنين ، وسأقلب روسيا رأساً على عقب . وبعد انقلاب أكتوبر ، أصبح لينين مقتنعاً بقدرته على قلب العالم .

إذاً تلخص كل المشكلة في تحويل الحزب إلى سلاح طيع بيد القائد . لقد صهر لينين سلاحه بعناد ، عندما كان الحزب يعمل في الخفاء ؛ واستمر بشحذه وإحتضانه بعد إستلام السلطة . وكان على ستالين ، ان يبدأ من الصفر . كذلك الامر بالنسبة للأمناء العامين الذين خلفوه . ففي خلال السعي لتقل مركز السلطة ، علينا ان نبحث عن سلاح جديد . فقد قرأ رأي غوركي مالينكوف ، أحد ورثة ستالين المعروفين ، على ان يحتفظ لنفسه بمنصب الوزير الأول ، بإعتباره الأكثر اهمية ، تاركاً لينيكيتا خروتشوف سكرتارية اللجنة المركزية . في حين كان بيريا يراهن على اجهزة الامن ، التي رأى فيها سلاحاً فعالاً في سبيل الوصول للسلطة . في حزيران ١٩٥٧ ، وإبان انعقاد جلسة مكتملة للجنة المركزية من أجل مناقشة الاقتراح القاضي بإقالة خروتشوف ، أقدم الجنرال جوكوف على رمي سلاحه في الميزان ، معلناً دعم الجيش للسكرتير الاول ، واستحالة تحريك عربة واحدة دون أمر منه ، وعندما تيقن خروتشوف من انتصاره ، أقدم اثناء الجلسة المنعقدة على إحالة جوكوف على التقاعد .

في عام ١٩٥٣ ، وبعد مظاهرات عمال برلين في حزيران، عبرت حكومة المانيا الديمقراطية عن إستيائها من الشعب. فنصح برتولد برخت في قصيدة ساخرة، الحكومة بحل الشعب واختيار غيره. ويحفل التاريخ السوفياتي بالعديد من أمثلة «الحل»، التي يقدم عليها رئيس الحزب او الـ K.G.B. او الجيش. بالمقابل، لم يحصل ذلك للحزب ابداً. ولكن الحزب لم يحافظ على تماسكه إلا بقوة التصفيات والجروح الدامية في صفوفه.

كان ميخائيل غورباتشوف يدرك هذا الأمر بشكل كامل، عندما تسلم مسؤولية الامين العام. وهو قد أختار طريق الاصلاح السياسي، أي الطريق التي توصله الى السلطة المطلقة. إنها هوة لا بد من تجاوزها بنظر الامين العام. وفي سبيل ذلك، لم يرتكب أي خطأ، فقد وظف كافة جهوده من اجل التحضير للقفزة الكبرى. فهو يعرف ان ماتبقى من الطريق سوف يأتي لاحقاً. يرى مكيفيلي ان الطبيعة البشرية سريعة التقلب. فمن السهل ان نقنع الناس، ولكن من الصعب ان يحافظوا على هذه القناعة. لذا يصبح من المفيد إيجاد نوع من النظام، يتيح لنا، في حالة توقفهم عن الاعتقاد، إجبارهم بالقوة على الاعتقاد من جديد (٢٦).

اعلن غورباتشوف في جلسة للجنة المركزية عقدت في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٧ : «اننا لا نملك وسيلة مضمونة إلا الحزب» (٢٧). وهو عندما يتفوه بكلمة «نحن» فإنه يفكر بكلمة «أنا». فالحزب هو الوسيلة التي يجب ان تتيح إنجاز الـ «بريسترويكا»، ولكن بشرط ان يكون سلاحاً مضموناً بيد القائد. قدر عدد اعضاء الحزب ، في صيف ١٩٨٩ ، بعشرين مليون عضو تقريباً. وعلى غرار كل جيوش العالم، فإن للحزب قيادته الحزبية، أي «جسم الكوادر» كما تحلو التسمية لغورباتشوف. ولا يعرف عديد هذا الجسم، مع العلم ان السؤال حول ضرورة تقليص هذا العديد داخل جهاز الحزب يطرح بالحاح. كما لا نعلم ايضاً ما اذا كان «جسم الكوادر» يدخل ضمن جيش البيروقراط، الذين يصل عددهم وفقاً للاحصاءات الرسمية الى حدود ١٨ مليوناً.

ان مشكلة العلاقات بين الحزب وجهازه تطرح منذ ولادة «تنظيم الثوريين المحترفين». وفي عصر الـ «غلاسنوست»، يرمى كل ما هو سيء على ستالين. فهو يتهم بأنه «ما ان أمن السلطة المطلقة للجان الحزب ولجهازها، حتى دفع الجهاز

للاصطدام بجماهير الحزب». ويكتب احد موظفي الجهاز المركزي للحزب ان ستالين، ومنذ بداية العشرينات، قام بضربة مميتة للفكرة اللينينة المتعلقة بالمبادئ الاجتماعية في بناء الحزب، تاركاً للجهاز «مقاليد السلطة»^(٢٨). هذا التأكيد، ليس الا اسطورة جديدة حلت مكان القديمة: الا نقول دائماً بأن ستالين قد استوحى نظرية لينين وممارسته. ان الأساس الذي بنى عليه لينين حزبه ذا الطراز الجديد - المركزية الديمقراطية - هو الذي اعطى لستالين كافة العناصر اللازمة لبناء سلطته المطلقة وبناء الدولة التوتاليتارية. فالمركزية الديمقراطية - وهي إحدى التعبيرات الأكثر بعداً عن الحقيقة في القاموس السياسي للقرن العشرين - تبقى المبدأ الرئيس «لثورة» غورباتشوف.

يجب ان نكون عادلين: هنا على الاقل لم يغير رأيه. عام ١٩٧٥، كان الامين الأول لمنطقة ستافروبول صريحاً بقوله: «إن النظام والتنظيم من الامور الملازمة للديمقراطية الاشتراكية، كذلك الامر بالنسبة لضرورة وجود قيادة دولة مركزية على مستوى الامة ككل، دون ذلك لا يستطيع النسق ان يعمل بشكل طبيعي»^(٢٩). وبعد اثني عشر عاماً، أي ستين من انتخابه، يحدد غورباتشوف الخصائص الكبرى للـ«بريسترويكا»، معلناً: «ان البريسترويكا هي إعادة تسيير وتطوير ادارة الاقتصاد بمقتضى المبادئ اللينينة حول المركزية الديمقراطية...»^(٣٠). ويؤكد قائلاً: «يجب ان نعيد التفكير بدور الحزب، والتنظيمات الاجتماعية، وادارة الاقتصاد»، الأمر الذي يتطلب «تعميق المركزية الديمقراطية وتطوير الحكم الذاتي...»^(٣١).

الفصل السادس عشر الكوادر

«يقرر الكوادر كل شيء».

ج. ستالين.

في البدء كان الفعل، الكلمة. وهذه الكلمة كانت «الكوادر». «ان مواجهة المشاكل الجديدة التي تطرح علينا اليوم، يوضح ميخائيل غورباتشوف قليلاً بعد إنتخابه لى منصب الأمين العام، تفرض اجراء بعض التصحيحات، في المضمون والشكل وفي أساليب عمل الحزب والدولة، وفي وضعية الكوادر سواء في المركز أو في الأطراف»^(١). وبعد أربع سنوات بالضبط في تموز ١٩٨٩، يعترف غورباتشوف، ان ما انجز بالاجمال يبقى محدوداً: «نحن لا نستطيع اعادة اطلاق الحل لمشاكل الكوادر التي تفرض نفسها راهناً بشكل ملح. . اذ يلزمنا ان نبث في جسم الكوادر قوى خلاقة»^(٢). ان ما يعلنه الامين العام ليس الا صياغة جديدة لما كان يعرفه أسلافه جيداً: «نحن بحاجة الى جهاز. ولكن جهاز جديد. . . وفي الأوقات المنصرمة، كنا نعمل على تشكيله»^(٣).

ليس الاصلاح السياسي لغورباتشوف إلا عملية تهدف الى تشكيل جهاز جديد. في البداية، تبلو الامور سهلة: اذ يكفي القيام بتغيير الاشخاص على كافة مستويات الحزب، بدءاً من القمة، بإبعاد رجال الأمين العام السابق واستبدالهم برجال وريثه. في شباط ١٩٨٦، إبان انعقاد مؤتمر الحزب السابع والعشرين، الذي شارك فيه غورباتشوف لأول مرة كأمين عام، تضمنت كلمته في الشق المتعلق بالحزب، ثلاثة محاور: «لنعمل بطريقة جديدة؛ من اجل صورة نقية وصادقة لعضو الحزب، ومن اجل

سياسة كوادر صلبة؛ و«لنقوي الرابطة بين الايديولوجيا والحياة ، ولنغني العالم الروحي للانسان». فالحزب وضعه جيد، ويكفي ان ننظف قليلاً الكوادر، وندفع الى الامام كوادر جديدة - هذا هو حكم غورباتشيوف. في تموز ١٩٨٥، تم إبعاد غيوركي رومانوف، أحد الطامحين لمنصب الامين العام، واستبداله بليف زائيكوف، وفي المؤتمر اقدم غورباتشيوف على احداث تغيير في سكرتارية اللجنة المركزية عن طريق ادخال شخصيتين جديدتين الى المكتب السياسي. وقد تكلم الصحفيون الغربيون حينها عن «فريق للعام ٢٠٠٠». ولكن لم تمض ٤ سنوات، حتى إختفى بعض عناصر هذا الفريق (اناتولي دوبرين، ويوري سولوفيف، على سبيل المثال)، وفقد آخرون من مكانتهم (في عام ١٩٨٦، إنتقل ليف زائيكوف الى المرتبة الثالثة)، وتمكن بعض آخر من تسلق القمة، حيث بدأ بتنفس هواء اعضاء المكتب السياسي الرقيق، محافظين في الوقت نفسه على موقعهم كأمناء في اللجنة المركزية (الكسندر إيكوفليف، وفاديم مدفيف). وبعد خطاب القاه أمين الحزب في سفردلوفسك بوريس يلتسين، مطالباً بتصفية الامتيازات، أثار الانتباه حوله، فاستدعي الى موسكو. وانتخب سكرتيراً في اللجنة المركزية، ثم أسندت اليه قيادة الحزب في موسكو، ولكن دون ان يثبت صدقية ثقة غورباتشيوف.

مهما إتصفت تعرجات سياسة الاشخاص بالغرابة، على مستوى المرتبة العليا، فإن القرار النهائي يبقى بيد الأمين العام دون منازع. فكل من يحيط به لا يحتل موقعه إلا بعد موافقته. ويلاحظ شيخ الكرملين أندريه غروميكو، بدعابته المعروفة، ان القاعة التي يجتمع فيها المكتب السياسي تذكره بمثلث برمودا: حيث الاشخاص الذين يختفون، لا يعرف شيئاً عن مصيرهم. هذا ما جرى في زمن ستالين وخروشيوف وبريجنيف. وهذا ما يحصل راهناً في زمن غورباتشيوف. فأندرية غروميكو، الذي كان يحتل منصب رئيس مجلس رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، تلقى إعلان إحالته على التقاعد، في الوقت الذي كان يتهاى فيه للقيام بزيارة رسمية الى منغوليا.

وواضح ان الوضعية في البلد وبعد انقضاء عام على المؤتمر، وبالرغم من القرارات التي اتخذها الامين العام، والتغيرات التي طالت الاشخاص في اعلى سلم السلطة. لم تستقم، بل على العكس من ذلك فلقد قرر غورباتشيوف ان يصطدم بقوة بالكوادر.

ففي ٢٧ - ٢٨ كانون الثاني ١٩٨٧ ، ابان انعقاد جلسة مكتملة للجنة المركزية ، قدم الامين العام تقريراً حول «البريسترويكا وسياسة الكوادر في الحزب» .

حيث بدأ بالتنبيه الى ما يلي : «... مازلنا نلمس في المجتمع وفي الحزب أيضاً شيئاً من سؤ الفهم لمدى تعقيدات الوضع الذي تمر به البلاد»^(٤) . قبل سنتين ، عند استلامه للسلطة . تكلم غورباتشوف عن «وضعية ما قبل الازمة» . أما اليوم فإنه يشير الى «خطر تفاقم عناصر الأزمة في المجتمع»^(٥) . اما الحلقة التي تسمح بجبر السلسلة بكاملها ، وفق نصيحة لينين ، فتكون من كوادر الحزب ، كما يلحظ الامين العام . وكلامه جازم : «المشاكل المتراكمة في المجتمع تتعلق الى حد كبير بعدم كفاية عمل الحزب نفسه ، وفي سياسته للكوادر» .

يعشق التاريخ المزاج ، والذي غالباً ما يكون سيئاً . كما يميل الى الصدف الغريبة التي تضيء أحداث يوم جديد . فقبل نصف قرن من غورباتشوف ، أعلن ستالين في ٣ آذار ١٩٣٧ في تقرير له «عدم كفاية عمل الحزب» . واليوم عندما نقرأ تقرير غورباتشوف الذي أعلن في ٢٧ كانون الثاني ١٩٨٧ ، لا نستطيع التخلي عن فكرة اننا امام رقي قديم مسح ثم كتب عليه ثانية : فتحت المساحة الظاهرة ، يلمع النص الأصلي . فقبل خمسين عاماً ، كان ستالين ممتعضاً من كوادر الحزب ، ومن أن ورقة الحزب تعطي القوة للمخربين والتروتسكيين^(٦) . واليوم يرى الامين العام الجديد ان السبب الرئيس «للوضع المعقد والمتناقض» يكمن في «ان اللجنة المركزية للحزب ، وقيادة البلاد (قبله ، بالطبع) ، ليستا على مستوى المسؤولية وذلك لأسباب ذاتية»^(٧) .

يذهب ستالين الى عمق المشكلة ، ويطرح السؤال التالي : «ما هو حجم القيادات الحقيقية في حزبنا؟ ، ويجيب بضرورة ادخال «قوى حية» . ان غورباتشوف يوافق بشكل كامل على هذه النقطة .

لقد مضى نصف قرن . وتغيرت الأساليب . فستالين الذي كان يستطيع ان يفعل ما يريد ، «اقترح» على كافة مسؤولي الحزب ، «من امناء الخلايا الى أمناء المناطق والجمهوريات ، ان يختاروا رجلين ، أي موظفين من الحزب ، قادرين على الحلول مكان أي منهم بشكل فعلي»^(٨) . لقد استهلك ستالين باكراً ذخائره من المسؤولين ، ثم من حل مكانهم ؛ ولم يتوقف عن البحث عن «قوى حية» ، ودم جديد . أما غورباتشوف

فقد إختار أسلوب الانتخاب من أجل «تجديد» الحزب: «بإمكاننا ان نقبل بإنتخاب الامناء، بمن فيهم الامناء الأول، عن طريق الاقتراع السري في الجلسات المكتملة للجان الحزب الموازية»^(٩). ثم يعدد لجان الحزب التي تشملها الانتخابات: لجان المقاطعة، والمدن، والمناطق من كل نوع، وصولاً الى اللجان المركزية لجمهوريات الاتحاد. في الجلسة المكتملة التي عقدت في شباط - آذار ١٩٣٧، أوضح ستالين ابعاد سياسته حول الكوادر، التي قضت بتبني حل «يرمي وضع مبادئ الديمقراطية داخل الحزب موضع التنفيذ الكامل وغير المشروط»، الامر الذي يرتب، من بين أشياء أخرى، «انتخابات مغلقة (إقتراع سري)، لكافة أعضاء الحزب» ويضيف محدداً ضرورة ان تشمل الانتخابات كافة تنظيمات الحزب، «من لجان تنظيمات القاعدة، وصولاً الى لجان المناطق واللجان المركزية للقوميات»^(١٠). ولكن في عام ١٩٣٧، كما في عام ١٩٨٧، فإن الانتخابات عن طريق الاقتراع السري لا تشمل اللجنة المركزية للحزب، أو المكتب السياسي، أو سكرتاريا اللجنة المركزية.

في نهاية ١٩٨٧، ألقى غورباتشوف بمناسبة الذكرى السبعون لأكتوبر، كلمة إستعداد فيها معضلته الاساسية: «ان تحسين أداء عمل تنظيمات الحزب، واعضائه وكوادره، أصبح مشكلة اليوم الكبرى». كما يعلن ان المرحلة الاولى من البريسترويكا قد أنجزت، ولكن بموازاة ذلك «فإن بعض المدن، والمقاطعات، والمناطق، وحتى بعض الجمهوريات، لم تباشر بعد بعملية تطبيق البريسترويكا». والخطأ في ذلك يقع على عاتق «لجان الحزب وقياديينها»^(١١).

فالدفعات التي يطلقها «رأس» الامين العام، لا يتم نقلها من قبل وحدات الاعصاب - لجان الحزب: ويبقى الكيان العضوي الكبير للدولة السوفياتية دون حراك. في شباط ١٩٨٨، عقدت جلسة مكتملة للجنة المركزية مخصصة لمسائل الايديولوجيا (حيث تم إبعاد بوريس يلتسين من موقع عضو احتياطي للمكتب السياسي)، يذكر غورباتشوف بـ «ان الحزب بدأ البريسترويكا، معتمداً على نفسه، وعلى اعضائه»^(١٢). كما يعلن ان إعادة إنتخاب مسؤولي الحزب سمحت بإستبدال قرابة ٨٩ ألف عضو. ولكن كل ذلك لم يؤد الى ايجاد حل للمشكلة القائمة. وكان على المؤتمر التاسع عشر للحزب ان يشكل بداية مرحلة جديدة من الاصلاح السياسي. لقد تم التحضير للمؤتمر منذ مدة طويلة، كما ان انتخاب المندوبين شكل إعادة

لنمط جديد من الانتخاب: السماح بعدة ترشيحات، «ديمقراطية»، ولكن منظمة؛ فبوريس يلتسين، الذي لم يستطع الحصول على عدد كافٍ من الأصوات في موسكو، تم انتخابه في النهاية، في اليوم الأخير في كاريلي. لقد أصبح مندوباً، وفي العمق، كان هناك آخرون يودون له ذلك. وقبل ثلاثة أشهر من انعقاد المؤتمر، نشرت صحيفة «سوفيتسكايا روسيا» رسالة هي في الواقع مقالة كبيرة موقعة من قبل «نينا إندريفا»^(١٣). وتعريفها أنها «استاذ في المعهد التكنولوجي في لينينغراد: كيميائية». في ذلك اليوم، لم تتضح كافة «الأسرار» التي أحاطت بهذا المقال. كما ان العديد من القراء إفتراض ان نينا اندريفا المشهورة اسم غير موجود. ولكن عندما تم التأكد من وجود الشخص بلحمه وعظمه، وهي تعمل مدرسة في المعهد التكنولوجي في لينينغراد، وتتمتع بوضع مرتاح داخل النظام، برزت شكوك من نوع آخر. ولنستعيد كلمات السينائي «الكسيس غيرمان»: «ان أستاذاً عادياً للكيمياء لا يستطيع ان يكتب هذا البيان المناهض للحزب»^(١٤). في الواقع، وعند قراءة «الرسالة» يصعب علينا ان نتصور ان أستاذة الكيمياء قد إطلعت فعلاً على تاريخ الحزب الشيوعي، وبأنها قرأت الكثير من الكتب التابعة في أعماق المكتبات، ومعظمها غير مترجم الى الروسية. ان نينا اندريفا في نقدها القاسي لمسرحية شاتروف حول لينين، تظهر ان الكاتب المسرحي لا يتمتع بالأصالة، وبأن «منطق حججه وبراهينه يعيد تذكيرنا بدوافع كتاب ب. سوفارين، الذي نشر في باريس عام ١٩٣٥». ولكن اسم سوفارين لم يستخدم علانية الا من قبل ستالين شخصياً في ٣ آذار ١٩٣٧ حيث اعتبر ان «زمرة سوفارين في فرنسا»، كانت احتياطاً «للتروتسكيين، بأعمالها التخريبية والتجسسية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي». بالنسبة للعارفين ببواطن الامور، كانت المسألة واضحة. ففي مقابلة أجراها الصحافي الاميركي ديفيد ريفيل في آب ١٩٨٩ مع نينا اندريفا يصفها قائلاً: «امرأة في الواحدة والخمسين، مشاكسة، ومتكلفة، تشبه رئيسة عمرضات». وفي الحديث الذي جرى معها، لم تظهر انها على دراية واسعة بالأمور، وتفسير كافة مآسي البلاد بدسائس اليهود^(١٥).

عندما نشرت الرسالة، ظهرت في الاتحاد السوفياتي وكأنها إشارة تعلن نهاية الـ«بريسترويكا». وعندما بدأ الممثل المشهور ميخائيل أوليانوف بإلقاء خطابه في ٢٩ حزيران، في مؤتمر الحزب، أكد على ان البلاد مستعدة ودون انتظار للسير الى الوراء. ان

عدة صحف محلية كانت قد نشرت المقالة (برافدا غوكوفسكايا، أورالسكي رابوتشي، فوروشيلوفوغرادسكايا برافدا، فيتشرني دونتسك، نوفوغورودسكايا برافدا). وبعد مضي ١٦ يوماً على نشرها، ابلغت وكالة تاس الصحف المحلية ، في ٢٩ آذار «انه يجب البث بنشر مقالة نينا اندريفا بالاتفاق مع التنظيمات المحلية للحزب»، الأمر الذي يعني ان النشر لم يكن موجهاً، وأن إعادة نشر المقالة لم تجزه السلطات (١٦). لقد بقي الوضع ملتبساً، حتى ٥ نيسان أي بعد ثلاثة اسابيع من نشر «الرسالة»، حيث نشرت البرافدا مقالة لهيئة التحرير، عاكسة التوجه الفعلي للسلطة ، وقد ورد فيها ما يلي: «ان مقالة. ن. اندريفا تترك انطباعاً لدى القراء، بأن هناك «موقفاً سياسياً جديداً يراد فرضه عليهم». ان تهمة «موقف سياسي» كانت على الدوام إحدى أخطر تعابير القاموس البلشفي: اذ تعني بذور إنشقاق وتهديد بالانفصال. كما وضعت البرافدا كلمة «جديد» بين مزدوجين، في ضوء ما تقدم كمثّل نينا اندريفا، النموذج الستاليني المثالي للنظام السوفياتي، الذي يحذر من خطر الابتعاد عن هذا النموذج بأي شكل من الاشكال.

يعبر نص «الرسالة» بشكل جيد من أفكار المحافظين والرجعيين، الى حد انها لو لم تكن موجودة لاقتضى الامر اختراعها. وأياً يكن الامر، فلقد خدمت نينا اندريفا مصالح ميخائيل غورباتشوف بشكل جيد. فهذا البرنامج المضاد «للبريسترويكا» لا يريد ولا يمرّ أحدهم يسمون بأعداء غورباتشوف على صياغته. لقد سمحت الاسابيع الثلاثة الفاصلة بين النشرين، بمعرفة الـ«مع» والـ«ضد»، وخلقت جواً من الخطر، أدى الى إستنفار محازبي غورباتشوف عشية المؤتمر.

لقد كان الرهان على المؤتمر كبيراً. ففي ٢٣ أيار أقرت اللجنة المركزية الأطروحات العشر التي قدمت للمؤتمر التاسع عشر اي المطالب العشر للبريسترويكا، وتوقعت مجلة التايم الاميركية، النصير المتحمس لغورباتشوف، ان المؤتمر سوف يتبنى سلسلة من الحلول رداً على المشاكل الهامة المطروحة من الاصلاح القضائي الـ المسألة القومية، والاستراتيجية السياسية. «ان الأطروحات، تكتب المجلة، تتضمن اعلان حرية، يدمج بين مشروع قانون الحقوق الاميركي و«الاشتراكية ذات الوجه الانساني» الذي عبر عنه دويتشيك» (١٧).

ولكنه انتضح اثناء المؤتمر ان الامور لا تسير وفقاً للتصور الذي عرضته مجلة التايم،

فقراءة نصوص المؤتمر تترك انطباعاً مثيراً: لقد بدا المندوبون وغورباتشيف وكأنهم من عالمين مختلفين، لا اتصال بينهما. فهم يتحدثون عن المشاكل الفعلية وعن نقائص النظام، وفشل الاصلاحات المطروحة، في حين كان غورباتشيف لا يتحدث الا عن السلطة، والكوادر.

لقد كانت الموضوعة الخامسة والسادسة تختص بمشكلات السلطة. ولقد صاغت القاعدة موقفها منذ البداية على النحو التالي: «ان نظام الحزب الواحد، الذي تكون تاريخياً وترسخ في بلدنا، يمتزج اليوم بشكل عضوي، بصيرورة الاتجاه نحو الديمقراطية. وهذا ما يشكل مسألة ذات أهمية حيوية»^(١٨). ان التأكيد على عدم المساس بنظام الحزب الواحد، جعل من السهل الانتقال، في الموضوعة الخامسة، الى دور هذا الحزب الواحد والقائد. وتبدأ الأطروحة بهذا الاعلان «في ضوء البريسترويكا، يظهر دور الحزب الشيوعي السوفياتي، كقوة قائمة ومنظمة للمجتمع السوفياتي، بكيفية جديدة». ثم تتلى حرفياً المادة السادسة من الدستور: «بالاستناد الى تعاليم الماركسية - اللينينة، ان الحزب مدعو لاعداد نظرية واستراتيجية للتطور الاجتماعي وللسياسة الداخلية والخارجية، ولفهم ايدولوجية التجديد الاشتراكي، وقيادة العمل السياسي والتنظيمي داخل الجماهير، كذلك الأمر بالنسبة لتربية الكوادر وإعادة توزيعهم». ولا ينسى كاتبو المادة الخامسة التذكير بضرورة «اعطاء كامل الاهتمام للشرح اللينيني للمركزية الديمقراطية، التي تعني ان حرية النقاش مصاغة في مرحلة معالجة المشاكل، ولكن بهدف الوصول الى وحدة العمل، وذلك بعد ان تتخذ القرارات بالأغلبية».

تؤكد الاطروحة السادسة على ضرورة «اعطاء الاهمية الكاملة لدور وسلطات مجالس مندوبي الشعب الأعضاء الأعلون للتمثيل الشعبي». اي كما يجب أن نقول لاحقاً: «كل للسلطة للمجالس!»، ان العضلة هنا ليست العضلة الأولى ولن تكون الأخيرة في مجال الاصلاح السياسي الذي اطلقه غورباتشيف - لا تكمن فقط في العودة الى شعار ١٩١٧، بعد سبعون سنة من «السلطة السوفياتية»، ولكن الصعوبة هي في التوفيق بين «سيادة المجالس، وسيادة (دون مزدوجين) الحزب الواحد في السلطة».

يرى غورباتشيف في التوزيع الدقيق للمسؤوليات التي ينهض بها اعضاء الحزب والدولة، «المشكلة المفتاح» للبريسترويكا، وأساس الاصلاح السياسي، وذلك بما

«يتطابق مع التصور اللينيني لدور الحزب الشيوعي، الطليعة السياسية للمجتمع، ولدور الدولة السوفياتية، أداة سلطة الشعب»^(١٩). قبل عدة أشهر من بداية اعمال المؤتمر، عرض الامين العام «المشكلة المفتاح»، واصبحت مسألة «فصل السلطات» موضوع الساعة. الامر الذي دفع العديد من علماء السياسة، والحقوقيين، والفلاسفة الى تخصيص العديد من المقالات حول الموضوع، اضيف الى ذلك رسائل القراء العديدة. لقد بدا الموضوع وكأنه شيء جديد، وغير معتاد، يكشف الجراءة في الطرح. غير انه تبين ان الموضوع قد نوقش منذ ستين سنة خلت، ومع حالة الانفعال نفسها التي سادت عام ١٩٨٨ فقد ولد الموضوع مع السلطة السوفياتية التي تحولت على الفور الى سلطة للحزب. وهذا ما عرضه لينين في ٢٨ آذار ١٩٢٢، في المؤتمر الحادي عشر للحزب: «الجميع أعلن، أو قبل، وبالإجماع، بضرورة التمييز بين جهاز الحزب وجهاز السوفيات». ان غورباتشوف هنا يقتفي بأمانة آثار مؤسس الدولة السوفياتية. وكلام لينين يعاد ذكره في عدة مناسبات؛ وأضحى الاساس النظري والعلمي لموضوع «فصل السلطات». ولكن لينين، وبعد مضي سنة على مديحه للـ «فصل...»، كتب في ٤ آذار ١٩٢٣، مقالة مشهورة: «الأحسن أفضل من الأقل، ولكنه أحسن»، عرض فيها ضرورة دمج اللجنة المركزية للرقابة التابعة كلياً للحزب، والتي لا يجيزها أي قانون للدولة، مع مفوضية الشعب للرقابة العمالية والفلاحية، يسخر لينين من الرفاق الذين يتساءلون: «كيف يمكن ان نجتمع بين مؤسسات الحزب ومؤسسات السوفيات؟ ألا يوجد في ذلك شيء من التعارض؟» ابداً، يجيب قائد الحزب والدولة. وبعد توبيخ شديد للـ «بيروقراط»، يضرب الحجة التالية: «لماذا لا نستطيع ان نجتمع بين الأولى والثانية (مؤسسات المجالس والدولة)، اذا كانت مصلحة القضية تتطلب ذلك؟» في آذار ١٩٢٣، كانت «مصلحة القضية» تعني بداية المواجهة مع ستالين الذي كان يحتل منصب مفوض الشعب للرقابة العمالية والفلاحية، الى جانب مناصب أخرى. وفضلاً عن ذلك، كان لينين مقتنعاً بأن «الوحدة المرنة للمجالس والحزب تعطي قوة كبيرة لسياستنا».

ما هو اساسي اذن، ليس ان نختار بين الدمج أو الفصل. فالقوى الكبرى تتمثل في إمكانية الدمج والفصل، وفق إرادة القائد، «ومتطلبات القضية». في عام ١٩٢٣، تصدى أحد أقرب رفاق السلاح للينين وعضو المكتب السياسي، ل. كامنيف، لهذه

المسألة واضحة الحد للنقاش المتعلق بفصل جهاز المجالس عن الحزب: «... ان الذي يتكلم ضد الحزب ، ويطالب بفصل مسؤوليات جهاز المجالس والحزب، يريد ان يفرض علينا مبدأ فصل السلطات الممارس في دولة أخرى... أي ان يحكم الجهاز السوفياتي الدولة، في حين ينصرف الحزب للتعبئة، والدعاية، وتعميق الوعي الشيوعي، الخ... كلا، أيها الرفاق، هذا الامر لا يثير الا الفرح عند أعدائنا» (٢٠). بعد خمسة وخمسين عاماً، يستعيد غورباتشوف كلام كامنيف، كلمة تقريباً: «ان كل الذين يريدون اعادة النظر بدور الحزب واهميته، لهم منا رداً حاسماً. البعض يحاول ان يطرح ذلك بطريقة ملتوية، قائلاً ان الدرس المستفاد من تجربة الماضي يقضي بضرورة الحد من سلطة الحزب. كلا، أيها الرفاق، المشكلة ليست هنا اطلاقاً. فإذا كان فيروس الشك وانعدام الثقة برسالة حزبنا قد أصابنا، فإن في ذلك هدية جميلة لأعداء البريسترويكا» (٢١). باستطاعتنا ان نتهم مستشاري غورباتشوف الذين كتبوا تقريره، بالسرقة. ولكن الأكثر إثارة، ان الأجوبة التي تعطي، في مواجهة الاوضاع المتكررة منذ سبعين عاماً، تتكرر هي ايضاً. من الممكن ان تتغير الاجوبة وفق «مصلحة القضية»، ولكنها قبل ذلك تبقى محفورة في ذاكرة الحزب. وجميعها يستهدف تقوية سلطة الحزب، او بتعبير آخر سلطة القائد.

ان التحضيرات للمؤتمر التاسع عشر للحزب كانت تتبع بدقة السيناريو المرسوم من قبل أساتذة الدعاية: فقد تم تصوير المؤتمر وكأنه معركة بين «الحمامة البيضاء» غورباتشوف و«الصقر الأسود» ليغاتشيف؛ أما بالنسبة لانتخاب المندوبين التقدميين، الذين يرمي امامهم الجهاز المحافظ «قشور الموز» لرحلتهم، فإنهم يبرزون في صورة «التمثيل النفساني» الحقيقي. ويتم التركيز على دور قائد الحزب وشعبة التنظيم القوية في اللجنة المركزية التي تشرف على الانتخابات، في توفير الحرية الكاملة أمام اعضاء الحزب. والمناقشة الجادة للأطروحات العشرة. كما يلحظ السباح لصحافي العالم، بمتابعة المشهد بحرارة. وبقلق، وخوفاً من عدم إنتخاب بعض انصار الامين العام الاوفياء.

تجدر الاشارة الى نقطة أساسية في الاصلاح السياسي، أثارها غورباتشوف في تقريره الى مؤتمر الحزب، ولكنها لم تظهر في الموضوعات العشر. ففي مداخلة على التلفزيون، أعلنت الأكاديمية زاسلافسكايا، بعد المؤتمر وضمن برنامج «نحو المزيد من

الديمقراطية في الحياة الاجتماعية»، أنها أصيبت بصدمة وهي تستمع الى اقتراح غورباتشوف. وتضيف بأن الجميع قد أصيبوا بالصدمة نفسها. فقد بدأ غورباتشوف الحديث مبرراً ضرورة «التحديد الدقيق لمسؤوليات اعضاء الحزب والدولة، بما يتفق مع التصور اللينيني حول دور الحزب الشيوعي، الطليعة السياسية للمجتمع، ودور الدولة السوفياتية، أداة سلطة الشعب»^(٢٢). ثم بادر، وبطريقة غير متوقعة أبداً، الى اقتراح إنتخاب الامناء الأول للجان الحزب لمنصب رؤساء المجالس الموازية.

هذا الاقتراح الداعي الى جمع المناصب من أجل الفصل جيداً بين الديالكتيك، فمن العروف ان وصفة لينين تقول: قبل ان نتحد ومن أجل ان نتحد، يجب ان نتمايز جيداً. ويدافع غورباتشوف عن موقفه بالرغبة في «إعلاء سلطة المجالس»: هذا الجمع بين منصب الامين الأول/رئيس سوفيات، على مستوى شخص واحد، يجب ان يؤدي من جهة الى تقوية رقابة الحزب على المجالس، ومن جهة ثانية تحرير الحزب من بعض المهام التي يمكن ان تسند للمجالس.

ان المغزى الحقيقي «لمعضلة غورباتشوف» سوف يتضح بسرعة، فبعد استماعه بهدوء لبعض الملاحظات النقدية حول «المعضلة»، تبنى المؤتمر إقتراح الامين العام، وأمن غورباتشوف بذلك انتخابه لمنصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، الذي أعيد خلقه مجدداً (والتصحیحات الضرورية اضيفت بعجل الى الدستور). ان هذه «الوحدة التي يمثلها شخص واحد» لأول مرة قد تحققت: فقد أصبح غورباتشوف رئيس الدولة، مع إحتفاظه برئاسة الحزب. بعدها لم يعد من الملح تصميم هذا النموذج على مستوى المراتب الأدنى. فإنتخاب الامناء الأول لمناصب رئاسات المجالس من مختلف الرتب، لم يعد على جدول الاعمال.

ان الهدف الأكبر «للاصلاح السياسي» يتمثل في تدعيم سلطة غورباتشوف الى حدود لم يعرفها التاريخ السوفياتي. ولكن هناك ايضاً هدفاً آخر. فضرورة اضعاف السلطة المركزية، كنتيجة للرغبة في الادارة المباشرة لمختلف شؤون الحياة مع البلاد، من الامور الواضحة بالنسبة لبعض المسؤولين وعلماء السياسة السوفيات منذ عهد بريجنيف. في عام ١٩٨٧، وفي ملاحظة تقدم بها غورباتشوف الى اللجنة المركزية، أقر بأن «المبدأ المركز لعمل اعضاء الحكومة... يسمح بإستخدام امكانيات نظامنا

السوفيياتي»، ولكن هذا الامر يدفعنا للتفكير «بمسألة طرحت في المؤتمر الخامس عشر للحزب: «يجب ان تطور المبادئ الديمقراطية، والمبادرة المحلية، وان نعفي المراتب العليا من سلطة المهام الصغيرة...» (٢٣). وكان المؤتمر الخامس عشر قد عقد في عام ١٩٧٦، اي المرحلة الذهبية للعصر البريجنفي. ان فكرة إمكانية، وليس ضرورة «اعفاء قيادة الحزب من المهام الصغيرة»، كانت تغري القائد الشاب غورباتشوف. وها هو يستعيد، عندما أصبح رئيساً للحزب. ويعمل على تطويرها. في عام ١٩٧٦، لم يكن طرح تحرير المراتب العليا من سلطتها، سوى أمنية. أما غورباتشوف فيقترح، أعضاء كافة مراتب سلطة الحزب من عبء «التفاصيل» ففي تقريره المرفوع للمؤتمر، يكشف «خلفية» إعادة البناء السياسية: «يجب ان نحرر جهاز الحزب بالكامل من المهام الادارية والحكومية، من اجل تركيز عمله حول التوجهات المفصلية في السياسة الداخلية والخارجية، أي ان ننقل مركز الثقل الى اساليب السياسة القائدة» (٢٤).

وبعد مضي عام على ذلك، وفي اجتماع للجنة المركزية مخصص لـ «بريسترويكا عمل الحزب»، يعرض الامين العام برناجه بشكل أكثر تفصيلاً، وكما هي العادة، بأسلوب مبهم، ولكن الهدف يبقى هو نفسه: الفصل والجمع، التمييز او الذوبان. يرتكز غورباتشوف الى هذه المسألة: «ان حزبنا هو حزب قائد» (٢٥). ويعيد التذكير بأسس السياسة قائلاً: «لقد وجدت الاحزاب، في كل مكان وعلى الدوام، كي تستخدم كوسائل للنضال من أجل السلطة». ويضيف موضحاً المهام الرئيسة للحزب الشيوعي، التي تدور حول: «التطوير، والاغناء الراسخ للفكر الاجتماعي، والعمل انطلاقاً من اساس علمي، ماركسي - لينيني، على بلورة أسس السياسة الداخلية والخارجية، والعمل الايديولوجي والتنظيمي... أخيراً، يبقى ان الكوادر كانوا وما زالوا هم الاساسي للحزب». مبلوراً «على اساس... أسس» الايديولوجيا، والسياسة الداخلية والخارجية، وحاملاً هم الكوادر في كافة ميادين الحياة، كذلك الأمر فإن الحزب «لا ينوب عنه احد فيما يخص الاقتصاد». لانه «يسلح المجتمع بسياسة اقتصادية مبنية على أسس علمية وموجهة اجتماعياً».

الكل يعلم، بمن فيهم غورباتشوف (ومجلداته الست تشهد على ذلك، من بين أشياء أخرى)، ان الحزب قد نهض بكافة المسؤوليات المشار إليها اعلاه، بشكل نشط، خلال سبعين عاماً. كما أنه تولى القيادة العملية في كافة ميادين الحياة، وهو أمر، لا

غنى عنه من الآن فصاعداً. يركز غورباتشيف على ضرورة «الفصل الصريح بين مسؤوليات الطليعة السياسية للمجتمع، وبين مسؤوليات الحكومة والادارة التي انتقلت الى ايدي السوفييات». لذا تبرز ضرورة «خلق آلية جديدة للتفاعل بين الحزب والسوفييات...». كما يرى الامين العام. فصل سلطات صريح، ولكنه متفاعل. حزب قائد، ولكنه لا يتولى اعطاء «التوجيهات والتعليقات مباشرة». وبالمحصلة التخفيف من عبء العمل التفصيلي، الملموس، واليومي، ولكن العمل على خلق آلية «تأثير سياسي» في الحياة، «بواسطة الشيوعيين كافة». فالحزب يرسم الخط السياسي، والتوجهات الكبرى، في حين يعمل الشيوعيون، في ضوء هذه التوجيهات، وتحت نظر الخط بشكل دقيق.

في تموز ١٩٨٨، أجرى غورباتشيف جردة حساب حول مؤتمر الحزب، مظهراً تفاؤله: «يبدو ان الحزب قد استطاع رفع رأسه من جديد، بل استطاع ان يرفع هامته كلها، متكلاً بصوت مسموع، وبثقة، وبطريقة مبتكرة، مدفعم بالعاطفة التي تسببها مسؤوليته الكبيرة تجاه الشعب» (٢٦). وبعد عام من ذلك، نراه مجبراً على التساؤل: «ما الذي حصل؟ هل الحزب في أزمة؟» (٢٧). ويحيب غورباتشيف على هذا السؤال بالنفي. ليست المشكلة في الحزب، بل في مهامه القديمة، وأساليب عمله، التي اضحت بالية اليوم. ويصوغ فكرته على النحو التالي: هناك أزمة في جهاز الحزب.

يكتب عالم السياسة أندريك فيغرنيان حول الصعوبات التي يواجهها اليوم النظام السياسي السوفياتي مبيناً أنها نتيجة «لعدم ايلاء مؤسسي الماركسية الاهتمام الضروري للمشاكل الناجمة عن تشكل آليات السلطة السياسية في المجتمع الاشتراكي بعد الثورة» (٢٨). هذا الكلام صحيح، اذا كان المقصود بعبارة «مؤسسي الماركسية، ماركس وإنجلز فقط. فيأعتبارهما منظرين وطوباويين، عاشا في القرن التاسع عشر، كان من الصعب عليها معرفة «المجتمع الاشتراكي ما بعد الثورة؟» فهذا قد اكتفيا بإطلاق «الفكرة». ان الصعوبات التي يشير إليها عالم السياسة، متأية من كون «الفكرة» قد تحققت. يكتب أحد المؤرخين السوفييات حول ولادة النظام السوفياتي قائلاً: «على أساس الانتخابات في الجمعية التأسيسية (فقط ٥٢٪ صوتوا لصالح البلاشفة)، ولكن لينين، وعلى ضوء انتصار الثورة وتجربة الحرب الأهلية، توصل الى بلورة اكتشاف له أهمية نظرية وسياسية كبيرة. إن البروليتاريا لا تستطيع أن تؤسس

حيازتها للسلطة على قاعدة الأكثرية الشكلية للأصوات ، في ظل انتخابات تجري داخل دولة برجوازية . «يمكننا القول ، بالاستناد الى تعاليم ماركس وتجربة الثورة الروسية ، بأن على البروليتاريا ان تدعم البرجوازية وتضع يدها على سلطة الدولة ، ثم تستخدم هذه السلطة ، بتعبير آخر دكتاتورية البروليتاريا ، كأداة لطبقتها ، بهدف كسب عطف غالبية العمال» (٢٩).

بهذا المعنى يأخذ الحزب على عاتقه تولى مسؤولية ثقيلة تقضي بتطبيق دكتاتورية البروليتاريا ، بانتظار نضج البروليتاريا كي تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها . الحزب ، أي جهاز الحزب ، والكوادر القيادية . ولكن في عام ١٩٣٧ ، نفذ ستالين حملة تصفية شاملة لجسم القيادة في الحزب ، تحت ستار الحاجة الى «قوة حية» . كما كان قد أثار هذا الموضوع في ظل قيادة لينين ، ففي عام ١٩٢٣ كتب قائلاً : «ان نواة اللجنة المركزية ، التي نمت أبان ممارستها للسلطة ، غدت مسنة ، ويلزمها تغيير ، وأنت لا تجهل الحالة الصحية لفلاديمير لينين ؛ وكما يبدو فإن باقي أعضاء هذه النواة الذين يشكلون قاعدة اللجنة المركزية قد إستنفذوا قواهم . والمؤلم أننا لا نملك بعد فريقاً جديداً . وما زال الوقت مبكراً لصهر هذا الفريق الجديد . لهذا السبب هناك الوسيلة التالية : لندفع بعض الرجال الجدد الى العمل في اللجنة المركزية ، وشيئاً فشيئاً وكلما أنجز هذا العمل ، يتم ترفيع الأكثر قدرة منهم والأكثر استقلالية» (٣٠) . هذا الهم المتصل بالرجال «المستقلين» ، بقي شغله الشاغل ، طيلة حياته ، حتى أصبح يشكل إحدى خصال القائد : اذ ما ان يكتشف أحدا منهم ، حتى يبادر الى تصفيته . ولكن ما توصل اليه حول ضرورة «القوى الحية» سيبقى مفيداً للجميع ورثته .

بعد عام على المؤتمر التاسع عشر للحزب ، اجتمع في اللجنة المركزية الامناء الأول للجمهوريات ، والمقاطعات والمناطق ، اي الاسياد الحقيقيون للبلد ، من اجل مناقشة «بعض مشاكل عمل الحزب في ظل البريسترويكا» . فبادر الامين العام في تقرير له الى رسم الخط : «ان بريسترويكا عمل الحزب هي المهمة المفتاح ، والمركزية ، اليوم» . (٣١) . ان غورباتشوف يجري جردة حساب لاصلاحه السياسي ، الذي وضعت ركائزه في الجلسة المكتملة للجنة المركزية التي عقدت في كانون الثاني ١٩٨٧ ، والمؤتمر التاسع عشر للحزب في أيار - حزيران ١٩٨٨ . لقد مضى عامان ونصف على سياسة الكوادر المكثفة . كان فيها انتخاب نواب الشعب النقطة الذروة في تصفية الطبقة المخملية» .

فبعد تأمينه لانتخاب مئة شخص دون اقتراع سري كان يحتاجهم ، وإختيروا من قبل الجهاز المركزي ، رمى غورباتشيف اصحاب الآلة الآخرين امام محكمة الشعب .

وبالامكان اعتبار الانتخابات السوفياتية الأولى منذ بداية السنوات العشرون والتي تسمح ببعض عناصر الاختيار، مدرسة في الحياة السياسية، ونواة للبرلمانية، وهدية القائد للشعب، بل امكانية جزئية ولكن حقيقية تسمح للشعب بالتعبير الصريح عن استيائه من الظروف المعيشية غير ان نتيجته الكبرى كانت تصفية دون رحمة للمرتبة العليا من رجال السلطة . الأمر الذي كان يؤمن رضى غورباتشيف . فقد اقدم مؤتمر نواب الشعب على انتخابه رئيساً لمجلس السوفيات الأعلى . كما ان سماحه لبعض الاصوات بالانتقاد، لم يحل دون إدخاله للأشخاص الذين يريدون الى مجلس السوفيات الأعلى . وفي ضوء ما تقدم أصبح بإمكانه ان يعلن في لينينغراد وبارتياح : «لقد أبعدنا انفسنا...» عن حالة الاتهام وازدواجية المسؤوليات التي تسم وضعية أعضاء الدولة، والاقتصاد، والمجالس والاجتماع^(٣٢) . لقد كان بإستطاعته القول «نحن ابعدنا انفسنا...» ولكن أنا، لا أتحرك .

في نيسان ١٩٨٩ ، ومباشرة بعد الانتخابات وعلى ضوء النتائج التي ترتبت عليها ، استطاع غورباتشيف ان يرمى خارجاً مئة وعشرة اشخاص من اللجنة المركزية . وهذا ما لم يستطيع ستالين ان يفرسه في أي من وجباته دفعة واحدة . طبعاً هناك فارق : بشكل عام ، كان ستالين يقتل المبعدين ؛ في حين يكتفي غورباتشيف بإحالتهم على التقاعد ، حافظاً لهم «الصورة الانسانية» بها في ذلك حقهم في طلب الذهاب ، أو النقد الصريح حتى لعمل الامين العام . لقد كان لينين يردد قول كلازوفيتس : الحرب هي استمرار للسياسة ، بوسائل أخرى ، اما غورباتشيف فقد أثبت أن الانتخابات تقوم مقام التصفية ، ولكن بوسائل أخرى .

شكلت الجلسة المكتملة لنيسان مسرحاً لانتفاضة الأمناء الأول . رمى الأمناء المدانون (سياسياً) ، في وجه «قيصرهم» اتهامات تعكس معرفتهم الكاملة بالوضع على المستوى المحلي ، واقتناعهم المطلق بخطأ سياسة غورباتشوف ، وعدم فهمهم لخطط الامين العام ، الناتج عن يقينهم . بأنه لا يمكن إستبدالهم . لقد اوضح الخطباء السقوط الكامل للإصلاح الاقتصادي ، مستشهدين بفيض من التفاصيل ، التي لا نجدوها حتى في أكثر التقارير جرأة .

ليست المشاكل الاقتصادية الهم الأساسي للأمناء الأول . فهم يأخذون على غورباتشوف سياسته التي أدت إلى إضعاف الحزب ، فاقداً بذلك «دوره الطليعي» ، وسلطته ، ورصيد الثقة التي أولاه إياها الشعب ، «ليتحول إلى نادٍ للنقاش» . فقد حذر الأمين الأول لأذربيجان أ. فزيروف ، من «السيدا الايديولوجية» التي تهدد بـ «فقدان الحزب لدوره القائد» . أما إي . بولوزكوف ، والذي يفضل الكلام الملموس ، فقد اتهم «اللاشكليين» بـ «العمل على رمي جرائم ستالين على كاهل الحزب ككل ، وتنظيم المظاهرات من أجل تمزيق الاتحاد السوفياتي وتصفية الحزب الشيوعي السوفياتي» . وفي اجتماعاتهم «يطلقون الدعوات لشنق الشيوعيين ، وعدم تطبيق القرارات الحكومية ، والتخريب على القوانين السوفياتية ، مع ذلك لا أحد يرد . . .»^(٣٣) ويستنتج ان في ذلك ما يوضح «النقطة التي وصلنا إليها» .

لقد أضحي النضال ضد البيروقراطية ، نضالاً ضد الحزب ، كما يرى الأمناء الأول . فالأمين الأول لمنطقة كيمروف أبعد في الانتخابات ، والكسندر مالنكوف ، الذي لا يعلم بعد ان الاضراب الأول لعمال المناجم سيبدأ في منطقته ، يسأل : «لماذا أُلقيت تهمة البيروقراطية على كاهل الحزب ، وكوادره من أعلى السلم إلى أدناه؟»^(٣٤) . كما يصرح الأمين الأول للحزب في جمهورية كوميس ، فلاديمير مالنكوف بأنه «تروج دعوات تدعو لتهميش العمود الفقري لجهاز الحزب . والكل ممهور ، ودون تمييز بخاتم البيروقراطية الشائن»^(٣٥) . وإذا كان ف . مالنكوف ، قد سمى أربعة من «المحافظين» ، في المؤتمر التاسع عشر للحزب وبناء لطلب غورباتشوف ، لأعلى سلم الحزب ، فإنه ، في دورة نيسان ، أقدم على رفع سيف الانتفاضة : «اليوم ، نجد ان أمناء المدن والمقاطعات يعلنون مجتمعين ، بأنهم في ظل هذه الظروف ، لن يذهبوا إلى الانتخابات ، لعلمهم الأكيد بأن أي منهم لن يعاد إنتخابه»^(٣٦) . هذه الانتخابات التي لا يوجد الأمناء المشاركة فيها ، هي انتخابات المجالس المحلية . لقد أثار كلام مالنكوف تأييداً في القاعة : «هذا صحيح . . . الأمر الذي دفع غورباتشوف إلى الغضب : «هذا صحيح؟! إذاً على الحزب ان يمتنع عن المشاركة في القيادة والانتخابات؟» .

في نيسان ، وتحت ضغط الأمناء ، أعلن غورباتشوف تأجيل موعد الانتخابات من خريف ١٩٨٩ إلى ربيع ١٩٩٠ . ولكن في تموز ، استغل غورباتشوف اضراب عمال المناجم ، ليضع اللوم على السلطات المحلية ، ويعود إلى التمسك بقراره الأول بإجراء

الانتخابات بأقرب فرصة ، الامر الذي سمح بتصفية الجهاز. وقد رد غورباتشوف على الامناء الذين يتهمون به ممارسة سياسة ضارة بالحزب بالقول: لم يحصل سابقاً، ان انتخب هذا العدو من الشيوعيين داخل الجهاز الأعلى للسلطة. فهناك ما نسبته ٦, ٨٧ من اعضاء الحزب بين نواب الشعب يوافقون غورباتشوف على قوله: «نعم، لقد صوت السوفييات بكثافة لصالح الشيوعيين.». وقد رد نيكولاي ريجكوف معلناً: «لقد بالغنا في تقدير الاحصاءات، بإستنادنا الى واقعة ان ٨٥٪ (غورباتشوف هو الذي اعطى الرقم) من النواب المنتخبين هم من الشيوعيين. ففي الواقع، لا تعني هذه الاغلبية العددية لاعضاء الحزب الشيء الكثير. فالعديد منهم لا يملكون موقفاً محدداً من السؤال الاساسي الذي يتروّد في المداخلات والمتصل بالمحاولات الرامية الى الحد من دور الحزب القيادي في الحياة الاجتماعية، وإعادة النظر بمكانته المركزية في الحياة السياسية» (٣٧).

كشفت إنتفاضة الامناء التي تكررت في اجتماع تموز ١٩٨٩، الذي عقد إثر الاضرابات، من طبيعة الصراع المبدئي والعميق والتي تضع الامين العام في مواجهة أمناء الحزب. فبالنسبة لهم، سمحت سياسة غورباتشوف، كما في مزيات السكرتير الاول لمنطقة موسكو: بـ«وضع فساد جهاز الحزب في المقدمة، وما يسمى بوضعيته المميزة وجهله بالاضاع المحلية، وعدم قدرته على ادارة الحكم»، الأمر الذي أدى الى ضربة للحزب. كما يرون ان سقوطهم في الانتخابات هو سقوط للحزب. الحزب هو نحن. هذا ما يؤكده الكوادر. أما بالنسبة للقائد العام، فإن الحزب هو، أنا.

هذا الصراع اصبح تقليداً. فكل أمين عام يكون كوادر سياسته. ففي عام ١٩٢٣، في المؤتمر الثاني عشر، نرى أن ستالين يعود الى لينين الذي كان قد اعلن قبل عام من ذلك: «ان سياستنا صحيحة، ولكن جهازنا قد إعوج، لهذا السبب نجد ان آلة الحزب لا تسير في الوجهة السليمة، بل تنحرف». داحضاً بذلك ملاحظة ألباها أ. شليينيكوف مفادها ان الآلة لا تسير في الوجهة السليمة لأن «السائق لا يقوم بعمله». يرفض ستالين ذلك بشكل قاطع: «هذا الامر غير صحيح قطعاً. فسياستنا صحيحة، والسائق مكتمل المواصفات، والآلة من صنع سوفيياتي جيد، ولكن المشكلة في دواليب الآلة، بتعبير آخر هذا هذا الموظف أو ذاك من موظفي الدولة، الذين أصابهم الاهتراء». يستنتج ستالين ان الحاجة تبرز رافعة «من أجل انجاز بريسترويكا

دواليب الآلة، واستبدال القطع الفاسدة بأخرى جديدة. اذا كنا نريد فعلاً ان تتقدم الآلة في الواجهة المتوخاة». ويضيف بشكل حاسم: «هذا هو مضى تعبير الرفيق لينين»^(٣٨). والذي كان يعاني سكرات الموت، ويصعب حضوره لاعطاء رأيه. ولكن ستالين فهم بدقة مغزى هذه «البريسترويكا»، التي صاغها المؤسس بإبهام. وكان على ستالين ان ينتظر عشر سنوات من أجل تنفيذ فكرة لينين.

ليست «بريسترويكا» غورباتشوف الا امتداداً لفكرة لينين، ضمن ظروف مختلفة. فالسكرتير السابع لا يراوده الشك أبداً حول صحة سياسته. فهو على اقتناع بأن السائق غورباتشوف كفؤ. كذلك الامر بالنسبة للآلة فهي من صنع سوفياتي. «أنني اعتقد، يقول غورباتشوف، بأن امكانيات الاشتراكية غير محدودة». ونحن مقتنعون، «بحيوية التعاليم الماركسية اللينينية، التي تطرح وبشكل علمي امكانية بناء مجتمع العدالة الاجتماعية، حضارة الناس الأحرار والمتساوون!». وكي تستطيع الآلة السير نحو الوجهة التي يختارها السائق البار، يكفي «ان نستبدل القطع القديمة المهترئة، بأخرى جديدة» كما يقول الرفيق ستالين.

لغورباتشوف صياغة أكثر شاعرية: «في مجتمع يعرف التجديد، على الحزب فيه ان يتجدد بالتأكيد»^(٣٩). أما رافعة هذا التجديد فيجب ان تكون «سياسة كوادر شديدة الفعالية، مكيفة وملائمة لروح العصر». مرة جديدة، يؤكد السكرتير العام الجديد صحة قول ستالين: «الكوادر يقررون كل شيء». عندما يحلل علماء اللغة نصاً ما فإنهم يولون اهتماماً خاصاً للكلمات والتعابير التي تتردد، باعتبار ان معنى النص متضمن فيها. ففي التقرير الذي قدمه غورباتشوف الى اجتماع الكوادر في تموز ١٩٨٩، وفي خطاب انتهاء الاجتماع، لم يتوقف عن تكرار: «من الآن فصاعداً، سيقترن نجاح البريسترويكا بالحلول الصحيحة لمشاكل الكوادر، حيث يتأمن دفع القوى الحية»^(٤٠)؛ «إن القرارات الجديدة المتعلقة بالكوادر، لا يجب أن تقتصر على بعض المناقشات والمبادلة في المراكز فهذا يجعلنا مستمرين بالدوران داخل حلقة نفس الأشخاص الخالدين، دون السماح لظهور دفع من القوى الحية»^(٤١) «يجب علينا ان نستكمل جسم الكوادر بواسطة سند من القوى الخلاقة»^(٤٢)؛ «قوى حية، جديدة، تثبت في الحزب»^(٤٣)؛ «ان الكوادر بحاجة الى التجديد، الى دفعة من القوى الحية»^(٤٤)؛ «حيث تكون الاستفاقة ضرورية، فإن أناساً جديداً يجب ان يصلوا

ويشاركوا في العمل بهمة»^(٤٥)، الخ... المطلوب إذاً، قوى جديدة، وحية، وهي موجودة، يؤكد غورباتشوف، هذا المتفائل. فهي تقف منتظرة على أبواب مكاتب الحزب.

بداية، يقف وراء انتفاضة أمناء الحزب وهذا أمر طبيعي الخوف من خسارة موقع هام وما يرتبط به من إمتيازات. ولكن هناك سبباً آخر. فالكوادر لا يفهمون سياسة غورباتشوف. أو على العكس من ذلك، يفهمونها بشكل جيد، فهم يرون مثلاً، ان الانتخابات، مجرد وسيلة عادية. «رافعة» ستالين للتخلص من الكوادر القديمة. فالسياسة المبهمة لغورباتشوف لا تثير إلا غضب هؤلاء: ففي الوقت الذي يركز فيه على ضرورة صون الدور القائد للحزب، فإن غورباتشوف يدعو الحزب الى التخلي من قيادة الحياة في كل يوم.

ان اللعبة اللغوية لغورباتشوف تغذي استياء جسم الكوادر. اذ كيف يمكن التوفيق، في الواقع، بين الدعوة الى التحرر من المسؤوليات التي لا تتصل مباشرة باهتمامات الحزب، وبين ضرورة «الحضور في شتى ميادين الحياة»؟ ثم كيف يمكن شرح مسألة «التمييز بين الطليعة السياسية للمجتمع من جهة، والحكومة والادارة، التي إنتقلت الى أيدي السوفييات من جهة أخرى»^(٤٦)؟ يلاحظ نيكولاي ريجكوف: «ان الحزب، الذي يلعب دور المحرك في النظام الاداري يخسر، مع تحطيم هذا النظام، ما هو أساسي امكانية اعطاء توجيهات مباشرة، والاهتمام، وكما جرت العادة، بمسائل الحياة الاقتصادية والبناء السوفياتي والعديد من القضايا الأخرى أيضاً»^(٤٧). يعتبر ريجكوف وهو عضو في المكتب السياسي والوزير الأول، أحد أقرب رفاق السلاح لغورباتشوف. في العمق، هو موافق على ان مسألة «اعطاء توجيهات مباشرة»، «كانت وعلى الدوام متناقضة مع طبيعة الانتظام السياسي». فالانحراف واقع بإعتبار ان حزب لينين قد إبتنى على أساس التدخل المباشر في شتى ميادين الحياة. لذا يبدو وكأن ريجكوف يميل «للفصل» بين الصلاحيات. ولكن يكفي بالقول بأنه لم توجد بعد اساليب سياسية جديدة للتوجيه؛ وبأن «القوى الحية» التي يستند اليها غورباتشوف، بما في ذلك «القوى الأقل حيوية»، لا تستطيع ان تمارس دورها إلا عن طريق «التوجيه المباشر». ان مقلع الامناء الأول ناجم عن ان الطلب إليهم التخلي عن «اساليب مدانة بحق»، ترافق مع اتهامهم بأنهم أرخوا «قياد التوجيه»^(٤٨).

ان موضوعه «فصل السلطات»، والتي جعل منها غورباتشوف نواة اصلاحه السياسي، لاقت المصير نفسه لباقي «تجديدات» البريسترويكا. يتم الطلب الى جهاز الحزب التخلي عن جزء من مسؤولياته لصالح السوفيات. ولكن مجالس السوفيات تنتظر القانون المحدد لمسؤولياتها، وسلطتها وامكانياتها الاقتصادية. فكما أعلن أيغور ليغاتشيف: «اليوم إبتدأ الفصل بين مسؤوليات الحزب والدولة. ولكن، وكما كانت الحال مع باقي الاصلاحات والتجديدات، ينقصنا الصبر، ونريد ان نصل مباشرة الى النتائج. في حين ان مجالس السوفيات لا تملك بعد الحقوق والوسائل التي تحتاجها، وفي العديد من الأماكن، تبنت لجان الحزب موقف عدم التدخل، والوقوف على الحياد، بحيث انها لم تعد تهتم، من الآن فصاعداً، بحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية» (٤٩).

ان إقدام غورباتشوف على تحقيق اصلاحه السياسي، لم يغير في وضعه. الشيء الكثير. و«فصل السلطات» تم على عجل، وبإهمال، دون تحضير فعلي. أي كما حصل بباقي إصلاحات البريسترويكا. الشيء الوحيد الذي بلغ هدفه، بعناد، وبطريقة منتظمة، هو قسم الاصلاح السياسي المتعلق مباشرة بالقائد. فإنتفاضة الامناء، التي غدت كالعاصفة في تموز ١٩٨٩، في اجتماع اللجنة المركزية، كانت موجهة ضد غورباتشوف. ولانحة الطعون التي صاغوها كانت أكثر جدية من تلك التي سببت اقالة خروتشوف. لقد تحدث نيكولاي ريجكوف عن وضعية جديدة على مستوى قمة هرم السلطة، عن مثلث نظام الحكم: اللجنة المركزية للحزب، مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، ومجلس الوزراء. في ضوء ذلك طرح ريجكوف سؤالاً منطقياً: في شروط ممارسة مجلس السوفيات الأعلى لعمله بشكل دائم، ما هي مسؤوليات اللجنة المركزية المكتملة والمكتسب السياسي. اللذين كانا، حتى الوقت الراهن، يعملان على بلورة التصورات المختصة بالتطور الاقتصادي للبلاد، والخطط الخمسية والسنوية، ويتوليان إتخاذ القرارات المتصلة ببرامج الدولة، الخ...؟ يستنتج: لم نعد نستطيع، كما في السابق، أن ننظر ببساطة التعليمات المباشرة من الحزب فيما يتصل بالمشاكل الاقتصادية، والاصلاح الاقتصادي، والسياسية العملية والتقنية، ومسائل أخرى.

فمسؤوليات الحزب، على المستوى الأعلى، اوضحت برأي ريجكوف، «مهمة» (٥٠).

بالنسبة لأمناء الحزب، من الواضح، ان زاويتين من المثلث تتبعان الامين العام ورئيس مجلس السوفيات الأعلى، ميخائيل غورباتشوف. أما الزاوية الثالثة، أي مجلس الوزراء، فالكل يعلم انها الأقل أهمية، وهي وتبقى على أي حال فرعاً من أصل. اما سخط الكوادر فمرده الى ادراكهم بأن تقليص صلاحيات الامناء سوف يتيح للقائد التصرف بمجال واسع من السلطة. وسيجد هذا السخط لاحقاً تعبيراته العلنية. يرى الأمين الأول لمنطقة سفردلوفسك، ل. بوبيكين: «في الأوقات الأخيرة، ضعف دور سكرتارية اللجنة المركزية»، ويقترح من أجل معالجة هذه المسألة تسمية «أمين ثانٍ، أياً يكن الاسم الذي سيطلق عليه»^(٥١). ويرد ريجكوف، الكرة الى ملعب غورباتشوف في دعوته الى تحرير الحزب من «المهام الصغيرة»، قائلاً: «علينا السعي، وبكافة الوسائل، كي نمكن الامين العام، ميخائيل سرغيفتش غورباتشوف، من ايلاء الإهتمام اللازم لمسؤولياته تجاه الحزب. يجب ان نحرره من المهام الصغيرة التي تغرقه. موفرين له امكانية الانصراف الى معالجة المسائل المبدئية، التي يتوقف عليها حاضر الحزب ومستقبله. فمن المفروض ان يقود هو شخصياً قضية البريسترويكا في الاتحاد السوفياتي»^(٥٢).

يدرك غورباتشوف، كما يدرك الامناء الأول، ان السلطة ليست في معالجة «المسائل المبدئية»، ولكن في إدارة التفاصيل، وايجاد الحلول «للمشاكل الصغيرة». لذلك فإن الامناء الأول لا يستطيعون ان يتحملوا الاعتداء على سلطتهم الفعلية، عن طريق مركزة الجزء الاعظم منها بيد الامين العام.

في صيف ١٩٨٩، تم انجاز المرحلة الاولى من الاصلاح السياسي الخاص بغورباتشوف. فقد تمت أعجوبة «دمج المسؤوليات». وتمكن القائد من احتلال المنصبين الرئيسين. وهذا الوضع أصبح من الصلابة، بحيث يستطيع ان ينظر الى معارضة الامناء باعتبارها تمثل مرحلة دون اي وزن في مواجهة صعوده نحو قمة السلطة. ان دروس المؤامرة ضد خروتشوف لم تذهب سدى.

بقيت المرحلة الثانية من الاصلاح السياسي. والتي تقضي بضرورة بناء جهاز خاضع كلية للقائد. ان الاستراتيجية التي تبناها غورباتشوف، بتعبير المنظر العسكري البريطاني ليدل هارت، استراتيجية غير مباشرة، تقوم على مبدأ مواجهة

العدو بشكل مباشر. فهكذا أجاب على انتفاضة الامناء، الذين يؤكدون بأن الإصلاح كان مدخلاً لآحداث أزمة في الحزب «وانحسار الثقة الشعبية»، بالتعجيل بإ انعقاد مؤتمر الحزب في صيف ١٩٩٠. «لانه بحاجة الى «جهاز»، ولكن «جهاز جديد». وفي ذلك إدانة حاسمة للجهاز القديم، ولدواليب الآلة - هذه الآلة التي يحاول كل امين عام ان يجعلها أكثر فاعلية، عن طريق إصلاحها او إحداث «بريسترويكا».

الجزء السادس

الى الأوج

«ان من يبنّي نظاماً جديداً من الحكم يجعل من كل تمتعوا بالامتيازات، في ظل النظام القديم، أعداء له، ولا يجد إلا دعماً فائراً من الذين سيربحهم. هذا الفتور يفسر جزئياً بالخوف من الاعداء، وجزئياً أيضاً بنقص الايمان بالأشياء الجديدة، طالما انها لم توضع بعد موضع التجربة».

مكيافلي

الفصل السابع عشر

مستشارية شخصية

يتضمن مجيء قائد جديد على الدوام نوعاً من الانتظام الجديد، حتى لو بقيت بنية النظام ثابتة. فعندما انتخب غورباتشوف أميناً عاماً، لم يكن من المبتدئين في الكرملين. ولكنه لم يكن أيضاً محترفاً للمكائد التي تعقد فيه. ببساطة، وخلال سبع سنوات من العمل كسكرتير للجنة المركزية، عرف كيف ينسج حوله مجموعة علاقات، ويألف آليات السلطة العليا. ولكن الأمين العام الجديد كان يمتلكه نزوع لتكوين مكتبه الخاص. ثم ألم تشكل سكرتارية اللجنة المركزية وسيلة أساسية لسلطة ستالين؟ ففي آب ١٩٢٣، سمى المكتب التنظيمي للجنة المركزية بشكل رسمي الرفيق باجنوف «مساعداً لسكرتير اللجنة المركزية، الرفيق ستالين»^(١). ففي ذلك الوقت، كان لستالين مساعدين، غير أن الوثائق المتعلقة بتسميتهما تبقى، في الظاهر، في طي الأرشيف، والمعروف فقط أن أعضاء المكتب الشخصي لستالين يطلق عليهم اسم مساعدين. وهذا الأمر مستمر حتى اليوم. لكن أسماء وأنشطة هذه «الدواليب» الأساسية في آلة القيادة تبقى في الظل. فالمذكرات المنشورة لا تشير إلا عاماً لهذا الموضوع، كتولي لسيديف مثلاً لمنصب مساعد خروتشوف، الذي نقل إليه «يوم من حياة إيفان ديسوفيتش». وألكسندروف أغتوف الذي تولى أيضاً مسؤولية مساعد خروتشوف للشؤون الخارجية، وبقي في مسؤوليته هذه في ظل بريجنيف، وأندريوف، وتشيرنينكو، وظهر في بعض الصور بشكل سريع.

كذلك فإن فريق غورباتشوف غير معروف بأكثرية أعضائه. ففي زيارة لى يوغوسلافيا، أتى الأمين العام على ذكر اسم مساعده، غيورغي شاخنازوف الذي كان يرافقه. كما عُرف إسمي مساعدين آخرين: أناتولي تشرنيائيف وإيفان خرولوف. إن المظهر المهني لهؤلاء الثلاثة له دلالة الخاصة، فهو يعكس خاصية السياسة

الغورباتشيفية . فمساعدوه من المختصين بميدان «العلوم الانسانية والاجتماعية» :
تشرينايف مؤرخ ، وفروloff فيلسوف ، وشاخنازروف عالم سياسة . كما انهم شغلوا
ولمدة طويلة وظائف في جهاز اللجنة المركزية ، منها العمل في الشعبة العلمية وشعبة
الأخبار العالمية .

في أواخر ١٩٨٩ ، دفع ميخائيل غورباتشيف مساعده ايفان خروloff الى منصب
رئيس تحرير البرافدا ، مؤمناً انتخابه لمسؤوليات سكرتير اللجنة المركزية ، بهدف تقوية
سلطة الجهاز المركزي للحزب الشيوعي السوفياتي . وفي كانون الثاني ١٩٩٠ ، انضم
الاقتصادي نيكولاي بيتركوف الى المستشارية الشخصية لغورباتشيف . ومنذ أواخر
١٩٨٩ ، حمل فاديم زغليادين عنوان «مساعد» ؛ الذي عمل ، لمدة عشرات السنين في
الشعبة الدولية للجنة المركزية ، يداً اليمنى لبوريس بونومارييف المنفذ الأمين لسياسة
ستالين الخارجية ، منظم وقائد الحركة الشيوعية العالمية .

أما غيوركي شاخنازروف وهو كاتب غزير الإنتاج نشر مقالات وأعمال تتصل
بمسائل العلوم الاجتماعية ، وسمحت له أعماله بتبوّ منصب عضو فخري في أكاديمية
العلوم ، هذا إضافة الى أنه شغل منصب رئيس الجمعية السوفياتية للعلوم السياسية ،
والنائب الأول لرئيس الجمعية الدولية للعلوم السياسية . وبموازاة ذلك ، شغل منصباً
هاماً في شعبة الأخبار الدولية في اللجنة المركزية . واهتم بكتابة روايات في ميدان الخيال
العلمي . أما آراء مساعديه الآخرين فلا يمكننا التعرف إليها إلا عن طريق النصوص
الرسمية التي تحضر بناء لرغبة غورباتشيف . نشر غ . شاخنازروف ، في أواخر
١٩٨٣ ، كتاباً بلغ حجمه ٧٦٧ صفحة ، جمع فيه أعماله من عام ١٩٧٨ الى عام
١٩٨١ تحت عنوان : الاشتراكية والمستقبل .

أنهى عالم المستقبلات والسياسة كتابه بنداء وجهه الى الأجيال القادمة : «من
الممكن أن يرغب البعض في قراءة هذا العمل عام ٢٠٣٠ . وسيجد فيه الكثير من
المسائل التي تبدو هزلية بالنسبة لحكمة ذلك الوقت . كما ان بعض المسائل لن تبدو
صحيحة تماماً ، فيما أخرى لن تكون صحيحة مطلقاً . ولكن الأساسي يجب أن يتحقق .
فالاشتراكية حتمية ، ولن تكف عن التطور»^(٢) . بإستطاعة القارئ الذي يلقي نظرة
على هذا المؤلف ، بعد خمس سنوات ، وليس بعد خمسين سنة من نشره ، أن يكتشف فيه
الكثير من المسائل «الهزلية» : التأكيد الجازم ، على سبيل المثال ، أن «مجتمعاتاً إشتراكياً

متطوراً قد بني في الاتحاد السوفياتي»^(٣)؛ وأن كافة البلدان «التي إختارت طريق الاشتراكية»، من منغوليا إلى جمهورية المانيا الديمقراطية، مروراً بتشكوسلوفاكيا، وبولونيا وهنغاريا، «قد تطورت بوتيرة سريعة، تجاوزت بكثير وتيرة النمو الاقتصادي للبلدان الرأسمالية»^(٤)؛ أضف إلى ذلك إنجاز أعمال جبارة - في الزمن الجيد لسنوات بريجنيف - «بهدف تطوير سيادة الشعب وترسيخ الشرعية»^(٥)؛ الخ. بموازاة ذلك، نجد في هذا المؤلف جميع مفردات «الفكر السياسي الجديد» لغورباتشوف، ويكفي لذلك ببساطة أن نحرر المؤلف من غبار التأكيد على الموت المحتم للرأسمالية»^(٦).

ومع ذلك فإن الكتاب يحمل ميزة لا بد من أن تثير انتباه الأمين العام. فالنص الأساسي كان قد كتب في السنوات المشرقة من عصر بريجنيف وظهر أثناء فترة حكم أندريوف القصيرة. ولكن إلقاء نظرة على كشاف الأسماء، يظهر العودة إلى أندريوف ١١ مرة، في حين أن العودة لبريجنيف لا تتجاوز ٤ مرات. وفي حوار طويل بين الكاتب أ. أداموفيتش والعالم غ. شاخنازاروف، جرى في صيف ١٩٨٨، يستمر مساعد غورباتشوف بالتأكيد على أن «الاشتراكية... ما زالت بعيدة عن إظهار جميع امكانياتها، ولكنها مع ذلك، أسهمت بقدر لا يُثمن في تطوير الانسانية»؛ وبالرغم من إقراره بحصول بعض «الأخطاء والحسابات المغلوطة في تنظيم وتطوير مختلف جوانب الحياة الاجتماعية». ومرد هذه التشويشات - برأيه - إلى واقع «الابتعاد عن المبادئ اللينينية التي ترعى حياة الحزب والدولة»^(٧)، ويستكمل غ. شاخنازاروف هذه النظرية البريجنيفية - الأندروبوفية، وبعد خمس سنوات من نشرها، بالدعوة إلى «الأخذ بعين الاعتبار للتداخل العالمي»^(٨)، و«تعددية الخيارات الاشتراكية في العالم»^(٩). والتعددية كما يفهمها الكاتب، لا تعني التعايش على قاعدة ثبات الرأسمالية والاشتراكية، بل تتضمن امكانية أن تأخذ الاشتراكية ألواناً مختلفة، بإختلاف البلدان. ففي «السويد، مثلاً، عمل الاشتراكيون - الديمقراطيون على تحقيق العديد من المبادئ الاشتراكية»^(١٠).

يمثل تكوين مستشارية شخصية للقائد الجديد، المهمة الأولى ولكنها الأكثر سهولة. فهو يختار بنفسه مساعديه، وإذا لم يرتاح إليهم، يستطيع استبدالهم بسهولة تامة، ولا تطل الصعوبة إلا عندما تطرح مسألة كوادرات الحزب. وقبل أي شيء، مسألة الجهاز المركزي.

يستتج فيودور بورلاتسكي في معرض تقويمه لأربع سنوات من عمر «البريسترويكا»، ان الانتصارات التي تحققت تقتصر على تلك المتعلقة بالوضع الدولي. ومرد ذلك الى سببين: «كون السياسة الخارجية لا تتطلب موارد إضافية، إذ يكفي توفر فكر جديد، نشط، وجريء، يطرح مبادرات محسوبة»؛ أضف الى ذلك، السبب الثاني وهو «ان لغورباتشوف في هذا الميدان رفاق نضال ومستشارين مجريين» (١١).

يطرح إختيار «رفاق النضال والمستشارين، شيء من التعقيد، على المستوى الأعلى للسلطة، باعتبار قدم وجودهم وإختيارهم للعمل على هذا المستوى من قبل أسلاف السكرتير السابع. تذكر المكتب العديدة، المخصصة لغورباتشوف ولمختلف أوجه نشاطه بالتفصيل، لائحة طويلة بحالات العزل والتعيين التي تروي التحولات الجارية داخل الجهاز المركزي: من غياب أسماء قديمة الى ظهور أخرى جديدة في المكتب السياسي أو سكرتارية اللجنة المركزية. وليس من الضروري التوقف طويلاً، أي أكثر مما تفرضه العادة، عند أسماء البعدين، الذين أعيدت تسميتهم أولاً، مع ملاحظة، أنهم استمروا ويستمرون في لعب دور منفذي سياسة الأمين العام.

فما هو مهم، يتمثل بالتقنية المعتمدة لـ «تصفية» الجهاز القديم وتكوين الجهاز الجديد. فقد أثبتت السنوات المنصرمة، السيادة المطلقة للأمين العام على جهازه. ومن الممكن أن «غورباتشوف» لم «يعد» بعد كل من يود التضحية بهم. فما يشغله هو الثمن المتوجب دفعه في حالة أي استبعاد، وما إذا كان هناك من مصلحة راهنة للاحتفاظ بهذا الشخص أو ذاك في المكتب السياسي، بغض النظر عن درجة توافقه معه. يملك غورباتشوف راهناً حرية عمل واسعة، كما يشهد على ذلك أمثلة عديدة، منها التسوية غير المقنعة لأناتولي كوكيانوف في منصب نائب رئيس مجلس السوفيات الأعلى. فإنتخاب لوكيانوف، الذي لم يكن يحلم به أحد، قد تم دون صعوبات تذكر.

الفصل الثامن عشر «منتج الأفكار»

«ليس المداوي انساناً دون نظرية، إذ للمداوي نظريته، ولكنها خاطئة، وغالباً ما تكون مهترئة»

فيكتور شخلوفسكي

يستحق شخص واحد فقط ، من بين «رفاق سلاح» غورياتشيف ، هذا اللقب . على الأقل ، هذا ما يقال في الاتحاد السوفياتي . فالسيرة الذاتية لالكسندر إياكوفليف تتصف بالتعرج . فقد ولد عام ١٩٢٣ ، وخدم في الجيش خلال الأعوام ١٩٤١ - ١٩٤٣ . ثم أتم دروسه في معهد إياروسلافل التربوي ، وعمل لمدة سبعة سنوات في لجنة الحزب الاقليمية لهذه المدينة .

وفي عام ١٩٥٣ ، تم نقل إياكوفليف الى موسكو للعمل داخل اللجنة المركزية ، حيث ترقى من منصب الى آخر ، وصولاً للعمل في شعبة الدعاية . وفي بداية ١٩٧١ ، تمت تسميته مسؤولاً لهذه الشعبة ، وإبان عمله ، كان قد أنهى دراسته في أكاديمية العلوم الاجتماعية ، المصهر الحقيقي لكوادر الحزب ، كما أمضى عدة أشهر عام ١٩٥٩ ، كأستاذ بديل في جامعة كولومبيا . أضف الى ذلك أنه من المؤلفين المكثرين . حيث سمحت له مؤلفاته بانتخابه عضواً فخرياً في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وتعطي عناوين أعماله فكرة دقيقة عن مضمونها وتوجهاتها : الفقر الايديولوجي عند مدّاحي «الحرب الباردة» . الأدب الأميركي البرجوازي حول السياسة الخارجية لحكومة الولايات المتحدة خلال الأعوام ١٩٥٣ - ١٩٦٠ (١٩٦١) ؛ الدعوة للقتل . الملقون الأميركيون حول مشكلات الحرب والسلم (١٩٦٥) ؛ ايديولوجية «الامبراطورية»

الأميركية. مشكلات الحرب والسلام والعلاقات الدولية في الأدب الأمريكي البرجوازي بعد الحرب (١٩٦٧)؛ السلم الأمريكي. الأيديولوجية الامبريالية: النابيع، المذاهب (١٩٦٩). كما نشرت تحت إشرافه وثائق للبتاغون: درجات الحرب والخداع. وما تكشفه الوثائق السرية للبتاغون (١٩٧١). أضف إلى ذلك، أهمية المؤلف المشترك الذي ساهم فيه أ. إياكوفليف: أسس المعرفة السياسية. موجز المدارس السياسية لنظام التعليم في الحزب (١٩٧٢). حيث سحب منه في الطبعة الأولى ٢٥٠ ألف نسخة. ثم تمت ترجمة هذا الموجز الأساسي بالنسبة لكوادرات الحزب إلى عدة لغات، بما في ذلك اللغات البنغالية، والهندية، والسنتغالية.

ويتوقف المجري الوظيفي لإياكوفليف في أواخر ١٩٧٢. حيث تظهر في ليرتاتورنايا غازيتا، مقالة - على عامودين -، معنونة: «ضد أعداء التاريخانية» وموقعة ببساطة: أ. إياكوفليف، دكتور في العلوم التاريخية. تتناول المقالة بالتحليل المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي، وتتوقف بشكل خاص عند الاتجاهات الروسية المتعصبة التي تحضر في أدب وأعمال الصحافيين بطريقة مدوية. يلفت أ. إياكوفليف الانتباه لخطر إنبعث «الاتجاهات القومية»، معللاً ذلك بسببين: فمن جهة، تعمل هذه الاتجاهات على تقويض الايمان بالاشتراكية، إلى إظهار «التغيرات التي أحدثتها الاشتراكية في بلادنا خلال نصف قرن، والممارسة الاشتراكية للمجتمع السوفياتي، وهي في أساس الأخلاق الشيوعية... ، بدا كل ذلك وكأنه تجديدات مصطنعة ومفروضة... لا تبرر مطلقاً الكسر الذي أصاب نمط الحياة الاعتيادية»^(١). كما يشير إياكوفليف إلى أن مؤلفي الأعمال والمقالات المعنية، «يخافون من استخدام كلمات وتعايير مثل، «سوفياتية»، و «اشتراكية»، و «كولخوزية». أما من جهة أخرى، فإن انبعث الاتجاه القومي الروسي يوقظ النزعات القومية لدى الشعوب الأخرى المكونة للاتحاد السوفياتي.

«إن العمل على جعل الماضي معطى مثالياً، بالإضافة إلى ذلك الانطلاق من مواقع اجتماعية مهمة، يؤدي إلى الدخول في مناظرة عبثية من أجل معرفة أي من القياصرة كان الأفضل...» وفي معرض الرد على جعل القياصرة والاستراتيجيين الروس رموزاً مثالية، يحق للجيجورجيين العمل على وضع النصوص المقرظة «لمملكة تamar المشعة»، وكذلك الأمر بالنسبة للاوكرانيين في نظرهم إلى أمير كييف الأسطوري بوغدانو غاتيلو، الذي يغطي في الواقع على زعيم الهانس، أتيل، والأوزبك مع تيمور، والكازال في علاقتهم

بحركة كينيساري كاسيموف، والمولداف في نظرتهم الى أبطالهم الكبار في القرن الأخير، الخ. . أضيف الى ذلك، ان إستحضار الماضي البعيد، وما يخفيه، بشكل عام، من مراحل صراع ضد روسيا، يؤدي الى إثارة مسائل أكثر قرباً. يخلص اياكوفليف الى الاستنتاج بأن هذا السياق يؤدي الى «بروز محاولات لتلميع وتبيض صورة بعض ممثلي الاتجاهات القومية البرجوازية، وهذا ما نجده في سلسلة من المنشورات حول القوميين البرجوازيين الأوكرانيين، ومناشفة جيورجيا واشتراكيوها - الديمقراطيون، والأشناك (أعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الأرمني) الأرمن».

لقد اعتبرت مقالة اياكوفليف موجهة ضد الاتجاه القومي الروسي. وخضعت للمناقشة في إحدى جلسات المكتب السياسي. وكان المتهم الأول لهذه المقالة مسؤول الشعبة الثقافية في اللجنة المركزية، فاسيلي شاورو. وهذا الأخير، وهو من روسيا البيضاء دافع عن الفكرة القومية الروسية ضد الروسي اياكوفليف. لقد أدين المقال وتم إبعاد كاتبه بتعيينه سفيراً في كندا.

قليلون جداً هم الذين التقطوا نفاذ بصيرة أ. اياكوفليف وحكمته السياسية على مستوى مراتب السلطة العليا. فمقالته هي قبل أي شيء، تحذير منفصل لمنظر سوفياتي تقليدي، ولمحافظ مقتنع بخطورة اللعب على وتر القومية. هذه الخطورة التي تمس النظام السوفياتي بشكل عام، والوحدة الوطنية للاتحاد بشكل خاص. فما يؤكد اياكوفليف - الشيء الوحيد المثير في نصه - ان المتغير الطبقي هو الأساس الوحيد للدولة السوفياتية المتعددة القوميات. في حين ان التصالح مع الاتجاهات القومية يؤدي، برأي المؤلف، الى الاعتراف بوجود مشاعر فوق الانتهاء الطبقي على سبيل المثال، وجود أخلاق أبدية، أو مبادئ قيمة عليا. ويعيد التذكير بقول لينين غير قابل للدحض: «نحن لا نعتقد بوجود أخلاق أبدية، كما ندين الخداع الذي تسببه روايات المبادئ الخلقية العليا». ولا يكفي الكاتب بهذا الاستشهاد، خوفاً من أن يكون غير كاف، فيضيف إليه إستشهاد آخر مأخوذ من رسالة وجهها لينين الى غوركي: «ان النتائج السياسية العملية المترتبة على أي موعظة أخلاقية، لا تقاس بالرغبة في «تعيين الجيد والحسن»، والتأكيد على «الحقيقة والعدالة»، ولكن بالمضمون الاجتماعي الموضوعي لوجهات النظر المعبر عنها، وبالظروف الواقعية للوجود الاجتماعي».

فقط الأيديولوجيا السوفياتية - الأخلاقية بمبدئها، «التاريخية». بتعبير آخر لا تأخذ

بعين الاعتبار إلا «الظروف الواقعية للوجود»، وترفض الارتباط بما يسمى القيم الأبدية، التي تطرح نفسها فوق الطبقات، والأساطير التي «تجلبها الايديولوجيات البرجوازية» - تستطيع أن تشكل قاعدة النظام السوفييتي. هذا هو مضمون نداء ألكسندر أياكوفليف. ولكن في عام ١٩٧٢، لم يكن مسموعاً، ووجد صاحبه نفسه منفياً إلى كندا.

حدث، الانقلاب في مصير إياكوفليف في شهر أيار ١٩٨٣، إبان زيارة قام بها إلى كندا سكرتير اللجنة المركزية وعضو المكتب السياسي، ميخائيل غورباتشيف. وتريد «الأسطورة» أن يمضي الزائر وسفير الاتحاد السوفييتي في أوتاوا ليلة كاملة من المحادثة إنتهت بأن اكتشف كل منهم في الآخر ضالته. وفي حزيران، استقدم يوري أندروبوف، الأمين العام آنذاك، إياكوفليف إلى موسكو ليسند إليه منصباً مرموقاً، وإن يكن محدود الأهمية: مدير معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية. ويترك للمؤرخين القول، في المستقبل، ما إذا كان أندروبوف قد أرسل غورباتشيف للاتصال بإياكوفليف، أو أن غورباتشيف قد أقنع أندروبوف بما يتسم به السفير السوفييتي في كندا من ميزات.

فتح انتخاب غورباتشيف أمام إياكوفليف الطريق نحو موقع مشرق. فقد أصبح سكرتير اللجنة المركزية، ثم عضواً في المكتب السياسي. وأسندت إليه مهمة الاشراف على النشاط الايديولوجي. ولكن غورباتشيف لم يتأخر في تعيين فاديم مدفديف لهذا الموقع، على أن توكل إلى إياكوفليف الاشراف على السياسة الخارجية.

يفضل ميخائيل غورباتشيف أن تكون كفاءات أمناء اللجنة المركزية وأعضاء المكتب السياسي غير محدودة بإطار معين، كيف يتمكن عدة أشخاص من الاهتمام بأي من المشاكل المطروحة. فالإقتصاد، مثلاً، هو من اختصاص نصف أعضاء المكتب السياسي، بمن فيهم رئيس الوزراء.. كذلك فإن أ. إياكوفليف يتابع السياسة الخارجية، التي يتولاها وزير الخارجية وعضو المكتب السياسي شفارندزه. كما أن إنكباب إياكوفليف على رسم الاستراتيجيات، لا يدفعه إلى احتقار الممارسة الدبلوماسية: بحيث يستقبل السفراء الأجانب المعتمدين في موسكو.

تمثل المهمة الكبرى التي يتولاها ألكسندر إياكوفليف في العمل على إنجاز

«تصور مكتمل لك «فكر الجديد»». فهو بدون شك المؤلد الرئيس لأفكار غورباتشوف. فالأمين العام يستخدم بكثرة كلمات، وتعايير، وأفكار السفير السابق في كندا.

تعرضت أفكار ألكسندر إياكوفليف للتطور. وعند دراسته عن قرب، يتبين لنا تغير الأسلوب البلاغي والخطاب. في عام ١٩٨٥، لدى عودته إلى موسكو، كتب في مقدمته لكتاب جديد - على حافة الهاوية: من ترومان إلى ريغان - ان الرؤساء الثانية لأميركا ما بعد الحرب، «قد استخدموا الأساليب ذاتها، من أجل زرع الخوف من التهديد الخارجي، وإثارة الشوفينية المتفلتة، وتبرير نمو الروح العسكرية والعدوانية، والقيام بعملية غسل دماغ الشعب، كي لا يتمكن من تغذية الأفكار غير المرغوب بها من قبل القوى المسيطرة». وفي نهاية ١٩٨٦، يعلن إياكوفليف المشرف على النشاط الأيديولوجي، إدانته «لثقافة الجماهير الغربية» وتأثيرها المشؤوم على الشعب السوفياتي^(٢).

بعد عام ١٩٨٧، بدأت تظهر تعبيرات جديدة في قاموس المنظر الأول: «نرى الماضي والحاضر بطريقة أكثر اكتمالاً وأكثر دقة، ونرى المستقبل بطريقة أكثر واقعية»^(٣). ويتابع قائلاً: «بين نيسان ١٩٨٥، وكانون الثاني من هذا العام (١٩٨٧)، قمنا بتحقيق عودة جماعية إلى الحقيقة»^(٤). هنا لا يتم اكتشاف الحقيقة، بل العودة إليها بسحب «موضوعات نيسان»؛ إنها موجودة: فهي حقيقة لينين. ثم يأتي الرؤية: «ان مسألة المبدأ الخلقي تشكل المسألة الأساسية للبريسترويكا. فبدون العامل الروحي، لا وجود للبريسترويكا»^(٥). في هذه المرة نضع جانباً العودة إلى لينين، الذي «يدين خداع كافة روايات المبادئ القيمية العليا». كما ان من الممكن إكتشاف نصوص عند القائد الكبير، تظهر فائدة الأخلاق.

إذاً، لقد تم إدخال تعابير، الروحي، والقيمي، والأخلاقي، في قاموس «الفكر السياسي الجديد»، الذي تولى صياغته أساساً إياكوفليف. فهو يشرف على تكوين «التصور الناجز»، وييلور «خطط البريسترويكا»، ليس فقط «لكل مستوى من مستوياتها، بل أيضاً لوحدها، ولتشابك مختلف دوائر نشاط وحياة المجتمع»^(٦).

في نيسان ١٩٨٧، عرض الكسندر إياكوفليف الموضوعات الأساسية لايدولوجية

«البريسترويكا». ففي اجتماع للباحثين في العلوم الاجتماعية، عقد في أكاديمية العلوم، قدم اياكوفليف تقريره. الذي أعادت نشره البرافدا بشكل مكثف، واكتفت الكومنوست بنشر موجز عنه، ولم ينشر كاملاً إلا في مجلة الأكاديمية. وحسب التعبير الخاص المستخدم في الاتحاد السوفياتي، فإن ما عرضه اياكوفليف يمثل أساساً في الاتحاد السوفياتي، فإن ما عرضه اياكوفليف يمثل أساساً «تقرير خدمة»، لتثقيف المؤرخين، والفلاسفة، وغيرهم. والشيء الملفت في هذا البحث، صلته المباشرة مع مقالة كان قد نشرها اياكوفليف عام ١٩٧٢، يؤكد الكاتب: «تحتّم الضرورة الاستمرار في تطوير المنهج التاريخي في العلوم الاجتماعية»^(٧). بتعبير آخر، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف العيانية، من أجل تحليل الواقع. أي ينطلق المنظر الأول من مسلمة «نيسان» (يكتب اسم الشهر بأحرف كبيرة)، أو العصر الثوري لكـ «تغييرات الجذرية»، كي يعلن أن «دورة نيسان، والمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، قد سلّح الحزب بمعارف علمية محققة على ضوء السمات الأساسية للعصر، وللعالم المتناقض، ولكن في الوقت عينه المتداخل وبالنسبة للعديد من بشكل وحدة، وبفهم للطرق الأفضل، وللوسائل والمناهج التي تسمح بإيجاد الحلول للمسائل الهامة التي تتصل بمصائر الحضارة، في هذه المرحلة المفصلية من التاريخ العالمي»^(٨).

يسمح سلاح المعرفة العلمية للعالم الذي يمتلكه اياكوفليف، وإطلاعه على الطرق والمناهج والوسائل، بوضع تصور لاعادة بناء العالم، وتحقيق «البريسترويكا». وحتى نيسان ١٩٨٧، كان اياكوفليف ما يزال متمسكاً بمواقفه التي أعلنها في عام ١٩٧٢، مركزاً على مركزية الصراع الطبقي، بإعتباره التناقض الأساسي الذي يحكم العلاقة بين النسقين المتعارضين. عارضاً المثال التالي: «... تعارض وطنية لينين، الإبن النبيل لروسيا، مع وطنية ستولييين موظف الأوتوقراطية الموهوب، تعارضاً جذرياً، فبين الرجال والعوالم هوة طبقية سحيقة»^(٩) ثم يؤكد على ما يلي: «لقد فكرنا... (ولمدة طويلة) بمقولات نفى الرأسمالية والتنافس معها»، ويتهي إلى القول: «بأن ميزان العقل، يفترض صحة ذلك»^(١٠). في أساس تصور اياكوفليف، ان الرؤية الجدلية - المادية للعالم لا تقبل «نفي سمة التعارض الأساسي من التشكيلتين القائمتين اليوم، أو إهمال الوحدة الأساسية للعالم المعاصر...»^(١١) ويسمح له الديالكتيك بالتأكيد على أن «ضرورة تعاون البشرية جمعاء، لا يقلل من أهمية مسائل التناقض

الايديولوجي بين الاشتراكية والرأسمالية» (١٢).

يشتمل هذا التقرير على تأكيدات أخرى من نوع: «يمثل الانسان بالنسبة للإشتراكية، القيمة العليا» (١٣)، «ان مهمتنا تفترض الوصول الى تطوير منهجي للاقتصاد، وللمركزية الحقيقية وللديمقراطية الحقيقية أيضاً» (١٤)، كما يجب أن نرفض وبحزم كل المحاولات التي تهدف الى تصوير المسيحية «أم الثقافة الروسية» (١٥). بالمحصلة لا يحتوي هذا التقرير على أشياء جديدة ضمن فيض انتاج ألكسندر إياكوفليف الايديولوجي. وتكمن فائدته الوحيدة في إشارته الى مرحلة من التطور الاجمالي للغة الايديولوجية المتصلة بمرحلة «البريسترويكا».

أتاحت الذكرى المثوية الثانية للاستيلاء على الباستيل، لاياكوفليف الفرصة للشروع بوضع تصور جديد للثورة: من الثورة الفرنسية وصولاً «للبريسترويكا». يشير الكاتب بداية الى ضرورة «إعادة التفكير الشامل بمبدأ قبول العنف وحدوده في التاريخ. ليس في الماضي فقط، بل راهناً وفي المستقبل أيضاً، حيث لن يكون هناك مكان للعنف». حتى أن فكر كارل ماركس يحتاج بدوره للمراجعة: «وفكرة أن العنف هو قابلة التاريخ قد مضى زمنها، تماماً كما ولّت فكرة سلطة الديكتاتورية التي تركز حصراً على العنف» (١٦). ويؤكد منظر «البريسترويكا»، على أن كافة الحلول «يجب أن تكون انسانية، وتحافظ على الانسان». ويذكر أن «الحضارة تفضي، عند كل منعطف من تطورها الى فكرة نبذ العنف». منذ «وصية» لا تقتل «التوراتية»، وصولاً الى عالم متزوع السلاح الثوري، لا مكان للعنف فيه. فالجرائم الأكثر بشاعة أضحت ممكنة عندما شرعت «اللاأخلاقية بإسم الأخلاق». ثم يتقل بعد إبرازه للدور التقدمي الذي لعبته الثورة الفرنسية، الى كشف نقاط ضعفها ومحدوديتها، خاصة عندما أقدم الاقتصاديون الفيزيوقراط، أمثال كيناي وترغو، على «إدانة الميراث الكبير لأسلافهم: أرسطو، وسقراط، أفلاطون وتوما الأكويني، وآدم سميث وآخرون، لأنهم لم يستطيعوا رؤية الإقتصاد خارج الأخلاق».

تكمن الخصوصية الكبرى لـ «ثورة» غورباتشيف، في أن الأشخاص الذين ساهموا في صنعها كانوا قد خدموا وبأمانة، الأمناء العامين السابقين. وقد أطلت مرحلة جديدة، دفعتهم لتدريس وجهات نظر جديدة. وقد شاعت رواية انجيلية في

أوساطهم، وهي تحول «سول» ليصبح القديس «بول». (بولس)، وإن فرقاً عديدة تابعة لـ «سول»، كانت قد قطعت خطوات هامة نحو الشيوعية، قامت فجأة بالانتقال إلى معسكر «بولس»، سالكة الطريق الجديد الذي تقتضيه الضرورة. فإذا قارنا بين كتابات الكسندر اياكوفليف قبل تغيير هيبته وبين الكتابات اللاحقة، يتكون لدينا الانطباع بأن الكاتب يعمل على تشويه صورته. في عام ١٩٧٢، كان يؤكد «أن الدين الأكثر ديمقراطية»، ليس في التحليل الأخير إلا فكراً رجعياً، لأنه يمثل إيديولوجية العبودية الروحية»^(١٧). وفي عام ١٩٨٧، لم يتجاوز الكاتب حدود قناعاته السابقة. أما اليوم، فلا يستطيع التفوه بكلمة دون العودة إلى التوراة وإبراز الدور التقدمي للدين، كما أنه يعدد «التواريخ المهمة» التي حملتها السنوات الأخيرة. فيشير إلى ألفية عمادة روسيا (في عام ١٩٨٧، حذر من خطر الاحتفال بهذه الذكرى)، والمثوية الثانية للثورة الفرنسية، ومثوية الاممية، متجاوزاً التذكير بالذكرى السبعين للاممية الثالثة. لقد أمضى الكاتب مدة خمسة وعشرين عاماً للتعبير، عن كراهيته للغرب بشكل عام، وللولايات المتحدة، قلعة الامبريالية بشكل خاص، عبر العديد من المقالات والكتب التي تفضح الايديولوجية البرجوازية، معتقداً بقوة، «أن نظام الملكية الخاصة هو في أساس إنقسام المجتمع إلى طبقات متصارعة»^(١٨)، أما اليوم فيعلن: «في الواقع، ان هدف الصراع الطبقي هو السلام والإنسجام»^(١٩). هذا العالم، الذي خضع منذ أكتوبر ١٩١٧، للقانون اللينيني: «من يسيطر على من؟»، أضحى في طوره الجديد منذوراً للنصر بواسطة القوانين العلمية للتاريخ، ومحققاً هزيمة كاملة للقديم، بغية إعادة تشكله «ككل». هذا «الكل»، «البيت المشترك»، الذي يسوده الانسجام، هو مادة الشعارات الجديدة للايديولوجية السوفياتية، التي يتم بناؤها بتوجيه من الكسندر اياكوفليف، بالاستعانة بأحجار صلبة، ومجرية، محفوظة في المستودعات.

يلجأ اياكوفليف من أجل تقوية برنامجه، إلى الاستشهاد، كما في السابق، بأقوال للينين تشرح ضرورة النضال الدؤوب. مشيراً هذه المرة إلى توجيهه للقائد يطلب فيه من الثوري عدم فقدان موهبة، «اتخاذ القرار، ووزن الأمور، والتحقق من الظروف والزمن وميدان النشاط، من أجل التصرف كثوري، وفي أي لحظة من العمل عليه تبني سلوك الاصلاحى، بدم بارد، وحكمة عالية». ولكننا لو أن اياكوفليف سمح للينين بالاستمرار في الكلام، لكانا قرأنا ما يلي: «علينا تحمل كافة أشكال التضحيات، وتجاوز

المصاعب الكبيرة، كي نتمكن من نشر دعايتنا وتعبئتنا في المؤسسات والمجتمعات، والاتحادات، بشكل منظم، وعنيد، وبالحاح وصبر، حتى في أكثر الدوائر رجعية . . . علينا القبول بكافة التضحيات وأحياناً - عندما تقتضي الضرورة - إستخدام الحيلة، والأساليب الملتوية، وإخفاء بعض الأشياء بتبصر وإرادة، بها في ذلك إخفاء الحقيقة» .

الفصل التاسع عشر

يمين - يسار

«إذهب إذا، فأنت لا تعرف أين اليمين وأين اليسار»

نقولا غوغول

«للمعارضة حسنة، إذا لم تكن سيئة»

ميخائيل سلتيكوف - شتندرين

يجدر بالأمين العام ان يحتل الموقع الوسط - هذا ما يؤكده الماضي بلا كلل - هكذا، وهكذا فقط، يستطيع تركيز كل السلطة التي يتيحها مركزه بيده. والحالة هذه، فإن الوسط لا وجود له بدون جناحي اليمين واليسار. وتوفر حالات الانحراف عن الوسط، الذي يطلق عليه منذ عهد ستالين «الخط العام للحزب»، الفرصة للأمين العام من أجل أظهار موهبته، وقيادة الحزب والبلاد. والحالات الانحراف في تاريخ الحزب، تسميات مختلفة: تباين، تيار، انقسام، معارضة . . .

في عام ١٩٢١، وضع لينين هذا التمييز الدقيق: «لا يشكل التباين حركة مكتملة. لذا بالامكان تصحيحه»^(١). وفي المؤتمر نفسه توصل لينين الى تبني توصية «حول وحدة الحزب»، تمنع الانقسام. وعندما يغيب «التباين»، و «الانقسام» و «المعارضة» فإن الامناء العامين يسعون الى خلقها. ففي سرد لأحد المؤرخين السوفيات - غير مكتمل ومتحيز - لتاريخ «المعارضة العمالية»، يكتب، إن في عام ١٩٢٦، كانت مجموعة أ. شليينيكوف وأ. كولوتايي قد أديننت منذ زمن بعيد، ولكن «الاغلبية» الستالينية، «كانت بحاجة، من أجل تقوية سلطتها الخاصة . . . الى معارضات، حتى

لو كانت وهمية»^(٢). ويعتبر ستالين المعلم الأكبر في اصطناع حالات الانحراف. والانقسام والمعارضة الوهمية. وحتى عندما تظهر أية مقاومة لسياسة الأمين العام، فإن برنامج المجموعة المعارضة يكون عادة - وبعد تفكيك المجموعة - من إختلاف المتصر، أي الأمين العام. هذا ما حصل مع «المجموعة المعادية للحزب» التي صفيت على يد نيكيتا خروتشيف، كذلك الأمر مع خروتشيف نفسه، حيث للمرة الوحيدة في تاريخ الحزب، يزاح الأمين العام، وتلصق به مجموعة أخطاء بوصفها «خطأ»، نُعت «بالإرادية».

يكتب مؤلف السيرة الذاتية السوفياتية الأولى لستالين، مع شيء من التجريح قائلاً: «لقد كان ستالين «وسطياً» في قرارة نفسه... ولكنه كان يعمل بطريقة تؤمن له عدة وضعيات، تسمح له، عند الضرورة، أن يلتحق بسرعة، وبإرتياح ودون مخاطر، بالطرف الأقوى. كما نجد في أرشيف «راديك»، وثيقة ملفتة - «حول الوسطية في حزبنا» - تصف ستالين بالناطق الرسمي للوسطية كما تصف الوسطية بأنها التعبير عن «الفقر الايديولوجي للرجل السياسي»^(٣). ويضيف مؤلف سوفياتي الصورة السياسية لغورباتشيف معلناً بحماس، ومتناسياً في الظاهر التقسيم الأنف الذكر حول الوسطية،: «... يمثل غورباتشيف النموذج الوسطي المثالي - وفي ذلك يكمن مفتاح سحره السياسي. فعندما يشتد التيار المحافظ، يبدو راديكالياً. وعندما ترتفع موجة الراديكالية، يبدو محافظاً، فالوسط هو الموضع الطبيعي لغورباتشيف، ضمن مساحة سياسية أنشئت بالكامل بسبب النشاط الذي أطلقه»^(٤).

تقصف تسمية أجنحة «اليمين» و «اليسار» ضمن المساحة السياسية السوفياتية بشيء من العسر والارباك، لأن الاختلافات داخل قيادة الحزب، ومنذ منتصف العشرينات، إتخذت وعلى الدوام الطابع الشخصي. وتقتصر المناظرات على مناقشة إيقاعات الحركة، ولا تتجاوز حدود التفاصيل. فالصراع ليس إلا صراعاً على السلطة. كما أن إنتصار ستالين النهائي، وضع حداً لذلك، ولم ينزاح إلا بعد موته.

ما إن تم انتخاب ميخائيل غورباتشيف لمنصب الأمين العام، حتى بادر إلى ادخال أمينين من أمناء اللجنة المركزية الى المكتب السياسي: إيغور ليغاتشيف، ونيكولاي ريجكوف، مكمللاً بذلك المستوى القيادي الأعلى، أي جمعية «الأمناء الأول».

شغل ريجكوف بسرعة منصب الوزير الأول، أما ليغاتشيف فقد وضع يده على المحور الايديولوجي. يحتل أمين اللجنة المركزية للشؤون الايديولوجية «الموقع الثاني»، رغم أن الأمناء، على المستوى النظري، هم متساوون. ولكن المركز الأكثر قرباً من الأمين العام، ليس أقل خطورة من مثيله بالنسبة لسائق السيارة. فتاريخ «الموقع الثاني» يحتاج إلى الكتابة: إذ أن كل من الأمناء العامين استهلك كمية كبيرة منهم. وتحتل لائحتهم، من بوخارين إلى كيريلنكو، مساحة عامود في الجريدة. لم يستطع ايغور ليغاتشيف تجنب المصير المخصوص عادة «بالموقع الثاني». فقد وقع عليه دور «المحافظ»، و «الصقور»، و «العدو الرئيسي لصاحب الموقع الأول» ف «الأمين الايديولوجي» يحمل كل الميزات الضرورية. وتشهد سيرته الذاتية على مدى التشابه مع باقي رفاق سلاح غورباتشيف ومع الأمين العام نفسه.

لقد ولد ليغاتشيف عام ١٩٢٠، وأنجز دراسته في معهد الطيران في موسكو، ولكن مع دخوله إلى الحزب عام ١٩٤٤، قرر إحتراف العمل الحزبي. فبدأ عمله في منطقة نوفوسيبيرسك، بصفة أمين لجنة الشبيبة الشيوعية. وفي عام ١٩٤٦، أصبح الأمين الأول للجنة المنطقة. وفي هذه المرحلة، وقعت له حادثة أدت إلى كبح مجرى عمل الشاب المناضل. فقد اتهم «بالسلطوية»، وحب «الترأس»، مما أدى إلى استبداله ثم إرساله إلى الشعبة المتصلة باللجنة المركزية للحزب عبر المدرسة العليا للحزب من أجل إعادة تأهيله. وهذه القصة رواها صحافي سوفياتي قديم ذهب إلى الغرب، ويدعى أ. أشركان^(٥). كما تجد لها مصداقاً غير متوقع في التقرير الذي عرضه سكرتير اللجنة المركزية ج. رازوموفسكي، بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة بعد المائة لولادة لينين. ويكتب رازوموفسكي، وهو المسؤول عن الكوادر، مشيراً بشكل خاص، «بكل أسف، نجد اليوم ضمن دائرة الحزب، أناساً أصيبوا بعدوى استبدادية الرؤساء، ويروجون لعبادة وظيفتهم»^(٦). هذه الاشارة، تبدو في أعين الخبراء واضحة. وبعد «مسيرة الصحراء»، التي إستمرت عدة سنوات - عمل خلالها في جهاز اللجنة المركزية في موسكو - حصل ليغاتشيف على منصب الأمين الأول لمنطقة تومسك وذلك في عام ١٩٦٥. وبدءاً من عام ١٩٧٦، أصبح عضواً في اللجنة المركزية. وكان عليه فيما بعد أن ينتظر نيسان ١٩٨٣، حيث قام يوري أندروبوف بإختيار «كوادره»، مستدعياً إياه إلى موسكو ليسلمه مسؤولية شعبة التنظيم، أي بتعبير آخر: الكوادر. وفي أواخر السنة

نفسها، إرتقى ليغاتشيف الى منصب سكرتير في اللجنة المركزية. ثم في نيسان ١٩٨٥، وفي الدورة الأولى بعد انتخاب غورباتشوف، تم ادخاله الى المكتب السياسي. لقد أجمعت التعليقات على القول: إنه رجل الأمين العام الجديد. يبلغ ابنه البكر من العمر عشر سنوات ونصف. كما أن عمر ليغاتشيف هو أقل مما هو مطلوب عادة بالنسبة لسكرتير في اللجنة المركزية. أضف الى ذلك أن حياة. كل من غورباتشوف وليغاتشيف قد سارت بشكل متواز: فالعمل داخل جهاز الحزب يشكل الجانب الأعظم من سيرتهما الذاتية. كما أن كلاً منهما، كان لسنوات عديدة، سيداً مطلقاً على مساحة واسعة وبعيداً عن موسكو: أحدهما في الجنوب، والآخر في سيبيريا.

بدأت آلية إختلاق «عدو من اليمين» تعمل باكراً. وقد القى دور أساسي في هذه العملية على عاتق الصحافة الأجنبية. ففي كانون الأول من عام ١٩٨٥، أشار مراسل الـ «نيويورك تايمز» في موسكو، وبناء على معلومات الدبلوماسيين الغربيين في العاصمة السوفياتية، الى تنامي دور ليغاتشيف وبأن من المرجح وجود ميل لديه نحو صياغة تصور شديد المحافظة في الاقتصاد. ويضيف الصحافي قائلاً: «لا تأخذ المجادلات السياسية السوفياتية طابعاً علنياً. إذ ما يدور بين القادة المسؤولين من اختلافات حول المسائل السياسية، لا يظهر الى العلن، ولذا فإن الآراء المنسوبة الى كل من أعضاء المكتب السياسي، غالباً ما تتخذ طابعاً تأملياً. فالدبلوماسيون الغربيون يقيمون الاتجاهات عن طريق دراسة الخطابات والمعلومات الأخرى المعلنه»^(٧). الى هذا التحديد الدقيق والصحيح للمصادر التي تسمح بتقويم وجهات نظر القادة السوفيات، يجب أن نضيف حكماً، الاشاعات، المنتجة بحذاقة من أجل الانتشار.

جرباً على عادة جميع أعضاء المكتب السياسي والسكرتارية، فإن مداخلات اغور ليغاتشيف العلنية محدودة. فقط الأمين العام يستطيع الكلام بشكل دائم، وحول كل المواضيع. فقد تضاعف التنازع الشفوي للأمين العام، بعد انتخابه الى رئاسة مجلس السوفيات الأعلى، ثم الى رئاسة الاتحاد السوفياتي. ولكن تجدر الإشارة هنا، الى أن غورباتشوف وقبل تسلمه للمناصب الجديدة، كان يتكلم أكثر من القادة السوفيات مجتمعين. وإلى ذلك تلحظ صعوبة التمييز بين خطاب ليغاتشيف وخطاب غورباتشوف، ان لجهة القاموس المستخدم أو الأسلوب اللغوي لكل منهما. وقد لا يكون من المدهش أن يجري إعداد خطبهما من قبل محررين مشتركين. يقول ليغاتشيف:

«يلزمنا أقصى ما يمكن من الاشتراكية!»^(٨)، ويقول غورباتشيف: «نريد المزيد من الاشتراكية، ولهذا أيضاً، المزيد من الديمقراطية»^(٩). ونستطيع أن نضع الأمثلة التي تكشف تشابه الأفكار، وانهاط التفكير، و «الكليشوهات». ولكن هناك أيضاً بعض الفروقات، وهي من نوعين، فليغاتشيف، وإنطلاقاً من مسؤوليته كحارس للإيديولوجيا، عليه أن يظهر قلقه من أن يتم تجاوز حدود «الغلاسنوست». وهذا ما يعبر عنه بقوله: «لا حاجة لنا إلى حقيقة متواطئة، بل إلى الحقيقة الممتلئة والكاملة»^(١٠). بعد هذا، وانطلاقاً من موقعه «الثاني»، لا يستطيع ليغاتشيف أن يتجاوز الأمين العام؛ بل يبقى وراءه بعدة خطوات، مردداً اليوم ما أعلنه غورباتشيف في الأمس.

لا تشكل تصريحات ليغاتشيف برنامجاً أو مشروع عمل. فهي تعكس فقط رأي نصير للـ «بريسترويكا»، يدرك بأن تسرع الأمين العام - الذي يريد قبل أي شيء تقوية سلطته - قد يؤدي إلى مضايقات حقيقية. فالتباينات المحتملة، التي يسهل معايتها في الخطاب، تتصل بإيقاعات الـ «بريسترويكا».

يؤدي غياب البرنامج عند ليغاتشيف إلى تسهيل مهمة من يودون أن يجعلوا منه رأس خيط للـ «محافظين» والعقبة الرئيسية على طريق «البريسترويكا». ونشرت إشاعة بأنه في حال غياب غورباتشيف، سيحل ليغاتشيف مكانه، وسوف يلجأ وبشكل محموم إلى تعيين خاصته، من «المحافظين»، في مواقع هامة، وسيلغي القرارات «المساندة للبريسترويكا»، ويستبدلها بأخرى «معادية». في تشرين الثاني ١٩٨٧، عرض تلفزيون موسكو مسرحية تحت عنوان: محادثة بقلب مفتوح، اعتبرت هجوماً على «المحافظين»، بتعبير آخر على «الرقم الثاني». ويكتب صحافي أميركي قائلاً: إن الشخصية السلبية في المسرحية، وهي محافظة، تكاد تذكر اسم ليغاتشيف. إن المحاولة الأدبية التي استندت إليها المسرحية، كانت قد نُشرت من قبل فيودور بولانسكي في تشرين الأول ١٩٨٦، وتطرح الأسئلة التي كانت تجري آنذاك في شتى أرجاء البلاد وفي جهاز الحزب بأكمله. وفي تشرين الثاني ١٩٨٧، أصبح ايغور ليغاتشيف يمثل رمزاً لأعداء الـ «بريسترويكا».

ولم تظهر الشكوك عند ليغاتشيف، لمدة ليست بالقصيرة، تجاه الحملة الموجهة

ضده، أو ربما أنه كان يمارس نوعاً من الخداع. وفي أثناء مشاركته بمؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي، بادر وبناءً على طلب منه إلى إعطاء مقابلة لجريدة لوموند. وحاول أن يترك انطباعاً ما، بإعلانه أنه يترأس جلسات اللجنة المركزية، متناسياً الإشارة إلى أن الأمور تجري على هذا النحو منذ زمن بعيد، ويأن «الرقم واحد» لا يهتم أبداً بالمشاكل التقنية التي تطرح للمعالجة في هذا النوع من الجلسات. ويردد ليغاتشيف فكرة غورباتشيف التالية: «لا يمكننا أن نحقق تقدماً إقتصادياً، دون ديمقراطية، ولا ديمقراطية، دون «غلاسنوست»».

كما يستعيد التعبير الذي أصبح بمثابة حقيقة بديهية: «البريسترويكا»، هي الثورة. ويشرح هدف ال «بريسترويكا» بأنه العمل على إيجاد مجتمع «سليم من جميع الأوجه». ويخلص إلى القول: «أرى، أن هذا الهدف الانساني يستحق الدعم، وخاصة من قبلكم»^(١١).

في آذار ١٩٨٨، ظهر «مشروع عمل» ليغاتشيف. فقد اعتبرت رسالة «نينا أندريغا»، بمثابة برنامج لل «محافظين»، و «لأعداء البريسترويكا». كما يجب التركيز ويشدة على أن «الرسالة» قد نشرت أثناء وجود غورباتشيف وإياكوفليف خارج البلاد. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب، وجد ليغاتشيف نفسه في قفص المتهمين، بإعتباره من المحرضين على وضع برنامج «مضاد للبريستروكا». تمثلت الفترة الأكثر إثارة من المؤتمر في الصراع الشخصي الذي دار بين «الجناح اليميني» و «الجناح اليساري للبريسترويكا». فقد هاجم بوريس يلتسين في مداخلته إيغور ليغاتشيف بشكل مباشر، والذي رد بدوره مستخدماً النبوة نفسها. متصرفاً كرفيق، وكشيوعي حقيقي، أعطى ليغاتشيف الدرس التالي: «... أنت، بوريس، لم تستطيع استخلاص النتائج السياسية الصحيحة... فقد حافظت على صمتك بانتظار أمر ما، في جلسات المكتب السياسي... وعندما لم تنل دعم الحزب، توجهت إلى الصحافة البرجوازية...»^(١٢).

في ربيع ١٩٩٠، بدأت حركة التغيير، تتفعل تدريجياً من رقابة غورباتشيف، دافعة بليغاتشيف إلى تحديد مواقفه بشكل أكثر دقة. ففي حين كان الأمين العام، الذي أصبح رئيساً، لا يتوقف عن التذبذب كرقاص الساعة، مدفوعاً نحو المجهول في

صراعه من أجل السلطة، كان ليغاتشيف الذي ترك المسؤولية الايديولوجية من أجل الاشراف على الزراعة، يطالب بالعودة الى ماضٍ أليف. ففي مقابلة له مع مراسل «أرغوماتي أي فاكتي»، رفض بشكل جازم وصفات الاصلاحيين: «من المستحيل تحديث الاشتراكية، ومعالجة النقاط المؤلمة في اقتصادنا عن طريق مناهج الاقتصاد الرأسمالي»^(١٣). عند هذه النقطة، كان لا بد من إفتراق رفيقي السلاح: الأمين العام - الرئيس، الذي يعتقد أن بالامكان تطوير الاشتراكية بواسطة الرأسمالية وليغاتشيف، بالمقابل، الذي يدرك أن ذلك من الموهومات.

وفي ١٦ آذار ١٩٩٠، أقدم ليغاتشيف بعد أن اطمأن الى أنه سير في أرض صلبة، على إتهام غورباتشيفوف في الجلسة المكتملة للجنة المركزية، «بإضعاف الحزب، والمساهمة في إسقاط النظام في البلدان الاشتراكية، بسبب رفضه دعم الأحزاب الشيوعية في هذه البلدان»^(١٤).

يرى فيتالي تريتياكوف، كاتب السيرة السياسية لـ «رائد المحافظين»، أن ليغاتشيف يستطيع تأمين مستقبل سياسي، إذا حصل إنقسام داخل الحزب الشيوعي. وتعطي السيرة السياسية المرفقة بالمقالة، فكرة عن طبيعة هذا المستقبل المحتمل، حيث سيتمكن «المحافظ الكبير» من فرض السلم الفاشي.^(١٥) هذا التجريح لا صحة له، وبالتالي فهو ليس أكثر من تعبير عن انفعالات سياسية. فمن الواضح أن ليغاتشيف ليس فاشياً؛ فهو شيوعي حقيقي، ويمثل نوعاً آخداً بالأقول تحت أعيننا.

كان صعود نجم بوريس يلتسين كالسهم، وبطريقة غير متوقعة. لقد تم استدعائه الى موسكو من قبل غورباتشيفوف، تاركاً وراءه سفردلوفسك التي شغل فيها ولمدة تسعة أعوام منصب السكرتير الأول للجنة المنطقة؛ وأوكل إليه بعد استدعائه هذا مركز السكرتير الأول للجنة المدينة، وفي مداخلته التي ألقاها في المؤتمر السابع عشر للحزب، دعا زملاءه القياديين الى التخلي عن إمتيازاتهم. هذه الدعوة لم تلاقِ الحماس نفسه الذي لاقته في فيكونت دي نواي في ٤ آب ١٧٨٩. ولم يكن مندوبو المؤتمر قد واجهوا المسألة. ولكن جرأة التكلم أثارت الانتباه. وفي هذا المؤتمر أيضاً أعرب يلتسين عن خوفه من الافصحاح عن رأيه في مراحل سابقة. هذه الصراحة دفعت المندوبين للتصفيق له. والبعض يتذكر، أن خروتشوف منذ ثلاثين سنة، كان يملك الجواب

نفسه . أما الفارق فيتمثل في أن خروتشوف كان يخاف ستالين ، أما يلتسين فيخاف من بريجنيف . ويبقى الخوف المحرك الرئيسي لقيادة الحزب ؛ وإذا كان الصراع مع ستالين ينتهي عادة بالموت ، فإن الصراع مع بريجنيف ، يُجبر «المعارض على الاكتفاء بأكل الكافيار الأحمر بدل الكافيار الأسود» .

تشبه السيرة الذاتية لبوريس يلتسين سيرة غورباتشوف ، وكأننا المقارنة تقوم بين نقطتي ماء . ويشير يلتسين بنفسه الى هذه السيرة قائلاً : «ولدت في عام ١٩٣١ ، من عائلة فلاحية في منطقة سفردلوفسك . عملت في إحدى الورش ، وتابعت دراستي في معهد البوليتكنيك في الأورال ، كلية العمارة . ثم اشتغلت في أحد المصانع ، ثم داخل الحزب : مسؤول شعبة ، سكرتيراً ، سكرتيراً أولاً للجنة المنطقة قبل أن أستدعى الى موسكو . . . »^(١٦) وفي إطار عرضه لسير حياته أمام المدرسة العليا للشيوعية الشيوعية ، أعلن يلتسين ، مع شيء من التأقت : «لقد استدعيت الى موسكو . . . لأي هدف ؟ أنني أجعله . . . » ، يعلم يلتسين وهو رجل الحزب المجرب ، أن الأمين العام يعتمد على الاخلاص المطلق لرجل الجهاز الذي كان قد «رفعه» الى موسكو .

بدأ بوريس يلتسين «البريسترويكا» في موسكو : وعلى طريقة هارون الرشيد ، كان يلتسين يدور في الأسواق ، محاولاً معرفة سبب غياب السلع ، ويصعد الى سيارات النقل العامة كي يتأكد بنفسه من الوضع المأساوي للمواصلات . وفي ١١ نيسان ١٩٨٦ ، وصف يلتسين بصراحة غير معهودة ، إبان اجتماع لاعلامي موسكو ، الظروف القاسية التي تلف كافة أوجه الحياة في العاصمة الى جانب فئات «النومونكلاتورا» ، وأجاب يلتسين على الأسئلة المكتوبة - قرابة ٣٠٠ سؤال ، ٩٠ ٪ منها دون توقيع - بشجاعة ، ووضوح ، محملاً القيادة القديمة مسؤولية ما ارتكب من أخطاء ، وواعداً بإيجاد حلول سريعة لكافة المشاكل المطروحة . وفي معرض جوابه على سؤال مقلق حول الـ «ليميتشيكي» ، هذه الجماعات التي يتم إحضارها الى موسكو من أجل القيام بالأعمال الشاقة ، والتي لا تملك الحق في الاستقرار داخل المدينة ، ولكنها مع ذلك تبقى فيها ، أعلن يلتسين ما يلي : «لا يجب أن نستقدم أناساً جدداً ، بل علينا أن ندفع سكان موسكو الى العمل . كما أن أعضاء الميليشيا سيتم تزويدهم بخطة عمل لمواجهة الفئات الطفيلية» .

بدأ يلتسين يكتسب شهرة عالمية في ٦ آيار ١٩٨٧ . ففي ذلك اليوم ، اجتمعت

مظاهرة في وسط موسكو، رافعة الشعارات التالية: «من أجل إعطاء مكانة للجمعية التاريخية - الوطنية «باميات»!»، و «ليسقط غريو البريسترويكا»، «لفرض لقاء أمين م. س. غورباتشوف و ب. ن. يلتسين!»، لقد تولى المتظاهرون قيادة مجالس السوفيات في موسكو. ثم ظهر يلتسين، داعياً المتظاهرين للدخول، أما هم فقاموا بالترحيب به والهتاف له، الأمر الذي رفضه، معلناً: «هكذا! المزيد من التصفيق! ألا نستطيع أن ننسى قليلاً «عبادة الرؤساء»؟ لقد طلبتم مني اللقاء معكم، وها إني قد أتيت للتحدث إليكم من الندلى الند. ما هي أسئلتكم؟» (١٧).

هذا اللقاء مع السكرتير الأول لتنظيم الحزب في موسكو، والعضو الاحتياطي في المكتب السياسي، أعطى لـ «باميات» صفة الجدارة والاحترام، ووفر لها عملاً دعائياً. أما بالنسبة ليلتسين، فقد ربح شهرة القائد الشجاع والصريح، الذي يستطيع التحدث مع الشعب. وفي إطار حديثه مع أنصار «باميات» أكد على: «أن العديد من الأسئلة المطروحة لها مشروعيتها، والأفراد الذين يطرحونها تحركهم عواطف وطنية، مشاعر حب الوطن. هذه هي نقطة الانطلاق في تفكيرهم ولكن أجوبتهم ليست صحيحة دائماً» (١٨).

بنى الأمين الأول مع جهاز الحزب في العاصمة، نبرة أشد قساوة. فخلال وقت قصير، قام باستبدال ٢٣ من أصل ٣٣ أمين أول في لجان المقاطعة، واعدأ بأن عملية التطهير ما زالت في بدايتها. وعندما خسر يلتسين موقعه، تكلم مبرراً موقفه من هذه العملية بالقول: «إن النسبة المثوية للأشخاص الذين تم استبدالهم، على هذا المستوى من المواقع، مرتفعة قليلاً في إطار البلد ككل» (١٩). ولكن في موسكو، كان إجراء «الاستبدال» صارخاً. إن عادات يلتسين وحركاته كزعيم مقتدر قد جلبت له أيضاً الكثير من الملامة. ألا يعتبر هو نفسه أن «الكثيرين ممن فقدوا عادة التشدد والحزم يرون في تصرفاته قساوة بالغة؟» (٢٠) غير أن أحد «مواطني» يلتسين، ف. فولكوف، الذي استدعي للشهادة في المؤتمر التاسع عشر للحزب حيث كانت «قضية يلتسين» قيد البحث، وأتسم كلامه ببعض العطف، شدد على أنه «احتل مكانة كبيرة بين الناس البسطاء (في سفردلوفسك)»، ولكنه أقر أيضاً قائلاً: نعم، إن ب. ن. يلتسين هو رجل صعب المراس، قاس» (٢١).

إن عملية التطهير التي أجريت في قلب الجهاز في موسكو قد ولدت صدامات بين

يلتسين وليغاتشيف: إذ يشكل أمناء سر لجان مناطق العاصمة جزءاً من نومنكلاتورا أمانة سر اللجنة المركزية. يعتبر ليغاتشيف أن يلتسين قد غالى في استعمال سلطته. وكذلك، يعتبر السكرتير الأول للجنة موسكو، أنه بتعيينه في منصبه من قبل غورباتشيف، يستطيع أن يسمح لنفسه بكل شيء. وهنا مكمن الخطأ. أن يلتسين، الموالي للبريسترويكا التي يرى قبل كل شيء الاستبدال المباشر للجهاز القديم بآخر جديد، يعتقد أنه بإمكانه أن يصبح تلك القاطرة التي سوف تجر جميع الناس بمن فيهم غورباتشيف، الذي يعتريه، بنظر سكرتير موسكو، ميل قوي للتذبذب. وقد يتن غورباتشيف عندئذ أنه لن يسمح لأحد بأن يمل عليه إيقاع البريسترويكا. وهكذا نجد أن «انتفاضة الأمناء» قد حبكت أساساً ضد يلتسين.

استمرت القضية لبضعة أشهر مشكلة نموذجاً للصراع على السلطة، صراع بلا رحمة دارت مجرياته على أعلى مستوى في الكرملين. في ١١ آب، نشرت صحيفة البرافدا مقالاً بعنوان: «مزيد من الفعالية؟» وهو تقرير عن الجلسة المكتملة للجنة الحزب في موسكو. وهناك عدة عبارات تلفت الانتباه، وفي البداية جاءت إحدى المعلومات مفاجئة: «أن التقرير الأساسي» الذي قدمه السكرتير الأول، يلتسين، «قد قوطع بمناقشة حادة وحامية، وذلك بإجماع المشاركين، ولم يستكمل إلا بعد أن تكلم معظم الذين طلبوا الكلام». على أي مستوى كان، لا يقاطع تقرير «الرقم واحد» بأي شكل من الأشكال. ويلفت النظر أيضاً مقطع من مداخلة أحد أمناء المناطق حيث يقول: لا بد من التخلص، بأسرع ما يمكن، من أسلوب الإمرة في العمل... التخلص من رنة المعدن في الصوت».

إن مداخلات المشاركين، التي نشرتها صحيفة موسكو فسكايا برافدا، تبين أصل الصراع الذي يضع يلتسين في مواجهة رؤوسه. لقد قالها السكرتير الأول محذراً: أن عملية التطهير قد بدأت لتوها. ومبدأه السياسي هو التالي: «لا بد من مفوضين ومن مدربين سياسيين للبريسترويكا. يجب ألا نخشى استبدال أولئك العاجزين عن العمل مع الناس... أن الانتقاء والتوزيع وتربية الكوادر كانت دائماً وتبقى هي المضمون الأساسي لعمل الحزب» (٢٢). وكان الرد عليه بانتقاده لأنه هو نفسه قد لجأ للأساليب القديمة. وقد أعادت البرافدا نشر الاستشهاد الذي كان أكثر حدة في تقرير صحيفة الموسكوفسكايا برافدا: «يبدو لي أن أسلوب «رنة المعدن في الصوت»، والقدرة

على «الزعزعة، في كل الاتجاهات» يجب أن يترك المكان لمزيد من التعقل والثقافة وللقدرة على الاستماع والاقناع وتفهم الآخرين في العمق» (٢٣).

إن الفصل التالي من «ملحمة يلتسين» هو الجلسة المكتملة للجنة المركزية - في تشرين الأول ١٩٨٧ -، يدافع سكرتير موسكو عن نفسه بالهجوم على ليغاتشيف الذي يمنعه من تطهير الجهاز بشكل كامل، ويثورية فيها ما يكفي من الايضاح، يُظهر يلتسين، نفسه، هو الذي لا يخلو من المزاجية، وكأنه قد أهدى من قبل الأمين العام الذي لم يؤيده. أعلنت الجلسة المكتملة، أن «مداخلة الرفيق يلتسين، في الجلسة المكتملة للجنة المركزية، هي مغلوطة سياسياً. وقررت إعفائه من وظائفه كسكرتير أول للجنة موسكو (٢٤). يقرّ المتهم بذنبه (أنا المخطيء) ويعترف في ختام خطابه بأنه قد أخطأ ويقدم نقداً ذاتياً.

لاحقاً، بعد بضعة أشهر فسر بوريس يلتسين فشله في موسكو «بسوء التقدير لتأثير المافيا على مختلف مجالات الحياة». وفي إعلانه عن توقيف ما يقرب من ألفي عامل في السوفيت وفي ال. ك ج ب وفي الميليشيا وفي التجارة، يصف الوضع في العاصمة بالتالي: «إنها رواسب حقيقية، دلو مليء بالوحل». قد يكون تصريح يلتسين الذي يؤكد أن النقد الذاتي الذي قام به كان بتأثير بعض العقاقير الخاصة، هو أفضل دليل على أخلاقيات «النخبة السياسية السوفياتية». يروي لطلاب المعهد العالي للشبيبة الشيوعية: «كنت مسمراً في سريري عندما تلقيت الأمر بالحضور بعد ساعة ونصف إلى الجلسة المكتملة، حينذاك أتخمني الأطباء بالعقاقير. بماذا حقنوني؟ . . . قلت للأطباء: «إنكم تحثون يمين ابقرات»، وقد أجابوني: «لدينا أبقراتنا». هناك أيضاً أشياء كثيرة لم أعد أتذكرها» (٢٥). إن أكثر ما يلفت في هذه الحادثة هو قناعة العضو الاحتياطي السابق في المكتب السياسي والسكرتير الأول للجنة العاصمة بأن استخدام الطب في المعركة السياسية هو ممارسة حقيقية فعلاً. بعد الجلسة المكتملة للجنة المركزية، لم تتأخر الجلسة المكتملة للجنة موسكو عن الانعقاد حيث أعفى يلتسين من وظائفه. وقد خلفه ليف زايكوف عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية. إن طرد بوريس يلتسين قد فهم في الغرب، بالاجماع، على أنه ضربة موجهة إلى غورباتشوف. كتبت صحيفة التايمز اللندنية: «إن خسارة بوريس يلتسين لمركزه كمسؤول عن تنظيم الحزب في موسكو تؤكد التقديرات الأكثر تشاؤماً بالنسبة لدور غورباتشوف القيادي» (٢٦).

وتسجل صحيفة لوموند: «أنه تحذير للأمين العام» (٢٧)، ولقد «خرج غورباتشيف ضعيفاً من قضية يلتسين» (٢٨). وأعلنت الانترناشيونال هيرالد تريبيون أن طرد يلتسين يعني، وفق رأي أحد الدبلوماسيين الغربيين، فقدان غورباتشيف لبعض من تأثيره» (٢٩). الخ. . ان تالي الأحداث قد أثبت أن الأمين العام قد مكن سلطته، وازداد قوة بتخلصه من يلتسين الذي تصوّر أنه يستطيع أن يؤثر على غورباتشيف. وبعد أن حرم يلتسين من مركزه كسكرتير أول بسهولة خارقة، حافظ غورباتشيف رغم ذلك على تابعه السابق في دائرة احتياطه وأصبح يلتسين نائب وزير في الاعمار وظل عضواً في اللجنة المركزية.

في تموز ١٩٨٨، في المؤتمر التاسع عشر للحزب، كانت المشادة بين يلتسين المنكوب وليغاتشيف، عضو المكتب السياسي، سكرتير اللجنة المركزية، الذي يعتبر من قبل الجميع «الرقم الثاني». وكانت الدهشة حين تلاقى الخصمان على قدم المساواة ولم تقع المواجهة بين البرامج (إذ الاثنان كانا مع «البريسترويكا») وإنما بين الرجلين. ثم أطلق ليغاتشيف حجته الكبرى: «ان المنطقة التي عملت فيها تتغذى بالكامل من إنتاجها كما أن المخصصات جيدة؛ أما أنت يا بوريس، فظللت تسع سنوات سكرتير منطقة وقد جعلت منطقتك تعيش مدة من الزمن على بطاقات التقنين» (٣٠). وما كان من يلتسين إلا أن قال فيما بعد: «لقد اقتحمت منصة المؤتمر التاسع عشر عنة، مثل «قصر الشتاء» (٣١). لكنه حصل رغم ذلك على إذن بالكلام ونجح خاصة في أن يصبح مندوباً للمؤتمر. ولكن المسألة كانت لم تزل بعيدة المنال. وفي خطاب القاه في سفردلوفسك، أعلن يلتسين بنفسه أن الضغط الذي مورس على مصنعين مهمين في الأورال «قد أخاف البعض، وفي اليوم الأخير عندما لم يبق سوى منظمة واحدة بدون مندوب - منظمة كاريلي - أنزلت على اللائحة في آخر لحظة وانتخبت على الفور» (٣٢). أما سرده للأحداث فيكشف عن تنظيم لا بأس به للانتخابات كان قد أمّنه سكرتير اللجنة المركزية رازوموفسكي، إلا أن العلاقة لم تكن مقنعة قط فيما يخص «هلع البعض». والأقرب للواقع هو أنه قد وجد لحظة اختيار يلتسين كنائب، المؤيد والمعارض له، في آن معاً. إلا أن الغلبة كانت - وبما لا يقاس - لأنصاره.

في آذار ١٩٨٩، جرى تمثيل فصل جديد من المسرحية. صعد يلتسين الى المنبر في الجلسة المكتملة للجنة المركزية المخصصة للمسألة الزراعية إلا أنه وبشكل غير متوقع

على الإطلاق، ما لبث أن أصبح هدفاً للهجوم. لقد اتهم بالنزعة البيروقراطية (ترك أحد أعضاء اللجنة المركزية ينتظر في قاعة الاستقبال في وزارته) وبأخطاء سياسية خطيرة. وقد تم نقل اجتماعات الجلسة المكتملة بشكل شبه كامل عبر أفنية التلفزيون، ولكن المشاهد المتعلقة يلتسين حذفت بما في ذلك الحوار الرائع الذي جرى بين غورباتشيف و يلتسين، وإثر الاتهامات الموجهة الى سكرتير موسكو السابق، استدعي هذا الأخير الى المنصة من قبل غورباتشيف.

ن. بوخارين، العامل في الأورال والذي يشارك في الجلسة المكتملة نقل الحوار في مقابلة له مع جريدة «نيتاغيلسكي رابوتشي» (العامل في نيتاغيل): غورباتشيف: «بوريس نيقولايفيتش، أجب بصراحة، هل أنت مع تعدد الأحزاب؟». في هذه اللحظة، وقف أ. ك. ليغاتشيف وخرج ممتعضاً من القاعة. يلتسين: «أنا بكل بساطة مع إعطاء إمكانية التعبير للناس في هذه المسألة». عندها استشهد ميخائيل سرغيفيتش بمقتطفات من نص مختزل لمحضر اجتماع انتخابي في معهد الماركسية - اللينينية، مبيناً أن جواب يلتسين لم يكن صادقاً تماماً. ثم سأل غورباتشيف «هل لك علاقة ما بالاتحاد الديمقراطي؟» - يلتسين: «لا علاقة لي البتة».

«لماذا تركت الرفيق تيخومиров على بابك ساعة قبل أن تستقبله؟».

«لقد حصل تأخير في اعلامي بزيارته». واستعلم غورباتشيف متحققاً: «لم يزل هؤلاء الناس، الذين أعلموك متأخرين، في عملهم في الغوستروي؟» (٣٣).

إن نبرة هذا الحوار، وخشونة قاضي الاتهام التي تميز بها غورباتشيف ومهانة السكرتير السابق لموسكو المدعو الى الاقرار بذنبه، تبين بوضوح نوع العلاقات القائمة بين الرفاق في الحزب على مستوى «القمة»، وتعطي فكرة عن طبع أبطال القضايا الكبرى. وبما أن ترشيح يلتسين لمؤتمر نواب الشعب كان باقتراح من قبل عدة دوائر، فإنه اختار العاصمة، وقد شرح الأمر «للمواطنيه» قائلاً أنه كان يتمنى من «كل قلبه وبكل جوارحه» أن يتقدم عن سفردلوفسك ولكن «سياسياً موسكو هي الأهم» (٣٤). فاجأت حملة بوريس يلتسين الانتخابية، بسعة انتشارها وبمشاركة تيارات مختلفة جذرياً («باميات» والاتحاد الديمقراطي، دعياً للتصويت لسكرتير موسكو السابق)، وباستخدام الوسائل البصرية على نطاق واسع.

إن ظهور آلاف الملصقات (قياس متر x متر) التي زينت جدران العاصمة، في ظل رقابة مطلقة للدولة على المطابع، تركنا حالين. وبوريس يلتسين الذي لا تبدو عليه علائم البلاغة بالتخصيص: والذي لا يخوله وجهه الشاحب ليكون نجماً تلفزيونياً، حقق انتصاراً ساحقاً في عاصمة الاتحاد السوفياتي، بنسبة ٩٢ بالمئة من الاقتراعات.

وتوالت المعجزات في «المؤتمر». فلم ينتخب مثلاً النائب الأكثر شعبية، في السوفيات الأعلى، مركز السلطة الجديد. وإنما ترك له المقعد، نائب مجهول من الريف. وفي تموز ١٩٨٩، عندما شكلت «المجموعة ما - بين - المناطق» والتي تجمع أنصاراً للبريسترويكا، يناضلون من أجل أن تتحقق بشكل أسرع وأشد غماسكاً ويطمحون إلى دور المعارضة المشروعة، انتُخب بوريس يلتسين في اللجنة القيادية إلى جانب أ. ساخاروف، والمؤرخ أي. أفاناسييف، والاقتصادي ج. بوبوف، والأكاديمي الأستوني أ. بالم. وبذلك تجمعت لدى بوريس يلتسين كل الفرص لأن يصبح «زعيماً بديلاً» فهو المحترف الوحيد للسياسة وهو النائب الأكثر شعبية بلا منازع، والذي يناضل ضد امتيازات النومونكلاتورا. أن نجاحه الحاسم في انتخابات نواب الشعب في RSFSR يقوي بالتالي موقعه.

شكا يلتسين، في سفردلوفسك، من أنهم بدأوا «يفكرون بإضعاف كصورة بديلة للرفيق غورباتشيف». محتجاً على هذا النوع من التأملات، أكد يلتسين أنه لن يكون «بأي حال» بذلك الوضع. وهكذا صرح نائب الشعب الفائق الشعبية: «أؤيد وبما يتعلق بالمسائل الاستراتيجية وفي مسائل السياسة الخارجية والداخلية، بالكامل الرفيق غورباتشيف، وليس لدي أبداً النية في معارضته»^(٣٥). ولا يجهل أحد أن مثل تلك التصريحات تطلق بالضبط، عندما تكون هناك رغبة في «معارضة» شخص ما.

مستذكراً دوره في «البريسترويكا»، أدلى سكرتير موسكو السابق بهذه الملاحظة: «لدي شعور بأنه لو لم يكن لدى غورباتشيف يلتسين، لكان اختراعه»^(٣٦). أثناء زيارته لـ سفردلوفسك خلال شهر نيسان ١٩٩٠، أجاب الرئيس غورباتشيف عن أسئلة عمال من الأورال، بشأن بوريس يلتسين، المفضل لديهم. مذكراً بأنه هو نفسه قد أتى يلتسين إلى موسكو وبأنه قد منحه دعمه، رأى الرئيس، أن «إمكانات يلتسين، كزعيم سياسي، ليست رغم كل شيء كبيرة جداً... أن برنامجي وتصريحاتي

معروفة لديّ. إنها تستحضر أسطوانة بالية، مجموعة من الموضوعات: استنفدت القيادة جميع الوسائل، و.. استهلكت نفسها و.. انقطعت عن الشعب.. إلخ، إلخ، ويختتم غورباتشوف قائلاً: ان بوريس نيقولايفيتش يتفكر في الصعوبات، في الضغوطات الاقتصادية والاجتماعية، أعتقد أن بوريس نيقولايفيتش قد أطلق لنفسه العنان ولن يستطيع الخروج من هذا المأزق المدمر» (٢٧).

يمثل ايغور ليغاتشيف وبوريس يلتسين ضمن جهاز الحزب الجناحين الاقصيين من البريسترويكا، اللذين يسمحان للأمين العام بأن يثبت في الوسط. يقف ليغاتشيف ضد نفي كل الماضي السوفياتي، وضد تحويل كوادرات الحزب الى أهداف للنقد؛ ويعتبر أنه لا بد من أن تبقى الكوئخوزات والسوفخوزات أساساً للزراعة السوفياتية، كما أنه يعترض على إلغاء مبدأ المركزية الديمقراطية في الحزب. أما بوريس يلتسين، فإنه يضع في المقدمة ضرورة إشباع حاجات السكان المادية؛ وذلك خاصة بواسطة نزع ملكية «الأثرياء المترفين». وهنا، يشير أناتولي سترلياني الى «الاشتراكية الطفولية عند يلتسين» (٢٨). والمقصود بشكل واضح الاشتراكية الشعبية.

في ٢٩ أيار ١٩٩٠، انتخب بوريس يلتسين رئيساً للسوفيت الأعلى ل RSFSR وأن المجرى الذي اتخذته الانتخابات يوحي بحصول مفاوضات في الكواليس، فقد سحب في البداية الترشيح المواجه ليلتسين ثم قدّم بعدها من جديد. بعد أن قدم بوريس يلتسين خطة عمل «يسارية»، وعد بأن يضم الى «وزارته» بعض «المحافظين». وهكذا يتم مرة أخرى، انتخاب السكرتير السابق لموسكو في اللحظة الأخيرة، وعلى الأرجح، بمساندة «عدوه» الرئيسي.

ان النفور الشخصي الموجود بين بطلي البريسترويكا الأكثر شهرة لا يمنعهما، على الأرجح، من التعاون مع انتخاب يلتسين، يستطيع غورباتشوف أن يتذبذب بين خطتي العمل المقدمتين من قبل يلتسين وليغاتشيف. أي أن يتكلم عن خطر «اليسار» ليحصل على مساندة «اليمن» أو عن خطر «اليمن» ليحصل على مساندة «اليسار». اعتبر المعلقون انتصار يلتسين هزيمة لغورباتشوف وقد شددوا على أن هذا الانتصار بديل «عن الأب الروحي للبريسترويكا وإن في ذلك حقيقة مؤكدة». ولكن غورباتشوف آمن لنفسه من جهة مركز رئيس الاتحاد السوفيتي لمدة خمس سنوات

قادمة . ومن جهة أخرى، كان لا بد ليلتسين أن يفرض قانوناً جديداً يسمح له في حال انتخابه من أن يصبح رئيساً لروسيا . أما استبدال غورباتشيف، بطريقة شرعية، «بالقيصر الروسي»، كما عمدت الصحف الغربية على وصف الرئيس الجديد للسوفيت الأعلى ل RSFSR ، فيبقى مسألة مستحيلة على المدى القصير . ومن جهة أخرى، بنى غورباتشيف نمط إدائه للسلطة على أساس دعم الغرب، فهو يستمد من شعبيته في الغرب مصدراً لقوته في البلاد . فيما يبنى يلتسين بالمقابل استراتيجية على أساس شعبيته في الداخل .

يعتبر الأمين العام - الرئيس أن لشعبيته في الخارج صدى في الداخل، فيما يسعى منافسه المحتمل إلى أن يكون لشعبيته في الداخل اثر على الخارج .

لم تكن زيارة يلتسين للولايات المتحدة، زيارة ناجحة إذ قُدم في الأوساط الحكومية على أنه «وزن خفيف، ديباغوجي، مهرج، ثرثار» . ووصفه الرئيس بوش، الذي منح دقيقة واحدة لزيارته، بأنه «مرح خال البال» (٣٩) . لا شك أن غورباتشيف قد أخذ بعين الاعتبار هذا النقص عند يلتسين .

إذا نظرنا عن قرب الى تصريحات زعماء أجنحة «اليمين» و «اليسار»، يظهر لنا بسرعة أنها لا تشكل برنامجاً متماسكاً، وإنما لا تختلف عن تصريحات غورباتشيف، وإذا درسناها على مدى الخمس سنوات السابقة، نجد أن الأمين العام - الرئيس قد اتخذ هو نفسه تلك المواقف ومن ثم ابتعد عنها، ليعد إليها مرة أخرى ثم نفاها من جديد، وهكذا دواليك . إن خصوم غورباتشيف هم رجال سياسيون يقبلون بتكرار آرائه بعد أن يتخلى هو نفسه عنها .

يضع النقاش الحاصل وجهاً لوجه أولئك الذين يعتبرون أن دينوصور المرحلة الستالينية قد أثبت تفوقه خلال السنوات التي شهدت تحول روسيا الى قوة صناعية أثناء الحرب، وبقيت اليوم وإلى الأبد قوة عظيمة . وبين أولئك الذين يريدون أن يصنعوا «صانكتوراً»، وذلك بأن يطعموا هذا الحيوان ما قبل التاريخي بعناصر من إقتصاد السوق وعادات ديمقراطية . إلا أن العلم قد أثبت أن «الديناصورات» قد وجدت، وبأنها كانت المخلوقات الأقوى على الأرض، ولكنها إنقرضت لأسباب مجهولة . ولكن العلم أثبت أيضاً أن «الصانكتور» لم يوجد قط، إلا في الخيال البشري وفي الأساطير . تتمثل

سياسة غورباتشوف في التلوي بين وحوش إنقرضت منذ زمن بعيد، وحيوانات لم يكن لها وجود.

شكل مؤتمر الحزب في صيف ١٩٩٠، مسرحاً للمشادة الأخيرة بين قائدي جناح اليمين واليسار في البريسترويكا. فقد تقاعد ليغاتشيف، الذي ضرب بعد انتخاب السكرتير الثاني. وأعلن يلتسين تركه للحزب، الأمر الذي دفع غورباتشوف للبحث عن قواد جدد لجناحي اليمين واليسار كي يستطيع أن يستمر في الجلوس ضمن دائرة الوسط، ملئياً حاجته المستمرة للتلوي.

الفصل العشرون السيف والترس

«دون مؤسسة من هذا النوع، لما كان لسلطة العمال وجود»

لينين، ٢٣ كانون الأول ١٩٢١

يقصد لينين بـ «مؤسسة من هذا النوع»، الـ «فيتشيك» أو البوليس السياسي، الذي أسسه بعد استلامه للسلطة مباشرة. ويؤكد قائد الدولة السوفياتية ضرورة الـ «فيتشيك» في مرحلة تعتبر الأكثر «ليبرالية» في تاريخ الاتحاد السوفياتي: مرحلة الـ NEP. ثم يضيف بأنه لا يستطيع تجاوز «هذه المؤسسة»، «طالما أن في العالم مستغلين»^(١)....

إن كافة تقلبات السياسة السوفياتية تنعكس في مرآة «الأجهزة» بشكل حتمي. فمتغيرات «الخط العام» تجد ترجمة لها في تغيير الأسماء. في شباط ١٩٢٢، تم تبني قرار يقضي «بالغاء» الفيتشيك ولجانها. الأمر الذي قوبل بالحماس، خاصة في الغرب، الذي رأى فيه الدليل على حصول تغير جذري في النظام. ولكنه تم إلحاق كافة فروع الفيتشيك بالقيادة السياسية للدولة، الـ «غيبو». ولم يمض وقت قصير، حتى أصبحت الـ غيبو أو الـ أوغيبو، تثير الرعب نفسه الذي كانت تمثله سابقاً الـ تشيكا أو الـ فيتشيك. لقد تغير الاسم، ولكن الوظائف بقيت هي نفسها، وبعضها قد تم توسيعه، أما الاستمرارية فقد مثلها الرئيس، دزرجينسكي، إضافة إلى الرمز المتمثل بالسيف والترس. وفي عام ١٩٣٤، قام ستالين «بحملة تطهير كبيرة في البلاد»، ومرة أخرى جرى تغيير الاسم. حيث أصبح ذكر الأحرف الأولى مثيراً للرعب: الـ NKVD، ثم الـ MVD. وبعد موت ستالين، تحولت وزارة أمن الدولة إلى لجنة، وقد ارتبطت بداية

بمجلس الوزراء، وعندما هدأت المشاعر المعادية «لعبادة الشخص»، تحولت الى لجنة أمن الدولة (KGB) التابعة لمجلس الوزراء.

ومن الواضح أيضاً أن تقلبات السياسة السوفياتية تجد إنعكاساً لها على مستوى مركز رئاسة البوليس السياسي. فال «رؤساء» الثلاثة الأوائل، دزرجينسكي، ومنجنسكي، وإياغودا، هم من محترفي أعمال البوليس، الذين اكتسبوا خبرتهم داخل الفيتشيك. وعندما قرر ستالين توسيع صلاحيات «الأجهزة» عشية حملة «التطهير الكبيرة»، عين على رأس هذه الأجهزة أمناء من اللجنة المركزية: ايجوف بداية، ثم بيريا. أما بعد موت ستالين. فقد جرى تقليص مهام البوليس السياسي، وأوكلت قيادتها لشخص محترف هو سيروف، ولكن، وبمناسبة حصول تحول جديد في سياسة الحزب، توسع دور «الأجهزة»، وتم تسليم «البيت الكبير» في ساحة دزرجينسكي الى موظفين من الجهاز المركزي: سميتشتني، شيليين، أندروبوف.

شهدت حقبة حكم بريجنيف تقارباً بين أجهزة اللجنة المركزية والـ KGB. فقد انتقل أندروبوف من اللجنة المركزية الى - KGB. ثم رجع الى اللجنة المركزية، بمهام جديدة، أما فيكتور تشبريكوف فقد سلك الطريق ذاته. ويفاخر فلاديمير كريتشكوف، الذي يرأس الـ KGB منذ شهر أكتوبر ١٩٨٨، بسيرة حياته التي تبدو مثالية بالنسبة لقائد سوفياتي عصري: بدأ بدراسة الحقوق، ثم شغل منصب قاضي تحقيق، فوكيل نيابة، وبعدها دخل مدرسة الدبلوماسيين، وفي عام ١٩٥٦ تم تعيينه في سفارة بودابست (حيث كان أندروبوف سفيراً)، ثم انتقل الى جهاز اللجنة المركزية، ومنها الى الـ KGB، ليتولى خلال أربع عشرة سنة مسؤولية مكافحة التجسس على الاتحاد السوفياتي، هذه السيرة تظهر أنه محترف أعمال البوليس السياسي. ولكنه في الحقيقة، كان يحترف أعمال جهاز الحزب.

كانت الفيتشيك، جهاز البوليس السياسي في مرحلة لينين. وتحت أسماء مختلفة، بقيت هي نفسها من زمن ستالين الى زمن الأمناء العامين اللاحقين. ويارس الأمين العام إشرافه الشخصي على نشاط الـ KGB. وتُظهر واقعة إزاحة خروتشيف، إذا كان لذلك ضرورة، أن أي تراخ في عملية الاشراف هذه قد تؤدي الى كارثة نهائية تصيب الرقم الأول. وتتقاطع جميع المعلومات التي ظهرت في الصحافة، رغم اختلافها حول

التفاصيل، حول الصورة التالية: لقد تم إعداد المؤامرة ضد خروتشوف من قبل أقرب رفاق السلاح، ومن بينهم بريجنيف في رأس اللائحة، ولكن لم يكن مقدراً لها النجاح، دون التحاق قيادة الـ KGB بالمتآمرين.

يولي كل أمين عام، بهدف تدعيم سلطته، اهتماماً خاصاً بالـ KGB: فيعمل بدقة على اختيار الرئيس المناسب، ثم إنه قد يدخله إلى المكتب السياسي أو لا يدخله، وذلك وفقاً لتوجهاته السياسية، ويضعف أو يخفف من الدعاية «للأجهزة». ولكن مشكلة البوليس السياسي تزداد تعقيداً في فترة العمل على إبراز «الليبرالية» النظام. وهذا ما حصل إبان تبني سياسة الـ NEP، وبعد موت ستالين أي في عهد خروتشوف. فأمام كل انعطافة «الليبرالية»، يطرح السؤال التالي: كيف نستطيع في الوقت نفسه، تقوية «الأجهزة» - ضرورة حيوية للسلطة، حسب تعبير لينين - وإظهارها بحلة جديدة في الداخل والخارج، جاعلين منها «المدافع» ذا الوجه الانساني عن حقوق وكرامة المواطنين.

وتزداد المشكلة تعقيداً مع سياسة «الغلاسنوست». فللمرة الأولى يطرح السؤال بشكل علني: كيف نوفق بين «الغلاسنوست»، أي السماح بالكلام الصريح عن المشاكل الأساسية، وبين الصفة السرية للبوليس السياسي؟ والجواب على ذلك شديد البساطة: علينا تغيير «صورة» الـ KGB؛ كي تبرز كمؤسسة لا تستعمل السيف إلا من أجل حماية السوفيات من الشر، نتاج التأثير القاتل للغرب. «راهنأ، يؤكد تشبريكوف، وكان رئيس الـ KGB، في خطاب القاه بمناسبة الذكرى العاشرة بعد المائة لولادة الشفيق - الرئيس «للأجهزة»، دزرجينسكي، تعتبر أجهزة الأمن أن إحدى مهامها الأساسية تقديم الدعم لتطور مسارات البريسترويكا في البلاد». ويشرح ضباط الـ KGB لمعتقليهم من المتظاهرين قائلين: لقد أوكلت الـ «غلاسنوست» إلينا نحن!

بحول الماضي، دون تغيير صورة «الأجهزة». فإدانة الستالينية، التي أضحت سياسة الدولة، ساهمت في كشف بعض الجرائم، التي بلغت من الضخامة ما يتجاوز ما عرفه هذا القرن أو يكاد من جرائم. فالمقابر الجماعية التي اكتشفت في الغابة بالقرب من - منسك، وفي كوروباتي حيث أعدم رمية بالرصاص ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف شخص، والمقابر الجماعية في بيكوفنيا، بالقرب من كييف، وفي فيتسا، ومقابر ضحايا

NKVD في مقابر دونسكوي، وكاليتينيكوفسكي، وروغوجسكي في موسكو، أو بالقرب من كولباشيف في منطقة كومسك، وفي أماكن أخرى عديدة، أضف إلى ذلك معسكرات إعادة التأهيل الستالينية، كل هذا يؤكد ما يعرفه السوفييات، أو ما يخافون من معرفته. يعلن الكاتب أليس اداموفيتش دهشته، مما أشار إليه المؤرخ البريطاني روبر كونكست، في دراسته «للرب الكبير» وللمذابح الفلاحين في أوكرانيا في بداية أعوام الثلاثينات، «إنه يقلل على الدوام من عدد ضحايا القمع». ويفسر اداموفيتش خلفية كتاب المؤرخ (التهمة من قبل زملائه بـ «تضخيم» الأرقام) قائلاً: «لم يستطع (المؤرخ) الاعتقاد بحقيقة هذه الأرقام الكبيرة، ولا الاعتقاد بأن باستطاعة حكومة ما أن تقوم على إفتاء شعبها». ويخلص الكاتب إلى القول مفاخراً: «نستطيع اليوم أن نذكر أرقاماً أشد هولاً بجرأة وتصميم»^(٢).

لم يستطع المؤرخون السوفييات أن يكتبوا بعد «بجرأة وتصميم». ولكن العديد من الدلائل المتصلة بجرائم «الأجهزة» قد كشفت. إلا أن هذه الأخيرة تحاول «تبييض» صفحتها، مدعية أن ما يقارب «عشرين ألفاً» من أفراد التشيكا قد سقطوا ضحايا للقمع الستاليني، (هذا ما يحصل عندما يتم إستبدال مجموعة من التشيكا بمجموعة أخرى) ويأن مشاهير التشيكا السوفياتية لم يقتصر عملهم على تصفية شعبهم، بل أنشأوا شبكات المعلومات في الغرب، كي يستطيعوا استباق أي ضربة موجهة من العدو. أضف إلى ذلك، أن العديد من الجواسيس السوفييات في الخارج، ماتوا في بلدهم، بعد أن تم استدعاؤهم من قبل المركز، أو كانوا ضحايا «الفرق الطائرة» للـ NKVD، التي أقدمت على تصفية كل من تجاسر، وانتقد ستالين، قد أعيد لهم الاعتبار. فقد أعيد الاعتبار، وبشكل غير متوقع، لكل من إغناس رايس، الذي قتل في جنيف عام ١٩٣٧، ودولتي كريفيتسكي، أحد مسؤولي التجسس السوفياتي في أوروبا الغربية والذي قتل في واشنطن عام ١٩٤١، وأصبحوا «أبطال الأجهزة» السوفياتية. كما نشرت رسائلهم، بناء على معلومات في بعض المنشورات الغربية، خاصة تلك التي تلدين ستالين وتعري لينين. كما يتم تمجيد نشاط ريشار سورج وكيم فيلي وجواسيس آخرين، ممن كثر الحديث عنهم في العقود الماضية.

في عام ١٩٨٧، تم نشر ٢٣٥ كتاب، وعشرة أفلام طويلة وثائقية، و٤٠ فيلماً قصيراً للتلفزيون، و٧٥٠٠ مقالة تدور جميعها حول «مواضيع تشيكية»، كما يؤكد

فيكتور تشبريكوف^(٣). كما أن أفضل الأفلام والكتب التي تنشر، تمنح «جائزة الـ KGB في الاتحاد السوفياتي».

تتجنب عملية الموازنة - من جهة «خرق المبادئ اللينينية» ، ومن جهة أخرى، أعمال بطولية لأفراد التشيكا في الخارج - وبدقة السؤال المتعلق بالمسؤولية. ففي حالة واحدة، في كوروباتي، أجرت لجنة حكومية تحقيقاً حول الاعدادات الجماعية للمواطنين السوفيات. أما النتيجة فكانت تقليص عدد الضحايا، والاعلان بأن «أية وثيقة تتصل بأحداث كوروباتي، لم يعثر عليها في أرشيف وزارة العدل، أو الـ KGB، أو وزارة الداخلية، من قبل وكالة النيابة في بيلوروسيا أو أجهزة الاتحاد». أما من شاركوا في عملية الاعدادات، تفيد لجنة التحقيق، فقد تمت تصفيتهم بالرصاص. مشيرة إلى أربعة أسماء منهم^(٤)، قد يكونوا من بين أعضاء التشيكا الذين صفاهم ستالين.

يكتب ألان غيران، أحد صحافيي الأومانتية، عن مقابلات أجراها مع متعانين مع الـ KGB قائلاً: «... كانت محادثاتنا مريحة، رغم ميلهم إلى تبسيط التاريخ، إذ يقولون بأن المرحلة السابقة على اياغودا، ضمت تشيكست حقيقتين... ثم أتت مرحلة مظلمة... ولكن راهناً، ومنذ أندروبوف، فإننا نحمل بفخر اسم التشيكست...». ويضيف الصحافي الفرنسي معلقاً: «لعب دزرجنسكي وأندروبوف دور شخصيتين مشيرتين للعجب»^(٥). ويستعيد ألان غيران صورة التاريخ الرسمي للأجهزة كما هي: حتى بداية الثلاثينات، كل شيء كان يسير بشكل جيد، ثم بدأت «الأخطاء»، و «تشويه المبادئ اللينينية»، ولكن منذ عام ١٩٦٧، استلم أندروبوف مسؤولية الـ KGB، حيث سار كل شيء من جديد نحو الأحسن. إن وجهة النظر هذه لا تتطابق مع التاريخ الرسمي للبلاد: فأندروبوف قاد الأجهزة إبان المرحلة، المدانة اليوم، «بالركود». غير أن المنطق يتراجع أمام الحاجة إلى قائد للبوليس السياسي له صورته الإيجابية. فأندروبوف الذي استثار إعجاب الصحافي الفرنسي، يتطابق تماماً مع الدور المطلوب، لأنه يتبنى وسائل جديدة في الصراع مع الأعداء: مستشفيات التحليل النفسي «للمنشقين»، والإبعاد. فوق ذلك، فإن تشبريكوف والرئيس الحالي للـ KGB، كريوتشكوف، يشكلان جزءاً لا يتجزأ من الفريق الأندروبوفي.

يوصف غورباتشيف غالباً، بإعتباره الوريث للأمين العام أندروبوف. ولكن في

ظروف الـ «غلاسنوست» والصراع الضاري من أجل السلطة، تسنح الفرصة لفضح أندريوبوف «الودود». وهذا ما تولاه فلاديمير سميتشستني، الذي تسلم مقاليد الـ KGB بين عام ١٩٦١ و١٩٦٧، بإظهاره موقفاً شديد القساوة تجاه سلفه. يذكر: «إنني أتكلم من موقع الخبير بالقضية»، ويؤكد على واقعة أن أندريوبوف لا يستطيع أن يتجاهل وجود «مافيا اكوزيك»، أو النشاط الاجرامي لوزير الداخلية شتسيلكوف، صديق بريجنيف. «وإذا لم يكن رئيس الـ KGB يملك من الشجاعة ما يكفي لمقابلة الأمين العام أو أعضاء المكتب السياسي لاعلامهم بالوضع الأخذ بالتشكل، فما الفائدة من تسميته لهذا الموقع؟» ويضيف سميتشستني بأن «أندريوبوف، الرجل المثقف، الخ، يتحمل مسؤولية ما كان يجري»^(٦). ويشير إ. كاربوفيتش، الكولونيل المتقاعد في الـ KGB، معلناً ندمه على ما شارك فيه من أعمال «دنيئة» (وهو التعبير الذي استخدمه)، إلى تخطيط معرض للرسوم التجريدية بواسطة «البلدوزير»، وتعذيب سولجيتسين وساخاروف، وأعمال أخرى للـ KGB، تم تنفيذها تحت إشراف أندريوبوف^(٧). كما يوضح موظف الحزب ب. روديونوف، أن أندريوبوف «عمل الكثير»، أثناء شغله لهذا المنصب، «من أجل تحسين صورة الـ KGB» ولكنه يضيف وبأسف عميق، «أن هذه الحقبة نفسها قد شهدت انطلاق حملة في البلاد ضد «السحر والسحرة»، إضافة إلى العمل بلا انقطاع، على اختلاق الاعداء، ولما اعتمد من وسائل بالغة القساوة إلى حد الفظافة ضد الانتلجنسيا المنشقة»^(٨).

تركزت المداخلة التي ألقاها الكاتب يوري فلاسوف، وهو بطل أولمبي سابق في رفع الأثقال، في مؤتمر نواب الشعب وقعاً عميقاً. فلأول مرة يقال علانية: «ليست الـ KGB جهاز خدمات، بل امبراطورية حقيقية تحت الأرض لم تكشف بعد عن أسرارها، بإستثناء القبور التي اكتشفت. ورغم هذا الماضي، فإن هذه الادارة تحتفظ بوضعها الخاص، والاستثنائي». ثم يضيف مشيراً إلى ما يعتبر أساسياً في مداخلته: «إنها (هذه الادارة) بمثابة السلاح الأقوى، من بين الأسلحة التي يملكها الجهاز. سواء لجهة الفاعلية أو قفلتها من أي عقاب، هي شيء لا مثيل له»^(٩).

لا يستطيع أهالي موسكو أو المسافرون الذين يمرون بهذه المدينة، أن يتغافلوا عن رؤية المجمع السكني الجديد التي تتوزع بين أبنيته الأنشطة العديدة للـ KGB، مجمع من الأبنية، شديد الضخامة، والفخامة، وكأنه يسأل لمن السلطة الحقيقية في

البلاذ؟^(١٠). ووفق قانون باركنسون، فإن الادارة تتمدد كي تحتل ما تستطيعه من مساحة. أما اليوم، فإن مقر الـ KGB، يمثل البلاذ بأكملها وما يوجد خارج حدودها.

نبه بوريس يلتسين في المؤتمر، الى الشبكة الضخمة من «مخبري» الـ KGB في شتى أرجاء البلاذ. هذا الوضع الذي كان قائماً في الماضي وما زال مستمراً الى يومنا هذا. فمن المعلوم أن «الأجهزة» تمارس وصاية كاملة على الكنيسة. ويورد ضابط قديم في الـ KGB، لجأ الى الولايات المتحدة، كمية من المعلومات التفصيلية حول التقنية المستخدمة من قبل الأجهزة: الاختراق والتحكم. إذ يتم استخدام مخبرين وضباط، وينسب معينة، وتوكل إليهم مهمة حضور الندوات في الأكاديمية الروحية، ثم يتولون وظائف عالية في الكنيسة. وتتم مراقبة الكنيسة، من قبل الدائرة الخامسة (الايدولوجيا)، وتدعمها الثانية (التجسس المضاد)؛ كما تشارك في هذه المهمة الدائرة الأولى، الموكلة تخصيصاً بالتجسس الخارجي^(١١). هذه المعلومات التي صرّح بها الضابط القديم، عزّزها ك. كارتشيف الذي شغل لسنين طويلة، مركز رئيس المجلس المولج بالشؤون الدينية. ففي محاضرة له أمام طلاب المدرسة العليا للحزب، بدا فيها شديد الصراحة، أعترف بخطأ السياسة القديمة المعادية للدين، التي أدّت الى ولادة نوع من الصحراء الروحية، ثم طرح التساؤل التالي: «ما هو أكثر مردودية للحزب: فرد دون روحية، أو مؤمن صريح؟» ثم أجاب مؤكداً: المؤمن، لأن «الفرد دون روحية يصعب اخضاعه»، ولا يساوره أي شك حول هذه النقطة، لأن «الدين هو شيء جدي وموجود منذ زمن بعيد»، «ومن الأسهل بالنسبة للحزب كسب مؤمن صريح للإيمان بالشيوعية». ولكننا، وكما يحصل دائماً في النظام السوفياتي، نصطدم بمعضلة الكوادر. «فهناك مهمة تواجهنا، يقول كارتشيف: تربية نمط جديد من الكهنة: فإنتقاء الكهنة وتوزيعهم هو من مهمات الحزب»^(١٢). ما يركز عليه ك. كارتشيف يتصل أساساً باختراق ومراقبة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. إلا أن هذا لا يعني أن بقية الأديان متروكة وشأنها. فقد استتج الكاردينال فانستاس سلاذكجافيسيوس في معرض وصفه لوضع الكنيسة الكاثوليكية في ليتوانيا قائلاً: «إن الأسقفية مشلولة. وهي تبقى مربوطة بهذا التنظيم المشرف على المسائل الدينية. ونحن لا نعلم ما هو قراره النهائي، ولكن هذا القرار يعود إليه بالكامل»^(١٣). إن المجلس المكلف بمتابعة المسائل الدينية، هو الذي يرسم سياسة الحزب، ولكن تطبيقها يتم بواسطة رجال الـ KGB.

يلعب «الصبية الصغار في ساحة دزرجنسكي»، كما اعتاد أن يسميهم الصحفيون الأميركيون، دوراً أساسياً في إقتصاد البلاد، مما يئذونه من جهود من أجل الحصول على التقنيات والعلوم الغربية الأكثر تطوراً. كما سمحت «الغلاسنوست» بتوسيع امكانيات العملاء السوفيات في الخارج: فعدد المتعاونين مع الـ KGB الذين يقبض عليهم بالجرم المشهود، ويوقفون ثم يطردون، في ازدياد مستمر منذ وصول غورباتشوف الى السلطة. هذا الازدياد يفسر بإرتفاع فاعلية الـ KGB، أكثر منه بالفاعلية العالية لأجهزة التجسس المضاد الغربية. ويضيف وليم ويستر، مدير الـ CIA، بعض المعلومات حول هذا الموضوع: «نلاحظ أن العملاء السوفيات، أصبحوا أكثر عدوانية، وأقوى مما في السابق». كما أن عدد العملاء في الولايات المتحدة وفي أوروبا، أكثر حجماً^(١٤).

وهناك إمكانيات مهمة جداً تتوفر للـ KGB لتمارس أحد نشاطاتها التقليدية الأخرى: إفساد عملية الإبلاغ. إذ تسمح «الغلاسنوست»، وتحسن أداء المراقبة التي تمارس «بوسائل الاعلام أخرى». على وسائل الاعلام السوفياتية، بنشر خبر «موجه» في العالم، بطريقة أفضل مما في السابق.

كما تجد الـ KGB راهناً إنها موكلة بمهام جديدة فقد أعلن فلاديمير كريوتشكوف، في أول مقابلة له من مكتبه بما يلي: «في المرحلة الراهنة، تعتبر مقاومة الجريمة المنظمة من المهام الجديدة للـ KGB»، كما يعلن عن إلغاء «الإدارة الخامسة» المكلفة بمكافحة التخريب الايديولوجي، ويضيف كريوتشكوف «إن إعادة تقسيم للعمل هي قيد التطبيق، وذلك بهدف الدفاع عن الحقوق الدستورية». والظاهر، أن ذلك سيتم بواسطة الكوادر السابقة نفسها.

أخيراً - وهذا ما يفتح آفاق جديدة - «فإننا نقوم بدور المبادر في رسم هذه الخطوة أو تلك في ميدان السياسة الخارجية». ولا يوضح كريوتشكوف ماهية هذا النشاط «الجهازي» في مجال السياسة الخارجية، ولكنه يقبل أن يتولى وزير الخارجية مهمة «حكم الرشاقة» في هذا المجال. ولكن لقاء رئيس الـ KGB مع سفير الولايات المتحدة، أو زيارته المفاجئة الى فرسوفيا، بعد تسمية تادوس مازوسكي على رأس الحكومة البولونية الجديدة، يبقى أمراً ملفتاً للانتباه، من بين أشياء أخرى.

هناك واقعة أكيدة: ففي سنوات البريسترويكا، لم تخسر الـ KGB شيئاً من

أهميتها، بل على العكس من ذلك وسعت مسؤولياتها ونشاطها. فهل هناك إدارة تستطيع في الوقت نفسه، أن تحرس السكان، وتراقب المعلومات، والحياة الروحية والدينية، وتلعب دوراً كبيراً في اقتصاد البلاد (فالصراع ضد «الجريمة المنظمة» يتيح لها أن تراقب الاقتصاد بشكل أوسع)، وتتدخل في السياسة الخارجية؟ بلا شك، كان يوري فلانوف محقاً عندما تكلم عن «امبراطورية تحت الأرض».

في عصر البريسترويكا، قايض رجال الـ KGB، حسب تعبير مراقب غربي، قبعاتهم السوداء بأخرى بيضاء. فالجميع، في الظاهر، لا يخضع لهم. فالسمة الكبرى لعهد غورباتشوف تكمن في التحليل الأخير، في تعدد الأصوات. فمن جهة يفسح في المجال للتعبير عن الآراء المختلفة، وتقلص سيطرة السلطة المركزية؛ وبالمقابل نحاول استخدام هذا الكورس المتعدد الأصوات لأهداف سياسية. بهذه المعنى يشكل جهاز الـ KGB نموذجاً مكتملاً للالتباس. فوجهه الليبرالي يجد ترجمة له في سلسلة من المقابلات التي يعطيها مسؤولو لجان بعض الجمهوريات ثم يتم تنويعها بمقابلة مع كريوتشكوف، سبقت الإشارة إليها، وفي سيل من المقالات التي تطلقها ساحة دزجنسكي، وبعض الملاحظات النقدية حول «السيف والترس»، تنشر في الاعلام؛ أما الوجه الثاني فيتمثل بالصوت المهدد، والعنيد، صوت فيكتور تشبريكوف. هذا الأخير ترك قيادة الـ KGB ليستقل إلى سكرتارية اللجنة المركزية، حيث يرأس اللجنة الحقوقية. وبوصفه عضواً في المكتب السياسي، وسكرتيراً للجنة المركزية، وترأس الـ KGB حتى وقت قريب، بعد أن كان اليد اليمنى لأندرويوف، ورئيساً للبوليس السياسي في أوكرانيا لعدة سنوات، حيث اشتهر بقمعه الذي لا يعرف الشفقة، كل ذلك يجعل منه الصوت الآخر «للأجهزة». فموقعه «كحقوقى رقم واحد» في البلاد وخطابه الثابت الذي لا يعرف أي تغير، يعطي فكرة عن أهمية دوره ووزنه.

في آذار ١٩٨٦، حذر تشبريكوف من الخطر المتمثل «بالدور الهدام للايديولوجية»، بما هي سلاح تستخدمه الامبريالية في مواجهة الاشتراكية. ويرسم خطأً فاصلاً بين «الصراع الايديولوجي»، الذي يرى فيه أمراً «مقبولاً» في العلاقات بين الدول، و «التخريب الايديولوجي»، بما هو أحد أشكال «العمل التهديمي الذي تنهض به الامبريالية» عبر «الأجهزة المختصة»^(١٥). ثم يعود في تشرين الثاني ١٩٨٧، إلى التحذير من «التخريب الايديولوجي»، وعدم تناسي «وجود أفراد عندنا، يحملون

أفكاراً وآراءً أجنبية، حاقدة على الاشتراكية» وبأن «العناصر المتطرفة...» تتسم بخطورة شديدة. ثم يتوقف ليطلق هذا الانذار: «إن كافة شرائح الشعب مستهدفة من قبل الأجهزة الامبريالية»^(١٦). ولا ينس تشبريكوف في أيلول ١٩٨٨، وفي مقابلة مفصلة مع البرافدا، أن يستعيد موضوعه المفضل - «التخريب الايديولوجي»، الذي يرمي الى «تمزيق التصور الاشتراكي للعالم عند السوفييات...»، و «دفعهم للقيام بأعمال معادية للسوفييات». ثم يركز على الواقع الراهن «للأجهزة الأمنية المختصة، مراكز الهدم الايديولوجي، التي تحاول أن تجعل البريسترويكا في وضع معقد، دافعة بلادنا نحو تشكيل أطر تحرك غير شرعية أو نصف شرعية وأحياناً شرعية، تعمل جميعها وفق توجيهات هذه الأجهزة»^(١٧).

في حزيران ١٩٨٩، يستأنف فيكتور تشبريكوف الكلام في مجلة كومنست، ولكن ليس من موقع مسؤوليته السابقة كرئيس للـ KGB، بل كمسؤول عن اللجنة الحقوقية، دون أدنى تعديل في أفكاره ومفرداته. فبعد أن يرفض الاقتراح الداعي الى الغاء عقوبة الاعدام، معتبراً أن مناصري هذا الاقتراح «يبالغون في انسانياتهم تجاه المجرمين»؛ يؤكد رفضه أيضاً لإلغاء جوازات السفر الداخلية وبطاقات الإقامة، معللاً ذلك بواقعة أن السكان في الغرب مراقبون بطريقة أشد من تلك الممارسة في الاتحاد السوفياتي. ففي الولايات المتحدة، يوضح تشبريكوف، «يتم العمل على رفع بصمات المواليد الجدد، من أجل توفير وسائل تحقق إضافية»^(١٨). ثم يعود الى موضوع «التخريب الايديولوجي»، فيلاحظ الحقوقي ازدياد الفاعلية، في هذه الأيام، «للقوى التي لا تخفي عداها للاشتراكية وتعمل على مواجهة الحزب الشيوعي السوفياتي»؛ ويتمنى أن يسفر المرسوم الاشتراعي الرامي الى تعديل قانون «المسؤولية الجنائية المتعلق بالجرائم المرتكبة ضد الدولة»، عن إعادة «المتطرفين المسعورين، الى رشدهم»^(١٩).

ترك تشبريكوف، بعد إحالته الى التقاعد مطلع عام ١٩٩٠، في قيادة الـ KGB أنصار فكره المخلصين. ففي آذار ١٩٩٠، بعثت مجموعة من موظفي الـ KGB برسالة دراماتيكية الى مجلس السوفييات الأعلى للاتحاد السوفياتي ولرئيسه، ميخائيل غورباتشوف، تطرح فيها ضرورة وضع حد للتشنيع في حق القوات المسلحة السوفياتية والـ KGB، والعمل على إعادة النظام الى البلاد. وقد وقعت الرسالة من قبل «أعضاء في اجتماع ممثلي دوائر الجهاز المركزي للـ KGB». واعتبر هذا العمل الأول من نوعه في تاريخ

«الأجهزة». ومن الواضح أن هذا الاجتماع وهذه الرسالة لم يتما دون موافقة رفيق الـ KGB. وفي الثاني من نيسان، ركز فلاديمير كريوتشكوف، عبر البرنامج التلفزيوني المركزي في مبنى الـ KGB، وضمن برنامج «في خدمة الوطن»، على ضرورة وجود أجهزة أمن قوية. كما أوضح موقف الجهاز الذي يرأسه من المشاكل الأكثر أهمية في الحياة السياسية. «نحن لسنا ضد التعددية الحزبية» (كان قد تم التصويت على القانون القاضي بتعديل المادة السادسة)، ويعلن رئيس الـ KGB، أن في البلاد «بشكل إجمالي، قرابة ٧٠ الى ٨٠ تنظيم مختلف»، جميعها نشط. ويضيف: «تقدرنا أن ٩٨٪ من هذه التنظيمات دوراً بناءً وعلينا استخدامها، في حين أن نسبة ١، ٥ - ٢٪ من بينها قد تؤدي، حسب رأيي، وإذا ما تطورت على قاعدة المبادئ التي تعتقد بها، إلى نتائج سلبية ضارة بالمجتمع».

أعلن جهاز الـ KGB في الاتحاد السوفياتي، وإيان ذروة الأزمة في ليتوانيا، في نداء أطلقه، إدانته الصريحة لدعوة مجلس السوفيات في ليتوانيا في ٢٧ آذار ١٩٩٠ مواطني الجمهورية، إلى «عدم تسهيل مهام أجهزة الأمن»، هذه الدعوة قادت جهاز الـ KGB إلى «معارضة حازمة لتبني هذا الموقف المتعارض مع الدستور، ومعارضة كل المحاولات للنيل من سمعة المتعاملين مع الـ KGB والضغط المعنوي عليهم في الجمهورية الاشتراكية السوفياتية الليتوانية»^(٢٠).

من النتائج الكبرى للعصر الجديد، السماح لأعضاء الـ KGB في المشاركة في الانتخابات. مع التركيز على طبيعة نشاطهم، ومسؤولياتهم التي ينهضون بها داخل «الأجهزة».

وتبعاً لذلك نحن أمام ثنائية: فمن جهة الصوت الفاتن، والهاديء والمغري لرئيس الـ KGB، وفي مقابله، صوت سلفه المهدد والمقلق، الذي أصبح «مصلحاً» في القانون، إضافة إلى صوت أتباعه. والحالة هذه يعمل الصوت الثاني على تثبيت الحدود التي لا يستطيع تجاوزها الصوت الأول. ويستتج يوري فلاسوف قائلاً: «لم يحدث التجديد الديمقراطي في البلاد أي تغيير في مكانة الـ KGB في النظام السياسي»، فاللجنة تستمر بممارسة «الرقابة على المجتمع في كافة الميادين وفي كل منها بشكل خاص»^(٢١).

نشط الصحافي الجيورجي ايركلي غوتزريدز، الذي أمن له تشفردناذه التسهيلات

للتحقيق بالمجزرة الدموية التي تمت في تبيليسي في ليل ٧ و ٨ نيسان ١٩٨٩ ، لمعرفة مصدر الأمر الذي طلب تفريق المظاهرة السلمية ، بكافة الوسائل . سمح هذا التحقيق بكشف أحد الجوانب الخفية لأسرار النظام السوفياتي : آلية اتخاذ القرار . لقد أجاب الجنرال روديونوف ، الذي قاد العملية ، على السؤال : «من أعطى الأوامر؟» بسؤال آخر : «وماذا إذا قلت لكم انه الأمين العام؟» . يرفض الصحفي هذا الاحتمال تحت غطاء من الحجب الداهية : أين هي الوثيقة التي تؤكد ذلك؟ ثم ان غورباتشوف لم يرجع من انكلترا إلا عشية المجزرة . ولكن الجنرال يلاحظ ، دون أن يناقش : «بالمقابل ، فإن عضو المكتب السياسي المولج بحفظ النظام الشرعي كان في مركزه» وهو يعني بذلك «الحقوقي الأول» ، فيكتور تشبريكوف ، الذي كان يتلقى الرسائل المرمزة الآتية من جيورجيا ، ثم يحيلها مع أمور أخرى لى وزيرى الدفاع والداخلية . وفي معرض إجابته على أسئلة الصحفي ، لم يرفض تشبريكوف مسؤوليته عما حصل . بل أكد أن مسؤولية الخطأ كانت جماعية : من مسؤولي جيورجيا ، لى العسكريين ، لى بعض الأشخاص الذين لا يحملون صفة رسمية ، بتعبير آخر ، السكان المجتمعون في الساحة ، كل هؤلاء مخطئون (٢٢) ، الجلاد والضحية .

هذا التحقيق الذي يرمي لى «تبييض» صفحة غورباتشوف (٢٣) - بشكل يبقى محدود القدرة على الاقتناع - يؤكد الدور الهام الذي يتولاه تشبريكوف ، مسؤول «النظام الشرعي» ، الذي يتصرف بترسانة قوية من وسائل القمع ، من بينها ، جهاز الـ KGB . في مناظرة غير متوقعة ، جرت في الجلسة المكتملة للجنة المركزية ، في شباط ١٩٩٠ ، ظهرت العديد من الشواهد التي يرفض المعجبون بالأمين العام الاقرار بها . فقد أقدم ايغور ليغاتشيف ، الغاضب من الاتهامات الموجهة له والمحاولات الرامية لى اعتباره المسؤول الأول عن القرار القاضي بسحق مظاهرة تبيليسي ، (في هذا الوقت كان تشبريكوف قد أحيل لى التقاعد) على مجابهة شفاردنادزه ، وكشف عن اجتماع لأعضاء المكتب السياسي في ٧ نيسان ١٩٨٩ ، وغورباتشوف على رأسهم ، صمموا فيه على إعادة الأوضاع في عاصمة جورجيا لى حالتها الطبيعية . وقد كان رد شيفاردنادزه ، غير مقنع كفاية ، إذ قال أن الجلسة كانت غير رسمية ، وتمت في المطار في إطار توديع الأمين العام الذاهب لى انكلترا . بهذا المعنى كان لغورباتشوف حجة : فهو لم يكن موجوداً في البيت (٢٤) .

أن الخوف الذي تسببه الأحرف KGB، لم يغيب بعد. ففي أيار ١٩٨٩، نشرت نتائج استطلاع للرأي العام حول السؤال التالي: كيف تنظر إلى سير عمل مختلف الإدارات السوفياتية؟ امتنع عن الإجابة ٥٣٪، والعديد ممن أجابوا، كانوا يتوقفون عن الكلام عند ذكر الـ KGB^(٢٥)، أما في الاستطلاع الذي جرى عام ١٩٨٨ حول السؤال: كيف تقيم عمل الـ KGB؟ فإن ما نسبته ٤٦٪ من المستجوبين رفضوا الإجابة.

هذه «الأجهزة» المقتدرة، وما تشكله من قوة قمع ورقابة ودمج، تبقى مبدأ علة الوجود الأولى بالنسبة للأمين العام. وبدونها، لم يكن للسلطة السوفياتية من وجود، كما سبق وأشار لينين.

الفصل الحادي والعشرون الجيش والـ «بريسترويكا»

«الدبلوماسية ليست اهتمامنا، فالبنديقية الرشاشة هي منانا، القيادة والأوامر الواضحة رجانا، ثم القنابل، وكل زوج يساوي إثنانا»
أغنية الجندي

توضح مقالة «الجيش الاشتراكي» المنشورة في القاموس الموسوعي العسكري، في طبعته الأولى عام ١٩٨٣، والثانية عام ١٩٨٦ ما يلي: «لا يتوقف الجيش الاشتراكي المطلق، بعدها يقتصر دور الجيش على أداء وظيفته الخارجية». هذا الوضع ليس إلا أمراً ظاهرياً، لأنه لم يتم التوصل بعد إلى تحديد ماهية الانتصار «المطلق» للاشتراكية. وفي عصر الـ «غلاسنوست»، فتح النقاش فجأة حول ما هي الاشتراكية. كما أن من النتائج التي لا تقبل المعارضة للـ «بريسترويكا»، ضرورة استخدام «الجيش الاشتراكي» من أجل النهوض بأدوار «داخلية»: فمن أجل استتباب الأمن في المناطق التي تشهد صراعات قومية حادة، تتولى وحدات من الجيش النظامي مساعدة قوى الأمن الداخلي. والعمليات التي أنجزت على يد «الوحدات الخاصة» في تبليسي هي أفضل مثال.

إذاً هناك وظيفة «داخلية»، وأخرى «خارجية»، وثالثة: سياسية. ففي مرحلة التحول و «البريسترويكا»، وإجراء الإصلاحات الداخلية والصراع الحاد من أجل السلطة، تبرز فائدة الوظيفة الثالثة.

بعد تثبيت الجنرال يازوف في منصبه كوزير للدفاع^(١)، من قبل مجلس السوفيات

الأعلى للاتحاد السوفياتي، طرح عليه أحد الصحافيين السوفيات السؤال الثاني: «هل سمعتم أن الغرب يتوقع إمكانية حصول انقلاب عسكري في بلدنا؟» أجاب الجنرال، بعد شكره للمصحافي لأنه لم يطلب منه تحديد موعد إمكانية حصول إنقلاب^(٢). كما أن غورباتشيوف نفسه، في صيف ١٩٨٩، استهزأ بهذا النوع من الاشاعات.

وفي أيار ١٩٩٠، سرت غمغمة في الغرب تفيد بأن عسكريين - بعض المصادر تحدثت عن طلاب الاكاديمية العسكرية، ومصادر أخرى ذكرت أنهم ضباط وجنود من فرقة «تامان» - قاموا بعرض قوة في الوقت الذي كان يتجمع فيه ١٠٠ ألف موسكوبي في الساحة الحمراء مطالبين بتحويل النظام الى نظام ديمقراطي - وفي ٤ أيار، نفى الكسندر اياكوفليف هذه التأكيدات بكل قوة، وأكد «أن أية ضغوط لم تمارس على القيادة السياسية، وبالتالي لا مبرر للقول بأن غورباتشيوف قد غير سياسته تحت الضغط»^(٣).

يتم الحديث دورياً عن «إزاحة غورباتشيوف»؛ وفي ذلك إحدى الظواهر الأكثر غرابة للـ «بريسترويكا». بشكل منتظم - بعد ذهاب الأمين العام في عطلة، أو عشية الجلسات المكتملة للجنة المركزية - تنتشر «معلومة» السقوط المتوقع لأب الاصلاحات، كإنتشار النار في الهشيم. كما يتم تداول هذه «المعلومة» من قبل الاعلام الدولي، وتعود الى الاتحاد السوفياتي مثبتة «الشرعية»، ثم تنطلق لتجوب العالم. ولكن بعد أي انتصار يحققه غورباتشيوف، تعود الأمور لتخمد، بانتظار «الانذار» المقبل. ولا نجد أمثلة مشابهة لذلك إلا في سنوات الحرب الأهلية، حيث تلجأ الصحافة الأجنبية الى الاعلان الصاخب بأن لينين أوقف تروتسكي، أو عكس ذلك.

خلال سبعين عاماً، كانت هذه الإشاعات تنبت بشكل عفوي، ويعود السبب في ذلك الى غياب المعلومات حول طبيعة الأوضاع في البلاد. أما اليوم، فإن بطريقة منهجية، تتم الاشارة الى ثلاثة مرشحين للعب دور المنظم للمؤامرة: قمة هرم الحزب، جهاز الـ KGB، والجيش. حتى بعد استلامه للسلطة، بقي الحزب الشيوعي لمدة طويلة غير مطمئن لانتصاره، حتى أن لينين إحتفل بمرور ٧٣ يوماً على ترأسه للدولة، لأنه ربح يوماً إضافياً بالنسبة لأنصار كومونة باريس عام ١٨٧١.

لم ينفك البلاشفة أبداً عن النظر الى أنفسهم عبر مرآة الثورة الفرنسية. فترميلو

ويونابرت يثيران فيهم الفتنة والخوف. فتهمة «البونابرتية» التي ألصقت بقائد الجيش الأحمر، هي طيعية تماماً. وبدوره، اتهم تروتسكي ستالين، بأنه استعاد «تروميدور» على طريقته. كما أن المؤرخين السوفييات لسنوات الـ «غلاسنوست»، أعادوا استخدام هذا النوع من التبيكت، أثناء الحملة الجديدة لإدانة «العبادة الستالينية للشخص». وأتهم توخاتشيفسكي بدوره «بالبونابرتية» ومحاولة القيام بانقلاب عسكري. كذلك، فإن ما حصل عام ١٩٥٧، من إقالة لجوكوف وإحالة إلى التقاعد، قد تم تحت عنوان «البونابرتية». إلا أن لا شيء يثبت تورط تروتسكي، وتوخاتشيفسكي، وجوكوف، في أية محاولة للقيام بانقلاب عسكري. فتصريح جوكوف إبان انعقاد الجلسة المكتملة للجنة المركزية عام ١٩٥٧ - «دون أمر مني، لن تتحرك أية عربة» - هو المناسبة الوحيدة التي عبر فيها الجيش عن رغبته في لعب دور سياسي. مع العلم أن جوكوف كان في قوله هذا يدعم وضعية السكرتير الأول. ولكن موقف خروتشيف من وزير دفاعه، الذي يرغب في المشاركة في الصراع السياسي على السلطة، يظهر قلة حماس قيادة الحزب، عندما ترى بوادر ظهور شركاء من الخارج. ومن الملفت أن انتصار خروتشيف على الجيش كان من السهولة بمكان تذكرنا بقصص اللجنة: إذ كان يكفي النطق بكلمة واحدة، حتى يحال بطل الحرب العالمية الثانية إلى التقاعد.

لم يشهد تاريخ الاتحاد السوفياتي، إلا حالة واحدة من التآمر الناجح. وهي التي نظمت المطالبين بإزاحة خروتشيف، فيما بقي الجيش حذراً. ولكن الـ KGB والجيش، لعبا دوراً تقنياً بحتاً: فالانقلاب تم تحضيره على يد أقرب مقربين الأمين الأول. إنه أشبه بنموذج ثورة في القصر.

أدت تنحية خروتشيف إلى تغيير «المنأخ»: فالجليد الجديد يأتي بعد ذوبان القديم. كما أن هناك نتيجة هامة أخرى إنطوى عليها العهد الجديد، وتتصل بالميل نحو نزع القدسية عن شخص القائد. ولهذا الميل سابقة. ومع ذلك، فإن أحداً لم يفكر، في أية لحظة، في قلب بريجنيف. حتى في السنوات الأخيرة من عهده، فالشائع أن بريجنيف سيقدم بملء إرادته على الاعتزال. والسبب في ذلك، تدهور حالته الصحية، التي كانت واضحة بالنسبة لمشاهدي التلفزيون، والمقاصد الانيسة للطامعين في العرش.

إن التكرار في الدور السياسي للجيش في النظام السوفياتي، هو من الهوايات

المفضلة لدى العلماء المختصين بشؤون الاتحاد. وفي الحقيقة، لم يلعب الجيش أي دور سياسي مستقل، في تاريخ الاتحاد السوفياتي. كما أنه خدم الحزب بأمانة وبشكل دائم. دون أن يعني ذلك، افتقاده لأية أهمية. بل أن دوره ودلالة هذا الدور، كانا دائماً منظمين بطريقة منهجية وما زالاً، من قبل قيادة الحزب، وفقاً لتوجهاتها السياسية المعلنة في كل مرحلة.

في ٣٠ أيار ١٩٨٧، وبعد يومين على الهبوط المثير لطائرة ماسياس روست في الساحة الحمراء، وزعت وكالة تاس خبراً يفيد أن المكتب السياسي قد قرر عزل الجنرال كولدونوف من مهامه «وتدعيم قيادة وزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي». وفي اليوم نفسه تم عزل وزير الدفاع، المارشال سوكولوف. أي أن ميخائيل غورباتشوف، قام على عكس عادته، بإنجاز عملية التطهير في القيادة العسكرية، بطريقة سريعة، واضحة وجذرية. فقد جرت العادة، أن يحضر طويلاً لأي من قراراته، مهما صغر شأنها، وأن يأخذ وقتاً أطول ليضع قراره موضع التنفيذ. ولكن في هذه المرة تدافعت الأحداث، الى حد يجعلنا نعتقد، أنه لو لم يكن لماسيوس روست من وجود، لكان المطلوب إختراعه. إنها فرصة مؤاتية وعلى غورباتشوف أن يلتقطها. كما أن السهولة التي تمت بها عملية التطهير، تفسر بغياب كامل للمقاومة، سواء في الجيش أو في داخل المكتب السياسي. فغورباتشوف يملك حجة قوية: طائرة أجنبية حطت في قلب موسكو، فوقاً لإتفاق، وقع عام ١٩٧٢ بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، يحق لكل منهما خلق حزام أمن مضاد للصواريخ في مناطق حيوية. وفي عام ١٩٧٤، تم التراجع الى حدود حزام أمني واحد.

أختار الأميركيون قاعدة الصواريخ العابرة للقارات في غريت-فوركس، أما الاتحاد السوفياتي فقد آثر موسكو. وقد برر قائد وحدات الدفاع الجوي، الجنرال كرتياك، هذا الخيار بواقعة أن عاصمة الاتحاد السوفياتي «هي مركز للثقافة العالمية»^(٤). ويمكننا بأن هذا السبب ليس الوحيد فمن الطبيعي لأي دولة مركزية، أن تعمل بداية على حماية مركز السلطة، حيث يتركز الجسم القائد للبلاد.

سمحت «قضية روست» للحزب بتأكيد دوره المسيطر على الجيش. فقد انتقد بوريس يلتسين، السكرتير الأول لموسكو في تلك المرحلة، أمام أعضاء الحزب المولجين

بالدفاع الجوي، بلا شفقة الطيارين والـ DCA، وركز على ضرورة مضاعفة «تأثير الحزب على الكوادر»^(٥).

كما أن غورباتشيف لم يلقَ أية معارضة عندما طالب بتخفيض عدد القوات المسلحة بحدود ٥٠٠ ألف رجل. وعندما أعلن هذا الخبر في نيويورك، إبان اجتماع هيئة الـ ONV، إستقبل كدليل إضافي يؤكد الأهداف السلمية، للاتحاد السوفياتي ولـ «فكر السياسي الجديد». وفي عام ١٩٥٩، عمد خروتشيف الى تخفيض عدد القوات المسلحة، بما يقارب ١,٢ مليون رجل، أي ١/٣ الجيش (غورباتشيف خفف العدد بنسبة ١٠/١). كما أعلن مسؤول الدائرة السياسية الرئيسية، في مؤتمر نواب الشعب، الجنرال ليزيتشيف، الغاء ١٤٠٠ مركز خاص بالجنرالات^(٦). وكان الرد عليه أن الولايات المتحدة لا تملك أكثر من ١٠٧٣ مركز.

ويضيف صحافي سوفياتي، بأن الـ Bundeswehr تملك نصف مليون جندي وضابط، لا يقودهم أكثر من متي جنرال وأميرال. بهذا المعنى لم يكن غورباتشيف يقوم بعمل مرهق عندما يسرح من الجيش السوفياتي عدداً من الجنرالات يفوق عددهم في أقوى جيشين في حلف الـ OTAN. ففي الولايات المتحدة، تصل النسبة الى جنرال واحد لكل ٣٤٠٠ رجل، وفي الـ Bundeswehr واحد لكل ٢٤٠٠، أما في القوى المسلحة السوفياتية فتصل النسبة الى واحد لكل ٧٠٠ رجل^(٧).

تخدم عملية تصفية القيادة العليا، وتخفيض عدد الجيش، وانتقاء بعض أوجه الحياة العسكرية عبر الصحافة، والسماح بمناقشة ضرورة خلق جيش محترف، هدفاً واحداً: تقوية الرقابة على الجيش ومضاعفة فعاليته. أن العلاقات بين قيادة الحزب والجيش، في مرحلة الـ «بريسترويكا»، تحددها الهزيمة العسكرية في أفغانستان. فالتناقشات الدائرة حول أسباب وظروف التدخل السوفياتي في كانون الأول ١٩٧٩، تعتبر نموذجاً لعصر الـ «غلاسنوست»: إذ يدور الكلام، وتذكر أسماء، ولكن لا يتم صياغة أية وثيقة، ولا يتم التوصل الى أي استنتاج محدد. فمجرد السماح بمناقشة مواضيع كانت محظورة سابقاً، يعتبر عملاً مفيداً ويشبع حاجة معينة.

أتاحت الهزيمة في الحرب ضد «المجاهدين»، لغورباتشيف بوضع حد «لزمّن الماريشالات»، ويفسح مجال الصعود أمام جيل جديد من المخططين، بينهم الضباط

الذين ترقوا الى رتبة جنرال في أفغانستان، فهؤلاء يصعدون بسرعة الى أعلى المراتب. فالجيش السوفياتي الذي لم يسمع صوت المدافع بين عام ١٩٤٥ و١٩٧٩ (بإستثناء حملة بودابست عام ١٩٥٦)، يقدم إمكانيات واسعة لهؤلاء الذين خاضوا تجربة الحرب. لقد كان للهزيمة تجربة جيدة، كشفت ثغرات التأهيل غير الكافي للضباط، الذين يخافون اتحاد المبادرات، والتكوين السيء للجنود، فقط المظليون، المؤهلون بشكل جيد، و «الوحدات الخاصة»، كانوا أعداء فعليين لمقاتلي الأفغان. كما كشفت حرب أفغانستان بطريقة مقنعة أهمية التقنية: فصاروخ الـ «ستيفر» كانت عاملاً أساسياً في وقوع الهزيمة؛ لأنها قضت على الميزة العسكرية السوفياتية المتمثلة بطائرات الهليكوبتر.

لقد تم التأكيد على هزيمة العسكريين، عندما استطاع غورباتشوف أن يحولها الى انتصار سياسي، عن طريق منعه لسقوط نظام نجيب الله بإستخدامه المناورات الدبلوماسية، وتقدير مساعدة عسكرية سخية له. في الواقع، لقد استطاع غورباتشوف أن يدفع الولايات المتحدة للبحث عن حل للمشكلة الافغانية، التي ولدت بسبب التدخل السوفياتي. غالباً ما يحدث أن تكون الهزيمة أكثر مردودية من الانتصار بالنسبة للجيش المهزوم. فقاط ضعف الجيش السوفياتي، غدت واضحة، ومنها العديد المبالغ به، والعشبي، ومدة الخدمة العسكرية التي تفرضها التقاليد العسكرية القديمة. بهذا المعنى تهدف «بريسترويكا» الجيش الى معالجة النواقص التي كشفتها المغامرة الافغانية. وهذا ما يتم تحت عنوان «تخفيض عدد القوات المسلحة من طرف واحد»، ونزع التسلح، وصياغة «استراتيجية دفاع» جديدة.

من الخصائص الكبرى للـ «بريسترويكا»، هذا البون الشاسع وغير الخفي بين الكلام والأفعال، بين الدعاية والحقيقة. فكل ما يتعلق بالجيش السوفياتي يبقى من الأسرار العميقة. وما يتم اليوم هو إزاحة أحد الأغطية. فعندما يقيم وزراء دفاع البلدان المشاركة في الـ OTAN في الاتحاد السوفياتي، يتم اطلاعهم على كل شيء تقريباً. كما تؤمن الخبراء الغربيين رحلات لزيارة المفاعلات النووية. وبذلك يستطيعون أن يتكلموا عن كل ما شاهدوه، لأن غورباتشوف مقتنع بأن «الكلمة» هي في النهاية أقوى من الوقائع.

كشف وزير الدفاع الأميركي، فرانك كارلوتشي بعد إقامة له في موسكو في آب

١٩٨٨، عن الهوة القائمة بين «الصرافة» و «غياب السياسة الجديدة»: فالنفقات العسكرية السوفياتية هي على الأقل ستة أضعاف ما تعلنه الميزانية؛ وبعد مرور عشرين عاماً على «ربيع براغ»، فإن مجموع الفرق العسكرية السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا يفوق ما تملكه أميركا من قوى عسكرية في أوروبا كلها، حتى أن عدد الفرق العسكرية السوفياتية في ألمانيا الشرقية يتجاوز مجموع الفرق الأميركية؛ وفي شبه جزيرة كولي، تتجمع ثلاث فرق سوفياتية، وأسطول وفرقة من مشاة البحرية، بمواجهة ثلاثة كتائب نرويجية من المشاة. يرى فرانك كارلوتشي، أن القوى المسلحة السوفياتية، يستمر تنظيمها وتجهيزها بهدف القيام بهجمات كبرى، بغية احتلال أراض والشباب فيها^(٨)، وفي عودة لوزير الدفاع الفرنسي، فإن بيار شغنيان، إلى نابليون يعلن: «يجب أن لا نحاكم العدو، على أساس نواياه بل على أساس إمكانياته»^(٩). فبالرغم من الأزمة الاقتصادية المتفاقمة، فإن الامكانيات العسكرية السوفياتية لا تن تزايد. ويؤكد الجنرال جون غافان وهو قائد سابق لقوات الـ OTAN في أوروبا، ان الصناعة السوفياتية، أنتجت بين عام ١٩٨٥ و ١٩٨٨، من الآليات والأسلحة أكثر مما بحوزة الجيش الفرنسي والألماني مجتمعين. وحتى وقت قريب جداً، كان الاتحاد السوفياتي ينتج سنوياً قرابة ٧٠٠ طائرة مقاتلة، وغواصة نووية كل ٣٧ يوماً. كما أن الانتاج السنوي من دبابات ت - ٨٠ يساوي ٣٤٠٠: أي ما يكفي لتسليح فرقة عسكرية في الشهر. فلو أغلقت كافة مصانع الدبابات في الاتحاد السوفياتي فجأة، وتضاعف إنتاج بلدان الـ OTAN ثلاث مرات، لوجب الانتظار لمدة عشر سنوات كي يتم بلوغ مستوى المعسكر الاشتراكي^(١٠). واستناداً إلى أرقام أميركية، بلغت كلفة الامدادات العسكرية السوفياتية إلى الحكومة الأفغانية، بعد انسحاب «وحدة محددة» من الجيش السوفياتي، قرابة ٢٠٠ - ٣٠٠ مليون دولار في الشهر، في النصف الأول من عام ١٩٨٩. الأمر الذي يعني الرغبة في إبقاء الهيمنة على أفغانستان عبر «وسائل أخرى». ويرى ممثل مكتب الرئاسة، أنه «لا يمكن إيجاد تفسير» لتزايد إمدادات الأسلحة لنيكاراغوا من قبل «الكتلة الشرقية»، في الوقت الذي تتم فيه محادثات من أجل وقف العمليات العسكرية.

ففي عام ١٩٨٩، تسلمت حكومة نيكاراغوا أعلى نسبة من الأسلحة حصلت عليها إبان حربها مع «الكوترا»^(١١). لقد صاغ الرومان هذا القانون: إذا كنت تريد

السلام، فتحضر للحرب. فقط هذا المنطق يبرر تزايد عدد الغواصات السوفياتية في شالي الأطلسي. كما أن تلبية اجتياحهم للمياه الاقليمية النروجية والسويدية، أضحت أكثر سهولة، منذ أن تمكن الاتحاد السوفياتي من الحصول سراً على التكنولوجيا الغربية، التي تسمح بجعل هذه الغواصات صامته كلية. كما لاحظ الخبراء، أن عدد الغواصات السوفياتية من النموذج القديم، المجهزة بالصواريخ والتي تملك مدى رؤية متدنٍ عن مثيله في الولايات المتحدة ولكنه مناسب لأوروبا، قد تزايد في المياه الأوروبية^(١٢). ان منطق هذه العمليات يندرج تحت حيثيات المذهب العسكري الذي صاغه أب أسطول المحيطات السوفياتي، الأميرال غورشكوف: «اعتبر فن الأسطول الحربي السوفياتي دائماً أن التفوق في البحار ليس هدفاً بحد ذاته، بل وسيلة لخلق معطيات تسمح لقوى الأسطول وطاقته أن يعالجوا بطريقة مناسبة أية مشكلة في أي مكان من مسرح العمليات، وخلال مدة زمنية محددة»^(١٣).

تبرز من بين العضلات الكثيرة للـ «بريسترويكا»، معضلة التزايد الدائم للتسلح. يجزم فرانسوا هابسبورغ، مدير المعهد الدولي للأبحاث الاستراتيجية، : «بأن الطاقة العسكرية السوفياتية، خاصة في مجال التسلح التقليدي، لم تكن في أي وقت على هذه الدرجة من الرعب...»^(١٤) لماذا تضاعف القوى العسكرية السوفياتية من قوتها، في حين أن اقتصاد البلاد يمر بأزمة عميقة، هذا ما يثيره، بعد خمس سنوات من عمر «بريسترويكا»، كافة الاقتصاديين والقادة السوفيات؟ كيف يمكننا التوفيق بين نمو القدرة العسكرية وبين السياسة المعتونة «بالسلم الشامل»، و «البيت الأوروبي»، ونزع السلاح الكامل لجميع الأطراف؟ ثم كيف يمكننا التوفيق بين الخوف من «انقلاب عسكري» و «تقوية الجيش».

إن البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة المعضلة، نجده في النموذج الذي لا يمس للنظام السوفياتي، والمركز إلى القوة العسكرية، السمة الوحيدة للقوى العظمى التي بلغها. والأمر المقدس أيضاً، سلطة الحزب في فوهة «البندقية»، كما كان يقال سابقاً، والصواريخ البلاستيكية، كما يقال اليوم.

في خريف ١٩٨٩، وبعد أن عدّلت مرة أخيرة تركيبة المكتب السياسي قبل مؤتمر الحزب، أدخل غورباتشوف - الذي يتابع هدفه بثبات نحو مركز السلطة بيده - إلى

المركز الأعلى للقرار رئيس الـ KGB، تاركاً وزير الدفاع على الباب. لقد أصبح يوري ماسليوكوف، الذي يمثل القدرة العسكرية للبلاد، عضواً جديداً في المكتب السياسي. وباعتباره أحد مسؤولي الصناعة العسكرية، ترأس بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٨ اللجنة العسكرية - الصناعية (VPK)، التي من بين اهتماماتها، تلبية طلب وزارات الجيش من التقنيات والتكنولوجيا، الأمر الذي يتطلب مساعدة الأجهزة السرية^(١٥). في شباط ١٩٨٨، تولى رئيس اللجنة (VPK)، مركز رئيس «الغوسبلان» وأصبح المساعد الأول لرئيس مجلس الوزراء. وسوف يزيد الاتجاه نحو الحد جزئياً من مركزة الاقتصاد، بإعتباره أحد أهداف الـ «برسترويكا»، من إمكانيات التخطيط في الصناعة العسكرية، المركزة إلى الحد الأقصى، ويتعبّر آخر، مركزة الجهود بغية تأمين القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي. أن «ربيع الأمم» في «المعسكر الاشتراكي» الآتي في خريف ١٩٨٩. قد عكّر أجواء تلك الترتيبات. إذ أن فرقاً من الجيش السوفياتي قد بقيت في البلدان المسماة حتى وقت قريب «إشتراكية»، والتي اتخذت اليوم من تسمية «حلفاء» صفة رسمية لها. لكن تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا طالبت برحيل القوات السوفياتية وفق جدول زمني، بحجة غياب الإستعداد لاستقبال الفرق السوفياتية العائدة، دفعة واحدة إلى البلاد. أما بولونيا فلم تلح كثيراً على هذه النقطة حتى الآن بانتظار وضوح الموقف في ألمانيا الموحدة. أن بعض الفرق السوفياتية سوف تبقى في ألمانيا الشرقية حتى عام ١٩٩٤. وقد قبلت الحكومة الألمانية بدفع عشرة مليارات مارك من أجل إعادتهم إلى الوطن وتأمين المساكن لهم.

إن غياب الجيش من ألمانيا الشرقية والتغيرات الحاصلة في طبيعة السلطة في البلدان «الحليفة» قد وجّه ضربة حاسمة للقوات المسلحة في حلف وارسو. في كانون الثاني ١٩٩٠، أعلن مدير الـ C.I.A. في الكونغرس الأميركي، أن التهديد العسكري السوفياتي قد تراجع، بلحاظ المعطيات الجديدة. ويتابع: «نستطيع بلا شك أن نتوقع استمرار هذا التراجع، دون أن يعني ذلك زوال التهديدات التي يسببها الاتحاد السوفياتي للمصالح الأميركية»^(١٦). أن وجهة نظر المهتمين بمكافحة الجاسوسية في الولايات المتحدة، تستحق بالتأكيد أن نتوقف عندها، دون أن نمنحها صدقية مطلقة. ففي نيسان ١٩٩٠، وأثناء انعقاد المؤتمر الذي أشرف على تنظيمه معهداً أميركياً للأبحاث، دحض اقتصاديون سوفيات إستنتاجات الـ C.I.A. بشكل قاطع. أعلن أوليغ

يوغومولوف، وهو مدير معهد المشكلات الاقتصادية للنظام الاشتراكي العالمي، ونائب للشعب، أن الاتحاد السوفياتي يخصص للاتفاق العسكري ما نسبته ٢٠ - ٢٥٪ من الدخل القومي. فيما تتحدث الـ CIA عن نسبة ١٦٪ ومن جهته يعلن الاقتصادي فيكتور بلكين، أن الناتج القومي السوفياتي يعادل ربع الناتج القومي الأمريكي، في حين أن تقديرات الـ CIA لا تصل إلا إلى حوالي النصف.

يدعو المنطق القيادة السوفياتية إلى تقليص الاتفاق العسكري من أجل إيجاد حل نهائي للأزمة الاقتصادية التي تزداد تفاقمًا. ولكن لم يحدث أبداً، أن انقاز النظام السوفياتي لمنطق حاجات الفرد، وبقي منطق السلطة هو السائد.

الجزء السابع

أقول الإمبراطورية؟

الفصل الثاني والعشرون

شقوق في الجدران

«ان روسيا الكبرى لحمت جمهوريات حرة وإلى الأبد في إتحاد خالد»

نشيد الاتحاد السوفياتي

«لقد سؤنا المسألة القومية»

ميخائيل غورباتشوف، ٢ تشرين الثاني ١٩٨٧

لم يمض على عمر «البريسترويكا» خمس سنوات، حتى أضحت كل كلمة من المقطع الأول للنشيد السوفياتي عرضة للمراجعة. فقد أعيد النظر بطبيعة «الاتحاد»، وبـ «خلوده»، وبموقع «الجمهوريات» داخله، وبالصفة «الأبدية» لهذه التشكيلة، وبموقع ودور «الأولى بين متساوين»: روسيا. يصعب تجنب هذه المسائل، لأن الشروع في تحقيق «البريسترويكا» على مستوى نظام القيادة، أجبر غورباتشوف على إعادة فتح جروح قديمة، بقي العديد منها حياً منذ عشرات السنين.

شكل التعامي المطلق عن المشاكل القومية في المراحل الأولى من «البريسترويكا»، إحدى العضلات الأكثر غرابة. ويمكننا تفسير هذا التعامي بالرفض المكابر في النظر للواقع المواجه، والثقة المبالغ بها بالقدرة على تكييف الواقع وفق الحاجات والرغبات.

«عندما أطلقت البريسترويكا في نيسان ١٩٨٥، هل كان بإمكاننا أن نتوقع ولو للحظة حدوث أشياء شبيهة بما يحدث اليوم؟ كلا، وبكل تأكيد كلا»^(١). هذا الدهول تم التعبير عنه في صيف ١٩٨٩، على لسان صحافيي البرافدا. في زمن كانت الأخبار التي تنشرها الصحافة، مقلقة لى حد الاعتقاد بأننا في ظل حرب: «سومغيت»

تيليسي، وادي فرغانا، نوفي أوزن...»^(٢) والعديد من الأسماء والأمكنة، التي حصلت فيها مذابح دامية، تم فيها حرق، وإغتصاب، وقتل مواطنين سوفيات. وفي بعض أماكن القفقاس، اتخذت الصدمات طابع الصراعات الفعلية، فحسب الأرقام الرسمية، تم إحصاء ٢٩٩ قتيل «إبان اضطرابات إتنية» في عام ١٩٨٨ - ١٩٨٩، و٥٢٠٠ جريح، وعدة آلاف من البيوت التي حُرقت ونُهبت. هذا إلى جانب تهجير قرابة ٣٦٠ ألف أرمني، وأذربيجاني، وتركبي، الخ^(٣). من أماكن سكنهم.

أطلق الصحفيون السوفيات على هذه الأمكنة التي أصبحت مسرحاً للصراعات الدامية، تسمية «عناوين قلقنا». وكان العنوان الأول الذي ظهر على بطاقة «الاتحاد الخالد»، في كانون الأول ١٩٨٦؛ عاصمة كازاخستان: ألما - أتا. لم تكن الملابس التي أحاطت بحوادث ألما - أتا قد إتضحَت بالكامل. فما عرف (آنذاك)، أنه بعد قرار الجلسة المكتملة للجنة المركزية، بإبعاد السكرتير الأول دينمحمد كوناييف، وهو صديق قديم لبريجنيف، وإستبداله بأحد مناصري غورباتشيوف، غينادي كوليين، أقدم «شبان غير مجرّبين وغير مثقفين سياسياً» على النزول إلى الشوارع والساحات، «يضربون المواطنين ويشتمونهم، يقلبون السيارات ويحرقونها، يحطمون واجهات المحلات، والأندية، والأماكن العامة»؛ وذلك لمدة يومين، ١٧ و١٨ كانون الأول. يصف الكاتب كازاك أنور اليمجانوف، ما حصل بحرارة قائلاً: «يقف وراء الانفجار تشجيع وخداع أحد ما»، مع العلم أن «قرارات الجلسة المكتملة قد صوتت عليها الأغلبية الساحقة من الشيوعيين، وعمال الجمهورية، الذين رأوا فيها قرارات شرعية ومبررة»^(٤). وبعد مضي ثلاث سنوات، أقر وريث كوليين في منصب السكرتير الأول لجمهورية كازاخستان، نزار باييف، أن «هذه المظاهرات المتطرفة كانت مفتعلة»، وأضاف مدقّقاً بأن عملية انتخاب كوليين، التي لم تتجاوز حدود ١٨ دقيقة، هي «نوع من الإهانة لمناضلي الحزب، بسبب إستهتارها بالرأي العام»^(٥). لقد كان غورباتشيوف، الذي لم تتجاوز مدة سلطته بعد ستة ونصف، يستعيد الأساليب القديمة التي أظهرت فعاليتها: العمل على إقالة السكرتير الأول، وإستبداله بآخر مرسل من موسكو. والجواب على ذلك يأخذ شكل حالات من الشغب. ولكنها لم تكن مقلقة: ألم تقمع الحالة المذكورة خلال يومين؟.

أطلقت صفارات الإنذار الأولى قبل حوادث ألما - أتا. فقد تحدث العديد من

الكتاب، والمدرسين بشكل صريح عن الخطر المتمثل بإنذار اللغات القومية، ومن بينها، الأوكرانية والروسية البيضاء. ففي عام ١٩٦٨، أوضح إيفان دزيوبا، في كتاب له تحت عنوان: أمية أو «ترويس»، النتائج المدمرة التي أصابت أوكرانيا من جراء السياسة القومية السوفياتية. وبالرغم من أن دزيوبا يستند في رؤيته إلى ضرورة العودة إلى السياسة اللينينية، وأن يقتصر توزيع كتابه على «ساميزدات»، فقد جرى توقيفه. وفي أواخر عام ١٩٨٥، ارتفعت بعض الأصوات في الصحف، لتعلن وقفها إلى جانب اللغات القومية. في أكتوبر ١٩٨٦، نشرت صحيفة أدبية أسبوعية تصدر في روسيا البيضاء، عدة رسائل من القراء، يصفون فيها الوضعية السائدة. فقد كتبت مجموعة من المدرسين في منسك، على سبيل المثال، أن الأساتذة والطلاب الذين يتحدثون لغة روسيا البيضاء أثناء مجالس تربوية، يواجهون تهمة النزعة القومية^(٦). كما ظهرت مقالات ورسائل من هذا النوع في الصحافة الأوكرانية، والمولدافية، والاستونية، والأوزبكية، وفي صحف ومجلات جمهوريات أخرى.

هذه الاشارات لم تكن مسموعة. فقد أكد مشروع البرنامج الجديد للحزب الشيوعي، الذي عرضه غورباتشوف في شهر أكتوبر ١٩٨٥ أمام الجلسة المكتملة للجنة المركزية، والذي تم تبنيه في المؤتمر السابع والعشرين للحزب، بكل حزم في الفقرة المختصة بـ «استمرارية إنطلاقة وتقارب الأمم والإتنيات الاشتراكية»: «تفرض نتائج المسار الذي سلك، الاقتناع بأن المسألة القومية، بما هي راسب من الماضي، قد وجدت لها حلاً ناجحاً في الاتحاد السوفياتي»^(٧). ثم يضيف معترفاً، بأن صيرورة العمل والحياة المشتركة لأكثر من مئة أمة وقومية، تطرح مهام جديدة، ضمن هذا الإطار يقترح برنامج الحزب «ضرورة تطوير العلاقات بين القوميات». وبعد أربع سنوات على هذا الطرح وجد غورباتشوف نفسه مجبراً، في أيلول ١٩٨٩، تاريخ إنعقاد الجلسة المكتملة للجنة المركزية والمخصصة «للسياسة القومية للحزب في ظل الظروف الراهنة»، على القبول بأن وضعية العلاقات فيما بين الإتنيات «ليست من البساطة بشيء»^(٨). كما أن الخطباء الذين تعاقبوا بعده على الكلام، الأمناء الأول للجمهوريات أو المناطق، تكلموا بدورهم عن وجود أزمة عميقة.

تم وعي الوضع المتأزم ببطء: من المشاكل المتفجرة في كراباخ، واليقظة القومية لبلدان البلطيق، إلى مذابح وادي فرغانا، ونوفي أودن، والصدامات الدامية بين شعب

جيورجيا وشعب الأبخاز، أضف إلى ذلك التأكيد على هوية أذربيجان، ومولدافيا، وروسيا البيضاء، وولادة حركة شعبية: «الروح» في أوكرانيا. ولم يكن ذلك إلا إشارة إلى المعالم الكبرى للوضع، الذي إستوقف غورباتشوف ليعلن نادماً: «لم ندرك في الوقت المناسب، ضرورة التغييرات العميقة، في شتى الميادين»، وذلك في إطار حديثه عن «السياسة القومية الجديدة». أن لكل جمهورية أسباب استيائها التي تجد تعبيرها، في كل مرة، بطريقة خاصة. فمشكلة كارباخ، العليا، ذات الأغلبية السكانية الأرمنية، والتي ضمت عام ١٩٢٣ إلى أذربيجان، تحولت بسبب غياب القرار في موسكو، ومشاعر التعاطف التي يحملها غورباتشوف تجاه أذربيجان، إلى صدام دام بين الجمهوريتين. كذلك الأمر في جمهوريات البلطيق، فإن حالة عدم الرضى التي تثيرها السياسة المركزية المعيقة للتطور، أدت إلى ولادة «الجبهات الشعبية» الأولى في الاتحاد السوفياتي. كما أن الاعتراف، بالطبيعة الاجرامية للمعاهدة الجرمانية-السوفياتية، يؤدي إلى ضرورة القبول بلا شرعية الحاق أستونيا وليتوانيا ولاتفيا بالاتحاد السوفياتي. ولكن غورباتشوف يرفض ذلك؛ ويتبنى موقفاً «بين كرسيين»: المعاهدة ذات سمة اجرامية، ولكن القرار بدخول الاتحاد، والمتخذ من قبل برلمانات جمهوريات البلطيق عام ١٩٤٠، في الوقت الذي كان فيه الجيش الأحمر داخل أراضيه، يبقى الأساس الشرعي الذي يبرر تحولها إلى جمهوريات سوفياتية. ولكن الحركة الوطنية في بلدان البلطيق، كانت قد نالت الاجماع، الأمر الذي سمح لليتوانيا، ومن ثم لأستونيا، ولليتوانيا بإعلان الاستقلال بين شهري آذار وأيار من العام ١٩٩٠، أما في حالات الجمهوريات الأخرى، فقد كان لمشاكل البيئة، ومسائل اللغة الوطنية، والشعور بالغبن والتبعية الكاملة للمركز، إسهامها في انطلاقة الوعي الوطني والانفجار.

أشارت توقعات بعض الباحثين الغربيين إلى قابلية الامبراطورية السوفياتية للعطب، وإلى ضعفها الداخلي، ولكن هذه التوقعات أخطأت في تعيينها للبؤر الرئيسية المولدة للهزات الداخلية. فقد كان يتوقع أن يبدأ الانهيار في آسيا الوسطى، في إطار الجمهوريات «المسلمة». ولكن في الواقع، بدأ ظهور الحركات القومية في المناطق الأكثر غنى وتطوراً في البلاد: مناطق البلطيق والقفقاس.

يردد غورباتشوف دون كلل، أن الاتحاد السوفياتي يمثل تشكيلة دولة فريدة في نوعها. وبدورنا نستطيع موافقته على هذه النقطة. فالميزة الأساسية للامبراطورية الأخيرة

في القرن العشرين، كان من الممكن، إجمالاً، أن تصبح نموذجاً للتناقضات المستعصية الحل. فالتصور الذي يرى في الاتحاد السوفياتي نواة الجمهورية العالمية للسوفيات مستقبلاً، يحاول أن يقتحم المستقبل، إلا أنه يبقى فعلياً في الماضي. يعلن لينين: «نريد أن نسقط ويشكل كامل الحدود بين الدول»، في حين أن دستور الاتحاد السوفياتي يعين بدقة عالية حدود الجمهوريات، والمناطق، والمقاطعات. كما يعتبر سكان الاتحاد السوفياتي، مواطنين سوفيات، ولكن جوازات سفرهم، التي أعطيت عام ١٩٣٢، تشير بوضوح إلى انتهاءاتهم القومية. كانت الامبراطورية الرومانية لا تعرف إلا «مواطني» روما و«غير المواطنين». أما مواطنو الاتحاد السوفياتي فينقسمون إلى أكثر من مئة قومية. وإذا كانت قد وضعت أبجديات للاتنيات التي لا تعرف الكتابة، وغدت الروسية اللغة الرئيسية. غير أن اللغة الامبراطورية، لغة الادارة والجيش، لم تستطع أن تكون فوق باقي اللغات. هكذا كانت الأمور تجري في الامبراطورية الرومانية. ولكن اللجوء المتكرر إلى الأساليب الادارية من أجل فرض اللغة الامبراطورية، أطلق في الاتحاد السوفياتي تيار الثقافات الوطنية المقاومة، وهي التي أصبحت مصدر الصدمات والصراعات.

كان من المفترض أن يأخذ الاتحاد السوفياتي شكل الدولة ذات الطراز الفدرالي، ولكنه تحول إلى نظام ذي نمط إتحادي. وهكذا فإن لائحة العناصر المتنافرة التي يتكون منها الاتحاد السوفياتي لا حدود لها.

تعدد دوافع الأزمة القومية التي انفجرت في أواخر الثمانينات: اقتصادية، وبيئية، وأخرى مرتبطة بالاحقاد فيما بين الاتنيات. يتكلم القادة السوفيات كثيراً عن تحريض المتطرفين، والمافيا، وغورباتشوف يرى وراء «الصدمات بين الاتنيات»، «مجموعات متطرفة»، كذلك الأمر فيما يتصل «بأحداث ما وراء القفقاس، ومنطقة فرغانا، ونوفي أوزن»^(١١). والواقع أن كل من الأسباب المثارة ساهمت بتأجيج نار الصراعات القومية، التي اشتعلت في مناطق متفرقة من الاتحاد السوفياتي. ويمكننا القبول بدور معين «للمتطرفين»، إذا كان المقصود به الأعمال التي تقدم عليها قيادات الحزب في الجمهوريات، من أجل الحفاظ على مراكزها. فليس من الصدفة، كما يجب أن يقول الرفيق ستالين، أن تنفجر الاضطرابات الأولى في المناطق التي إستبدل فيها غورباتشوف مسؤولي الجمهوريات: في ألما-آتا، وبريغان، وياكو. فهناك العديد من الشواهد التي تشير إلى أن هذه الاضطرابات كانت موجهة من موسكو؛ خاصة في باكو،

حيث جرى التحضير بدقة لإشاعة الفوضى، ما سمح بإرسال الجيش في كانون الثاني ١٩٩٠، لإعادة المسعورين، «الى صوابهم».

تعتبر الأزمة العميقة التي أصابت نظام القيادة، أحد العوامل الأساسية المفسرة للأزمة الوطنية. في ١٩٦٩، ظهر كتاب لأندرية أمليرك تحت عنوان: هل سيستمر الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٨٤؟. هذا الكتاب أظهر فائدة خاصة، ثم جرى وضعه في الظل، يتوقع فيه الكاتب المستقبل الآتي للاتحاد السوفياتي: «تتجه التنظيمات المتطرفة... للعب دور متعاظم. وبموازاة ذلك، سوف نشهد تعاظم قوة الاتجاهات القومية، لدى الشعوب غير الروسية في الاتحاد السوفياتي، خاصة في بلدان البلطيق، والقفقاس، وأكرانيا، ثم في آسيا الوسطى وعلى ضفاف الفولغا». ثم يضيف قائلاً: «في العديد من الحالات، ستهض الكوادر القومية في الحزب بدور قيادي في هذه الاتجاهات، وذلك إنطلاقاً من قناعتهم التالية: لنترك ايفان الروسي يتخلص من مصاعبه. أضف الى ذلك أن إلتحاقهم بالانعزالية القومية يهدف، الى تجنب الفوضى العامة الأخذة بالتشكل، مع الحفاظ على وضعية إمتيازاتهم»^(١٢). يتسم هذا التشخيص بدقة مذهلة، بإستثناء نقطة انطلاقه: إذ أن أمالريك يرى في أساس هذه الأزمة واقع الصراع مع الصين؛ ففي عام ١٩٦٩، كان العديد من المحللين يرون في هذا الصراع أمراً لا يمكن تجنبه. هذا التمثيل يقع تحت العنوان التالي: أن الثورتين الروسيتين في القرن العشرين إقترنتا بحريين - ضد اليابان عام ١٩٠٥، وضد المانيا ١٩١٤-١٩١٧. ولكن الواقع، سوف يثبت إنعدام الحاجة الى الحرب كعامل مفسر. فمضي ٢٠ سنة من الهدوء الداخلي، قد ترك في النظام أثراً مدمراً. وقد أدى ضعف المركز الذي ينظر بعين الارتياح الى ظهور عصابات المافيا والحزب في الجمهوريات، مع الحفاظ على نظام قيادة شديد التمرکز، الى خلق آلية معاكسة. «فمقود» غورباتشوف، بدأ بإستعادة حركته، ولكن في غير الاتجاه الذي يتمناه الأمين العام.

أسهم استخدام الصراعات القومية من أجل الوصول الى السلطة، الى جانب تحيز غورباتشوف وتردده، في تفاقم الأزمة. ولكن هذه الأزمة كشفت السبب الأول لما تواجهه الامبراطورية اليوم من مصاعب: بداية الشك بشرعيتها. ففي عام ١٩١٧ - ١٩١٨، وفي الوقت الذي كانت فيه ثلاث امبراطوريات تنهار في القارة، تحولت الامبراطورية الروسية الى امبراطورية سوفياتية. لقد استطاعت الايديولوجية الجديدة أن

تضفي الشرعية على الامبراطورية الجديدة التي ولدت من بين ركام الثورة. كما أن هذه الايديولوجيا كانت بعد الحرب العالمية الثانية من القوة، بحيث استطاعت في ظل أفول العصر الاستعماري للامبراطوريات الغربية، أن تخلق «معسكراً اشتراكياً»، لتضيف إليها في السبعينات «حلقة» ثالثة من البلدان «الشقيقة» في آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية.

أدت سياسة «تطوير» الاشتراكية التي أطلقها غورباتشوف، الى توجيه ضربة قوية للعقيدة. كما أن منطق عمله من أجل مركززة السلطة دفع الأمين العام الى انتقاد أعمال أسلافه. ومثلما يؤدي قذف حجر في مياه هادئة الى ولادة الدوائر، فإن النقد الذي باشره امتد ليطاول كافة الأمناء العامين السابقين: من بريجنيف الى خروتشوف، ومن خروتشوف الى ستالين، وبشكل يزداد الحاحاً رغم العقبات، من ستالين الى لينين. تركت المحصلة المأساوية لسبعين سنة من التاريخ السوفييتي، الشك حول «عملية» الماركسية اللينينية. تتمثل قوة وضعف الايديولوجيا السوفياتية بتلك العلاقة التي لا تنفصم بين تأثيرها وبين نجاحها: فهي وحدها الصحيحة لأنها تنصهر، وهي تنصهر لأنها الصحيحة. ولكن سبعين سنة من التاريخ السوفييتي، وفي الواقع سبعون سنة من الرعب، والجرائم، والتخلع الاقتصادي، قد أثبتت بشكل ساطع الطابع «غير العلمي» للنظام الذي أنشئ.

الفصل الثالث والعشرون

شقوق في الأسس:

«هو، يجد الله تحت كل حجر، أما أنا، اليتيم المسكين فمن يدافع عني؟»

أغنية الـ «أفغان»

لم يكن الجنود السوفيات يدركون ما يفعلونه في أفغانستان. فالتفسيرات التي كانت تعطى لهم لم تكن مقنعة، ليس فقط بسبب تغيرها الدائم، بل أيضاً لأن الواقع كان يدحضها عند كل خطوة. ثم أن أي تفسير يمكن أن يكون مقنعاً، بشرط الايمان به. أما، الجنود السوفيات فقد كان شعورهم أنهم «أيتام»، وبأن الايمان قد هجرهم.

لم يكن الجنود السوفيات الوحيدون الذين يشعرون بأنهم أيتام، وبأنهم قد أهملوا، فالنقاش كان قائماً حول «الايمان الشيوعي». أما اليوم، فيدور الكلام حول غيابه، الذي يبدو واضحاً إذا ما قارنا بين حالة الشك والنفور التي تطبع عهد بريجنيف، وبين حالة الحماس التي كانت سائدة في العشرينات والثلاثينات. ويشير البعض الى خصوصية معينة تطبع كل دين، وتتمثل بالانتقال من زمن الأنبياء الى زمن الكنيسة. ولقد أدرك ستالين، الذي كان قد درس تاريخ الكنيسة، ما يمثل الايمان الخالص من خطورة عالية على النظام الذي كان يبنه وفقاً لمخططات لينين. لقد قضى ستالين على المتحمسين دون رحمة. فمنذ عشرات السنين، لم تعد الايديولوجية السوفياتية تنتج الأنبياء أو متعصي الايمان، مكفية بالتعلق الشديد بالشعائر، والطقس. هذا الشعائري كان الرباط الذي جمع بين مختلف أجزاء الامبراطورية.

ساهم منطق «البريسترويكا»، والقوانين العنيدة للصراع من أجل السلطة، في إثارة الشكوك، ليس فقط حول العقيدة نفسها، بل أيضاً حول طقوسها. فالتنقد القاسي

للأسلاف - بريجنيف، خروتشوف، ستالين - ، وسمعتهم السيئة، وتحطيم تماثيلهم، وصورهم، والادانة - المتأخرة - لجرائمهم، كل ذلك طرح التساؤلات حول لينين. ان النقطة الذروة لهذا النشاط «المعادي للإيقونات»، تمثلت في الاقتراح الذي قدم الى مؤتمر نواب الشعب، والداعي الى حرق جثمان لينين وإغلاق ضريحه. في عام ١٩٦١، اقترح البلشفي العتيق لازوركينا سحب جثمان ستالين من الضريح، مبرراً اقتراحه هذا بحلم مر به، مفاده أن لينين ظهر عليه، راجياً إياه تخليصه من جاره الثقيل. لقد قبل الاقتراح: ولم يبقَ في النعش الزجاجي إلا مؤسس الحزب والدولة. أما في عام ١٩٨٩، فقد قوبل اقتراح النائب يوري كورياكين بالرفض كما لو أنه نوع من التجديف، بإعتبار أن نعش الايديولوجيا سيصبح فارغاً دون جثمان لينين.

إن الفكرة، التي تم التعبير عنها علانية، والداعية الى إغلاق الضريح، أطلقت موجة من الرياح المربعة، فبدون صور القديسين، والفواصل الايقونية، وبدون طقوس - مثبتة منذ عشرات السنين - المهرجانات، والاجتماعات، والادانات، والاحتفالات، ستفتح الرؤية على هاوية مربعة.

وعندما أقدم خروتشوف عام ١٩٥٦، في المؤتمر العشرين، على تقديم «تقريره السري»، مزعماً ببيان الاشتراكية للمرة الأولى، تم تسويق الأمر بإعتباره يتعلق بـ «أب صغير للشعوب، وبموهبة كبرى لم تشهد الأزمان نظيراً لها». وكان كافياً التصريح، كما في حالة رئيس فرقة أغنية «دي غاليتش»، بأن «أبانا الصغير، لم يكن في النهاية أباً حقيقياً، بل بغيّاً، كي نتابع الطريق الذي رسمه لينين. أما السؤال المطروح بعد عشرين عاماً، فيتصل بالطريق نفسه وبالمهدف. فإذا كان هدف «البريسترويكا»، «المزيد من الاشتراكية»، كما صيغ في الأصل على يد صانعيها. فإن المشكلة تتلخص في أن الجميع لا يعرفون ما هي «الاشتراكية» بالضبط. على الطريق نحو المهدف، تتعدد المراحل المتوجب قطعها: في البداية هناك المرحلة الأولى من الاشتراكية؛ ثم الاشتراكية المكتملة البناء؛ ثم الناضجة؛ ثم المتطورة... في فيلم مشهور لأبولادز تحت عنوان: «ندم»، يعالج تاريخ «البريسترويكا» في جوابها الأخير، تحييب بطلة الفيلم رداً عن سؤال من مجهولة قاتلة: «كلا، إن هذا الطريق لا يؤدي الى المعبد». ثم تعلق المجهولة: «ما فائدة طريق لا يؤدي الى المعبد؟».

يظهر الفيلم الطريق الذي لا يؤدي إلى المعبد. والمعنى الخفي: إن الطريق الموصل يوجد في مكان ما. ولكن تبقى المشكلة الكبرى في أن أحداً لا يدرك مواصفات المعبد. فـ «كلما تقدمت البريسترويكا، يكتب الاقتصادي س. منشيوكوف، يزداد السؤال إلحاحاً حول ماهية الاشتراكية - إقتصادياً، وإجتماعياً، وسياسياً»^(١). كما أن برنامج الحزب الشيوعي، الذي أقر في المؤتمر السادس والعشرين برئاسة غورباتشيوف عام ١٩٨٥، لم يشكل فرصة للشك. ففي الفصل الأول نجد التأكيد على أن: «المجتمع الاشتراكي، قد تم بناؤه في الاتحاد السوفياتي، على الأقل فيما يتصل بالأسس». وإننا نلاحظ بين السمات التسع لهذا المجتمع المثالي، التي يحملها علمه بفخر: «كل شيء في خدمة الانسان، وكل شيء من أجل خير الانسان»، تلك القائمة على «تفوق الايديولوجية الماركسية - اللينينية، الانسانية الأصيلة»^(٢). حتى الآن، لم تساور غورباتشيوف أية شكوك، ففي عرضه عام ١٩٨٥ المشروع برنامج الحزب تكلم عن «تفوق الاشتراكية، بما هي مرتبة في تقدم البشرية، على الرأسمالية». فمن الواضح بالنسبة له «أن الاتجاه الأساسي للتطور العالمي» يدفع بإتجاه «تدعيم الاشتراكية الحقيقية»^(٣). وفي عام ١٩٨٧، يكتب أحد أبرز منظري غورباتشيوف، الأكاديمي س. سميرنوف، مدير معهد الماركسية - اللينينية، مؤكداً قناعته الراسخة بأن «البريسترويكا» تستهدف «إنجاز بناء الاشتراكية وتحسينها، عن طريق تحويل المجتمع السوفياتي نحو إشتراكية متطورة حقاً»^(٤). وفي الوقت نفسه يعلن ألكسندر إياكوفليف أن الاشتراكية يجب أن تُدرك وتعني نفسها^(٥). ولا تمضي ستان حتى تظهر الضرورة «الطارئة» لوضع «تصور حديث للاشتراكية، يستجيب لحقائق نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين»^(٦).

كان التصور السوفياتي للاشتراكية، يتحدد دائماً بنقيضه. ويترجم جواب «الراديو الأرمني» - الرأسمالية، هي استغلال الانسان للانسان، أما الاشتراكية، فهي نقيض ذلك - بوضوح إرادة منظري الماركسية - اللينينية في أن يكونوا النقيض، وأن يجدوا أنفسهم في «المرتبة الأعلى». ولكن ها نحن مرة أخرى نطرح كل شيء بطريقة «مقلوبة»: الاشتراكية تتجه نحو الديمقراطية، والانسانية، والتسامح. ويعلن الفيلسوف الأكاديمي إيفان فرولوف، مستشار غورباتشيوف، أن «الماركسية هي مذهب إنساني حقيقي»^(٧). وهكذا فجأة، وبقرار من السلطة العليا، وفي ظل دهشة الجميع، يذوب

الهدف كقطعة ثلج تحت شمس محرقة. ويطلب من سكان الامبراطورية التحلي بالصبر وإنتظار ولادة أخرى جديدة هي قيد التحضير.

وفي أول أيار ١٩٨٩، سمع المواطنون السوفييات النداء الطقسي للجنة المركزية: «لتحيا وتتطور تعاليم الماركسية - اللينينية، الأساس الايديولوجي للتجديد الثوري الاشتراكي»^(٨). وبعد مضي عام على هذا النداء، سمع السوفييات، عشية الأول من أيار ١٩٩٠، دعوة اللجنة المركزية: «لنوجه جهودنا، من أجل بناء اشتراكية انسانية النزعة، وديمقراطية»^(٩). لقد ولدت الصيغة الجديدة. ويشرح غورباتشيف، معللاً الدعوة إلى انعقاد مؤتمر إستثنائي للحزب، فيقول: «إننا بصدد إيجاد طرق لتجديد الاشتراكية...»^(١٠)، وفي اليوم نفسه، يعلن، في معرض حديثه عن السياسة القومية الجديدة للحزب، «إن التجديد الثوري للمجتمع الاشتراكي السوفياتي هو الحجة الرئيسية الدافعة بإتجاه تدعيم وحدتنا»^(١١).

يتبدأ منطق الصيغة الجديدة على النحو التالي: أن الاتحاد السوفياتي قد بنى المجتمع الاشتراكي؛ أما في الوقت الحاضر، فإن المطلوب، حسب تعبير إيوسيف برودسكي، التوقف في الصحراء والمباشرة بأعمال الترميم، أو ربما إعادة بناء كاملة. بتعبير آخر، المطلوب «بريسترويكا». إذا المرحلة اللاحقة في تطور الاشتراكية تتمثل في: التجديد. ويكفي أن نحذف «تشوهات» الاشتراكية، العائدة لى ستالين، كي يفتح الطريق المؤدي الى «المعبد». بشكل مستقيم. إن برنامج الحزب الشيوعي، لا يساوره الشك، حتى للحظة واحدة، «فالشيوعيون السوفييات مقتنعون بأن المستقبل للاشتراكية». حتى أن المؤتمر الثامن والعشرين، المنعقد قبل أوانه، لم يتبنّ البرنامج الجديد، وأكتفى بالموافقة على برنامج عمل سياسي للحزب، ذي طابع ظرفي، أو يعكس «رؤية مباشرة» حسب تعبير غورباتشيف. بقي اليقين بأن المستقبل للاشتراكية، القانون الأكبر للشيوعيين. أما المهمة الراهنة، التي فرضتها على المنظرين الأزمة العامة للشيوعية، بإيجاد قاموس جديد يسمح بالتعبير عن هذه القناعة التي لا تمس. وما نراه الآن في الاتحاد السوفياتي لا يحدث للمرة الأولى. ففي عام ١٩٢١، إتجه لينين بكل قوته نحو سياسة الـ NEP، رامياً كافة الشعارات الداعية للشروع فوراً في بناء الشيوعية. تخلص ستالين، إبان صعوده لى السلطة من القاموس الثوري دون أية شفقة، مستبدلاً إياه بقاموس الدولة. وفي تشرين الثاني ١٩٤١، تكلم ستالين في

الساحة الحمراء، في حين كانت الدبابات الألمانية لا تبعد عن وسط العاصمة أكثر من عشرين كيلومتراً، ليضيف إلى الفاصل الإيقوني، وإلى جانب كبار الاستراتيجيين الروس، ألكسندر نيفسكي، دميتري دونسكوي، سوفروف، وكونوزوف.

تهدف كافة التقلبات الأيديولوجية إلى ضمان استمرار الإمبراطورية. فقد كتب الناطق الرسمي بإسم الأعداء القدامى لثورة أكتوبر، نيكولاي أوستريالوف، وقد حركته الوطنية الروسية، في عام ١٩٢٠ ما يلي: «يجب أن تبقى روسيا قوة عظمى، ودولة كبيرة... وبما أن سلطة الثورة - وحدها راهناً - هي القادرة على إعادة بناء القوة الروسية، وفرض احترامها على الصعيد العالمي، فإن من واجبنا، باسم الثقافة الروسية، الاعتراف بسلطة الثورة السياسية^(١٢). ومن الواضح بالنسبة لأوستريالوف أن «السلطة السوفياتية تحاول بكل الوسائل ربط التخوم بالمركز، بإسم الثورة العالمية. ان الوطنيين الروس يناضلون من أجل الهدف نفسه، ولكن باسم روسيا الكبرى الموحدة. وبالرغم من الاختلافات اللاحدة بين الأيديولوجيات، فليس هناك إلا طريق واحد فقط^(١٣). إذاً، فالاختلافات الأيديولوجية تعتبر شأناً ثانوياً، ويؤكد أوستريالوف قائلاً: «من أجل إنقاذ السوفيات، تضحي موسكو بالشيوعيين»^(١٤). ان مُنظر «تغيير المعالم» يصف السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP)، بـ «برست اقتصادي للبولشفية».

يشير الصحافي البلشفي ألكسندر فورونسكي، في معرض نقده لتصريحات أوستريالوف ومحبذي أفكاره، إلى الخطأ الذي يرتكبونه: «إنهم لا يدركون أن السياسة الاقتصادية الجديدة، لا تعمل إلا على تصحيح أخطاء الماضي، وبأنها لا تنفيها... إنهم يتحدثون عن انهيار الشيوعية، فيما يتضح أن ما يجري ليس إلا أحد أساليب العمل الشيوعي، وهو أسلوب عمل يبقى شيوعياً». رغم تمايزه^(١٥).

لم يتوصل نيكولاي أوستريالوف إلى معرفة الجواب على السؤال الثاني: «هل الراية الحمراء هي التي تُزيّن قصر الشتاء أم الأمر على العكس من ذلك، أي أن قصر الشتاء هو الذي يرفع الراية الحمراء؟» ولكنه عرف بالمقابل، بأنها يتساندان التحقيق هدف واحد ألا وهو الحفاظ على القوة العظمى. الشيوعية والسوفيات، السوفيات والشيوعية. لذا كان الجهد المنصب على توفير الأوزان المناسبة والمزاج المناسب لهما، الهام الأكبر للقيادة السوفياتية: إذ أن أية زيادة تطراً على أحدهما تنعكس سلباً على العنصر

الآخر. وفي المرحلة التي تلي، أي عشية أزمة جديدة، تنجز عملية معاكسة، مع الحرص فقط على الحفاظ على مقومات التركيبة. أقدم لينين على شعشة الأمية ببعض قطرات من القومية. أما ستالين، فقد زاد الجرعة بشكل ملفت. لذا كان أوستريالوف يعتبر: «أن البلشفية، بتأثيرها الدولي، وعلاقاتها القابضة، تمثل وسيلة فعالة لسياسة روسيا الدولية...»^(١٦) والامكانية الوحيدة لإنقاذ الامبراطورية. وبعد نصف قرن على هذا الكلام، كتب أندريه أمالريك «أن العقيدة الماركسية عملت على تأخير إنهيار الامبراطورية الروسية»، مضيفاً: «ولكن ليس باستطاعتها أن تمنع ذلك»^(١٧).

لم تأت المحاولة الجديدة لانقاذ الامبراطورية ومنع انهيارها، بأي شيء جديد في ميدان الأفكار والوسائل. لقد ظهرت شعارات جديدة. وعلى غرار محبي الشعوب السلافية في القرن التاسع عشر، لم يتوقف منظرو «البريسترويكا» عن الحديث عن «السلم والوفاق». ويكرر ألكسندر إياكوفليف ذلك قائلاً: «ان الصراع القائم يهدف الى الوفاق»، «إذ أن أي نظام، بما في ذلك النظام الكوني، هو قبل كل شيء نظام تناقضات تتربط بشكل متناسق»^(١٨). ويطيّب لغورباتشيف الكلام عن التناسق. لأن ذلك يقوده مباشرة الى الحديث عن «التداخل»، و «الكل المكمّل»^(١٩).

من المعروف، أن الجديد هو دائماً القديم المنسي. ففي ١٩٢٦، كتب أندريه بلاتونوف في قصة نقدية، يقول «في الحقيقة، ولأول مرة، يحتفل عقل الإنتظام الكوني المتناغم بانتصاره في روسيا ١٩١٧!». ويسجل بطل الرواية وهو بيروقراطي متنور بعض الملاحظات حول الموضوع: «إن عملية تأسيس «السوفيات» ما هي إلا بداية لعالم متناغم»^(٢٠). أما شعارات الأول من أيار ١٩٩٠ فتعلن: «لنتنصر القيم المشتركة للانسانية جمعاء!».

لقد جف «الصمغ» الايديولوجي، ولم يعد قادراً على حفظ القطع كوحدة متماسكة. وإذا كان برنامج الحزب الشيوعي المعمول به، والذي تم تبنيه في عام ١٩٨٦، قد أكد على أن المسألة القومية قد سويت في الاتحاد السوفياتي، فإن الأحداث اللاحقة أثبتت بطلان هذا التأكيد. في أيلول ١٩٨٩، يعترف غورباتشيف: «بكل تأكيد، نحن ندرك وجود مشاكل قومية غير سهلة... ولكن، ضخامة التحولات التي بلغت مرحلة النضوج، لم تظهر هنا إلا في وقت متأخر...»^(٢١) وخلال عام ونيف،

كان الأمين العام يعد، ثم يؤجل وعده لأكثر من مرة، بعقد جلسة مكتملة للجنة المركزية تخصص لمعالجة المسألة القومية، وإيجاد الحلول لهذه المشاكل «غير السهلة»، على حد تعبير غورباتشوف، والتي تركت أثراً دامية في القفقاس، وآسيا الوسطى، ومناطق أخرى من البلاد. تثبت تصريحات قيادة الحزب في الجلسة المكتملة، وجود الأزمة القومية.

أما السياسة القومية الجديدة لغورباتشوف، والتي ينتظرها الاتحاد بفارغ الصبر، فتعد بإصلاح جديد، ولكنه لا يصلح شيئاً. فالكلمة المفتاح لبرنامج العمل الجديد للاتحاد السوفياتي هي: «إملاً بمضمون جديد». ورفض شعار: «أثلف حتى الجذور»، كذلك رفض المطالبة بإجراء «بريسترويكا للحدود وتغيير صورة التوجهات القومية»، فما يعد به برنامج العمل هو «إعطاء مضمون جديد للفدرالية السوفياتية»، و «إعطاء مضمون واقعي جديد للحق بالتوجهات القومية»^(٢٢). ولكن الانجيل أشار منذ زمن بعيد إلى استحالة ملء الجرار القديمة بخمر جديد. هذا هو الجوهر الحقيقي للسياسة القومية لغورباتشوف. ويلخص السكرتير الأول للحزب في باشكيري الوضع قائلاً: إن برنامج العمل «لا يظهر أية محاولة مهما قل قدرها، للقطع مع وجهات النظر السائدة، وقد أبقى البنية الهرمية لنظام الدولة - القومية دون أي تعديل»^(٢٣).

تسمح السياسة القومية الجديدة - حسب غورباتشوف - للحزب الشيوعي السوفياتي، بتوظيف ايجابي للامكانيات، التي ينطوي عليها المستوى الفدرالي: غياب - حتى الآن -، أية حركات ذات شأن في غالبية الجمهوريات، ترمي إلى تحقيق الانفصال عن الاتحاد؛ كذلك تبرز طبيعة الروابط بين الجمهورية وضعفها الاقتصادي، والمربطة بالمركز. وتعمل «البريسترويكا» القومية على إطلاق عدة آليات للجم الاتجاهات النابذة للتمركز. فبالإمكان اللعب على التناقضات الداخلية للجمهوريات عن طريق إبراز «العوارض المرضية للأخ الأكبر». فرغبة الأنجاز في توسيع حقوقهم يترك الانطباع لدى الجيورجي بأن كل واحد قد يجد نفسه في وضعية «الأخ الأكبر». وفي إستونيا تظهر مشكلة الروس، وفي مولدانيا مشكلة الفاغار، وفي أوزبكستان مشكلة المشكت، وفي ليتوانيا مشكلة الأقلية البولونية، إلخ. ويذكر غورباتشوف في معرض كلامه في الجلسة المكتملة بأن الاتحاد السوفياتي يضم قرابة ٦٠ مليوناً من «المهاجرين»، بتعبير آخر مواطنين لا يقنطون في جمهورياتهم «الأصلية». ولا يجدون ملجأ لهم إلا في موسكو.

إن الحركة الاستقلالية قد ولدت، وهي مستمرة بالنمو والانتساع في الجمهوريات السوفياتية. أما الأقاليم التي تتمتع بالاستقلال الذاتي - أنجاري، وكاراكلباكي، وأوسيتي، ونوفا: : : وأقاليم أخرى -، فإن خوفها من النزعة القومية الفتية الناشئة في جمهورياتها والداعية للخروج من الاتحاد، يدفعها إلى التمسك بسلطة مركزية وقوية تضمن لها أمنها. تسلك عملية إخماد الحرائق الانتية المسار نفسه: تتيح السلطات الفرصة للعواطف الثائرة بالاشتعال، وذلك قبل أن تلجأ إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لوضع حد للنهب والسرقة، والاعتقالات. الأبرز لهذا المخطط في قبول السلطة للطوق الذي ضربته أذربيجان حول أرمينيا لمدة خمسة أسابيع، بقرار من الجبهة الشعبية في أذربيجان. أما المركز فلم يتدخل، تاركاً إحدى جمهوريات الاتحاد تواجه قدرها، ومعطياً الانطباع بأن الاتحاد يدعم أذربيجان في مواجهة أرمينيا. وقد تم تنفيذ السيناريو نفسه في باكو: لم تدخل القوات العسكرية للاتحاد إلى المدينة إلا بعد مرور أيام من المذابح.

أظهر النظام السوفياتي على الدوام قدرة عالية على التعامل مع ظروف الأزمة. فهو يملك كفاءة عالية في إيجاد الحلول للمشاكل، عن طريق أساليبه الارادية والقمعية. فمن وجهة نظر السلطة، تنطوي الصراعات القومية على عنصر إيجابي: إذ تخلق مناخاً من انعدام الأمن، والتهديد، والفوضى، الأمر الذي يستدعي الحاجة إلى مركز، إلى أب قوي وعادل يستطيع فرض النظام.

مع مرور خمسة أعوام على الغورباتشيوفية، ما يزال السؤال حول مصير الامبراطورية يطرح نفسه بكل أبعاده. وهناك طريقتان لمواجهة: كيف نحافظ على الامبراطورية؟ وكيف نخرج منها؟ يعترف غورباتشيوف بخطورة الوضع ويسعى إلى إيجاد العلاج المناسب، ففي ٣ نيسان ١٩٩٠، أشار إلى القانون المتصل «بطريقة حل المسائل المتعلقة بخروج جمهورية حليفة من الاتحاد». هذه الطريقة تبدو معقدة وكثيرة الالتواءات، الأمر الذي يسمح لموسكو برسم العديد من الخيارات التي تعيق، أو تمنع الانفصال: مع الاقرار بوجود المشكلة. والعمل على تهدئة اللعبة.

في ربيع ١٩٩٠، سعت جمهوريات البلطيق إلى إيجاد مختلف الوسائل التي تؤمن لها «الذهاب». وتثبت تجربتها من جهة، إرادة موسكو في المراقبة الحازمة للوضع، ومن جهة ثانية دعم الغرب لسياسة غورباتشيوف.

وكما يفعل فريق المتطاد، يلجأ المنظرون السوفييات الى رمي الأثقال من أجل إستئناف الصعود. هذا ما يدعو إليه ألكسندر اياكوفليف بقوله: «علينا أن نرمي المومياءات المهترئة من العقائد الجافة والأساطير والصيغ الجامدة»^(٢٤). لم يبق من الايديولوجيا، إلا معطى واحداً: الحزب. وعلينا - يقول غورباتشيف - لن نعمل على تصليب الحزب، تلك هي المهمة الأساسية للسلطات. وهو يؤكد على جدلية السياسة الجديدة للحزب الشيوعي في مواجهة المسألة القومية: إننا ننتقل في عملنا من أجل توسيع الحقوق السياسية والاقتصادية للجمهوريات، وتدعيم استقلالها الذاتي، وإطلاق مبادرات الإستقلال عن المركز بهدف تحفيز حركة الناس، «من فكرة أن الحزب يجب أن يلعب، ويحدود واسعة، دوره في تدعيم وحدة الشعوب حول البريسترويكا»^(٢٥). التوسيع والتصليب، الاستقلال والتوحيد، هذا هو دور الحزب. في عام ١٩٢٣، أخذ شيوعيو الجمهوريات، إبان مؤتمر الحزب، على دستور الاتحاد السوفياتي بأنه يتبنى موضوع «روسيا الواحدة التي لا تتجزأ». عندها شاع الرد التالي: ليست روسيا، بل «الحزب الواحد الذي لا يتجزأ».

يبقى الحزب الشيوعي القوة الكبرى، والرباط الأول «للاتحاد الخالد». ولكن هل ترفض السياسة القومية الجديدة إمكانية حصول اتحاد فدرالي للحزب: أي وجود أحزاب شيوعية مستقلة لها سيادتها ضمن إطار الجمهوريات وما يشكله ذلك من إسهام في تفكك الاتحاد الفدرالي بصورته القائمة.

في هذا الميدان يدافع غورباتشيف عن مواقف ثابتة: مستنداً بلا شك الى لينين. ففي إطار تحديد موقف الحزب من المسألة القومية، يؤكد تروتسكي على «الطابع الجدلي»: يطبق البلاشفة في نضالهم من أجل ممارسة الشعوب حقها في تقرير المصير، «ضمن إطار الحزب ومجموعة التنظيمات العمالية، سياسة المركزة بدقة عالية». ويضيف تروتسكي - الذي أعيد له الاعتبار - أن لينين «يرفض بشكل قاطع المبدأ القومي - الفدرالي في تنظيم الحزب. فالتنظيم الثوري ليس النموذج البدائي الذي تحتذي به الدولة المستقبلية، بل أنه مجرد أداة لتحقيقها». ويترح مؤسس الجيش الأحمر هذه الحكمة: «ان الوسيلة تستخدم من أجل تحقيق الانتاج، ولكنها لا تتضمنه في داخلها»^(٢٦).

يعتبر الحزب بالنسبة لنبي الفكرة الشيوعية، الوسيلة الأهم والأكثر قدرة، بل

السلح الأقوى. فهذه الفكرة تكون مسلحة، عندما يتوفر الحزب الذي يؤمن لها إمكانية الانتصار. لذا نرى من الطبيعي أن يكون الحزب ذا «الطراز الجديد»، والذي أسسه لينين وطوره ستالين، محور السياسة الغورباتشيفية.

إبان السنوات الأولى من «البريسترويكا»، إتبع غورباتشيف النهج السياسي التقليدي لأسلافه في إستلام السلطة: تغيير الكوادر، بناء جهازه «الخاص». ليتضح بعد ذلك شيئاً فشيئاً أن تصور «حزب الجماهير» قد أضحى عتيقاً. فالعديد من الخبراء العسكريين يقترحون تحويل الجيش السوفياتي الى جيش محترف. كما أن هناك فكرة مشابهة حول الحزب تغري مستشاري غورباتشيف. ففي نهاية القرن العشرين، وفي ظل ظروف مغايرة لتلك التي كانت السائدة في عصر التحضير «لثورة البروليتارية»، إبان فترة «بناء الاشتراكية في بلد واحد»، يصبح الحزب الذي يضم في صفوفه قرابة الـ ٢٠ مليون عضو، معطى لا ضرورة له. كما أن تجربة البلدان الاشتراكية السابقة، أثبتت أن الأحزاب الجماهيرية تنهار كبيوت من الورق، وبأن العدد لا يضمن بالضرورة قوة الحزب الشيوعي. فملايين الأعضاء الحزبيين في بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا، وغيرها، لم يقدموا على أية حركة بغية الدفاع عن «سلطتها».

تدفع هذه الشواهد خلال سنوات الـ «بريسترويكا» هذه، للقول أن موسكو تعمل على بلورة نموذج «حزب الثوريين المحترفين»، كما قال لينين في مطلع القرن العشرين، ومن الممكن أن يتخلى الحزب عن المادة السادسة من الدستور، التي تضمن له احتكار السلطة، إلا أنه وسيبقى ممسكاً بتأصية السلطة، وذلك كونه سيبقى أكبر قوة منظمة في البلاد.

ان فكرة «الحزب المحترف» تفسر السهولة التي تم بها تسجيل العديد من الأحزاب، والتجمعات والحركات المختلفة في الاتحاد السوفياتي. إضافة الى أن هناك شعوراً بأن قوى «خفية» تشجع على خلق المزيد من الأحزاب الجديدة والتنظيمات. وبشكل عام، فإن عدد أعضاء كل من هذه الأحزاب والتجمعات، لا يزيد عن العشرات، وأحياناً عن المئات، ولتقلل ألفين أو ثلاثة آلاف عضو في بعض الأحيان.

يأمل غورباتشيف، أثناء التحضير للمؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي، أن يترك جزءاً هاماً من الأعضاء غير المنضبطين الاطار الحزبي قبل انعقاد المؤتمر، وأن

يترك أعضاء آخرون أثناء المؤتمر. وبذلك يبقى غورباتشوف مع «حزبه»، الخفيف الوزن، «المزال دسمة»، القوي العضلات، والذي يمتلك إمكانيات مادية هامة ويمسك برافعات آلة الدولة. ولقد اتضحت أهداف الحزب من خلال النداءات التي أطلقتها اللجنة المركزية في مناسبة الأول من أيار ١٩٩٠: «أيها الشيوعيون، أكدوا بأعمالكم الملموسة الدور الطليعي للحزب الشيوعي السوفياتي!». ولم يتوقف غورباتشوف عن الترداد: «... يحتاج المجتمع لحزب طليعي له هويته الاشتراكية» (٢٧).

إن الحزب «الجديد»، حزب غورباتشوف، سوف يبنى بواسطة نمط جديد من «التطهير»: فإذا كان ستالين قد لجأ إلى التصفية الجسدية لأعضاء الحزب «القديم»، بهدف تحرير مساحة لجماعته، فإن السكرتير السابع، يخيرهم بين الوقوف إلى جانبه أو ترك الحزب بذريعة فقدانهم لسلطتهم. لقد تبنى الحزب «الجديد» كأساس نظري «ايدولوجية التجديد»، التي تحتفظ بكافة أدوات الحزب المتمثلة بالعقائد الجامدة الشديدة القدم.

«إن اللجنة المركزية، تعلن تبنيتها الكامل للفكر الخلاق الذي يتضمنه التصور المادي للعالم والمنهجية الجدلية لماركس، وأنجلز، ولينين» (٢٨). ويثبت المنظر المميز، فاديم مدنيدف، هذه القناعة قائلاً: «إن المحاولات الرامية إلى إعادة النظر بتعاليم ماركس، وأنجلز ولينين... لا تستند إلى أي أساس، وهي عقيمة» (٢٩). ويكتب غورباتشوف بحماس قائلاً: «يبقى لينين بالنسبة لنا المفكر الأكبر للقرن العشرين، الذي استطاع سبر أغوار الكائن الاجتماعي، نظراً لتمكنه من الترسانة الواسعة لمعارف عصره» (٣٠).

المادية التاريخية، والمادية الجدلية، وتعاليم ماركس، وأنجلز، ولينين: قاموس أصبح أليفاً لا يُقاوم، قاموساً لا يقدم غورباتشوف على رفضه. وهذا ما يفهم من حديثه مع عمال الأورال: «علينا أن نغير ونحذف العديد من الأشياء. ولكن دون المساس بالأسس» (٣١).

بتعبير آخر، علينا تغيير الديكور، وبعض التفاصيل، مع السعي إلى الحفاظ على الأسس المتجسدة بالاشتراكية و «التعاليم». ويبقى الديالكتيك الذي كان في أساس

استراتيجية وتكتيك آباء النظام الاشتراكي، السلاح المفضل عند غورباتشيف: «يرى غورباتشيف» أن الماركسية لم تكن يوماً ذات طابع دوغمائي بالنسبة للينين». هذا الأمر صحيح. وستالين، بدوره، أكد ذلك بدقة ومن خلال هذه الحكمة: «أن الماركسية ليست دوغمائية. إنها دليل عمل»^(١).

بهذا المعنى ليست «إيديولوجية التجديد»، وهي التصور الوحيد للعالم بالنسبة للـ «بريسترويكا، إلا نسخة جديدة - دياكتيكية - عن الإيديولوجية السوفياتية المعروفة. تلك هي حالة حرس نابليون، الذين ماتوا دون أن يستسلموا. مع فارق وهو أن حرس نابليون كان يدرك أن أيامه باتت معدودة، في حين أن «إيديولوجية التجديد» لا تريد أن تقتنع بأنها دخلت مرحلة النزاع الأخير.

الفصل الرابع والعشرون

المسألة الروسية

«توجه شعوب بلدنا تحية إكبار عميقة وعرفاناً بالجميل للشعب الروسي الكبير، بسبب ترفعه وأبعثه الصريحة، وإسهامه الذي لا يحصى في تأسيس وتطوير وتصليب الاتحاد الاشتراكي للجمهوريات الحرة والمتساوية في حقوقها...»

غورباتشيف، ٢ تشرين الثاني، ١٩٨٧

«... من الجائز أن تعمل روسيا على مغادرة الاتحاد، لأنكم تتهمونها بكافة الأخطاء، وبأن نموها البطيء وثقل حركتها يعيقا تطلعاتكم التقدمية؟»

فالتين راسبوتين، ٦ حزيران، ١٩٨٩

عام ونصف يفصل بين إكبار غورباتشيف المتفائل، والذي يستعيد كلمة كلمة قول ستالين: «في صحة الشعب الروسي، لأنه الأمة الأعلى بين الأمم المكونة للاتحاد السوفياتي»^(١)، وبين الصرخة اليائسة، والصادرة من أعماق القلب، لفالتين راسبوتين في مؤتمر نواب الشعب. يرى غورباتشيف أن من الضروري مدح الشعب الروسي باسم كافة شعوب الاتحاد السوفياتي، بمناسبة إحياء الذكرى السبعين لثورة أكتوبر، «لاحظاً الانجازات الهامة التي حققتها السياسة القومية للينين». في حين نرى فالتين راسبوتين يسخر بمرارة من حالة نكران الجميل التي تظهرها هذه الشعوب، عبر اتهام نوابها لروسيا وللمواطنين الروس بأنهم مسؤولون عن المصائب التي حصلت طوال السبعين السنة المنصرمة.

يشير ظهور التشققات في جدران الامبراطورية، والهبوط العميق للأساس الاليدولوجي، الاحساس بأن الانهيار وشيك الوقوع. أن متوسط عمر الامبراطوريات الكبرى يتراوح بين ٣٠٠ - ٥٠٠ عام، مع وجود بعض الامبراطوريات التي تقاوم لمدة أطول. في حين أن الامبراطورية الروسية قد ولدت منذ ثلاثمئة عام تقريباً. ونستطيع القول اليوم، وبعد سبعين عاماً على وجودها كاتحاد سوفياتي، انها قاربت الانهيار؟ ان أية محاولة لاستشراف المستقبل تبدو عقيمة. فقط الأنبياء وكبار المبدعين يستطيعون ذلك. لقد كان باستطاعة آدم مكوييسز أن يسبح بعيداً في بحر الزمن، ليتوقع السقوط المتتالي لثلاثة امبراطوريات كانت تتقاسم بولونيا. من كان يتوقع ذلك، في عام ١٩١٧ - ١٩١٨؟ لا أحد، لأن أي شخص لم يكن ليتوقع جنون الحرب العالمية الأولى.

فالحركات القومية، الأخذة بالانتشار منذ أواخر عام ١٩٨٦، مستصح مع مرور عقد من الزمن، قوة نابذة للتمركز مما يشكل خطراً مباشراً على الاتحاد. في آذار ١٩٩٠، أعلنت ليتوانيا استقلالها، وسوف تتبعها أستونيا وليتوانيا. أضف الى ذلك أن مشكلة الخروج من الاتحاد بالنسبة لدول البلطيق، لا تطرح نفسها بالعنوان القومي فقط، بل أيضاً بالعنوان الحقوقي: فالجمهوريات الثلاث، التي صودرت سيادتها إثر معاهدة ستالين - هتلر، قد قررت إعادة الأمور الى نصابها الطبيعي. فيما كانت موسكو تتصدى بقوة لهذا الوجه، عبر تطبيق الحظر الاقتصادي على ليتوانيا. ويعلن غورباتشوف تخوفه من أن يؤدي هذا الخروج «غير المنظم»، و «غير المسموح به»، الى عدوى متسلسلة، تدمر الامبراطورية. ولكن في الواقع، فإن مناطق البلطيق، التي ربطت بالاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٠، كانت تعتبر دائماً مناطق أجنبية الى حد ما. ولكن احتمال توسيع حكمها الذاتي يبدو وكأنه خطوة جديدة نحو «إعطاء الاتحاد الفدرالي مضموناً جديداً». الأمر الذي قد يترتب عليه تحويل هذه الجمهوريات الى واجهات للاتحاد السوفياتي، أو هونغ كونغ سوفياتية. ولكن السلوك غير المراقب للليتوانيا، ثم للجمهوريتين الأخريين، يشير غضب الأمين العام - الرئيس.

أما بالنسبة للحركات القومية في القفقاس، فإنها لا تثير انتباه موسكو، التي تراهن على تصفية هذه الحركات لبعضها البعض. كما أن الأسلوب القمعي الذي استخدم من أجل إعادة الهدوء الى تبليسي وباكو، يظهر طبيعة الوسائل التي يملكها المركز. فالصراعات الداخلية ذا الطابع الدموي، والتي يغض النظر عنها، هي مثال صارخ

للسليبيات التي ترافق حالة «الفوضى». فما يحويه إقليم القفقاس من تعدد للأقوام التي تعيش فيه، يسمح لغورياتشوف بالمناورة. بتعبير آخر، فإن الاضطرابات في المحيط لم تصل بعد الى تهديد وحدة الامبراطورية.

تمثل جمهوريات آسيا الوسطى مناخاً ملائماً لنشوء الحركات القومية. ولكن، وبإستثناء بعض الحركات المحلية ذات الطابع الدموي (وادي فرغانا، نوفي أوزن)، فإن الحركة القومية لم تستطع بعد، أن تتخذ شكلاً منظماً، يشبه ما يحصل في بعض الجمهوريات. وتعتبر التزعة القومية عن نفسها بشكل عفوي. وهي في الغالب ذات أسباب اجتماعية - فمن بين هذه الأسباب وقبل كل شيء، البطالة المتصاعدة. إن السمة الضعيفة نسبياً للحركات القومية في آسيا الوسطى، متأتية من تبعيتها الكاملة للمركز على المستوى الاقتصادي، أضف الى ذلك المراكز التي تتبوأها النخب المحلية، ونظام الفساد الذي يضمن الإستقرار.

طالب السكرتير الأول للجنة المركزية في كازاخستان نور سلطان نازارباييف، الذي حل في عام ١٩٨٩، مكان غينادي كوليين حيث أدت تسميته لهذا المنصب الى حصول اضطرابات ألما - أتا عام ١٩٨٦، في مداخلته له أمام اللجنة المركزية حول المسألة القومية، ببعض المطالب المحددة من المركز: الاستقلال الاقتصادي الكامل ضمن إطار الاتحاد الفدرالي؛ الاستقلال السياسي ضمن الحدود المرسومة ودون أي إبهام في الدستور. ثم يضيف قائلاً: «من المهم أن لا نذهب بعيداً في الضغط على السدادة، وأن لا نذهب في إضعاف المركزية الى الحد الذي تبدأ بعده الفوضى». وهو يعلن أيضاً تمسكه الحاسم بوحدة الحزب معتبراً أن الحفاظ على تماسك الحزب «هو بمثابة ضمان لقوة الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات»^(٢). بالمقابل، يلحظ ن. نازارباييف أن ما تشكل «في موسكو، يكشف احتكار إحدى القوميات للقيادة». ويطرح السؤال: «كم يبلغ عدد ممثلي الجمهوريات القومية بين وزراء الحكومة؟ وبين ممثلي الشعب في اللجنة المركزية، وهل سبق ولمحتم أوزبكياً أو كازاخياً في هذه المناصب؟ أو في قيادة وزارة الدفاع، والـ KGB، أو وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي؟»^(٣). لا يمكن الطعن بمشروعية هذه المطالب، ولكنها تتجاوز في الحقيقة إمكانيات النظام الفدرالي السوفياتي.

تعتبر أوكرانيا الاقليم الثاني الذي يمتلك من الامكانيات - مجال جغرافي، طاقات

بشرية، ثروات طبيعية، صناعة، زراعة - ما يكفي لتفجير الامبراطورية. لم تأخذ الحركة القومية الأوكرانية أشكالاً منظمة وإمتداداً سياسياً إلا في عام ١٩٨٩. أدركت موسكو هذا الوضع عند عزلها لفلاديمير شتشرينسكي، الذي أسهم في «تجميد» أوكرانيا في عصر ال «بريسترويكا». وعندما بدأت أساليبه تفقد من فعاليتها، ودّع مركزه كسكرتير أول للجمهورية. أما من خلفه فقد كان يشبهه تشابه نقطتي ماء، لولا أنه شخص أكثر فتوة منه.

يلحظ إ. إلتشنكو، سكرتير اللجنة المركزية للجمهورية، في معرض تشخيصه للوضع في أوكرانيا، «النمو المتسارع للوعي الوطني»، دون أن يمنعه ذلك من تبني السياسة «الجديدة» المتعلقة بهذه النقطة، لأنه لا يرى أي مخرج إلا في «إقرار المبدأ اللينيني حول حق الشعوب في تقرير مصيرها». ولكنه مع ذلك يتقبل ظهور «حركات عفوية»، يطرح بعضها «برنامج عمل في ظاهره معادٍ للاشتراكية، ويرتكز في الغالب إلى الاتجاه القومي البرجوازي». وينبه سكرتير الحزب في أوكرانيا إلى أن «القوى الهدامة» يتم «تحريكها بشكل مكشوف»، خاصة في لغوف، وترنوبول، وايفانوفو - فرانكوفسك، أي بتعبير آخر في هذا الجزء الغربي من أوكرانيا التي ألحقت بالاتحاد السوفياتي بعد معاهدة هتلر وستالين. غير أن، «القوى الهدامة»، بدأت بالتحرك داخل العاصمة، كييف. عندها أطلق إ. إلتشنكو صفاة الانذار: ذلك أنه إذا ما جرت الانتخابات، فسوف تضع هذه القوى يدها على السلطة. لذا يسارع إلى الموافقة على اقتراح القانون الذي يحدد الشروط التي تسمح بتفكيك أو منع «المجموعات القومية أو السوفينية» (٤).

عام ١٩٨٩، تطور الوضع في أوكرانيا بسرعة كبيرة. فقد تم تأسيس ال «روخ» - الحركة الشعبية في أوكرانيا من أجل «البريسترويكا» - على يد لجنة الحزب في شعبة كييف لاتحاد الكتاب، وسرعان ما تحولت هذه الحركة إلى قوة فاعلة وتغيرت طبيعتها. فقد بدأت قيادة ال «روخ» بترك الحزب، وطرح شعارات ذات طابع راديكالي متصاعد. وفي انتخابات نواب الشعب في أوكرانيا، توصلت ال «روخ» إلى إيصال عدد هام من مرشحيها، بلغ ١١٥ من أصل ٤٥٠ نائب، الأمر الذي أَمَن لها موقعاً معارضاً ذا شأن. لقد كشفت الانتخابات واقع التنوع داخل أوكرانيا. فقد صوتت أوكرانيا الغربية لصالح ممثلي الكتلة الديمقراطية: مرشحو ال «روخ». ففي منطقة «لغوف»، بلغ عدد

متخبي الديمقراطية أكثر من مجموع ما فازت به في الدوائر الـ ٢٤ الأخرى . أما أوكرانيا الشرقية فقد صوتت أساساً لصالح مرشحي الحزب، خاصة في المناطق الأكثر ريفية : الدونباس، وكاركوف .

يرى أحد مسؤولي الـ «روخ»، ميخائيلو غوريون، أن خط سير الحركة الوطنية الأوكرانية «يذكرنا بخط السير الذي سلكته «ساجودي»، والتي بدأت عملها بطرح السؤال حول مكانتها داخل الائتلاف، ثم ومع الوقت، أنجزت الاستقلال الكامل لليتوانيا»^(٥).

أدت انتخابات ربيع ١٩٩٠ للمجالس المحلية إلى إيجاد وضعية جديدة تماماً: فقد استطاعت الـ «روخ» تحقيق الغلبة في لغوف وترنوبول وكيف . وتم انتخاب فياتشسلاي تشورنوفل، أحد المنشقين الذي أدخل السجن لثلاث مرات، رئيساً لمجلس السوفيات الاقليمي، وتم رفع العلم الاوكراني بلونه الأصفر والأزرق مكان العلم الأحمر على فندق المدينة . وبذلك إنتقلت السلطة الشيوعية إلى موقع المعارضة، باحثة عن إتفاق مع حركة الـ «روخ» .

تميزت الوضعية الجديدة بتأسيس حزب (نيسان ١٩٩٠) - مرتبط بحركة «الروخ»، وذلك على يد «مجموعة هلسنكي» الأوكرانية من أجل الدفاع عن حقوق الانسان، وبالتأثير المتعاظم «للاتحاد الشبيبة» الأوكرانية المستقلة في أوكرانيا الغربية . ومن المسائل المستجدة أيضاً، في أوكرانيا الشرقية، انتقال السلطة في عدد من المقاطعات (خاصة الدونباس)، إلى يد لجان الاضراب التي شكلت إبان صيف ١٩٩٠، ويعترف ليونيد كرافتشوك، سكرتير اللجنة المركزية للحزب في أوكرانيا قائلاً: «إن كافة المسؤوليات، الاقتصادية منها أو السياسية، قد أصبحت بيد لجان الإضراب»^(٦).

يحاول الحزب الشيوعي أن يستغل الفروقات الماطقة، والدينية، والقومية، عن طريق السعي إلى إختراق البنى الجديدة .

يبقى أن «العقدة» الكبرى في «المسألة القومية» في الاتحاد السوفياتي، والمشكلة الرئيسية للامبراطورية السوفياتية، هي مشكلة الشعب الامبراطوري، المسيطر: الشعب الروسي . ويؤكد تاريخ الامبراطوريات أن حركات الانهيار، والتيارات التدميرية التي تنطلق من الأطراف والأقاليم، غير ممكنة إلا عندما يضعف المركز .

يلحظ يوري أفاناسيف، أحد مسؤولي «فريق ما بين الاقاليم» ومن نواب الشعب، الذي يشكل نواة المعارضة - كانون الأول ١٩٨٩ - «شلل السلطة المركزية»، الذي «يقترن بطريقة مخيفة بتوجه الجلسة المكتملة للجنة المركزية المخصصة للمسألة القومية، نحو بناء مركز قوي». هذه الوضعية، تشبه الوضع الذي أشار الى مخاطرة فاسيلي شولغين، والذي مرّت به روسيا في الحرب العالمية الأولى: «حكم استبدادي دون مستبدين»^(٧).

ان كشف ضخامة الكارثة - وهي محصلة سبعين عاماً من القيادة الشيوعية - لا يبقّي أدنى شك بأن الشعب صاحب السيادة الغالبة قد تلقى الضربة الأقوى. وهذه ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ الامبراطوريات: الشعب الامبراطوري يعيش وضعاً أكثر مأساوية من باقي شعوب البلد. من المستوى المعيشي المتدني، الى الهبوط الكبير في معدل الولادات، الى الإدمان، وتدمير الأقاليم المركزية في روسيا وسيبيريا، الى الأزمة الايكولوجية - إنّ الكتاب، والاعلاميين، والاقتصاديين، ومهندسي الزراعة يرسمون صورة مخيفة عن الوضع. ووفقاً للأرقام الرسمية، فإن سبع وثلاثين مدينة في جمهورية روسيا قد تجاوزت العتبة التي يبدأ بعدها النمط على حياة السكان^(٨).

ان تدمير المركز، نواة الامبراطورية، أضحى علنياً في عصر الـ «غلاسنوست» ولكن: كان قد بدأ مع الأيام الأولى للثورة: فقد تحمل الشعب الروسي العبء الأساسي في بناء العالم الجديد، وفي مقاومة تحقيق الطوبى. فقد أنفيت خيرة قواه في الثورات والحروب، والتصفيات؛ وكتعويض عن ذلك، اعترف له ومن باب الاشباع الأخلاقي بأنه القوة الكبرى. هذا الشعور الذي يجعل الشعب الروسي يرتضي البؤس، ويتحمل تدمير الأرض، يفسده عن طريق تنمية الاحساس بالعظمة. وقد جاءت الـ «غلاسنوست» وأطلقت صيحة اليقظة. ويكشف أ. فلاسوف، عندما كان رئيساً لمجلس وزراء الـ (RSFSR)، بمرارة عن «أن الكثيرين من الناس» ياثلون بين السلطة المركزية «المتهمه بإرتكاب الأخطاء، والانحرافات السياسية، وحوادث القمع» وبين روسيا التي «عانت مثلما عانت باقي الجمهوريات من النظام الاداري والحكومي». هذا صحيح، فروسيا قد عانت مثل الآخرين، إن لم يكن أكثر منهم. ولكن كيف نستطيع أن نمنع المماثلة بينها وبين السلطة المركزية، إذا كانت عاصمة الدولة هي موسكو، العاصمة الروسية بامتياز، واللغة الرسمية الوحيدة هي اللغة الروسية، وإذا كان تاريخ

روسيا يعتبر إضافة الى تقاليدھا من الأسس السوفياتية، في حين يوصف الآخرون بالنزوع نحو القومية، ناهيك عن وضعية، «الأخ الأكبر» أو الأول بين متساوين، والتي تحتل حجر الزاوية في السياسة القومية؟

يجد تنامي الوعي الوطني لدى الشعوب المكونة للاتحاد السوفياتي، تعبيره في إزدياد الشعور المعادي للروس. وكذلك تسمح الاعتراضات الموجهة ضد اللغة الروسية، وضد الهيمنة الروسية، والاستغلال الروسي، بالكشف عن وجهات نظر معادية للسوفيات، وإن كانت أحياناً غير واعية. وإلى جانب ذلك فإن صعوبة الوضع في روسيا، وبؤسها، وتأخرها الاقتصادي يقوي الاتجاه نحو اتخاذ مواقف معادية «للأول بين المتساوين». لقد بدأ الاعلاميون الروس برثاء روسيا «المهانة» وما تتهم به من تسبب «مرض الرهاب». وتحتل المسألة الروسية بعد خمس سنوات من «البريسترويكا»، موقعاً مركزياً في السياسة الامبراطورية. ففي صيف ٤٣٠ ق.م، أجبر أهالي أثينا على توقيع معاهدة صلح مع اسبارطة، اثر هزيمة أملت بهم. وقد صارحهم بركليس مشيراً الى أن الهزيمة تعني خسارة الامبراطورية وإثارة حقد الذين خضعوا لسيطرة أثينا؛ وأضاف: انكم لا تستطيعون رفض السلطة، لأنها كانت ذات طابع استبدادي. ويخلص الى القول: ان الحفاظ على الامبراطورية عمل يبدو غير عادل، ولكن التخلي عنها خطوة في غاية الخطورة^(٩).

تم تقديم عدة أجوبة على هذا السؤال الأبدى - ما العمل؟ - . وتنقسم هذه الأجوبة الى مجموعتين: أجوبة السلطة المركزية، وأجوبة الشعب الامبراطوري. فالسلطة المركزية تبحث عن وسيلة توفق عبرها بين النزعة القومية الروسية، وبين النزعة القومية لدى الشعوب الأخرى، ضمن إطار الاتحاد السوفياتي. وإننا نجد أن التماثل بين السلطات الروسية والسوفياتية لم يكن وليد الصدفة، فقد استلم الحزب الشيوعي السلطة في الامبراطورية الروسية القديمة، وكان هذا الأمر محصلة سياسة قومية ناضجة. ويبقى الدليل الأبرز على ذلك عدم وجود أي حزب شيوعي روسي (حتى عام ١٩٩٠)، في حين أن كافة الجمهوريات الأخرى تملك أحزابها الشيوعية، هذا إضافة الى غياب الكثير من مؤسسات الدولة الروسية، وذوبانها ضمن إطار المؤسسات الروسية. في السنوات الأولى من عمر السلطة السوفياتية، كان هدف هذه السياسة جذب الاقليات القومية الى جانب البلاشفة؛ لذا كان الموقف يصر على أدانة النزعة القومية الروسية، بإعتبارها حجر الزاوية للثورة المضادة. ولكن دروس الحرب ضد

بولونيا في عام ١٩٢٠، أظهرت أن بالإمكان استخدام النزعة القومية الروسية من أجل الدفاع عن النظام السوفييتي. ففي المرحلة الأولى من الحرب، كان الجيش البولوني في موقع الهجوم بحيث استطاع أن يضع يده على كييف، وفي هذه الحالة كانت التعبئة تتم تحت شعار مقاومة مخططات البولونيين، الأعداء الدائمين للشعب الروسي. ثم في المرحلة الثانية انقلب الوضع: فلقد أصبح الجيش الأحمر على أبواب فرسوفيا، وباتت التعبئة تتم تحت شعار الثورة العالمية، التي تحملها إلى أوروبا الغربية الحراب الحمراء.

في عام ١٩٢٠، صاغ نيكولاي أوستريالوف تصوره «لتغيير العالم»، وهو الذي اتخذ أيضاً تسمية «الوطنية - البلشفية». فمن مركزه كحقوقي، وكاتب سياسي موهوب، وفاعل في الحركة البيضاء، عمد أوستريالوف إلى إستخلاص دروس هزيمة الثورة المضادة إبان الحرب الأهلية: «لقد خدعنا أنفسنا، عندما صورنا البلاشفة كقوة تزرع الفوضى في البلد، مطلقة العنان لقوى بدائية مجنونة، أتت من الخارج، من أجل تدمير روسيا. في الواقع، أن البلاشفة هم القوة الوحيدة القادرة على ضبط العناصر التي أطلقتها الثورة والحرب الأهلية، وهم وحدهم يملكون الإرادة والقبضة الحديدية الضرورييتين لاختضاع الشعب الروسي. أضف إلى ذلك، أن البلاشفة هم القادرون على حفظ الامبراطورية الروسية، وإن كان تحت اسم آخر» (١٠).

يستخدم نيكولاي أوستريالوف من أجل بناء تصوره، تعبيراً رائعاً في ألمانيا: الوطنية - البلشفية. ففي عام ١٩١٩، توصلت مجموعة من الوطنيين الألمان الراديكاليين إلى الاستنتاج بأن ألمانيا المهزومة، مادياً وروحياً، تستطيع أن تنهض من تحت الرماد لتعود دولة قوية، وذلك إذا استلهمت تجربة الثورة الروسية. لقد تم استخدام هذا المزيج من الوطنية والبلشفية، وفق مقادير واتجاهات مختلفة، في كل من ألمانيا (مع الاشتراكية - القومية) والاتحاد السوفييتي. ففي مطلع العشرينات، شكلت «الاشتراكية - القومية» في نسختها «تغيير العالم»، وسيلة أساسية لجذب الانتلجنسيا الروسية إلى جانب الحزب الشيوعي. كذلك لجأ ستالين إبان الحرب العالمية الثانية، إلى استخدام النزعة الوطنية الروسية بهدف تسليح الاشتراكية وبالطريقة نفسها، في عصر البريسترويكا، تستخدم «الفكرة القومية». كما الماء السحري في الحكايات، يرش بها الجسم الميت للماركسية - اللينينية.

يعتبر ألكسندر إياكوفليف، المنظر الرسمي الأول لـ «الوطنية - البلشفية»، رغم

عدم استخدامه لهذا التعبير. وقد ساهم الكتاب والاعلاميون في إعادة سحبه من دائرة التعقيم الرسمي. وفي رواية من جزئين بعنوان «بعد العاصفة»، يصف سرغاي زاليغين الأوقات السعيدة للتعاون بين القوميين الروس والبلاشفة المتتورين خلال العشرينات في سبيريا. ويذكر يوري كليامكين في مقالة نشرتها مجلة نوفى مير^(١١) تحت عنوان: «ما هي الطريق المؤدية الى الهيكل؟»، وللمرة الأولى بعد عقود من الصمت، قصة «تغير المعالم».

تتمثل الميزة الأبرز للـ «الوطنية - البلشفية» في «أعمتها». ألم يتدعها بعض الألمان والروس الحالمين ببناء دول كبرى ذات رسالة تاريخية؟ هذه الفكرة تم تبنيها أيضاً من قبل زعماء شيوعيين لشعوب أخرى، وفي النصف الأول من العشرينات ظهرت عدة تلاوين للشيوعية - «القومية»: بنشر هيكولا سكريبنيك بفكرة الشيوعية الأوكرانية، وبلور سلطان - غالييف فكرة الاشتراكية - «الاسلامية». إلا أن ستالين أقدم على تصفية هذه «السيناريوهات» وكل ما يحمل شبهة «الشيوعية - القومية»، متهماً إياها «بالانحرافات القومية».

في عصر «البريسترويكا»، درجت العادة على استحضار «بدائل» السياسة الستالينية التي لم تطبق، و «منها الحلول التي أقترحها س. راكوفسكي، ب. مدفاني، وب. مخارز، وم. سكرينيك، وم. سلطان - غلييف...»^(١٢) ويدعم أوستريالوف موقفه تجاه البلشفية بواقعة «أن الراية الحمراء تفتح حاملة الألوان الوطنية»^(١٣). وفي محاولة أخيرة للحفاظ على السلطة، ابتدع الشيوعيون الأفغان صورة شاعرية جميلة، إذ لجأوا الى تطريز العلم الأحمر بأشرطة خضراء، ترمز الى راية النبي.

إن الصياغة الشهيرة لثقافة سوفياتية - قومية الشكل، اشتراكية المضمون - تعرف بشكل كامل السياسة القومية الجديدة لغورباتشوف فتكتيك «القومية - البلشفية»، يشكل وسيلة فعالة تستجيب للمطالب الأخذة بالتوسع في الجمهوريات السوفياتية، وتسهم في تجديد العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وبين باقي البلدان الاشتراكية - سابقاً.

لهذا التكتيك فائدة عظمت في معالجة «المسألة الروسية». ففي برنامج عمل الحزب الشيوعي المخصص للسياسة القومية، فإن الجمهورية الوحيدة التي أشير إليها بشكل خاص هي الـ RSFSR، حيث تم التأكيد على سلسلة من الاجراءات العملية الهادفة الى

تعميق سيادة هذه الجمهورية، إضافة إلى إيجاد بنية روسية داخل الحزب (مكتب اللجنة المركزية المسؤول عن ال RSFSR)، والتقابات، والشبيبة الشيوعية، وإيجاد وزارة داخلية للجمهورية، وأكاديمية العلوم الروسية، وأجهزة الاعلام (راديو، تلفزيون)، الخ . . . وتنتمي هذه الاجراءات إلى النماذج الاصلاحية الملطفة التي حفلت بها «البريسترويكا». ولكن الاقتراحات الداعية إلى تأسيس حزب شيوعي روسي رفضت دون نقاش (ولكن بعد عدة أشهر تم تأسيس هذا الحزب). وفي الوقت نفسه، يتم التأكيد على توسيع إطار حقوق التشكيلات المستقلة داخل ال RSFSR. كما جرى التحضير لإنشاء مجلس سوفيات أعلى حيث تُؤخذ بعين الاعتبار، مصالح كافة الشعوب التي تعيش في روسيا، الأمر الذي يسمح بموازنة أو بتوزيع النمو المبالغ به لتأثير البعد الروسي. وتؤدي كافة القضايا المطروحة هنا إلى أحداث تضخم جديد في الجهاز البيروقراطي، دون أي تعديل في وضعية البنى القائمة.

تعتبر مسألة اللغة الروسية من البراهين الساطعة، التي تكشف نوعاً من العظمة في القبول بالتغيرات التي لا تتغير شيئاً. في عام ١٩٨٨، تبنت جمهوريات البلطيق مجموعة قوانين تعتبر بموجبها اللغة القومية لغة الدولة. وهناك جمهوريات أخرى تتبع الطريق نفسها: بوضوح، تتجه اللغات القومية في كل مكان لتصبح لغة الدولة، وذلك دون أن يتصدى المركز لهذه القرارات. ولكن في الجلسة المكتملة التي خصصت للمسألة القومية، رأى غورباتشوف أن من المفيد والمعقول «إعطاء اللغة الروسية مركز لغة ما فوق الدولة، على صعيد الاتحاد السوفياتي». بهذا المعنى يصبح لكل جمهورية لغتين رسميتين، لغتها القومية ولغة الاتحاد. ولكن لما كان دستور الاتحاد السوفياتي يعطي الأفضلية لقوانين الاتحاد بالمقارنة مع قوانين الجمهوريات، فإن مركز اللغة الروسية يبقى والحالة هذه ثابتاً من وجهة النظر الادارية.

وجدت فكرة غورباتشوف تعبيرها الحقوقي في القانون المتعلق بـ «لغات شعوب الاتحاد السوفياتي». الذي وقع عليه الرئيس في ٢٤ نيسان ١٩٩٠. «أخذاً بعين الاعتبار مجموعة الظروف التي تكونت عبر التاريخ، ويهدف ضمان إنجاز المهام المشتركة على مستوى الاتحاد ككل، تعتمد اللغة الروسية لغة رسمية في الاتحاد السوفياتي على كافة الأراضي وتعتمد أيضاً كوسيلة اتصال ما بين اللاتنيات» (١٤).

إن ضرورة اللجوء إلى التشريع من أجل الدفاع عن اللغة الامبراطورية، لأمر بالغ

الدلالة بالنسبة للأزمة التي تمر بها هذه الامبراطورية نفسها فالتاريخ لا يعرف مثالا آخر فرض فيه احترام شعب عن طريق الاجراءات الادارية .

في ١٩٧٣ ، كتب ألكسندر سولجيتسين ، «دون تمويه أو تشويه» ، موضحاً طبيعة الاتجاه السائد : «يمتلك الشعب الروسي ، جملة من الصفات ، تجعله الأكثر نبلاً في العالم ؛ فتاريخه ، القديم والمعاصر لا تشويه شائبة ، ومن غير المسموح ولاي سبب كان ، أن تلتصق أية تهمة بالقيصرية أو بالبلشفية ؛ ولم ترتكب أي خطيئة أو خطأ على مستوى الوطن لا قبل عام ١٧ ولا بعده ؛ ولم نواجه أي انحطاط أخلاقي يجعلنا نشعر بالحاجة الى تطوير أنفسنا ؛ اليوم ، كما البارحة ، لا وجود لأية مشكلة قومية مع الجمهوريات الطرفية ، فالحل اللينيني - الستاليني يبقى مثالياً بالنسبة لذلك ؛ أما آفاق روسيا - الاتحاد السوفياتي فهي مشرقة ؛ كذلك فإن صلة الدم هي المعيار الحصري في تعيين الانتماء للروس أو عدمه ، أما فيما يتصل بالفكر ، فإن كافة الخيارات تبقى ممكنة : فالاثوذكسية لا تحمل الصفة الروسية أكثر من الماركسية ، أو الاتحاد ، أو الرؤية العلمية للعالم أو ، على سبيل المثال ، الهندوسية ؛ ولا توجد أية ضرورة لكتابة حرف البداية في كلمة الله ، ويخط كبير ، بل علينا أن نفعل ذلك مع كلمة سلطة» . ويخلص الكسندر سولجيتسين الى القول : «انهم يطلقون على مجموع ذلك «الفكرة الروسية» (اتجاه تنطبق عليه تسمية القومية - البلشفية)»^(١٥) . وتكمن إحدى ميزات هذا التحديد في أنه يظهر خاصية الابهام لهذا المزيج من العناصر الرسمية ، أو كما نقول اليوم ، الطابع «اللاشكلي» «للفكرة» .

وقد أثبتت السنوات الخمس عشرة المنصرمة صحة التحليل الذي قدمه سولجيتسين . أوضح مؤلف كتاب أرخبيل الغولاك ، أن العناصر المتصلة بـ «الفكرة الروسية» ، وهي مرادفة «للقومية الاشتراكية» على الطراز الذي ترسمه الـ «بريسترويكا» ، قد عرفت مصائر مختلفة ، إذ البعض منها كان أكثر ازدهاراً من غيره . ولكنها جميعها ، وجدت مكاناً لها في اللوحة المتعددة الألوان للحركة القومية الروسية الآخذة بالتشكل .

أن السمة الطبيعية لتكون الوعي القومي الروسي ، وشرعيته ، ليسا موضعاً للشك ، كما أن خصوصيته تبقى هي أيضاً واضحة ؛ إننا أمام ظاهرة مفردة في الاتحاد السوفياتي : فالقومية الروسية هي قومية الشعب الامبراطوري ، أي قومية دولية . فهذا الشعب ، كما

يصفه الكتاب والفلاسفة الروس، ومنظرو القومية، يعيش معضلة خاصة تتمثل بطموحه لأن يكون هو نفسه وان يحافظ على الامبراطورية في الوقت عينه. لقد كان ألكسندر سولجيتسين الوحيد الذي عبر عن رأيه بوضوح قائلاً: «فيما يتعلق بشعوب التخوم وما بعدها، التي ألحقت عنوة بمدارتنا، لن تكون توبتنا خالصة إلا إذا أعطينا هذه الشعوب الحرية الحقيقية في تقرير مصيرها بنفسها»^(١٦). يوضح سولجيتسين بشكل جيد: «لكل الشعوب»، «الحرية الحقيقية»...

لم يتجاسر أي من الكتاب الكثر الذين استحضروا ضرورة تكون الوعي القومي الروسي، مستعدين نتفاً من فكر سولجيتسين، ان يجاريه في موقفه المتخلي عن الامبراطورية. ويمكننا عن طريق دراسة إيديولوجية الحركة القومية الروسية، ممثلة بالعديد من المجموعات، والتنظيمات والتيارات أن نتوقف قليلاً عند الاختلافات القائمة فيما بينها. وهي التي تؤكد المناظرات اللامتناهية بين مختلف عناصر «الفكرة الروسية». وبالمقابل، فإنه من المفيد أيضاً أن نوضح ما يجمع بينها، من «باميات - ١» و «باميات - ٢»، وصولاً إلى «رودينا» (الوطن)، و «أوتيتشستفو» (الوطن)، ومروراً ب «الاتحاد من أجل النهضة الروحية للوطن» الذي تأسس في آذار ١٩٨٩، أو «الجبهة الشعبية الروسية»، التي تأسست في تشرين الأول من العام نفسه. وبالرغم من اختلاف الخطاب، فإننا نلاحظ أن أعلامي ناش سوفريمينيك (حاضرنا)، ومولودايا غفارديا (الحارس الشاب)، وموسكفا (موسكو)، وسلوفو (الكلام)، وجريدة سوفتسكايا روسيا (روسيا السوفياتية)، متفقون في العمق، وحول ما هو أساسي، وهذا ما تؤكد مؤلفات لكتاب من أمثال فالانتان راسبوتين، وفيكتور أستافيف، وفاسيلي بيلوف، وعالم الرياضيات ايغور شافاريشتش، والاعلامي ميخائيل انطونوف، وآخرين، أقل شهرة، ولكنهم ليسوا أقل تألقاً.

ونجد في أساس الفكرة الروسية حول النهضة القومية، تصوراً للأصالة العميقة لروسيا ولرسالتها الخاصة في العالم. هذه الفكرة ليست جديدة، ولكنها شهدت على مر القرون، عدة تحولات. ويمكننا العودة إلى قول ماثور للأسقف فيلوتيه الذي قال في القرن الخامس عشر: أن روسيا هي روما الثالثة. وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر، أبرز محبو «السلافية» وحدة مصير روسيا، المرتبطة بالبعد الروحي العميق للشعب الروسي. وفي آب ١٩٦٣، أعلن ستالين: «ليس من المستبعد أن تنهض روسيا بدور البلد الذي

يفتح الطريق نحو الاشتراكية»^(١٧). وفي عام ١٩٦٣، كتب إيفان افريموف في روايته «حد الموس»، بأن على روسيا أن تجد طريقها، الضيق كحد الموس بين مادية الغرب وروحانية الشرق، بهدف انجاز الخطوات الأولى نحو المجتمع المثالي. وفي تموز ١٩٨٩، كتب ايغور شفاريفيتش في مقالة تحت عنوان: «طريقان نحو هوة واحدة»، موضحاً أن اختيار طريق العودة الى الوراء، أي الى «نظام التحكم»، أو «الاقتراب من النموذج الغربي»، ليس «الاختيار السليم». ويضيف موضحاً «أن الغرب يعاني من نوع آخر من المرض نفسه الذي نسعى للشفاء منه». لذا فهو يشدد على «أن كلا الطريقتين يؤديان الى الكارثة نفسها، اجتماعياً، وبيئياً، بل إنهما في هذا المجال متساندان»^(١٨).

ويكتب ميخائيل أنطونوف في أيلول ١٩٨٩، جازماً: «... ان الاشتراكيين وأخصائهم المباشرين (مثلي «حكومة الأثرياء») يتبادلون الدعم...»^(١٩).

يمثل الطريق الثالث، أي طريق روسيا الأصيل، في رفض الرأسمالية. لأنه من غير المقبول أن يتم التخلص من «نظام التحكم» من أجل الاقتراب من الرأسمالية. ويؤكد ميخائيل انطونوف بأن «الفردانية قد عاشت»؛ وبأن الغرب «ما زال في مرحلة اكتشاف الفوائد التي يجنيها من نمط الحياة الجماعي (أو كما يقال، الشيوعي)، أي بتعبير آخر، ما اعتبر في روسيا ومنذ قرون طويلة، الأساس الأول للتنظيم الاجتماعي»؛ «الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، وحرية المشروع يعتبران من المفارقات التاريخية في ظل ظروف العالم المعاصر، حيث الاقتصاد يتخذ أبعاداً كونية بشكل متزايد»^(٢٠). ان الفكرة المغلوطة التي يحملها منظرو «الطريق الثالث» من الغرب، تسمح لهم بأن يتجاوزوا بسهولة «المفارقات»، بغية الانفتاح، عند شافاريفيتش، على «تجارب كافة أشكال الحياة الأكثر تماسكاً: ما قبل الرأسمالية، «العالم الثالث»، وحتى المجتمعات البدائية...» فبالنسبة لروسيا، «تعتبر الحضارة الفلاحية، وهي الحضارة الأقرب والأسهل فهماً، الاطار الذي إحتضن حياة أجدادنا حتى وقت قريب». وإذا كان شافاريفيتش يرفض العودة الى الوراء، إلا أنه مقتنع بأن هذه الحضارة «تشكل بالنسبة لنا النموذج والبدال على نمط من الحياة تطور نظامياً، ويمكننا أن نأخذ منه الشيء الكثير، خاصة سمة المركزية الكونية - أي العيش في ظل حالة من التوازن الاجتماعي، والاقتصادي، والبيئي الراسخ»^(٢١). وهكذا يتم هنا استبدال اليوتوبيا التقنية، و«العلمية»، بيوتوبيا فلاحية.

تتصب في مواجهة طريق «التوازن»، و «الأصالة عدة معيقات - أو أعداء: الرأسمالية، المدينة، الثقافة الأجنبية. إن كافة الايديولوجيات القومية التي تحلم بخيار «أصيل» و متميز، تصارع «أعداء» معينين. فهكذا ارتكزت الايديولوجية النازية الى أفكار معادية للرأسمالية، والبرجوازية، والغرب، كانت قد ولدت قبل وصول هتلر الى السلطة، معتبرة الفلاح الألماني كائناً أعلى، والمدينة بالمقابل، كمستنقع آسن»، يشيع الانحلال الخلقي.

ينظر أصحاب «اليوتوبيا الفلاحية» الى العالم باعتباره مسرحاً للقتال بين «الوطنين» و «العالمين»، أو ولكي نسمي الأشياء بأسمائها بين الروس واليهود.

تشعب المسألة القومية في الامبراطورية السوفياتية، الى قسمين متساوين تقريباً. القسم الأول ويتعلق بكافة الشعوب غير الروسية، والتي يصل عددها الى نصف سكان البلد؛ وبالنسبة لهؤلاء، فإن تعبير «الروس» هو مرادف لكلمة إمبراطورية، أو إضطهاد قومي. أما القسم الثاني فيتعلق بالروس، الذين يستغربون تصنيفهم في خانة الامبراطورية، في حين أنهم يعيشون في وضع أشد بؤساً من الآخرين. «تحتل روسيا، ضمن عائلة شعوب الاتحاد السوفياتي، موقع البطلة سندرلا»، هذا ما يؤكد مبدعو روسيا في المؤتمر التاسع عشر للحزب. فبالنسبة لهم، اليهود هم تجسيد الشر.

في زمن البريسترويكا، لا تبلغ نزعة معاداة السامية في الاتحاد السوفياتي حدها الأعلى فقط، بل تكتسب صفة جديدة: إذ تتحول الى حركة شعبية رسمية. وقبل مرحلة الـ «غلاسنوست» اتخذت نزعة معاداة السامية منحني: يومي و «أكاديمي». إذ يتعرض اليهود لمضايقات مختلفة في مراكز السكن، والشارع، وفي العمل؛ وبموازاة ذلك، نشرت أعمال «علمية»، تحت غطاء معاهد مختصة في أكاديمية العلوم، غايتها تنظيم «التضال ضد الصهيونية». ولكن بعد عام ١٩٨٥، تم توحيد الاتجاهين؛ حيث يلحظ نشوء اتحادات «غير رسمية»، من بينها «باميات» التي تعتبر الأكثر شهرة؛ كما أن بعض المجلات (ناش سوفرمينيك، ومولودايا عفارديا...) جعلت من صراعها ضد اليهود حظاً عاماً لافتتاحياتها. وكذلك يتم تنظيم مهرجانات جماهيرية، يدان فيها النشاط العلني والسري لليهود، الذين يظهرون أحياناً مناصرتهم القوية للـ «بريسترويكا»، وأحياناً أخرى يمارسون العدائية تجاهها، أو يقدمون أنفسهم طوراً

أنصاراً للثورة، وطوراً آخر أعداء لها. ان منظري نزعة المعاداة للسامية يظهرون على شاشات التلفزيون. حيث يتم تصوير اليهود باعتبارهم قوة الشر، التي تعمل منذ القدم على الاضرار بالشعب الروسي. لقد جمع ايغور شافاريفيتش كافة هذه الاتهامات في كتاب تحت عنوان: «الرهاب الروسي»؛ أبرز فيه بدايات النشاط اليهودي المعادي للروس، منذ القرن العاشر. كما نشر أحد المؤرخين كتاباً حول حرب ١٨١٢، يظهر فيها نابليون مدفوعاً الى احتلال روسيا «من قبل أخطبوط مصارف روتشيلد، الذي يسيطر على أوروبا... وأميركا». فهي وحدها لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة «رسميل المصارف العالمية»؛ لهذا السبب تم «تدبير هذه المؤامرة العالمية ضد روسيا»، بهدف «اخضاعها، ووضع اقتصادها تحت سيطرة النمط الرأسمالي البرجوازي... والقضاء على الروح الوطنية لدى الشعب وتشريه المبادئ الكونية وضياح الجذور...» (٢٣).

يتم اليوم استعادة تعابير الحملة المشؤومة التي أطلقها ستالين ضد «الكوسموبوليتية»، ويتم تدعيمها بكاموس النازية في معاداته للسامية. يستحضر ايغور شافاريفيتش تعبير «الشعب الصغير»، مشيراً الى القوة الحاقدة على «الشعب الكبير». كما يدعو الناقد الأدبي فلاديمير بوندارنكو الى التخلص من كافة «المحرمات بهدف تأمين شروط النقاش حول القوى الأولية المكوّنة للقومية الروسية، وحول القوى اليهودية». ويشدد قائلاً: «من الطبيعي ألا نتجنب الحديث عن مشكلة الدم، أو كما يقال بلغة العصر، الذاكرة الوراثية لأي شعب» (٢٤). ويستحضر فالانتان راسبوتين موضوع لقاء مع قرائه حول «عبدة الشيطان الذين ينشطون بهدف إفساد روح الشعب» (٢٥). أثناء مقابلة أجراها مع الصحافي الأميركي بيل كيلر، يعطي الكاتب المشهور، ونائب الشعب وعضو المجلس الرئاسي لغورباتشيف، انطباعه ومشاعره حيال اليهود، مشيراً الى ارتكابهم لخطيئتين أساسيتين: «لا بد من أن يشعر اليهود اليوم أنهم مسؤولون عن خطيئة الثورة، التي قاموا بها، وعن الشكل الذي اتخذته... وباعتبار الدور الكبير الذي قاموا به فإن خطيئتهم عظيمة. فهم يتحملون وزر هذه الخطيئة الى جانب تحملهم مسؤولية «قتل الله». ويضيف فالانتان راسبوتين قائلاً: إذا كانت خطيئة «قتل الله» قديمة، وبالتالي لا يمكننا تحميل يهود اليوم المسؤولية عنها. فإن «جريمة الشيوعية لا يمكننا تناسيها بسرعة» (٢٦).

ترك كتابات الاعلاميين القوميين، الانطباع بأن «المسألة الروسية»، غدت بالنسبة

لمفكري القومية الأكثر تطرفاً، «قضية يهودية». ولكن تجدر الملاحظة أن شعارات النضال ضد «التفوذ اليهودي»، و «الشر اليهودي»، لم تؤد إلى كسب أصوات الناخبين. فإبان انتخابات نواب الشعب في الاتحاد السوفياتي لم يستطع أي من المنادين بالحرب ضد الطائفة اليهودية «الوصول إلى الفوز. كما لم تتمكن تنظييات من نمط «باميات» من إيصال عدد هام من مرشحيها.

إن موجة معاداة السامية، والتي بلغت اليوم الذروة، ليست فقط نتاجاً لضعف الهيمنة، وسقوط سلسلة من الحواجز؛ فهي قبل أي شيء محصلة لتحريك قوى من أجل خدمة «أغراض الدولة»، وليس هذه المرة الأولى على كل حال. في عصر «البريسترويكا» حيث تحتل معاداة السامية مكانة خاصة في عبادة اللامعقول الذي يلاقي في البلد نجاحاً غير اعتيادي. يسمي «المحقق الكبير» لدوستوفسكي، ثلاث قوى قادرة على الانتصار النهائي وإخضاع وعي «التمرددين الضعفاء» أي الناس، وهي: الأعجوبة، السر، والسلطة. هذه القوى قد استخدمت بطريقة ذكية ومتناسكة من قبل الحزب الشيوعي من أجل تكوين الإنسان السوفياتي (٢٧). ولكن هزال «السلطة»، في عصر الـ «غلاسنوست»، يتم التعويض عنه بتضخم دور السر والأعجوبة بهما أدوات سلطة.

إن الأيديولوجية السوفياتية التي تعتبر أنها وحدها الصحيحة، بإعتبار امتلاكها لسر التاريخ العالمي، أفردت على الدوام، مكاناً للأعاجيب، والخيال، بشرط أن تقدر على فرضها كظواهر «علمية». لهذا أصبحت الـ «غلاسنوست»، العصر الذهبي للترحال بين «النجوم». فجلسات الطبيب النفسي، الكسيس كاشبيروفسكي التي يعاد عرضها على شاشة التلفزيون المركزي، لا شبيه لها في العالم. فتلفزيونات المبشرين في أمريكا، يقتصر بثها على قنوات خاصة. أما الكسيس كاشبيروفسكي - وبعض تلامذته الأقل شهرة - ، فيظهرون على شاشة تلفزيون الدولة. ثم يعاد بث حلقات التلفزيون المركزي ثانية، من خلال مراكز البث الإقليمية في شتى أنحاء البلاد. ويؤكد أ. كاشبيروفسكي، قدرته على شفاء جميع الأمراض، أمام ٢٠٠ مليون من مشاهديه. أي أن الملايين من المواطنين السوفيات يشاهدون صانع المعجزات الذي يسكن أوجاع المرض في بلد تنقصه الأدوية، والمستشفيات والأطباء، وهم يشاهدون أيضاً في القاعة مداواة بتحضير الأرواح وشفاءات عجيبة لمرضى ينهضون كاشفين عن جروحهم.

وهكذا تؤكد جلسات كاشبيروفسكي بما لا يقبل الجدل، على انه إيجاد حلول لكافة مشاكل البلد، يتطلب صانع أعاجيب.

لقد أذهلت الوكالة الرسمية للأبناء (تاس)، العالم بإعلانها عن ظهور كائنات أتت من العالم الخارجي في منطقة فورونيج. لم يحدث منذ عصر غريغوري راسبوتين، ان كانت البلاد متعطشة الى هذا الحد للأعاجيب. وفي هذا الجو، يصبح من السهل تفسير كل سيئات العالم بواسطة الألاعيب السرية للماسونية، واليهود المخادعون.

منذ قرابة القرن، وكما يشهد دوستيوفسكي، كان الاعتقاد بوجود الشيطان، يعتبر موقفاً رجعياً. وبعد ٧٢ سنة من قيام السلطة السوفياتية، أضحى هذا الاعتقاد موقفاً تقدماً. فالدم، والأرض، واليهود، والماسونية، وعبد الشيطان، والقدر الشيطاني، والمافيا، و «الكومبرادور»، كل هذا أصبح الأفيون الجديد للشعب. به تفسر المأساة، وتعلل، وبواسطته يتم الهروب من معالجة المشاكل الفعلية.

غدت أفكار الكسندر سولجيتسين النقطة الأكثر وضوحاً في البرنامج القومي الروسي. «نحن متعبون من هذه المشاكل العالمية التي لا حاجة لنا بها... علينا أن نتوقف عن الركض في الشارع عند حدوث أي شجار، لنرجع بتعقل إلى بيتنا، طالما نحن نعيش هذه القوضى، وانعدام النظام»، هذا ما كتبه سولجيتسين عام ١٩٧٣ (٢٨). «علينا أخيراً أن نهتم بمشاكلنا الخاصة، وأن ننظم بيتنا ونديره...»، وهذا ما كتبه رئيس المجلس المركزي للاتحاد من أجل نهضة الوطن، ميخائيل أنطونوف عام ١٩٨٩ (٢٩). ولنشر أيضاً إلى هذه المذكرة التي كتبها وزير الخارجية غوتشاكوف، بعد حرب القرم، حيث يؤكد على ضرورة انصراف روسيا من الآن فصاعداً إلى معالجة مشاكلها الخاصة، والأساسية، وتتوقف عن الاهتمام بالمشاكل الأوروبية. على «روسيا أن تنكمش» هذا ما أشار إليه غورتشاكوف (٣٠).

خلفاً لسولجيتسين، يرى ميخائيل أنطونوف في الحاجة إلى «إنكماش» تكتيكاً ظرفياً، يفرضه واقع «الشيوعية التي وعد بها رومانسيو الثورة، والتي لم تكن إلا وهماً، ولم تتوصل بعد إلى بلورة صورة السلف المناسب لهذا الحلم المضيء» (٣١). إن غياب «فكرة جديدة تسمو بها الروح»، في ظل ظروف لأزاحة «الستار الحديدي»، تُعرض للخطر، الصحة الروحية للشعب، على حد قول رئيس «الاتحاد من أجل النهضة الروحية

للوطن». لقد مضى زمن حيث استطاع الاتحاد السوفياتي في ظل «الستار الحديدي» أن يواجه «قوى الكوسمبوليت»، التي تسعى إلى تحويل الشعب إلى دهماء. ولكننا، «أزحنا الستار، دون أن نسلح الشعب... بفكرة تسمو بها الروح»^(٣٢). وروسيا، دون دفاعات، ستجد نفسها وجهاً لوجه أمام قوى الشر المرعبة.

تعتبر سياسة «الانكماش»، والانقطاع عن العالم، والإنكفاء إلى داخل «المنزل» من أجل معالجة الجراح، الشرط الأول لبرنامج الخلاص والنهضة الروحية. أما الشرط الثاني فيتمثل «بالفكرة» الجديدة. بشكل عام، تبدو «الأفكار» المقترحة ذات طابع تركيبي، فهي تتكون من عناصر أضحت شائعة بحكم التجربة أو الكتب المنشورة. ففي أساس هذه «الأفكار» تعابير وكلمات غدت منذ زمن بعيد شعارات معروفة. يدعو أحد قادة «باميات»، د. فاسيليف إلى محاربة اليهود الصهيانية، معتمداً على نصوص كتبها لينين. أما يوري أفاناسيف، فينطلق من «أن الفكرة الاشتراكية تستطيع ويجب أن تبقى الخيط الهادي لعملنا الراهن، غير أنه يرفض «الجوهر الروسي، والبشفي، والدهماني، والثوروي». بهذا المعنى تغدو رؤيته للفكرة الاشتراكية ذات طابع شمولي، وتشبه إلى حد بعيد رؤية سكرتير اللجنة المركزية وعضو المكتب السياسي الكسندر اياكوفليف؛ هذه الرؤية التي تلحظ «أقوال يسوع المسيح حول الأخوة والعدالة، وصولاً إلى الدراسات الأكثر جدة حول الاشتراكية - الديمقراطية الحديثة، مروراً بعذابات لينين التي عاشها قبيل وفاته، عندما شرع في البحث عن مخرج للوضع المتأزم»^(٣٣). ويرفض ميخائيل انطونوف في صياغته لبرنامج «الاتحاد من أجل النهضة الروحية للوطن»، الاتجاهات «الليبرالية»، لأنها لا تقود «إلى الحرية بشكل عام، بل إلى حرية المالكين»، وهي في المحصلة تحول البلد إلى «مستعمرة للشركات المتعددة الجنسية»، كما أنه يرفض أيضاً وجهة النظر التي تعيد جميع المشاكل إلى سيطرة «الأجانب». فبرنامج الاتحاد يستند إلى «التمسك بأفكار الاشتراكية، ولكنها الاشتراكية التي تهتم بالحاجات الحقيقية للشعب»^(٣٤). هذا الأمر، يعني على المستوى الايديولوجي، إغناء الماركسية - اللينينية بالتراث الفلسفي الروسي. ذلك أن الماركسية - اللينينية لا تفي بموضوع «طبيعة الانسان» حقها؛ فروسيا الفترة المفصلية بين القرن التاسع عشر والعشرين، كما يرى م. انطونوف، «كانت القوة الكبرى الوحيدة التي تمتلك نظاماً أخلاقياً وعالياً، له وجهة نظره الخاصة فيما يتعلق بالفلسفة الاقتصادية، وهي وجهة تضرب جذورها في مرحلة

بعيدة في التاريخ - في القرن السادس عشر (محاولات إرمولاي - إراسم) وقبل ذلك عند أسلافهم، معلمينا البيزنطيين»^(٣٥). وفي رسالة موجهة إلى المؤتمر التاسع عشر للحزب أعلنت مجموعة من الكتاب، من بينهم عدد مهم من كتاب إيركوتسك، أن «الرهاب الروسي، الموجّه بحذاقة من قبل قوى الرجعية العالمية وعلى رأسها الصهيونية، حجر الأساس في العدوان الامبريالي، يطال قبل كل شيء روسيا بما هي سارية علم الشيوعية». فمن الواضح إذن بالنسبة لهم أنه «تقع على عاتق فديريالية روسيا وهي اللحمة الأساسية للاتحاد السوفياتي وبالتالي لكل المعسكر الاشتراكي، الرسالة التاريخية الكبرى المتمثلة باستيعاب ضغط الرجعية المتغلّطة من عقاها ويحفظ الصحة الجسدية والأخلاقية للشعب»^(٣٦).

لقد جرت في القرن العشرين، ولمرتّين، تجربة توليف القومية مع الاشتراكية، وذلك في الاتحاد السوفياتي وألمانيا. عام ١٩٣٤ أوضح هتلر ل «هانز يوست»، كاتب العبارة الشهيرة: «عندما أسمع كلمة ثقافة، أشهر مسدسي»، أن القومية - الاشتراكية تستعير من الأحزاب الماركسية والبورجوازية - أفكارها الأكثر تميزاً: «الوعي القومي من التراث البورجوازي، والاشتراكية الحية والمبدعة من الماركسيين». لقد طرح هتلر على نفسه مهمة خلق «دولة كل الشعب، ومجتمع العمال، واتحاد لكل المصالح، إضافة إلى إزالة الفردانية، وتشكيل كتلة جماهيرية دينامية، موحدة ومنظمة»^(٣٧).

الخوف من الفردانية، من الفرد المنفصل عن الجماهير، عن الجمعي، هو الذي يحدد برامج الحركة القومية الروسية. ويرى مؤلفو تلك البرامج في الأفضلية المعطاة للجماعية على الفردانية، خصوصية السمة القومية الروسية أو الرمز الكبير «للفردة» الروسية وكذلك يؤكد مؤرخ عصر النهضة الألماني جاكوب بوركخاردت أنه في العصر الوسيط، «لم يكن الانسان يرى نفسه إلا عضواً في جماعة عرقية، أو في شعب أو في حزب أو في عائلة أو في جماعة حرفية أي بما هو جزء في فئة عامة وكنية»^(٣٨). موسّعاً تلك الفكرة، يلحظ أريك فروم في مجتمع القرون الوسطى، بالمقارنة مع المجتمعات الحديثة، سمة أساسية، ألا وهي غياب الحرية الفردية. ولكنه يعود ليؤكد على أن انسان القرون الوسطى، وإن لم يكن حراً بالمعنى الحديث للكلمة، فإنه لم يكن وحيداً ولا معزولاً بل كان له موقعه في المجتمع: كان فلاحاً أو حرفياً أو فارساً أي أن النظام الاجتماعي، يؤمن، بوصفه نظاماً طبيعياً، شعوراً بالأمان والانتفاء»^(٣٩) ويظهر الخوف

من الحرية - الذي يحلله فروم - يظهر في اللحظة التي يجب أن نترك فيها الشرقة المريحة لما هو جماعي لنخرج الى العالم المنفتح على رياح الحرية الفردية بشتى أنواعها .

ومهما كان تنوعها ، فإن برامج الحركة القومية الروسية تبدي الخوف نفسه الخوف من الفردانية ، الخوف نفسه من عالم منفتح على كل الجهات . لذلك ، وبحسباً عن الأمان ، تقترح «التمركز» والانسحاب الى داخل «البيت» (مع الحذر ، عادة ، من تحديد حدوده) . وهي تلقي دائماً على هذا الطريق ، القومية - البلشفية وذلك بغض النظر عن الاسم الذي يطلق عليها اليوم وهي توليف بين القومية التي تؤمن أمان الجماعة ، وبين الاشتراكية ، التي تعد بأمان المساواة المطلقة .

إن شعباً عظيماً لا يمكن أن ينسحب من العالم وإن يسجن نفسه في دير من أجل متعة التأمل وخلاص الروح . ان زمن جدار الصين قد ولى الى الأبد ولذلك فإن برامج الحركة القومية الروسية تتسم بطابع طوباوي يشوبه الحنين ، إلا أنها لا تخلو رغم ذلك من عناصر تسمح باكتشاف وراء هذا الحنين الى «الهروب» تناذر أعراض برست - ليتوفسك . ذلك أن هذا الهروب ليس إلا مؤقتاً . انه نوع من «التركز» من أجل عودة أفضل ، عودة تتم بقوى جديدة وأفكار جديدة وقيادات جديدة . فهل تنتظر الامبراطورية ؟ .

يعكس برنامج «سيادة» روسيا ، الذي قدمه بوريس يلتسين بعد انتخابه رئيساً للسوفييات الأعلى ل RSFSR ، تلك الرغبة «بالتركز» ، أي بالاهتمام بالشؤون الخاصة ، الروسية حصراً . وتبقى من مآثره الأساسية الامساك بزمام قيادة الحركة القومية الروسية ، التي يخشى أن يقع قسم كبير منها في أيدي زعماء من «نمط قومي - بلشفي» . وذلك حتى في حال استبدلت ، على طريقة يلتسين ، كلمة «بلشفية» «باشتراكية على النسق الاسكندينيافي» .

مع بداية العقد الأخير للقرن العشرين ، تبدو فكرة الدولة الروسية ذات السيادة ، فكرة طوباوية إذ سوف يشكل تحقيقها - على أي شكل كان - ضربة لن تقوم بعدها الامبراطورية السوفياتية . ذلك أن «روسيا ذات سيادة» تستدعي خلق «أوكرانيا ذات سيادة» ، بعدها الانهيار النهائي لآخر امبراطورية في هذا القرن .

الجزء الثامن

مخطط لرسم وجه القائد

«لقد بلغتُ أعلى مقامات السلطة»

أ. بوشكين، بوريس غودونوف

هذه الأعوام الخمسة من «البريسترويكا» هي فعلياً أعوام غورباتشيوف. إن جميع المبادرات تعود إليه، وله كلمة الفصل في كل شيء، وإلى جانب صورته العملاقة يبدو الرجال وكأنهم أقزام، خطبه وتصريحاته تغطي صفحات الجرائد وتملأ شاشات التلفزيون. هو «البريسترويكا» والبريسترويكا هو. الكل يفكر هكذا: فبدونه كانت الأمور لتذهب في اتجاه مغاير. ويكاد أن يعتبر الجميع أن من دونه تعم الفوضى، وتنهار البلاد، وتعود إلى الماضي الكريه. ويمكننا أن نفهم عنوان مجموعة المقالات التي نشرها عام ١٩٨٨، أبرز مناصري الإصلاحات «اينوكو في دانو»، وهو حرفياً «لم نحصل على غير هذا»، حيث ترجمت إلى الفرنسية «لا يوجد مخرج آخر»، بمعنى أنه لا يوجد سبيل آخر أو: ليس لنا قائد آخر.

والأمر كان دائماً على هذا النحو. يطبع الأمين العام القائد المرشد بطابعه العصر الذي يُعطى له. فجميع أسلاف غورباتشيوف فعلوا هكذا كل على طريقته. تحدد شخصية القائد، سيئاته ومحاسنه (إذا استطاع المؤرخون أن يعينوها في المستقبل) إلى حد بعيد، الطراز السائد في البلاد، في لحظة تاريخية معينة، إضافة إلى شروط الحياة التي يعيشها السكان.

وخمس سنوات تمثل فترة قصيرة نسبياً: فقد حافظ ستالين مثلاً على السلطة المطلقة طوال أكثر من ربع قرن. غير أن هذه الفترة ليست قصيرة إلى هذا الحد: فلينين لم يبق في الحكم إلا خمس سنوات، وهو الوقت الذي لزم لورثة لينين كي يركزوا السلطة بين أيديهم، ولتفعيل كل القوة الكامنة في موقع الأمانة العامة. أما ميخائيل غورباتشيوف فقد عرف كيف يستخدم هذه القوة بمهارة: فمما لا شك فيه أنه قد وصل إلى السلطة العليا بصورة أسرع من سلفه. وبعد خمس سنوات على انتخابه إلى الموقع الأول في الحزب، احتفظ بجميع الامكانيات التي يعطيها له موقع الأمين العام وأضاف إليها تلك المتعلقة برئاسة السوفييات الأعلى. وفي آذار ١٩٩٠ انتخب غورباتشيوف رئيساً للاتحاد السوفياتي، وهو موقع لم يكن موجوداً حتى اليوم. فمن الناحية الشكلية القانونية يتمتع غورباتشيوف بسلطة أهم من تلك التي كانت تعود لستالين. فهو من

الناحية القانونية رئيس الحزب والدولة . ولم يسبق أبداً منذ ستالين أن حظي أي زعيم سوفياتي بمثل هذه الشعبية التي يتمتع بها غورباتشوف في الخارج .

وفي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ ، أعطته البلدان الغربية الأفضلية على رئيس الولايات المتحدة . وقد ردد المتظاهرون اسمه في براغ وبرلين الشرقية وفارصوفيا ، عاقلين عليه الآمال للتخلص من قادتهم الشيوعيين . إن صعود غورباتشوف نحو السلطة العليا لا يقاوم ، على الفور عرف كيف يقدم نفسه بوصفه الحل الوحيد مقابل «ركود» العصر البريجيني «وارادوية» العصر الخروتشوفي ، أي المخلص الوحيد الممكن ، القادر على إخراج البلاد من الأزمة . كما ان مهندس «البريسترويكا» لا يواجه أخصاماً جديين . ليس له سوى منافسين «وزملاء» يتظرون بشيء من البرودة لى أفكار السكرتير العام . وهم يُطردون دون رحمة من جهاز الدولة . وتمشياً مع التقاليد التي أرساها خروتشوف تجري عملية «التطهير» دون إراقة دماء : الذين يزعمون غورباتشوف يحالون الى التقاعد . والأمين العام يوجه عادة ضرباته بشكل مفاجيء . فالعديد من الذين لا بد لهم من «مواجهة نهايتهم» يتظرون دورهم طويلاً ، وهم يتعرضون للرصاصات الحمراء من قبل الصحافة ويستخدمون كإندثار للآخرين . وفي خريف ١٩٨٩ وبعد أن غادر ١١٠ من أعضاء «برلمان» الحزب ، غير النافعين للأمين العام ، «ارادياً» اللجنة المركزية وبعد إحالة الأمين الأول للجنة المركزية في أوكرانيا شتريبتسكي على التقاعد ، والأمين الأول في مولدايفيا غروس ، كان يمكن لغورباتشوف القول إن الهدف الأساسي من هذه المرحلة الأولى من «البريسترويكا» قد تحقّق : لقد وقعت السلطة كلها بين يديه . ولو كان لديه متسع من الوقت لاستطاع القائد أن يتأمل ممتلكاته ابتداءً من قمة السلطة . غير انه كثير المشاغل . وفي نيسان ١٩٨٥ عندما قدم الأمين العام الجديد مشروعه للمرة الأولى ، لم يكن الأمر قد تخطى بعد الحديث عن حالة «ما - قبل - الأزمة» ، التي يبدو من السهل ايجاد علاج سريع لها . يكفي ببساطة «إطلاق الدولاب» . ولكن بعد مضي خمس سنوات لم يعد أحد يشك في خطورة الأزمة التي تتجاوزها الامبراطورية ، والايديولوجيا التي تقوم عليها ، والناس المقيمون فيها . وها هنا مفارقة تميّز هذه السنوات الغورباتشوفية الخمس : كلما تسلق القائد سلم السلطة تنقلت هذه الأخيرة من بين يديه ، لتفتت وتشظى الى صراعات اقتصادية واجتماعية وصدامات دامية بين الاتنيات وجهود ميؤوسة لتحريك جهاز الحزب . ورغم ذلك يبقى غورباتشوف ، في

قمة السلطة المعلم الأكبر، أي المرجع الذي له كلمة الفصل على جميع المستويات.

إن مكانة غورياتشيوف وموقعه في ما حصل من أحداث خلال السنوات الخمس الأخيرة لا يمكن إلا أن يلفتا الانتباه إلى شخصية القائد وإلى أقواله وأفعاله. وربما كانت السيرة العديدة التي نُشرت بعيد انتخاب غورياتشيوف إلى الأمانة العامة تُعبر عن أمل بايجاد شيوعي «صالح»، وهو أمل تغذى تقليدياً من هذا اليقين بأنه لا ريب أت. ومما لا شك فيه أن الأسئلة حول القائد الجديد تدور في إطار البلد نفسه. وجميع المقارنات مع أسلافه تصب في صالحه: إنه شاب أو حتى «مراهق» في مقابل بريجنيف، وأندروبوف، أو تشيرنينكو. وقد وعد بارجاع كل شيء إلى نصابه، وأعلن الحرب على الادمان جاذباً الانتليجنسيا نحوه. غير أن المشاكل لم تتأخر في البروز. وبقدر ما كان غورياتشيوف يصعد نحو السلطة كانت المشاكل تزيد وتتشعب وتصبح مقلقة.

أما المشاكل فلا ترتبط فقط بالاستياء الذي تثيره الاصلاحات. إذ من صفات المواطن السوفيياتي الطبيعية الرضى بالحياة البائسة - شرط أن تكون مضمونة - والخوف من أي تغيير. والواقع أن هذه المشاكل لا تنفك تؤثر على مستويات مختلفة - على طبيعة أي انسان. ألم يفتتح تاسيت «حياة اغريكولا»، وهو سرد لما حصل من أحداث في القرن الأول من عصرنا، بهذه الكلمات: «ان ضعف طبيعتنا يفسر لماذا يأتي فعل الدواء أبطأ من الداء وان يكون القضاء على روح المبادرة أسهل من احيائها. ألا يعطي الخمول بعض الشعور بالغبطة... ؟» تلك هي الاسئلة التي يطرحها دعاة الاصلاح.

في آب ١٩٨٧، روى الكاتب الهجائي الموسكوبي أركادي آركانوف قصة كوكب صغير جداً يقع في دائرة تحكم الأرض، وحيث احد عشر مسؤولاً تعاقبوا عليه لم يستطيعوا حل المشاكل. وأخيراً عينت الأرض قائداً الكترونياً، زود ببرنامج يؤمن له الحكمة المطلقة في جميع الميادين ومنطقاً خارقاً حارقاً وقدرة هائلة على التحليل والتركيب، وأعطى له الاسم التوراتي: سليمان. وهكذا أرسل سليمان إلى الكوكب الصغير. وقد رأى «ان الجوهرى يكمن في إثارة روح المبادرة ويقظة الوعي. ويجب لذلك منعهم من أن يتفقوا معي على جميع المواضيع المطروحة». وتبين الرواية لاحقاً كيف حاول سليمان أن يجعل من سكان الكوكب شخصيات مستقلة غير انه فشل رغم قدراته الالكترونية^(١).

وفي الفترة نفسها تقريباً حظي الكاتب الفرنسي كلود سيمون الذي دعي، بوصفه حائزاً على جائزة نوبل، الى معرض ايسيك - كول لمشاهدة الأمين العام والاستماع إليه . . والانطباع الذي أخذه عنه هو أنه «الولد الأخير من سلالة رجال عصابات، قد يكون نشأ في مدرسة في سويسرا (مع هذا الفارق انه لم ينشأ في سويسرا بل أنشأ نفسه بنفسه معتمداً على قواه الذاتية وسط غابة لا قوانين لها إلا الحيلة والعنف - وهذا يستتبع احتياطات جدية للتعامل بواسطة هذه أو ذاك)، وعمل بعد عودته الى البلاد، ودراسته في معهد فوروا حيث أصحاب الملايين ورجال العصابات يرسلون ابناءهم، على اعادة توجيه مصالح العائلة في ميادين التجارة المعتبرة شريفة، أي الأقل عرضة للتزعزع، والتي لا تستدعي هذا المستوى من العنف الساذج، وتكون أعلى مردودية من عمليات الاغتيال على أبواب البارات أو النفي الجماعي . . .»^(٢). ويُنين بدقة تطور الحكم الذي أعطاه أندريه ساخاروف بشأن غورباتشيف تقلبات الموقف تجاه القائد تبعاً لأفعاله وسلوكه. فما ان تحرر ساخاروف من منفيه بتدخل من قبل غورباتشيف في كانون الأول ١٩٨٦، ولم يكن بعد يمتلك حق التعبير في الصحافة السوفياتية، حتى أسر الى محاوره الأميركي بأن الحياة قد أصبحت بها لا يقاس أكثر حرية وأقل ضبطاً. وإننا نتعجب كل يوم مما نقرأ . . .»^(٣).

في آذار ١٩٨٧، وفي كلمة ألقاها في المعرض المقام في موسكو «من أجل عالم خال من السلاح النووي وبقاء الانسانية» دافع الأكاديمي ساخاروف عن مقترحات نزع السلاح مشيراً، إلى أنه «رغم الآليات التقدمية لبسط الديمقراطية وتوسيع الغلاسنوست التي تجري الآن في البلاد يبقى الوضع متناقضاً ودون اتجاه واضح . . .» أما البرافدا التي نشرت وثائق المعرض «الفوروم» فأشارت الى مشاركة ساخاروف إلا أنها لم تأخذ من مداخلته إلا مقطعاً حيث يعتبر أن موقف أنصار IDS^(٤) «متهافت». وفي مقابلة لمجلة تايم أعلن الأكاديمي ساخاروف «إن غورباتشيف وأنصاره الذين يخوضون معركة صعبة ضد القوى المتحجرة الدوغماية والأناية يهتمون بتنزع السلاح . . .» ويضيف ان مصلحة الغرب والعالم أجمع ان تكلل الاصلاحات في الاتحاد السوفياتي بالنجاح. «إن الاتحاد السوفياتي القوي اقتصادياً الديمقراطي والمنفتح سيكون ضمانة هامة للاستقرار العالمي وشريكاً صلباً في المشاكل الشاملة»^(٥).

في ١٩٨٨، بدأ حكم أندريه ساخاروف على مجريات الأمور في البلاد وعلى دور

غورباتشوف ونمطه، يتغير. ففي مؤتمر صحفي في وزارة الخارجية، في حزيران، وصف ساخاروف الأمين العام «برجل الدولة البارز» إلا أنه اعتبر أن «البريسترويكا» لا تذهب بعيداً كما يجب^(٦). وفي أيلول بدأ ساخاروف يتكلم عن اخفاقات البريسترويكا وخاصة عن مشكلة كاراباخ - العليا وعن رفض إدانة تدخل عام ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا والعواقب التي اصطدمت بها الصحف والمجلات لما تحمله من وجهة نظر نقدية. ووصف ليغاتشيف «بالقوة الرجعية الشديدة الخطورة»، التي تحول دون التقدم للامام^(٧). وفي كانون الأول ١٩٨٨ وفي كلمة ألقاها في السفارة السوفياتية في باريس أعلن ساخاروف للمرة الأولى: «أن غورباتشوف يستحق ثقتنا... إنه سياسي بارز صادق لا مثيل له. ولكن رغم ذلك فإن بعض معالم شخصيته تزعجني... مثلاً ميله إلى التسوية اللاديموقراطية وحبه للسلطة الشخصية»^(٨).

وبعد أن أحرز انتصاراً عظيماً في انتخابه كنائب للشعب، اصطدم الأكاديمي ساخاروف علناً بالأمين العام أثناء جلسات المؤتمر، ورفض الاقتراح لصالح غورباتشوف لرئاسة السوفيات الأعلى مقتنعاً أنه لا بد من انتخاب رئيس البلاد بالاقتراع العام. وفي اليوم الأخير من المؤتمر اقترح ساخاروف إلغاء المادة ٦ من الدستور التي تعطي الحزب السلطة المطلقة في البلاد، وأعلن أن ميخائيل غورباتشوف ركز بين يديه سلطة تكاد تكون غير محدودة. وقد حاول غورباتشوف الذي يترأس الجلسة تكراراً مقاطعة خطاب النائب ساخاروف، إلا أنه أكمل حديثه بكل هدوء. حينها عُطل المذياع. وهكذا كان الناس في البلاد يشاهدون الخطيب دون أن يسمعوا الخطاب. وفي خطابه الختامي رأى غورباتشوف أنه من الضروري «الرد على التلميحات التي توحى بأنني حصرت كل السلطة بين يدي». ان هذا يتعارض، كما أكد الأمين العام ورئيس السوفيات الأعلى مع «أفكاري ورؤيتي للعالم وحتى مع مزاجي الشخصي».

في أيلول ١٩٨٩، وفي مقابلة مع صحيفة الموند، أجاب ساخاروف عن السؤال: «ما هو رأيك بميخائيل غورباتشوف؟»: «من جهة أفهم أنه المبادر إلى البريسترويكا، وأنه كان ضرورة تاريخية. أما من جهة أخرى فلا أرى أن لديه موقفاً ثابتاً... حتى إنه لدينا انطباع أن التغيير الواقعي الوحيد هو وصوله إلى السلطة. ربما لا يخلو هذا من مبالغة، إلا أنه يوجد شيء من هذا النوع». وفي تشرين الثاني وخلال حوار هاتفني مع ممثل عمال المناجم المضربين ففي فوركوفا أعطى أندريه ساخاروف جردة عن

«البريسترويكا»: «يبقى في نظامنا الاقتصادي والاداري شيئاً من الستالينية، ستالينية بحلة جديدة أكثر انسانية، ولكنه يبقى من الستالينية، أي نظاماً ضد الشعب، بنية ضد الشعب وعلينا أن نناضل لتصفية هذا الارث الستاليني» (١٠).

لقد قدمت الانتقادات «اليمنية» التي أطلقها كبار «التقليديين» و «الصقور» و «الرجعيين» ضد السياسة الغورباتشيوفية، خاصة في الصحافة الغربية بوصفها ضماناً على ثورية التغيرات التي أقدم عليها الأمين العام. وابتداءً من النصف الثاني من ١٩٨٨ بادر أنصار غورباتشيوف الأشد ولاءً له الى انتقاده بحدة مطردة وبتكرير متزايد على شخصه. فالمؤرخ يوري أفاناسييف بات يتكلم عن «رجل دولة يجمع جميع المناصب التي استطاعت البشرية أن تخترعها من خلال تجربتها» ويكمل قائلاً: «انه على ما أعتقد، الرجل الوحيد في العالم الذي يجمع مهام الرئيس والقائد العام، والناطق باسم البرلمان، والكاهن الأكبر، فوق البيعة! انه حقيقة ظاهرة فريدة» (١١). وفي مقابلة معه يورد ساخاروف عبارة أخرى، لأفاناسييف: «على غورباتشيوف أن يختار بين أن يكون قائد البريسترويكا أو قائد النومنكلاتورا. أما الخبير السياسي ميغرانيان فيختار مقارنة أخرى: «ان غورباتشيوف يلعب دورين في آن معاً: دور لوثر ودور البابا. فمن جهة يتحدى النومنكلاتورا، يريد تدميرها أو تغييرها، ومن جهة أخرى فانه يجسد بنظر الرأي العام نظامها بالذات. وتوضح رغبة غورباتشيوف بلعب جميع الأدوار الكبرى في آن معاً تعاضم الاستياء العام الذي تثيره سياسته. إذ تنهال على الأمين العام - الرئيس - الزعيم - القائد العام - الكاهن الأكبر والناطق الرسمي، التهم بالتردد والضعف وفقدان السيطرة. هذه التهم تأتي من نينا أندرييفا، من أمناء لجان المناطق في الحزب، من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي الذين يعتبرون عادة من التقليديين، ولكن أيضاً من أولئك الذين يوصفون «بالليبراليين». وفي غضون صيف ١٩٨٩، إتخذ يوري أفاناسييف موقفاً قاطعاً: «... إننا وسط الفراغ السياسي الكامل. لقد طال الانهيار أصل بنية السلطة ونواتها القاعدية، ولم يعد للمكتب السياسي أية صلاحية. السلطة المحلية أصيبت بالشلل خوفاً من الانتخابات المقبلة، فيما أصيبت السلطة العليا بفقدان الرؤية». أما أندريه ساخاروف فقد صرّح: «أرى أن سلوكه مترجّح»، وكذلك ذكر الفيلسوف ايغور كليامكين أن نابليون أرسى «بقبضته الحديدية» شروط الوفاق، شروط تسوية الوضع وتناسقه» (١٢). وهكذا كانت فكرة الانتقال من الكليانية الى

الديموقراطية من خلال المرور بفترة من الاستبداد تتعاضد في الأوساط الليبرالية. وقد أكد ميغرانان: «اننا لم نرَ أبداً في أي بلد آخر تحولاً مباشراً من الكليانية الى الديموقراطية. أي أن مرحلة «انتقالية» من الاستبداد كانت دائماً ضرورية» (١٣) وهذا ما نوه إليه سولجينيستين حتى منذ عام ١٩٧٣: «فالأكثر إرهاباً ليس الأنظمة المستبدة بل تلك التي لا يضمنها أي شيء أو أي شخص» (١٤).

شكّل التشهير «بعبادة الشخصية» إحدى الوسائل الأشد فعالية في سياق الصراع على السلطة الذي احتدم اثر وفاة ستالين. ثم ان موجة التشهير بدأت تتلاشى، لتعرف البلاد مراسم العبادة نفسها وإن ملطفة في عهد خروتشوف ومن بعده بريجنيف» (١٥). ولم يُخَفِ الذين صاغوا المقالة حول «عبادة الزعيم» التي نشرت في ربيع ١٩٨٩، ان زمنها لم ينتهِ بعد.

وقد رأوا أن العلة الكامنة وراء حيوية هذه العبادة والذهنية التي لا تنفك عنها تتمثل برغبة «الجهاز الحاكم بالابقاء على هذه الذهنية» ولتدعيم أطروحتهم استحضروا الشخصية الوحيدة التي ما تزال محافظة على هويتها: لينين، وذلك بوصفه، كما قيل، ضد هذه العبادة. ويكفي أن ننظر الى مجموعة مقالات وخطب وتصريحات لينين، وهي بعنوان «سطوة القائد» (١٦) ليتبدد أي شك: فمؤسس الحزب وقائد الثورة هو الذي كان في أصل عبادة الزعيم. ذلك انه لم يكن يتصور الدولة التي أسسها «دون مركزية صارمة»، أو دون قائد يتمتع بسلطة لا حدود لها ويكون كل شيء خاضعاً له.

وخلال هذه السنة الخامسة من البريسترويكا برزت حاجة ملحة ليس للعبادة بل لشخصية قادرة. كما برزت مفارقة: تركز للسلطة في يد القائد لم يُرَ مثيل له من قبل، واستحالة - أو رفض - لاستخدامها. يعتبر التهديد باللجوء الى القوة من الثوابت التي تميز سلوك غورباتشوف. وهو لم ين يردد: يمكننا اللجوء الى القوة إلا انه يضيف عادة: ولكنني لا أريد. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب، ومجيباً على مداخلة أحد المندوبين الذي دعاه الى «الضرب بقبضة يده على الطاولة» أعلن غورباتشوف يمكننا أن نفعل ذلك أيها الرفاق، بالتأكيد. وإذا كنتم متفقين على هذا الأمر، لنبادر به منذ الآن وهذا ما جلب له التصفيق. إلا انه أضاف مباشرة «ولكن ما نحتاجه هو غير ذلك... علينا أن نتخلى عن الأساليب القديمة...» وقد جلب له ذلك التصفيق أيضاً (١٧).

وفي مقابلة مع الماغازين تايم في حزيران ١٩٩٠ ذكر ميخائيل غورباتشوف: «لقد وُجِّهت إليَّ الانتقادات لأنني كنت مائعاً أو ديموقراطياً أكثر مما يلزم... وأخذ علي أيضاً ترددي» ومشهداً أن جوابه لا يهم الأميركيين فقط بل أيضاً الشعب السوفياتي، ردد فعل ايمانه المعتاد: البقاء في الوسط لأن الخطر الرئيسي يأتي من المتطرفين من على «اليمين» و«اليسار» (١٨).

ما من أحد يمتلك الجواب الحاسم: هل أن غورباتشوف لا يريد استخدام القوة أم انه غير قادر على استخدامها؟ ربما يمكنه ذلك ولا يريد؟ أو العكس. هناك حجة تعطى في صالح هذا التفسير أو ذاك: ابتداء من ميول غورباتشوف الديموقراطية، وصولاً الى عدد الفرق الداخلية الضئيل.

ويسمح سلوك غورباتشوف خلال هذه السنوات الخمس بتبيان بعض معالم تركيبته: «من هو؟ يتساءل الصحافي نيقولاي شولغين. زعيم أنيق على النمط الأوروبي؟ بطل التقدم في بلد المحافظين؟ عجيبة جيدة؟ الأندي؟ بطرس الأكبر؟... نحن عرفنا غورباتشوف كداعية الى ثورة جديدة. عرفناه وهو يصوت على قرارات السماح بالمظاهرات (الاجتماعات واللقاءات...) وعلى الحقوق الداخلية». ويمكننا أن نضيف العديد من الأمثلة على هذه اللائحة وهي لن تزيدها إلا تناقضاً والتباساً. أن صاحب مقاله: «من هو» يعرف الجواب: غورباتشوف هو زعيم، رجل ديموقراطي أطلق آلية تسمح بتغيير الكوادر من تحت. «عشر سنوات في ظل غورباتشوف وسوف نجد ازدهارنا السياسي مؤمناً». وأخيراً هذا الاستنتاج: «غورباتشوف هو رجل الوسط النموذجي» (١٩).

ولقد رأينا أن ستالين تمتع بهذه الصفة لغاية عام ١٩٣٤، فالوسطية هي السياسة الأسهل بالنسبة لأي قائد في مرحلة مراكمة القوة. غير أن التكتيك الذي يتبعه غورباتشوف يبدو أقرب الى الحيرة منه الى الوسطية، انه تكتيك متعرج، متردد يعمل بالمفرق. أما أنصاره فيقولون أنه لين. وهذا ما يردنا الى تعريف اسحاق بابل: «إنحناء الخط المستقيم العجيب عند لينين» (٢٠) أي بتعبير آخر الديالكتيك الماركسي - اللينيني، الذي يثمنه غورباتشوف عالياً جداً.

تظهر حنكة غورباتشوف السياسية من عدم تسرعه في المبادرة والحسم. فهو

يفضل التمهّل منتظراً نضوج المسائل أو تعفنها أو حتى زوالها . وغالباً ما يسمح الانتظار لغورباتشيف بقلب وضعية ما لا تكون في صالحه . فهو مثلاً انتظر اثني عشر يوماً قبل التوجه إلى الشعب اثر كارثة تشيرنوبيل . ولكنه يتفنن فيما بعد بلعب دور ضحية التسابق على التسليح النووي وهذا ما سوف يكسبه عطف العالم أجمع والواقع انه في هذه الحالة المحددة تلقى دعماً قوياً من الخبراء الأميركيين لإدارة الحملات الاعلامية ، التي أطلقها الكرملين . وكذلك انتظرت نينا أندرنيسغا ١٢ يوماً قبل أن تلقى جواباً على رسالتها التي قدمت بوضعها برنامج عمل المعارضة المحافظة ، مما دفع إلى بثّ الشك في نفوس المواطنين السوفييات الذين اعتقدوا أن البريسترويكا قد انتهت . وفي المؤتمر التاسع عشر الذي تلا ذلك مباشرة حصل غورباتشيف دون أي مقاومة على ضمانه بانتخابه إلى رئاسة السوفييات الأعلى . وكذلك رافضاً إيجاد حل فوري للصراع بين الأرمن والاذرييجانيين بشأن كاراباخ - العليا اختيار غورباتشيف بعد أن التهب الصراع معاقبة الأرمن ، مليباً هكذا رغبات الاذرييجانيين متلافياً الصدام مع المسلمين الشيعة ، ومبرهنأ أن موسكو تبقى ضمانه لأمن «الأخوة - الأعداء» من شعوب الاتحاد السوفياتي . غير انه يحصل أحياناً - ولكن نادراً - أن يتصرف الأمين العام برودة فعل سريعة ودون أي لبس . فبعد أن حطت الطائرة الألمانية في الساحة الحمراء رأينا كيف أنه طرد وزير الدفاع أثناء انعقاد مجلس الوزراء . وهكذا تحول ضعف نظام الدفاع الجوي السوفياتي في نهاية الأمر إلى مكسب سياسي لصالح غورباتشيف . العمل بطيئاً على مراكمة القوة لتسديد ضربة حاسمة فيما بعد تلك هي ميزة الأمين العام الذي لم ين يَظهر الجهاز المركزي في الحزب . لقد قال هوغو في روبسييار ، إنّ فيه قوة الخط اليميني . أما قوة غورباتشيف فتمثل بالخط «اللينيني» ، خط ملتوي متعرج : جدلي ، «ديالكتيك» .

ويشكل الخوف سلاحاً مهماً في ترسانة ميخائيل غورباتشيف السياسية . فما ان أخذ السلطة حتى نشر الذعر ملمحاً إلى انه من الممكن أن يفقدها . لم يلجأ أحد من أسلاف غورباتشيف إلى هذه الوسيلة بمثل هذا الاصرار رغم أنها ظلت دائماً سلاحاً احتياطياً . فمثلاً في الثلاثينات والأربعينات ساد الخوف من زوال ستالين خشية أن يحل «الصفور» مكانه ثم إنّ الخبراء الغربيين في الشؤون السوفياتية ، وهم أساساً من الأميركيين ، رسموا لوحة خفيفة عما يمكن أن ينتج عن ذهاب بريجنيف بالنسبة للسعي إلى عالم أفضل . كما أننا نذكر أيضاً التعاطف الذي أثاره يوري أندروبوف أينما كان .

وتعرف هذه المشاعر التي تطلقها بحنكة الأجهزة المتخصصة بالداخل لدى المواطنين السوفيات رواجاً خاصاً في الغرب .

إن غورباتشيف يستخدم هذا «الهوس التخويفي» بوضعه محترفاً أصيلاً . ففي اللحظة المناسبة وبشكل منتظم تطلق الصحافة العالمية انذار الخطر . خلال صيف ١٩٨٧ ، إختفى غورباتشيف فجأة ، مما سمح بطرح عدد كبير من الفرضيات ، كل واحدة منها أشد إثارة من الأخرى . ثم عاود ظهوره من جديد بعد ٥٢ يوماً على غيابه ليهدأ النفوس . وفي عام ١٩٨٨ ، باتت نوبات القلق تزداد وتقص بحسب الشائعات الآتية من موسكو وبحسب الجردة التي تعد يومياً في الغرب بأنصار وأخصام الأمن العام من أعضاء المكتب السياسي . «غورباتشيف في خطر» كان ذاك عنوان «Frankfurter Allgemeine Zeitung»^(٢١) ، الذي تردد كالصدى في جميع لغات العالم . وبعد عام ، أي في خريف ١٩٨٩ ، نشرت الواشنطن بوست مقالة تحت عنوان ظهر وكأنه لا مفر منه : «غورباتشيف ، مهدد وبحاجة إلى دعم سريع من قبل الغرب»^(٢٢) إلا أن غورباتشيف لم يكتف بها لعبته الصحافة الغربية من دور الوسيط لحسابه . إذ بادر شخصياً إلى الكلام عن الأخطار التي تحيط به . مباشرة من على تلفزيون موسكو ، أو من خلال ذلك الحوار الهاتفى مع الرئيس الفرنسي ، حيث استناداً إلى صحافي فرنسي حذر غورباتشيف ميران قائلاً : «يوم سيعلن إعادة توحيد ألمانيا سوف تُكرّس الصحف سطرين لتنشر نبأ مفاده أن ماريشالاً سوفياتياً استولى على كرسي»^(٢٣) . لا يوجد في الاتحاد السوفياتي سوى ماريشال فعال واحد ، وهو وزير الدفاع ايازوف ، وهو من أعوان غورباتشيف المخلصين . ولكن مهما يكن فالرسالة واضحة «أمنوا لي الحماية» .

تسمح خمس سنوات من البريسترويكا بإجراء حساب واضح : فشل الإصلاحات الزراعية ، تفاقم الأزمة الزراعية ، صراعات بين اللاتنيات ترتفع حدتها مع الوقت ، ظهور ميول انفصالية ، استياء اجتماعي . . . أي أن سياسة غورباتشيف الداخلية تشكل كارثة حقيقية . فجميع ما حقق من نجاحات ينحصر في السياسة الخارجية . إن التاريخ السوفياتي لم يشهد أبداً من قبل مثل هذا القائد الذي يحظى بشعبية في الخارج أكبر من تلك التي يحظى بها في بلاده . ولكن هناك بعض التشابهات التي تبقى ، في أحسن حال ، غير متوقعة : سوكارنو في أندونيسيا ، ونكروما في غانا .

يمكننا تفسير نجاحات غورباتشيف الخارجية التي تنعكس على الجاه الذي يتمتع به والثقة الممنوحة لسياسته، والدعم الشديد للبريسترويكا بطرق متعددة: قبل أي شيء يتوجه منظمو طقوس عبادة غورباتشيف في المقام الأول إلى الغرب. وبمصطلح عسكري يمكننا القول أن وسائل الاعلام السوفياتية تضع في احداثياتها وسائل الاعلام الغربية، وهي تنجح بصورة باهرة بتنظيمها وضبطها واستخدامها. ثم أن عدة بدائل من السياسات الخارجية تمت صياغتها منذ زمن بعيد من جانب السوفيات، وقد جرى التحقق منها من قبل أسلاف غورباتشيف تحت أسماء مختلفة، منها «التعايش السلمي»، و «الانفراج»... وإضافة إلى ذلك يمكننا القول أن هذا النجاح يعود إلى سبب رئيسي يكمن وراء شعبيته الهائلة في الخارج، وهو أنه قد عرف كيف يتكيف مع الصورة التي كان متوقفاً منه أن يتلبسها. ذلك أنه بالضبط الزعيم الشيوعي الذي كان يتمنى الغرب برونه منذ ثورة أكتوبر: مسالم، ديموقراطي، ليبرالي وخلص في الوقت نفسه للاشتراكية. وعندما كان غورباتشيف يتخذ قراراً باللجوء إلى شيء من القسوة والعنف كان ما يستثيره من محبة يتحول إلى عاطفة جامحة. فما يعتبر في بلد الأمين العام سياسة مترددة يظهر في الغرب الحكمة السياسية بعينها - سياسة حكيمة على النمط الغربي - أي سياسة تقوم على التسوية.

ويحق للغرب أن يكون ممتناً من غورباتشيف وله في ذلك أسباب. إذ لم يجلب الأمين العام إلى بلاده شيئاً سوى امكانية الكلام عن المآسي التي تعاني منها. أما في المقابل فقد أعطى للغرب «الانفراج» ضمن أحجام لم تُعرف حتى الآن، واسترخاء كبيراً في العلاقات الدولية. ومهما قيل: انه لا يتصرف على هذا النحو إلا لمصلحة شخصية، فإن ذلك لن يعدل شيئاً في صورة غورباتشيف الداعية إلى السلام. إن أسطورة ستالين محرر الشعوب لم تزل قائمة حتى الآن، وكذلك الفكرة التي صورت الحرب ضد هيتلر كصراع من أجل بقاء الاتحاد السوفياتي، وتلك التي أظهرت أن شعوب أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى قد «حررت» عام ١٩٤٥ قبل أن تُضم إلى الامبراطورية السوفياتية.

وقد اتخذت صورة «غورباتشيف المسالم» أبعاداً تجاوزت أي حد، عندما انهار المعسكر الاشتراكي في خريف ١٩٨٩ الذي تجري مقارنته عادة «بربيع الأمم». فما إننا نشهد في بلدان أوروبا الوسطى والشرقية - التي أسميت «ديموقراطيات شعبية» بعد أن

دخلتها القوات السوفياتية في ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، و «بلدان اشتراكية» بقدر ما كانت ترسخ السلطة الشيوعية فيها - تغييراً يطل الأنظمة .

كانت بولونيا في الطليعة . إن الانفجار الذي أحدثته «التضامن» في ١٩٨٠ - ١٩٨١ كان مؤشراً على نهوض المجتمع وكشف ، وسط الذهول العام ، هشاشة النظام القائم . إلا أن إعلان «حالة الطوارئ» جمد الوضع ، الذي لن يبدأ بالتفكك من جديد إلا بعد صعود غورباتشوف إلى السلطة في الاتحاد السوفياتي . وتحولت بولونيا إلى حقل اختبار : أقيم نوع من المشاركة بين المعارضة والسلطة في البلاد ، التي ظلت في يد الحزب الشيوعي . وقد تم في إطار «طاولة مستديرة» نظمت في ١٩٨٨ تحديد عالم البنية الجديدة : لقد اتفق ممثلو الحزب و «التضامن» من خلال وساطة فعالة بادرت إليها الكنيسة الكاثوليكية على إجراء انتخابات لممثلين في البرلمان بحيث يكون للمعارضة ٣٥٪ من المقاعد . غير أن هذه الانتخابات سوف تؤدي إلى انهيار جميع الاتفاقات السابقة التي توصلت إليها اللجنة المصغرة في إطار «الطاولة المستديرة» : ونجحت التضامن في نيل أغلبية ساحقة من الأصوات . غير أن هذا لم يمنعها من فعل كل شيء لكي يحافظ الشيوعيون على عدد من المقاعد في «الديت» . وفي ١٩٨٩ تشكلت حكومة برئاسة تادوز مازوويكي . وقد ضمت ، طبقاً لمقرارات «الطاولة المستديرة» التي لم تتوقف المعارضة القديمة عن تطبيقها أربعة وزراء شيوعيين . وقد انتخب الجنرال جاروزيلسكي رئيساً بمساعدة نواب التضامن . وفي خلال صيف ١٩٩٠ تعرض الشيوعيون إلى اقصائهم من الحكومة . وهذا ما أدى إلى تفكك الحزب العمالي المتحد لبولونيا بشكل كامل ، وهو الحزب الذي تولى السلطة منذ قدوم القوات السوفياتية .

أما في تشيكوسلوفاكيا ، فقد «كنست» «الثورة المخملية» السلطة الاشتراكية بصورة فورية ، وأحلت مكانها حكومة مؤلفة من المعارضين القدامى . وقد تردد السيناريو نفسه في هنغاريا وبلغاريا ورومانيا .

وقد شكلت الثورة «الرومانية» التي تابع أحداثها العالم أجمع من على الشاشة الصغيرة وأثارت الحماس العام - هل يمكننا أن نتخيل شعباً يواجه هذه الآلة الأمنية التي لا ترحم في ارتكابها للمجازر الجماعية بمثل هذه الشجاعة؟ النموذج الثاني لوضع مخططات موسكو موضع التنفيذ . لم يعد اليوم موضع شك (والوثائق تشهد على ذلك)

في أن المخابرات السوفياتية والتشيكوسلوفاكية تأمرت معاً للإطاحة بالمحافظين واستبدالهم بالليبراليين على رأس الحزب الشيوعي . ولكن من الواضح أن المخطط قد فشل . غير انه بالمقابل نجح تماماً في رومانيا حيث لم تكن الثورة، كما نعلم، سوى مسرحية هزلية، أو نتيجة مؤامرة استخدمت موسكو لتنفيذها الجيش والمخابرات الرومانية . وبالمقابل فإن المخطط الهادف الى الحفاظ على السلطة الشيوعية من خلال تبديل القادة، لم ينجح إلا جزئياً في بلغاريا . فيها لم يتحقق مثل هذا الأمر، في ألمانيا الديمقراطية حيث كانت المخابرات سلاحاً ماضياً بيد موسكو .

إن المؤرخين سوف يحاولون في المستقبل في معرض تحليلهم «لخريف الشعوب» عام ١٩٨٩، استعراض أسباب التفكك الصاعق الذي أصاب «المعسكر الاشتراكي» في صيغته الستالينية . ويمكننا منذ الآن أن نلاحظ أنه لم يتواجد في البلدان الاشتراكية زعيم واحد يتمتع برصيد ما، وإن هذه البلدان لم تعرف كقادة لها إلا شيوخاً يتشبثون بالسلطة حتى الرmq الأخير، (نشير هنا الى أن شواشيسكو كان الوحيد الذي حوكم على أفعاله)، ولا بد من الإشارة هنا، وفي معرض الحديث عن أسباب التفكك، الى أن الارادة الغورباتشيفية، بأحداثها تغييرات اعتبرت ضرورية على مستوى القمة، لم تنفذ إلا عبر المؤامرات والدسائس السرية . غير أن التفسير الأرجح يبقى في أن الأنظمة الشيوعية في بلدان المعسكر الاشتراكي ماتت ميتة طبيعية بعد أربعين عاماً على وجودها . والواقع أنها كانت قد فقدت القدرة على الاستمرار بدون دعم من موسكو . فما إن توقف هذا الدعم بصورته المباشرة، حتى تناثرت المومياوات كالغبار . حتى أن المخابرات التي اشتهرت بفعاليتها وكانت مرادفاً للرعب والإرهاب بدت عاجزة عن الدفاع عن نفسها أو عن النظام، وذلك عندما فقدت التعليقات التي تبثها موسكو خصائصها التوجيهية الصريحة .

وقد اتضح أنه كان من السهل جداً التخلص من الحكومات الشيوعية أو من الأحزاب الشيوعية نفسها . إلا أن الحياة بدت «بعد ذلك» أشد تعقيداً . فكل من هذه البلدان الاشتراكية سابقاً عرفت مصاعب خاصة . لقد سبق لليون تولستوي أن أشار، في زمانه، الى أن لكل عائلة بائسة طريقته في البؤس إلا أننا نجد بعض النقاط المشتركة التي تجمع بين المشاكل التي تواجهها اليوم الشعوب بعد عشرات من السنين على خضوعها للشيوعية . وقد قدم النهج الرأسمالي الذي انخرطت في سياقه جميع بلدان

أوروبا الوسطى والشرقية بمثابة الترياق القادر خلال فترة قياسية على تحسين شروط الحياة وإرساء قواعد سليمة لها . إلا أن هذه البلدان لا تملك الرساميل ولا الكوادر من مدراء الأعمال ، وهي ترفض بإصرار تفكيك المعايير الشيوعية وغالباً ما تحافظ على المراتب الدنيا والوسطى في جهاز الدولة . لقد فقد الناس هنا في جميع هذه البلدان ، تذوق العمل وذلك لما نعموا به من هذه الحسنة الوحيدة في الاشتراكية : إمكانية عدم القيام بأي عمل .

تُنبئُ الوضعية التي تعرفها اليوم «البلدان الاشتراكية» سابقاً، بما سوف يحصل في الاتحاد السوفياتي، حيث بدأ التسابق نحو الرأسمالية، مع هذا الفارق وهو أن الأمور في أول بلد إشتراكي في العالم ستكون أصعب وأعقد بألف مرة .

أما «هدايا» غورباتشوف الى الغرب، فيبدو أن هناك مبالغة بشأنها : فاقترحاته ومشاريعه وخططه قد أدت الى قلب تصورات الديبلوماسية السوفياتية القديمة والى زرع البلبلة . ويبين كاتب المقالة بعنوان «غورباتشوف للغز» أن الأمين العام غالباً ما «كان في الداخل يضيفي أشكالا قديمة يألفها غالبية الناس، على ما كان يقترحه من تجديدات»^(٢٥) . أي كما لو أنه كان ينجز ثورته بهدوء دون أن يلحظ ذلك الذين يشاركون فيها . وبالعكس يمكننا القول أن غورباتشوف كان في ميدان السياسة الخارجية غالباً ما يُلبس ثوباً جديداً لما يستخدمه من وسائل قديمة . وهذا ما كان يناسبه كلياً . وقد أشار كيسنجر الى أن زعماء الدول الغربية عندما لا يفهمون ما يجري في العالم من أحداث يسارعون الى شكر غورباتشوف . وهذا ما يفسر قدرة هذا الأخير على أن يقلب لصالحه أي حركة تراجعية من تحركاته، ليجعل منها انتصاراً .

تحتل عبارة «الفكر السياسي الجديد» في معجم غورباتشوف السياسي موقعاً مركزياً . وهي تعني، كما يشير في كتابه «بريسترويكا» أن نفهم العالم بطريقة جديدة، وأن نقارب الكرة الأرضية وكأنها وحدة متكاملة . لقد صرح أندريه غراتشيف، المكلف بمتابعة الشؤون الفرنسية من قبل اللجنة المركزية، للتلفزيون الفرنسي : بأن الاشتراكية تبدل جلدها . وهذا قد يصلح دون أي شك كتعريف دقيق لمضمون عبارة «تفكر سياسي جديد» . تمثل المكسب الأساسي لعصر بريجنيف، كما أشار غورباتشوف في تشرين الثاني ١٩٨٧ ، «في تأمين التوازن العسكري الاستراتيجي مع الولايات المتحدة»^(٢٦) .

وإذا ما عدنا الى ثبت الموضوعات في كتاب الأمين العام «مختارات من الخطب والمقالات» نجد في الأجزاء الستة عبارة «التوازن العسكري الاستراتيجي، وسعي الولايات المتحدة والحلف الأطلسي الى كسره»، إضافة الى لائحة بالصفحات حيث تذكر وسائل مقاومة محاولات ضرب مثل هذا التوازن.

وقد صرح غورباتشيف مثلاً بعيد انتخابه: «إنه لا بد من الإبقاء على هذا التوازن بكل الوسائل الممكنة وذلك لصالح السلام، إذ أنه الوحيد القادر فعلياً على احتواء نزعات الغرب الامبريالي وشهيته العدوانية» ويؤكد مؤلف «غورباتشيف اللغز» «أنه من العبث أن نبحث، كما يفعل البعض، عن التناقضات في تصريحات الأمين العام».

لجأ تروتسكي عام ١٩٣٣، وهو يُحدد مفهوم «اللينينية»، الى تعظيم قدرته التي لا مثيل لها على «التغيير الفوري للتكتيك» أي الى اتباع «سياسة الانعطافات العنيفة». أما سالومون لوزوفسكي رئيس البروفيترن، فقد نشر في عام ١٩٢٤، مباشرة بعد وفاة القائد الأكبر، كتاباً بعنوان: «الاستراتيجي الكبير المختص بصراع الطبقات». وقد أشار فيه الى أننا عندما نقارب لينين من وجهة نظر المنطق، لا يصعب علينا أن نجد بعض التناقضات في فكره. إلا أنه يكفي أن نعتمد المقاربة الجدلية لتبين أن ليس ها هنا أي تناقض. ببساطة كان لينين يطبق سياسته القائمة على «الانعطافات العنيفة». ويورد الكاتب بعض الأمثلة: «مثنياً على الدعوة الفورية التي وجهت للجمعية التأسيسية في نيسان ١٩١٧، لجأ لينين ما ان استولى، على السلطة، الى حلها فوراً، فمناصراً للشيوعية الحربية، اختار لينين السياسة الاقتصادية الجديدة. ومناصراً للحرب الثورية، وقع عام ١٩١٨، معاهدة برست - ليتوفسك للسلام، ودخل عام ١٩٢٠ في حرب ثورية ضد بولونيا» ألا تجعل كل هذه الأمور من سياسة لينين سياسة متناقضة؟ سؤال يطرحه لوزوفسكي، ليجيب: «لا يمكن أن تبدو على هذا النحو إلا بنظر بعض رجال الأعمال القابعيين بأمان في مكاتبهم وبعض أنصار ما يسمى بالمنطق وبالعقلانية» (٢٨).

في ٢٦ نيسان ١٩٩٠، تلقى ميخائيل غورباتشيف أثناء لقائه مع عمال تروست البناء «أورال ماش» سؤالاً مكتوباً، ورد فيه أنه يتضح عدم اشتراكه في صياغة «الكتاب المفتوح الى اللجنة المركزية حول الدعم» (١١ نيسان)، وذلك لأن ما يحمله من معنى

يتناقض مع كلام الأمين العام - الرئيس في «كلمة حول لينين» (٢٠ نيسان). وقد أجاب غورباتشوف بأنه شارك بصياغة الكتاب وأنه ليس ها هنا أي تناقض، بل أسلوب دياكتيكي. (جدلي).

أحياناً يضطر رئيس الدولة الى تعديل رأيه بأن يتكيف مع تطور الظرف. وها هنا شيء أكيد، وهو أن هذه التبدلات بالأراء تعكس تعديلات في التكتيك أو الاستراتيجية. وابتداءً من ١٩٨٧، نلاحظ أكثر فأكثر الى جانب عبارة «توازن عسكري - استراتيجي» عبارة أخرى «البيت الأوروبي» التي نحل مكانها تدريجاً، ثم في نهاية المطاف يختفي «التوازن» من مصطلحات غورباتشوف ليسود مصطلح «البيت الأوروبي» دون أي منازع.

تفتح الاستراتيجية الجديدة آفاقاً غير متوقعة، فلا شيء هنا يثبت وجود مخطط دقيق، مكتمل يهدف الى القضاء على الأسرة الأوروبية والحلف الأطلسي أي على وحدة الغرب التي نشأت عام ١٩٤٥. يمكننا أن نفرح لكون «أوروبا الوسطى والشرقية قد تحررتا من الشيوعية، ولقيام حكومات ائتلافية (على النمط البولوني) ولكون المادة التي تنص عن الدور القيادي للحزب الشيوعي قد أسقطت من الدستور. يمكننا أيضاً، وكما سنفعل على الأرجح، أكثر فأكثر، أن نطرح السؤال حول نتائج السياسة الغورباتشوفية. فقد بات عبثاً أو مضحكاً، أن نستمر ببذل كل هذه الطاقة لخلق أسرة أوروبية والذي ربما أدى التوحيد المحتمل للدول الاشتراكية «المحررة» الى تفجيرها. إن التواجد الأميركي في أوروبا من بحر الادرياتيک الى المحيط الهادئ، لن يعود لاستمراره علة فعلية، ذلك أن الاتحاد السوفياتي سوف يطالب (وهو يطالب منذ الآن) والحال هذه، بجناح في «البيت الأوروبي».

يسمح تصور «البيت الأوروبي» بالتعويض بصورة كاملة عما كانت تتخذه موسكو من مواقف في المعسكر الاشتراكي السابق. ولا يغيب عن بالنا أن هناك إضافة الى العلاقات السياسية صلات إقتصادية وثيقة جداً تربط هذه البلدان «الحليفة»، كما يطلق عليها اليوم، أو تشدها الى موسكو. ولا بد من وقت طويل (ومال كثير) لتتعدد صلات جديدة بين هذه البلدان «المحررة» والغرب. آخذين كل هذه الأمور في الاعتبار، يمكننا أن نفهم لماذا أوعز ميخائيل غورباتشوف الى القادة الشيوعيين في البلدان

الاشتراكية بعدم الصمود. ذلك أن أي صمود كان يتعارض مع مخططات - مخططات؟ - غورباتشوف.

تحتل ألمانيا في استراتيجية غورباتشوف الموقع المركزي. ورغم أن ستالين قد لحظ أن «المقارنات التاريخية لا تخلو أبداً من مخاطرة» فإن بعض الثوابت المتصلة بالتاريخ والجغرافيا تبقى فوق أي جدل. والعلاقات الألمانية - الروسية هي من تلك الثوابت. ودون الرجوع إلى القرن الثالث عشر أي إلى تشكل «الهانس»، أو إلى بطرس الأكبر في الثامن عشر الذي أنشأ الضاحية الألمانية في موسكو، أو إلى كاترين الثانية التي دعت إلى شاطئ الفولغا ألمان ميكلانبورغ (وإن أحفادهم الذين طردهم ستالين إلى كازاخستان، عادوا بعد مئتي سنة إلى «موطنهم التاريخي»)، يمكننا التذكير بمحاولات التقارب في القرن التاسع عشر والأخص بسياسة بيسمارك. بعيداً عن إلغاء هذه الثوابت قامت الثورة البلشفية بتدعيمها.

ونمثل أهم حدثين دبلوماسيين في مرحلة لينين، بتوقيع معاهدين مع ألمانيا، في برست - ليتوفسك ورابولو، وذلك بانتظار الثورة العالمية. أما ستالين فقد قال عام ١٩٣١: «إننا نحترم الفعالية الأميركية التي تبرز في كل الميادين: الصناعة، التقنية، الأدب الحياة» إلا أنه استطرد: «ولكن حين يدور الكلام على التعاطف مع أمة معينة أو تحديد الجزء الأكبر من هذه الأمة، فإن عاطفتنا تتجه دون تردد نحو الألمان. وحين ذاك لا يمكننا مقارنة مشاعرنا نحو الأميركيين بها» (٢٩). ثم تلي بعد ذلك معاهدة هيتلر - ستالين والحرب. وها أن السياسة الخارجية السوفياتية ما تزال بعد خمسة وأربعين عاماً في الوضعية التي وصفها ستالين: الاحترام للأميركيين والتعاطف مع الألمان. وربما قادت المقارنة التمثيلية هنا إلى نوع من المخاطرة، ولكن يمكننا إفتراض إنبعث المشروع البيسماركي (١٨٧٢): الحلف بين الأباطرة الثلاثة: الأمين العام والرئيس الأميركي ومستشار ألمانيا الموحدة.

يقول الأميركيون «إن لم تكن قادراً على إحراز النصر، إلحق به». منطلقاً من عدم إمكانية إحراز النصر في ظرف معين، يحقق المخطط الغورباتشوفي في السياسة الخارجية نجاحات باهرة، تصب في صالح الأمين العام. في كانون الأول ١٩٨٩ أعلن الرئيس غورباتشوف وبوش في مالطا، نهاية «الحرب الباردة»، وبدء عصر جديد. وقد اعتبر

لقاء بوش - غورباتشيف رسمياً في حزيران ١٩٩٠ في واشنطن آخر «لقاء قمة». وهذا يعني أن اللقاءات اللاحقة سوف تكون عادية جداً - لقاءات «طبيعية» بين دول «سوية». ودفع لقاء بوش - غورباتشيف في أيلول ١٩٩٠ بالعلاقات بين القوتين إلى مستوى التحالف. ويمكننا القول إنه لو لم يندلع «النزاع العراقي» لكان على غورباتشيف أن يخترعه. في حزيران ١٩٤١، وبعد اجتياح الجيش النازي للاتحاد السوفياتي، أعلن تشرشل في خطاب ألقاه في مجلس العموم أن بريطانيا العظمى باتت تساند المقاومة السوفياتية ضد الجيش الهتلري. وقد برر رئيس الوزراء الانكليزي الذي كان قد حارب الشيوعية منذ ثورة أكتوبر، هذا التغير في الموقف بحكم الضرورة وقد أضاف أنه لو كان الشيطان بنفسه هو الذي أعلن الحرب ضد هتلر لذكره بالخير أمام مجلس العموم. وفي ١٩٩٠ لم تكن الولايات المتحدة في الوضعية البائسة التي تتخبط فيها بريطانيا وهي تخوض، مستفردة، الحرب ضد ألمانيا النازية. وتبعاً لما تقدم فإن كلمات الشناء والمديح الموجهة لغورباتشيف تبدو مفرطة جداً إضافة إلى كونها تأتي قبل أوانها.

في تموز ١٩٩٠، جمع غورباتشيف في الكرملين مجموعة من الاقتصاديين، وهم من دعاة اقتصاد السوق. وقد شرح لهم خاصة، حيثيات سياسته الخارجية: إننا بحاجة إلى القروض الغربية؛ نحتاج إلى عشرين مليار دولار وهذا ما لا يمثل بالنسبة للأميركيين واليابان والألمان مبلغاً هائلاً. «إن المسألة، يقول غورباتشيف، ليست في أنهم يشكون من هذا المبلغ بل في أننا لم نفلح بكسب ثقتهم». ولقد تمت هذه المقابلة مع الخبراء الاقتصاديين بعيد مؤتمر السبعة الأغنى في العالم في هيوستن. أما بوش فأبدى تحفظاً شديداً حيال المشاريع السخية المعروضة من قبل أوروبا الغربية. فما كان من غورباتشيف إلا أن اتصل به هاتفياً لاعباً ورقة التخويف: يمكننا الاستغناء عنك، غير أن ذلك يقتضي شد الفرامل لنبطيء «البريسترويكا» (أنظر: الفكر الروسي في ١٠ آب ١٩٩٠).

وفي هيلسنكي حيث جاء غورباتشيف حاملاً وعداً بدعم السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، أبدى بوش بعد طول انتظار ثقته به. وهذا يعني أن الدنيا ستطرز ذهاباً، وسوف تُبث الحيوية من جديد في خطط البريسترويكا، بعد أن جفت إثر الأزمة المالية. لقد حظيت البريسترويكا بموافقة رسمية من قبل الولايات المتحدة. علينا أن

نشكر الغرب، كتب مؤلف غورباتشيوف اللغز، «الذي عرف بلياقة وصبر أن ينتظر الاصلاحات في الشرق، وكيف يستجيب بعطف لمحاولات الغلاسنوست الأولى، والذي رفع من شأن هذه الكلمات التي قيلت عرضاً في القيم المشتركة بين الانسانية جمعاء. وأوضح لنا بغم أفضل رجاله ما لسياسة غورباتشيوف من فضائل لم نكن نلاحظها أو خفتنا أن نراها»^(٣٠). وما لا شك فيه أن غورباتشيوف كان محقاً عندما راهن على الغرب. ومن جانبه فإن الغرب، قد اختار غورباتشيوف ووضع كل ما لديه من بيض في سلة واحدة، مولياً ثقته في ميوله الديموقراطية ورغبته في تحويل الاتحاد السوفياتي. وقد تحول «ربيع الأمم» الذي أغرق العالم بالغبطة في أواخر ١٩٨٩ الى حجة قاطعة في صالح الزعيم السوفياتي.

يختلف المراقبون في تعريف اللعبة السياسية التي يلعبها غورباتشيوف. فبعضهم يتكلم عن «البوكر»، ولكن غالباً ما يفضل هؤلاء إستحضار لعبة ذات قيمة وطنية في روسيا: الشطرنج. وفي هذه الحال يمكننا القول إن الأمين العام لاجب شطرنج من النوع الذي لا يحضر نقلاته سلفاً. إنه يكتفي بحركتين أو ثلاث، محتفظاً بحق تخريب اللعبة والانتقال الى «جولة جديدة»، ما أن يشعر بأنه بدأ يخسر. فقد منح نفسه على الفور «حق ارتكاب الخطأ»: «علنياً الآن نصاب بالخشية من أن يقترب أحدهم خطأ ما. ذلك إننا نحظى بسيادة وبسلطة قوية، وثقة الشعب الهائلة تمكننا من تصحيح هذا الخطأ أو ذاك باستخلاص العبر للمستقبل»^(٣١). هذا ما صرّح به غورباتشيوف بثقة بالنفس في خلال العام الأول من توليه السلطة. ولم يتخلّ عن هذا «الحق بالخطأ» طوال الخمس سنوات من حكمه، وذلك بحجة أنه يقود البلاد في طريق غير مكتشفة بعد.

وفي خلال هذه السنوات الخمس لم يخسر مبارياته مع الغرب. وقد وازنت نجاحاته في الخارج خيياته في السياسة الداخلية. إن للدعم الغربي أهمية أكيدة، ذلك أن الغرب تحديداً، هو الذي يرى في غورباتشيوف الزعيم السوفياتي الوحيد الممكن والذي لا بديل له، معطياً إياه ما لديه من صلاحية ومُغَدِّقاً عليه البركات التي بات يفقد إليها في بلاده نفسها.

إضافة الى أن غورباتشيوف حصل على دعم هائل في محاولاته لصون الامبراطورية السوفياتية. فهكذا لم تقدم أي دولة غربية على تأييد ليتوانيا عندما أعلنت هذه الأخيرة استقلالها.

الفصل الخامس والعشرون

رئيس الاتحاد السوفياتي

في آذار ١٩٩٠ وصل ميخائيل غورباتشوف الى مقام السلطة العليا . لقد انتخب رئيساً للاتحاد السوفياتي ، وهو منصب لم يكن موجوداً حتى ذلك الحين . من قبل كان قد لجأ الى تجميع كل امكانيات النظام السوفياتي كما صممه لينين ، متخطياً عائق «ثنائية الرأس» (الحزب والدولة) بطريقة تقليدية . ويعتبر ابتداء موقع الرئاسة اصلاحاً مهماً في البنية السياسية .

لقد كفّ الامين العام عن كونه «معلم» الدولة ، وهذا ما كانت عليه الحال بحكم الواقع إن لم يكن بحكم الدستور ، مع العلم انه غالباً ما كان ينتخب رئيساً للوزراء او رئيساً للسوفييات الاعلى للاتحاد السوفياتي .

وقد عملت هذه الخطوة خاصة على الغاء ما كان يعترى النظام السوفياتي من وهن عضوي : فالامين العام المقبل لن يكون مضطراً الى الاستيلاء على السلطة الفعلية او الى «غزوها» . ويمكننا ان نتخيل واقعاً انه سوف ينتخب ، في الوقت نفسه ، رئيساً وان مهامه ستكون محددة في الدستور . ومن الممكن ايضاً ان يفقد منصب الامين العام ما كان له من اهمية . وفي هذه الحال سوف يكون الامين السابع الامين الاخير .

لقد انتخب غورباتشوف رئيساً وإن في ذلك ميزة معبرة من ميزات «البريسترويكا» من خلال خرق قانون سبق له ان وقعه بنفسه . اذ لم يأت هذا الانتخاب ، وبصورة استثنائية . كتعبير عن ارادة الشعب كله ، بل انه تم في مؤتمر نواب الشعب حيث تقدم الامين العام كمرشح وحيد . والواقع ان ترشيحه قد جاء من طرف الحزب .

كان رئيس الاتحاد السوفياتي لم يزل في بداية ولايته ، انه يخطو خطواته الاولى . ولكن تجدر الاشارة الى انه يخطوها على ايقاع الامين العام ، وبنفس حركته ونمط تصرفه .

هكذا نص احد اول القوانين المعتمدة على «الدفاع عن شرف وكرامة رئيس الاتحاد السوفياتي». فقد يجلب التهجم العلني او القدح بشخص الرئيس عقوبة السجن لمدة ستين وغرامة تصل الى ثلاثة الاف روبل. وقد تعاقب هذه الجرائم نفسها، اذا ارتكبت في حقل الصحافة بست سنوات سجن وخمسة وعشرين الف روبل غرامة. ثم أصدرت بعد ذلك القوانين التي ترعى مقر اقامة الرئيس (الكرملين)، وأجره (الفا روبل)، وبيته الريفى . . .

وما أن أصبح غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي حتى شكل لنفسه «مستشارية» ثانية: المجلس الرئاسي. ويبقى عمل هذا المجلس مبهماً بقدر ما هي عليه نشاطات المكتب السياسي. وبعد مؤتمر الحزب الشيوعي الثامن والعشرين اختار غورباتشوف ١٦ شخصاً كاعضاء في مجلسه، بينهم ١٠ من اعضاء اللجنة المركزية (٧ اعضاء دائمين او بالنيابة (رديفين) في المكتب السياسي، و٧ هم موظفون في أجهزة الحزب والشيبيبة الشيوعية، و٦ اعضاء في الحكومة. و ١٥ منهم هم اعضاء في الحزب الشيوعي. و ١١ روس. وقد نقل غورباتشوف الى المجلس، الكسندر اياكوفليف، ورئيسي الكا. جي. بي. فلاديمير كروتشكوف، ورئيس الغوسبلان يوري ماسليوكوف، ورئيس مجلس الوزراء ريجكوف، والمنظر الأول السابق فاديم ميدفيدف، والعضوين السابقين الرديفين إيغنيي بريما كوف، وديمترى يازوف. اضافة الى رؤساء السوفييتات العليا في الجمهوريات الخمس عشرة. اما الاعضاء السابقين في المكتب السياسي الذين اصبحوا اليوم اعضاء في المجلس الرئاسي فقد تم اختيارهم من قبل غورباتشوف شخصياً، ولم يكن انتخابهم الى المكتب السياسي من قبل اللجنة المركزية الا صورياً.

أخذاً من المكتب السياسي من يحتاج اليهم من الرجال، اقدم غورباتشوف على تجديد هذا الاخير، مدخلاً، اليه أناساً يدينون له كلياً باحترافهم. وفي ظل اندهاش الجميع وبناء على اقتراح شديد الاحاح من غورباتشوف، انتخب فلاديمير ايفاشكو، الذي لم يصبح اميناً أولاً للجنة المركزية في اوكرانيا الا حديثاً جداً، انتخب معاوناً للسكرتير العام.

وعلى غرار ما يحصل في المكتب السياسي، فإننا نجد داخل مجلس الرئاسة «ممثلين عن الشعب الكادح». من ابرزهم: الكتاب جنكيز أيتماتوف وفالانتين راسبوتين،

والعامل فنيامين ايارين ، والفيزيائي يوري أوسيبان . وهكذا بات الامين العام - الرئيس يمسك بجميع زمام السلطة . وفقد المكتب السياسي من أهميته ، دون ان يكتب المجلس الرئاسي شيئاً منها بالمقابل . وحده ، الذي يدير المؤسستين ، وازدادت سلطته .

إلا ان ما يحمله تشكيل المجلس الرئاسي من دلالة ، يكمن في ان الحزب قد قبل التخلي عن احتكار السلطة الذي كانت تؤمنه له المادة ٦ من الدستور بصيغتها القديمة ، غير انه تدبر الامر ليجعل من المجموعة المتحلقة حول الرئيس القوة الوحيدة التي تمسك السلطة السياسية في البلاد . وبعبارة أخرى فقد تم استبدال جميع أحجار الشطرنج ولكن دون أي تغيير في صورة مواقعها . وبكلمة : تؤخذ المواقع نفسها وتبدأ المباراة من جديد .

وها ان غورباتشوف يترع الآن على القمة . وقد روى بوريس يلتسين الذي يعرفه جيداً : «تدرجياً . . . استسلم لحبه للسلطة ، لتعطشه الى القيادة . فهذه السلطة التي يمسكها كان يسعى الى التحقق منها في كل لحظة ، وبشكل ثابت . وكان لا بد لتنفيذ اوامره من أن يستقر على الرأي الاخير وان يحسم رأيه . وهو وحده الرأي الصحيح»^(١) .

الفصل السادس والعشرون

كلمات، كلمات، كلمات . . .

«إن جميع الثورات الكبرى تدين بتحققها ونجاحها للخطاب
الشفهي، ولاشخاص استطاعوا بفضل موهبتهم الخطائية جذب
المناصرين . . .»

هيتلر

اكتشف المستشار كول - في لحظة قاسية بالنسبة له - نوعاً من التوازي بين موهبة
غورباتشيف وموهبة غوبلز . «يجب ان لا نصنف غورباتشيف كليبالي، فأمين عام
اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي هو قائد شيوعي حديث . وهو لم يتواجد ابداً
في كاليفورنيا أو في هوليوود ولكنه يتدبر امره من خلال علم النفس الاجتماعي . اما «رجل
العلاقات العامة» غوبلز فكان هو ايضاً منسجماً مع هذا العلم . ولا بد من تسمية
الاشياء باسمائها» .

وقد اجبرت العاصفة التي اندلعت في موسكو إثر هذه المقارنة غير المستحبة،
هلموت كول على نفي تصريحه . غير ان ذلك لا يمنع من ان تكون هذه الكلمات قد
قيلت فعلاً^(١) .

ولا بد لهذه المقارنة بين خبيرين في ميدان علم النفس الاجتماعي ، من ان تأخذ في
الحسبان ما يقوم بينهما من اختلاف في الجوهر: لا يعتبر غورباتشيف خطيباً بارعاً، بل
انه يشير الملل . اضافة الى انه يطنب في الكلام اكثر من جميع اسلافه، ربما باستثناء
لينين . وقد لا تكون ثغرات الخط العام الذي اعتمدته غورباتشيف خلال السنوات
الخمس من حكمه - تناقضاته اضافة الى إقدامه على الغاء بعض القرارات واستبدالها

سريعاً بقرارات نقيضة - سوى عوامل مؤقتة، تسمح له بتحقيق هدفه الاكبر: الاستيلاء على السلطة.

اما في المقابل فيبدو خطاب غورباتشيوف عاملاً ثابتاً: فشله يبقى، اضافة الى كلماته - المفتاح، دون اي تغيير.

يفاجأ المعلق الاميركي روزنتال بان أحداً لا يصدق غورباتشيوف رغم أنه لا يكف عن الترداد بان لا نية لديه بإعدام الشيوعية في بلاده. «ومن الطريف فعلاً ان يرفض الغرب تصديقه بما يتعلق بهذه النقطة فقط»^(٢). متشدداً بموقفه، يعلن غورباتشيوف مرة اخرى أيضاً، في سياق مقابلة مع التايم في حزيران ١٩٩٠: «لقد كنت دائماً شيوعياً وسوف أبقى».

تتمثل إحدى أهم خصائص الخطابة لدى غورباتشيوف بدعوة الى السلام. وهناك نوع من الازدواج لدى الذين رسموا شخصيته، من السوفيات: انه «داعية الى السلم السياسي»^(٣) «ولقد بنى سياسة تعتمد على التسامح والتهدة...»^(٤) ولا يمكننا عندما نسمع او نقرأ خطاب غورباتشيوف الا ان نلاحظ سعيه الى اقتناع مستمعيه ومشاهديه وقرائه. وإن لقب «المقنع الكبير» الذي يعود لكيرنكسي في ١٩١٧ يلبسه لبساً.

يتوجه الخطاب الغورباتشيوفي قبل اي شيء الى الغرب المعتاد على التسويات السياسية. اما في الاتحاد السوفياتي، حيث تبقى غير مألوفة فانها لا تثير الا الازعاج وتبقى دون اي فعالية، خاصة وان غورباتشيوف يبالغ في استخدامها وانها تبدو غير ملائمة مع النزاعات الشديدة الخطورة التي تطل برأسها في البلاد. ومع ذلك فان الامين العام لا يتخلى عنها لما تؤمنه في الخارج من نتائج باهرة، ولأنه لثقة مفرطة بالنفس، يحسب انه في النهاية سيكسب «حصنة الاسد» في اية تسوية.

«اني متفائل، يعلن غورباتشيوف، وان تفاؤلي هذا يرتكز الى معرفة عميقة»^(٥). وعدا هذه «المعرفة العميقة» فاننا نجد في اصل الخطابة الغورباتشيوفية احتقاراً عميقاً للمستمعين. وقد روى كلود سيمون ان احد اعضاء البعثة المدعوة الى الفوروم (وهو اميركي ولم يكن الزوج الثاني لاجل فتاة في العالم، فحسب بل مؤلفاً لمسرحيات ناجحة

جداً حول موضوعات ناجحة جداً) أعلن ، بعد ان شعر بنفسه غارقاً في لجج من الكلمات تحت وطأة تهتك خطابي عظيم : «إنه يحتقرنا . . .» (٦).

إن القادة السوفييات لظالما احتقروا محاورهم . واصفاً احدى محادثاته مع غورباتشيف ، اشار ساخاروف الى انه لم تظهر على وجه القائد ولو لمرة واحدة تلك «الابتسامة نصف - العطوفة نصف المتساحمة» التي كان يبرزها عادة تجاه الاكاديمي (٧) . فهكذا خلال هذه المقابلة التي لم تخل بالنسبة له من قبح ، لم يشأ غورباتشيف ان يضع قناعه المعتاد .

واحياناً يلجأ غورباتشيف ليس دون تبصر، وعندما يكون امام كاميرا التلفاز او مترئساً جلسات مؤتمر نواب الشعب او السوفييات الاعلى ، الى الافصاح عن استيائه وازدراؤه او الى مقاطعة الخطباء .

وهكذا يلعب دور «القبضة الحديدية» من وراء قفاز الحرير . وعلى هذا الاساس يمكننا تفسير غضبه في الساحة الحمراء في الاول من ايار ١٩٩٠ ومغادرته الضريح ساخطاً . يقسم الفن الخطابي الغورباتشيفي كما هي عليه عصا قيصر الى اقسام ثلاثة : خطابات ، مناظرات (حوارات مباشرة مع الشعب) ؛ ومقالات . تعتبر خطابات غورباتشيف بشكل عام من المطولات ولا تخلو من إطناب مضجر ومن تفكك في بنيتها . اما مفرداتها ففي غاية الضحالة ، فيما تلوي لغتها ، التي لا تشد عن النموذج الحزبي ، النحو وتهتك قواعد الروسية . وليس لخطب غورباتشيف ما كان لخطب ستالين من لباقة من حيث مبانيها التي كانت تنقيد رغم بساطة البناء الخطابي ومدوديته ، بقواعد البلاغة الكلاسيكية والوعظ . اضافة الى انها لا تحتوي على تلك الشحنة العاطفية التي كانت تحملها كلمات خروتشيف . وهي ايضاً لا تتضمن مثل خطب ستالين او خروتشيف وإن بنسبة اقل ، استشهادات او صيغ من المأثورات الادبية . مائعة ، رتيبة دون مفاصل او عضلات ، فإنها لاتأتي بتلك العبارات القاطعة القوية التي تصلح لأن تتحول الى شعارات . وعلى غرار الاقتصاد السوفيياتي الذي اعتمد دائماً الكم كمعيار للفعالية ، يستبدل غورباتشيف مواصفات الفن الخطابي بغزارة الكلمات . وهو غالباً ما يستعيد تكراراً نفس الخطابات ودون اي تعديل . وهكذا تكمل البنية البلاغية الغورباتشيفية بصورة رديئة خطاب عصر بريجنيف . تحتل «الحوارات مع

الشعب» موقعاً مهماً في تكتيك غورباتشيوف . في الروايات حول ستالين التي كتبت على حياة الاب والمعلم (روايات بيوتر بافلينكو، ميخائيل بوبينوف . .) كان من المستحب اظهار الرفيق ستالين، وهو يرددش بعطف وتفهم وأبوة مع البسطاء من العمال او مع الجنود في المستشفى العسكري . ولم يكن ذلك الأمر محض الخيال، ذلك ان «خروج» ستالين الأخير «وسط الشعب» يرجع الى ١٩٢٨ وكان ذلك بهدف ارغام الموجيك السييريين على إعطاء قمحهم، وقد ترك له ذكريات سيئة . اما ميخائيل غورباتشيوف فيبدو انه يحقق اسطورة ستالين واحتكاكه بالشعب . كان نيكييتا خروتشيوف يحب ، بالمناسبات، المباشرة بحوار مع «الشعب» في الكولخوز او المصنع . الا ان غورباتشيوف حول هذا النوع من «الحوار» الى ممارسة منتظمة .

يجري الحوار على الطريقة الغورباتشيفية، اما من خلال المقابلة - وما من زعيم سوفياتي أعطى مقابلات بقدر ما اعطى الامين - الرئيس - واما في صيغة حديث حوار بين الشعب والقائد . ويبقى روتين هذه الحوارات مضبوطاً تماماً . فاذا جرت في الشارع (كما يحدث غالباً)، فان الصور التي تخلد هذه اللحظة التاريخية تظهر دائماً المشهد نفسه : في الوسط هو، وحوله بعيداً قليلاً، تترك مساحة فارغة ترمز الى المسافة بين القائد والشعب : الجماهير . وقد تبين من خلال نشر مجلد (او عدة بعد خمس سنوات) يضم هذه الحوارات، ان المسائل المطروحة وبغض النظر عن اختلاف الاماكن الجغرافية لا تتغير ابداً . حتى انه يتابنا شعور عند قراءة هذه «الحوارات» بوجود إخراج مسبق، وبأن هناك بين الحشد عدد من «طارحي الاسئلة» الذين يواكبون غورباتشيوف في جميع تجولاته .

يأسف بوريس يلتسين، الذي يعرف جيداً «المطبخ السياسي» السوفياتي شخصياً «لكون غورباتشيوف لا ينظم ابداً اللقاءات . اذ قد يكون لذلك فائدة كبرى له، أي افضل من ان يتوجه الى اشخاص يجلبون له بشاحنات الركاب ويفرضون على الناس بوصفهم يمثلون الجماهير الكادحة . . . (٨) . تتعلق موضوعات الاسئلة بالشؤون الراهنة كان النصاب أوستاب باندر يتخب لكونه مضطراً الى التكر بمظهر مرزيان هندي لانه كان يسأل دائماً الاسئلة نفسها : هل صحيح ان المسيح كان يهودياً؟ ولماذا نفتقد الى الزبدة؟ اما غورباتشيوف فكان يتخلص من الاجابة عن السؤال حول المسيح، علماً بانه سئل في لينغراد عن فهمه للدين او حتى مباشرة : «هل تؤمن شخصياً بالله» وكان

جوابه عن السؤال بسيطاً: «اني اتقيد بالمواقف التي يملئها دستورنا». اما جوابه عن السؤال الثاني فكان قاطعاً: «كلا، بالطبع! أعرف فقط أنني عمدت وانه قد جرى تبديل اسمي بهذه المناسبة»^(٩). وجمالاً تدور الاسئلة دول المسائل التي تؤرق الناس: طوابير الانتظار، القحط، أزمة السكن، التعاونيات التي تستشير الاستنكار. أصناف المنتجات الرديئة... اما الاجوبة فلا تأتي باي جديد ولا تضيف شيئاً على ما يقال في الخطب والمقالات. وقد اشار نورا بوهكس الخبير بالاعلام السوفياتي الى ان الحوار قد تحول الى ميزة هامة لا تنفك عن التقنية الصحافية الخاصة بالغلاسنوست.

فالحوار «يفترض تكافؤ الأصوات المشاركة به، وتلافي الأجوبة او الأحكام القاطعة وهو يخلق جواً من المشاركة، ويؤمن نوعاً من التوجه المباشر الشخصي الى الذي يتلقى الرسالة»^(١٠) ويضيف نورا بوهكس ان الحوار يكشف غلبة «الوظيفة التوسطية العلاقاتية التي يضطلع بها الاعلام على وظيفته الإبلاغية».

اتاح أسلوب «الحوار» لغورياتشيوف بان يثبت «صدقه» و«انسانيته» واهتمامه بالناس، وبان يكون ديموقراطياً أكثر بقليل مما هو عليه في مداخلاته الرسمية، دون ان يتخلل عن صورة الاب الذي يعطي درساً لاولاده الطائشين، فهكذا شرح مثلاً للكوخوزين ان «المهمة رقم واحد هي أن نحصد في الوقت المناسب كل ما نبت من زرع...»^(١١). وعندما ذهب الى مخزن جرى تمويهه لهذه المناسبة، استعلم باهتمام: «توجد دائماً مثل هذه الكمية من الاشياء؟»^(١٢). او ايضاً، قالها وكأنها ينطق بالحكم: «السكن شيء مهم جداً خاصة بالنسبة لعائلة فتية»^(١٣)، وكذلك فانه يسمح بالقاء نظرة على عالمه الخاص «في فترة، رايسا ماكسيموفنا وانا، قرأنا دوستويفسكي...»^(١٤). ثم انه يتكلم عن ذوقه الفني: «بالفعل الطبيعة هنا رائعة. او اكاد اقول «طبيعة جذابة»^(١٥).

وفي كل لقاءاته بالشعب يطرح ميخائيل غورياتشيوف بشكل ثابت سؤاله الكبير: «أريد أن أطرح عليكم هذا السؤال: هل تريدون فعلاً بريسترويكا حقيقية؟ أو تفضلون ان تجري الامور بهدوء؟» ودائماً تتعالى الاصوات «نريد البريسترويكا!»^(١٦) انه حوار مبتور. وفي ريفا يقول غورياتشيوف: «هل لديكم شكوك حول سياستنا» - الاصوات: «كلا...» - غورياتشيوف: اذن انتم تؤيدونني «الاصوات: كلياً»^(١٧).

في نورمانسك - صوت: «هنا عندنا الجميع يؤيدون البريسترويكا»، غورباتشيوف «نعم ألاحظ ذلك. اني ألاحظ ما تقومون به. وهذا ما هو مطلوب الآن.» (١٨).

في موسكو - غورباتشيوف: «إن آراءكم كعمال مهمة جداً بالنسبة لنا. اعتقد اني فهمت من كلامكم ان البريسترويكا قد تجذرت في الوسط العمالي» (١٩). في سيبيريا - اصوات «نريد ان تقود شخصياً البريسترويكا الى هدفها. نحن نؤمن بها».

غورباتشيوف «الرأي العام؟»

الاصوات: «بالاجماع!»

يؤدي الحوار ولعبة الديمقراطية الى تنامي شعبية القائد، ويؤمنان له دعم الشعب كله، وهو ضمانه على استقلاليته التامة. زعيم الحزب، رئيس الدولة، «فوق البيعة» خطيب وحبيب الجماهير. واحد في ثلاثة، هذا هو السكرتير السابع، او على الاقل هذا ما يود ان يكون. وها هنا بالذات الهدف الذي يتوخاه من بلوغه اعلى مقام في السلطة.

محللاً عشية قمة مالطا مصطلحات الرئيس بوش، اشار صحافي سوفياتي الى ان كلماته المفضلة هي: «التبصر» و«الحذر».

وغورباتشيوف من ناحيته لا يمتلك معجماً ثرياً فإذا استثنينا بعض الكلمات «الشخصية» الصغيرة مثل هذا «الدولاب» الذي يعد «باطلاقه» عام ١٩٨٥ والذي يعلق عليه دائماً الآمال الكبيرة لما سوف يحققه بعد خمس سنوات، او هذه العبارة: «زيادة الفعالية»، فالامين العام يتقيد بمجموعة من المقدرات القديمة المجربة. فحتى الكلمات المفاتيح في «الفكر السياسي الجديد» تبدو معروفة منذ سالف العصر والأوان وقد استهلكت كثيراً: «بريسترويكا»، «غلاسنوست»... تظهر الكلمات تتقدم على المسرح ثم تعاد الى الكواليس، لتقدم من جديد عند الاقتضاء. اما المفرد الآخر من الثلاثية التي ترمز الى ولادة البريسترويكا - التسريع فقد غاب اثر الفشل الذريع الذي لاقته الاستراتيجية الهادفة الى زيادة الانتاج. ثم انه عاد ليطفو على السطح في خريف ١٩٨٨، من خلال الوعد بتحسين سريع للوضع التمويني، ولكنه ما لبث ان غاب مرة اخرى في بداية ١٩٩٠، بعد محادثة جديدة فاشلة لاجراء «اصلاح جذري».

وفي معجم غورباتشيوف تسترعي الكلمات التي تحدد تكتيكة - الذي يميل الى

المهروب والتعرج والانعطافات العنيفة - الانتباه بشكل مخصوص . فهو مثلاً يميل الى استخدام كلمة محاولة/ مبادرة بصيغة الجمع كمرادف لكلمة سبيل او طريقة لحل المشاكل . وعندما يعلن : «إن كل شيء لا يسير كما يجب» علينا ان نفهم بذلك ان «لا شيء يسير كما يجب» وعبرة «عدم الفهم» تتحول في مصطلحة الى «فهم غير كاف» .

ونجد عدا الثلاثية الجديدة ، ويمثابة لوازم تصف إستراتيجية العبارات : «الفكر السياسي الجديد» ، «العامل الانساني» ، «الاشتراكية الانسانية» «الحضارة» . ومن مآثر هذه الكلمات انها غائمة الى حد بعيد الى حد انها تقول كل شيء ولا شيء في آن معاً .

ككل اسلافه يلجأ غورباتشوف الى اسلوب اسامي من اساليب البلاغة السوفياتية : النعت الذي يغير ، وكما يحلو للخطيب ، دلالة الاسم . فهكذا بعد الاشتراكية «المتطورة» «الناضجة» الخاصة بعصر بريجنيف ، اتى زمن الاشتراكية «الانسانية» . «اتنا نبني اشتراكية انسانية» ، اعلن الامين العام في مقالة نظرية توجيهية مشيراً الى ان «الفكر الاجتماعي لم يتخط اجمالاً الفكرة الماركسية القائمة على بناء «مملكة الحرية»^(٢١) . الا ان الاشتراكية الانسانية القائمة على قاعدة الماركسية - اللينينية التي يقترحها غورباتشوف كهدف «البريسترويكا» كانت دائماً الغاية التي يسعى اليها القادة السوفيات . وفي عام ١٩٨٣ أُلْمِشدد «مختصر القاموس السياسي» على ان «الانسانية الحقيقية هي الانسانية الاشتراكية التي تجد أصلها في الماركسية اللينينية»^(٢٢) .

يبقى الترداد في نصوص غورباتشوف عنصراً تصعب الاحاطة به فهنا ايضاً يظهر كتمليذ مخلص للمدرسة البلاغية اللينينية - الستالينية . مع فارق وهو ان الترداد في بناء الخطاب اللينيني تسمح برسم مربع لتكثيف الانتباه ثم لخصر الفكر في دائرة ذات مخرج وحيد . كان لينين يستخدم مثلاً الافعال في الازمان الثلاثة : كان ، يكون ، ستكون . وقد كان لكلام ستالين الذي نسجه على منوال قائد الثورة أثر التنويم المغناطيسي او المخدر ، حين جاء ترداداً دون ككل لبناء لغوي واحد . مثلاً : لم نعمل . . . عملنا الآن على . . . لم نعمل . . . عملنا الآن على . . .^(٢٣) . فيما لغورباتشوف أساليبه المختلفة . فهو يحاول ان يعطي انطباعاً بالانفتاح «والتعددية» من خلال ترداده لكلمة واحدة في مزاجات لغوية مختلفة دون ان يطرأ اي تغيير على دلالتها . فهو يستخدم في مقالاته «الفكرة الاشتراكية والبريسترويكا الثورية» ، كلمة «حضارة» عشر مرات : «في

اطار المرحلة الراهنة من تطور الحضارة الانسانية»، «لقد قدم ماركس وانجلز الاشتراكية العلمية بوصفها التاج الشرعي لتقدم الحضارة ولعملية الابداع التاريخي التي انجزها الشعب»؛ «على المستوى العام للحضارة ما نزال تقريباً في العصر التقني السابق»؛ «الآلية العامة للحضارة»؛ «إن الشعاع الموجه لمبدأ صراع الطبقات يتناسب مع اتجاه تقدم الحضارة على طريق الحرية والسلام»؛ «الشروط الطبيعية للحياة الضرورية لاي حالة حضارية»؛ «يتطور العالم الاشتراكي باتجاه الاهداف المشتركة الخاصة بالإنسانية جمعاء وذلك في اطار حضارة واحدة، ودون ان يتنكر، رغم ذلك، لقيمه ومفاضلاته المخصوصة»^(٢٤). ان فكرة المؤلف واضحة: الحضارة تبدو بنظره بمثابة الانضمام الى الانسانية (فعبارة انسانية، المشتركة الخاصة بالإنسانية جمعاء، غالباً ما تردّدان في المقالة بوصفها مرادفين لكلمة «حضارة») الذي لابد للنسق السوفياتي من ان يقدم عليه، ذلك ان هذه الانسانية تمثل مرساه الطبيعي؛ حتى وإن احتفظ «بقيمه ومفاضلاته المخصوصة» اي، بعبارة اخرى، بالماركسية - اللينينية بوصفها «فهم للعالم ومجموعة من التوجيهات الثمينة».

أما الحزب الشيوعي «كطليعة سياسية للمجتمع السوفياتي»، فتعين مهمته «بتفسير المجريات الراهنة وتحديد واقتراح السياسة المطلوبة، اي بالقيام بنشاط ريادي.!! وذلك حتى وإن لم يتخل عن «الفكرة الجماعية اي عن الافضلية التي يعطيها للملكية الجماعية» او عن «الفوائد الجماعية من المركزية والتخطيط على نطاق واسع»^(٢٥).

مما قيل واعيد قوله: الانسان هو الأسلوب أو أيضاً أرني كيف تكتب اقول لك من أنت. باهت، مسطح، رمادي، هو اسلوب خطب غورباتشيف، اضافة الى حواراته ومقالاته، يخدم هدفه بصورة رائعة: انه يموه افكار صاحبها ومآربه الحقيقية من ورائها، علماً بان هذه المآرب ربما لم تكن واضحة تماماً بالنسبة له. ويكشف أسلوب غورباتشيف أوجهه المختلفة التي بتبدل من يتوجه اليه. مشاهدأ، في موسكو، في الحادي عشر من كانون الاول ١٩٨٩ من على الشاشة الصغيرة، غورباتشيف في دور رئيس مؤتمر نواب الشعب، وهو يعامل اندريه ساخاروف، الذي سيموت بعد يومين بقساوة واحتقار ودون شفقة. ستصيب الدهشة احد الصحافيين الاميركيين من ان يكون هذا الشخص هو نفسه الرئيس غورباتشيف الذي لم تفارقه الابتسامة في مالطا

معبرة عن عطفه نحو الانسانية جمعاء . إن في غورياتشيوف شيئاً ما من الممثلين : انه يضع عدة أقنعة واحداً تلو الآخر، وقد صرح المخرج الشهير سيرغي بارادجانوف، وهو حاذق في التقاط المفارقات، في اثناء زيارة له الى فرنسا، بانه سوف يأخذ غورياتشيوف بيده، ما ان يخسر موقعه في الكرملين، ليلعبه دور هاملت، على المسرح، اذ يرى المخرج ان هذا الدور «يلبس» غورياتشيوف «لبساً»، وبشكل رائع، حيث نعلم ان امير الدانمارك قد صفى رغم تردده عدداً كبيراً من شخصيات المأساة الشكسبيرية .

يأتي الانطباع بان الخطاب الغورياتشيوفي قناع ، وان اللغة السوفياتية تستخدم لحجب الواقع من الازدواجية بين نمط التعبير التقليدي وسراب التغيرات الجذرية التي تفتتح عصراً تاريخياً جديداً . إن بعض الكلمات الاليفة - ديموقراطية، بريسترويكا، غلاسنوست - قد عرفت نوعاً من التضخم على حساب كلمات أخرى لا تقل عنها ألفة . فالآن مثلاً لم تعد تُغنى الا نادراً اغنيات مثل «موسكو أعدل مدنية في العالم» . . كما باتت تثير الضحك شعارات مثل : «المجد للشعب السوفياتي العظيم باني الشيوعية» . أو «تقبل منا يا وطن حامضنا الكبيرتي»، أو «ثورة اكتوبر أعظم حدث في هذا القرن» الا ان هذه الشعارات التي هزئت دون رحمة من قبل زينوفياف، وهو ما جلب له الشتائم من كل حذب وصوب، ما تزال تزين جدران بعض المدن والقرى السوفياتية . وكذلك لم يزل غورياتشيوف نفسه يردد ان «ثورة اكتوبر هي أعظم حدث في هذا القرن» .

هذه الازدواجية بين الكلمة والمشروع، ولدت بعد أن جرت مقاربتها بوصفها قناعاً، السؤال الشهير الاتي: هل يعتبر غورياتشيوف صادقاً؟ سؤال لم يطرح ابداً بالنسبة للينين وورثته، اذ كل شيء يتعلق بهم كان واضحاً . كان ستالين يبدو حيناً ليبرالياً وحيناً لاصاً وأخرى ثورياً . وما من احد شكك بارادة خروتشيوف في الاصلاح او بدعوة بريجنيف الى السلام بوصفه المبادر «بالانفراج» .

اما غورياتشيوف فمن المتعذر الامساك به . انه يقول ويفعل شيئاً آخر ثم يعلن عن شيء ثالث . اثناء رحلته الى فرنسا أدهش باجابته الصادقة، مدير الاومانتيه الذي سأله: «هل ما يزال هناك طواير انتظار؟» اجاب: «نعم» ووضح: «خاصة بالنسبة للمنتجات الكمالية الفاخرة، وهي التي لم يلب الطلب عليها بعد»^(٢٦) . انه النموذج

المثالي المعبر عن اسلوب غورباتشيوف، صراحة كاذبة وكذبة حقيقية. يروي بعض المسافرين الذين اقامو في مدينة بورجومي الجيورجية ان عملية الغاء الستالينية جرت بالاسلوب الغورباتشيوفي الصرف: على نصب لستالين استبدل اسم الاب الصغير للشعوب باسم سيرغي كيروف. فهكذا اختفى ستالين دون اي كلفة! تعويذة حقيقية: إنها كلمة تتردد في كل خطب الامين العام اضافة الى مقالات ومداخلات انصار البريسترويكا «عدم الارتداد»: (لعودة عن . . .) لقد باتت «البريسترويكا» اضافة الى تجديد حياة المجتمع على اساس الاشتراكية الانسانية الديمقراطية من الامور التي لا عودة عنها (عدم الارتداد). هذه الصيغة السحرية التي نجدها في هذا التصريح لغورباتشيوف امام المؤتمر الثاني لنواب الشعب^(٢٧). هي تنويع من الشعار الاشد شهرة وذيوعاً في المرحلة السابقة: «الشيوعية أمر محتوم».

لقد زودت الاجزاء الستة (حتى الآن) من «مختارات من خطب ومقالات غورباتشيوف» بفهرس تحليلي. انها «العودة الى لينين». اذ ان مؤلفات الامناء العامين من ستالين وحتى تشيرنينكو لم تكن تحتوي على مثل هذا الفهرس. غير انها عودة ناقصة، ذلك اننا نجد في مؤلفات لينين ايضاً فهرس بالاسماء. وهذا ما يغيب مع غورباتشيوف، وكأنها كتبه الستة غابة جرداء يطوف فيها خيال فلاديمير ايليتش وحيث لا يظهر شبح ماركس الا نادراً. وبالمقابل يطفح الفهرس بالعبارات والمصطلحات والشعارات الاليفة: دور الشيوعيين الطليعي، رفاهية الشعب السوفياتي، التربية الايديولوجية السياسية، في العمل، في الاخلاق؛ الشيوعية؛ بناء الشيوعية؛ الصداقة بين الدول الاشتراكية؛ ادارة الاقتصاد؛ البريسترويكا الاقتصادية الجذرية؛ السعر، تحديد الاسعار، اصلاح الاسعار. . . تلکم هي العناوين التي تملأ الاجزاء الستة من اولها الى آخرها.

فالحقل الدلالي للبلاغة الغورباتشيوفية لا يعرف التغير.

الخلاصة

«الاعتراف بالاستبداد، في هذا البلد، يكاد أن يكون تقدماً».

كوستين.

«يتمثل هدف البريسترويكا في تحويل زربية الى شقة فاخرة من

ثلاث غرف، دون ترحيل الخنازير».

قصة تشيكية.

اشتكى الصحفيون في أواخر عام ١٩٨٩، من عجزهم عن متابعة وضعية متقلبة ومتغيرة. ويرددون: التاريخ يسير. وباستطاعتهم، اليوم، ان يؤكدوا بأنه يركض. لقد عرف التاريخ أمثلة متشابهة. ألم يوصف عام ١٨٤٨، بـ «ربيع الأمم»: بدءاً بالانتفاضات الشعبية في المقاطعات الايطالية التابعة للنمسا في كانون الثاني، التي تبعتها في شباط المظاهرات الجماهيرية في باريس، التي أجبرت اسرة بوربون على ترك العرش؛ ثم تلتها اضطرابات فيينا، التي أزاحت مترنيخ عن سدة السلطة في شهر آذار؛ اما شهر نيسان، فقد مكّن هتغاريا من اعلان دستورها؛ ولم يطلّ شهر أيار على مدينة برلين، حتى كانت الجيوش النمساوية قد طُردت منها تحت ضغط المظاهرات، مفسحة المجال امام حكومة ليبرالية؛ وفي الشهر ذاته، شهدت براغ حملة جمع توقيعات واسعة مطالبة بحقوقها الوطنية؛ فيما كان البرلمان الالماني يناقش وحدة البلاد؛ وفي تموز، تمكنت الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية النمساوية من تأسيس برلماناتها عن طريق الانتخابات. ضمن هذا المناخ، ظهر كتاب، «بيان الحزب الشيوعي» الذي عرف مجداً عظيماً، مفتحاً الكلام بما يلي: «إن طيفاً يلاحق أوروبا، هو طيف الشيوعية». ثم تأني الثورة المضادة، التي تمكنت مع نهاية عام ١٨٤٩، من استرجاع كافة المكتسبات الليبرالية، معلنة انتصار الرجعية.

شكل ربيع ١٩٤٥، محطة جديدة في التاريخ، شهدت انقلابات كبرى للأمال، وحالات جارحة من فقدان الأمل. فقد تمكن الجيش السوفياتي، بعد تحطيم الجيوش

النازية في اوربوا الوسطى والشرقية، من تأسيس أنظمة شيوعية في فرصوفيا، وبراغ، وبرلين، وبودابست، وبوخارست... لقد استوطن شبح الشيوعية اللحم - هذا اللحم الذي سيستمر نازفاً لعدة عقود من الزمن.

يغري خريف ١٩٨٩، بعقد مقارنة مع «ربيع الأمم». فقد أجبرت المظاهرات الشعبية، التي انفجرت في عواصم المعسكر الاشتراكي، الشيوعيين على التخلي عن احتكارهم للسلطة، وقبولهم بإقتسامها مع المعارضة، هذه المعارضة التي انتصرت حتى قبل ان يترسخ وجودها فعلياً. وفي الايام الأخيرة من عام ١٩٨٩، رفع المتظاهرون في بوخارست الشعارات التالية: عشر سنوات في بولونيا، عشرة اشهر في هنغاريا، عشرة اسابيع في المانيا الشرقية، وعشرة أيام في براغ. كذلك فإن ايام تشاوشيسكو، عبقرى الكاربات، قد أصبحت معدودة. غير أن هذه المقارنة، مهما بدت مغرية، فإنها تطرح جملة اسئلة. فهناك نقطة هامة تستدعي الانتباه: لما هذا التشابه بين السيناريوهات في كل من بودابست، وبراغ، وبرلين، وبوخارست (بولونيا هنا تشكل الاستثناء)، حيث تمكن المتظاهرون من تكتيس المسؤولين الشيوعيين في كل المناطق، الذين بدؤوا في السابق وكأنهم مستمرون الى الأبد. هذا الأمر يسمح بالاقتراض بأن مفجر التغييرات قد اتخذ قراره في موسكو بإيقاف الدعم لهونيكر، وهوساك والآخرين.

أمل غورباتشوف، عند قبوله «بالبريسترويكا» في المعسكر الاشتراكي، بأن تتحمل المعارضة عبء الاصلاحات السياسية. مراهناً في الوقت عينه، على غياب البرنامج عند المعارضة، العاجزة عن بلورة خطة تغيير للمجتمع بعد عشرات السنين من الحكم الشيوعي، وعلى الانقسامات داخل المعارضة نفسها. ويظهر المثال البولوني، الذي يصفه غورباتشوف «حقلاً اختباراً»، ان هذه الحسابات لها ما يبررها. كتب الاعلامي البولوني «ويتولد شارلامب»، في أواخر عام ١٩٨٩ قائلاً: «يصعب تحمل معرفة نصف الحقيقة، حول وضعية البلد. فبعد كل حساب، نشهد رجالنا يسرون يدأ بيد، مع الذين دمروا البلاد؛ إنهم يمشون بخطوات راقصة، وإتفاقهم يزداد صلابة كلما ازداد وضع البلد تدهوراً»^(١). ويبرهن غورباتشوف، على عامل الوقت من اجل عملية ترميم اقتصاد البلدان الاشتراكية. وبالتالي فإن النتائج المترتبة على دخول عناصر رأسمالية وما سيراقت ذلك من ردود فعل لدى السكان، هو من الأمور غير المتوقعة. وبانتظار عامل الوقت، فإن غورباتشوف يسعى للحصول على

مساعدة الغرب مقابل ليبراليته. وبذلك أضحي الدعم الغربي، وبشكل متزايد، الرافعة الكبرى لسلطته.

يعبر جيمس رستون عن قناعة مفادها، ان في السياسة، كما في الحب، لا بد من ان يأتي الوقت الذي يقضي بضرورة تقبيل الفتاة. ولم يتوقف غورباتشوف عن «التمسك بها وعد به»، على مستوى سياسته الخارجية، خاصة فيما يتصل بالعلاقات مع البلدان الاشتراكية السابقة. وتجد فتاة الاصلاحات الحقيقية في الاتحاد السوفياتي، بأنها وحدها هي المهجورة.

في كانون الثاني ١٩٨٩، رفض المؤتمر الثاني لنواب الشعب، ونحت ضغط غورباتشوف، مناقشة المسائل الأكثر أهمية والحاحاً. وقد جاء في النداء الذي وجهه أندريه ساخاروف وأربعة نواب آخرون، مطالبين فيه بإعلان الاضراب في ١١ كانون الثاني، أي عشية المؤتمر، ما يلي: «انهم يرفضون تبني قوانين اقتصادية اساسية»، «حول الملكية»، و«المشروع الخاص»، ويشكل اساسي «حول الأرض»، الامر الذي يؤمن للفلاح الحق بأن يكون سيد نفسه. أضف الى ذلك، أن مجلس السوفيات الأعلى لم يضع على جدول أعماله البند المتعلق بالمادة السادسة من الدستور^(٢). وبالإمكان اضافة عناوين اخرى الى هذه اللائحة، مثال التشريع الجنائي الذي ينتظر الاصلاح منذ زمن بعيد.

فقد اكتفى المؤتمر الثاني لنواب الشعب بالمصادقة على الخطة الخمسية الثالثة عشرة، معيداً البلاد الى وضعية ما قبل «البريسترويكا».

وكتب الاقتصادي المعروف، غافريل بوبوف، معلقاً على ما اعلنه رئيس الوزراء ريچكوف، الذي يمثل التوجهات الاقتصادية الجديدة، قائلاً: «نحن لا نحتاج لخطة خمسية تحتل الرقم الثالث عشر. إن ما نحن بحاجة إليه فعلاً يتمثل بخطة خمسية اولى للاصلاحات: ترفض هذا النمط من الاصلاح ذا الطابع الاداري والتحكمي، وتقضي على المركزية، وتوفر الاستقلال للمؤسسات والجمهوريات^(٣)».

اقدم اندريه ساخاروف، في لقاء شخصي مع غورباتشوف، بعد انعقاد المؤتمر الأول لنواب الشعب، في صيف ١٩٨٩، على وضعه في جو المخاطر المحدقة: «ميخائيل سرغيفيتش!» ليس مطلوباً مني ان اشرح لك الوضع المأساوي الذي تمر به

البلاد ودرجة السخط التي يشعر بها الشعب، ولا توقعاتهم بأن الأمور تسير نحو الأسوأ، إن البلاد تمر بمرحلة من انعدام الثقة بالقيادة والحزب. كما أن سلطتك وشعبيتك تدنت إلى الحضيض، ولم يعد بمقدور الشعب أن يصبر ويكتفي بالوعود. لذا يغدو من الصعب في ظل هذه الأوضاع، التمسك بالخط الوسط^(٤). بعد مضي ستة أشهر، تكلم ساخاروف في اجتماع لفريق ما - بين - الأقاليم، وذلك قبل موته بعدة ساعات، ليصوغ مبادئ المعارضة السياسية، أي مرتكزات حزب سياسي جديد. يكشف المسار الذي سلكه ساخاروف، من خصم للسلاح النووي، إلى مدافع عن حقوق الإنسان، إلى بطل النضال ضد القمع، وصولاً إلى زعيم سياسي يعمل على تأسيس حزب جديد، بعد أن راهن لفترة قصيرة على إمكانية أن تسهم سياسة غورباتشوف في تحقيق الآمال بتحويل النظام السوفياتي؛ هذا المسار يكشف أن الـ «بيرسترويكا» الغورباتشوفية قد واجهت الفشل. يكتب ساخاروف قائلاً: «إن القيادة تدفع بالبلاد نحو الكارثة، عن طريق ربط تنفيذ سياسة البريسترويكا بهذا المدى من السنين... الأمر الذي يضاعف من حالة الشعور بفقدان الأمل، وبالتالي يقطع الطريق على أي نمو إيجابي. ولكن الأمل يبقى بطريق وحيد، بإمكانية واحدة، تتمثل في تجذير البريسترويكا»^(٥).

رفض ميخائيل غورباتشوف، هذه الوجهة بشكل قاطع أثناء لقائه الشخصي مع ساخاروف. فقد رد عليه قائلاً: «تؤدي كل القفزات المتصنعة، أيًا كانت، إلى التراجع. لن أخضع لأي ابتزاز، لا من اليسار ولا من اليمين، بل سأسلك الخط الذي أراه ضرورياً، أيًا كانت الضغوط»^(٦). أدت مركزية الرئيس السوفياتي إلى تراجع حقيقي. هذا ما يؤكد الاقتصادى فاسيلي سليونين في معرض تقويمه للاستراتيجية الاقتصادية، التي صاغتها الخطة الثالثة عشرة، والتي تنطلق من قرار يقضي بشيبت الوضع القائم، ثم الشروع في إحداث إصلاحات جذرية، بتعبير آخر، الأقدام على استبدال الإصلاحات، بإجراءات غير عادية ضمن إطار النظام القديم. ويضيف سليونين مقارناً هذا التوجه، بما أقدم عليه ستالين، في الأعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٣، من إجراءات بغية «إصلاح» النظام المالي، عن طريق مصادرة أموال الشعب: ارتفاع الأسعار، الرقابة الصارمة على الأجور. وفي عام ١٩٤٧، استعيدت هذه السياسة، التي لم تعد كونها نظاماً نقدياً يعتمد مبدأ النهب بشكل واضح وبسيط.

يوضح الكاتب المشهور اسحاق عظيموف، وهو عالم فيزيائي، ان فهم الكون، يقضي بتبسيط المشكلة الى أقصى حد ممكن، بحيث لا نأخذ بعين الاعتبار إلا العناصر والسمات الضرورية من أجل إتمام عملية الفهم. «إذا أردت معرفة سبب سقوط جسم ما، يجب أن لا تسأل هل هو، جديد ام قديم، أحمر أو أخضر، هل له رائحة أم لا. . . هذا التبسيط يمكن تسميته بالنموذج. . .»^(٨) وتدفعنا ملاحظة مختلف أوجه سياسة غورباتشوف، سواء لجهة المبدأ الذي ترتكز اليه «البريسترويكا» أو لجهة المحرك الرئيسي لها، الى طرح السؤال : لماذا؟ لماذا أقدم غورباتشوف بعد وصوله الى السلطة في آذار ١٩٨٥، على تدشين سياسة جديدة، أدت نتائجها، بعد مضي خمس سنوات، الى وضع الجميع في جو من الحيرة والارتباك. ففي بلدان المعسكر الاشتراكي السابق أبعد قدامى الزعماء الشيوعيين عن السلطة، افساحاً في المجال أمام المعارضة لتشارك الشيوعيين في تحمل مسؤولية مختلف جوانب الحياة في البلاد. لا شك ان موسكو قد اسهمت في توفير ظروف تكوّن هذا الوضع، بطرق عدة: بدءاً من ممارسة تأثيرها العام، وتحريك «جماعتها» داخل أجهزة الأمن، والجيش، وكافة مراكز السلطة. ودون ان ننسى للحظة واحدة، عامل غضب الشعب، المتراكم منذ الأيام الأولى لقيام الانظمة الشيوعية، فإننا لا نستطيع، ونحن نحلل الأحداث الجارية، أن ننسى دور موسكو. أي دور غورباتشوف. إذاً لماذا؟ يمكننا الافتراض (بانتظار الوصول الى الوثائق) بأن «مذهب غورباتشوف»، الذي خلف مذهب بريجنيف، يستهدف المحافظة على علاقات التحالف مع بلدان المعسكر الاشتراكي القديم، على أسس جديدة. انطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن دور «المحرر» الذي لعبه غورباتشوف، سيضمن له ثقة الغرب الدائمة به، ناهيك عن دعمه الذي هو بأمر الحاجة اليه.

تتابع النكسات منذ خمسة أعوام في بلد الأمين العام - الرئيس. ويات واضحاً، اليوم، ان مصدر قوة النظام السوفيياتي - صلابته - هي مصدر ضعفه: فقد اظهرت الأحداث التي تالت، مدى السرعة في انهيار هذا النظام. ولكن بشرط - يعيه غورباتشوف جيداً - إفتقار قمة هرم السلطة الى رئيس فعلي.

اما غورباتشوف الذي كان يهوى تردد انه يبحث عند لينين عن حلول للمسائل المطروحة، فربما رأى الملاحظة التي خريشها زعيم حزب الثورة، على هامش كتاب «في الحرب» لكلوزفيتز: «الزعيم الجيد. . . الذي يرتاب من الناس».

«الزعيم الجيد». هل تنطبق هذه الصفة على ميخائيل غورباتشوف؟ لقد وصل الى أعلى مقام في السلطة، وسمحت له موهبته السياسية العجيبة، بان يضع كلياً تحت سيطرته ما يعتبر الانجاز الاهم في «الاصلاح السياسي»، اي مؤتمر نواب الشعب، حيث بات يفعل ما يحلو له. ولقد اشرنا سابقاً الى شعبيته العجيبة في الغرب، وإلى الاحكام الشديدة الاطراء التي يُطلقها عليه رجال السياسة والدين وزعماء الدول على مختلف مشاربهم. ولقد قال فيه الرئيس ميران: «إن غورباتشوف رجل بعيد النظر»^(٩). وقد دَعَمَ هذا الرأي زعيم طائفة «المون»، الذي كان لفترة قصيرة من الدّ أعداء الشيوعية، وذلك في خلال مقابلة مع مجلة «زارويجوم» (في الخارج) السوفياتية حيث اعطى هذا التقويم: «إن الرئيس غورباتشوف رجل مقدم فائق الشجاعة راسخ القناعة»^(١٠). اما مجلة تايمز التي سبق ان انتخبت غورباتشوف «رجل العام» فقد قدّمته في كانون الأول ١٩٨٩ بمثابة «رجل العقد». غير أننا نقرأ في هذه الفترة نفسها نتائج استطلاعات للرأي حول شعبية الرئيس في بلاده، تكشف عن كارثة حقيقية. اما استطلاع أرغوماتي اي فاكتي Argumenty iFakty الذي سبقت الإشارة إليه، فقد أتى مُدْبِلاً بهذا التقييم لاحد القراء: «إن اسلوبه في فرض آرائه على النواب، وتعليقاته على العديد من المداخلات، وانتخابه دون تناوب، وما يمارسه من ضغوط على عمليات التصويت وتذبذبه بين «اليمن» و «اليسار» قد أدّى جدياً الى زعزعة ما كان يتمتع به سابقاً من سلطة»^(١١).

في ربيع ١٩٩٠ اجري استطلاع عقب انتخاب غورباتشوف الى الرئاسة. وعلى السؤال «هل تعتبر أن الرئيس الحالي للاتحاد السوفياتي قادر على استعادة النظام وصون وحدة البلاد؟» جاءت الاجوبة على الشكل الآتي: ٤٠ بالمائة اعتبروا انه قادر، ٣١ بالمائة أنه كان من الانسب أن ينتخب لهذا الموقع رجل أصلب واشد حزماً، فيما رأي ١١ بالمائة أن الافضل لهذا الموقع رجل اقرب الى التسامح والديموقراطية. وامتنع ١٨٪ عن الإجابة^(١٢). وفي خلال انتخابات لمؤتمر الحزب نال غورباتشوف في منطقة من موسكو ٦١٪ من الاصوات.

ومرد ضعف غورباتشوف المطرد الى أنه عندما استولى على السلطة المطلقة، تعثر اكثر فاكثر في عملية ممارستها، ولا يوازي اضطرابه التشريعي الا عدم حماسه لمواجهة المسائل الكبرى. وفي الاول من كانون الثاني ١٩٩١ اشار المؤرخ الروسي يوري غوتيه في

جريدته الى هذين البيتين اللذين كتبنا على حائط منزل في موسكو: «السوفيات حديث الساعة طوال اليوم/ والسماء تمطر مراسيمها كل يوم. أما من أجل الخبز. . فاركض إلى الأبد» (١٣) وهما يصفا بدقة ما يجري في الاتحاد السوفياتي بعد خمس سنوات من «البريسترويكا».

لقد أطلقت البريسترويكا بعد ان ادركت الادارة اواخر عصر بريجنيف، ان السلطة في ازمة، غير ان ما قام به غورباتشوف طوال هذه الستين الخمس لم يؤد الا الى تعميق الازمة. إن صرح آخر امبراطورية في القرن العشرين مليء بالشقوق. ولكن الامين العام وبما يميزه من حنكة سياسية يعرف كيف يستفيد من ضعفه، وفي هذا السياق بدأت سيناريوهات الكوارث التي تهدد العالم في حال انهيار الامبراطورية الروسية تتوالى وكأنها جُرفٌ ثلجي، واستعيدت ذكرى الحروب العديدة التي جعلت من البلقان خزان بارود هدد اورويا في كل لحظة اثر انهيار الامبراطورية العثمانية، فاتحة المرحلة على الحرب العالمية الاولى. وكذلك افول الامبراطورية النمساوية المهنغارية، واستفادة هتلر من الفراغ السياسي، وهو ما مهّد للحرب العالمية الثانية. واثناء مقابلة مع بوش في واشنطن في حزيران ١٩٩٠، بلغ الامر بمسشاري غورباتشوف حد استخدام عبارة «روسيا وبنار»، إلماحاً الى مصير المانيا بُعيد فرساي. وقد لجأ البعض ايضاً الى التحذير من الخطر الناجم عن انهيار الامبراطورية السوفياتية، وذلك لأن تشكيلات جديدة من الدولة الناشئة على حطامها قد تمتلك السلاح النووي. وليس لكل هذه السيناريوهات الا هدف واحد: اثبات ان الاتحاد السوفياتي يبقى من الضرورات، وانه ضمانة للسلام والاستقرار.

على السؤال لماذا «البريسترويكا»؟ يمكننا ان نجيب: لقد قبل غورباتشوف بـ «برست» جديدة كبرى، قبل ان يضحى بالارض من اجل السلطة.

متوخياً اقناع رفاقه بالقبول «بالسلم المذل» اوضح لينين: لو ان الالمان فرضوا ايضاً قلب السلطة السوفياتية، كان لا بد لنا والحالة هذه من القتال. التضحية بكل شيء من اجل المحافظة على السلطة - هذا هو شعار لينين، الشعار الذي اتبعه جميع خلفائه. وفي كلمة حول لينين يعود غورباتشوف مرات ومرات الى الدروس العبقريّة التي تستخلص من سياسة لينين القائمة على التغيير العنيف. وهو يستحضر «برست» وال

N.E.P ، مضيفاً للمرة الاولى «انه كان لا بد للينين من مخاصمة زملائه لفرض قرار إلزامي ضد رأي الاغلبية ، وتشكل «برست» نموذجاً كلاسيكياً عن مثل هذا القرار» . (١٤)

سوف يلحظ المؤرخون ، الذين سينكبون مستقبلاً على دراسة مرحلة غورباتشوف بعد أن يكون الزيد قد انحسر عن أعماق ماحداث ، سوف يلحظون بصورة أفضل ما كان لغورباتشوف - دون وعي أو إرادة ، على ما يبدو لي - من إسهام أساسي في الآلية التي دفعت بالنسق السوفيياتي نحو الهاوية .

عام ١٩٢٢ أشار بوريس ييلنيك الى خاصية أساسية تميز «العالم الجديد» الذي ولد أثر انقلاب أكتوبر : «تعيش روسيا على إرادتها في التركيز على الفعل الارادي من جهة ومن جهة اخرى على ارادتها في ان لا ترى . واني اعتبر هذه الكذبة بمثابة ظاهرة بالغة الالجابية وفريدة من نوعها في العالم» . (١٥)

شكلت هذه الكذبة التي سمحت بالاعتقاد بإمكانية تحقيق الطوبى ، قوة تضاهي بأهميتها أشد أنواع القمع . لقد كشف غورباتشوف عن وجود مثل هذه الكذبة . كما سمح بإدخال عناصر عقلانية في هذا النظام السوفيياتي السحري واللاعقلاني القائم على صيغة تذهل ببساطتها - قائد ، وحزب ، وشعب ، وان لم تكن هذه العناصر قد عبرت عن نفسها من خلال تجدد في المفردات وثقوب في جدار الكذب . ان التوحد بين اللاعقلاني والعقلاني يظل ممتعاً ، اذ لا بد من ان يلفظ الجسم الحي الجسم الغريب ، والا سوف يموت .

في ذروة انتصار نابليون ، اكد مترنيخ ان النظام النابليوني يقوم برمته على قاعدة فاسدة ، وانه لذلك لا بد من ان ينهار حتماً . فكل المسألة ، اضاف رجل الدولة النمساوي ، في معرفة متى وكيف .

وعلى السؤال : لماذا التزم غورباتشوف «بالبريسترويكا» لا نجد الا جواباً واحداً : تأجيل انهيار النظام السوفيياتي الى ابعد حد ممكن .

باريس ، آب ١٩٩٠

حواشي

الجزء الأول

الفصل الأول

1. V. I. Lenin, *Polnoe sobr. sočinenij*, t. 36. p. 200.

الفصل الثاني

1. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 84.
2. Le terme russe employé alors est *rekonstrukcija*.
3. A. A. Gromyko, *Pamjatnoe*, t. 2, Moscou, 1988, p. 393.
4. Mot à mot : « d'une seule voix ».
5. Mot à mot : « d'une seule âme », « d'un seul cœur ».
6. A. A. Gromyko, *Pamjatnoe*, *op. cit.*, p. 393.
7. Cf. *Kommunist*, n° 5, 1985, pp. 6-7.
8. A. A. Gromyko, *op. cit.*, pp. 392-393.
9. *Pravda*, 24 octobre 1989.

الفصل الثالث

- ١ - الغيت امتحانات التاريخ للمرة الأولى، لسنة واحدة، في ١٩٥٦، بعد تقرير خرونشوف أمام

المؤتمر العشرين حول عبادة الشخصية.

2. Robert Conquest, *The Harvest of Sorrow. Soviet Collectivisation and Terror-Famine*, Londres, 1986, p. 215.
3. M.S. Gorbačev, « Stranicy biografii », *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.
4. Vasilij Grosman, *Vse tečet*, Francfort-sur-le-Main, 1970, p. 129.
5. *Malaja Sovetskaja enciklopedija*, Moscou, 1930, t. 7, p. 117.
6. Robert Conquest, *op. cit.*, p. 306.
7. Cf. Aleksandr Nekrič, *Nakazannye narody*, New York, 1978.
8. *Knižka partijnogo rabotnika*, Moscou, 1980, p. 17.
9. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.

- ١٠ - رحلة غورباتشوف في منطقة كراسنويارسك، براغدا ١٦ تشرين الأول ١٩٨٨.

١١ - في الاتحاد السوفياتي، العلاقة القصوى هي خمسة.

12. *Pravda*, 20 mai 1987.
13. Zhores Medvedev, *Gorbachev*, Oxford, 1986, p. 26.
14. Zdenek Mlynar, « Mon camarade Mikhaïl Gorbatchev », *L'Autre Europe*, n° 7-8, Paris, 1985, p. 182.
15. Zdenek Mlynar, *op. cit.*, p. 182.
16. *New York Times*, 6 mai 1962.
- ١٧ - عام ١٩٢١ سعى لينين الصراع ضد «الأعداء الأيديولوجيين» وأمر بتوقيف جميع أفراد عائلة مارتوف: أخويه اخته ابن عمه و بنت عمه وابنتها، وهذا ما لم يُسر إليه كازاكيفيتش. ولذا استمر غورباتشيف ومليتنار تجاهلها له.
18. Zdenek Mlynar, *Holodom veet ot Kremlija*, New York, 1983, p. 16.
19. *Ibid.*, p. 21.
20. *Ibid.*, p. 11.
21. *Ibid.*, p. 22.
22. *Ibid.*, p. 23.
23. Cf. *Posev*, n° 4, 1985.
24. *Mikhail Gorbachev. An intimate Biography*. By the editors of *Time Magazine*, New York, 1988, p. 69.
25. Zhores Medvedev, *Gorbachev*, *op. cit.*, p. 43.
26. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.

الفصل الرابع

1. *Pravda*, 27 juillet 1986.
2. Anatolij Ivanskij, *Molodoj Lenin*, Moscou, 1964, p. 623.
3. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.
4. *Knizka partijnogo aktivista*, Moscou, 1980, p. 17.
5. « Ja by spravilsja s ljuboju rabotoj », Entretien avec V. S. Semitchastny. *Ogonek*, n° 24, 1989.
6. Baron B.E. Nolde, *Dalekoe i blizkoe*, Paris, 1930, p. 122.
7. *Ežegodnik Bol'soj sovetskoj enciklopedii*, Moscou, 1962, p. 602.
8. Zhores Medvedev, *op. cit.*, p. 50.
9. Roj Medvedev, *Hruščev*, Benson, 1986, p. 240.
10. Zhores Medvedev, *op. cit.*, p. 59.
11. Michel Tatu, *Gorbachev. L'URSS va-t-elle changer?*, Paris, 1987, p. 75.
12. Ju. Černičenko, « Dve tajny ». *Esli po sovesti*, sbornik statej, Moscou, 1988, pp. 326-327.
13. *Kraj* signifie « le bout », « l'extrémité ».
14. Jerry F. Hough and Merle Fainsod, *How the Soviet Union is governed*, Harvard, 1979, p. 497.
15. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 82.
16. *Mikhail Gorbachev. An intimate biography*, *op. cit.*, p. 94.
- ١٧ - لم يكن لجمهورية روسيا حزب ولا لجنة مركزية وذلك حتى تموز ١٩٩٠. كان خروتشيف قد أنشأ مكتباً لإعمال RSFSR. غير أنه الغي بعد إقالته. وهذا ما يفسر بسهولة: فوجود لجنتين مركزيين في موسكو ربا أدى إلى التنازع. وفي خريف ١٩٨٩ رافضاً الاقتراح القاضي بإنشاء «حزب شيوعي روسي» أعاد غورباتشيف العمل بهذا المكتب وإلحقه باللجنة المركزية.
18. *Constitution de l'URSS*, article 6.
19. M. S. Gorbačev, « Doklad na XIX konferencii KPSS », *Pravda*, 29 juin 1988.
20. Zhores Medvedev, *op. cit.*, pp. 83-84.

الفصل الخامس

1. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 81.
2. Michel Heller, Aleksandr Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, Paris, 1982, p. 110.
3. K.M. Bogoljubov, *Prodovolstvennaja programma SSSR: soderžanie i puti realizacii*, Moscou, 1983, p. 33.
4. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *Inogo ne dano*, Moscou, 1988, pp. 32-33.
5. T. Zaslavskaja, *op. cit.*, p. 32.
6. V.I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, Moscou, t. 24, p. 441.
- ٧ - يشير ميشال تاتو إلى عدم وجود إثر لهذه الرحلة في أرشيف الحزب الشيوعي الفرنسي، فيما أكد غورباتشوف للصحافيين أنه أقام في فرنسا خلال هذه المرحلة، قاطعاً آلاف كيلومتر في سيارة كان يقودها بنفسه.
8. M. Gorbachev. *An Intimate Biography*, *op. cit.*, p. 126.
9. *Ibid.*, p. 129.
10. *Time*, 31 décembre 1984.
11. *Der Spiegel*, n° 46, 11 novembre 1985.
12. La publication de ce « résumé » (les grandes lignes de la thèse) est obligatoire avant la soutenance.
13. Christian Schmidt-Hansen, *Gorbachev. The Path of Power*, Londres, 1986, p. 57.
14. Cf. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 48.
15. M. Gorbachev. *An Intimate Biography*, *op. cit.*, p. 126.
16. *Ibid.*, p. 121.
17. *Junost'*, n° 5, 1988, p. 53.
18. Denis Healy, « Gorbachev face to face », *Newsweek*, 25 mars 1985.
19. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 7.
20. *Ibid.*, p. 11.
21. I. Stalin, *Sočinenija*, Moscou, 1948, t. 8, pp. 174-175.
22. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 6.

الجزء الثاني

1. M. S. Gorbačev, *Perestrojka i novoe myšlenie*, Moscou, 1987, p. 11.
2. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 7.
3. *Pravda*, 24 avril 1985.
4. *Time*, 11 février 1985.
5. *Pravda*, 9 mai 1985.
6. V. Iachtchenko, chef de la direction géodésique et cartographique près le Conseil des ministres d'URSS, devait reconnaître qu'à partir de la fin des années trente, toutes les cartes soviétiques étaient falsifiées. *Izvestija*, 2 septembre 1985.
7. Cf. Walter Laqueur, « Glasnost and its limits », *Commentary*, juillet 1988.
8. Alain Besançon, *Anatomie d'un spectre. L'Économie soviétique du socialisme réel*, Paris, 1981.

الفصل السادس

1. Vasilij Seljunin, « Istoki », *Novyj mir*, n° 8, 1988.
2. *Pravda*, 24 avril 1985.
3. *Pravda*, 16 juin 1986.
4. *Pravda*, 28 janvier 1987.

5. *Pravda*, 2 novembre 1987.
6. M. S. Gorbačev, *Perestrojka i novoe myšlenie dlja našej strany i dlja vsego mira*, Moscou, 1987, p. 5.
7. C'est l'euphémisme préféré de Gorbatchev; au lieu de dire « complexe », « difficile », il dit « pas simple ».
8. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 13.
9. *Pravda*, 18 septembre 1988.
10. *Pravda*, 27 novembre 1986.
11. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 11.
12. *Ibid.*, p. 13.
13. *Ibid.*, p. 18.
14. Odinadcatyj s'ezd RKP(b). Stenografičeskij otčet. Moscou, 1922, p. 7-38.
15. Vasilij Maklakov, « Tragičeskoe položenie », *Russkie vedomosti*, 2 septembre 1915.
16. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 13.
17. *Pravda*, 27 juillet 1986.
18. *Krasnaja zvezda*, 1^{er} octobre 1987.
19. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 61.
20. *Pravda*, 7 mars 1988.
21. Mihail Antonov, « O hlebe nasuščnom i pišče duhovnoj », *Pravda*, 28 août 1988.
22. *Pravda*, 29 juillet 1988.
23. *Novoe vremja*, n° 18, 1988.
24. *Pravda*, 12 juin 1985.
25. *Pravda*, 6 novembre 1986.
26. *Pravda*, 18 mai 1985.
27. *Pravda*, 29 juin 1988.
28. *Ibid.*
29. *International Herald Tribune*, 3 novembre 1988.
30. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages*, Paris, 1985, p. 156.
31. Vasilij Seljunin, « Reforma ili revanš bjurokratii », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 16.
32. *The Economist*, 18 novembre 1989.
33. A. Kovalev, « Rubim proseku na zvezdu? », *Pravda*, 14 juillet 1989.
34. *Moskovskie novosti*, 29 octobre 1989.
35. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », *Novyj mir*, n° 6, 1987, p. 144.
36. V. Ginzburg, « Protiv bjurokratii, perestrahovki i nekompetencii », *Inogo ne dano*, p. 243.
37. V. Seljunin, « Revanš bjurokratii », *Inogo ne dano*, p. 195.
38. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », p. 158.
39. *Pravda*, 3 novembre 1987.
40. Prodovol'stvennaja programma SSSR, Moscou, 1983, p. 36.
41. *Pravda*, 26 juin 1987.
42. Ju. Čerņičenko, « Dve tajny », *Esli po sovesti*, Moscou, 1988, p. 360.

الفصل الثالث

1. *Pravda*, 2 août 1986.
2. *Ibid.*
3. *Pravda*, 2 octobre 1986.
4. *Pravda*, 1^{er} octobre 1987.
5. *Pravda*, 26 juin 1987.
6. *Pravda*, 2 novembre 1987.
7. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 46.
8. *Ibid.*, p. 71.
9. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1969, p. 313.
10. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1983, p. 291.

11. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 49.
 12. E. A. Ambarcumov, « Analiz V. I. Leninyh pričin krizisa 1921 i putej vyhoda iz nego », *Voprosy istorii*, n° 4, 1984.
 13. V. Bugaev, « Strannaja pozicija », *Kommunist*, n° 14, 1984.
 14. *Kommunist*, n° 17, 1984.
 15. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 48.
 16. *Ibid.*, p. 52.
 17. Nikolaj Šmelev, « Novye trevogi », *Novyj mir*, n° 4, 1988, p. 175.
 18. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 285.
- ١٨ - في الطبعة السابقة (يعاد طبع مختصر القاموس السياسي، بانتظام، وفي كل مرة يُعمل على إبراز وجهة نظر الأمين العام) كانت مقالة «الوضعية الثورية» تتضمن جملة حول «تفاقم أزمة الرأسمالية العامة» وازدياد إمكانيات «نضج وضعية ثورية في البلدان الرأسمالية» وقد حذفت هذه الجملة من طبعة ١٩٨٧.
19. James H. Billington, « Russia's Future : Alternative for a modern Identity », *International Herald Tribune*, 25 janvier 1990.

الفصل السابع

1. Fedor Burlackij, « Kako socializm narodu nužen », *Esli po sovesti*, op. cit., p. 74.
2. M. Kapustin, « Obratnoj dorogi net », *Sovetskaja kul'tura*, 30 juillet 1988.
3. A. Butenko, « O revoljucionnoj perestrojke gosudarstvenno-administrativnogo socializma », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 553.
4. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravljenija perestrojkoi », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 498.
5. Cf. Elem Klimov, « Vlast' - vot v čem vopros! », *Moskovskie novosti*, 19 juin 1988.
6. A. Krasikov, lettre à *Ogonek*, n° 29, 1988.
7. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 181.
8. A. Migranjan, « Mehanizm tormoženija v političeskoj sisteme i puti ego preodolenija », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 107.
9. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
10. E. Ambarcumov, « O putjah soveršestvovanija političeskoj sistemy socializma », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 81.
11. Ju. Afanas'ev, « Perestrojka i istoričeskoe znanie », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 498.
12. Jurij Ščekečihin, Aleksandr Gurov, « Lev prygnul », *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1988.
13. *Ibid.*
14. *Russkaja mysl'*, 22 décembre 1989.
15. Déclaration de V. Afanassiev, membre du Comité central et rédacteur en chef de la *Pravda* à la télévision de Moscou, le 26 juin 1988.
16. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages*, op. cit., pp. 97-107.
17. Vittorio Strada, « Rossija, SSSR i Evropa », communication au symposium international de Barcelone, octobre 1988. *Russkaja mysl'*, 25 novembre 1988.
18. A. Gel'man, « Vremja sobiranijsil », *Esli po sovesti*, op. cit., p. 102.
19. *Pravda*, 1^{er} juillet 1986.
20. *Pravda*, 2 novembre 1988.
21. *Ibid.*
22. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 180.
23. *Pravda*, 14 juin 1988.
24. *Ibid.*
25. D. Furman, « Naš put' k normal'noj kul'ture », *Inogo ne dano*, op. cit., p. 579.

26. T. Zaslavskaja, « O Strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *Inogo ne dano*, p. 31.
27. *Pravda*, 28 janvier 1987.
28. I. Stalin, « O nedostatkah partijnoj raboty i merah likvidacii trockist-skih i inyh dvurušnikov », *Pravda*, 29 mars 1937.
29. *Pravda*, 28 janvier 1987 (les citations suivantes sont extraites du même article).
30. *Pravda*, 29 mars 1987 (les citations suivantes sont extraites du même article).
31. *Junost'*, n° 10, pp. 35-37.
32. A. Bek, *Novoe naznačenie*, Francfort, 1971, p. 53.
33. *Ibid.*, p. 77.
34. *Ibid.*, p. 105.
35. G. Popov, « S točki zrenija ekonomista (O romane Aleksandra Beka *Novoe naznačenie*) », *Nauka i žizn'*, n° 4, 1987, p. 58.
36. Mihail Romm, « Četyre vstreči s N.S. Hruščevym », *Ogonek*, n° 28, 1988, p. 7.
37. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
38. « Parti et perestrojka », table ronde organisée à l'institut du marxisme-léninisme près le Comité central du PCUS, *Pravda*, 14 juin 1988.
39. Pavel Lebedev, « Čto my znaem o ministrach? », *Ogonek*, n° 31, 1988, pp. 6-7.
40. A. Migranjan, *op. cit.*, p. 97.
41. *Pravda*, 14 juin 1988.
42. N. N. Sljun'kov, « Razvernutyj sozidatel'nye sily socializma ». Communication à la séance solennelle organisée pour le soixante et onzième anniversaire de la révolution, *Pravda*, 6 novembre 1988.

الفصل الثامن

1. Aleksandr Prohanov, « Šest'sot let posle bitvy », *Oktjabr'*, n° 8, 1988, p. 64.
2. *Izvestija*, 1^{er} juillet 1988.
3. T. Zaslavskaja, *op. cit.*, p. 17.
4. Lenin, *Polnoe sobr. sočinenij*, tome 39, p. 21.
5. A. Aganbegjan, communication à une conférence sur les problèmes du progrès scientifique et technique, *Eko*, n° 8, 1986, p. 5.
6. *Izvestija*, 7 juillet 1988.
7. *Pravda*, 11 mars 1987.
8. *Pravda*, 17 mai 1986.
9. *Izvestija*, 18 juin 1988.
10. « Inside the USSR ». Numéro spécial de *Time*, 23 juin 1980.
11. Boris Souvarine, « Aveux à Moscou », *La Vie intellectuelle*, 10 avril 1944; in : Boris Souvarine, *A contre-courant, Écrits 1925-1939*, Paris, 1945, p. 339.
12. *Moskovskaja pravda*, 17 juin 1987.
13. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
14. *Ogonek*, n° 29, 1988, p. 4.
15. *Argumenty i Fakty*, n° 31, 1989.
16. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
17. *Izvestija*, 21 août 1989 et 2 septembre 1989.
18. *International Herald Tribune*, 1^{er} novembre 1988.
19. A. Levin, « O teh, kto živet "niže srednego" », *Trud*, 26 juin 1988.
20. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
21. 1965.
22. Discours de Krasnoïarsk, *Pravda*, 18 septembre 1988.
23. *Moskovskie novosti*, 25 septembre 1988. Résumé d'un rapport tiré à soixante exemplaires.

24. *Sovetskaja Rossija*, 23 décembre 1988.
25. *Pravda*, 6 juin 1988.
26. *Literaturnaja gazeta*, 20 avril 1988.
27. *Pravda*, 18 septembre 1988.
28. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
29. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
30. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravljenija perestrojkoj », *op. cit.*, p. 17.
31. *Ibid.*, p. 20.
32. *Ibid.*, p. 22.
33. *Ibid.*, p. 23.
34. *Ibid.*, p. 25.
35. *Ibid.*, p. 28.
36. *Ibid.*
37. *Ibid.*, p. 29.
38. *Ibid.*, p. 30.
39. *Ibid.*, p. 32.
40. *Ibid.*, p. 33.
41. *Ibid.*, p. 31.
42. *Pravda*, 7 mars 1988.
43. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
44. *Pravda*, 24 avril 1985.
45. *Moskovskie novosti*, 28 juin 1987.
46. *Literaturnaja gazeta*, 8 mai 1987.
47. *Ibid.*
48. *Pravda*, 13 avril 1987.
49. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
50. Aleksandr Belikin, « Sanitar », *Znamja*, n° 6, 1988, p. 41.
51. *Moskovskie novosti*, 28 juin 1987.
52. *Sovetskaja Moldavija*, 13 septembre 1987.
53. Christopher Davis, « Reviewing Soviet Health Care Problems », *The Wall Street Journal*, 31 octobre 1986.
54. *Naselenie SSSR 1987. Statističeskij sbornik*, Moscou, 1988, p. 345.
55. Larisa Remennik, « Žizn', ubitaja v tebe... » *Nedelja*, n° 38, 1987, p. 12.
56. *Naselenie SSSR 1987, op. cit.*, p. 319.
57. Rencontre avec les auditeurs de l'École Supérieure des Jeunes communistes, le 20 novembre 1988, *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
58. Communication de l'historien Ovseï Chkaratan au club de discussion inter-scientifique, le 29 mai 1987. « Documents du Samizdat », *Radio-Liberté*, Bulletin n° 32, 11 septembre 1987.
59. *Moskovskie novosti*, 28 août 1988.
60. *Le Monde*, 23-24 octobre 1988.
61. On appelait « Allemands » (*Nemtsy*, du russe *nemoï*, muet) tous les étrangers qui ne parlaient pas le russe.
62. *Pravda*, 13 avril 1987.
63. *Naselenie SSSR 1987, op. cit.*, p. 43.
64. *Literaturnaja gazeta*, 30 juillet 1986.
65. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
66. Vasilij Seljunin, « Glubokaja reforma ili revanš bjurokratii? », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 164.
67. *Pravda*, 3 septembre 1988.
68. *Izvestija*, 7 juillet 1988.
69. *Plan*, n° 16, 1936, p. 10.
70. *Za industrializaciju*, 5 juillet 1936.
71. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
72. Pour plus de détails sur l'idéologisation du travail, voir : Michel Heller, *La Machine et les rouages, op. cit.*
73. Aleksandr Zajčenko, « O hlebe nasuščnom », *Moskovskie novosti*, 21 juillet 1988.

74. T. I. Zaslavskaja, « O strategii », *Izvestija*, 1^{er} juin 1985.
75. *Izvestija*, 1^{er} janvier 1936.
76. *Trudy I Vserossijskogo s'ezda sovnarkhozov*, Moscou, 1918, p. 380.
77. Anatolij Streljanyj, « Prihod i rashod », *Esli po sovesti*, p. 333.
78. Archives du Samizdat. Club de discussion, 29 mai 1987, n° 32, 1987.
79. Robert Roždestvenskij, « Ne dlja vida », *Esli po sovesti*, p. 241.
80. En 1789, Louis Marie de Noailles proposait de renoncer aux privilèges.
81. Alla Bossart, « Železnyj zanaues naloga ». Entretien avec Boris Ivanovitch Gostev, ministre des Finances d'URSS, *Ogonek* n° 29, 1988.
82. Cf. *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
83. Anatolij Streljanyj, « Radioputešestvija v glubinku », *Radio-Liberté*, 21 octobre 1989.
84. *Sovetskaja Rossija*, 22 octobre 1989.
85. Anatolij Streljanyj, *ibid.*, 14 octobre 1989.
86. L'appel est également signé par certains membres du Groupe inter-régional tels que V. Tikhonov, G. Popov, A. Mourachov, I. Afanassiev. I. Tchernichenko devait se dédire par la suite. *Izvestia*, 5 décembre 1989.

الجزء الرابع

1. M. Gorbačev, « Naraščivat' intellektual'nyj potencial perestrojki », *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
2. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *Novy mir*, n° 10, 1988, p. 194.
3. Sergej Hruščev, « Pensioner sojuznogo značenijsja », *Ogonek*, n° 40-41, 1988.
4. M. Heller, A. Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, Paris, 1982, pp. 455-456.
5. E. Lebedev, « Koe-čto ob ošibkah serdca », *Novyj mir*, n° 10, 1988, p. 240.

الفصل التاسع

1. Jacques Séguela, *Demain il sera trop star*, Paris, 1989, p. 125.
2. Cf. Vadim Baranov, « "Da" i "net" Maksima Gor'kogo », *Sovetskaja kul'tura*, 1^{er} avril 1989.
3. *New York Times*, 30 décembre 1986.
4. Vassili Grossman, *Vie et Destin*, Paris, 1980, p. 721.
5. *Argumenty i Fakty*, n° 36, 1989.
6. Enregistrement magnétique réalisé durant une rencontre entre la rédaction des *Nouvelles de Moscou* et les écrivains de la capitale, en juin 1987. Cf. *Russkaja mysl'*, 4 septembre 1987.
7. Konstantin Simonov, « Glazami čeloveka moego pokolenija », *Znamja*, n° 3, 1988, p. 62.
8. Cité d'après : A.I. Ovčarenko, « Sovetskaja dejstvitel'nost' v publicistike Gor'kogo (1928-1946) ». « Naučnye doklady Vyssšej Školy ». *Filologičeskie nauki*, 2, 1959, p. 12.
9. I. Stalin, *Sočinenija*, Moscou, 1949, t. 12, p. 174.
10. G. K. Ašin, « Pis'mo v redakciju », *Argumenty i Fakty*, n° 12, 1989.
11. I.S. Aksakov v ego pis'mah, Moscou 1982, première partie, t. III, p. 180.
12. Mih. Lemke, *Očerki po istorii russkoj cenzury i žurnalistiki XIX stoletija*, Saint-Petersbourg, 1904, p. 19.
13. *Sobranie materialov o napravlenii različnyh otraslej russkoj slovesnosti za poslednee desjatiletie otečestvennoj žurnalistiki za 1863 i 1864*, Saint-Petersbourg, 1865, pp. 184-185.
14. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 101.
15. Nikita Hruščev, *Vospominanija*, New York, 1979, p. 275.

16. *Naš sovremennik*, n° 7, 1985.
17. *Oktjabr'*, n° 1, 1986.
18. *Pravda*, 12 février 1989.
19. *Le Monde*, 20 avril 1989.
20. *Sovetskaja kul'tura*, 12 août 1989.
21. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 104.
22. Lev Timofeev, « Čto budet posle glasnosti? », *Referendum*, n° 29, cité d'après : *Russkaja mysl'*, 31 mars 1989.
23. *Izvestija*, 6 avril 1988.
24. *Moskovskie novosti*, 15 janvier 1989.
25. *International Herald Tribune*, 13 mars 1989.
26. Enregistrement magnétique d'une communication de A. Sakharov, lors d'une conférence de presse à Paris, le 3 novembre 1988. Cf. *Russkaja mysl'*, 11 novembre 1988.
27. *Pravda*, 4 septembre 1985.
28. *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
29. *Moskovskie novosti*, 11 janvier 1989.
30. Cf. *International Herald Tribune*, 17 février 1989.
31. *The Wall Street Journal*, 20 décembre 1988.
32. *Komsomol'skaja pravda*, 2 avril 1989.
33. Vladimir Nabokov, *Drugie Berega*, Ardis, Ann Arbor, 1978, p. 233. Comparer avec l'édition de *Družba narodov*, n° 6, 1988, p. 122 et suiv.
34. Roj Medvedev, « Ob istokah terrora i represii ». Tiré d'une intervention lors d'un débat sur le film *Vlast' Soloveckaja*, à la Maison du Cinéma. SSSR. *Vnutrennie protivorečija*, n° 22, 1988, p. 108.
35. Moscou, 1988, p. 385.
36. Les Nouvelles (en russe : *Izvestia*) du VTSIK : Comité exécutif panrusse des Soviets.
37. *Argumenty i Fakty*, n° 17, 1987.
38. Lettre ouverte..., *Moskovskie novosti*, 1^{er} janvier 1989.
39. Nora Buhks, *Le Journalisme de la perestroïka : la technique du renouveau*, Presses de l'université de Paris-Sorbonne, 1988.
40. *Pravda*, 25 septembre 1988.
41. *Pravda*, 20 août 1988.
42. *Pravda*, 11 janvier 1989.
43. *Argumenty i Fakty*, n° 40, 7-13 octobre 1989.
44. *Pravda*, 2 mars 1988.
45. V. Ramm, « Bumaga », *Neva*, n° 3, 1989, p. 163.
46. V. Ramm, « Bumaga », *op. cit.*, p. 165.
47. A. Cipko, « Istoki stalinizma », *Nauka i žizn'*, n° 11, 1988, p. 46.
48. Igor' Kljamkin, « Počemu trudno govorit' pravdu. Vybrannye mesta iz odnoj bolezni », *Novyj mir*, n° 2, 1988, p. 205.
49. A. Cipko, *op. cit.*, p. 46.
50. Igor' Kljamkin, *op. cit.*, p. 205.
51. Witold Gombrowicz, *Dziennik (1953-1956)*, Instytut Literacki, Paris, 1987.
52. Vladimir Lakšin, « Ot glasnosti k svobode slova », *Moskovskie novosti*, 9 avril 1989.
53. Lev Timofeev, « Čto budet posle glasnosti? », *Referendum*, n° 29, cité d'après *Russkaja mysl'*, 31 mars 1989.
54. *Pravda*, 16 septembre 1988.
55. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano*, *op. cit.*, p. 161.
56. *Pravda*, 11 avril 1989.
57. *Komsomol'skaja pravda*, 12 avril 1989.
58. *Vek XX i mir*, n° 3, 1989.
59. « Zaščiščaja perestroïku. Aktual' noe interv'ju », *Pravda*, 16 avril 1989.
60. Al'bert Plužnik, « O pol'ze govorit' pravdu », *Izvestija*, 12 mars 1989.
61. *Russkaja mysl'*, 5 janvier 1990.

الفصل العاشر

1. *Slovar' russkogo jazyka*, S.I. Ožegov, Moscou, 1953, p. 462.
2. *Slovar' russkogo jazyka v četyreh tomah*, t. III, Moscou, 1983, p. 98.
3. Cité d'après : Nick Eberstadt, *The Poverty of Communism*, New Brunswick (États-Unis) et Oxford (Grande-Bretagne), 1988, p. 14.
4. Information du *Frankfurter Allgemeine Zeitung*, reprise par la *Russkaja mysl'*, 9 août 1985.
5. I. Stalin, *op. cit.*, t. 9, p. 192.
6. *Naš sovremennik*, n° 7, 1987.
7. Vasilij Belov, *Vse vpered*, Moscou, 1987, p. 203. Dans les griefs formulés à l'encontre du président Kennedy, on retiendra la certitude que si celui-ci avait permis aux journalistes américains de dénoncer l'alcoolisme en URSS, les gens auraient cessé de boire.
8. *Pravda*, 19 septembre 1985.
9. I. Stalin, *Sočinenija*, t. 12, p. 194.
10. *Izvestija*, 3 mars 1988.
11. *Ibid.*
12. *Pravda*, 6 février 1989.

الفصل الحادي عشر

1. *Pravda*, 21 septembre 1985.
2. *Pravda*, 22 novembre 1935.
3. *Ibid.*
4. *Komsomol'skaja pravda*, 15 octobre 1988.

الفصل الثاني عشر

1. *Ogonek*, n° 29, 1987, p. 3.
2. « Novosibirskij dokument », *Posev*, n° 10, 1983, p. 36.
3. « Novosibirskij dokument », *op. cit.*, p. 38.
4. *Ibid.*, p. 35.
5. *Ibid.*, p. 37.
6. *Izvestija*, 12 avril 1985.
7. *Pravda*, 12 juin 1985.
8. *Ibid.*
9. *Pravda*, 23 novembre 1985.
10. *Pravda*, 20 novembre 1986.
11. *Izvestija*, 12 mai 1986.
12. *Izvestija*, 3 août 1986.
13. *Izvestija*, 13 janvier 1988.
14. *Izvestija*, 23 novembre 1986.
15. *Izvestija*, 16 décembre 1987.
16. *Pravda*, 4 avril 1989.
17. *Pravda*, 27 avril 1989.
18. V.P. Kabaidze, « Vystradat' perestrojku », *Sovetskaja Rossija*, 22 octobre 1989.
19. *Pravda*, 23 avril 1989.
20. *Pravda*, 7 mars 1988.
21. *Pravda*, 29 mai 1988.
22. Cité d'après : S. Andreev, « Struktura vlasti i zadači obščestva », *Neva*, n° 1, 1989, p. 147.
23. *Pravda*, 27 avril 1989.
24. *Argumenty i Fakty*, n° 35, 1989.
25. *Pravda*, 27 avril 1989.

26. Exclu du Politburo et du Comité central, I. Soloviev l'est également du parti, pour corruption, au début de 1990.
27. *Pravda*, 2 octobre 1987.
28. S. Andreev, *op. cit.*, p. 158.
29. *Pravda*, 27 avril 1989.
30. Il'ja Erenburg, *Burnaja žizn' Lazika Rojts'vaneca*, Berlin, 1929, p. 77.
31. *Pravda*, 18 février 1989.
32. *Pravda*, 27 avril 1989.
33. *Pravda*, 30 juin 1988.
34. *Pravda*, 1^{er} juillet 1988.
35. Vasilij Seljunin, « Glubokaja reforma ili revanš bjurokratii? » *Znamja*, n° 7, 1988, p. 156.
36. *Ibid.*, p. 160.
37. *Ibid.* p. 167.
38. Gavril Popov, « Celi i mehanizm », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 169.
39. Vasilij Seljunin, *op. cit.*, p. 163.
40. *Ibid.*, p. 166.
41. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », *Novyj mir*, n° 6, 1987.
42. Nikolaj Šmelev, « Libo sila, libo rubl' », *Znamja*, n° 1, 1989, p. 132.
43. *Ibid.*, p. 146.
44. *Pravda*, 27 avril 1989.
45. Nikolaj Šmelev, *op. cit.*, p. 135.
46. *Pravda*, 6 février 1989.
47. Nikolaj Šmelev, *op. cit.*, p. 143.
48. *The New York Time Book Review*, 5 février 1989.
49. *Izvestija*, 21 avril 1987.
50. Rencontre, le 12 janvier 1989, à la maison de la culture des travailleurs de la santé. Cf. *Russkaja mysl'*, 27 janvier 1989.
51. « Lunnyj landšaft », entretien de L. Abalkin avec le correspondant de la *Komsomol'skaja pravda*, 8 février 1989.
52. *Pravda*, 27 avril 1989.
53. *Ibid.*
54. *Argumenty i Fakty*, n° 41, 1989.
55. « Lunnyj landšaft », *Komsomol'skaja pravda*, 8 février 1989.

الفصل الثالث عشر

1. *Pravda*, 29 novembre 1988.
2. *Političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 407.
3. *Pravda*, 29 novembre 1989.
4. - هناك أحكام قانونية عدة تنظم الإصلاح الزراعي : قرار مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي المتعلق «بتحسين ترمين المواد الغذائية الخاصة بالسكان على قاعدة زيادة جذرية للمردودية والمثابرة في انهاء الانتاج الزراعي الصناعي . في ٥ نيسان ١٩٨٩ ؛ قرار صادر عن مجلس رئاسة السوفيات الأعلى «حول
5. *Političeskij slovar'*, *op. cit.*, p. 426.
6. *Izvestija*, 8 juin 1988.
7. Ancien quartier central de Moscou, regorgeant d'échoppes et de boutiques.
8. A. Makarov, « Častnik? », *Nedelja*, 10-18 novembre 1986.
9. *Pravda*, 26 juin 1987.
10. *Argumenty i Fakty*, 28 mai 1988.
11. *Ogonek*, n° 29, juillet 1988.
12. *Izvestija*, 30 décembre 1988.
13. G. Lisičkin, « Ljudi i vešč'i », *Družba narodov*, n° 1, 1988, p. 161.
14. *Sovetskaja kul'tura*, 4 octobre 1988.

15. *Pravda*, 23 septembre 1988.
16. *Literaturnaja gazeta*, 21 mai 1986.
17. « Kriminal'nyj pomidor », *Literaturnaja gazeta*, n° 33, 1987.
18. « Ogni kooperacii », *Moskovskie novosti*, n° 30, 1988.
19. *Sovetskaja kul'tura*, 15 avril 1989.
20. *Argumenty i Fakty*, n° 1, 1989.
21. *Sovetskaja kul'tura*, 15 avril 1989.
22. Anatolij Streljanyj, « Putešestvija v glubinku », émissions diffusées par Radio-Liberté, 14-15 octobre 1989.
23. *Izvestija*, 3 octobre 1987.
24. Mihail Antonov, « Na perelome », *Moskva*, n° 3, 1988, p. 26.
25. Rapport de M. S. Gorbatchev au plénum du Comité central du PCUS, le 25 juin 1987.
26. *Ibid.*
27. *Pravda*, 27 avril 1989.
28. *Ibid.*
29. Gavriil Popov, « Dorogoe udovol'svtie », *Ogonek*, n° 3, 1^{er} avril 1989.
30. *Ekonomičeskaja gazeta*, n° 34, 1988.
31. Aleksandr Zajčenko, « Togda ščitat' my stali... » *Moskovskie novosti*, n° 4, 28 janvier 1990.
32. G. Faktor, « Net, beda », *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
33. Anatolij Streljanyj, *op.cit.*
34. A. Kazarina, « Vina? », *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
35. *Pravda*, 18 mai 1989.
36. *Pravda*, 30 mars 1989.

الفصل الرابع عشر

1. Mihail Gorbačev, « Oktjabr' i perestrojka : revoljucija prodolžaetsja », Rapport à la séance solennelle consacrée au soixante-dixième anniversaire de la Grande Révolution socialiste d'Octobre, le 2 novembre 1987 ; *Pravda*, 3 novembre 1987.
2. *Pravda*, 18 mars 1989.
3. *Pravda*, 3 novembre 1987.
4. Ju. Černičenko, « Torgsin », *Znamja*, n° 1, 1989, p. 154.
5. *Pravda*, 16 mars 1989.
6. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989, p. 77.
7. M. S. Gorbačev, *Izbrannye stat'i i reči*, Moscou, 1987, t. I, p. 163.
8. *Ibid.*, p. 306.
9. *Ibid.*, p. 273.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*, p. 347-348.
12. *Ibid.*
13. *Ibid.*, t. 2, p. 407.
14. *Ibid.*, t. 1, p. 184.
15. *Ibid.*, p. 239.
16. *Ibid.*, t. 2, p. 412.
17. *Ibid.*, t. 1, p. 341.
18. *Ibid.*, p. 387.
19. *Pravda*, 3 mars 1986.
20. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 5, p. 144.
21. Jurij Černičenko, « Dve tajny », *Esli po sovesti*, Moscou, 1988, p. 361.
22. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 277.
23. *Pravda*, 13 mars 1935.
24. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 414.
25. M. S. Gorbačev, « Ob agrarnoj politike KPSS v sovremennyh uslovi-jah » *Pravda*, 16 mars, 1989.
26. *Pravda*, 3 novembre 1987.

27. *Pravda*, 16 mars 1989.
28. *Pravda*, 16 mars 1987.
29. V.I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, t. 36, p. 529.
30. *Pravda*, 16 mars 1989.
31. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 356.
32. *Političeskij slovar'*, *op. cit.*, p. 25.
33. *Pravda*, 14 octobre 1988.
34. *Ibid.*
35. *Pravda*, 9 mai 1989.
36. Le mot « fermier » (en russe : *fermer*) est actuellement extrêmement populaire; il succède à « exploitant individuel » (en russe : *edinoličnik*), « liquidé » dans les années trente.
37. *Pravda*, 16 mars 1989.
38. *Pravda*, 14 octobre 1988.
39. *Pravda*, 16 mars 1989.
40. *Ibid.*
41. Ivan Vasiljev, « Prigovor zemli », *Sovetskaja Rossija*, 10 mars 1989.
42. *Pravda*, 18 avril 1989.
43. *Pravda*, 16 mars 1989.
44. Gelij Šmelev, « Kuda vedet arenda », *Moskovskie novosti*, 23 octobre 1988.
45. Boris Mozaev, « Orientir – tol'ko pravda! », *Literaturnaja gazeta*, 2 novembre 1988.
46. *Pravda*, 22 octobre 1988.
47. *Izvestija*, 6 mars 1990.
48. Jurij Černičenko, « My grabim nagrabilennoe... », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
49. M.S. Gorbačev, Discours de conclusion au plénum du Comité central, le 16 mars 1989; *Pravda*, 18 mars 1989.

الفصل الخامس عشر

1. Jurij Ščekočihin, Aleksandr Gurov, « Lev prygnul », *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1989.
2. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1969, p. 206.
3. *Protokoly tzw. Komisji gzałskiego. Tayne dokumenty PZPR*, Paris, 1986, p. 83.
4. *Protkoly...*, *op. cit.*, p. 190.
5. *Pravda*, 20 mai 1989.
6. *Pravda*, 21 mai 1989.
7. *Pravda*, 20 mai 1989.
8. Ol'ga Čajkovskaja, « Mif », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.
9. *Sovetskaja Rossija*, 18 avril 1990.
10. Ol'ga Čajkovskaja, « Mif », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.
11. *Pravda*, 23 mai 1989.
12. *Ibid.*
13. « Discours du camarade Mel'nikov, V.I. », *Izvestija*, 1^{er} juillet 1988.
14. Gennadij Hohrjakov, « Mafija v SSSR : vymysly, domysly, fakty », *Junost'*, n° 3, 1989.
15. Evgenija Evel'son, *Sudebnye processy po ekonomičeskim delam v SSSR*, OPI, Londres, 1986, p. 29.
16. G. Ovčarenko, « Kobry nad zolotom », *Pravda*, 23 janvier 1988.
17. *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1988.
18. *Corriere della Sera*, 12 mai 1988.
19. « Kto ostanovit prestupnost' ? », *Literaturnaja gazeta*, 7 juin 1989.
20. Gennadij Hohrjakov, *op. cit.*, p. 86.
21. I. S. Konduruškin, *Častnyj kapital pered sovetskim sudom*, Moscou, 1927, p. 124.

22. *Pravda*, 18 avril 1926.
23. I. S. Konduruškin, *op. cit.*, p. 190.
24. Ju. Čurbanov, « Gerojami ne roždajutsja. Hudožestvennoe tvorčestvo i pravovoe vospitanie », *Pravda*, 29 décembre 1981.
25. G. Ovčarenko, A. Černenko, « Kolonna. Interv'ju v sledstvennom izolatore MVD SSSR », *Pravda*, 17 juillet 1988.
26. Vladimir Kaliničenko, Jurij Ščekočihin, « Komandirovka po vysokomu vyzovu », *Literaturnaja gazeta*, 12 avril 1989.
27. Gennadij Hohrjakov, *op. cit.*, p. 87.
28. « Konvertiruemyj rubl' : začem? korga? » *Literaturnaja gazeta*, 5 avril 1989.
29. Konstantin Lagutin, « Posle nas... », *Naš sovremennik*, n° 5, 1989, pp. 99, 100.
30. *Pravda*, 7 mars 1988.
31. *Pravda*, 17 juillet 1988.
32. T. Holod, « Očišćenie », *Sovetskaja Belorussija*, 17 décembre 1988.
33. Sergej Kiselev, « Storm-2 », *Literaturnaja gazeta*, 10 mai 1989.
34. Andrej Saharov, « Neizbežnost' perestrojki », *Inogo ne dano*, *op. cit.*, p. 125.
35. *Izvestija*, 10 juillet 1989.
36. *Krasnaja zvezda*, 6 juillet 1989.
37. Egor Jakovlev, « Gdljan i mnogie drugie », *Moskovskie novosti*, 21 mai 1989.
38. L. Vajdman, « Deportacija », *Kazahstanskaja pravda*, 13 juin 1989.
39. *Krasnaja zvezda*, 6 juillet 1989.
40. Cf. Gennadyj Hohrjakov, *op. cit.*, p. 87.
41. Vladimir Sokolov, « Moral' i pravo », *Literaturnaja gazeta*, 23 août 1988.
42. Vladimir Sokolov, « Moral' i pravo », *op. cit.*
43. « Čto stoit za sobytijami v Fergane? », *Literaturnaja gazeta*, 14 juin 1989.
44. *Moskovskie novosti*, 21 mai 1989.

الجزء الخامس

- ١ - نجد في الطبعة الروسية : « انكم مدعوون لاحياء قضية بالية تثير الاشترازم لما أصابها من ركود ». هذه الكلمات توجه فرخوفانسكي إلى « خاصتنا » ، اثر اغتيال شاتوف .
2. Maksim Gorkij, *Nesvoevremennye mysli*, Paris, 1971, pp. 130-131.
3. *Trud*, 8 juillet 1989.
4. « Problemy istorii i sovremennost' », *Voprosy istorii KPSS*, n° 2, 1989, pp. 60-61.
5. Andrej Saharov, « Neizbežnost perestrojki », *Inogo ne dano*, p. 126.
6. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 455.
7. *International Herald Tribune*, 19 janvier 1989.
8. *Malaja sovetskaja enciklopedija*, Moscou, 1930, p. 462.
9. *Pravda*, 30 novembre 1988.
10. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *Novyj mir*, n° 10, 1988, p. 156.
11. Fedor Burlackij, *op. cit.*, p. 196.
12. *Izvestija*, 12 septembre 1988.
13. *Krasnaja zvezda*, 18 juillet 1963.
14. *Kommunist*, n° 5, 1960.
15. Anatoly Golitsyn, *New lies for old*, New York, 1984, p. 348.
16. *Ibid.*, p. 339.
17. *Ibid.*, p. 350.
18. *Ibid.*, p. 334.
19. *Ibid.*, p. 348.
20. *Kultura*, p. 54; *Commentaire*, p. 56. La lettre de Jerzy Urban fut

d'abord publiée par la revue polonaise non officielle *Most*, puis de nouveau en polonais par *Kultura*, Paris, n° 6, 1989, et en français par *Commentaire*, n° 45, 1989.

21. *Kultura*, p. 55, *Commentaire*, p. 53.
22. Ion Pacepa, *Horizons rouges*, Paris, 1988.
23. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *op. cit.*, p. 186.
24. Jerzy Urban, *op. cit.*, p. 57 (pol.), p. 54 (franç.).
25. Nicolas Machiavel, *Le Prince*, chap. VI, Paris, p. 305.
26. Nicolas Machiavel, *op. cit.*
27. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 5, p. 466.
28. L. Onikov, « Počemu otstaet avangard? », *Pravda*, 10 juillet 1989.
29. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 114.
30. *Ibid.*, t. 4, p. 309.
31. *Ibid.*, t. 4, p. 321.

الفصل السادس عشر

1. *Pravda*, 16 mai 1985.
2. *Pravda*, 10 juillet 1989.
3. *Ibid.*
4. *Pravda*, 28 janvier 1987.
5. *Pravda*, 27 janvier 1987.
6. *Pravda*, 29 mars 1987.
7. *Pravda*, 27 janvier 1987.
8. *Pravda*, 29 mars 1937.
9. *Pravda*, 27 janvier 1987.
10. *Istorija VKP (b). Kratkij kurs*, Moscou, 1950, p. 334.
11. *Pravda*, 3 novembre 1987.
12. *Pravda*, 20 février 1988.
13. Nina Andreeva, « Ne mogu postupat'sja principami », *Sovetskaja Rossija*, 13 mars 1988.
14. *Sovetskaja kul'tura*, 5 mai 1988.
15. *International Herald Tribune*, 2 août 1989.
16. Pavel Demidov, « Ne nado zabluždat'sja », *Žurnalist*, n° 5, 1988.
17. *Time*, 27 juin 1988.
18. *Pravda*, 26 mai 1988.
19. *Izvestija*, 29 juillet 1988.
20. *XII s'ezd VKP (b). Stenografičeskij otčet*, Moscou, 1923, pp. 144-145.
21. *Pravda*, 1^{er} juillet 1988.
22. *Pravda*, 29 juin 1988.
23. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 200.
24. *Pravda*, 30 juillet 1988.
25. *Pravda*, 19 juillet 1989. Les citations suivantes sont extraites du même texte.
26. *Pravda*, 30 juillet 1988.
27. *Pravda*, 19 juillet 1989.
28. A. Migranjan, « Mehanizm tormoženija v političeskoj sisteme i puti ego preodolenija », *Inogo ne dano*, *op. cit.*, p. 97.
29. L. M. Spirin, *Klassy i partii v graždanskoj vojne v Rossii*, Moscou, 1968, p. 60.
30. I. Staline, *op. cit.*, t. 5, p. 219.
31. *Pravda*, 7 juin 1989.
32. *Pravda*, 14 juillet 1989.
33. *Pravda*, 21 juillet 1989.
34. *Pravda*, 27 avril 1989.
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*
37. *Pravda*, 21 juillet 1989.

38. I. Stalin, *op. cit.*, t. 5, pp. 207-208.
39. *Pravda*, 19 juillet 1989.
40. *Ibid.*
41. *Ibid.*
42. *Ibid.*
43. *Pravda*, 21 juillet 1989.
44. *Ibid.*
45. *Ibid.*
46. *Pravda*, 8 août 1989.
47. *Pravda*, 21 juillet 1989.
48. *Pravda*, 1^{er} août 1989.
49. *Pravda*, 21 juillet 1989.
50. *Pravda*, 21 juillet 1989.
51. *Ibid.*
52. *Ibid.*

الجزء السادس

الفصل السابع عشر

1. Boris Bažanov, *Vospominanija byvšego sekretarja Stalina*, Paris, 1980, p. 47.
2. G. H. Šahnazarov, *Socializm i buduščee*, Moscou, 1988, p. 759.
3. *Ibid.*, p. 48.
4. *Ibid.*, p. 131.
5. *Ibid.*, p. 105.
6. *Ibid.*, p. 547.
7. Ales' Adamovič, Georgij Sahnazarov, « Novoe myšlenie i inercija progressa. Dialog pisatelja i učenogo », *Družba narodov*, n° 6, 1988, p. 193.
8. *Ibid.*, p. 188.
9. *Ibid.*, p. 193.
10. *Ibid.*, p. 194.
11. Fedor Burlakij, « Nadeždy i trevogi vesny našej », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.

الفصل الثامن عشر

1. A. Jakovlev, « Protiv antiistorizma », *Literaturnaja gazeta*, 15 novembre 1972. Les citations suivantes sont extraites du même article.
2. *Sovetskaja kul'tura*, 23 novembre 1986.
3. *Pravda*, 10 avril 1987.
4. *Pravda*, 16 juillet 1987.
5. *Sovetskaja kul'tura*, 15 décembre 1987.
6. *Pravda*, 10 avril 1987.
7. A. N. Jakovlev, « Dostiženie kačestvenno novogo sostojanija sovetskogo obščestva i obščestvennye nauki », *Vestnik AN SSSR*, n° 6, 1987, p. 61.
8. A. N. Jakovlev, *op. cit.*, p. 52.
9. *Ibid.*, p. 68.
10. *Ibid.*, p. 73.
11. *Ibid.*, p. 75.
12. *Ibid.*, p. 76.
13. *Ibid.*, p. 70.
14. *Ibid.*, p. 62.
15. *Ibid.*, p. 69.
16. A. N. Jakovlev, « Velikaja francuzskaja revoljucija i sovremennost' », rapport, *Sovetskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
17. A. N. Jakovlev, « Protiv antiistorizma », *op. cit.*

18. *Ibid.*

19. A. N. Jakovlev, « Francuzskaja revolucija i sovremennost' », *op. cit.*

الفصل التاسع عشر

1. V. I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, t. 43, p. 101.
2. A. V. Dmitriev, L. Kurin, « "Rabočaja oppozicija": kto byl kto », *Pravda*, 4 août 1989.
3. Dmitrij Volkogonov, « Triumf i tragedija. Političeskij portret I. V. Stalina », t. 2, *Oktjabr'*, n° 7, 1989, p. 59.
4. Nikolaj Šul'gin, « Kto on? », *XX vek i mir*, juin 1989, p. 21.
5. Cf. le Bulletin de Radio-Liberté, 5 juin 1985.
6. *Pravda*, 23 avril 1988.
7. Philip Taubman, « Soviet Leaders divided on Policy, Envoys say », *International Herald Tribune*, 24-25 décembre 1985.
8. E. K. Ligačev, « Nam nužna polnaja pravda », *Teatr*, n° 8, 1986, p. 3.
9. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, *op. cit.*, p. 32.
10. E. K. Ligačev, *op. cit.*, p. 3.
11. *Le Monde*, 4 décembre 1987.
12. *Pravda*, 9 juin 1988.
13. *Argumenty i Fakty*, n° 42, 21-27 octobre 1989.
14. *Pravda*, 18 mars 1990.
15. Vitalij Tret'jakov, « Egor Ligačev i drugie », *Moskovskie novosti*, n° 5, 4 février 1990.
16. Première publication dans *Le Monde*, 16 juillet 1986. Cité d'après le texte russe. Cf. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1986.
17. *Moskovskie novosti*, 17 mai 1987.
18. *Ibid.*
19. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1987.
20. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1986.
21. *Pravda*, 2 juillet 1988.
22. *Moskovskaja pravda*, 9 août 1987.
23. *Ibid.*
24. *Pravda*, 13 novembre 1987.
25. Boris Eltsine, rencontre avec les auditeurs de l'École supérieure des Jeunesses communistes, le 20 novembre 1988. Cf. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989. Eltsine reprend cette accusation dans son autobiographie parue dans divers pays en mars 1990.
26. *Times*, 14-15 novembre 1987.
27. *Le Monde*, 15 novembre 1987.
28. *Le Monde*, 15-16 novembre 1987.
29. *International Herald Tribune*, 14-15 novembre 1987.
30. Cf. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
31. *Pravda*, 2 juillet 1988.
32. « Za industrial'nye kadry ». Supplément au journal *Vestnik NTTM*, 3-15 mars 1989.
33. *Nižnetagil'skij rabočij*, 22 mars 1989.
34. *Ibid.*
35. « Za industrial'nye kadry », *op. cit.*
36. Boris Eltsine, *Jusqu'au bout!*, Paris, 1990, p. 214.
37. *Komsomol'skaja pravda*, 27 avril 1990.
38. *Russkaja mysl'*, 14 juillet 1989.
39. S. Talbott, « For He's a jolly Fellow », *Time*, 11 juin 1990, p. 20.

الفصل العشرون

1. V. I. Lenin, *Polnoe sobr. soč.*, t. 44, p. 328.
2. *Literaturnaja gazeta*, 9 août 1989.

3. *Pravda*, 2 novembre 1988.
4. *Sovetskaja Belorussija*, 22 janvier 1989.
5. *Novoe vremja*, 2 septembre 1988.
6. « Ja by spravilsja s ljuboju rabotoj », interview de V.E. Semitchastny, *Ogonek*, n° 24, juin 1989.
7. Ja. Karpovič, « Stydno molčat' », *Ogonek*, n° 29, 1989.
8. P.A. Rodionov, *Ibid.*, p. 203.
9. *Pravda*, 2 juin 1989.
10. *Ibid.*
11. Victor Orlov, « Putting the KGB in a Cassok : why Moscow infiltrating the Soviet Orthodox Church, *Washington post*, 15 juin 1988.
12. L'enregistrement de cette conférence est paru dans *Russkaja mysl'*, 20 mai 1988.
13. *Glasnost'*, journal politique et social indépendant, n° 28, Moscou, avril 1989, p. 8.
14. *Time*, 23 avril 1990.
15. *Pravda*, 1^{er} mars 1986.
16. *Pravda*, 11 septembre 1987.
17. *Pravda*, 2 septembre 1988.
18. V. Čebrikov, « Pravovaja politika – aktivnoe zveno perestrojki », *Kommunist*, n° 8, 1989, p. 8.
19. *Ibid.*, p. 11.
20. *Sovetskaja Rossija*, 31 mars 1990.
21. *Literaturnaja gazeta*, 7 juin 1989.
22. *Moskovskie novosti*, 10 septembre 1989.
- ٢٣ - كان لا بد، بعد ان نشر في أيلول ١٩٨٩ اعلان بغاية الجفاف صادر عن اللجنة المركزية حول الوضع في جمهوريات البaltيك، من إجراء تحقيق خاص لتبيان أن غورباتشيف كان قد وافق على هذا النص، فيما أصر الجميع على الاعتقاد انه لم يكن للزعيم أي شأن في ذلك وأن المسألة كانت من صنع «المحافظين».
24. *Pravda*, 8 février 1990.
25. *Moskovskie novosti*, 7 mai 1989.

الفصل الواحد والعشرون

1. En avril 1990, le ministre de la Défense devient maréchal. Il est le premier depuis la venue au pouvoir de Gorbatchev.
2. *Moskovskie novosti*, 16 juillet 1989.
3. *Pravda*, 5 mai 1990.
4. *Moskovskie novosti*, 21 février 1988.
5. *Krasnaja zvezda*, 17 juin 1987.
6. *Pravda*, 7 juin 1989.
7. *Moskovskie novosti*, 23 juin 1989.
8. *The Wall Street Journal*, 18 août 1989.
9. *Le Monde*, 8 septembre 1989.
10. *International Herald Tribune*, 3-4 décembre 1988.
11. *International Herald Tribune*, 20 septembre 1989.
12. *International Herald Tribune*, 18 septembre 1989.
13. S.G. Gorškov, *Morskaja mošč' gosudarstva*, 2^e édition complétée, Moscou, 1979, p. 342.
14. François Heisbourg, « Europe's own NATO pillar », *Times*, 8 juillet 1988.
15. Thierry Wolton, *Le KGB en France*, Paris, 1986, p. 249.
16. *International Herald Tribune*, 24 janvier 1990.

الجزء السابع

الفصل الثاني والعشرون

1. Andrej Černenko, Viktor Širokov, « "16-ja respublika" ». O nacional'nyh otnošenijah i parlamentskikh debatah », *Pravda*, 8 juillet 1989.
2. *Izvestija*, 3 juillet 1989.
3. Extrait du discours du ministre de l'Intérieur V. Bakatin, *Izvestija*, 22 septembre 1989.
4. *Literaturnaja gazeta*, 1^{er} janvier 1987.
5. *Pravda*, 21 septembre 1989.
6. *Literatura i mastactva*, Minsk, 24 octobre 1986.
7. *Izvestija*, 26 octobre 1985.
8. *Pravda*, 20 septembre 1989.
9. Interview d'Andreï Sakharov, *Le Monde*, 30 septembre 1989.
10. V. I. Lenin, *Polnoe sobr. soč.*, t. 40, p. 43.
11. *Pravda*, 20 septembre 1989.
12. Andrej Amal'rik, *Prosuščestvuet li Sovetskij Sojuz do 1984?*, Amsterdam, 1969, p. 62.

الفصل الثالث والعشرون

1. S. Men'sikov, « Ekonomičeskaja struktura socializma : što vpered? », *Novyj mir*, n° 3, 1989, p. 160.
2. *Pravda*, 26 octobre 1985.
3. *Ibid.*
4. *Pravda*, 13 février 1987.
5. *Pravda*, 18 avril 1987.
6. *Pravda*, 22 avril 1989.
7. *Komsomol'skaja pravda*, 27 juillet 1989.
8. *Pravda*, 16 avril 1989.
9. *Pravda*, 18 avril 1989.
10. *Pravda*, 20 septembre 1989.
11. *Ibid.*
12. *Smena veh*, Recueil d'articles, juillet 1921, Prague, p. 57.
13. *Ibid.*, p. 59.
14. *Ibid.*, p. 63.
15. A. Voronskij, *Na styke*, recueil d'articles, Moscou-Petrograd, 1923, pp. 210-211.
16. *Smena veh*, *op. cit.*, p. 59.
17. A. Amal'rik, *op. cit.*, p. 40.
18. A. N. Jakovlev, « Francuzskaja revoljucija i sovremennost' », *Sovetskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
19. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, *op. cit.*, pp. 6-7.
20. Andrej Platonov, « Gorod gradov », *Izbrannye proizvedenija*, t. 1, Moscou, 1978, p. 289.
21. *Pravda*, 20 septembre 1989.
22. *Pravda*, 22 septembre 1989.
23. *Pravda*, 21 septembre 1989.
24. *Sovetskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
25. *Pravda*, 22 septembre 1989.
26. L. Trockij, *Istorija russkoj revoljucii*, Berlin, 1931, t. 2, deuxième partie, pp. 42-43.
27. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *Pravda*, 21 avril 1990.
28. « Ideologija obnovlenija », *Pravda*, 20 avril 1990.

29. *Komsomol'skaja pravda*, 29 avril 1990.
30. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *op. cit.*
31. *Komsomol'skaja pravda*, 27 avril 1990.
32. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *op. cit.*

الفصل الرابع العشرون

1. I. V. Stalin, Discours prononcé à la réception organisée au Kremlin en l'honneur des commandants de l'Armée Rouge, *Pravda*, 25 mai 1945.
2. Intervention au plénum du Comité central le 20 septembre 1989, *Pravda*, 21 septembre 1989.
3. « Vybor celi », interview parue dans les *Izvestija*, 25 août 1989.
4. *Pravda*, 21 septembre 1989.
5. Mihajlo Gorjun', « Za čto boretsja "Ruh" », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
6. Leonid Kravčuk, « Svobodnaja, suverennaja », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
7. V. Šul'gin, *Dni*, Belgrade, 1925, p. 61.
8. *Izvestija*, 1^{er} septembre 1989.
9. Thukydides, *Geschichte des Peloponnesischen Krieges*, Rowohlt, 1962, p. 88.
10. Pour plus de détails, voir : M. Heller, A. Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, *op. cit.*
11. Dont le rédacteur en chef est également Sergueï Zalyguine.
12. *Moskovskie novosti*, 8 octobre 1989.
13. N. Ustrjalov, *Pod znakom revoljucii*, Kharbine, 1927, p. 72.
14. *Izvestija*, 4 mai 1990.
15. Aleksandr Solženitsyn, « Raskajanie i samoograničenie kak kategorii nacional'noj žizni, *Iz-pod glyb*, recueil d'articles, Paris, 1974, pp. 129-130.
16. Aleksandr Solženitsyn, *op. cit.*, p. 143.
17. I. Štalin, *Sočinenija*, tome 3, p. 186.
18. I. Šafarevič, « Dve dorogi k odnomu obryvu », *Novyj mir*, n° 7, 1989, p. 164.
19. Mihail Antonov, « Vyhod est'! Kogda i čem zakončitsja perestrojka », *Naš sovremennik*, n° 9, 1989, p. 147.
20. *Ibid.*, p. 142.
21. Šafarevič, *op. cit.*, p. 164.
22. Cf. *Russkaja mysl'*, 28 avril 1989.
23. Cf. *Voprosy istorii*, n° 2, 1989, p. 186.
24. Vladimir Bondarenko, « Obretenie rodstva », *Slovo*, n° 7, 1989, p. 12.
25. Rencontre des lecteurs avec les membres de la rédaction et les auteurs de la revue *Naš sovremennik*, le 18 décembre 1987, *Russkaja mysl'*, 12 novembre 1988.
26. Bill Keller, « Yearning for an Iron Hand », *The New York Times Magazine*, 28 janvier 1990, p. 48.
27. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages*, *op. cit.*
28. Aleksandr Solženitsyn, « Raskajanie i samoograničenie », *op. cit.*, pp. 147-148.
29. Mihail Antonov, « Vyhod est'! », *op. cit.*, p. 151.
30. *Ibid.*
31. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny », *Slovo*, n° 7, 1989, pp. 1-2.
32. Mihail Antonov, « Vyhod est'! », *op. cit.*, p. 145.
33. J.N. Afanas'ev, intervention à l'assemblée du Groupe interrégional des députés du peuple d'URSS, le 29 juillet 1989, *Russkaja mysl'*, 8 septembre 1989.
34. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny » *op. cit.*, p. 2.
35. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny », *op. cit.*, p. 2.
36. *Russkaja mysl'*, 28 avril 1989.

37. Cité d'après David Schoenbaum, *La Révolution brune. La société allemande sous le III^e Reich*, Paris, 1979, p. 87.
38. Jacob Burckhardt, *The Civilisation of the Renaissance in Italy*, Londres, 1921, p. 129.
39. Erich Fromm, *Fear of Freedom*, Londres, 1966, p. 34.

الجزء الثامن

1. Ark. Arkanov, « "Solomon" i soznanie. Nenaučnaja fantastika », *Literaturnaja gazeta*, 8 août 1987.
2. Claude Simon, *L'Invitation*, Paris, 1987, p. 39.
3. *The Boston Sunday*, 2 août 1987.
4. *Russkaja mysl'*, 20 mars 1987.
5. *Time*, 16 mars 1987.
6. *International Herald Tribune*, 4-5 juin 1988.
7. *Le Monde*, 11-12 décembre 1988.
8. *Pravda*, 10 juin 1989.
9. *Russkaja mysl'*, 6 octobre 1989; *Le Monde*, 30 septembre 1989.
10. *Russkaja mysl'*, 17 novembre 1989.
11. Compte rendu de l'intervention de I.N. Afanasiev lors d'une réunion du Groupe interrégional des députés du peuple d'URSS, le 29 juillet 1989; *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
12. « Nužna "železnaja ruka" ? », *Literaturnaja gazeta*, 16 septembre 1989.
13. *Ibid.*
14. A. Solženicyn, « Na vozvrate dyhanija i soznanija », *Iz-pod glyb, op. cit.*, p. 26.
15. Ju. Baskin, V. Plahov, « Načala Sokrata ili ukaz bjurokrata », *Neva*, n° 5, 1989, p. 167.
16. V. I. Lenin, *Ob avtoritete rukovoditelja*, Moscou, 1963.
17. *Pravda*, 1^{er} juillet, 1988.
18. *Time*, 4 juin 1990.
19. Nikolaj Sul'gin, « Kto on ? », *XX vek i mir*, n° 6, 1989, p. 21.
20. I. Babel', « Moj pervyj gus' », *Izbrannoe*, Moscou, 1966, p. 56.
21. *Frankfurter Allgemeine Zeitung*, 26 septembre 1988.
22. Holart Rowen, « Gorbachev in Trouble, Needs western Help quickly », cité d'après : *International Herald Tribune*, 28-29 novembre 1989.
23. *Le Quotidien de Paris*, 22 novembre 1989.
24. *Le Monde*, 1^{er} juin 1990.
25. Vitalij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *Moskovskie novosti*, 26 novembre 1989.
26. *Pravda*, 3 novembre 1987.
27. *Pravda*, 24 avril 1985.
28. Solomon Lozovski, *Le Grand Stratège de la lutte des classes*, Moscou, 1924, p. 18.
29. I. V. Stalin, *Sočinenija*, t. 13, p. 115.
30. Vasilij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *op. cit.*
31. *Pravda*, 9 avril 1986.

الفصل الخامس والعشرون

1. Boris Eltsine, *op. cit.*, p. 176.

الفصل السادس والعشرون

1. Cette interview du chancelier Kohl est parue dans le magazine américain *Newsweek*, le 6 novembre 1986; cité d'après *Le Monde*, 8 novembre 1986.

2. A. M. Rosenthal, « Gorbachev didn't start this Revolt », *International Herald Tribune*, 22 novembre 1989.
3. Nikolaj Šul'gin, « Kto on? », *op. cit.*, p. 21.
4. Vitalij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *op. cit.*, p. 9.
5. *Komsomol'skaja pravda*, 23 novembre 1989.
6. Claude Simon, *L'Invitation*, *op. cit.*, p. 65.
7. *International Herald Tribune*, 4 décembre 1989.
8. Boris Eltsine, *op. cit.*, pp. 128-129.
9. *Pravda*, 20 août 1989.
10. Nora Buhks, *Le Journalisme de la perestroïka...*, *op. cit.*, p. 42.
11. *Pravda*, 12 juillet 1985.
12. *Pravda*, 28 juillet 1986.
13. *Pravda*, 9 avril 1985.
14. *Pravda*, 19 octobre 1986.
15. *Pravda*, 1^{er} octobre 1987.
16. *Pravda*, 19 octobre 1986.
17. *Večernjaja Moskva*, 18 novembre 1987.
18. *Pravda*, 3 octobre 1987.
19. *Pravda*, 7 mars 1988.
20. *Sovetskaja Rossiya*, 13 septembre 1988.
21. M. Gorbačev, « Socialističeskaja ideja i revoljucionnaja perestrojka », *Pravda*, 26 novembre 1989.
22. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1983. La phrase est restée inchangée dans l'édition de 1987.
23. Pour plus de détails sur ce point, voir le chapitre consacré à « La Langue », in Michel Heller, *La Machine et les rouages*, *op. cit.*
24. *Pravda*, 26 novembre 1989.
25. *Ibid.*
26. M.S. Gorbačev, « Otvety na voprosy gazety Jumanite », 4 février 1986, *Izbrannye reči i stat'i*, t. 3, p. 157.
27. *Pravda*, 13 décembre 1989.

خلاصة

1. Witold Charlamp, « Dziennik zewnetrzny », *Kultura*, n° 12, 1989, p. 84.
2. *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
3. *Pravda*, 14 décembre 1989.
4. *International Herald Tribune*, 4 décembre 1989.
5. *Russkaja mysl'*, 22 décembre 1989.
6. *Ibid.*
7. Vasilij Seljunin, « Černye dyry ekonomiki », *Novyj mir*, n° 10, 1989.
8. Isaac Asimov, *Prelude to Foundation*, Bantam Books, 1989, p. 87.
9. *Le Monde*, 12 décembre 1989.
10. *International Herald Tribune*, 14 décembre 1989.
11. *Argumenty i Fakty*, n° 40, 7-13 octobre 1989.
12. *Kommersant*, n° 16, avril 1990.
13. Jurii Vladimirovich Got'e, *Time of Trouble*, Londres, 1988, p. 95.
14. *Pravda*, 21 avril 1990.
15. Boris Pil'njak, « Mat'-Mačeha », *Sobr. soč.*, t. IV, Moscou-Leningrad, 1929, p. 219.

الفهرس

٥	تمهيد:
٧	الجزء الأول - رسول القدر
٩	الفصل الأول: الموتى الثلاثة
١٣	الفصل الثاني: لماذا هو؟
٢١	الفصل الثالث: نشأة البطل: الطفولة والشباب
٣٥	الفصل الرابع: توقف في ستافروبول
٤٩	الفصل الخامس: عودة إلى موسكو
٦٣	الجزء الثاني - الأزمة
٦٩	الفصل السادس: ماذا نفعل بالاقتصاد
٧٩	الجزء الثالث - وضع ثوري
٨٥	الفصل السابع: «القمة لم تعد تستطيع»
١٠٣	الفصل الثامن: «القاعدة لم تعد تريد»
١٢٩	الجزء الرابع - ما العمل؟
١٣٥	الفصل التاسع: «غلاسنوست»
١٦٩	الفصل العاشر: قفزة فوق الهاوية: «الزهد معيار حياتنا»
١٧٥	الفصل الحادي عشر: الحركة الستاخونوفية
١٧٩	الفصل الثاني عشر: «هذه «إرواد» - تفضل إقفز!؟»
١٩٥	الفصل الثالث عشر: حاجز الملكية الخاصة
٢٠٩	الفصل الرابع عشر: الجدار الزراعي
٢٢٧	الفصل الخامس عشر: المافيا: الأسد قد وثب

٢٤٧	الجزء الخامس - بيضة كريستوف كولبوس حول الإصلاح السياسي :
٢٦٣	الفصل السادس عشر: الكوادر
٢٨٥	الجزء السادس - إلى الأوج
٢٨٧	الفصل السابع عشر: مستشارية شخصية
٢٩١	الفصل الثامن عشر: «منتج الأفكار»
٣٠١	الفصل التاسع عشر: يمين - يسار
٣١٩	الفصل العشرون: السيف والترس
٣٣٣	الفصل الواحد والعشرون: الجيش و «البريسترويكا»
٣٤٣	الجزء السابع - أفول الأمبراطورية
٣٤٥	الفصل الثاني والعشرون: شقوق في الجدران
٣٥٣	الفصل الثالث والعشرون: شقوق في الأسس
٣٦٥	الفصل الرابع والعشرون: المسألة الروسية
٣٨٥	الجزء الثامن - خطوط لرسم وجه القائد
٤٠٧	الفصل الخامس والعشرون: رئيس الإتحاد السوفياتي
٤١١	الفصل السادس والعشرون: كلمات، كلمات، كلمات
٤٢١	الخلاصة
٤٢٩	حواشي
٤٥١	الفهرس



«السكرتير السابع والأخير» كتابٌ حدث ولا شك.
فالصعود الذي لا يقاوم لغورباتشيف، والأيام التي تعدّت
الآلاف من حياة البريسترويكا، لم يتم وصفها ولا تحليلها من
قبل بمثل هذه الدقة بالتفاصيل، وبمثل هذه المعرفة المعمقة
بالعالم الذي كان سوفياتياً.

فهذا الكتاب رواية مذهلة للصراع الدموي في سبيل
السلطة، صراع محفور وموشوم داخل الخلية الوراثة للنظام.
فمن خلال تسلسل الفصول ندخل إلى قلب الحزب والمخابرات
والجيش والمافيا، ونرى كيف يعمل الممثلون الكبار.

لقد كتب ميشيل هيلر منذ عام ١٩٨٤: «إن التاريخ لا
يفتقد إلى أمثلة عن الأمبراطوريات الهائلة القوة والتي
أصبحت أثراً بعد عين، بالرغم من أنها كانت حتى الأمس تبدو
وكأنها خالدة. فدائماً هناك أسباب مختلفة داخلية وخارجية
تنبؤنا بسقوط هذه الدول "الخالدة"».

إن المواجهة التي خاضها غورباتشيف مع البنية
البيروقراطية التي منعت من إرساء سلطته المطلقة، قادت
السكرتير السابع أكثر فأكثر نحو المضي في إصلاحات قوّضت
أسس النظام الشيوعي، بالرغم من أن هدفه لم يكن أبعد من
أن يجعل هذا النظام أكثر فعالية، أكثر مرونة، وقادراً على
التأقلم مع متطلبات القرن الواحد والعشرين.

ومع بداية عام ١٩٩٢، حيث زال الاتحاد السوفياتي مبدئياً
من الوجود، يقدم لنا هذا الكتاب كل المفاتيح ويفتح أمامنا كل
الأبواب، لرؤية الأسباب العميقة لهذا الزلزال المؤهل لإعادة
تشكيل مستقبل الكرة الأرضية.

**ميشيل هيلر، مؤرخ ومؤلف لكتابين مشهورين ترجمنا
إلى لغات عدة هما:**

-اليوتوبيا في السلطة

-الالة والدواليب